

عبد الرحمن شكيري

المؤلفات النثرية الكاملة



المجلد الأول

تحرير وتقديم

د. أحمد إبراهيم الهواري

المجلس الأعلى للثقافة

عبد الرحمن شكرى

المؤلفات النثرية الكاملة

المجلد الأول

تحرير وتقديم

د. أحمد إبراهيم الهوى

مقدمة

عبد الرحمن شكرى جدل الإبداع والحضارة

تشير هذه النصوص من المؤلفات النثرية الكاملة للشاعر الناقد «عبد الرحمن شكرى» (١٩٥٨-١٩٨٦) تساؤلات عن المداخل المنهجية الملائمة أو الأصول الفلسفية المنهجية التى يمكن أن تفسر فى سياقها ؛ سواء من منظور «تاريخ الأدب» أو «النقد» بحيث يفتدى منها مؤرخ الأدب ؛ ومؤرخ النقد .

إن المتأمل فى «نظرات فى النفس والحياة» يلمس ريادة «عبد الرحمن شكرى» فى الكشف عن أسرار النفس البشرية . ولاتعدو الصواب حين ننظر فى تلك الشخصيات من أعلام الفكر الإنسانى بوصفها أقنعة أو «مرايا» تكشف عن مواقف الفكرية والسياسية والاجتماعية . وقد اندمجت فى آراء تلك الشخصيات التى غاص فى عقلها ووجدانها .

ومن قضايا «تاريخ الفكر» تسطع آراء «عبد الرحمن شكرى» فى الجديد والقديم وهذه لابد، لكى نتعرف على قيمة آرائه ، من تحقيق الوقائع الخارجية المتصلة بالنصوص التى نصدت أو أدلت بدلولها فى هذه القضية ، وملابساتها الزمانية والمكانية ، وعلاقاتها بعضها ببعض . وهنا تأتى أهمية أن يتسلح القارئ بسوسيولوجيا المعرفة، أو علم اجتماع المعرفة .

وعندما يضع القارئ الفاحص هذه النصوص من المؤلفات النثرية الكاملة للشاعر الناقد «عبد الرحمن شكرى» فى سياقها من تاريخ الأدب ؛ فإنها تشير تساؤلات حول نوع المعرفة التى تطرحها ، وقيمة هذه المعرفة ؛ كما تشير تساؤلات حول الخطوات الإجرائية أو الأدوات التى يتبعها الباحث أو المؤرخ الأدبى للإفادة من تلك النصوص ؛ والتراكم المعرفى هنا رافد يلامس فكرة رئيسة فى تاريخ الأدب، أعنى فكرة التواصل أو الاستمرار الثقافى .

على أن هذا الجهد البليوجرافى والتوثيقى مظهر من مظاهر «الوعى» بما نملك من تراث تمهيداً لدراسته وتقويمه. وهنا تبرز أهمية التأكيد على «عقلية التدوين» على أن نفهم «عقلية التدوين» ليس على أنها اجترار عقيم كالطاحونة التى نغدها بنفس الدقيق، بل نكون على وعى أن هذه العقلية «عقلية التدوين» وصاحبة لكل صحة فكرية أو قومية . فينبغى أن نفهم أن حاجتنا إلى «عقلية التدوين» أنها إحياء للذاكرة الحضارية للأمة، كما أنها تسهم فى إعادة النظر فى «تاريخ الأدب والنقد» .

ولا تثقف هذه النظرة عند حدود أو تخوم «نقل» هذا التراث ، بل إن استراتيجيتها ترتكز على «نقد» هذا التراث ؛ ووضعه فى سياقه التاريخى، بوصفه مرحلة من مراحل التطور ، كل مرحلة تسلم للمرحلة التالية. وهنا نشير إلى أن مثل هذه المشروعات الثقافية؛ أعنى التوفر على جمع وإعداد الأعمال الكاملة لرموز الفكر والإبداع، من المشروعات القومية التى تتجاوز قدرة الفرد ؛ بل هى بحاجة إلى روح الفريق للتعرف على الوجه الحضارى الموروث ؛ من خلال . «الأثر» . إنها - فى ايجاز- إسهام فى صناعة الوعي وانعاش للذاكرة الحضارية للإنسان المصرى والعربى .

ولارىب أن قيام حركة علمية تؤرخ للأدب والنقد؛ لابد لها من مهاد يقوم على استقراء علمى دقيق يحدد أبعاد هذا الكم من العطاء الأدبى والنقدى تمهيداً للتعرف على قيمته النوعية . فالنقد - فى جوهره- على حد تعبير «يحيى حقى» (تسجيل وتبويب ، وتقويم وتبصير يلاحق ويسبق الأعمال الفنية التى تحاول الأمة أن تعبر بها عن نفسها) «المساء : ٨ مارس ١٩٦٠» .

ومعلوم أن أى حركة أدبية عظيمة لابد أن تسند لها حركة فلسفية عظيمة . وعندما نضع أمام القارئ المتلقى هذه النصوص من المؤلفات الثرية الكاملة لـ «عبد الرحمن شكرى» فإن هذه النصوص الإبداعية والنقدية والفكرية تشير قضية مقارنة تلك النصوص ، والأصول المنهجية لتلك المقاربة؟ وما دمنا قد أثرنا قضية المنهج . فنحن إذن نكون على مشارف «العلم» أو السياق الثقافى للعلم. وإذا كان العلم هو إحدى صور النشاط الإنسانى بوصفه جهداً يبذله الإنسان متميزاً عن غيره من الكائنات ، فإنه أيضاً نشاط يشترك مع سائر أنواع النشاط فى نطاق الثقافة السائدة وفى حدود المجتمع . فالثقافة السائدة هى الرحم الذى يتصل فيه العلم بأسباب الحياة. كما أن النظم الثقافية الأخرى هى الروافد الرئيسة ، أو بالأحرى هى المنابع الأصلية التى بها إما أن يتفجر نهر العلم أو تجف مياهه . ومن سمات العلم التراكم La Cumulation كما يقول «كورجانوف» Kourganoff فلا يتيسر اكتشاف علمى إلا بكشف أخرى من أجيال سابقة ، وفى مجالات أخرى، فاكشاف «مدام كورى» لم يكن ممكناً إلا بعد اكتشاف بكرل Becquerel للنشاط الإشعاعى لليورانيوم : فلكل كشف بمفرده شجرة أنساب . ولا مكان فى العلم للتولد التلقائى . بل إن العلم ، كما يقول سارتون Sarton هو النمو الوحيد فى الخبرة الإنسانية .

بيد أن العلم ليس تراكمًا فحسب ، لأنه لو اقتصر على ذلك لتحول تراكمه إلى تصور ذاتي لا يؤدي إلى مزيد من التقدم . وقد كان ذلك القصور الذاتي التراكمي هو علة عجز علوم العصور الوسطى ووقوفها عند اجترار علوم القدماء . فالسمة الثانية إذن هي ثورية العلم ... ويتجمع من جانبي العلم التراكمي والثوري سمة أساسية للعلم، هي طابعه التقدمي ، فهو يسير بخطى متلاحقة إلى الأمام ، فتتراكم معارفه حتى تصل إلى الدرجة التي تشرع وقائع جديدة في إعادة النظر في المعارف القديمة . وهكذا يرتفع معمار العلم طابقًا فوق طابق ، ويظل الأمل معقودًا في سواصلة تقدمه طالما لا تتجمد وقائعه عند مرحلة ثابتة لاتعدوها . وهو أيضا جهد جمعي يقوم على التعاون. ولا يمكن لرجل علم بمفرده أن يتولى جميع الخطوات والإجراءات . ولا بد أن تتكافل جهود العلماء في نطاق فريق . وهذا هو ما عبر عنه « نيوتن » في قوله بأنه لم يستطع أن يرى أبعد من الآخرين إلا لأنه استطاع أن يصعد على اكتاف سابقيه » كما لم تعد نتائج فروع العلم المختلفة منعزلة بعضها عن بعض ، بل أصبح كل علم معتمداً على الآخر، يلتقط منه مشكلاته أو يعثر على حلها .

(د. صلاح قنصوه : فلسفة العلم، الطبعة الثانية ١٩٨٣ ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ص ٥٦-٥٨) .

مصادر المداخلات بين القديم والجديد

قبل أن نتعرف على المداخلات بين «عبد الرحمن شكري» و«محمد أحمد الغمراوي» حول قضية القديم والجديد ؛ لابد أن نشير إلى أبعاد القضية التي بدأت حول «الرافعي والعقاد» وقد فجر القضية . سيد قطب» بوصفه من أنصار العقاد - يمثل الجديد - في مواجهة «محمد سعيد العريان» تلميذ الرافعي ومريده - يمثل القديم - وهذا الحكم ليس على إطلاقه . وقد أشار «عبد الرحمن شكري نفسه، بنفاذ بصيرة إلى ملكة الرافعي الإبداعية وطاقته الخلاقة ، بما يجعل النص لدى الرافعي أقرب رحما إلى التجديد منه إلى المحافظة : «انظر مثلاً إلى ايجاز الرافعي في كتاب حديث القمر) والكتب الأخرى التي كتبها ، وكأنه لم يكتبها إلا لكي يثبت أنه يستطيع أن يزيد على معاني وصور أدباء أوروبا والمذهب الجديد، وأنه أغنى منهم بمعانيه ؛ كما أنه أغنى منهم بأساليبه الفصيحة العربية ، ولكن فصاحة لغته العربية لم تخف الحقيقة الفنية ، وهي أن الرافعي صاحب (حديث القمر) و (السحاب الأحمر) أقرب إلى أدباء الرمزية الأوروبيين منه إلى الرافعي صاحب كتاب (إعجاز القرآن) . وأعنى القرب في

أسلوب التخيل وأسلوب عرض الصور الفكرية وكل صورة مستقلة غير متدخلة في أختها . فإذا أراد إذا ناقد أن ينتقد المذهب الجديد أو الأدب الأوربي كانت الطريقة المثلى أن ينتقد ما يعيبه فيه على طريقة النقاد الفنيين فبين الغث من الثمين ويوضح أسباب حكمه على كل قول وكل أديب. أما أن يقول إن الأدب الأوربي كأدب المذهب الجديد فاسد المعنى والخيال ينبو عنه الذوق العربى وقبحه الفصاحة العربية ، وإنه مباءة المجون والإباحية والزندقة ، فقول من لا يريد أن ينتقد ولا أن تقدر قيمة ما يقول قدرًا صحيحًا ، ولا أعنى الأستاذ الغمراوى فإن هذه أحكام شائعة (الرسالة : ٢٢ / ٨ / ١٩٣٨) .

وقراءة المداخلات كاملة، تكشف عن البنية المنطقية التى تحكم نسج المقالات المذكورة؛ بما تكشف عن سعة أفق صاحبها ، وعمق ثقافته وشمولها . والمقتبس يشير إلى جانب مما أشرت. ولعل من المناسب أن أشير إلى مكان القضية التى أثارها «سيد قطب» لكى تكون بين يدى الباحثين فى سوسيولوجيا الأدب وسوسيولوجيا المعرفة . ولنتعرف على أبعاد قضية القديم والجديد .

- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٢٥ أبريل ١٩٣٨ ، ص ص ٦٩٢-٦٩٤ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٢ مايو ١٩٣٨ ، ص ص ٧٣٢-٧٣٣ .
- مصطفى صادق الرافعى : الرسالة ٩ مايو ١٩٣٨ ، ص ص ٧٦١-٧٦٢ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٩ مايو ١٩٣٨ ، ص ص ٧٨١-٧٨٣ .
- مصطفى صادق والرافعى : الرسالة : ١٦ مايو ١٩٣٨ ، ص ص ٨٠١-٨٠٢ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ١٦ مايو ١٩٣٨ ، ص ص ٨١٣-٨١٥ .
- بين الرافعى والعقاد : الرسالة : ١٦ مايو ١٩٣٨ ، ص ص ٨٠٨-٨١١ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ١٦ مايو ١٩٣٨ ، ص ٨٣٨ .
- بين الرافعى والعقاد : الرسالة : ١٦ مايو ١٩٣٨ ص ص ٨٥١-٨٥٤ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ١٦ مايو ١٩٣٨ ص ص ٨٥٤-٨٥٧ .
- نزاهة النقد : الرسالة : ١٦ مايو ١٩٣٨ : ص ص ٨٥٨-٨٥٩ .
- بين الرافعى والعقاد : الرسالة : ٣٠ مايو ١٩٣٨ ، ص ص ٩٠٢-٩٠٣ .

- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٣٠ مايو ١٩٣٨ ، ص ص ٩٠٣-٩٠٧ .
 - بين الرافعى والعقاد : الرسالة : ٦ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ٩٣٣-٩٣٥ .
 - بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٦ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ٩٣٦-٩٣٨ .
 - كلمة على الهامش : الرسالة ، ٦ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ٩٣٩-٩٤٠ .
 - بين الرافعى والعقاد : الرسالة : ٦ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ٩٥٥-٩٥٦ .
 - بين العقاد والرافعى : الرسالة : ١٣ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ٩٧٨-٩٨٠ .
 - أهذا نقد. أهذا كلام : الرسالة : ١٣ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ٩٨١-٩٨٢ .
 - تأملات فى الأدب والحياة : الرسالة : ١٣ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ٩٦١-٩٦٧ .
 - تأملات فى الأدب والحياة : الرسالة : ١٣ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ١٠٠٣-١٠٠٦ .
 - بين الرافعى والعقاد : الرسالة : ٢٠ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ١٠١٨-١٠٢١ .
 - بين الرافعى والعقاد : الرسالة : ٢٠ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ١٠٢٢-١٠٢٣ .
- (تعقيب)

- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ١٠٥٧-١٠٥٩ .
- كلمة ثالثة على الهامش : الرسالة : ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ١٠٦٠-١٠٦١ .
- كلمة على الهامش أيضا : الرسالة : ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ، ص ص ١٠٦٢-١٠٦٣ .
- الكلمة الأخيرة إلى الأستاذ سيد قطب : الرسالة : ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ص ١٠٧٧ .
- إلى الأستاذ سيد قطب : الرسالة : ٢٧ يونيو ١٩٣٨ ، ص ١٠٧٨ .
- بين مذهبين : الرسالة : ٤ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص ١٠٩٥-١٠٩٨ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٤ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص ١٠٩٨-١١٠٢ .
- على هامش المعركة : الرسالة : ٤ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص ١١٠٥-١١٠٦ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ١١ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص ١١٣٩-١١٤٢ .

مناقشات وشروح

- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ١٨ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص ١١٧٩ - ١١٨٣ .

- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٢٥ يوليو ١٩٣٨ ، ص ص ١٢٢٤-١٢٢٧ . .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : أول أغسطس ١٩٣٨ ، ص ص ١٢٦٣-١٢٦٦ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٨ أغسطس ١٩٣٨ ، ص ص ١٢٩٤-١٢٩٧ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٢٢ أغسطس ١٩٣٨ ، ص ص ١٣٨٠-١٣٨٣ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٢٩ أغسطس ١٩٣٨ ص ص ١٤٢٥-١٤٢٩ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ١٢ سبتمبر ١٩٣٨ ص ص ١٥٠٦-١٥٠٩ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ١٩ سبتمبر ١٩٣٨ ، ص ص ١٥٤١-١٥٤٣ .
(غزل العقاد)
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ٣ أكتوبر ١٩٣٨ ، ص ص ١٦١٥-١٦١٧ .
(غزل العقاد)
- غزل العقاد : الرسالة : ١٧ أكتوبر ١٩٣٨ ، ص ص ١٧٠٣-١٧٠٥ .
- أسلوب العقاد : الرسالة : ٣١ أكتوبر ١٩٣٨ ص ص ١٧٧٧-١٧٨٠ .
- بين العقاد والرافعى : الرسالة : ١٤ نوفمبر ١٩٣٨ ، ص ص ١٨٦٤-١٨٦٦

ببنى وبين الرافعيين

وقد اشترك فى هذه الحوارات : اسماعيل مظهر ، سعيد العريان ، سيد قطب ، عبد الجليل المحجوب ، على الطنطاوى ، محمد أحمد الغمراوى، محمد رفيق اللبابيدى ، محمود شاكر ومن العسير أن نتعرف على أبعاد هذه الآراء إلا من خلال التعرف على الأصول الاجتماعية

لهذه الآراء ولأصحابها . ولعل هذا يسوغ لنا أن نقف أمام أبعاد موضوع سوسيولوجيا المعرفة ليكون مهاداً نضع تلك القضايا في سياقها .

واللافت للنظر أن محمد أحمد الغمراوي أطلق على عنوان المقالات : القديم والجديد ولاريب أن تقديم القديم على الجديد . يعكس الموقف الفكري للكاتب ، والعكس صحيح بالنسبة لـ «عبد الرحمن شكرى» فقد قدّم «الجديد» على «القديم» بما يشى بالمسكوت عنه ؛ أو المضمون به على غير أهله . وقد قمت بنشر نصوص مقالات محمد أحمد الغمراوي كاملة ثم أردفتها بمداخلات عبد الرحمن شكرى وحواراته مع محمد أحمد الغمراوي .

جدل الجديد والقديم فى ضوء سوسيولوجيا المعرفة

كتب عبد الرحمن شكرى تحت عنوانه «الدين والأخلاق بين الجديد والقديم» (الرسالة : ٢٢ / ٩ / ١٩٣٨ ، ١٩٣٨ / ٩ / ١٢ ، ١٩٣٨ / ٩ / ٥ ، ١٩٣٨ / ٨ / ٢٩ ، ١٩٣٨ / ٨ / ١٩ ، ١٩٣٨ / ٨ / ٢٦ ، ١٩٣٨ / ٩ / ٢٠ ، ١٩٣٩ / ٢ / ٢٧ ، ١٩٣٩ / ٢ / ٢٠ ، ١٩٣٩ / ٣ / ٦ ، ١٩٣٩ / ٣ / ٦) وهذه المقالات أو المداخلات جاءت ثمرة حوار فكري بين عبد الرحمن شكرى ومحمد أحمد الغمراوي (أستاذ الكيمياء بكلية الطب) وكانت فى جوهرها تدور حول المذهب الجديد والمذهب القديم .

وهذه الحوارات بين عبد الرحمن شكرى والغمراوي تدخل فى إطار الأصول الاجتماعية لمكونات أبنية العقل العربى : الثقافية والحضارية . وهذه الحوارات دارت بين المحافظين والمجددين حول مفاهيم الثقافة والأدب، وكان من أبرز أعلامها فى جناح المحافظين أحمد زكى باشا، ومحمد فريدى وجدى، ومصطفى صادق الرافعى، ومحمد أحمد الغمراوي، وشكيب أرسلان ورشيد رضا، وفى جناح المجددين : العقاد ، المازنى، وزكى مبارك ، محمد حسين هيكل ، طه حسين ، وسلامة موسى ، اسماعيل أدهم .

وقد بدأت هذه المعارك منذ وقت مبكر منذ عام ١٩١٤ ، برسالة منصور فهمى التى قدمها لنيل درجة الدكتوراه فى باريس عن «حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطوراتها» وكانت فاتحة اتجاه أطلق عليه من بعده تيار التغريب «سار فيه كثيرون : من بينهم طه حسين ومحمود عزمى، وسلامة موسى، وعلى عبد الرازق، واسماعيل أدهم، وعبد العزيز فهمى، ولطفى السيد ومحمد حسين هيكل..

وقد دارت هذه الحوارات أو المعارك حول مفاهيم الثقافة والفكر والحضارة والأدب بين أنصار الجديد والقديم ، على نحو ما تجلت فى الدعوة إلى العامية والفرعونية أو الفينيقية ، وقضية الشعر الجاهلى ، والجامعة الإسلامية ، ثم إزكاء النزعات القومية (أنور الجندى المعمارك الأدبية فى مصر، الانجلو المصرية) .

وهنا أود أن أشير إلى أن تناول موضوع أو قضية من القضايا الفكرية ، يعكس بالضرورة، موقف الباحث فى تلك القضية ، ورؤيته لها، ومدى انعكاس هذه الرؤية ، وارتباطها بملابسات عصره .

والتعرف على موقف «عبد الرحمن شكرى» من قضية «الجديد والقديم» يتطلب أن ننظر إلى القضية فى دائرة أوسع ، بحيث إننا نتعرف على أبعادها من خلال «مسافة» تساعد على المعرفة الموضوعية (ولتذكر أن المسافة من شروط المعرفة) .

وتثير قضية الجديد والقديم، والشرق والغرب مفهوم روح الشعب الثقافية Ethos , Cu- lutral وهو عبارة عن الأفكار ، والقيم ، والمثل السائدة فى ثقافته أو ثقافة فرعية معينة ، بحيث تعطى لها طابعاً مميزاً . والطابع الثقافى المميز Ehtnos عبارة عن السمات والمركبات التى تميز ثقافة معينة ، وتجعلها مختلفة عن الثقافات الأخرى (قاموس علم الاجتماع : تحرير ومراجعة محمد عاطف غيث ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٩ كما تثير مفهوم التراكم الثقافى Cultural accumulation وهو عبارة عن تدعيم ثقافة معينة عن طريق إضافة عناصر جديدة للقاعدة الثقافية الموجودة ، والتراكم هو ما تضيفه الأجيال أثناء نمو الثقافة إلى ما هو قائم من عناصر مثل الأدوات والمهارات ، والتصورات ، والأفكار (بما فى ذلك الأفكار المتعلقة بتنظيم المجتمع) . وقد يشير المصطلح إلى عملية نمو الثقافة التى تضاف فيها عناصر أو سمات ثقافية جديدة ، سواء عن طريق الاختراع أو الاكتشاف أو الاستعارة إلى ثقافة جديدة ، سواء عن طريق الاختراع أو الاكتشاف أو الاستعارة إلى الثقافة القائمة ، الأمر الذى يؤدي إلى زيادة المجموع الكلى للسمات أو العناصر الثقافية . وقد استخدم علماء الانثروبولوجيا هذا المصطلح لوصف الطبيعة المميزة للثقافة ، فليزلى هايت L . A . white يقول : «إن الثقافة تتضمن الرمزية ، والاستمرار والتراكم وعمليات التقدم» المرجع نفسه

ولايكمن أن نفهم حقيقة أبعاد قضية الجديد والقديم بمعزل عن المناخ الفكرى ومقاربات المفكرين حول قضية «الشرق والغرب» ومن المسلم به أن الموقف الفكرى ، أو النص الأدبى ، عطاء فنى أو فكرى لبيئة معينة. وكما يعلمنا علم اجتماع المعرفة Sociology of

knowledge ولا تصدر أى أفكار أو مذاهب أو نظريات جديدة عن فراغ . ولا يمكن فهم هذه الأفكار والنظريات فهما صحيحاً إلا بمعرفة المناخ الفكرى والسياسى الذى ساد قبل ظهورها فى مجتمع بعينه ، كما لا يمكن تفسير الأفكار والنظريات الجديدة بمعزل عن الخلفية الاجتماعية والثقافية لأصحابها ، والمصالح التى يمثلونها عن وعى أو غير وعى .

المبدع بين جدل الحاضر والماضى

من الأقوال المأثورة عن شيخ الأمناء أمين الخولى « : أول التجديد قتل القديم بحثاً . وهذه المقولة تستدعى مفهوم « عبد الرحمن شكرى » عن التجديد وموقفه من القديم . فهو يرى أن البحث فى الهوية الحضارية يزدهر عند بدء نهضات الأمم « ... لأن كل خلق فى حياة الناس ، يأتى قبله نقد ويحث ، يهدم ويفسح له مكاناً للبناء . والنهضات من مظاهر البناء ، وكل نهضة أولها هدم وآخرها بناء (حديث إبليس : ٢) .

ويتجلى الحس التاريخى بنظرية الدورات الحضارية عند «عبد الرحمن شكرى» فى تأكيده « أن بعض الأمم مثل بعض الأفراد والآراء والمنازع الجديدة ، قد تغير حياة الأمة كل التغيير حتى تصبح كأنها أمة أخرى . ولكن خير الأمة أن تحيا حياة ثانية ، وأن تتغير أحوالها من أن تنعدم وتفتنى .

وإذا نظرت إلى التاريخ ، وجدت أن تلك الأمم التى فسدت أنظمتها القديمة ومرت عليها عصور مظلمة بالتعاسة والذل والضعة ، يأتى عليها عصر تكون فيه بين عوامل التجدد والحياة ، فلاتخش من التغير وعوامل المحافظة على القديم ، فتجن عن الجديد وتحجم عن تجدد حياتها باقتباس المنازع والرغائب والآراء الجديدة ، فإما أن تحيا حياة ثانية باقتباس المنازع والرغائب والآراء الجديدة ، فإما أن تحيا حياة ثانية وإما أن تنعدم وتفتنى فى شخصية غيرها من الأمم (الثمرات : ٧٥ ، ٧٦)

ومن الأهمية أن نشير إلى النظرة التاريخية التى يتبغى أن يتحلى بها المتلقى من خلال نظرتة لقضية «القديم والجديد» ، و«الشرق والغرب» . والمقصود بالنظرة التاريخية إلى الماضى أو التراث عامة تلك النظرة التى تضعه فى سياقه الفعلى ، وتتأمله من منظور نسبى ، بوصفه مرحلة انتهى عهدها ، وتلاشت فى مراحل تجاوزتها بالتدرج حتى أوصلتنا إلى الحاضر . وفى مثل هذه النظرة التاريخية لا يكون الماضى قوة منافسة للحاضر . ولا تثار على الإطلاق مشكلة التوفيق بين الماضى والحاضر ، لأن الحاضر بطبيعته يحمل فى داخله بذور الماضى ، ولأن الماضى خلق الحاضر عن طريق تجاوزه المتدرج لذاته « (فؤاد زكريا: التخلف

الفكرى وأبعاده الحضارية، بحث قدم فى ندوة أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى أبريل ١٩٧٤ . الطبعة الأولى ، الكويت ، ١٩٧٧ ، ١٦٨)

وإذا كان الواقع لا يتكلم إلا من خلال المبدع الذى يسهم فى صياغة هذا الواقع ويشكله ويتجاوزه ، فإن هناك بُعداً ثالثاً يكمل الدائرة الزمنية للإبداع هو البعد الماضى . والواقع أن كل لحظة حاضرة ما تلبث أن تصبح ماضياً . والفنان المبدع يدرك هذه الحقيقة من خلال موقفه من نفسه ومن إبداعه . ومن هنا يصبح الماضى مستمراً ومتصلاً باللحظة الحاضرة .

على أن فكرة الاستمرارية هذه - على الأقل من منظور الفنان المبدع- لا تمثل فى الواقع إلا تصوراً نظرياً للماضى ؛ أما على مستوى التجربة الإبداعية فالأمر يختلف ، حيث تنصهر كل الوقائع السابقة وتصفى وتقطر لكى تصبح- من منظور التجربة الراهنة - خلاصة للماضى ، الذى يصب فى الحاضر . وهكذا تفقد وقائع الماضى فى وقت واحد تسلسلها وتعددتها ، وتندغم فى كل موحد . ومرة أخرى يجد الفنان المبدع نفسه منخرطاً بالضرورة فى هذا الكل الموحد ، ولكنه بحكم إبداعيته - يمارس تجربته الآنية المتفردة التى تصوغ فى الوقت نفسه ذلك الكل (الماضى) صياغة جديدة ، ما تلبث أن تصبح هى نفسها جزءاً من هذا الكل .

يقول ميخائيل متياس : إن الماضى جُماع أحداث ، ولكن التجربة الآنية واقعة متعينة ومفردة . والوقائع الماضية الكثيرة تصبح واقعة واحدة ، تزداد بإضافة واحدة إليها هى الواقعة الجديدة التى هى تركيب طارئ . emerged Sythesis للوقائع السابقة » عز الدين اسماعيل فصول، قضايا الإبداع ، الجزء الأول، المجلد العاشر ، العددان، الأول والثانى، يوليو ١٩٩١ (أغسطس ١٩٩١) ، ص ١٣٨ . .

إن هذه الحقيقة تكشف لنا بوضوح عما تنطوى عليه عملية الإبداع من جدل بين الحاضر والماضى ، بين التجربة الآنية والتراث . ولأن كل تجربة آنية ما تلبث أن تصبح تراثاً فإن هذه الحقيقة الأخرى تلفتنا إلى جدل جديد ولكنه جدل متصل بالجدل الأول ومرتب عليه ، هو جدل المبدع مع نفسه ومع إبداعه ، فكل عمل إبداعى له ما يلبث أن يصبح تجربة ماضية ، أى أنه يدخل فى دائرة التراث الكل؛ وهو لذلك لا يمكن أن يكرر التجربة نفسها ، التى فرغ منها، إلا إذا كانت طاقته الإبداعية قد نضبت ، ولكنه - فى حالة نشاطه الإبداعى المتصل- يجد نفسه مطالباً بأن يتعامل مع إبداعه السابق كما يتعامل مع التراث الذى يستوعبه فى ضميره كلاً موحداً سواء بسواء (عز الدين اسماعيل المرجع نفسه) .

إن هذا الجدل بين الحاضر والماضى يندغم فى عطاء «عبد الرحمن شكرى» بوصفه مبدعاً

وناقداً فى آن . ومن هذا المنظور نعرف على خصوصية التجربة الإبداعية وتفردھا فى التراث الإبداعى لشكرى : شاعراً أو ناثراً ، ومن جانب آخر، يتألق هذا التواصل والماضى فى البنية الفكرية والنقدية التى يركز عليها شكرى فى رؤيته النقدية ، على نحو ما تتبدى تجلياتها فى دراسته لشعراء العصر العباسى فى ضوء القرائن الحضارية «... ثم إنك لاتكون صادق الحكم فى آداب اللغة العربية مثلاً إلا إذا درست آداب العصور التى تعاقبت عليها ، فإذا درست آداب عصر واحد ، كان رأيك أبعد ما يكون عن الصواب (الثمرات ، ط الأولى ، الاسكندرية ١١١٦ : ٣٢ .

عبد الرحمن شكرى و «الشرق والغرب»

احتلت قضية «الشرق والغرب» مساحة كبيرة فى المداخلات الفكرية بين المفكرين فى نهايات ثلاثينيات هذا القرن . وارتكزت هذه الحوارات الأدبية حول مفهوم الثقافة والعلم بين (الشرق والغرب) والخصائص العقلية التى تميز الشرق عن الغرب، والأصول العرقية . وهذه القضايا تلمس فى جوهرها المنهج الأنثروبولوجى والإثنولوجى الذى صدر عنه رجال الفكر والثقافة ، وامتدت هذه النظرة لتمس نظرية الأجناس الأدبية، ومدى معرفة العرب بفن القصة ، والنظر إلى شاعرية الشعراء وفق أصولهم الإثنولوجية . وهو ما عرف فى تاريخ الفكر بالنظرية الآرية . وهذه نظرية تتسم بالتعصب السلالى Ethnocentrism (أحمد الهوارى ، اسماعيل أدهم ناقدآ ، دار المعارف ، ١٩٩٠ ، ص ٥٨-٦٠)

وأكتفى بالإحالة إلى مظان قضية الشرق والغرب (أحمد الهوارى ؛ المؤلفات الكاملة للدكتور اسماعيل أدهم) الجزء الثالث قضايا ومناقشات ، بين الشرق والغرب دار المعارف، ١٩٨٦ ، ١١٩-١٧٥)

على أن اللافت للنظر فى موقف عبد الرحمن شكرى «من قضية الشرق والغرب. أنه تجاوز فى مرجعيته «المركزية الأوروبية» و «النظرية الآرية»، وكشف، بفضل ما تحلى به من حس تاريخى ثاقب ، بجدلية المكان والزمان ، وبإنسان صانع التاريخ ، عن نظرة مغايرة لما أدلى به نخبة المثقفين والمفكرين حول هذه القضية . فهو «عبد الرحمن شكرى» يرفض تقسيم العقل البشرى إلى عقل شرقى وعقل غربى، إذ يرى «أن العقل البشرى وأن النفس البشرية واحدة فى الشرق والغرب فى صفاتها الأساسية ، وأن الاختلاف بين العقول والنفس فى الشرق والغرب لا يكون أكثر من اختلاف عقول ونفس آحاد الأفراد فى الأمة الواحدة، ففى الأمة الغربية كما فى الأمة الشرقية أناس يغلب عليهم تحكيم المنطق وأناس يغلب عليهم تغليب الوجدان وأناس

يغلب عليهم تغليب الخيال فى التفكير ، وفى الأمة الشرقية كما فى الأمة الغربية أناس يقدسون العادات ويعدونها ذات قداسة كقداسة الدين ، وفى كل منهما أناس يحاولون فى كل عصر تحوير العادات والأفكار ... (العقول بين الشرق والغرب ، مجلة الثقافة: ٢٥ / ٤ / ١٩٣٩ : ١٩)

وهو يركز فى مرجعيته على منظور تاريخى حضارى «والذى دعانى إلى هذه الأفكار درس التاريخ ودرس الجغرافيا ودرس الشعر والأدب فى الشرق والغرب . فالذى يقرأ تاريخ الإمبراطورية الرومانية وأثر الجواسيس فيها لا يجده أقل من أثر الجواسيس فى أيام حكم السلاطين ذوى الأهواء والبطش فى الدولة العثمانية ؛ أو فى الدولة العثمانية» (نفسه)

ويرى أن العقول والنفوس فى الشرق والغرب متقاربة جد التقارب متى تهيأت الأسباب والمسببات من أحوال وظروف . ويرتكز على منظومة من المعرفة بالتاريخ والأدب والفلسفة والجغرافية: «فالأفكار والعادات تتغير فى الشرق كما تتغير فى الغرب ، فالثقافة الإنسانية إذا كان الناس مشغولين بالرعى تختلف عنها إذا كانوا مشغولين بالزراعة أو بالصناعة ، والثقافة فى الأمم ذات الحكومات المطلقة تختلف عنها فى الحكومات الجمهورية ، ولكن ينبغي ألا ننسى أن أساس العقل والنفس لا يتغير، وأن الأمة الواحدة تظهر فى ثقافتها آثار الأحوال الجغرافية أو السياسية التى مرت بها ، وتظهر هذه الآثار حتى فى عصر واحد فى أفكار أناس مختلفى الثقافات . وتحسن طرق المواصلات فى العصر الحديث ، أدى إلى تقارب الثقافات فى الشرق والغرب ، وإن كان أثر القرون الماضية واختلاف الأحوال فيه ظاهراً فى اختلاف الثقافات كما أن أثر اختلاف الأحوال الجغرافية والاجتماعية ظاهراً أيضاً» (نفسه) وهى نظرة - بلاشك- سابقة لعصره نبعت من الروح الديالكتيكية التى تتميز بها عقليته القادرة على الجمع بين النقيض والأضداد. ولنا أن نتصور مدى النظرة المتوازنة التى تحلى بها «عبد الرحمن شكرى» عندما نضعها فى إطار المشهد النقدى الذى يطرح السؤال الثقافى العام، والذى تألق عند مفكر فلسطينى كبير مثل إدوارد سعيد ؛ وفى إثراء ناقد مصرى كبير مثل أهاب حسن .

إن ثورة الاتصالات والتقنوات الفضائية ، وتدفق المعلومات عبر شبكات الإنترنت ؛ والتقدم المذهل للإعلام ؛ أفضى إلى العولمة والنظر إلى العالم بوصفه قرية كونية صغيرة ، كل ذلك مجتمعاً اقتلع هذه المفهومات التى تشطر العقول البشرية وفق نظرة آرية استعلائية ، لتصبح فى متحف تاريخ الفكر بوصفها «تاريخاً» لا أكثر .

عبد الرحمن شكرى ونظرية الشعر

القارئ للمؤلفات الكاملة لـ «عبد الرحمن شكرى» يجد نفسه أمام منظومة من الآراء النقدية؛ ولا يمكن أن يصل القارئ إلى معرفة أبعاد مفهوم «عبد الرحمن شكرى» للشعر، إلا من خلال تكامل هذه الآراء النقدية المتناثرة .

ونلاحظ أن «عبد الرحمن شكرى» يعزف على أوتار المدرسة الرومانسية فى الشعر. وكثيراً ما نلمح أصداء تلك الآراء التى تكاد تتكرر، أحياناً بلفظها ، ويشعر القارئ أن الحياة عند «عبد الرحمن شكرى» شعر يعاش : وأن الشعر عنده حياة تكتب ولعل هذا يفسر لنا هذا الإلحاح على أن يُغرد بالشعر وقيمته ، ويتجلى لنا هذا الإلحاح فى ديوانه ، وفى كتابيه «الاعتراف» و«الثمرات» فضلاً عن مقدمات دواوينه .

وتأتى آراء «عبد الرحمن شكرى» فى الشعر والشاعر، شارحة ما نظمه شعراً فى ماهية الشعر وحقيقته . صحيح أنه لم يصنع صنيع ابن عربى فى «ذخائر الأعلام» شرح ترجمان الأشواق « لكن قراءة المشهد النقدى تقدم لنا صورة عامة تؤكد تكامل نظرة الشاعر الناقد، وأن حياته كانت فى الشعر .

إن القارئ لديوان عبد الرحمن شكرى يلمس حرص الشاعر / الناقد على نظم مفهومه للشعر : شعراً . وفى قصيدته «عصفور الجنة» يقول : الديوان : الجزء الثالث « أناشيد الصبا » ، ص ٢٦٦ .

ألا يا طائر الفـردو س إن الشعر وجرسـه وجسدان

وفى قصيدة «الشعر والطبيعة» يقول : نفسه ص ٢٢٦ .

وما الشعر إلا القلب هاج وجيبه وما الشعر إلا أن يثير مثير

نرى فى سماء النفس ما فى سمائنا ونبصر فيها البدر وهو منير

وما النفس إلا كالطبيعة وجهها رياض وأضواء بها ويعور

وفى قصيدة «أغاريد شاعر» يقول فيها: الديوان : الجزء الرابع ، ص ٣٤٧ .

وإنما الشعر نغمة كحنين المزامر

يرفع النفس سحره عن وهاد الحقائق

يبلغ النفس أفقنها كجناح الطائر
يفتح النفس ضوءه مثل ضوء التباشر
مثلما يفتح الصبا حُ زهى الأزاهر

وفى قصيدة «شكوى شاعر» الديوان : الجزء الثانى «لآلى الأفكار» ، ص ١٦٥ . يدحض آراء من يسخر بمهمة الشعر ويؤكد مفهومه للشعر:

وإنما الشعر تصوير وتذكرة ومنعة وخيال غير خوان
وإنما الشعر مرآة لغانية هى الحياة فمن سوء وإحسان
وإنما الشعر إحساس بما خفقت له القلوب كأقدار وحدثان

إن عبد الرحمن شكرى رومانسى حتى النخاع ، فهو من «الأنا» يبدأ وإلى الأنا . يعود وعنده «... إنما الشاعر ، شاعر القلب ، فهو الذى يصف عواطف النفس وأطوارها ، فيصف عواطف الحب والجمال والجلال، والخوف والفرح والأمل ، والبأس والرحمة والكره والحقد والبخل والجود والشجاعة والجبن وغيرها من عواطف النفس وأحوالها . وهو الذى يصف أساليب الحياة التى تجول فيها هذه العواطف كل مجال ، ومظاهر الوجود التى تتعلق بها العواطف . فهو الشاعر الذى عواطفه مثل عواطف الوجود ، مثل الأمواج أو الرياح أو الضياء أو النار أو الكهرباء، فإن هذه عواطف الكون. وهو الذى يحكى قلبه الأوركستر الكثير الآلات ، الكثير الأنغام» الاعتراف ، ط . الأولى ، الإسكندرية ١٩١٦ ، ص ١٩-٢٠ .

ويقدم «عبد الرحمن شكرى» فى مقدماته لدواوينه تصوراً لنظرية الشعر عند المدرسة الجديدة ، ويرسى دعائم الأنس الجمالية التى تنهض عليها ، فالجزء الخامس فى ديوانه «الخطرات» وثيقة نقدية فى الشعر والشاعر وعملية الإبداع نفسها ، وإن صاغها فى قالب شعرى زاخر بالصور على أنه لوكتبها فى أسلوب علمى خرجت نظرية متكاملة جديدة .

لقد أثار «عبد الرحمن شكرى» فى هذه المقدمة نقاطاً هامة مستقاة كلها من النظرية الرومانسية فى انجلترا ، ذلك أن ظروف هذه الرومانسية شديدة الشبه بظروف الرومانسية فى مصر . وهى أقرب إليها من الرومانسية الفرنسية ، ذلك أن كلا من الرومانسية المصرية والإنجليزية لم تكن ثورة على القديم وإنما كانت ثورة على طريقة إحياء هذا القديم . فالشعر العربى القديم شعر رائع ، ولكن الذى يستحق الهدم هو التقليد الحديث لهذا القديم . كذلك

أحس شعراء الرومانسيه الإنجليزیه . لقد مجدوا الشعر الكلاسی القديم ولم تكن ثورتهم إلا على شعر الكلاسیه الجدیة الأقرب إلى زمانهم. وتتنبى الرومانسیه المصریه فكرة تضخیم دور الشاعر إلى حد أن تجعله مسئولاً عن تغییر المجتمع كله إلى الأفضل ، لذلك فهی تطلب إلى الشاعر الكثير ، وكذلك فعل الرومانسیون الإنجلیز ، فقد جعلوه نبیاً مصلحاً . انظر : سهیل القلماوی : عبد الرحمن شکرى ، أعلام الأدب المعاصر فى مصر ، دار الكتاب المصرى اللبنانى .

أما عن الشاعر فإن أول ما نادى به شکرى فى هذه المقدمة أن « يكون عند الشاعر ما سماه بالشعر العقلى الذى يجعل الشاعر راغباً فى أن يفكر كل فكر وأن يحس كل إحساس ، وينبغى للشاعر لکی یجئ شعره عظيماً أن يتذكر أنه لا يكتب للعامة ولا لقرية ولا لأمة وإنما هو يكتب للعقل البشرى ، ونفس الإنسان أين كان . ولا هو يكتب لليوم الذى يعيش فيه ؛ وإنما يكتب لكل يوم وكل دهر » . مقدمة الديوان الجزء الخامس ، الخطوات ط ، الأولى ١٩١٦ ، ص ٢٦ ، ٢٦١ .

وقد فرق عبد الرحمن شکرى بين التخيل والتوهم ، فالتخيل هو أن يظهر الشاعر الصلات التى بين الأشياء والحقائق ويشترط فى هذا النوع أن يعبر عن حق . والتوهم أن يتوهم الشاعر بين شيئين ليس لهما وجود . وهذا النوع الثانى يغرى الشعراء الصغار ولم يسلم منه الشعراء الكبار .

والمعرفة البينية بين الفنون تفسر مدى وعى الناقد لطبيعة الفنون وطاقاتها التعبيرية وركيزتها الجمالية على نحو ما بدت فى نظرية لستج « لاوكون » . ويمكن أن نفهم فى سياقها الجمالى وضع الشاعر والرسام .

ينتقل « عبد الرحمن شکرى إلى التأكيد على أن كل موضوعات الشعر تستلزم قدرأ من العاطفة والتفكير . ومن ثم ، ينبغى التفرقة بين شعر العاطفة وشعر العقل . وفى هذه المقدمة تتجلى السيرة الأدبية للشاعر « عبد الرحمن شکرى » : فهى تؤذن بميلاد المذهب الذى آثره : « شعر الفكر والوجدان » وهنا يبدو تأثير شعر الغرب وأدب الغرب فى شعر شکرى وأدبه وما عجبت من شئ عجيب من القوم الذين يريدون أن يجعلوا حداً فاصلاً بين آداب الغرب وآداب العرب ، زاعمين أن هناك خيلاً غريباً وخيلاً عربياً » .

ويحرص «عبد الرحمن شكري» على التأكيد على أهمية التواصل مع التراث واستيعاب تاريخ الأدب العربي، فأرهاصات التجديد تبدأ باستيعاب المشهد الإبداعي القديم. فدراسة الأدب العربي تزيد الشاعر عمقاً. وهذا العمق أو بتعبيره المتانة تستلزم درس آداب كل العصور التي مرت على اللغة العربية حتى يكون ذوق الشاعر واسعاً صحيحاً (نفسه) لأمس «عبد الرحمن شكري» قضايا التأثير بين الأدبيين العربي والإنجليزى فى مقال «واجب أدبى وانتحال المعانى الأدبية» (المقتطف: يناير ١٩١٧) وهذا المقال كان إرهاباً بنذر معركة أدبية عصفت بالعلاقة بين شكري والمازنى فتركها صعيداً زلقاً.

ويصل «عبد الرحمن شكري» إلى لب عملية الإبداع من خلال نظرة ترى أن عمل الشاعر فيما يضطلع به عمل النحل فى قول أبى العلاء :

والنحل يجنى المر من نور الربى فيصير شهداً فى طريق رُضاً به

فالعالم الماهر يخرج من الجيد جيداً، ولكن العبقرى يخرج أيضاً من الردى جيداً. ولكن بعض القراء يقى على صفحته ما قد قرأه بدل أن يخرج من أزهار ما قرأ شهداً. وهذا هو الفرق بين العبقرى وغيره من الناس (مقدمة الديوان الجزء الخامس، ص ٣٧).

ويشير شكري مفهوم الأخذ أو الاتكاء على السابقين «إن المطلع بأدب لغة من اللغات لا بد أن يجتنى بعض ما يقرأ من المعانى والخيالات من غير أن يشعر. وإنك إذا أدمنت قراءة المتنبي مثلاً عقلت بذهنك بعض معانيه. وأما المعيب فهو أن يأخذ الشاعر المعنى عمداً، أما إثبات العمد فليس من الصعوبة بكان، فمن مظاهر تعمد السرقة النقل والأخذ لا المشابهة والتوليد. فإن المشابهة والتوليد لاتعد سرقة، ومنها تسلسل المعانى كما فى الأصل وكثرة المتشابه وعجز الشاعر عن الابتداع والتوليد. وهو يؤكد أن الاحتذاء شئ والنقل والأخذ بالنص أو شبه النص شئ آخر. والأخير هو الذى لايرضى مطالب النفس والوجدان» (المقتطف: مايو ١٩٣٩) ومهما تكن عيوب الاحتذاء «فإنه أفادنى ومنعنى عند اطلاعى على الشعر الأوربى من الاتدفاع وراء الأوهام والمغالاة والتجارب العقيمة» (المقتطف يوليو ١٩٣٩) فليس ثمة حدود جامعة مانعة بين السرقة والتوليد والابتداع، على نحو ما يشى سياق الحديث، على أن إثارة القضية فى تلك المرحلة الباكرة من تاريخ النقد مما يحسب لشكري.

عبد الرحمن شكرى ولعبة الفكر والكتابة

فى رسالة «عبد الرحمن شكرى» لرئيس تحرير المقتطف «فؤاد صروف» (الأبحاث، السنة ١٣ ج٢ يونيو / حزيران ١٩٦٠، ص ٢٢١) أشار إلى البنية العقلية التى يتميز بها : «أنا لا أعرف ألعاب الورق ؛ ولكن لعبة الفكر والنشر والشعر أصبحت عندى مثل لعبة Patience هذه أى أنى ألعب لعبة الفكر والنشر والشعر وحدى فأفكر وأكتب ثم أمزق ما أكتب ثم تستعيد الذاكرة بعضه وتنسى بعضه ... فالكون عظيم والحياة غنية . والفكر أشبه بالشرر الذى يتطاير من العجلة المولدة للكهرباء فى المعمل إذا اقترب منها أصبع . فهل يصح الندم على هذا الشرر المتطاير الذى يفنى . وأرجو أن لا يسوءك قولى لعبة الفكر، فهذا تعبير لم ابتدعه، بل له مثيل فى الإنكليزية حيث يقولون The Play of thought and feeling وقد يذكرون هذه الجملة فى أثناء مدح كتاب أو مقالة .

وفى موضع آخر يؤكد أن الكتابه عنده لعب . وهذا الرأى لشكرى ، ينحدر من نظرية معروفة تربط بين النشاط الإبداعى وبين اللعب. «... وعلى أى حال فإننى لا أدعى الشعر والنشر ولا التفكير ولا ماينهى لها كلها وإنما هى عندى لعب » «ومن رسالة لفؤاد صروف : ٢٨ يناير ١٩٤٣ ، الأبحاث، نفسه » .

وعند «عبد الرحمن شكرى» لا ينفصل السؤال النقدى عن السؤال الثقافى العام. والبنية النقدية لا تنفصل عن البنية الفكرية. ويحكى لنا منابع «التكوين» الثقافى الذى هباً - من بعد- أن ينهض بدوره فى التنوير والنهضة «ولعل أعظم مورد لثقافتى الأوربية كان سفرى فى البعثة العلمية إلى انكلترا ١٩٠٩ . وهذا المورد كثير الجداول والعيون فمنه الثقافة التى أدى إليها اختلاف مظاهر الطبيعة فى انكلترا عنها فى مصر، (وهو هنا يؤكد على ثقافة المكان) والثقافة التى دعت إليها دراستى جويتى الحكيم الألمانى ودراستى المعجبين به أمثال كارلايل وامرسون، والثقافة التى كنت أدرسها فى جامعة شيفلد فى التاريخ والجغرافيا والاقتصاد السياسى، وعلم السياسة ، والنظريات السياسية ، ونظم الحكم ، والثقافة التى سهّلها وجودى فى انجلترا، وهى ثقافة دراسة الشعراء الذين كانوا فى ذلك الوقت يعتبرون الشعراء الحديثى العهد مثل سونيبورن وروزينى وأوسكار وايلد وغيرهم» (المقتطف : يوليو ١٩٣٩) .

وفى سيرته الأدبية يشير إلى أنه قد تأثر «... عند دراسة هؤلاء الأدباء والشعراء بهذه الروح ، وأعنى روح الطموح إلى العرفان وكشف خبايا الحياة، والتمست معينا على ذلك فى

كل ناحية من نواحي الآداب . التمسسته فى وصف شكسبير وبروننج للنفوس ، وفى وصف النفوس والحياة فى قصص كبار القصصيين، وفى كلمات المفكرين .. كما التمسسته فى الخيال الرومانتيكى الطليق الذى يعبر عن هذه الروح على الطريقة الخيالية الرومانتيكية. وهذا هو السبب، فى أن جانباً من قولى يمثل الخيال ، وجانباً آخر يمثل التحليل النفسى ومظاهر النفوس فى الحياة، لا على طريقة إميل زولا والمذهب الطبيعى، فليس فى إميل زولا تحليل للنفوس ولاخبرة بحكمتها وفلسفتها ، بل على طريقة شكسبير وبروننج فى الشعراء ودكنز وثاكرى ويلزاك وأناطول فرانس وفلوبير ومويسان وتلستوى وترجينيف وغيرهم . (المقتطف : يوليو ١٩٣٩) .

وقد تأثر عبد الرحمن شكرى بجوته ، وكان من مبادئه أن يحاول المرء أن يستفيد فائدة ثقافية من كل شئ وأمر، ومن كل إنسان يقابله، ومن كل مذهب فكرى أو مذهب فى الإحساس حتى ما لا يلائم طبعه . وهذا هو فى الحقيقة مغزى قصته (ولهم ماستر) وهذا هو سبب اختلاف نواحي الثقافة فى شعر شكرى ذلك الاختلاف .

وكان لدراسة «عبد الرحمن شكرى» للفنون الإغريقية وعبادة الإغريق للجمال أثرها فى النفس مما جعله يعد الجمال ثقافة .

وانشعاب جوانب ثقافة عبد الرحمن شكرى تركت بصماتها فى البنية الفكرية التى يتميز بها وتتمثل فى «الاتزان الفكرى» «قلما أعرض فى قصيدة جانباً من الإحساس أو المشاهد إلا وأعرض ما هو ضده طلباً للاتزان الفكرى» (الشعر والثقافة ، المقتطف يوليو ١٩٣٩) كما أن دراسته لنظرات المفكرين والأدباء الفلاسفة فى النفس والحياة، تركت آثارها التى تنضح فى أسلوبه، على نحو ما بدت تجلياتها فى مقالاته التحليلية فى الطبيعة البشرية والحضارة ، فنحن نلمح روح السخرية تسرى فى أدبه، وهو هنا يتأثر بسويفت وثولتير وأوسكار وايلد وأناطول فرانس وسومرست هوم .

وقد أضفى عبد الرحمن شكرى على فن المقالة من رائع أسلوبه ، كما أكسبها من الخيال والأدب والفكر والسخر والشدة وسخرية بحيث غدت مثل وخز سلاح المبارز. ويشعر القارئ أن كاتب المقال «عبد الرحمن شكرى» يتحلى ببصيرة نافذة، وفطنة فى فهم الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى ويحار المرء هل كان «عبد الرحمن شكرى» يحب الحياة والناس على نحو ما كان رابليه ؟ أم كان يكره الحياة ويحتقر الناس على نحو ما كان سويفت ؟ ولعلك لو قرأت

مقالاته فى «الصفات المحسودة» ولعبة التخادع»، و«التفاؤل والتشاؤم» و«وسائل الاغتياب»، و«عواقب النصيحة» و«مظاهر الشعور بالحقارة» و«عود إلى داء الشعور بالحقارة» لوجدت شيئاً مما أشرت إليه . فأراؤه فى النفس ، قد تدعو إلى احتقار النفس البشرية واليأس منها واتهامها بالأثرة والأنانية ، وهو هنا قد يكون متأثراً بمونتاني وجوته .

ويتبدى هذا التساوق الفكرى symmetry فى نظرة شكرى التى تنهض على أن «كل حقيقة ناقصة حتى تقرن بأمثالها . ومن أجل ذلك كان فى كل صواب شئ من الخطأ ، وفى كل خطأ شئ من الصواب . كل معنى ينتجه ذهنه جزء من معنى ، وكل حقيقة يقع عليها جزء من حقيقة . ومن أجل ذلك كان كل شئ فى الوجود مرآة لكل شئ وتفسيراً له» (الثمرات : ٤٨) .

و«عبد الرحمن شكرى» ينقد من يظنون أن الشئ إذا كان صواباً فليس به شئ من الخطأ . وسبب ذلك صلابة فى الرأى خارجة عن قلة اختبارهم أمور الحياة اختبار المفكر الباحث . ومثل هؤلاء الناس يقولون إن الشئ إذا كان شراً فليس به شئ من السر . لكن أمور الحياة ليست كذلك ، وكما أن السم ، وهو شر ، جزء من الدواء ، وهو خير كذلك أمور الحياة تمزج الاضداد فيها ، هذا مفتاح الحياة ، ومن عرف الحياة كان أكبر من الحياة . فإن عرفاته الحياة يملأ صدره حزمًا وبصيرته صفاء» (الثمرات : ٥٦) ونلمح هنا أصداء الفلسفة الجدلية (بفتح الدال) تسرى فى البنية الفكرية لعبد الرحمن شكرى .

ومن جانب آخر ، يلمس القارئ لآثار «عبد الرحمن شكرى» تنوعاً فى الأسلوب، وإلى قريب من هذا ما أشار إليه هو نفسه «وإذا كان فى م . ن عيب من حيث هو أديب ، فهو أن أسلوبه فى الوصف والتنقل من مقال إلى مقال ، مثل وميض البرق تراه يشرح لك عاطفة من العواطف، كأنه يكتبها بالنار على وجه الدجى ، أو كأن كلماته الشرر المتطاير ، ثم يتركها من غير استئذان إلى وصف غيرها» (الاعتراف : ١١٧) لكن يظل «عبد الرحمن شكرى» غواص فى بحار الثقافة والحياة ينشد الكلمة العذراء «إن الكلمات والقوى النادرة لاقيمة لها فى نفسها ، بل قيمتها فى استخراجها واستعمالها وما ينشأ عنها من المؤثرات ، كما أنه الجواهر الكريمة أو المعادن النفيسة ، لاقيمة لها ما دامت فى باطن الأرض ، بل قيمتها إذا استخرجت وصادفت رغبة فيها . أما إذا لم يوجد رغبة فيها فلم تكن لها قيمة» (المؤيد : اذل يوليو

حول هذه المؤلفات الكاملة

تأتى هذه النصوص التى تطمح نحو توثيق نصوص الأدب والنقد الحديث، خطوة على طريق طوله ألف ميل، لإرساء بنية العقل النقدي العربى ؛ مؤكدة استمرارية قضايا التنوير الأدبى والنهضة .

وقد ارتكز هذا المشروع العلمى الذى يعد بمثابة حفريات فى جدار الثقافة العربية لإرساء دعائم صناعة الثقافة الثقيلة ، على كتاب «عبد الرحمن شكرى» ضمن سلسلة أعلام الأدب المعاصر فى مصر ، وهى سلسلة بيوجرافية نقدية بيولوجرافية، أعدها د. حمدي السكوت أستاذ الأدب الحديث بالجامعة الأمريكية ود. مارسدن جونز أستاذ الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية (دار الكتاب المصرى - القاهرة ، دار الكتاب اللبنانى - بيروت ، ١٩٨٠)

على أننى بذلت غاية ما فى الطاقة من جهد لجمع هذه الأعمال النثرية : إبداعاً ونقداً ، وهناك نصوص لم يتيسر لى العثور عليها منها المقالات التالية :

١٩٠٨ / ٦ / ٢٥	الجريدة	- جلال العظيم
١٩٠٨ / ٧ / ٢١	الجريدة	- جمال الطبيعة
١٩٠٨ / ٨ / ١	الجريدة	- الشهرة
١٩٠٨ / ٨ / ٥	الجريدة	- حرية المرأة
١٩٠٨ / ١١ / ٩ و		
١٩٠٨ / ٨ / ٨	الجريدة	- السوداء واليأس
١٩٠٨ / ٩ / ٢٩	الجريدة	- الرغبة فى الحياة
١٩٠٨ / ١١ / ٢ من	الدستور	- شعر حافظ ابراهيم
١٩٠٨ / ١١ / ٢٧ إلى		
١٩٠٨ / ١١ / ١٧	الجريدة	- «الصور» لمحمد السباعى
١٩٠٩ / ٨ / ٥	الجريدة	- كيف يقرأ الشعر
١٩٠٩ / ٨ / ٩	الجريدة	- العزمة
١٩٠٩ / ٨ / ١٢	الجريدة	- منظر من مناظر الشقاء

- فى الأخلاق - الجريدة ١٩١٠ / ١٠ / ١٣
- بين الرجاء واليأس - الجريدة ١٩١٠ / ١٠ / ٢٤
- عظم النفس وعظم الحياة - الجريدة ١٩١١ / ٤ / ٢٦
- الحجاب والسفور - الجريدة ١٩١١ / ٨ / ٩
- أوروبا والمصلحة - الجريدة ١٩١١ / ١١ / ٢٥
- لحن الشعراء ومستقبل الشعر - الجريدة ١٩١١ / ١١ / ٢٦
- العربى
- الشعر العصرى ، لحن الشعراء - الجريدة ١٩١١ / ١٢ / ١٣
- الشعر العربى وديوان المازنى - الجريدة ١٩١٣ / ١٢ / ٢٤
- مشترى الأحلام - الجريدة ١٩١٥ / ٤ / ٣
- شعر المازنى - عكاظ ١٩١٦ / ١١ / ٢٨
- خلود فى التجارب - المقتطف ١٩١٧ / ٥
- شعر المازنى - عكاظ ١٩١٧ / ١١ / ١٩
- خطوات فى الموت والحياة - عكاظ ١٩١٩ / ٤ / ٤
- كلمات فى المازنى - عكاظ من ١٩١٩ / ١١ / ١٨ إلى ١٩٢٠ / ٤ / ١٢
- ديوان «مرآتى» لحسن فهمى المحامى - السياسة ١٩٢٣ / ٤ / ١٨
- لاكيد ولاعداء - السياسة ١٩٣٤ / ٩ / ١٢
- الشهرة والخلود - المقطم ١٩٣٤ / ٩ / ١٤
- رديارد كبلنج - المجلة الجديدة الأسبوعية ١٩٣٦ / ٢ / ٥
- العبقرى والفن - الوادى ١٩٣٦ / ١٠ / ١٢

كما لم يتيسر لى العشور على قصص «عبد الرحمن شكرى» التالية :

- ١- المجنون مجلة ال - ٢ قصة ١٩٣٧ / ٩ / ١١

١٩٣٧ / ١١ / ١	مجلة الـ ٢٠ قصة	٢- نحو الظلام
١٩٣٧ / ١١ / ١٥	مجلة الـ ٢٠ قصة	٣- لا لن أحب
١٩٣٧ / ١٢ / ١	مجلة الـ ٢٠ قصة	٤- الغروب
١٩٣٧ / ١٢ / ١٥	مجلة الـ ٢٠ قصة	٥- أغنية الموج
١٩٣٨ / ٢ / ١	مجلة الـ ٢٠ قصة	٦- هل بدوم الحب

وقد ذكر مؤلفا كتاب «عبد الرحمن شكرى د. حمدى السكوت ومارسدين جونز فى (ب) أعمال بالاشتراك : «مشاهير شعراء العصر فى مصر وسوريا والعراق ودمشق ، ١٩٢٢ بالاشتراك مع عباس العقاد وابراهيم المازنى وآخرين . جمع أحمد عبيد . والواقع أنها مختارات أحمد عبيد من نتاج عبد الرحمن شكرى وليست أعمالا مشتركة .

ولم يتيسر لى العشور على ديوان الاسكندرية ، «الاسكندرية ، ١٩٣٥» بالاشتراك مع خليل شيبوب وعبد اللطيف النشار وآخرين

وقد لاحظت أن هناك قصائد لم تنشر فى قائمة القصائد وذكرت فى المقالات والدراسات (ص ١٣٣) فمقال «فى الأخلاق» (الجريدة ١٣ / ١٠ / ١٩١٠) ليس لعبد الرحمن شكرى وإنما هو خلاصة المحاضرة ألقاها «حضرة محمود أفندى عزمى الطالب بإرسالية الجامعة المصرية مساء الأحد ٩ أكتوبر» فى الأعمده الأول ، الثانى ، الثالث . وفى العدد نفسه والصفحة ذاتها من الجريدة نشر «عبد الرحمن شكرى» قصيدة «وصف البحر» فى العمود الرابع . ولم يرد ذكر لهذه القصيدة فى كتاب د. حمدى السكوت .

كذلك قصيدة بين الرجاء واليأس نشرت فى الجريدة (٢٤ / ١٠ / ١٩١٠) وقدم لها شكرى بمقدمة نثرية)

وقصيدة القلق والغفلة نشرت فى الجريدة (١١ / ١٢ / ١٩١٠) قدم لها عبد الرحمن شكرى بمقدمة نثرية .

كما يلاحظ أن مقال «عبادة القوة» وقد نشر فى الجريدة - كما ذكر كتاب. السكوت فى الجريدة من ١٩ / ١٢ / ١٩١٠ إلى ١٠ / ٨ / ١٩١١ (على فترات غير منتظمة) لم أعثر إلا على مقال واحد نشر فى الجريدة ١٩ / ١٢ / ١٩١٠ ولم يذكر الكتاب أن المقال نشر ضمن كتاب «الثمرات» .

وبعد ، فهذه المؤلفات الكاملة تظهر بعد جهد قام به د. محمد رجب البيومي حيث نشر. «دراسات فى الشعر العربى» وهو مجموعة بحوث لشكرى نشرت بالرسالة والثقافة والمقتطف صدرت عن الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٤ كما نشر «نظرات فى النفس والحياة» صدرت عن الدار المصرية اللبنانية وأشار كذلك إلى أن د. عبد الفتاح الشطى قد جمع مقالات . «نظرات فى النفس والحياة» وقدم لها مقدمة تحليلية وظهرت فى كتاب عن «الهيئة العامة للكتاب» (١٩٩٦) .

وتأتى هذه المؤلفات الكاملة لتستوعب كل ما وقعت عليه عين الباحث من آثار الشاعر الناقد «عبد الرحمن شكرى» . على أنى أشرت إلى ما لم يتيسر لى العثور عليه من أعماله. وأود أن أشكر الصديق الناقد والمفكر الكبير الأستاذ الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة لترحيبه بنشر هذه المؤلفات الكاملة، ومساندته ودعمه المستمر ليظهر هذا المشروع العلمى ويرى النور ، كما أشكر من ساعدنى فى العثور على مواد غابت عن يدى وأخص بالذكر زملاء أ . د . مدحت الجيار أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الزقازيق . ود . محمد المسلمانى مدرس الأدب المقارن بكلية الآداب جامعة الزقازيق ، ود . جمال الدمرداش مدرس النحو بكلية الآداب جامعة الزقازيق ود . مصطفى الضبع الذى تجشم أعباء مراجعات تجارب «بروفات» هذه المؤلفات الكاملة ، رغم الأعباء التى كان يعانى منها .

ولا أنسى الجهد الكبير الذى نهض به الصديق المؤرخ الأديب الدكتور قاسم عبد قاسم أستاذ ورئيس قسم التاريخ ، ومستشار دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية حيث جُند فريق عمل لإنجاز كتابة هذه المؤلفات الكاملة فى فترة قياسية ، والله المستعان .

أحمد الهوارى

جامعة الزقازيق

جامعة الإمارات العربية المتحدة

العين فى ٢٧ / ٨ / ١٩٩٧

(١)

الاعتراف

«وهو قصة نفس»

الطبعة الأولى: الأسكندرية ، ١٩١٦

رسالة من صاحب الاعتراف

صديقى الأعز

لقد مللت الحياة فى عالم المدنية، فرأيت أن أهيم فى مجاهل السودان، لأن صحراءها أشبه بالأبد الذى أحببته من المدن وستضيئ الصحراء بنفسى ، كما ضاقت بها المدن . وقد رأيت أن أودع عندك (مذكراتى) كى تذكرك بي ، وبما كان بيننا من الود . فإذا مضت سنة ولم أراجعك فانشرها إذا وجدت فى نشرها ما يفيد .

المخلص

م - ن

مقدمة لمؤلف الاعتراف

لقد مضت سنوات لم أسمع فى خلالها شيئاً عن صديقى م . ن صاحب الاعتراف ، فجعلت أسأل عنه حتى علمت أنه صار يهيم فى فيافى السودان. حتى وصل إلى بلاد نيام فأكله أهلها رحمة الله عليه . لقد كان يحتقر الإنسانية ، فانتقمت منه بأن أكله أبناؤها . ولكنه انتقام يثبت أنه كان مصيباً فى احتقاره إياها ، وقد زعم أناس أنه لم يمت وأنه توغل فى أواسط أفريقيا إلى مواطن الزنوج فأسرته قبيلة منهم تدعى قبيلة الشناحجة ، ولكنهم أعجبوا بسكوته وعبوسه وكسله وقلة مبالاته ما يقع حوله من أمور الحياة، فاتخذوه إلهًا، حاسبين هذه الصفات من صفات الله. فإذا صح ذلك ، كان صديقى إلهًا لا يزال حيًا يرزق ، يعبد زنوج قبيلة الشناحجة فى أواسط أفريقيا ، وليت شعرى ما حاله، وما خواطره ، وهل هو سعيد بمنزلته بين أولئك الوحشيين الجهلاء .

وقد رأيت أن أجمع هذه المذكرات ، وأن أنشرها لأن فى نشرها عبرة كبيرة لمن يعتبر. وسيرى كثير من القراء نفوسهم مكبرة مرسومة فى هذه الصحائف ، لأننا فى حياتنا الاجتماعية سواسية مثل أسنان الحمار، هذا إذا صح أن أسنان الحمار سواسية ، ولاأظن ذلك، أو مثل أسنان المشط . وسبب ذلك أن العوامل الاجتماعية التى تعمل فى نفس الفرد منا، تعمل أيضًا فى نفوس سائر الأفراد. فصفت الشاب المصرى هى صفات م . ن صاحب الاعتراف ، فالشاب المصرى فى حالة أمتنا الاجتماعية الحاضرة عظيم الأمل ، ولكنه عظيم اليأس . وكل منهما فى نفسه عميق، مثل الأبد. والسبب فى ذلك ، أن حالتنا الاجتماعية تستدعى شدة الأمل، وشدة اليأس ، ومازلت أجد بين حالة الأمة الاجتماعية ، وبين نفوس أفرادها رابطة متينة والشاب المصرى يكثر من اساءة الظن، وهى صفة اشتهر بها المصريون ، والسبب فى سوء ظنه ، عصور الاستبداد الطويلة التى مرت على مصر . فانها أبقت هذا الإرث فى نفوس الأفراد ، لأن الاستبداد يبعث سوء الظن والشاب المصرى ضعيف العزيمة ، كثير الأحلام ، والأطماع والأمانى، يمضى أيامه فى الأحلام ، بدل أن يمضيها فى مزاولة الأعمال وكذلك الخوف فيه، فإن شجاعة الشاب المصرى شجاعة متقطعة مبتورة ، شجاعة تستحى من نفسها. وأما خوفه ، فهو مبدأ عام. والشاب المصرى عنده ميل شديد إلى مزاولة

الأعمال العظيمة المجيدة ، ولكن يعجز عنها ، والشاب المصرى مهيج العواطف ، ولكنه غير عظيمها . وهو كثير الغرور لأنه كثير الأحلام والأمانى . وهو ليس عنده شئ من الاعتماد على النفس ، وهو شديد الإحساس ، ولكنه يبكى فى ضحكته ، ويضحك فى بكائه ، وهو كثير الشكوى ، والتضجر ، قليل الصبر مثل صاحب الاعتراف ، تحز فى نفسه قيود القدر المحتوم ، فيجتهد أن يصدعها عنه فلا يقدر ، فيزداد حزناً وبأساً ويفكر ، ولكن تفكيره غير منتظم ، وهو كثير الحيرة والشك ، بالرغم من غروره بترك ما يعنيه لما لا يعنيه . لا يعرف أى أفكاره وعاداته القديمة ، خرافات مضرة ولا أى أفكاره وعاداته الجديدة حقائق نافعة . من أجل ذلك ، يضره القديم كما يضره الجديد ، فهو من قديمه وجديده غريق بين لجنتين ، أو مثل كرة فى أرجل المقادير فإلى أين تقذف به تلك المقادير .

أما م . ن فإنه رحمه الله ، كان شاباً يحب القراءة والتفكير ، وكانت تلوح فى عينيه علامات السأم والحزن والتفكير ، وقد تقلصت شفته السفلى تقلص السخر . ولكن كان يلوح على وجهه ، بالرغم من ذلك ، أنه كثير الحنان رقيق القلب ، وأحياناً كنت لأتري فى وجهه شيئاً من الحزن أو الألم ، وفى بعض الأحيان ، كان وجهه مثل السماء التى تراكمت سحبائها وتلبدت غيومها . وكان كثير من الناس يسيئون فهمهم وكان كثير من الناس يسيئون فهمه ، فأساء فهمهم ، كما هى الحال بين الناس قاطبة ، وكان أحياناً شديد التواضع ، وأحياناً شديد التكبر . كان لا يعرف كيف يعاشر الناس ويداريهم ، يأخذ ما صفا ويتغاضى عما كدر . ويحتال للحياة ولاستجلاب السعادة فضاقت بنفسه الصحراء ، بعد أن ضاقت بها المدن كما يقول فى رسالته .

ذكرى الطفولة

إن المرء إذا جعل يتذكر أيام طفولته ، أحس لذة مثل لذة الرجل ، عند روية ابنه الصغير . فانتنا ننظر فى أعماق السنين إلى ذلك الطفل الذى كناه فى طفولتنا ، فنحنو عليه ونقبله بفم الذكرى ، وهو لدينا ، مثل وليد لنا رضيع . ولقد يجول بخاطر المرء ، أن ذلك الطفل الصغير الذى كانه ليس بذلك الرجل الكبير الذى يحنو عليه ، الذى يعبث بالذكرى ، ويكشف عن الطفولة حجاباً مثل حجاب الحسان ، فإن أكثر المرء مكتسب من الأيام والحوادث . ومن أجل ذلك صار يعد شخصه فى الطفولة جزءاً صغيراً منه . ولو تفهم المرء تقلبه فى أطوار عمره ، لرأى أنه ينتقل من حياة إلى حياة ، وأنه يخلق كل يوم حياة ويلبس أخرى .

لست أعجب من شئ عجيب ، من أنى لأزال أذكر حوادث من حوادث الطفولة . وأن المرء ليزهى بالمقدرة على ذلك التذكر ، كأنه قد سلب جزءاً من الخلد ، وصفة من صفاته . ولقد تمر بالمرء ساعات يتوق فيها إلى طفولته ، ويناجى شخصه الصغير الذى كان يعمرها قائلاً:-

يا بنى قد جعلت بينى وبينك الأيام سداً ، فنحن لانتلقى حتى يلتقى الأزل والأبد ، أمد يدي إليك كما يمد الأعمى يده إلى قائده وأقول لك أين أنت ... فيجيب الصدى قائلاً أين أنت ؟؟

ظل الطهر

على ذكر الطفولة وأيام الصغر ، أقول تحزننى رؤية علامات الشر على أوجه الأطفال، والغلمان الصغار. فانها بالرغم من طهارة الطفولة ، تلوح على أوجه الصغار، كما تلوح على أوجه الكبار . وأما الطهارة التى تنسب إلى الطفولة ، فهى عجز الطفل عن مواجهة كثير من الشر، لأنه ليس عنده من القوة والدهاء والتفكير ، ما يعينه على ذلك . وقد تجد الطفل يتعجب من وقوع الشر من غيره، ويحزن لذلك لاسيما إذا كان الشر واقعاً به، ولكنه لا يحس ما يفعله من الشر، ولا يعرف أنه شر . وهذه الخصلة، موجودة فى الرجال أيضاً فإنهم يفعلون الشر، فلا ترتاع ضمائرهم . ولكن إذا فعل غيرهم الشر، احتاجت لواعجهم، وارتاعت ضمائرهم من أجل ذلك، وهذا دليل على أن الضمائر ، آلة من آلات العواطف والرغائب تحركها كيف شئت .

إنى أرى على أوجه الأطفال ما تكنه أخلاقهم من أوائل الجشع، والبخل ، واللؤم، والقسوة. ولكن ضعفهم وقلة مكرهم، تسدل على هذه الملامح حجاباً مضيئاً . وفراقاً كالسراب . وتبعثنى رؤية هذه الملامح ، إلى التفكير فيما يستقبل من حياة هؤلاء الأطفال الآمنين المطمئنين الضاحكين . فكأننى بأوائل شرهم صارت نهاية ، وبنضارتهم شحوباً ، ويضعفهم الذى يلين لهم قلوبنا ، قوة ومكراً . وكأننى بذلك السراب الرقراق الذى كان يلوح لنا فى وجوههم ، سراب الطهر والعفة ، قد اختفى ولم يبق مكانه غير آثار العواطف قد ارتسمت على أسرة تلك الوجوه ، فحدود شاحبة من معاناة الأقدار ، وشفاه مقلصة من الضعف أو السخر ، والكبر ، وعيون غائرة ، يلوح فيها بريق الشهوات . وابتسامة كلها خبث ودهاء. وجبهة قد رسم الدهر بها خطوطاً . فكأنما طيات تلك الجبهة المعقدة أطلال سننى العمر الماضية .

أزهار الشهاب

هل تذكر طيش الحب فى أول الشباب. وما كان يغريك به من نزوات وهفوات حين أفقت من غفلة الصغر، فأحسست تلك العاطفة فى قلبك . إن الحب لا بأس به ، إلا إذا أغرى المرء بأعمال تزرى بعقله . ولكن من ذا الذى لم ينز به الحب فى شبابه نزوات التيوس ، أو العصافير . فإن طيش المحب مثل طيش العصافير فى حركاتها ، وإنه ليخيل له، أن الحب قد أنبت فى كتفيه أجنحة يطير بها إلى حيث يشاء . فيحسب أنه لو رمى بنفسه من نافذة منزله لم يسقط ، ولم يصبه أذى بل يطير به الحب ويخيل له أنه قادر على أن يقفز من شارع إلى شارع فوق المنازل ، من غير أن يلمسها ، ويسمع المحب أنغامًا وألحانًا غريبة ، لا يسمعها غيره، وليس لها وجود ويرى أشكالاً هندسية بديعة لاتسمع عنها فى كتب الهندسة ويرى أزهاراً خيالية ، لايعرفها الباحثون فى علم النبات ويحسب أنه مركز هذا الوجود ، وأن حبه موجود من الأزل خالد إلى الأبد ، مثل جمال حبيبته . ويحسب أن هذا الوجود، لو أصابه العدم، لبقى حبه مستقلا عن الوجود ، وتراه يتصيد أصحابه ، فيخبرهم كل خبر تافه عن حبه، حتى يتضجر جليسه ، وهو لا يرى شيئاً من ضجره ، بل يحسب أن جليسه مُضغ إليه كل الإصغاء وأنه يجد لذة فى حديث حبه كأنما هو قصيدة من قصائد النسيب والغزل فىا يؤس من يجالس المحب ، ثم يفيق المرء من حلم الحب الذى يشبه أحلام معاقر الأفيون ، فيخجل من جنون أحلامه ، ويتذكر الساعات التى قضاها تحت نافذة حبيبته ، والحالات التى كانت تعتوره كلما نظر إليه حبيبته ، نظرة غضب ، أو رضا أو إدلال أو إغراء ، أو زجر ، أو أمر أو نهى، أو تشجيع ، أو تثبيط . ويتذكر رسائله إلى حبيبته ، وكلمات العشق التى كان يتلوها على سمعه ويتذكر ما كان يضل عقله من المواعيد. وكلما خاف أن يفوته ميعاد من حبيبته ، بحث عن نعله وهو لا يسه ، وسأل عن عصاه وهى فى يده .

شعر الألوان والروائح

الشباب كثير الألوان ، جم الروائح فهو حديقة من حدائق الربيع ، وروح من أروح الفردوس . وهو الحياة ولا حياة بعده . والألوان والروائح ، من أشد الأشياء إثارة للعواطف . وإنى لأجد لذة فى النظر إلى الألوان المختلفة ، من الحمرة ، أو الزرقة ، أو البياض أو الصفرة أو البنفسج أو الخضرة . وأجد فى كل لون معنى ولحنًا من معانى العواطف وألحانها . فالألوان والروائح تبعث الذكر والأمانى . ألم تر قط لونًا بديعًا ، أو رائحة ذكية فأذكرتك حبيبًا مضى ، وعهدًا تقضى . أم لم توقظ ذكرى الساعات اللذيذة والأمانى والأحلام الحلوة ، التى هى جمال الحياة ، حتى كأنك تسمع تغريد العصافير فى صدرك ، وتجد لذة ليس بعدها لذة ، فى النظر إلى الأشياء حتى كأن الله قد كسا وجوه الحياة بنور من نوره . ولقد تنقلب الألوان فى أيام الشقاء والتعاسة ، فتصير جمرات مختلفة الألوان فتحس لهيبها فى العين والقلب . وكذلك فى الروائح لذة وألم . فإنى أحيانًا أشم الروائح العطرية بعنف ، كما يلتهم الجوعان طعامه ، ولكنى تؤلنى الرائحة الكريهة ، مهما خفيت وأتاذى بها كما أتاذى بالخطب الجلل ، وأتمنى أحيانًا ، لو تكون الحياة فى يدى خرفة أريق عليها ما أشاء من الروائح العطرية . آه ما أجمل الحياة ، التى يشم صاحبها منها رائحة الفل أو الياسمين أو البنفسج .

إن لذات الحس ، قد تبلغ بالمرء جنون اللذة ، ولكنها تبلغ به أيضًا جنون الألم . ومن كان كذلك ، لم ترج له سعادة فإن السعادة أن لا يكون إحساسك شديدًا .

آه ليتنى أمد يدي إلى السماء فاخطف بها الضوء ، وأخط به على القرطاس خدودًا مثل خدود الحسنان ، وعيونًا مثل عيون الملاح . تلك العيون التى تضى وجه النهار ، وتلك الحدود التى تنير وجه الحياة .

سماء الأمل

إن الأمانى والأطماع ، من أسباب الشقاوة ولكنها أيضاً عن مصادر السعادة . وهى بنات الخيال المستفز . ويخيل لى أحياناً أنها تملأ هذا الهواء الذى أنشقه . وقد يخيل لى أنى إذا نظرت فى المنظار المكبر ، رأيت جراثيمها فى الفضاء ، كالذباب الكثير الألوان الذى يتهاقت على الرمم . ومن أجل ذلك ؛ صرت كأنى مريض بالأمانى . وكانت الأطماع تحوم حولى من صغرى ، وتطن فى أذنى طنين الذباب وتارة تسمعنى ألحان البلابل ، وتليح لى بضياء يملأ السماء ، فكأنها قد فتحت أبوابها وخرج منها ذلك الضوء الذى يعشى البصر . وكأن هذا الضوء سلم ممدود بينى وبينها فأحب أن أتعلق به ، وأبلغ به طبقاتها العالية ، وإنى لأذكر فرحى بقوس قزح وأنا غلام صغير إذ كنت أصفق وأرقص طرباً برؤيته وأتمنى لو كنت مثله أزين السماء بتلك الألوان الرائقة . وكلما كبرت ، تمكنت من قلبى تلك الأمنية ، فأتمنى لو أعيش كالشمس أشرق كشروقها ، وأغرب كغروبها ، وأملأ السماء ضياءً وأنشد قول الأحوص .

إنى إذا خفى الرجال وجدتنى

كالشمس لا تخفى بكل مكان

هكذا خلفت كثير الأمانى والأطماع . ومن أجل ذلك ، كنت أيضاً كثير البأس ، لأن من سما بع الأمل إلى سمائه ؛ لابد أن ينزل به البأس إلى حضيضه . ولقد كنت وأنا غلام صغير ، أصدع إلى سطح المنزل بالليل ، وأسهر الساعات الطوال ، كى أرى ليلة القدر ؛ ثم أحدث نفسى قائلاً : ماذا أطلب من الله ؟ أطلب الغنى ، أم الصحة والعافية ، أم السعادة أم التقوى ، أم القوة أم كبر العقل ورجاحة الفضل ؟ فتدركنى الحيرة وأخشى أن تظهر ليلة القدر وتنقضى وأنا فى تلك الحيرة ، لم أختبر بعد الشئ الذى أطلبه ، وعند ذلك أطلب من الله أن يؤخر ظهورها قليلاً ، ثم أرى أن أطلب كل شئ وصارت هذه الأطماع تعظم كلما كبرت ، فصرت أقضى الساعات فى أحلام الأمانى ، فتارة أحلم أنى زوس سيد الآلهة ورئيسها أو هرقله إله القوة أو مارس إله الحرب . وتارة أحلم أنى أفلاطون الفيلسوف أو باكون ، وتارة أحلم أنى

شكسبير أو ملتون أو وردزورث أو جيتى أو ابن الرومى أو المتنبى . وتارة أحلم أنى نابليون أو
 اسكندر الأكبر أو بوليسوس قيصر أو كريستوف كولومب ، وتارة أحلم أنى جمس وات أو
 فارداي أو أركميدس . وتارة أحلم أنى جمعت كل هؤلاء فى شخص واحد، فكأنى لبست كل
 أزياء العظمة ، وكتبت كل شئ جليل فى الشعر والأدب والعلوم والفلسفه واخترعت كل
 مخترع وغزوت العالم، وفتحت السماء والأرض . ثم أصحو من هذا الحلم، فأسمع توبيخى
 المدرس الذى يطلب منى أن التفت إلى الدرس . فأتعجب من جرأة هذا المدرس على توبيخى
 بعد أن عملت هذه الأعمال العظيمة .

هكذا كنت ، ولكن رياح الحوادث قد أطفأت نور هذه الأطماع ، فلا أستضىء الآن إلا بنار
 اليأس .

أحلام الأدياء

إن كل أديب أو شاعر أو فيلسوف فى أول أمره، أى فى شبابه ، يحسب أنه مركز هذا الوجود. وأن كل شئ فيه، من أجرام أو علوم أو آداب أو أنظمة أو آراء أو عواطف ، تدور حوله ، منجذبة إليه . فيظهر الشاعر، وفيه من الكبر والغرور ، ما لو وزع على الناس للأ نفوسهم . فيرى أن أشعاره هى الشعر وليس غيرها شعراً ، وينظم القصيدة فكأنه قد تمخض عن وليد . ويحسب أنه لو وضع شعره فى كفة ميزان ، ووضع الوجود فى كفة أخرى، لرجح شعره، ويرى أن الذكاء مقصور على الشعراء ، ويحسب أن كل حسناء تنشد قول شوقى « أنتم الناس أيها الشعراء » فإذا نشرت له قصيدة فى الجرائد، حسب أن قد قرأها جميع الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأنها قد سارت بها الركبان وأن ليس للناس حديث غيرها، وأن الملائكة تتغنى بها وتحذو بها الأفلاك فى دورتها، وأن أهل الجنة يتخاطفون الجريدة التى نشرت فيها، وأنهم يتسابقون إلى قراءتها، وأنها تلهيهم عن الرحيق ، وعن غير ذلك ، من ملذات الجنة. وأن الحور والولدان ترقص فى الجنة على نغمها وأنهم أرسلوا إليه وفدآ يهنئنه بها ويشكره عليها.

ما أشد الدافع الذى يدفع المرء إلى ما تنهياً له نفسه وما يميل إليه قلبه من الأعمال ، حتى ولو كان رزقه فى غيرها. إنه ليلهمى المرء عن معاشه ومورد كسبه ورزقه وإنه ليلهمى عن كل ما تطيب به الحياة من الجاه، والمنزلة العالية. إنى لأذكر يوم نشرت لى أول قصيدة وقد اشترت الجريدة التى نشرت فيها، وصرت اقرأ القصيدة مرات عديدة . وكان يخيل لى أن الحروف ترقص على الجريدة وصرت أخبط خبط الضال فى الطرق والأزقة . وكلما نظر إلى أحد حسبته قد قرأ القصيدة وأعجب بها، وكان يخيل لى أنها أحدثت ثراً باقياً فى نفوس الناس ، وأنها أصلحت من عواطفهم وقوتها وزادت فى عظم نفوسهم وأنها ستحدث تغييراً كبيراً فى سائر الوجود وأنظمته ، وخيل لى أن الهواء الذى كنت أنشقه فى ذلك اليوم غير الهواء الذى أنشقه كل يوم . بل ذاك كان أرق وأحلى. ولا يعدل مقدار هذا السرور شئ غير الحزن والغيظ الذى نالنى حين قرأت نقداً لها فى إحدى الجرائد فخيل لى عند قراءته أن هناك مؤامرة فى هذا الوجود، يراد بها ضرى والإساءة إلى. ولكن بعد ذلك ، ألفت المدح والذم وألف المدح والذم ، يفيد فى

الحياة. أليس يغيظك أن يمدحك رجل ثم يغضب إذا لم تشكره على مدحه ، فإن هذا المادح إنما يمدحك كي تغتبط بمدحه وهو يحسب أنه لو ذمك لحزنت لذمه . هذا ولاشك غرور منه وعدوان . أى رغبته فى أن تعلق فرحك وحزنك بحسن رأيه أو سوء رأيه فيك . ولا أكتفك أنى أحتقر رأى الجماهير، فإن ذوق الجماهير فى الآداب والفنون فاسد فى كل مكان . فهم ينحسبون أن من أجاد التهانى والمدح والمراتى والأهاجى ، وأوصاف الحوادث اليومية الحقيرة، كان من الصنف الأول من الشعراء . وأنا لأعد هذا من الصنف العاشر. هذا شاعر الحقائر، شاعر المظاهر الكاذبة والقلوب الكاذبة . وإنما الشاعر: شاعر القلب، فهو الذى يصف عواطف النفس وأطوارها . فيصف عواطف الحب والجمال والجلال، والخوف والفرع والأمل، واليأس والرحمة والكره والحقد والبخل والجود والشجاعة والجبن وغيرها من عواطف النفس وأحوالها . وهو الذى يصف أساليب الحياة التى تجول فيها هذه العواطف كل مجال ، ومظاهر الوجود التى تتعلق بها العواطف . فهو الشاعر الذى عواطفه مثل عواطف الوجود، مثل الأمواج أو الرياح أو الضياء أو النار أو الكهرباء . فإن هذه عواطف الكون. وهو الذى يحكى قلبه الأركستر الكثير الآلات ، الكثير الانغام. ولكن ينبغى لمن يحس فى نفسه عظمة الفكر وجلاله وقوة العواطف ، أن لايفتر بها فإن الناس يهتمهم اسم الأديب أو العالم ، ويحفلون به أكثر مما تهمهم مؤلفاته حتى بعد موته، أليس الناس تهمهم أسماء شكسبير وفكتور هيغو وجبتي وأقلاطون وأرسططاليس أكثر مما تهمهم مؤلفاتهم .

أطوار العقيدة

لقد كنت فى صغرى كثير الاعتقاد بالخرافات ، وكنت ألتبس العجائز من النساء ، أسمع قصصهن الخرافية ، حتى صارت هذه القصص قلاً كل ناحية من نواحي عقلى ، وحتى صارت عالماً كبيراً ، ملؤه السحر ، والنفاريت ، وحتى صارت النفاريت حولى ، تحل حيث أكون . وأذكر أنى رأيت مرة عفريتاً على سطح منزلنا ، وكان أسود الجسم ، شخصه مثل شخص الإنسان ، ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف . ولا أدري أكان عفريتاً ؛ أم كان من مخلوقات الخيال؟ أم من ظلال الثياب التى كانت معلقة على الجبال لتجف . ولما حدثت العجائز بأمر هذا العفريت ، جعلن يعلقن على جسمى التمانم ، ويرقنينى بالرقا .

ثم أتى على بعد ذلك دور التعب ، إذ كنت كثير الصلوات كثير الأوراد ، أكثر من قراءة كتب المتعبدين ، فكنت أقرأ فيها عن العبد الصالح ، والعبد الفاسق ، وعن عقاب الله الفظيع وكانت هذه الكتب تشرح لى عقاب الله بالغاً من الفطاعة حداً لا يطاق . فكنت أقوم من النوم مذعوراً حينما كنت أحلم بذلك العقاب . وكنت أقرأ فى تلك الكتب عن كرامات الأولياء من إحياء الموتى وإماتة الأحياء ، ومن إزالة العمى عن أعين أهل العمى ، وإزالة البصر عن أعين أهل البصر . ولم يمنعنى هذا التعب الشديد من مواجهة الشهوات ، بل كانت كثرة مواجهة الشهوات بقدر شدة التعب . فلم يمنعنى تخويف تلك الكتب وإرهاقها من اللذات . بل كان يفزعنى من عواقبها فى الآخرة . وقد كنت أحسب من فزعى أن كل كلمة أقولها ، وكل عمل أعمله ، جرمة كبيرة ، فكنت أبكى وانتحب خشية عقاب الله . حتى إذا قضيت حاجة أعصابى المهيجة من البكاء والانتحاب ، رجعت إلى مواجهة الشهوات ، من غير أن يعوقنى عنها ذلك الفزع وذلك البكاء ، لأن الفزع نتيجة قراءة تلك الكتب والبكاء ، حاجة يسلمها هياج الأعصاب .

كما أن للشهوات حوائج أخرى فلما يعوق عنها الفزع من عواقبها ، وقد بلغ بى الفزع من عقاب الله أنى كنت يخيل لى وأنا نائم ، أن فوق الفراش عقارب وثعابين . بعثها الله لعقابى وأحيانا يخيل لى أن الفراش كله من جمرات نار فأنتبه مذعوراً صارخاً .

ثم تركت بعد ذلك قراءة كتب التعبد ، وجعلت أقرأ كتب الشعر والأدب ، ففطنت إلى جمال الحياة وقللت مطالعتها من ذلك الفرع الذى كان باعته الدين . ثم أتى على دور الشك والبحث والشك إذا ابحت العنان جرى بك فى كل مكان حتى يريد أن ينزل الله عن عرشه وأن يعزله عن ملكه ، وما يزال الشك بالمرء حتى يدفعه إلى الإنكار والجحود .

نحن الآن فى عصر لا ترقى معه إلا إذا خلصنا من رق الأوهام والخرافات التى هى كالأغلال والقيود . ومن أجل ذلك ، صرت أتعصب للإنكار والجحود بقدر ما يتعصب غيرى للإيمان . غير أن هذا الإنكار يخيفنى ولا يرضى ذهنى ، فلا يفسر لى شيئاً . لا يفسر لى من أنا ولماذا خلقت وإلى أين أذهب ؟ فنفسى من النفوس التى لاتقنع بالإنكار لأن لها حاجات دينية ليس لها غنى عنها . ومن أجل ذلك ؛ كان الإنكار يورثنى اليأس والحزن ، فكنت أهيى فى شوارع المدينة ليلاً ؛ لأن الليل أشبه بما كنت فيه من اليأس والحزن . وكنت أنظر إلى النجوم وهى تنظر إلى بحزن وإشفاق وإسالتها عن الحياة والموت ، عن البقاء والفناء ، عن الله والإنسان ، عن الدنيا والآخرة؛ فتتأمل إلى بحزن وإشفاق . ويخفق سهيل كأنما يهز رأسه قائلاً لا أعرف عنها شيئاً فتصير الحياة أثقل من الكابوس أو كأنها حلم فظيع يروع ويقلق ولا يبعث الطمأنينة والسكينة . فأعيد النظر إلى النجوم وأقول هل فىك من كوكب كريم بضحي نفسه خدمة للناس فيصدم كوكبنا الذى نسميه الأرض فيهشمه ويتهشم ، ويستريح جميعاً من عبث الحياة وامرصها ومصائبها ويؤسها وشقائها وجرائمها وحماقتها ، وذلك الجهل العظيم الذى يضغط علينا كالكابوس . اللهم ارسل كوكباً نشيطاً من عندك يقوم بهذا الأمر ، فتومض النجوم كأنما وميضها وميض أسنانها حين تفتح أفواهها قائلة آمين... آمين .

وقد رجعت إلى الإيمان لأستفيد منه شيئاً جديداً ، فعلمنى الإيمان أن للوجود روحاً كبيرة لها حياة وشخصية ، وأن هذه الروح توحى إلى أرواح الأفراد بما تريد ولها من المقادير جنود ولكنى على شدة إنكارى لمعتقدات العامة ، تمر بى حالات أعتقد فيها كل شئ حتى السحر ، وحتى ما يخرق سنن الطبيعة ويعلقها عن العمل كما يقول النحويون .

أما السحر فإنى أفسره بتغليب إرادة على إرادة ، وأنه نوع من التنويم المغنطيسى ، أما السنن الطبيعية فإنى أبغضها لأنها تعوقنى عن أطماعى وآمالى . ومن أجل ذلك لا أرى بأساً فى خرقها ، وأكثر ما أكون إيماناً عند المصيبة أو المرض ، فإن أمثال ذلك يذل قلب المرء ويخيفه ويوهن عزمه . وفى بعض الأحيان أخاف خوفاً شديداً أن يظهر لى ابليس ، وأن

يخدعنى كما خدع فوست فأتلقت كى أثق أنه لم يظهر بعد . وفى بعض الأحيان أعتقد وجود العافريت والجن ، كما كنت أعتقد فى أيام صغرى .

لقد سمعت البارحة القطط تعوى وتصرخ، مثل عواء المجانين أو عواء الأرواح الحائرة المعذبة، التى تتخذ الليل جلباباً ، ثم تفرغ فى ذلك العواء ما تقاسيه من العذاب . فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس ، إذا حاولت الكلام لم أشك فى أنها عفاريت من الجن وأصابتنى رعدة شديدة، ومما زاد الطين بلة ، كما يقولون ، أن النافذة كانت مفتوحة ، وكان يصيبنى منها تيار بارد من الهواء فحسبت رعدة البرد من فعل العفاريت .

وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنه عواء جنية أصابها الموت فى ولدها . إن النفوس تتأثر بالأصوات تأثراً غريباً ، لاسيما عند هياج العواطف. انظر مثلاً إلى صوت فرع الباب فى قصة ماكبيث ، أو إلى صوت لبومة الذى يسمعه الخائف فى المكان الخراب الموحش ، أو إلى صوت الغراب الذى يسمعه المتشائم ، أو إلى صوت الرعد الذى يسمعه القاتل .

لذات الحياة

نرى فى الناس الضاحك الجذل الذى يزل الخوف عن صفحات قلبه زلول الماء عن صفحات جلده. ونرى فيهم الحزين الباكي الذى يبكى على الحياة والناس والدنيا ، والذى يرى النعيم والشقاء كبليين من كبول الحياة ، الذى يرى أن الأرض قبر الأحياء ، وأن السماء غطاء ذلك القبر . ولكنى وجدت نفسى تارة أقرن مع الأول وتارة الز* مع الثانى فإننى أرغب فى لذات الحياة حتى لو اختبأت منى لذة تحت قدم غلّة ما فإننى أرى فى الضياء لذة ، وفى الظلام لذة ، لذة فى النعيم ولذة فى الشقاء . لذة فى الألم وألما فى اللذة . أرى لذة فى استنشاق الهواء حتى ولو كان كله جراثيم . أرى فى النشاط لذة ، وفى الكسل لذة وفى الاستضاءة بالقمر لذة ولذة فى الإستضاءة بالشمس ولذة فى الاستضاءة بالفتيلة . أرى لذة فى الاضطجاع على الأرائك . ولذة فى القعود على الأرض . لذة فى الطعام الفاخر واللباس الفاخر ، ولذة فى المش والفجل ، والثياب ، الثياب الخلقّة ، أرى لذة فى حرارة الشمس ، ولذة فى برودة الهواء . لذة فى المطر والغيم ، ولذة فى الصحو. أرى لذة فى الصّباح وحسن مرآة . ولذة فى الظهيرة المكسال. لذة فى المساء ووقاره ، ولذة فى الليل وسواده ونجومه ونسيمه. أرى لذة فى الماء ، ولذة فى النبيذ وغير ذلك من الأشرية ولكنى ، بالرغم من ذلك ، كثير التفكير فيما أعانيه ويعانيه الناس ، وما قد عانيناه وما سنعانيه من آلام الحياة ومصائبها . وأدوائها. وأرى كأن الحياة حمل ثقيل ، وحلم يروع ففى بعض الأحيان أحسب أن شقائى فى الحياة أعظم من لذتى فيها. ولكنى أراجع نفسى ، فأحسب أن لذاتى فى الحياة أعظم من شقائى . ولاعجب فى ذلك الشك ، فإن من كانت لذاته عظيمة ، كانت شقاوته عظيمة . حتى أنه ليشك ، فلايعرف أى الجانبين أرجح . نعم قد شربت كأس الشقاء حتى لم أدع فيها بقية ، ولكنى جرعت أيضاً كأس اللذات حتى لم يبق فيها سؤر. وحتى امتصصت ما علق بالكأس من حلاوة الحياة ، وكنت وأنا أنعم بالحياة ، كأنى قد استعرت من الوجود عظمه وعواطفه ، فكنت لا أبالى فى حب الحياة كل رادع أو زاجر أو مانع أو لوم أو أمر أو نهى . كنت أحس أن نفسى غير مقيدة بقيود

العادات والحزم كنت أحسن أن نفسى إله أعظم له أن يفعل ما يشاء . وكنت أتمنى أن أقطف أزهار الحياة كلها ، وأن أخرج من الحياة عطرها ، فإن للحياة عطراً كما أن للزهر عطراً . كنت أتمنى أن أمتع نفسى بكل شئ فى هذا الوجود ، وفى كل وجود تتصوره وتتوق إليه النفس . كنت أتمنى أن أعانق الوجود ، وأن أقبله قبلة أمتص بها كل ما فى روحه من الجمال والجلال ، فأتذكر عند هذا التمنى قول الشاعر:

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً

لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذى لاكله أنت قادر

عليه ولاعن بعضه أنت صابر

عشق أصحاب الفنون

إن ألد شيء فى الحياة ، هو قدرة المرء على أن يجعل إرادته غالبية لإرادة مخلوق جميل . وبواسطة ذلك التغليب، يبحث عن روح ذلك المخلوق الجميل، ويعطيها من آرائه وعواطفه وخيالاته . فحينئذ يكون كأنه أعطى لآرائه وعواطفه ، جسمًا جميلًا هو جسم ذلك المخلوق الجميل . ويكون مثله مثل صانع التماثيل ؛ الذى يودع آراءه وعواطفه فى ذلك الرخام الذى يصنع منه حسان الدمي . ولكن الشاعر المحب أجل صنعة ؛ لأنه يودع عواطفه وآراءه فى روح حية ، وجسم جميل حى . وينظر الشاعر المحب إلى جسم حبيبه، كأنه ينظر إلى تماثيل آرائه وخيالاته وعواطفه . أه ما ألد تلك الساعة التى تشعر فيها أن حبيبك يجد لذة وسعادة فى حبك إياه . إن حب الشاعر أو غيره من أصحاب الفنون الجميلة، غير حب الفرد من أفراد جمهور الناس، لأن حب الأول وسيلة ؛ ولكن حب الثانى غاية يسعى إليها . أما حب أصحاب الفنون الجميلة ، فإنه وسيلة يريدون أن يوقظوا بها قواهم وملكاتهم الكامنة ، ويشعلوا بها التخيل ويهيجوا بها العواطف ، ويجعلوا حبيبهم تماثيلًا لما ينشدونه فى فنونهم من الجمال .

لقد مضى على زمن كنت أعد الجمال فيه عقيدة . ولكنى الآن أكاد أعد هذه العقيدة خرافة ، مثل غيرها من الخرافات ؛ التى كنت أحسبها عقائد، لأننى صرت أشك فى الفنون وقيمتها فى الحياة .

الإحساس والحياة

ليس الشاعر من يملأ أذهان قومه بالمعاني الجديدة والآراء الجلييلة؛ وإنما الشاعر الذى يملأ قلوبهم بالرغائب الجديدة؛ والذى يقوى عواطفهم ، لأن العواطف هى القوة المحركة فى الحياة* والأديب العظيم؛ هو من كانت كلماته كهرباء النفوس ؛ هو الذى يُحرّك النفس ؛ كما يحرك العواد عوده ؛ فيوقع عليها من الألحان ما تحتاج له قوى النفس فى أعماقها . هو الذى يجعل لكل عاطفة من عواطف النفس ؛ روحاً وحياة وشخصية . لأن النفوس يعلوها صداً مثل صداً المادة، ولا يجلو عنها هذا الصداً إلا ما يحرك أعماقها فى النفس ؛ كالماء الراكد الذى تعلوه المواد العطنة . وكما أن هذا الماء الراكد لا يجده غير تيار جديد. كذلك الروح ينبغى أن تكون معرضة للتيارات الروحية . وليست حياة الأديب إلا تياراً من تلك التيارات التى تحرك النفس. لقد كنت فى أول الأمر أحسب أن الأديب حلية لقومه، وأن الأدب زينة فكنت أقضى الأيام فى تصيد الألفاظ، واختلاس الأساليب اللفظية . ولكنى ضجرت من هذه المنزلة الحقيرة، وقلت: إن كان الأدب فى تصيد الألفاظ ، فلاخير فى الأدب. ثم فطنت بعد ذلك ، إلى الحياة وأساليبها، وإلى الروح وعواطفها . وعلمت أن الشاعر ، هو الذى يعبر عن أساليب الحياة، وعواطف النفس ، ولا يستقيم له ذلك إلا إذا تقلب فى أساليب الحياة، وكانت عاطفة مثل البحر الزاخر، بل كانت كل عاطفة فيه، عاصفة تبعث الخوف والجلال. ومن أجل ذلك ، صرت أجد لذة وألماً فى هياج العواطف . وكنت أبحث فى عواطفى ، وهى هائجة ، كأنى أنظر إلى الرياح الهوج العمر*، أو الحريق المتلف. وأجد فى تلك العواطف ما أجده فى قوى الطبيعة . وكنت أبحث فى قلبى بعد سكون هذه العواطف ، فكأنى أنظر إلى مكان خراب دمرته العواصف ، أو إلى ميدان الحرب بعد الحرب، كله أشلاء وأطلال . ولكن الضرر الذى يحدثه هياج عواطفى ؛ أقل من الضرر الذى يحدثه خمودها وسكونها . لأن روحى لا حياة لها إلا إذا اشتعلت فهى تحيا بأن تحترق وتفتنى نفسها .

فإذا خمدت عواطفى أحسست كأن هذا الوجود كله يضغط على قلبى ، فأحس كأنى أكاد أختنق . وفى مثل هذه الحال، يخيل لى أن لو وضع هذا الوجود كله فى كفة ميزان ، ووضع

* هكذا فى الأصل ؛ ولعل الصواب «العباب القمر» كما يقتضى السياق. «المحرر»

ضجرى ومللى من الحياة فى بكفة ، لرجع مللى وضجرى ومن أجل ذلك ، أجتهد دائماً أن أهيج عواطفى فراراً من ذلك اليأس الذى يأتى به جمودها. ولقد بلغت بى تلك الحاجة إلى تهيج العواطف ، أنى أحياناً أطل على الأماكن المنخفضة من الصخور، أو البيوت العالية : فأحس دواراً غريباً . وكأن نفسى أعمق من الأبد . وكأن فكرى يهوى فى عمقها الذى لانهاية له، ثم أرمى بنفسى إلى الورا ، لأننى أحس اندفاعاً إلى ذلك المكان المنخفض . وأحياناً أقف على شاطئ البحر، وكأن عينى زجاج آلة التصوير فينتطبع هياج الأمواج فى نفسى ، وفى عواطفى وأحياناً أحس كأنى سهم قذف به فى الفضاء ، فهو إلى الأبد يخترق ذلك الفضاء الذى لانهاية له .

أذكر أنى رأيت مرة حريقاً هائلاً فى جنح من الليل؛ فهيج فى قلبى عواطفه ، ولم يهيج سطح العاطفة ، بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال ، جلال ذلك المنظر الهائل ، وبرقت عينائى حتى كدت أرى بريقها ، وصارت النار تأكل المنازل فتتهدم ، وتنهال وتتصاعد ألسنة النار، والدخان يعلوها والظلام حولنا، وعلى أوجهن نور يزيدنا شحوباً . فكأننا نحن فى الأحلام وكأننا لانرى حريقاً ، بل قطعة من الجحيم . وكنت أحس لفح تلك النار فى خيالى وذهنى. وأذكر أنى رأيت هياج الأمواج فى المحيط ، فأحسست ضعف الإنسان وقوته؛ ضعفه أمام قوى الطبيعة ؛ وقوته التى فى خياله وقلبه ، والتى تمكنه من أن يجد لذة حتى فى مظاهر الطبيعة التى تهيج خوفه وتبعث فى قلبه الإحساس بالجلال .

هذه هى المناظر التى التذها ، ومن الغريب أنى يخيّل لى أن هذه المناظر ، وما تبعثه من الإحساس تعين المرء على تفهم معانى الحياة ومعرفة سرها ولكن كيف ... هذا لغز أشد غموضاً من لغز الحياة نفسها . استغفر الله أنا لا أعتقد أن للحياة لغزاً ، لأن هذا الاعتقاد يكون إحسان ظن بالحياة ، وهل من العقل أن نحسن الظن بالحياة إلى هذا الحد ؟ ليست الحياة لغزاً، بل هى نكتة باردة لامعنى لها- استغفر الله- لقد حرت فى أمرى ، فلا أعرف هل الحياة لغز عجيب جليل، أم هى نكتة باردة .

أكبر ظنى أن الخيال ، هو الذى يجعل الحياة لغزاً لأنه يعطيها قيمة أكبر من قيمتها، وهو الذى يجعلها نكتة باردة لأن المغالاة بقيمتها تؤدى إلى اليأس منها .

الغرور

إنى إذا قلت كلمة أو فعلت فعلاً يبعث سخر الناس، أعانى من توبيخ الضمير من أجله؛ أكثر مما أعانى إذا أتيت جريمة. فإن المرء مهما عظم احتقاره الناس؛ يتألم من سخر الناس، أكثر مما يتألم لهم إذا أصابهم بسوء. فليس الذى يصيبه بشر أعز عليه من نفسه، حتى يتألم له. ولو كان تألم المرء إذا أتى جريمة، لمن وقعت عليه الجريمة، لما تألم كثير من الناس من جرائمهم. وإنما تألم المرء إذا أتى جريمة، أن اتيانها يفسد أعصابه، مثل إدمان الزنى أو إدمان معاورة الخمر فهذا التألم، ناشئ من تأثير الجريمة فى أعصابه ونفسه.

فاذا سخر الناس من رجل من أجل كلمة قالها، أو فعل فعله، عانى هذا الرجل من ضميره تأنيباً على ما قال، أو فعل. لاسيما إذا كان كثير الإحساس، فإن المرء ليس عنده شئ أعز عليه من نفسه. فاعجاب المرء بنفسه؛ أعز عليه من فضائله ومن رذائله وبعض الرذائل، عزيز ومن حسناته ومن سيئاته. فاعجاب كل امرئ بنفسه جزء من حياته، لاتستقيم الحياة إلا به. والناس أشباه سواسية فى هذا الأعجاب، سواء الأمير وسائق الحمير. فإن كل الناس مغرور؛ ولكن على حسب طبائعهم تختلف أنواع غرورهم. والغرور من أسباب سوء الظن، فإن من كان مغروراً، خشى أن يهينه أو يؤلمه الناس. وهذا الخوف، قد يزداد بالمرء حتى يجعل إحساسه مثل جلد اللديغ الذى إذا احتك به الحرير آلمه.

وما يدر بنى؛ ربما كانت معائب الإنسان فى الإنسان مثل الملح فى الطعام. أليس غرور الناس من التوايل التى تسبغ بها الناس. ولا أنكر أن التوايل والأملاح؛ إذا أكثرت منها أتلفت عليك الطعام. وكذلك الغرور، إذا أكثرت منه، لم تسفك الناس. ولكن هذا الإكثار لا يقلل من فضل التوايل ولا من مزايا الغرور. والغرور شئ يصح أن تصرف به الضمائر، فتقول أنا مغرور، وأنت مغرور إلى آخر ما ذكر النحويون من الضمائر.

استعرض على خيالك جماعة من الناس، ليس عندهم شئ من الغرور. إنك لتكلف نفسك شططاً، لأن المرء إذا لم يكن فيه نوع من الغرور، فإنما سبب ذلك، أن فيه نوعاً آخر من أنواعه. فالضاحك مغرور، والباكى مغرور، والفقيير مثل الغنى، مغرور بما يجده فى العيش من اللذات والآلام. فهو فى ذلك، مثل الغنى حذوك النعل بالنعل، لا يختلفان إلا بمقدار ما تختلف القدم اليمنى والقدم اليسرى. والجواد مغرور بماله مثل البخيل والغبى مغرور بعقله مثل غرور صاحب الذكاء بذكائه، وصاحب التفوى مغرور بتقواه، مثل غرور صاحب العهر بعهره.

الخوف والعى

إن الرجل الذى يخشى إيلام الناس إياه، مثل النبات الذى لا يعيش إلا فى بيوت الزجاج . فإن خوف المرء أن يؤلمه مؤلم، يضعف عزيمته ويمنعه من العمل ، والسعى إلى ما فيه منفعته . ويعوده البأس من الناس، ويورثه العى ، ويغضى على فصاحته ، ويلبسه ثوب الغباوة ، فيخفى ذكاه خشية أن يكون فى كل قول يقوله ؛ أو عمل يعمل ؛ ما يبعث إهانة الناس إياه، أو سخرهم به ، ومن أجل ذلك : تقف الكلمة فى حلقة خشية أن يصيبه من جراها ما يؤلمه ، فيتردد فى إخراجها؛ فيكون كالآخرس إذا حاول الكلام ، فتسقط الفرص من يديه ، كما يسقط الماء من ثقب الغريال .

ومن أجل هذه الصفة التى أعالجها وأعانيها ، صار من لا يعرفنى إذا سألتنى سؤالاً وترددت فى رجايته ولم أحسن الكلام، يحكم على بالعى والغبا . ولو تفرس فى وجهى فى تلك الساعة، وكان أكثر الناس معرفة بالفراصة ؛ لقال هذا ملك الأغبياء . والسبب فى ذلك أن كل عصبى المزاج : مهيج العواطف تختلف هيئات وجهه حسب ما فى نفسه وذهنه . وقد لاحظت ذلك بالنظر إلى أوجه الناس . فإن الوجه يختلف حسب أطوار النفس، وأحوالها، حتى كأن للمرء أوجهاً كثيرة . ومن أجل ذلك، تختلف صور الرجل العصبى الفوتوغرافية ، حسب ما يجيش فى صدره من العواطف .

إنى فى خلوتى بنفسى ، أعد الكلام البليغ والحجج الراجحة ، والكلمات اليليفة، وأتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس، تكون كل كلمة من كلمائى فيها آية من آيات البلاغة . ولكنى إذا لقيت هؤلاء وحادثتهم ؛ لم أجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم إذا خلوت بنفسى بعد ذلك؛ أقول كان ينبغى أن أقول لهم كذا وكذا فينتطق لسانى بالكلام الفصيح البليغ ، ولكن أى مزية فى أن يكون المرء عيباً فى المجالس ، فصيحاً فى الخلوات . وهذا سبب من أسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس سكوتى ووحدتى ، فيحسبون حياتى هادئة مطمئنة، وتفرهم مظاهر سكوتى، كما يفر مجاور البركان الذى لا يعرف متى يشور مظاهر سكوته وخموده . فإن سكون المرء يخفى عواطف نفسه، إلا ما بدا للناس منها فى عينه وأسرة وجهه . ويحسب الناس أنى سعيد وما أنا بسعيد .

إن العواطف سبب شقاء الناس وعظمتهم ، وسبب سعادتهم وتعاستهم ؛ وسبب مصائبهم ومحامدهم وهى سبب لذاتهم والأمهم إنها قملأ الحياة نارا ولكنها أيضا قملأ الحياة نورا فما أقبح الحياة . والحياة وابزدها* وأغشها لولا جمال العواطف، وما أجمل العواطف لولا مصائبها والآمها . أه يا صديقى أبعد ترمى بالحياة والنظر فيها؛ تطلب منى أن أومن بها وبمال الناس فيها، ولو كان ذلك موكولاً إلى لآمنت بها . ولكن للنفس أطواراً وأحوالاً يستحيل فيها الإيمان بالحياة .

وسائل النجاح

من العيوب التى حالت بينى وبين النجاح فى كثير من أمور الحياة أنى أحتقر الأشياء الصغيرة ، فلا أطلب معرفتها . وإنما وجه العيب فى ذلك ، أن الحياة مكونة من هذه الأشياء الصغيرة ، انظر إلى الساعة من ساعات العمر ، تجدها مملوءة من الحوادث الصغيرة والأشياء الحقيرة الدقيقة التى لا يحويها إلا التفصيل . ومن أجل ذلك ، كان الرجل الذى تفرس بأسباب النجاح لا يهمل شيئاً مهما صغر ، ولا يحتقر شيئاً مهما كان دقيقاً . فلا تعرض عليه شيئاً من الأمور اليومية ، وحوادث الساعات إلا فصله وشرح لك كنهه ومصدره وقيمته ، وقد حدثنى رجل من أهل النجاح مازحاً قال ، قد يكون النجاح فى الحياة رهيناً بإجادة مشية خاصة : أو بأن تعرف أن فى دكان فلان يباع الشئ الفلانى : أو بأن تعرف أن فلان بك الذى أنت صنيعته يعرف فلان باشا ، وأن فلان باشا يحب كذا من أنواع المأكولات ، وكذا من أنواع النساء ، أو بأن تذكر دائماً أن فلان بك يكره من يذم أمامه الكذب ، وأن الشيخ فلان يبغض من يمدح أمامه الأمانة . هذه أشياء صغيرة ، ولكن العمل بها ، قد يكون سبباً من أسباب النجاح . كما أن إهمالها قد يكون سبباً من أسباب الفشل - هذا ولاشك مزح ولكنه مزح ترقص فيه الحكمة رقص العريد . وأنا من الناس الذين لا يعرفون الفرق بين الخروف والدجاجة ولا أيهما أحلا فى حلق فلان بك ؛ ولا يهمنى أن فلان بك يحب رأيه أكثر من حبه الحق والصواب ، وأنه مفتون بمكانته مفرور بجاهه . ثم إنى أجهل أثمان الأشياء وأستحى من شرائها ، ومن أجل ذلك ، أود لو أمد يدي فأخذ كل ما أريد من الهواء ، وما زادنى رغبة فى هذه الأمنية؛ الكسل وحب الغريب المعجز ومن أجل حب المعجز أتمنى لو أملك خاتم سليمان الذى يسخر لى الإنس والجن آه ما ألد المعجز ؛ وما أجل المستحيل ، وما أحلا أن يستحيل المستحيل على غيرى من الناس وأن لا يستحيل على .

لو يستحيل المستحيل على الورى

وأنال من أحلامه ما أطلب

لمننت جنة قادر متحكم

يرضى على هذا الأثام ويغضب

وأخذت من هذى الحياة لبانتى

وشربت من أكوابها ما يشرب

إن الوراثة والبيئة والتربية رأس مال السعيد ، وإنك ليخيل لك ، أن فى الناس من تسعدهم هذه العوامل حتى أنهم لو تطلبوا الشقاء لما وجدوا إليه سبيلا . هنيئًا لهؤلاء ؛ فإنهم أبناء هابيل الذين يحبهم الله . وإن فى الناس من تشقيهم هذه العوامل حتى يأنسوا إلى الشقاء يابوس هؤلاء ، فإنهم أبناء قابيل الذين يبغضهم الله هؤلاء الذين رأس مالهم القمل والذل والمسكنة والجهل والالآم والمصائب ، وهم الذين أراد الله أن يخلقهم بهائم لائحس ، ولكنه رأى أن يعذبهم فى الحياة الدنيا ، فخلقهم من البشر ، هؤلاء هم أهل الفشل .

إن النجاح فى الحياة يستلزم طبائع لا يستقيم إلا بها ؛ وإنه ليخيل لى أحيانا أن ليس عندى هذه الطبائع ، مثل التمليق والرياء والنفاق والضعف والاهتمام بالأشياء الدقيقة الحقيمة والمكر والتطفل وارتقَاب الفرص الوضيعة ، واتخاذ كل وسيلة مهما كانت دنيئة ؛ لاكتساب ثقة الناس والإلحاح فى طلب المنافع منهم ؛ وإظهار الحاجة إليهم والتذلل لهم ، والتهافت عليهم وإخفاء مقابحهم مهما عظمت ، أو إظهارها فى مظاهر المحامد والفضائل ، وأن أكسر لهم سلسلة ظهري الفقيرة احترامًا وتبجيلًا ، وأن أضحك أو أهش أو أقهقه ، إذا تبسط أحدهم بالفكاهة الفشة الباردة . وأن أضعهم فى منزلة أفلاطون وسقراط إذا اجتهدوا أن يجدوا بالحكمة العالية ، وأن ابتسم إذا ابتسموا وأن أعبس إذا عبسوا ؛ وأن أجعل عرضى لهم خرقة أمسح بها أعراضهم النجسة . كل هذه الصفات ليس عندى منها إلا القليل النادر (هذا ما أظن) ؛ وافتقادها هو سبب من أسباب فشلى فى كثير من المساعى . ولا أكتمك أنى أحاول التخلق بها فلا يقرنى ذلك التخلق من رغائبي شبرًا ؛ كأنما هذه الصفات مثل كلمات السحر التى تؤذى من يفوه بها ، إلا إذا كان قد أجاد معرفتها . فأى ساحر كريم يعلمنى كلمات السحر التى افتتح بها باب النجاح ، فقد طرقت الباب حتى كل ذراعى ، وناديت بأعلا الصوت ، افتح يا سمس فما فتح سمس ولا صنوبر^١ .

ومن أسباب الفشل فى المهن ؛ أن رئيسك أبدًا يحاول أن تكون لك أربعة أرجل ضعة وذلا ، وأنت تأبى إلا أن يكون لك رجلان ويدان ، فإن بعض الرؤساء يجد شهوة فى تنفيذ أوامره . ويلتذ تعذيب مرؤسه كما يلتذ أهل نيام الزوج شى لحوم أسراهم من البشر . إن رئاسة هؤلاء الرؤساء من حجج أهل الفوضى ، ومن بواعث التذمر فى صدور أهل التذمر .

١- افتح يا سمس من كلمات السحر المستعملة فى قصة من قصص ألف ليلة .

الحياء والوحشة

إن الحياء من أكبر أسباب الفشل فى الحياة . وهذا الحياء ؛ يعتادنى إذا جالسنى أو حادثنى من لا أعرفه . وإذا كنت فى رفقة كلهم لى صديق ؛ غير واحد ، صاروا كأنهم كلهم أجنب لأعرفهم . ومن أجل ذلك ، صرت أستر هذا الحياء بالكبر والاحتجاز والتصلب واعتزال الناس، كى لا يزرى بى ويخفض من شأنى . فإن الحياء ينزل الرجل منزلة الصبيان الصغار ، ويغطى على فضله وأدبه وعلمه ، ولو شئت سردت لك من نوادر الحياء ما يوضح ذلك؛ ولكن ليس فريضة على صاحب الاعتراف ، أن يذكر كل نقائصه . هل فعل ذلك روسو أو جيتى أو شاتوبريان ؟ كلا إن النفس لاتسخر بذلك ، ولاتطيب ؛ فانها لاتقدر أن تنزع عنها غطاها كل النزع ، ومهما عظم نصيب صاحب الاعتراف من الصراحة ، فلا بد أن يكون عنده من الجبن والحزم واحترام النفس، ما يغريه باخفاء كثير من نقائصه ومعائبه .

لعلك أيها القارئ قد رأيت أو سمعت بغلام صغير إذا نظرت إليه خجل ؛ وإذا كلمته خجل؛ وإذا دعوته خجل ؛ إنى ما رأيت غلاماً كهذا إلا أشفقت عليه بما يستقبل من حياته . لأن هذا الخجل الشديد، هو رأس المصائب فلا ينتفع المرء معه بحياته . وإنه لفرض على الآباء والمعلمين ، محو هذا الخجل ؛ وأن يعودوا الغلام الجرأة . فان الوقاحة أقل شراً من الحياء . ولا يعرف قدر المصائب التى يأتى بها هذا الخجل، إلا من عالجها وعاناه، وهو أكبر عيوب التربية المنزلية عندنا .

لقد كنت فى صغرى كثير الحياء، وكنت أنظر إلى جرأة أترابى من الغلمان ، وحسن لهجتهم ، وأعجب بها وأتمنى أن أكون مثلهم . ولكنى لم أعود ما عودوه من الاعتماد على أنفسهم . أذكر أن أبى زار بى صديقاً له من الفرنسيين، وكنت صغير السن، وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى ، فجاء الغلام وصافحنا وحيانا بفصاحة وطلاقة ورشاقة أعجب بها الحاضرون ، وصاروا ينظرون إلى ويضحكون من خجلى . ثم جاء الغلام ومد ذراعه إلى كى نذهب فنلعب ، ولكنى انزويت وراء أبى، فلم أخرج إليه إلا بعد القيل والقال. وهذه قصة توضح الفرق العظيم بين تربيتهما وتربيتهما ؛ وكنت أخجل فى صغرى من الزائرين والزائرات وأستحي من النظر إليهن أو إليهن ، وبقيت متصفا بهذا الحياء ، حتى بعد أن عاشرت الكثير

من الناس، وليس سببه الهيبة والاحترام أو الخوف ، فانى لم أجد عند الناس من كبر العقل ورجاحة النفس، ما يسوغ أن أخجل منهم. وليس إعجاب المرء بنفسه ولا إحساسه أنه يفضل الناس ذكاء وعلمًا بمانعه من الخجل منهم، إذا صارت هذه الصفة طبيعة فيه .

ومن أجل هذا الحياء ، صرت لا أأنس بالناس ؛ وأحس قلقًا شديدًا عند رؤيتهم ؛ فيه شئ من المقت والاحتقار . فلا أحضر مجالس الناس، ولا أتخذ صاحبًا جديدًا إلا فى القليل النادر . ومن أجل ذلك ، وصرت أعوذ بنفسى أن أجالس أهل الجاه والثراء ، والذين لا يبالون عواطف جلسائهم وصرت أحب الوحدة فأتجول منفردًا فى الأماكن الخالية . وصرت لا أحب الأماكن التى يزدحم فيها الناس ، بل أبغضها كل البغض . ولا تحسب أنى أجد لذة فى الوحدة ، بل إنى أحس فيها وحشة وغربة . فأحس كأن قلبى صحراء مقفرة ، ليس بها أنيس ولا رفيق. ولا تحسب أنى استميتك الشفقة بوصف هذه الوحشة والغربة . فان رحمة الناس تقلل من احترام المرء نفسه ومن احترامهم إياه .

الحياة والرحمة

ولكن أى الناس فى غنى عن الرحمة . إنها مصدر قوة لمن أحسها؛ ولن وقعت عليه. فإنها تزيد المرء ثقة بنوع الإنسان، وتعدده لاستثناف مكافحة الحوادث ومناجزتها . وليس القوى العظيم، ولا الملك صاحب الجند والحرس، ولا المصارع الجليد؛ ولا السرى المنعم؛ ولا الوارث المتترف ؛ ولا صاحب الدهاء والقدرة؛ بأقل حاجة إليها من الأرملة المريضة، أو الطفل الرضيع ، أو الشيخ الضعيف . وهى أساس كثير من أنواع الحب . وقد يصدر عنها من الأعمال ما يدل على أنها مظهر من مظاهر القوة. والناس فى حاجة إلى الرحمة حتى ولو كانت رحمة عاقر، لا يصدر عنها عمل جليل. فإن إحساسها يولد التفاهم ؛ الذى يوقظ قوى النفس ، وينعشها . يقول نيتشه . إن الرحمة تضر نوع الإنسان .. إلا أنه لأحوج الناس إلى الرحمة . وأى الناس يقدر أن يحو من قلبه عاطفة الرحمة؛ إذا زار مستشفى ورأى الأمراض والأدواء ، وكأن المرضى تماثيلها . أليست هذه الدنيا أيضاً مستشفى كبير ونحن فيه تماثيل الأمراض والمعائب والنقائص والحقاقات والخرافات والجرائم. وإن من كانوا كذلك لخليقون بالرحمة .

ضعف العزيمة

إن ضعف العزيمة له مظاهر كثيرة، من مظاهرها عند المفكر، أنه يفكر فى ألغاز الحياة التى يود أن يوفق إلى حلها؛ وهى ليست لها حل . وإنى أحياناً أسلى نفسى بالتفكير فيها؛ وأتبع ما يصدر عن الناس من أقوال وأعمال . وأجتهد أن أجد فيها حلاً لهذه الألغاز . وأحياناً أتعب نفسى وأجلب لها الهم ؛ بهذا التتبع والاجتهاد فى حل ما ليس له حل . والسبب فى ذلك ، ضعف عزيمة المفكر ، فلولا ضعف عزمته، لما خطر بباله أن يجتهد فى حل ما ليس له حل من ألغاز الحياة؛ ولوجد فى الحياة والعمل، من اللذات ما يلهمه عن هذا التفكير ويغنيه عنه. وضعف العزيمة صفة فىنا، تلحقنا من طريق الوراثة ؛ كما تلحقنا من التربية المدرسية والمنزلية، فينبغى أن تعود التربية المرء الاعتماد على نفسه، ذلك الاعتماد الذى يبعث فى المرء نشاطاً وثقة بنفسه .

والتفكير إذا قملك المرء، وكان الصفة الغالبة عليه؛ يفقده الإقدام والنشاط وغير ذلك من مميزات الرجل الذى طبعه يميل إلى العمل؛ وكل شئ عملى من أمور الحياة . وليس معنى هذا القول إن التفكير ينفى قوة العزم، ولكن الصفتين لا يجتمعان إلا فى القليل النادر من الفحول . وفى بعض الأحيان أقول لو كان لى عقل أفلاطون ، لبعته بذهن من الأذهان التى يعيش بها الجماهير من الناس؛ وعزيمة كبيرة . فإن التفكير يغرى بالتفكير ؛ وهذا التفكير يغرى بغيره ؛ فتضيع الفرص قبل انتهاء المفكر من تفكيره وابتدائه فى عمله .

ومثل هذا التفكير المطرد المتسع؛ مثل الدائرة التى يصنعها الصخر إذا قذف به فى الماء فإنها ما تزال تكبر وتتسع حتى تنفنى . ولكنى لا أجهل لذات التفكير ، وإن كنت لا أحمد آلامه . فإنه المعين على الحياة ، يكبح من جماح الخيال والعواطف ؛ وما تغرى به العواطف من الأعمال . نعم إن صاحب الخيال والعواطف ، يحس لذات الحياة أكثر مما يحسها غيره، ولكنه يحس متاعها أكثر مما يحسها غيره من البشر. ومن أجل ذلك ، كان فى كل يوم من أيام حياته ؛ من الحزن والسرور؛ ومن النعيم والشقاء ؛ ما ليس فى السنة من سنى غيره. وماذا تفيده عظم لذاته، إذا كانت شقاوته عظيمة، بقدر عظم لذاته . وماذا تفيده تلك العواطف التى تتضارب فى صدره .

ولقد يخيل لى أحياناً ؛ أن تلك العواطف شياطين تجذب أعصابى ؛ وتجرى مع الدم فى العروق ، وترى فيه السم. وماذا يفيدنى أن فى تلك العواطف شيئاً من اتساع الأبد. فهى

لاحد لها ولا نهاية . هذا هو الشقاء الذى ليس بعده شقاء . فإن المرء مقيد بقيود الضرورة ومحدود بحدود القدر . حولى أسنة المقادير وسيوفها ، تشير إلى ، فإذا سعيت إلى يسارى وخزت جانبي الأيسر ؛ وإذا سعيت إلى يمينى وخزت جانبي الأيمن . وإذا سعيت إلى أمامى أو إلى ورائى أحسست وخزها . وإذا هممت أن أطير ، وجدت سيوف المقادير معلقة فوق رأسى . وقد تمر بى ساعات تهبط فيها السماء وتضيق فيها الأرض ، حتى أحسب الحياة أضيق من تنور عبد الملك بن الزيات^١ . وفى تلك الحال أحس كما يحس المجنون المقيد الذى يريد أن يفك عنه سلاسله ، وأن يهيم على وجهه لا يقر فى مكان .

ولكن إلى أين يفر أسير الحياة؟ إلى أين يفر من عواطفه وآماله وأفكاره وذكره ومن الزمن الذى يعيش فيه ؟ فالإنسان لا يقدر أن يفر من كل ذلك إلا إلى الموت. فلو كان للإنسان أن يهيم فى فياقى الأزمان ، كما يهيم فى فياقى الأرض فيفر إلى الزمن الماضى ، أو إلى الزمن الآتى آه لو أمكن ذلك ؛ كأتى بك أيها القارئ تعجب من هذا التمنى ، وتراه ضرباً من الجنون . هبه كذلك ؛ فما ألد الجنون ؛ ألم تجن قط ، ألم يخطر ببالك أن هذه الأرض ، إنما هى مارستان كبير وأن هذه الأعمال التى تعملها والمساعى التى تسعى إليها ، إنما هى جزء من الدواء ؛ جزء من طريقة العلاج . وأن هذه النجوم والأفلاك التى فى السماء ، إنما هى لعب معلقة فوق رؤوس المجانين . وأنها أيضاً جزء من العلاج ، وأن هذه العلوم والفضائل التى نفاخر فيها ، هى الأكاذيب والقصص والخرافات التى يقصها الممرض أو الطبيب على المجانين وأنها أيضاً جزء من العلاج .

إنى لا أريد منك أن يكون هذا رأيك فى الحياة؛ وإنما أريد أن أبسط لك أسباب الشقاء . فليح* لك أحياناً بالجحيم الذى يخلقه الخيال والذى تؤججه العواطف . فاذا كان هذا الجحيم الذى يخيفك ويفزعك ، فاطو هذا الاعتراف ، واقرأ قصة من القصص، التى أعمق عاطفة يشرحها الكاتب فيها ، لا يبلغ عمقها ستيماً واحداً . فأنت من الناس الذين يريدون أن يكون الشعر والأدب بمنزلة التثاؤب والتمطى .

١- تنور عبد الملك بن الزيات الوزير صنعه لتعذيب العمال الذين وضعوا يدهم فى أموال الدولة . وكان يقول الرحمة خور فى الطبيعة كما يقول نيتشه فلما نكبه المتوكل ادخله فى هذا التنور فقال ارحمنى قال له الم تقل الرحمة خور فى الطبيعة .

سلطان القضاء

لا يعرف سلطان القضاء ولا يفهم سطوته؛ ولا يحس قيوده ، إلا من خذله القضاء وعالج شدته . أما السعيد ، فإنه يحسب أن القضاء خادم بيته وصنيعة أبيه وعبد من عبيده . فإن السعادة هي الغفلة ؛ وأكثر الناس يعيشون غافلين . ويقدر غفلتهم ، بكون نصيبهم من السعادة . ولكن الرجل الذى تعود التفكير ، يبحث فى نفسه فيرى أنه يعجز عن أشياء كثيرة يريد كل الإرادة أن يأتىها ، ولكن تقصر إرادته وقوته عنها؛ ويسكن إلى أشياء يود كل الودادة أن ينأى عنها ، فلا يقدر على تركها . ألم تر رجلاً يريد إتيان الفضل والخير فيعجز ؛ واجتناب الرذيلة والشر فيعجز . فيحس قيود القدر تحجز فى نفسه ، ويعرف عند ذاك حقارة الإنسان وضآلته ، فينسل عنه غروره الذى هو رداء كل نفس . ويرى نفسه عريانه من ثوب النفاق والغرور الذى كان يزينها ، فيرى فيها العجز والضعف .

وإذا نظرت فى حجج المفكرين الذين يقولون إن المرء مخير ، وجدتها مغالطات . فإن حججهم المشهورة أن الله خلق للإنسان عقلاً يهتدى به ، وخلق له روحاً ، وأودع فيه عوامل الخير والشر . فإذا اختار الشر؛ كان جانياً على نفسه باختيار الشر . انظر إلى هذه المغالطة السخيفة ، وكيف أن قائلها لا يثبت شيئاً لأنه فرض الشئ الذى يريد إثباته . ولو أنه قال فإذا اختار الشر ، كان الله قد أودع فى نفسه من ذلك الشر أكثر مما أودع فيه من نقيضه ، لصح قوله . فإن المرء لم يخلق عوامل الخير والشر التى فى نفسه ، حتى تزعم أنه جعل الشر فى نفسه غالباً للخير ، أو أنه خلق ميولها إلى الشر . ولو كان الإنسان هو الذى خلق نفسه ؛ لصح أن يقال إنه خلق فسادها الناشئ من تغليب قوى الشر فيها ، على قوى الخير . ولكن الأغبياء ينسبون إلى المرء خلق الفساد؛ كأن خلق الشر أسهل من خلق الخير . والصواب أن المرء يعجز عن الخلق ، سواء كان ذلك خلقاً للشر أو للخير .

وإذا تأمل المفكر ؛ وجد أن المرء لا يكون مختاراً إلا إذا كان مستقلاً فى أموره عن الله والكون ؛ وإلا إذا كان هو الذى خلق نفسه . أليس كل شئ فى الوجود يتبع سنتاً وأحكاماً لا يقدر أن يخرقها . والإنسان تحكمه عوامل الوراثة والتربية والبيئة؛ فهو لا يقدر أن يتعدى حكمها .

إن الإنسان محكوم حتى بطعامه وشرابه وملبسه ؛ وحرارة الهواء أو برودته ؛ وبالضياء والهواء والمطر ، وبغير ذلك من أعضاء الوجود . وقواه فى آرائه وعواطفه وأخلاقه وعاداته ،

ومن أجل ذلك ، قد يرى المرء ما فيه ضره ، فلا يقدر أن يتجنبه . ويرى ما فيه خيره : فلا يقدر أن يأتيه على أنه ليس بينه وبين ما فيه خيره حاجز يمنعه عنه ، غير تلك العوامل النفسية التي لم يخلقها ولم يردّها . بل هو يبغضها ويريد أن يصدع عنه قيودها . ولو كان مخيراً لما اختارها . وفي مثل هذا المعنى ، يقول بشار بن برد :

طبعت على ما فى غير مخير

هواى ولو خيرت كنت المهذبا

أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد

وقصر علمى أن أنال المغيبا

فأصرف عن قصدى وعلى مقصراً

وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

حدثنى رجل من الجهلاء المعتمدين قال : أنت مخير لأنك إذا أردت أن ترفع يدك لم يمنعك مانع . قلت : لقد كنت تكون مخيراً لو أصابك الله بشلل فى يدك ، فأنكرت أن يصيبك شئ لم تردّه ، ورفعت يدك بالرغم من شللها الذى أنكرته ؛ لأنك لم تخلقه ولم تردّه . فإذا كنت لم تخلق الشلل فى يدك ؛ ولا الخبل فى عقلك ؛ ولا الجنة فى نفسك ؛ فكيف تنسب إليها فسادها وميلها إلى الشر ؛ وهذه أشباه سواسية .

خواطر الانتحار

يرى المرء ما فيه خيره؛ فلا يقدر أن يدركه . ويرى ما فيه ضره فلا يقدر أن يتجنبه . ويريد أن يكسر قيود القضاء ؛ وأن يكون مخيراً فلا يقدر . ويوجعه عض تلك القيود التي هي كالذئاب المفترسة ، ويؤله نهشها حتى يصرخ صرخات تجرح الحلق وتخرج بالدم؛ وكأنى به قد جرى مع الصبا سلس العنان ، فأحى الليل وأمات النهار، وفعل ما يفعل المرء فى شبابه ، من تصيد اللذات؛ يفعل ذلك فى أول الأمر خلصة حتى يصير عادة محبوبة . ويبلغ من حب الخمر واللذات الجنون ، فيصدق فيه قول حسان بن ثابت :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ود ما لم يعاص كان جنونا

حما يزال يزاول هذا الجنون حتى يتقصاه ناحية ناحية ومعنى معنى وعاطفة عاطفة ؛ يرجع إلى بيته فى أواخر الليل وقد قضى منه ما قضى . فيرمى على فراشه حتى يقوم فى الظهيرة منتفخ العينين ؛ موجه الأعصاب يمسى كأنه قد انفق فى تلك الليلة خمسين سنة من سنى عمره، وهو يحسب أن الشباب كنز لا يفنى ، فيعذل نفسه ويسمعها تقرباً مرأً ويلطم وجهه ؛ ويضرب ناحية قلبه بيده ، ويبكى بكاء شديداً ثم يعزم كل العزم على هجر ما فيه ضره. فما هو إلا أن يجيئ الليل وينسى آلام الصباح ؛ ويرتدى ثيابه ثم يحس كأن شيطاناً قد أفاق فى نفسه ، وتطى فيها فيعيد فى الليلة ما فعله فى ليلة أمس . ثم يقوم بين الصبيحة والظهيرة مر الحلق، مر الفم موجه القلب والعظم . فيقول أين عزم الصباح أين ما أردته وأين ما يزعمون من التخيير أين معين على ما لا أقدر عليه من نفسى . كم عزمت وكم أردت وكم خادعت نفسى، وزعمت أنى قادر. وكم حاولت أن أكون قادراً ولكن القدرة ليست فى يدي ، أصرفها كيف أشاء . أصبح ما يزعم اللام من تقصيرى فى إرادة ما فيه خيرى، واجتناب ما فيه ضرى . كلا فقد أردت كل الإرادة وعزمت كل العزم، حتى صرت أود لو يظهر لى ذلك الشئ الذى ينعنى من اجتناب ذلك الضر، أو بلوغ ذلك الخير فأقتله حتى ولو كان فى قتله العقاب ، وعندئذ يحس المرء ضعفه أمام القضاء ، حتى يخيل له كأن القضاء يبرز له وجهه فى الفضاء ، ويسخر منه ويهزأ به ضاحكا فيكاد المرء من غيظه يلقيه الحجر ثم يعاود نفسه، فيقول ينبغي لى أن أتشجع وأن لا أياس وأن أعزم عزمًا أعظم من العزم الأول، فيعزم ويريد ولكن شيطاناً يفيق فى نفسه؛ ويتشأب ويتمطى فيها، ثم يرقص فيه رقص المجنون أو رقص الزنوج . فيرى

المرء نفسه غريقاً فى تيار المقادير ؛ الذى يقذف به إلى الشقاء ثم يخطر له خاطر الانتحار ، فيقول الانتحار سلاح أحارب به القضاء ؛ وأمنعه به من أن ينال مأربه عندي . ولكن قدرة المرء على التخلص من الحياة ، تسليه عن كثير من همومها ؛ وتساعده على تحملها . فإنه يقول لنفسه تشجعى يا نفس فاذا اشتدت بك الهموم أطلقتك من إسارك ؛ فإذا اشتدت به الهموم ، ناجى نفسه قائلاً قد اشتدت بك الهموم ؛ ولكن بعد العسر يسراً ، والحياة حلوة والموت مر مجهول . فلا بأس من تحمل الهموم ؛ ما دامت للحياة حلاوة . ولكن إذا اشتدت بك الهموم بعد اليوم ، أطلقتك من إسارك . هكذا يخادع المرء نفسه ، ويعللها طول حياته ، كى لاتتأذى بمرارتها . فإن المرء لا يقدر على الانتحار متى شاء . فإنه قد يريد الانتحار ، ولكنه يعجز عنه بالرغم من شدة همومه وآلامه ، ثم إنك تجد أناساً ينتحرون لأسباب تافهة ، مثل وجع الضرس أو فشل فى أمر يحاوله أو موت قريب أو ضياع شئ عزيز ، ولكنك إذا تأملت ، علمت أن هذه الأسباب ؛ ليست أساس انتحارهم ؛ وإنما هى حوادث يقع فيها الانتحار . أما سبب انتحارهم ؛ فهو تغلب رغبتهم فى الموت ؛ على رغبتهم فى الحياة . وكره الحياة الذى يدعو إلى الانتحار ؛ ليس مما يتهياً لكل إنسان ولا يكون نصيب المرء منه على قدر مصائبه ، بل هو دافع لا يملك المرء له دافعاً حتى ولو كانت تظلمه غصون النعيم وثماره وأزهاره . وليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم إلا حب الأحياء أنفسهم ، وخوفهم من الموت .

لقد حاولت مرات أن أنتحر فراراً من سلطان القضاء ، فأخذت سكيناً وأدنيتهما من صدري ، ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغي أن أضرب نفسى الضربة القاضية ، فلم تهن على نفسى ، فقلت الليلة الآتية أفعل ذلك . ولما أتت تلك الليلة أرجأت الانتحار إلى ليلة أخرى ؛ حتى أفكر فى طرق الانتحار ، وأختار منها واحدة ، وكلما حزت بنفسى قيود الأقدار ، وحاولت أمراً فيه خيرى تمنعنى عنه الأقدار وتدفعنى عنه إلى ما فيه ضرى ، عاودنى خاطر الانتحار ، ثم أتناست بالملاهى والغفلة والتغابى والتبلىد . ويل للإنسان يخضع لسلطان القضاء حتى فى رغبته فى التخلص من الحياة .

إن الحياة حلوة بالرغم من مرارتها ، نعم إن حلاوتها لا تنسى المرء مرارتها ، ولكن مرارتها أيضاً لاتنسيه حلاوتها . على أن المرارة تغطى على الحلاوة وتفسدها ، وتمر طعمها ولكن الحلاوة لاتصلح طعم المرارة ، وإن كانت تكسر من غضاضتها .

العجب واليأس

لا تطلب من الناس الكمال فتيأس منهم، وتضيع ثقتك بهم. وتَمَلُّ من أجل ذلك الحياة ، فإن طلبك الكمال من الناس؛ ضرب من الغرور ، وحب النفس والعجب . فإنما تطلب منهم ذلك الكمال لتنتفع به.

لقد كنت فى صغرى كثير الثقة بالناس، كثير المودة لهم. ولربما كان ذلك سبب قلة ثقتى بهم الآن. كنت آتى إليهم وأظهر لهم الثقة بهم فيظهرون الحذر منى كنت أدور على بيوتهم استجدى قليلاً من الإخاء فلا أجده لديهم . كنت دون كيشوت صغيراً يطلب من الناس الكمال، ولكنى لم يكن عندى صبر دون كيشوت وأمله وعزمه. ولاغربة فى جزعى حين رأيت أن الناس ليسوا عندما ظننت فيهم من الكمال ، فإن من أعمته ثقته بالناس عن عيوبهم ؛ لا بد أن تعميه التجارب عن حسناتهم . ومن أجل ذلك ، صرت إذا رأيت من إخوانى مللاً حسبته غاية الغدر. وإذا رأيت منهم خدعة ؛ حسبته غاية النفاق واللؤم . وإذا رأيت منهم جفوة ، حسبته غاية البغض. وما زاد امتعاضى منهم أنى لم أفطن إلى ما فى نفسى من الغرور ، والأناية . ولم أعرف أن فى غرورى وأنايتى عذراً للناس على ما فى نفوسهم من أمثال هذه الصفات .

إن إعجاب المرء بنفسه لايأس به إذا أغراه بالمحامد وزجره عن المقابح . ولكنه إذا عظم واشتد كان سبب شقائه ؛ لأنه يريد أن يحمل الناس على أن يكون فى كل كلمة يقولونها أو عمل يعملونه ؛ ما يرضى إعجابه بنفسه . وهذا لا يستقيم له فيحزن وييأس ، ولا ينتفع به طول حياته ولا ينتفع هو بحياته .

الكذب

ينبغي لك أن توطن نفسك على أن كل الناس كاذب، من الأمير إلى سائق الحمير. فاتخذ لنفسك عدة تنفى بها ما قد يجلبه لك كذبهم من الشر. ولا تنس أن المرء مهما كان، واسع الجاه؛ معظمًا أو كثير التقوى والصلاح؛ لا يأنف من استخدام الكذب فى مآربه. لأن الكذب سهل المخرج، يخرج من الفم كالבصاق، ولولا ما يخشاه المرء من عاقبة الفضيحة إذا ظهر كذبه، لكانت حياته كلها كذبة كبيرة مستطيلة. والحياة عند كثير من الناس مثل هذه الكذبة. وبعض الناس يشوب كذبه بشئ من الصدق، ليكون أسير فى الأقواء، وهذا أخبث الكذب وأشدّه إيلاماً وأوسع ضرراً. ثم يحسب أنه صنع الخير والإحسان والبر بأن لم يكذب الكذب كله وهو يعلم أن شوب الكذب بشئ من الصدق أبلغ فى الكذب. والكذب هو الطعام الذى يتغذى به الإنسان، والشراب الذى يروى به ظمأه، والهواء الذى ينشقه، والسماء التى تظله والأرض التى تحملها. فليس له غنى عنه فى كل لحظة من حياته. فالإنسان حيوان كاذب ثرثار. والناس يزينون كلامهم بشئ من الكذب إما بثلاث أو بربع أو بثمان والحق الذى بالباطل أسير من الحق المحض. والصدق المشوب بالكذب. كالذئاب التى يشاب معدنها النفيس بمعدن خسيس، كى لا يبريها لمس الأيدي. وكلما كانت الأمة أقرب عهداً بالجهل والظلم وأوفر منهما نصيباً، كانت أوفر نصيباً من الكذب. فالجاهل كثير الكذب، لأنه لا يعرف أن مقادير الكلام نعين قيمته من صدق أو كذب. والمغلوب على أمره يكثر من الكذب، كى يتجنب بؤادر المستبد.

يكذب الناس أحياناً وهم يعرفون أنهم كاذبون. وأحياناً يكذبون وهم لا يعرفون أنهم كاذبون، والمغالاة باب إلى الكذب. أعرف رجلاً يتعمد الكذب، ثم يخادع نفسه حتى يعتقد أن كذبه صدق لاشك فيه. وأكثر الناس مثل هذا الرجل؛ ولكنهم لا يشعرون.

إنى قليل الكذب، لأن الكذب يوقفنى مواقف تخجلنى وتؤلمنى. فإن ذا الشعور الشديد يكره أن يأتى الكذب خشية الفضيحة. فيصير ضحكة إذا عرف كذبه، فتهتاج لو أعجبه من سخر الناس وضحكهم. ولقد كذبت مرة كذبة بغضت إلى الكذب، حتى صرت لا أستخدمه الآن إلا بقدر اللازم منه، ولا أرى هذا اللازم كثيراً.

أما قصة هذه الكذبة فهي أنى كنت مرة أجالس جماعة من الناس ، فجعلنا نتكلم فى تقتير بعض الأغنياء ، فقال صديق إنى رأيت فلان باشا مراراً قاعداً فى عربة الدرجة الثالثة من الترام. ثم مضت أيام وجلسنا مجلساً آخر نتذاكر بخل الأغنياء فقلت إنى رأيت فلان باشا مراراً قاعداً فى عربة الدرجة الثالثة من الترام. ومن الغريب أنى وجهت كلامى إلى الصديق الذى قال هذه الكلمة فى مجلسنا السابق فتبسم، وخجلت خجلاً شديداً . وأكره الغش أيضاً وأبغض إثيانته لأن انكشافه مؤلم . أذكر أنى مرة حاولت الغش فى امتحان مدرستى فوضعت المذكرة فى ثيابى ثم أردت أن أخرجها وقت الامتحان، ولكن خجلت حينما وضعت يدى فى ثوبى لإخراجها ؛ واحمر وجهى حتى صار كالجمرة ، وخفت أن يرى المراقب خجلى فيعرف سببه، فتركت المذكرة فى ثيابى ولم أستخدمها.

الخوف والوهم

إن للخيال تأثيراً كبيراً فى الحياة سواء النوم واليقظة. فالإنسان محكوم بخياله فى آرائه وخواطره بآله ومساعيه وآماله . وما يزعم من الحقائق وفى معاملته الناس. ومن أجل ذلك ، كنت أتهم رأبى فيعود اتهمه بالوبال. إذ يدعو إلى التردد والإحجام عن الماضى فيما يحاول الإنسان عمله. والخيال يشرك المرء فى عواطف الناس وحالاتهم؛ مما يدعو إلى التعاطف والتفاهم. ولكنه يخلق من الصغيرة كبيرة ومن الكبيرة صغيرة . والخيال جنة الأحلام وجحيمها ؛ ألسنا نغضى الحياة بين أحلام النوم وأحلام اليقظة . بين أزهير الأحلام وأشواكها ، وبين ملائكة الأحلام وشياطينها . فتارة أحس كأنى نقلت إلى وجود غير هذا الوجود . إلى حيث الهواء شذى والماء عطر ، والناس من الحسن والفضل فى الكمال فيخيل لى كأنى :

أكاد أرى الفردوس خضرا غصونه

فليت مقاماً فى الجنان مقامى^١

وأبصر فيها الضوء لاضوء مثله

له بهجة فى زهرها المتسامى

واسمع منها الطير تشدو فأنثنى

وقلبى من ذكرى الفرداس دامى

فيا حلم الفردوس حبك ذكره

لأيام عيش فى الجنان سام

ففى بعض الأحيان أرى فى اليقظة أحلاماً لا أقدر على وصفها من فرط جمالها . ولكنى فى بعض الأحيان أرى أحلاماً سوداء من أحلام اليأس والأسى ، فأخشى كل مصائب الحياة التى يمكن أن بصورها الخيال فى صحائفه ذات الألوان الكثيرة المختلفة، وأتوقعها وأحسها وأتألم منها مثل ما أتألم منها لو أنها وقعت بى . فأخشى الكهرباء فى السحاب وفى عرباتها

١- من قصيدة (حلم بالفردوس) من شعر المؤلف .

وما ركبت عربة منها إلا خشيت انكسارها ، وأخشى أخطار السكك الحديدية فى الأسفار ، وأخشى الحريق كل ليلة أو نهار ، وأخشى وقوع المنازل أو سقوط شئ من نوافذها إذا كنت بين المارة؛ وأخشى الكلب الكلب، وأخشى الحشرات مثل الثعابين والعقارب ، وأخشى الفيران والصراصير ، وأخشى البرق أن يصيب حبنى بأذى ، وأخشى اللصوص على عدمى. وأخشى الحاجة والفقر المترب، وأخشى العمى. وأخشى الجنون وأخشى الأوجاع والأمراض . وأخشى الموت ولاسيما الموت المؤلم. وأخشى الحياة وما قد تأتى به من الأحزان والمصائب. وأخشى البرص . وأخشى الطاعون، وأتوقع كل المصائب والأضرار وأتألم منها كأنها قد حلت بى جميعها . وهذا التألم من جنون الخوف الذى سببه الخيال . ومن أجل ذلك ، كان من رحمة الله أن الخيال فى الجمهور من الناس ؛ كالنسر الحبيس لا يبلغ الشمس ولا يفترس الطير.

سوء الظن

إنى أسئ الظن بكل شئ سواء الحميد والذميم فلا غرو إذا رأيت فى الضياء ظلاماً ورأيت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل. ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ، يسمع همس شياطينه فى أذنه، فإذا تلفت إلى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليمنى، وإذا تلفت إلى تلفت إلى يساره وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليسرى. ومن العجيب أن هذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لاتخفى قبحها لتخدعنا، بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها. هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن، تفرح فى ظلامه كما يفرح الوطواط فى الظلام، وتزودى بالمرء إلى الجنون. نعم فإنى قد عانيت من أجلها الجنون، وجرعت كأسه المرة وبلغت أعماقه، ولأعنى جنون من لا يحس جنونه، بل أعنى جنون من يحس جنونه، ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه. ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء الذكر والأمانى.

على أنى لا أقول إن سوء الظن كاذب أبداً إذا كان فى الكون حق. فالحق ما يسئ ظنك بالناس، فإنهم خليقون بأن تسئ بهم الظن، ولكن ينبغى أن تسئ ظنك بنفسك، كما تسئ الظن بالناس. أليست نفسك من نفوس الناس، ومن أجل ذلك، كنت أحياناً أسئ ظنى ببعض الناس، ثم أسئ ظنى بنفسى، وأتهمها فى ظنهما، ثم أسئ ظنى بالشئ الذى جعلنى أتهمها بسوء الظن وهكذا، لآحد ولانهاية لسوء الظن.

إنى أسئ الظن بالناس؛ لأن فى كل عمل يعملونه من الأعمال، حتى الحميد منها شيئاً من اللؤم والدناءة. وقد بلغ بى سوء ظنى أنى ما رأيت اثنين يتساران إلا ظننت أنهما يذكرانى بسوء فأنا من الذين يصدق فيهم قول بشار بن برد

يروعه السرار بكل شئ مخافة أن يكون به السرار

وكذلك ما رأيت أحداً ينظر إلى إلا حسبت أنه يحدث نفسه عنى بسوء. وإنى لأسئ ظنى الآن بمن سيقراً هذا الكتاب، وأزعم أنه سيحدث نفسه قائلاً لو لم يكن مظنة السوء، لما خيل له أن الناس تسئ به الظن. ولكن هذا القول ليس من المنطق فى شئ، وإن كان معقولا جائزاً

ولكن يصح أيضاً أن يكون باعث المرء إلى سوء الظن ، لؤم الناس قاطبة ، وليس لؤم نفسه إلا جزءاً صغيراً من لؤم الناس . وما رأيت أحداً ينظر فى ثيابى إلا حسبته رأى فيها شيئاً خفى عنى . وما رأيت أحداً ينظر فى وجهى إلا حسبته رأى فيه شيئاً قدراً . وما رأيت أحداً عابساً إلا حسبته يعبس من أجلى بغضاً أو حقداً . وما رأيت أحداً باسمًا إلا حسبته يسخر منى ويهزأ بى . وما سمعت ضحكا لم أعرف سببه إلا خجلت خجلاً شديداً ، وحسبتنى غرضاً لذلك الضحك أرمى به . ومن أجل ذلك ، صرت أعبس فى وجه كل من يبسم فى وجهى من الناس ؛ إلا من عرفت سبب ابتسامه ، وأحياناً أعرف سبب ابتسامه لا يمنعنى ذلك من إساءة الظن به . فأحسب أنه يظهر غير ما يخفى من سبب ضحكه ، وأنه إنما يفعل ذلك مكرماً وسخراً وإنى اعتمد كثيراً على حسن رأى الناس فى بالرغم من سوء ظنى . وأنا أعرف أن سوء ظن الناس بى ؛ مثل سوء ظنى بهم . ولكن معرفتى ذلك ؛ لا يمنعنى من الاعتماد على حسن رأيهم . فلا أبرر أعمالى لديهم اعتماداً على حسن ظنهم ، ورغبتهم فى تبرير أعمال الناس .

وإذا أتيت زلة لم اعتذر ؛ اعتماداً على كرم الناس وميلهم إلى غفران الزلات . وأنا أعرف أنهم ليس عندهم شئ من كرم النفس . والناس تعد هذا الاعتماد على حسن ظنهم وكرم أنفسهم ، وقاحة وكبراً كأن صاحب الزلة لا يعبأ بهم . وهذا يزيد نفورهم منه ولست ألومهم فى ذلك . فإننى مثلهم فويل لمن يعتمد على حسن ظنى به .

على أنى فى بعض الأحيان ، أكره من الصديق أن لا يعتمد على حسن ظنى به ، ولأريب فى أن هذه مناقضة لتلك ولكن النفس كلها تناقض .

الفرع من التهم

الفرع من التهم ، ضرب من سوء الظن والجبن . لقد رأيت فى الحلم البارحة ، أنى اتهمت كذباً بإتيان جريمة . ولم يكن عندى ما أدفع به التهمة ، من الأدلة والشواهد . وصرت أصبح أمام القاضى وأقول أنا برئ ؛ والقاضى يهز رأسه ولا يصدقنى ، والشاهد الكاذب يبتسم ابتساماً خبيثاً . ثم رأيت بعد ذلك ، أنى أساق للسجن والإعدام . إنه لحلم يفرع ذكره فلا أقدر أن أصفه . غير أنى قد استفدت منه أنى أحسست ما يكون عليه المتهم ، البرئ المحكوم عليه بالإعدام من اليأس . فيرى أن العدل حلم يفر ويخدع ؛ وأنه خيال جميل تلتسمسه اليد فلا تناله ، وأحياناً أحس فى اليقظة أيضاً ما يحسه المتهم البرئ ؛ فأحسب أن العدل حلم يفر ، وأن الفضيلة خيال جميل .

أى الناس لم يتهم وهو برئ فى زمن من أزمان الحياة . إنى لأذكر أنى اتهمت زوراً وبهتاناً ، فى أيام صغرى ، بسرقة علية من علب الحلوى . ولا أزال أذكر ما نالنى من الفرع ؛ أن تكون الحياة كلها تهم باطلة ، ثم سهرت ليلى أبكى وأنتحب من كذب الناس وتهمهم . ألم تتهم أيها القارئ (باطلاً) فى أيام صغرك ؛ بسرقة قطعة من السكر ، أو بكسر إناء زخرف أو بأمثال ذلك من التهم . إذا فكيف تتقى أن تتهم غداً باطلاً بإتيان أفظع الجرائم وأعظمها .

على أنه من جنون اليأس والفرع والجبن ، توقع ما لم يحدث بعد ، من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع . فكأنك قد ألقت من الناس الكذب والاتهام بالباطل ، فلاتعبأ به إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً ، واجعل لك من صبرك جنة تتقى بها الناس . وخذ بقول ابن الرومى :

طامن حشاك فإن دهرك موقع

بك ما تخاف من الأمور وتحذر

فإن قلة الصبر وكثرة الضجر ، تنأى بالمرء عن كثير من عظام الأمور وجليلاتها . لأن المطلب الجليل والحياة العظيمة تستلزم الصبر . وليس الصبر أن يجهل المرء ما هو فيه أو ما يتوقعه من الضر ، وأن لا يحسه . بل الصبر أن يعرفه ويحسه ، ثم يجد من عظم نفسه ورجولته ما يغريه بالطمأنينة والسكينة ، فما أحقر من لاصبر له وما أذله .

قال صديق عرفت حلاقاً بطيئاً ، فكنت أذهب إليه إذا طال شعرى كى أتعلم على يديه الصبر ولكنى وجدت أنه يزيدنى من قلة الصبر .

إنه لمن سخر القضاء أن يعرف المرء الداء ، ولكن لا يجد إلى الدواء سبيلاً .

الحذر

الحذر أساس الحزم . والحزم من لوازم الحياة الهادئة المطمئنة ، ولكنه إذا عظم أتلّف طعم الحياة.

إن الحذر مقرون بسوء الظن؛ ويقدر إساءة ظنى يكون حذرى . إنى ما ركبت عربة ولادخلت دكانًا لأشترى منه شيئًا ، ولاجلست فى حانة ، إلا وضعت يدى على صرة الدراهم ، مخافة أن تكون قد سرقت منى فلا أجدها عند الحاجة .

إن شدة الحذر ، قد بَغُضَتْ إلى القدر اللازم منه . لأن من كان شديد الحذر ، كثر خوفه وجبته . فكأنما قلبه جناح طائر، من كثرة الخفقان . ومن أجل ذلك ، أطفّر الطفرة أحيانًا ؛ هربًا من الحذر ؛ فأوقع فى ضده فى التعرض للخطر.

كما أنى أملُ الحياء الشديد وأبغضه ، فأجتهد أن أتخلص منه ، فأقع فى ضده فى الوقاحة . ومن أجل ذلك ، صار بعض من يرانى فى تلك الحالات النادرة ، يحسب أنى كثير التعرض للخطر قليل الحياء ، وهذا خلاف الصواب . وهذا الحذر الشديد الذى أعانيه ، جعلنى أحس اندفاعًا إلى الأخطار . كما أن من يطل على الحضيض الأوهد من المكان العالى ، يحس اندفاعًا إلى الحضيض . وأحيانًا أنظر إلى الأخطار، كما ينظر الجرذ الكثير الخوف إلى عين القط ، فيبلده الخوف، فلا يتحرك ، ثم يجمد دمه، ويسكن خفقان قلبه فيموت .

على أن للخوف مزية ، فإنه يثير القوى الكامنة فى نفس المرء ، حتى كأنه يخلق له روحًا جديدة . أذكر أنى خرجت مرة من المدرسة ، وأنا تلميذ صغير مع رفقة من التلاميذ ، فمررنا برجل من أهل الصعيد ضخّم طويل ، مفتول الذراع عليه مظاهر القوة، فرأيناه قاعدًا لحاجة فأخذ أحدنا حجرًا ورماه به، فأصابه فى أسفل ظهره ، فقام الرجل يعوى، وأخذ عصاه الغليظة، وصار يعدو وراءنا ونحن نعدو أمامه هربًا . وكان صحابى كلهم خفاف الأجسام ، معروفين بالحركة والعدو ، ولم يكن خوفهم إلا علىّ ، لأننى كنت معروفًا ببطء الحركة ، ولكنى صرت أعدو لا أتلقت إلى أحد، حتى قطعت نصف المدينة عدوًا ، ثم نظرت إلى ما ورائى فعلمت أنى سبقت إخوانى كلهم، ورأيتهم ورائى فى تعب ، وهم يعدون ، والصعيدى وراءهم يعدو رافعًا عصاه . فوالله ما استرحت من العدو حتى بلغت منزلى . ومن ذلك اليوم، صرت معروفًا عند التلاميذ بسرعة العدو، حتى أن الواحد منهم كان يخشى أن يجارىنى فأسبقه .

الخوف والرحمة

إنى لأستحي أن أجود بشئ أمام الناس . ولا أعرف لذلك الخجل من الفضيلة سبباً ، هل هو خشية أن ينسب الناس الجود إلى الرياء ، أو الضعف أو الجبن أو لكبر . وما يدرينى ربما كانت الخصلة نوعاً من البخل .

أذكر أنى مررت مرة برجل مقعد ضعيف أبرص يستجدى . فكاد قلبى يتقطع من الإشفاق والرحمة ، وأردت أن أبر الرجل بشئ ، ولكن الحياء الكاذب ؛ وضعف العزيمة حالا بينى وبين ما أردت . فلما رأى الرجل ميلى إلى أن أجود له بشئ جعل يلح علىّ فى السؤال ؛ وأنا بين دافع الرحمة، ودافع الخوف ؛ أن يلحقنى مثل سوء حاله يوماً؛ فقلت للرجل أف لك يا تعس ؛ ماذا رأيت فى الحياة حتى رضيت بها وغبنت نفسك ، وماذا ترجى من الحياة وأنت مقعد أبرص، ينتهرك الناس ، كما ينتهرون الكلاب ، ماذا تخشى من الموت؟ هلا أبقيت من هذه الحياة . أليس الانتحار خيراً لك وأبر بك؟ أليس خوفك من الموت وتعلقك بالحياة مما يجعلك أهلاً للشقاء والانتهار. فلما سمع الرجل منى تلك الكلمة القاسية ، نظر إلى نظرة حادة لم أفهم معناها ، ثم تركنى وأبقى فى قلبى حسرة ، ولم يفه بكلمة . وبودى لو فسر لى معنى تلك النظرة فقد كان يكون تفسيره بحثاً فى النفس ودرساً من دروس الحياة.

وأذكر أنى مررت مرة بعجوز يرتعش جسمها من الضعف ، فأردت أن أجود لها بشئ ؛ ولكن لا أعرف ما الذى منعنى من البر، فتركتها وأنا أقول ما أهون قيمة الحياة وأبخسها ، وما ألتئم الإنسان . وكم فى الوجود مثل هذه المرأة، من البؤساء والبائسين ومن هم أتعس منها، إذا صح أن تكون أعظم من تعاستها تعاسة ، ثم كاد قلبى يتمزق، وجعلت أضرب رأسى بيدى فلما اشتد بى ذلك جعلت أبحث عن العجوز حتى وجدتها وأعطيتها ... نصف قرش ولا تعجب أيتها القارئ من صغر العطاء ، فإن الناس يحون ترويض ضمائرهم بأقل من ذلك بمليم، أو بكلمة طيبة أو ابتسامة . أليس بر أكثر الناس ، تخديراً لضمائرهم وتسكيناً لوخزها . فليس جودهم إلا خوف عاقبة ما يدر منهم من الشر. وليست رحمتهم إلا خوفاً أن يصيبهم ما يصيب المسكين الذى يروونه من سوء . ومن أجل ذلك ، كنت لا أجد فيما أحسن من الرحمة فخراً،

فإن الرحمة ناشئة من خوف المرء وقع الشر. والجود من المنعشات التي تزيل عنه حمى الندم والحزن ، وأتھام النفس، وتعهده لاستئناف الحياة وشروها ، من دناءة وقسوة وغدر ونفاق .

هیهات لا یرحم المسکین ذو ترف

منعم البال لا یؤذیه حدثان^١

لولا المصائب والآلام قاطبة

ما كان فی الناس اشفاق وإحسان

داء الضمير

إن توزيع الضمائر بين الناس ، فيه غبن وظلم ، مثل توزيع المال . فلو كان نصيب المرء من وخز الضمير على قدر نصيبه من الآثام ، لهان الأمر قليلا ، ولكن نصيب المرء من وخز الضمير ، يكون على قدر رقة شعوره وأعصابه ، لا على قدر ذنوبه . وقد يشتد وخز الضمير حتى يصير داء ، وحتى يؤنب المرء على ما لم يجنه . وقد يلج له بمحامده كأنها رذائل ، ثم يؤنبه عليها ، وقد يؤنبه على ما جناه غيره من الناس . وأنا من الناس الذين أصيبوا بداء الضمير . فأحيانا أحس وخزه فى الرأس والقلب ، فتخور قواى وتخدر أعصابى ، وأحس بأسا لا حد له . وأرى الدنيا مظلمة فأرد لو أتخلص من ذلك العدو الذى ينهش قلبى . ولكن أذكر قول العباس بن الأحنف :

كيف خلاصى من عدوى إذا

كان عدوى بين أضلاعى

وكما أن الضمير قد يشتد وخزه حتى يصير داء . كذلك الرحمة ، قد تشتد حتى تصير داء . ومن العجيب أن المرء فى هذه الحال ، لا يقدر أن يعين من تقع عليهم رحمته بل يحس انقباضا إذا رآهم فيه شئ من المقت . ولقد كنت أعجب من هذا الشعور ، ولكنى أظن أن باعشه هو أن تألم المرء من رؤية آثار الشقاء ، أكثر من تألمه لمن أصابهم الشقاء فيحسب هذا التألم من آثار الشقاء فضيلة ، وما هو بفضيلة ، ويراه ضربا من الجود والبر وما هو بر . بل هو مثل تألم المرء من شم الرائحة الكريهة ، أو رؤية الشئ القبيح .

كنت وفئة من أصدقائى فى مكان؛ نأكل ونشرب ونضحك ، وعندنا غناء وجمال ، وبيننا أقهقه من السكر ، تلفت فرأيت فتاة تستجدى؛ قد نال منها السل وأنهكتها الحمى ولها منظر تنقبض منه النفس . فلم أقدر أن أتم الضحك ، بل وقف الهواء فى حلقى ، كأنه الغصة واشتد خفقان قلبى . ثم صرخت قائلا أمن القدر المحتوم أن لانال ما نحن فيه من اللذة إلا ممزوجا بالتألم لما نراه من بؤس هذه الفتاة وشقائها ، ثم جرعت كأسا من الخمر كى أغرق فيها الآمى ، وصرت أتأوه بصوت عال . وكيف تفرق الخمر الآلام ، وهى خيميرة الآلام . ثم قممت أسير كالمجنون وأصابتنى من الآلام والتعاسة أضعاف ما أصبت من لذة الخمر . وربما كان هذا التألم الشديد من رؤية آثار الشقاء غاية الجبن أو جنون الجبن .

المجرمون والأبرياء

يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ، أن الناس منقسمون بفطرتهم إلى قسمين : فهم إما مجرمون وإما أبرياء . وهذا نظر فاسد ، فإن فى نفس القديس جرثومة الإجرام ، كما أن فى نفس الشرير بذور الطهارة والجلال . فإن فى روح المرء شرًا لا حد له ، وخيرًا لا حد له .

وكما أن الروح معبد يحله الله وينيره بنوره ؛ فهى أيضًا مغارة إبليس التى ينيهرها بناره . أى الناس لم تخطر بباله خواطر الإجرام ، ولم يفرغ مما يتحرك فى نفسه من حشرات الشر ، ونحن نعرف استحالة براءة النفس اللهم إلا من كان متغافلًا عن نفسه ، فلا يفهم هواجسها ولا يقدر أن يحكم على أعماله ، وأن يعرف كنهها . لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع المرء إلى الشر ، فإن الجرعة مثل السراب اللامع ، والحياة كالصحراء القاتلة الحارة ، والمرء فيها كالمصحح الظمآن يلبح له سراب الشر بضياته ، فيريد أن يروى ظمأه ، ويتنقع غلته ولكن لا يزيده السراب إلا عطشًا . وكنت أرتعد ، كلما فادنى التفكير إلى معرفة محتملات الحياة وأطوارها ، والروح وتقلباتها وأحوالها . فإن الروح البشرية تخيف المفكر وتفزع .

أنا اليوم برئ ، ولكن ما يدرينى ، ربما كنت فى غد مجرمًا . وربما تحركت عوامل الشر التى فى نفسى . إن قلبى يكاد يتقطع كلما فكرت فى أمر هذه النفس ، فتسيل الدموع حزناً وفزعاً ، فيصيب يدي من بلل الدموع ، وأضعها أمام عيني كى أرى ما بها من ذلك البلل ، فتعرونى الحيرة والدهشة ، وأقول ما أحسن الإنسان ، وما الأم الحياة .

وكنت أشفق على المجرمين وأملأ لهم قلبى رحمة ، حتى لو أصابنى أحدهم بسوء لما أشفقت على نفسى ، أكثر من إشفاقى عليهم فى تلك الساعة . فإنه لا يحزننى فى الحياة شئ مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الإجرام للمجرمين ، ويعود بها الشر على الأشرار . لقد رأيت فى الحلم مرة أنى أتيت جريمة القتل ، ثم وقفت أمام جثة المقتول ، وقد أحسست دوارًا وصار العرق يتصبب على جسمى ، وكنت أحس جريه كأنه دبب الحشرات . وقد جمد الدم فى عروقى واسودت الدنيا فى عيني . وكلما أردت أن أتنفس ، أحسست شيئًا يسد مجرى النفس . وكنت أحس صوتًا كأنه صوت أعصابى تتقطع ، فيحكى صوت تقطع أوتار العود أو كأنه صوت سقوط نقط الماء من عل . وكنت بخيل لى كأن يدا من جليد قد وضعت على ظهري .

هذه هى الأحلام التى تمكن الأديب أن يعدم شخصه فى أشخاص غيره ، وأن يلج إلى أرواح الناس وعواطفهم ، وأن يرحم المجرم كما يرحم التعيس . لأن تخيل عاقبة الإجرام فى الحلم ، يجلب من الآلام والتعاسة ما قرأت وصفه ، فكيف يكون مبلغ تعاسة المجرم وشقائه ؟

أمواج النفس

إنى لأجد من نفسى فى بعض الأحيان ارتياحاً إلى السكوت التام ، فيزعجنى الكلام مهما قلّ ، سواء منى أو من جليس . ومن أجل نوبات السكوت التى تعتادنى أكره مجالسة الناس ، لأنهم يريدون منى أن أتكلّم متى شاءوا ، فإذا خالفت مشيئتهم؛ عد ذلك ذنباً لديهم. ولكن فى النفس مداً وجزراً. ومن أجل ذلك ، أجد ذهنى فى بعض الأحيان يجود بالمعانى ، كما تجود الأشجار بأزهارها وثمارها . وأحياناً يكون كالشجرة العاقر التى ليس لها ثمر ولا زهر ، أو كالبئر التى نضب ماؤها ، أو كالصحراء المجربة . فطوراً يرقى بى إلى منزلة الآلهة ، وطوراً ينزل بى إلى منزلة البهيم.

ولا غرابة فى ذلك ؛ فإن المرء لابد أن يعدل فى عمره ساعات الإلهام النادرة الثمينة ، بأيام طويلة من أيام البلادة والغباء . فإن محامد المرء ومواهبه محسوبة عليه فى حياته . ومن أجل هذا المد والجزر الذى أراه فى النفس ، يخيّل لى أن روح الإنسان ، آلة تمر عليها من الطبيعة روح تحركها فتجود تلك الآلة بأنغام المعانى، ثم تركد هذه الروح فتبقى الآلة خرساء لا تجود بالنغم ، كذلك الأغصان، تهب عليها الرياح فتثن فيها أتبنها، وتطلق فيها من أنغام الخفيف ما يستهوى السمع . فإذا ركدت الريح بقيت القصون خرساء ليس بها من نغم .

الأبد فى دقيقة

آه لو أمكن أن أعيش الأبد فى دقيقة واحدة ، فأحس كل إحساس ، وأفكر كل تفكير ، وتخطر على ذهنى كل الخواطر وأجتبى كل المعانى ، وألتذ كل اللذات ، وأتألم كل الآلام ، وأحب كل الحب ، وأحس كؤوس العواطف ، فلا أترك بها سؤراً. وأتخيل كل تخيل ، وأجنى ثمار الحياة فى دقيقة واحدة تكون أجلّ من الأبد ، وأعظم من الخلد . لا أحسب أن نفسى ترضى بلذة غير هذه اللذة ، التى تجمع بين لذات الأبد وآلامه فى دقيقة واحدة .

إن نفسى لتحس قيود الضرورة وتتألم منها كما يتألم الأسد المكبل ، وتريد أن تصدع عنها أغلالها وأن تعيش حرة، ولكنها بالرغم من ذلك، تعرف أن ذلك أمر لا يكون فإنه لا يصدع عن النفس قيود الطبيعة إلا الموت .

ما أروع أن تكون حياة المرء عاصفة تجتلى فيها لذات التفكير والتخيل . عاصفة تهيج ساعة ملؤها اللذة والجنون. ساعة ينال المرء فيها كل ما خطر بباله ، أو حن إليه قلبه أو جن به لبه ، ساعة تكبر فيها النفس حتى تملأ الفضاء ، ساعة تفنى فيها النفس لذات هذا الوجود ثم لاتشبع فتخلس لذات كل وجود ، إن كان هناك وجود غير هذا الوجود . ثم لاتشبع فتخلس لذات كل وجود يمكن وجوده فيما يستقبل من الزمن ، ثم لايشبعها ما تناله فتخلس لذات الفردوس ، وكل فردوس يتصوره الخيال. ساعة تعظم فيها النفس حتى تملأ الأبد، ساعة لايبالى فيها المرء الأقدار والأخطار ، ولا الموت والفناء، ساعة تصعد فيها النفس حتى تسامر الأفلاك، ساعة يعظم فيها المرء حتى يكاد يلمس النجوم قاعداً.

جنون الأماني

آه من لى بساعة اقف فيها بين الحياة والموت، بين البقاء والفناء تكتنقنى الاقدار والخطوب
وانا قوى العضد، قوى القلب، قوى النفس، قوى الإيمان بنفسى، لا أبالى الاقدار والاختار .
من لى بساعة ألهو فيها بالفناء والموت، وأسخر فيها من الحوادث والمصائب واهزأ فيها
بالسماء والأرض وما بينهما ، من لى بساعة احمل فيها روحى فى يدى، كالرمح أرمى بها كل
مرمى، واطعن بها كل مطعن. من لى بساعة اصافح فيها الحياة بيد، والحمام بيد ، وانا قوى
مثل الحياة قوى مثل الممات، مستقل عن الحياة والممات، اهزأ بالحياة واهزأ بالممات .. آه
هذه امانى مجنون .

الضحك الباكي

إن الحياة عندى ضحكة وبكاء . فأنا كثير الضحك ، كثير البكاء ؛ فتارة أضحك وأنا أبكى . وتارة أبكى وأنا أضحك ، تارة أضحك وأنا حزين ، يكاد ينفطر قلبي من الجوى، وتارة أبكى وأنا جذلان مسرور. تارة أحس قلبي يتقطع من الحزن ، فأذكر قصة مضحكة أو فكاهة لطيفة ، فأضحك حتى أقهقه . فإذا فرغت من القهقهة ، رجعت إلى ما كنت فيه من الحزن والبكاء ، وتارة أكاد أطيّر وأرقص من الجذل والفرح ، فأذكر حادثاً مؤلماً، أو قصة محزنة أو منظرًا من مناظر الشقاء، فأبكي بكاء مرًا.

إنى لأبكى عند رؤية غروب الشمس ، وعند شروقها، وعند رؤية الجمال المفرط . وأبكى عند قراءة قصيدة مؤثرة ، وعند رؤية الرسم الجميل والألحان الرقيقة، وأبكى عند الغضب وأبكى عند الرضى، وأبكى عند الفرح ، وأبكى عند الحزن، وأبكى عند سماع قصة مؤثرة، أو رؤية منظر من مناظر الشقاء، أو منظر من مناظر الجلال والروعة .

غير أنى أجتهد أن أخفى دموعى بالضحك، أو السخر أو الهزل والفكاهة. إنى بى شيئاً كثيراً من الحزن الطبيعى، لحقنى من طريق الوراثة، وزادته القراءة والتفكير . وإنه لبخيل لى أن كل أمة لها روح ذات إحساس ، مثل أرواح الأفراد . وإن روح الأمة تلج إلى أرواح الأفراد وتبث فيها أطوارها وأحوالها ، فإذا صح هذا التخيل ، لم يكن غريباً أن فى نفسى شيئاً كثيراً من القلق وغيره من الصفات التى نكتسبها أرواح الأمم ، فى حالة التغير والانتقال من أخلاق إلى أخلاق ، ومن صفات إلى صفات .

عبث الفكر

إن بعض التفكير داء عياء ، ففى بعض الأحيان أفكر فى كل شئ وفى غير شئ فأفكر فى الطعام الذى أكله ، وفيما تقع عينى عليه من الأشياء ، وفى الأرض التى أمشى عليها ، وفى السماء التى تظللنى ، وفى الهواء الذى أنشقه ، وفى الناس الذين أراهم ، وفى غير ذلك من أمور الحياة .

وكلما فكرت فى شئ قادنى التفكير فيه إلى التفكير فى شئ غيره ، حتى إذا أردت بالليل عند النوم أن أوقف تيار هذا التفكير الذى ليس له جدوى ما قدرت ، فيخيل لى كأن عقلى آلة فسد تركيبها ، وأسمع ضجيج روافعها وعجلاتها . ثم أريد أن أضع يدى على الرافعة التى توقف حركتها فلا أجدها فأتركها ، حتى تقف من نفسها بعد عذاب شديد . ومن أجل ذلك ، أحس أحياناً كأن عقلى طائر يهم بالطيران فأرتاع ارتياحاً شديداً ، وأحياناً أحس كأنه طاحون تدور ولكن ليس بها طحين.

إن فى عقلى شرهاً إلى التفكير ، مثل شره الإنسان إلى الطعام ، فأتمنى أن أجتنب كل معنى ، وأن أتخيل كل خيال ، وأن أفكر كل فكر ، وأن أعرف كل شئ ، وأن أقرأ كل كتاب فى العلوم والآداب . ولا تحسب أن هذا الشره يعين على الاطلاع ، إنه يعوق لأن الحيرة تتملكنى ، فلا أعرف بأى الكتب أبدأ ومن أجل هذا الشره ، اسرع فى قراءة ما اقرأه حتى يالم ذهنى . وفى بعض الأحيان أعد كل تفكير عبثاً وباطلاً ، وأتمنى أن تكون الحياة مثل خواطر الشعراء ، وما يتخيلونه من الصور البديعة .

طعم الذل

لا يعرف المرء طعم الذل ، ولا يذوق مرارته حتى يهينه من هو أقوى منه، فلا يقدر أن يحو إهانتة. وفي مثل تلك الحال، يصير المرء عند نفسه فى منزلة الإله المعزول الذى بال عليه الثعلب . فإن فى كل نفس شيئاً تجله وتعبد، وتتخذة إلهاً. ونفس المرء بخير ما دامت واثقة من ذلك المعبود الذى فيها، وهو شرفها وعزتها. وعندما تفقد النفس عزتها، تكون مثل الفكر الحزين ، الذى يحزنه أنه صار لا يؤمن بمعبوده الذى كان يعبد، وأن ثقته به قد فُتيت فيفقد ثقته بنفسه من أجل ذلك. وكذلك النفس، إذا فقدت عزتها أحزنها أنها فقدت ثقتها وإيمانها بمعبودها.

وانى لا زال أذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيه شقى، لم يكن يدري مبلغ إساءته إلى، فرفعت يدي لألطمه كما لطمنى ، ولكن الجبن وأخاه الحزم ، همسا فى أذنى قائلين : إنك إذا لطمته لطمك مرة ثانية، وهو أقوى منك فلا تصيبه إلا ببعض ما يصيبك . فخير لك أن تتحمل اللطمة الأولى، أن تنجو سليما ، فوقع يدي إلى جانبي وأحسست أن روحى قد سلبت أجل شئ فيها. فنظرت إلى ما بين قدمي لأرى ما سقط منها، من العزة والأنفة والشجاعة . ثم أحسست كأن عظامى قد احترقت ، ولم يبق إلا رماذاها وخارت قواى، وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة، فجعلت عدو من الغيظ وقد اسودت الدنيا فى عيني . وجعلت أنظر إلى المارين وهم ينظرون إلى فأرميهم بلحاظ المقت والكره لأننى كنت أحسبهم يسخرون بى ويعرفون ما حدث لى، ويفهمون سر روحى التى قد اهينت ، ولم تعد تصلح للحياة. ثم وقفت على غدير وهممت أن أرمى بنفسى فيه، لكننى هزئت بنفسى وسخرت منها . تلك النفس التى تفر من اللطام إلى الحمام ، ثم ذهبت إلى البيت وأنا أرتعد، وقد جحظت عيناي وملاً الغل قلبى ، فارتقيت على الفراش، وجعلت أتلى وأقلب وخطر لى أن أتابط سكيناً أو مسدساً وأن أنتقم من ذلك الشقى الذى أهاننى فأقتله، ولكن الحزم والجبن، وهما سميراي ونصيحاى ألاحا لى بالقضاء والمحاكم ، فجعلت أقرض أسنانى من الغيظ ، حتى تكسر بعضها . وكنت فى حالة من حالات الجنون ، وما زلت كذلك ، حتى أنهكنى الغيظ والغل ، فنمت إلى الصباح ، ثم قمت متثاقلاً قيام المخمور من خماره ، ولم يزل بى أثر من نشوة الغيظ والحقد.

وهذا الجبن من تأثير التربية والوسط الذى نعيش فيه، فقد ثبت فى نفوسنا أن الحزم والجبن

خير من الإقدام والخطر. ألم يكن أصلح لنفسى أن آخذ بتلايب ذلك الرجل وأن ألامه . وماذا علىّ لو أوجعنى ضربه أكثر مما أوجعه ضربى. أكان يؤلمنى أكثر من ألم الذل . أليست الآلام مع العزة، خير من الدعة والحزم والصبر والتوقى والجبن والذل . إن التربية تجننى على أكثرنا وتعودنا الجبن والذل والاستكانة . وكان ينبغي أن تعودنا أن لاتبالي الأخطار ، وأن نهزأ بها وأن نضع عزة النفس فوق كل ذلك.

لقد جرى بينى وبين رجل من الناس خلاف بعد حدوث هذه القصة ، فأردت أن أطبق هذه الفكرة الجديدة، فكرة الاعتزاز بعزة النفس . فلما احتد الجدال بيننا وخفت أن يبدأ اللطام ، بدأت به كما تفعل الأمم المتحاربة . فإن المبادرة نصف الظفر . فبادرته بلطمة بين عينيه ، وكنت أريد أن يخر مغشياً عليه منها. ولكنى خفت أن أفقأ عينه أو أن أصيب أحد أعضاء وجهه بتلف دائم، أو أن تكون ضربتى هى الضربة القاضية عليه، التى تودى بحياته فتعود بالطامة وبالعقاب الشديد. كل هذه الخواطر جالت بذهنى عندما مددت يدي لألطمه . ومن أجل ذلك، لم يكن وقع اللطمة عليه شديداً ، فمد إلى يده باللطام . ولكن يخيل لى أنه لم يخش ما خشيت من العقاب ، وإنما استنتجت ذلك من وقع لطماته ، فانصرفت بأنف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح . على أنى بالرغم من شدة المقت والكراهة الذى أعالجه، إذا أساء إلى مسئى لا أقدر أن أحمل الحقد مدة طويلة ، لأنه يورثنى التعب الشديد . ومن أجل ذلك ، صرت قليل الانتقام لنفسى من إساءة نالنى بها مسئى . وربما كان سبب ذلك، ضعف الإرادة فإننى لا أنسى إساءة مهما مرّ عليها من الزمن، ولكنى أذكرها إذا أذكرنيها شئ ، فاذا تناسيتها لا أمقت من نالنى بها حتى يذكرنيها شئ آخر . وفى أثناء ذلك ، قد يكون ذلك المسئى عزيزاً لدى ، فاذا ذكرتها تأملت منها مهما قدم عهدا ، ووددت لو أعاقب عليها من نالنى بها حتى أخشى عليه بواذر غضبى وفتكى، ولكنى أسخر من نفسى وأنشدها قول جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مريعاً أبشر بطول سلامة يا مريع

ثم أرجع إلى نفسى فأقول وأى نفع يرجى من الانتقام العجز عن إن الانتقام من صفات صاحب العقل الكبير ، والنفس العظيمة ، فأجد نعمة وسلواناً فى هذه الكلمة . غير أن الشك قد يعتورنى أحياناً فأقول إن صاحب العقل الكبير ، والنفس العظيمة يربأ بنفسه عن الانتقام. وليس كل عجز عن الانتقام دليلاً على كبر العقل، وسعة النفس . فإننى أعرف من الحمقى والمجانين ، وأهل البله والغباء ، من لا يقدر على ذرة من الانتقام .

سخر القضاء

ما أعجب هذه الحياة، وما أعجب تعجبي منها . على أن التعجب منها خير ، لأنى إذا لم أقدر على ذلك أكون قد يئست منها ، فأرى أنها لاتستحق أن يعالجها المرء .

ومن العجيب أنى عوقبت كثيراً فى الحياة على ما لم أجن من الذنوب . وكوفتت بالخير على ما جنيت منها . أحياناً أفعل الشر فيخفى عن الناس ، ويحسبون أنى فعلت من الخير نقيض ذلك فيخفى عن الناس ، ويحسبون أنى فعلت من الخير نقيض ذلك الشر . وأحياناً أجد فى عمل الخير ، فيحسب الناس أنى أسعى إلى الشر . وقد جلب لى فعل الخير من بغض أهل الخير ، وإتهامهم إياى قدر ما جلب لى من بغض أهل الشر . ولست أعجب من شئ عجبى ممن يثق من نفسه ، أنه يفعل الخير الذى يبغض المسئء أكثر من بغضه إساءته ، ولا يعلم أن المرء قد يفعل الشر وهو يحسب أنه خير ، ويفعل الخير وهو يحسب أنه شر .

ما أعوص لغز الضمائر وأعمقه وأبعده عن المتناول . وما أذل الناس للتهم الكاذبة ، والمصادر الخداعة والحوادث التى تنفر ، أليس كل ذلك مما يجعلنا نعتقد أن الإنسان كرهة فى أرجل المقادير ، إذا عظم كانت عظمتة منها ، وإذا حقر كانت حقارته منها . وهل يمنع أهل السعى والجِد ، والعمل اعتقادهم بسلطان القضاء عن السعى والجِد والعمل ؟ أم هل يزرع أهل الإرادة الضعيفة ، والكسل والذل نكرانهم سلطان القضاء عن ضعف إرادتهم كسلهم ودلهم ؟ كلا فهذا أسلوب من أساليب سخر القضاء .

الإنسان والكون

ما أحقر حياة الفرد من البشر فى هذا الوجود الذى ليس له حد ولا نهاية . انظر إلى هذه الأرض التى تحملنا ، أليست هى فلكا صغيراً من أفلاك كثيرة ، لاتعد ولا تحصى . وهذا النظام الشمسى ، أليس هو جزءاً صغيراً من الوجود . أليس هو نظاماً واحداً من أنظمة فلكية كثيرة .

إنى كلما فكرت فى ذلك ، أحسست ضالة الإنسان وحقارته ، فيصغر الناس فى عيني ، حتى يصيروا فى حجم النمل أو أقل ، فهب أن غملة تشكت وقع الأقدام . أليس ذلك مثل تشكى الإنسان ظلم الأقدار وامتعاضه منها . وماذا يهم الكون أنه يتألم ويشقى . ألسنا نهزأ ونسخر من شكاية النمل . وكأنى بروح الوجود تهزأ بشكايتنا ، وكأنى بقوى الوجود تسخر منا . كلما فكرت فى ذلك ، تملكنى اليأس والملل ، وصغر عندى كل عظيم جليل من الناس ، أو من امور الحياة ، أو من العلوم والآراء والآداب وأرى أن الحياة عبث ، وأنها فكاهة غثة ، فأود لو أريح نفسى من الاهتمام بما تستلزمه من الأشياء الحقيرة ، والأعمال الحقيرة والمساعى الحقيرة ، والقيام والقعود ، والكلام والسكوت ، والنوم واليقظة ، واليأس والأمل . فقد تمر بى ساعات أمقت فيها هذه الأشياء كلها ، وغيرها من أمور الحياة مقتاً شديداً . وسبب ذلك كله ، أنى أحس الحياة إحساساً شديداً وأحس الأبد ، فتصغر ، لدى الحياة ، وأحس الأطماع الكبيرة ، فأحتقر لها الحياة وأرى أن المرء ينبغى أن يسعى وراء المطلب الأجل الأكبر ، فأجد كل مطالب الحياة ، صغيرة حقيرة . هذه تعاسة كل من فكر فيما شابه الأبد من عظيم الآمال والمطالب والأعمال والمساعى .

وقد تمر بى ساعات ، أحسب فيها أن رأسى مثل خلايا النحل ، وأحس لذع الآراء والخواطر ، وأحس كأنى أحمل بذور الشقاء فى صدرى ، وأن له شجرات مرة الثمرات ، تنبت فى القلب . وكأنى أحس غمها فيه وأحس كأن الشقاء كلب يعدو ورائى ، فأتحفز للعدو هرباً منه وأتلفت ورائى لأرى مسافة ما بينى وبينه .

هب أن للوجود روحاً تسعى به إلى الخير ، أليس سعيها إلى الخير أبطأ من سعى السلحفاة . فأن هذه الروح تسير بالكون إلى الخير من الأزل إلى الأبد .

بقاء النوع وتعاسة الفرد *

ما أتعب الإنسان . إنه يمضى أكثر أوقاته فى السعى وراء قوته، وحاجات عيشه . ويضطر فى هذا السعى إلى إذلال قلبه . وقد لا يحصل على تلك الحاجات وما تستلزمه المعيشة . فإن أكثر الناس يعيش عيشة البهائم، يعمل طول نهاره لأجل لقيمات ، يسد بها سفيه. أليس هو فى ذلك مثل الحمار الذى يتعب طول النهار، فيكون نصيبه من الحياة قليلا من البرسيم . وما نتيجة هذه المساعي ، وهذا الاحتيال وراء المكسب ، وهذا الشقاء وهذه الدناءة ؟ هل نتيجة ذلك حفظ حياة النوع البشرى ؟ وماذا يهمنى ويهم كل فرد مثلى من حياة النوع ، إذا كنا تعساء ؟ أليس الناس ما عاشوا، عبيد الشقاء والتعاسة ؟

ما يدرينى لعل أصدق الناس نظراً ، هم الفلاسفة القدماء الذين قالوا بقتل الشعور والعواطف ومحاكاة الإنسان الجماد فى فقدان الشعور. قد تكون شدة الإحساس ، من لوازم الشعر. ولكن إذا كانت نتيجته تعاسة صاحبه، فلاخير فى الشعر . وما يدرينى ربما كان الشاعر التعيس خير من المتسول البليد السعيد . لقد جاء فى المثل إله تعيس خير من حمار سعيد ، وما يدرينى لعل الحمار السعيد خير من الإله التعيس .

هذا من الهراء فى الصميم . أليس من غرور الإنسان أنه يشتكى محاكاته سائر الحيوانات، وأنه يمضى أكثر وقته فى طلب ما تستلزمه المعيشة من القوت . ومن هو الإنسان حتى يشتكى ذلك . أليس هو حيواناً مثل سائر بنى جنسه من الحيوانات .

لا تقل إن سعادة كل الأفراد لا تسقىم . ولا تقل إنه ينبغى للمرء تحمل شرور الحياة من أجل حفظ حياة النوع . فهذه حجة يستخدمها الأغنياء المنعمون والسعداء، من أجل إخضاع الفقراء والتعساء ، والبله والأغبياء، والجهلاء والمجانين . وإنما سعادة الأفراد فكرة كبيرة يتم تحقيقها، إذا جن بها عدد كبير من الناس . ولكن الذى يجعل تحقيقها بعيداً ؛ أن الجماهير من الناس يعيشون فى جهل، مثل ظلام الليل، ويتبعون خطة مطروقة وسبيلاً ممهداً ، ويخشون الجديد من الآراء ، ويجبنون عن تحقيقه . ولكن الذين قاموا بالنهضات الكبيرة وجعلوا آراءهم حقائق ووقائع مقضية ، هم الذين قابلهم الجماهير فى أول الأمر بالأذى، ورموهم بالجنون . وهم كما زعم الناس، مجانين لأنهم أغرموا بالأفكار البعيدة ، الجليلة . وقد يندم هؤلاء المجانين على

عاقبة جنونهم ، ولكنهم مسوقون إلى ذلك الجنون، مكرهون عليه . وكل رأى كبير لابد أن يؤدي إلى نهضة كبيرة بين الناس . وأن يكون له أثر باق إذا جن به عدد عظيم من الناس . هكنا قامت الأديان والنهضات الكبيرة العلمية والاجتماعية.

وفى قديم الزمان ، كان الطاغية إذا أراد أن يلهى قومه عن طغيانه وظلمه ، أوقعهم فى حرب مع قوم آخرين . يريد طاغيتهم أيضاً أن يلهمهم عن ظلمه ، وطغيانه فعمت الحروب . وكان الطاغية يفعل ذلك سواء كان عارفاً ما يحجب إليه الحرب أو كان غير عارفه . فان المرء قد يكون مدفوعاً إلى الشئ بدافع من نفسه ، لا يعرفه تمام العرفان، ولا يفهمه تمام الفهم . ويعين الطاغية على عزمه ما أودع فى الناس من التذاذ القسوة ، فإن كل امرئ له نصيب من القوة يلتذ به .

وكذلك ترى الطبقات الطاغية السعيدة فى ممالك هذا العصر، تريد أن تلتفت الطبقات التعيسة من الجماهير عن سوء حالها، وتشغلها عن حل مسائل الحياة بالحروب . مثل مسألة الشقاء والأمراض والجرائم ، ولو بطلت الحروب بين الأمم لاشتدت الحروب بين الطبقات السعيدة، والطبقات التعيسة فى الأمة الواحدة ، تلك الحروب التى تؤدى إلى حل مسائل الحياة . ولكن ويل للأمتج التى يتفرغ فيها طبقات أفرادها إلى حل مسائل الحياة، فإنها تصير طعمة للأمة التى لا تريد فيها طبقاتها حل تلك المسائل، لأن الشقاق فى الأولى يكون نهزة تنتهزها الثانية .

وفى الناس من يقول إن مسائل الفقر والتعاسة والجهل والجوع والأمراض وغيرها من مسائل الحياة لا تحل . وأكبر ظنى أن الطبقات السعيدة ، هى التى تنشر هذا الرأى وتؤيده . ولكن ما يدرينى ربما كانوا مصيبين فى زعمهم . على أنه لو صح زعمهم، وكانت هذه المسائل لا تحل ، فلاخير فى الحياة ، فإنما يتحمل المفكر شقاوة الحياة إذا كان له إيمان بالحياة يعينه مثل أن يرى الحياة جهاداً فى سبيل تحقيق سعادة أفراد الناس .

ولقد يقول قائل ولكن كيف تهمنى سعادة أفراد الناس فى الأجيال القادمة؟ هذا من الذين يعيشون فى دائرة لا تتسع لغير مأربهم، ولا يهتمهم فى الحياة شئ، غير سلامة لحمهم وجلدهم وشهوة بطونهم وفروجهم وترفيه ذهنهم ، كأن التفكير فى الحياة ترفيه الذهن بعد التفرغ من كسب الرزق ، وكأنما ليس له لذع مثل لسع الظنابير . وكأن قروض الإيمان ، فقاقيع ثغر الأطفال وكأن الكون خلق للفرد من الناس لا أن الفرد خلق للكون.

ظل الموت

يخيل لى فى بعض الأحيان ، أن قد قرب أجلى وحان حينى ، فأخشى أن يمنعنى الموت من بلوغ آمالى وأطماعى ، ولكنى أرجع إلى نفسى ، فأرجو أن أجد فى الموت ، ما لم أجد فى الحياة من الطمأنينة والسكينة . وماذا على إذا عاجلنى الموت دون وطر لم أصبه ، ومطمح للنفس لم تبلغه ، وعرفان لم أعرفه؟ وماذا على إذا لم تجد الديدان إذا بحثت فى رأسى معنى ما اجتنبته أو علماً بما درسته ؟ وما قيمة الأطماع ، والأوطار والعلوم والفنون والآداب لدى الموت ؟ أليس الموت حقيقة الحقائق ؟

غير أن هذا التفكير لا يمنعنى من الحزن ، إذا خيل لى أنى سأموت ولا أترك أثراً بعدى، خالداً كالخلد وباقياً كالأبد . وفى بعض الأحيان، أنظر إلى أطماعى وآمالى ، وهى ماثلة لى، نظرة الوداع ، وأحزن عليها كما أحزن على صديق عزيز، تفيض روحه . ثم أرجع إلى نفسى فأقول أليس من الغرور أن أحزن على ضياع أطماع وآمال يحول دونها الموت . وأى الآمال أهل لمثل هذا الحزن؟ على أن الشك فى قيمتها، لا يقلل من الحزن والأسف عليها.

جعلت أسير يوماً عند شاطئ البحر ، وأخط فى الترب رسوماً وأشكالاً . ورأيت كأن البحر يحاول أن يحوها فما زالت أمواجه تغدو وتروح، حتى طغت موجة كبيرة عليها فمحتها . فذكرنى ذلك حياة المرء ، فإن الدهر كالبحر لا يزال بالمرء حتى تطفى عليه موجة من أمواجه ، فتمحوه كما محت أمواج البحر تلك الرسوم ، فالناس أيضاً رسوم تمحوها أمواج الدهر . والذى يعيش فى آثاره بعد موته عاماً كالذى يعيش فيها ألف عام . والذى تمتد شهرته ألف عام كالذى يعيش شهرته مليون عام . ولا تغبط هوميروس أو شكسبير على شهرته، فإن شهرة الأول قد امتدت بضع آلاف من السنين ، وشهرة الثانى بضع مئات، وهذا شئ حقير إذا قيس بالأبد . فلو كان المرء بعد موته يملأ اسمه الوجود ويبقى خالداً إلى الأبد، لجاز تمنى مثل هذا الخلد . على أن أمثال هذا التمنى غرور وعبث باطل ، فإن الذى يعيش باسمه إلى الأبد كالذى يعيش باسمه بعد موته بضع سنين .

وإنما الناس وسائل من وسائل القضاء ، لا بهم القضاء سعدوا أم تعسوا . وإنما يهمهم أن يعطيه كل امرئ نصيبه من الحياة والقوة والعمل والسعى ... فالإنسان فى الحياة مثل !!^(١).

الخاتمة

كلمة للمؤلف فى نقد المعترف

يرى القارئ الجملة الأخيرة من هذه المذكرات غير تامة ، وقد تركتها كما وجدتھا ، كى تكون عنوانًا للحياة ونعتًا لها ، وإشارة إليها . ألسنا نحيا حياة ناقصة مغتصبة ، نحاول أن نبلىغ قمامها وكمالها ، بالأحلام والأطماع والآمال والأوطار . فالحياة ، كالراقصة التى تدعوك بحركات رقصها ، ثم تغفل منك كالسراب الراقص الخداع . وأحيانًا ترى الآمال على باب الحياة ، كالملائكة على باب الجنة ، يفتحون منه ناحية فيخرج منه نسيم الجنة ونورها . وتسمع منه الحانها وتبصر منه جمالها ، ثم تغلق دونك أبواب الحياة ، كما تغلق أبواب الفردوس دون المحروم .

هذه كلمتى التى أريد أن أقولها فى هذه المذكرات كى يعرف القارئ ، ما أراه فيها ، وفى صاحبها فلايتهمنى بالمغالاة فى تقريره ، والتشيع له ولآرائه . وبحسب أن الود الذى كان بينى وبينه قد أعمانى عن خطئه .

أقول إنى أخالف صديقى م . ن فى بعض آرائه كما أوافقه فى بعضها ، فقد وجدته فى هذه المذكرات ينسب إلى نفسه صفات مذمومة قد كانت خافية عنا .

نعم إن بين الفلاسفة من يزعم أن هذه الصفات كامنة فى جميع النفوس ، وأنها منازل وطبقات ، وهى لم تكن فى نفسه من الشده مثل ما يصف ، فبينما كان يصف نفسه كان أيضًا يستملى من خياله ، صنع الأديب المؤلف . فهذه المذكرات ليست اعترافات عريانة من ثوب الخيال . تراه ينسب إلى نفسه الخوف والجبن وسوء الظن والكسل ، وضعف الإرادة والكذب . وأنه حاول الغش وأنه حاول الانتحار ، وأنه قليل الصبر ، كثير الضجر ، وأنه كثير البكاء . وأن فى نفسه خواطر الشر والإجرام ، وأنه كثير الغرور والعجب كثير الأطماع ، بالرغم من اطماعه ، وأنه شره البطن والعقل ، وأنه كثير الإنكار والجحود وأنه بالرغم من ذلك يعتقد الخرافات إلى آخر ما وصف من صفات السوء .

وأنتم أيها القراء لاتجدون شيئًا من هذه الصفات فى نفوسكم (ولاشك فى ذلك) معاذ الله أن تجدوا فى نفوسكم هذه المعائب . ومعاذ الله أن أتهمكم ، أو أن أتهم نفسى بها . إنى

ورباكم أبرياء منها، هنيئًا لأنفسنا، إنها بريئة منها... كأنى بكم تهنتون أنفسكم ببراءتها وطهارتها. من هذه النقائص. وكأنى بكم تقولون إن م. ن لا يستحق إلا الرحمة والاحتقار. أما أنتم فإنكم أهل للإجلال والإكبار، والإعظام، والهيبة، والتوقير، والاحترام، والتبجيل، والتقريظ، والحمد، والثناء... نعم إن بين الفلاسفة من يقول بأن صفات الشر والخير موجودة في كل نفس. وأن النفوس لا تتفاضل إلا بمقدار تمكن صفات الخير، وقلة تمكن صفات الشر منها. فإذا كان بين الفلاسفة من يقول بهذا الرأي، فهو فيلسوف مجنون، لا يعتد برأيه، والدليل على بطلان زعمه أنى ورباكم أبرياء من صفات الشر، مطهرون من السوء الذي يزعم أنه في كل نفس، فاضحكوا معي من هذا الفيلسوف الأبله، الذي وجد نفسه بؤرة النقائص، فظن أن كل نفس مثل نفسه.. هذا الفيلسوف لا يستحق أن يعيش، بل ينبغي أن يشنق جزاء قذفه النفوس وافترائه عليها ما ليس فيها.

ولكن ما يدرينا؟ ربما كان في قوله شيء من الصدق. ثم إن م. ن يعزو إلى نفسه من المحامد، قدر ما عزا إليها من المقايح. فتراه يعزو إليها الفطنة والذكاء والعبقرية والخيال، وكبر العواطف، وسعة الذهن، والرحمة والكرم، وحياة الضمير، وحب الجمال، وحب الخير وكره الشر. وأنه يربأ بنفسه عن مظان الدناءة، وأنه يكره التمليق والرياء والتفاق والذل. وأنه كثير الود والحنان، رقيق القلب، وبعض هذه المحامد التي يعزوها إلى نفسه يناقض ما قد عزا إليها من المقايح، ولا غرابة في ذلك فإننا نجد التقيضين في نفس واحدة.

كأنى بكم تسخرون من صديقي م. ن. وتزعمون أن نسبة هذه المحامد إلى نفسه أعظم دليل على غروره، وأن مثله إذا ذم نفسه صدق، وإذا مدح نفسه كذب. ولاريب أنكم تهجدون في نفوسكم هذه المحامد وإنكم بمنعكم الوقار والحياء الصادق والتعفف من تقريظ نفوسكم، وأنكم من أجل ذلك تمقتون من يقرظ نفسه أشد المقت. لأنه يريد أن يخفض من شأنكم، يمدح نفسه وإعلايتها. ولكنه لم يرد أن يكون هذا الاعتراف صورة لنفسه، وإنما أراد أن يصف نفسًا من النفوس، وأن يشرح عواطفها، وأن يذكر محامدها ومقايحها. ولاريب أن الأديب في وصف العواطف، يستملى من نفسه ومن نفوس الناس، كي يجيئ الوصف صادقًا. فإذا رأيت في مذكراتي صفاتًا من صفاته، فلا تظنوا أن كل شيء فيها مأخوذ من نفسه أستم ترون أن من الخطأ أن لا نميز بين هامليّة وشكسبير أو بين ورتر وجيتي؟ نعم إن شكسبير كان يرجع إلى نفسه في تفهم العواطف وحركاتها، ومن هذا الوجه يصح أن نقول إن في كل فرد من

أفراد قصصه شيئاً منه لأن روح الأديب ليس بالروح الجامدة الصلبة ، بل إن فيها من المرونة ما يمكنها من التشكل بأشكاله متغايرة ، والتزى بأزياء مختلفة . فتارة تراها فى جسم هامليت ، وتارة فى جسم ماكبيث، وتارة فى جسم فلستاف، وتارة فى جسم روميو أو جوليت، وتارة فى جسم شيلوك .

وإذا كان فى م . ن عيب من حيث هو أديب فهو ، أن أسلوبه فى الوصف والتنقل من مقال إلى مقال ، مثل وميض البرق تراه يشرح لك عاطفة من العواطف ، كأنه يكتبها بالنار على وجه الدجى ، أو كأن كلماته الشرر المتطاير، ثم يتركها من غير استئذان إلى وصف غيرها ، ولكن مذكراته بالرغم من ذلك، ليست أوراقاً مفككة ، ليس بينها ارتباط ، فإنه لم يرد أن يكتب مقالا ، مطرد الجمل والكلمات والمعانى فى سوء الظن أو الحب أو البخل أو الضمائر أو الشعر أو ضعف الارادة أو العقائد أو حب الحياة أو الجرائم ، أو القدر ولكنه يليح لك بهذه الأشياء ويوقعها من النفس ، كالصور المتحركة ، وتراه دائماً يحاول أن يوجع عواطف القارئ ويحاول أن يستفز منه عاطفة الحب أو البغض أو الأمل أو اليأس أو الاحتقار ، أو الإجلال أو الرحمة أو الخوف وربما كان مغالياً فى ذلك ، فإن من يلعب بالعواطف مثل من يلعب بالنار .

ومن صفات م . ن أنه يمزج الفكاهة بالجد مزجاً غريباً فبينما يستأذن على قلبك بالكلام المؤثر المبكى، إذا به يقهقه فى وجهك أو يسخر من كلامه الذى أراد أن يلين قلبك به، وأخشى أن يكون كالفازل الذى يتقض بيده ما يغزله ، ولكن المزج بين الفكاهة والجد لا يكون عيباً دائماً. وأكبر ظنى أن م . ن كان يأتى بالفكاهة فى إثر الجد المؤثر لا لينقضه ، بل ليجعل وقعه أشد حسرة فتكون الفكاهة ، مثل ضحكات الرجل الذى يبده خطب شديد، يجل عن البكاء فيضحك ضحك المجنون من شدته وهوله.

وقد كان بودى أن أغير بعض فصول هذا الكتاب، ولو كنت أعرف أن المعترف حى لفاتحته الرأى فى تغييره ،ولكن لاسبيل إلى ذلك ، فإن الأمانة ختام الود .

(٢)

حديث ابيس

وهو كتاب خلقى جمع بين الفكاهة والجد

وهو أبحاث فى النفس والحياة

الطبعة الأولى : القاهرة : ١٩١٦

مقدمة وإيضاح

لقد وجدنا أناسًا يرون أن ارتقاء الأمم في طلب الماديات . ولا يعلمون أن الأمة الحاملة ، الضعيفة العزيمة ، المفيقة من نوم طويل ، مثل نوم أهل الكهف ، لا تنجح في طلب الماديات ، إلا إذا حركت نفوسها واحتاجت عواطفها ، وبحث أفرادها في نفوسهم ، ونفوس الناس قاطبة ، فيفهمون حقائق الحياة . وإنما طلب الماديات ، مظهر من مظاهر النفس ، وعاطفة من عواطفها . ومن أجل ذلك ، يكثر البحث في النفس ، وعواملها ؛ وبواعثها ؛ وعملها ؛ وأمانيتها ؛ وصفاتها من فضائل وروذائل ، عند بدء نهضات الأمم . لأن كل خلق في حياة الناس ، يأتي قبله نقد وبحث ، يهدم ويفسح له مكانًا للبناء . والنهضات من مظاهر البناء ، وكل نهضة أولها هدم وآخرها بناء .

ومن أمثال هذا البحث النفسى الذى يأتى عند ظهور الأمم؛ ما كتب فى الشعر التمثيلي : الذى هو بحث فى بواعث النفوس ؛ فى عهد الملكة اليزابث ؛ فى بدء نهضة انكلترة . وكذلك شعر أسكيل فى بدء نهضة انكلترة . وكذلك شعر أسكيل فى بدء نهضة أثينا وشعر جيتى وشيلر فى بدء عصر الاضمحلال . وذلك حين تلوح مظاهر الضعف ؛ فيكثر البحث النفسى . وشاهد ذلك شعر يوربيد ، الذى هو بحث فى النفس ، وتساؤل وشك . وحيث إن حياة الأمم أدوار ، أمل ويأس يكونان فيها بمنزلة المد والجزر . كذلك شعر الأمة ، يعبر عن أدوار حياتها . أنظر كيف يعبر شعر شيلى ، عن الآمال التى أنتجتها نهضة الثورة الفرنسية ، وكيف أن شعر بيرون^(٦) يعبر عن الغضب الشديد ، والتضجر الذى كان سببه نأى تلك الآمال .

وقد بدأ يكثر فى آداب اللغة العربية ، البحث النفسى والتساؤل والتفكير والتعبير ، عن حركات النفس وبواعثها . ولكن كل ذلك ، لم يزل بعد ، قطرة لاتعرف إن كان وراءها سيل أتى .

وهذا الكتاب ، فيه شئ كثير ، من البحث النفسى ، والتساؤل والشك والسخر ، الذى هو مُحَرِّكٌ يُحَرِّكُ النفوس ويوقظها . فهو يعبر عن تلك الدنيا التى فى كل نفس . ففى فصل نصيحة إبليس مثلاً ، ترى السخر المودع فى هذا الباب ، ما أرمى إليه من بيان معائب تلك النفوس الجامدة القبيحة ، التى تشبه مياول الطرق . وقد جعلت إبليس ينصح بما ينبغى الانتهاء عنه ، وهذا ما يقتضيه الذوق الفنى الصحيح ، وقد لامنى فى ذلك بعض ضئال

الأفهام؛ أولى الذوق الفاسد الذين يريدون أن أجعل أقوال إبليس ، مثل أقوال الأتقياء من مشايخ الأزهر الشريف، فأجعل إبليس يحض على الأخذ بالفضيلة والإيمان. وهذا خطأ فى الرأى ، فإن أقوال إبليس ينبغي أن تعبر عن نفسه ، لا عن الحقيقة المطلقة، أو عما نراه نحن حقيقة . وكذلك الأديب المسيحى الصادق فى مسيحيته ، إذا ألف كتاباً ووصف فيه ، فيمن وصف يهودياً ، جعل أقوال اليهودى، تعبر عن نفسه ، لاعما يراه المسيحى حقيقة . أنظر مثلاً إلى قصة (الفردوس المفقود) ، تأليف الشاعر ملتون . وملتون من زعماء المتطهرين المسيحيين، فإنه جعل أقوال إبليس ، تعبر عن بواعث نفسه وعواطفها ، وإنما مهارة الأديب فى دقة التعبير عن تلك البواعث ، وفائدة قراءة وصف أمثال هذه البواعث، لا تنكر ، إذ أنها تنير الذهن ، وتؤدى إلى سعة فى التخيل والفهم ، وكبر العقل .

وكذلك صحة الذوق الفنى ، تقتضى أن لا يكون كل ما يقوله إبليس باطلاً ؛ فإننا لمجد أحيانا الشرير؛ يصيب الرأى الرجيع ؛ من حيث يخطئ صاحب الخير. بل إن صفات الشر التى فى نفسه ، قد تجعل ذلك الجانب من جوانب الحق والصواب؛ أقرب إلى ذهنه ، منه إلى ذهن صاحب الخير. ومن أجل ذلك، جعلت إبليس ، ناقد النفس ، يظهر عيوبها، ويغرى باليأس منها بينما مُحَدِّثُهُ من الناس ، يستفيد من هذا النقد ، معرفة تلك العيوب ، والرغبة فى محوها. فإبليس إذا مزج كذبه بالصدق ، إنما يفعل ذلك، كى يكون كذبه أعظم تأثيراً . فهو يجتهد أن يضل محدثه فى (حجة إبليس) و (نصيحة إبليس) وفى (رقص الضمائر) وفى (طرق الانتحار) وفى (وصف الجحيم) وفى (دولة البغال) وفى (مؤتمر الحيوانات) وفى (اختراع التقبيل) ، ولكنه يريد أن يضل بالصدق ، كما يريد أن يضل بالكذب ، وخدع إبليس وتغريه، بمنزلة النار التى تصقل النفوس . وإنما يصفر الذهب الإبريز ، بالسكب ، ولكن بعض النفوس مثل التبن الذى تأكله البهائم ، فإذا أدخل النار احترق . فإذا أحس قارئ وهو يقرأ هذا الكتاب ، أن قراءته لم تبق من نفسه غير الرماد ، عرف أن نفسه من صنف التبن . وأما إذا رأى أن نفسه قد صقلها وهذبها تغريز التجارب، وخداع الحوادث والحياة ، كما يراه فى هذا الكتاب، مبيئاً مشروحاً ؛ عرف أنها من النفوس الذهبية .

ولم يكن عفواً إنى أخرجت المحدث من تغريز إبليس ، وأريتته أحلام اليقظة ، كى يزيد إيمانه بالإنسان ، وبالله والحياة والسعى فيها .

حجة إبليس *

جعلت أتنقل فى قراءة الكتب بين جحيم دانتى، وجحيم ملتون ، وجحيم المعرى، حتى أدركنى النعاس، فنمت ورأيت فى الحلم إبليس . وكان جميل المحيا، قد توجه الجحيم بتاج من النار والنور ، عليه ثياب وضاعة ، وله نظرة تنفذ إلى صميم القلب، فتضى له ما يضره . فلما رآنى حيّانى ، وقال : أجنّت تنظر إلى ذلك الجرى الذى عصى ربه، ورأى أن الحرية فى الجحيم خير من الذل فى الجنة؟ فقلت على رسلِكَ يا أبا مرة فوالله ما أنا بالرجل الذى تفويه بكلماتك ، لست ممن تستذله جهنم وعذابها ، ولا ممن تزدهيه الجنة ونعيمها ، فإن فى نفسى جنة وجحيمًا ، وكفى بهما رادعًا عما تدعونى إليه من العصيان . وإنى ما أتيك بالإعجاب ولا بالمقت . ولقد كنت أستشعر لك الرحمة ، لولا أنك ترى فى رحمة الرحيم، وإشفاق المشفق ، إهانة لك واحتقارًا . قال إبليس : هون عليك ، وخل الرحمة لمن هو فى حاجة إليها من البشر . هل ترى رحمة الرحيم من الناس، قد أودت بشقاء أهل النحس منهم. اذهب إلى مكانك من الأرض ، وانظر فى أكنافها ، فإنك واجد من البؤس والشقاء ما تداويه بالرحمة ، إن كنت رحيماً . وأكبر ظنى أنك لست بفاعل.

أما أن الذل قد نال منكم منالاً، حتى مكن الرياء منكم، فصرتم تشنون على الخير وفاعليه، وللشر أحب إليكم منه إلى. أما أنكم لتلعنون إبليس كى تلفتوا الله عما هو فيكم من صفات الشر، وهيهات أن يستقيم ذلك ، وتسبون الشر وفاعليه كى لا يقال إنكم منهم. إنكم لتحتالون على كى أغويكم، فإذا لم أجد بداً من إغوائكم، رجعتم تستنزلون على اللعنات، أكان ذنبى إليكم يا بنى آدم أن قد دلت آدم على شجرة العرفان، وكان قبلها يعيش عيشة البهائم . أما أن الجاهل ليبغض العرفان كما تبغضوننى ، وإن الأرمذ ليشكو النور، كما تشكوننى . تقولون إنى أضلكم ، فباعجباً كل العجب! إنكم تحتالون علىّ حتى أضلكم بالرغم منى.

لقد عانيت الليلة البارحة العناء كله، من امرأة شمطاء ، ليس فيها للهوى مطمع ، جعلت تحتال على لأغويها، وأنا أتمنع حتى لم أجد بداً من إغوائها رحمة بها. وإذا شئت ، حدثتك حديث الشيخ فلان، الذى يحتال على بدهاء قلبه ولسانه ، كى أضله ويتوصل إلى ويتضرع كل التضرع، كى أمكنه من إظهار الرذيلة فى لباس الفضيلة ، حتى لم أجد بداً من إجابته. فيا

بنى آدم إني لو قمت بينكم واعظاً أرشدكم إلى الخير، وأستعين بدهائي على هدايتكم، لما تابعتني أحد منكم إلى الخير، كما تتابعونني الآن إلى الشر، ولقلتم قد كبر الشيخ أبو مرة وخُرف، وصار لا يقوى على إغوائنا، وطلبتم من الله أن يعزلني عما ولايته من غواية الناس، وأن يجعل مكانى من هو أقدر على إغوائكم منى.

ثم إن الشهوات أيها الناس، سبيل التجارب. والتجارب سبيل الحكمة، غير أن هذا السبيل محفوف بالمكاره، فمن الناس من كانت شهواته جنة، ونعيمًا ومنهم من كانت شهواته جحيمًا. وأنا إذا أغريتكم بإرضاء شهواتكم فإنما أغريكم بمزاولتها مزاولة العاقل اللبيب، الذى يزاولها كى يرفه عن نفسه، وكى يستفيد مما يجده فى مزاولتها من التجارب، وكى يفتق ذهنه بما تجده النفس فيها، من الراحة واللذة. فهل ذنبى إليكم أنكم لاتفهمون قولى، وأنكم تزاولونها مزاولة الجاهل البليد.

يا بنى آدم، إن من يخشى النار، خليف أن لا يرى النور. أليست النار مصدر النور؛ وكذلك من خاف العذاب، أخطأه نور العرفان (انظر إلى احتيال اللعين فى ابتداع التشبيهات ومهارته فى ذلك) يا بنى آدم، إن الماء الراكد يرث السم والوباء، وكذلك النفس الراكدة التى لاتحركها الرغائب ومطالب الحياة، فإنما أريد أن تفتقروا بها أذهانكم، فما حيلتى إذا كنتم تنيمون بها ضمائركم. يا بنى آدم، إن الإيمان المضلل شر من الكفر، انظروا إلى القدماء، الذين كانوا يتقربون إلى الله بالضحايا البشرية. وانظروا إلى القسس، الذين كانوا يحرقون الناس فى محاكم التفتيش، وانظروا إلى الذين لا يقنعون إلا بتقطيع الأرجل، والأيدى وفقاً لأعين. على أنكم تخالون أن المرء لا يعبد الله، إلا إذا أهان نفسه له....

فلما رأيت أن إبليس يريد إغوائى قلت له دعنا من هذا الحديث، فإنى ما جئت لأتعلم الدين والعبادة منك، ولا للمحاجة التى تحاول بها أن توهم الناس أنك برئ طاهر. وإنما جئت أستطلع الغريب من أمرك، وأرى أين تكون من الأوصاف التى تطير بها اشاعة السوء. فإن بعض أعدائك قد أشاع أنك قبيح الوجه، وأن لك فى أسفل الكفل ذنباً مثل ذنب الحيوان، فقال أما الوجه فقد رأيت، فماذا رأيت زيناً أم شيئاً؟ قلت زيناً ولولا ذلك ما قدرت على إغراء الناس. ولكن ما يدرينى؛ لعل لك أوجها كثيرة، فإنك تخدعنا بالجمال؛ كما تخدعنا بالقبح، وربما كان جمالك مثل جمال السراب؛ أو جمال أصبغ العاهرات. فضحك إبليس وقال: أما الذنب فأنظر إن كنت تجده، ثم كشف عن ظهره فوالله العلى العظيم، ما رأيت له ذنباً ولا ما يشبه الذنب، ولكن ربما كان ذنبه، مثل تلك اللعب التى تتقبض وتنسبط والعلم لله.

نصيحة إبليس *

قال إبليس : إني مؤتبعك نصحي ، فإن اتبعته سعدت ، وإن نبذته شقيت فاعلم أن الشر والخير لا يفترقان ، فلو لا الشر ما وجد الخير ، إذ أن الخير في مقاومة الشر ، فإذا زال الشر زال الخير أيضاً . وإذا عم الخير ومحي الشر ، لم يكن الخير فضيلة . ونشر الخير وإزالة الشر حلم كاذب ، ولكن لو فرضنا أنه يجوز تحقيقه ، لما كان ذلك نافعاً ، لأن الخير إذا عم بطلت مزيته ، وانتفت فضيلته فلا يهولنك الشر الذي تراه ، ولا تنزع من مظاهره ، فإن الحياة تخرج من الشر خيراً ، كما تخرج من الخير شراً . وإياك والرحمة فإنها جبن صريح . ووطن نفسك على أن الشقاء من لوازم الحياة ، فانقل شقائك إلى كتف غيرك ، ولا تحمل شقاء أحد ، ولا ترع لشقاء الفقراء والبائسين ؛ فلو لا شقاوتهم ما وجدت سعادة السعداء . فإن لوازم الحياة أساسها الاستعباد ، وهؤلاء الأشقياء هم عبيد الحياة ، ولا تطيب حياة السعيد إلا بهم ، فبهم تناط الأعمال الوضيعة ، ولهم المكاسب الضئيلة الحقيرة ، وما دامت سنة الرقى التنافس فلامناص من الشقاء .

وإياك والتفكير في متاعب الحياة وشروها ، فإنه غير نافع ، بل هو مرض من الأمراض . ولا تجتهد من غرورك ، أن ترشد الناس إلى الحق ، فإن مطلب الحق شقاء لا يجدي نفعاً ، وإنما تراد الحياة للذة والسعادة ، واللهو .. فاطلب منفعتك وقاتل من أجلها ، بيدك ورجلك وأظفارك وأنيابك . واحذر أن تشعر بآلام الناس وشقائهم ، يكفيك أنك تشعر بآلام نفسك .

ويخيل لى أن لك من ذكائك رادعاً عن أن تحرق قلبك بمطلب الحق ، إنما تدفى قلبك بنار خامدة من نيرانه . واعلم أن الذكاء والكياسة من آلات النصب والاحتيال الشريف ، ومطلب الحق أحبولة صيد . فاذا فكر أنك تريد أن تكون ذا جاه ومنزلة ، وهذا يحتاج فيه إلى الإيهام والغش أكثر من صدق السريرة . واعلم أن مطلب الحق غرور من الإنسان ، فإن الحق شقاء ، وطالب الحق ، الباحث عنه مثل ذبالة تضى للناس ، وهى تحترق . وأنت أعقل من أن تحسد الذبالة المحترقة لأنها تضى للناس ، ومن هم الناس ؟ أليسوا كلهم حيوانات سواء الصديق والعدو ؟ عش لنفسك لا للناس ، ولا يغرنك الحق ، فإنه عذاب لقائله ، وهو لهو ساعة لسامعه ، فإذا أردت أن تقول الصدق فاستخدم الغش فيه ، كما هى عادة الناس ، وادع صدق السريرة ،

ولكن إياك أن تحسها، وإياك أن تكون ذلك المسكين ، الذى يحس كل عاطفة من عواطف الحب والرحمة والحنان. فاحذر كل عاطفة من عواطف الضعف ، من أمثال هذه الصفات التى غرى الشعراء بوصفها وتزيينها، فإن هذه عواطف الضعف، التى تؤدى إلى الفشل فى معترك الحياة . وإذا رزقت ولدًا، فعلمه فلسفة حب الذات.

وكل وتشاوب طول يومك، وإياك أن تقيس طول أذنيك فى المرأة ، فإن ذلك يؤدى إلى الجنون ، واجعل مثال الكمال عندك فى الحياة ، حياة الأثنان الذى يعيش لنفسه . وعود نفسك أن تخرج همومك من قلبك ، فى تشاوب طويل ، تفزع الهموم منه. وادّع أنك صادق العواطف كى تغر الناس، ولكن اضحك فى قفاهم، واخرج لسانك سخرا بهم، إذا أدار أحدهم لك قفاه ، كما أنهم يخرجون ألسنتهم سخرا بك ، إذا أدرت لهم قفاك . واحتفظ بالسليقة فإنها اسما ما وهبك الله، وإن بى لدافعا جهنميًا يغرينى بحثك على مطلب الحق والبحث فى الحياة ، كى أشقيك معى، فيخفف شقاؤك بعض شقائى . ولكنى أنصحك ، وأنا مخلص لك، فاجتهد أن تكون مثل تماثيل الآلهة التى لا ترحم عابدها ، واجعل نفسك تماثلاً ذا حياة ، يسعى ويعيش. واجعل حياتك مثالا يعبر عن هذه المبادئ الصحيحة التى أودعتها نصيحتى ، واضحك الضحك الذى يدل على خلو الفكر ، وفراغ الذهن كفراغ العقل. ولكن إياك والضحك الكثير، فإن كثير الضحك كثير البكاء والحيوانات المطمئنة ، لاتعرف الضحك. نعم إنها لاتعرف ضحك الجذل والسرور، ولكنها أيضًا لاتعرف الضحك المر الأليم ، فهى أسعد حالا من الإنسان.

وهذا يدل على أن السعادة ليست أجل ما وهب الإنسان ، ولكن ذلك لا يقلل من قيمتها ، بل هو مغبون فيها. فلما انتهى إبليس من مقاله قلت : هيهات ، فإننا لعبة فى يد الطبايع ، بعضها يشقى وبعضها يسعد، وهى منا كالجيل فى العنق إما يقودنا وأما يشنقنا .

تنبيه إبليس - إذا علم أحد القراء أن بين أصحابه من يدين بنصيحة إبليس، فليرسل إلينا اسمه لأننا نريد أن نحصى عدد من يدين بها من البشر، وكأنى بكل قارئ قد أرسل إلى يبرىء نفسه، ويتهم صحبه . أليست تبرئة النفس واتهام الصحب من تعاليم الأستاذ إبليس .

فلسفة للبيع

حدثنى إبليس قال: لقد عانقت يوماً ربة الحكمة التى تسمعون عنها فى قصص الإغريق ، فشملت منها نسيم الحكمة الصادقة، ففطنت إلى أن معنى الحياة الذى يبحث الباحثون عنه؛ ماسة تحت أنقاض هراء الفلاسفة ، ولكنها ماسة لم تزل بعد فحمة ، لم تصقلها نار الحق والكمال، فإن معنى الحياة بسيط جد البساطة، حتى أنه من بساطته يكاد لا يكون للحياة معنى. فلأى أمر تنصب فى طلب ما تجمله فى نفسك وتتقاتلون فى الألفاظ والمذاهب الفلسفية.

وإن من درس الفلسفة ورأى تناقض افلاطون؛ وأرسططاليس؛ وتلستوى؛ ونيتشه؛ وماكس نوردو؛ وهبز؛ وكانت ؛ وهجل؛ يحتقر العقل البشرى ، ويرى كأن هؤلاء الفلاسفة أطفال ، يترامون بالوحد . وإنى لأتساءل أحياناً عن مصير أبطال الفلسفة التى يخرجها كل جيل من الأجيال . ومن العجيب أن ارتفاع الأمم وانخفاضها ، والحروب والثقلبات الكبيرة ، مظاهر تجتلى فى كل منها فكرة فلسفية ، تنبسط ثم تنطوى ، كأنها أحلام يحلم بها الزمن فى نومه الأبدية التى تشبه نومة معاصر الأفيون .

وأكبر ظنى ، أن الفلسفة هى الشجرة المحرمة التى أكل منها آدم وحواء، فعصيا الله. فخير لكم، أن تجمعوا ما عندكم من ثمار هذه الشجرة، وأن تقذفوه بالعراء ولكن كيف تستطيعون ذلك إذا كانت حياتكم فكاهة فلسفية ومغالطة منطقية ، وإن أغث الفكاهة ما صدر من الفلاسفة.

على أنى لا أنكر أن عندك من الفلسفة ، مالمو بعته كفاك ثمنه مؤونة التماس الرزق. ولكن من الغريب أنكم كلما قل مالكم ، قلت فلسفتكم . وكان ينبغي أن تزيد ، كى تعينكم على فقدان المال، وتكون لكم عوضاً صالحاً منه. وقد صنف لكم العلماء الكتب العديدة ، شارحين الفلسفة التى تستعينون بها على مصائب الحياة، ولكنهم لم يشرحوا لكم الفلسفة التى تستعينون بها على تلك الفلسفة .

فها أنا أشرحها لك، وأوضح لك ما استخلصته منها من الأدوية. ولامراء أن القراء عندهم من الفلسفة قدر ما عند محدثي ، ولكن كما أن السلع تقلد صناعتها ، كذلك الفلسفة ، فلا بد أن ترى العلامة التى سجلها بها العقل فى الوجود .

ثم جعل إبليس يشرح أنواع الفلسفة ، وما استخرجه منها من الأدوية فقال عندى فلسفة لتسكين آلام الضمير وتوبيخه وفلسفة لتسكين آلام الحب وآلام الضرس ، وفلسفة فيها برء من

الجوع والظماً ألخ وهى أدوية خالية من السم قليلة الثمن ولاأريد أن أغش القارئ ، وأوهمه
أنى قد استعملتها ، وأنى وجدت لها فائدة . معاذ الله ولكنى وجدت الفلاسفة قد أجمعوا
على أن نفعها عقيم

فإنهم قد استخلصوا مثلاً للغضب، دواء من الفلسفة ، وهو أن لايتكلم الغضبان عند
الغضب . وبهذه الوسيلة يذهب غضبه ، كأنه لم يكن . انظر إلى ذكاء هذا الفيلسوف ،
ولايخدعنا هراء بعض الناقدين ، فإن بعض الجهلاء يقول: إنك إذا اشتريت دواء الغضب، أى
السكوت ووضعته فى وعاء لوقت الحاجة وأردت أن تستعمله عند الغضب ، لم تجده . وهذا
نقد فاسد غير رجيح لأسباب بديهية لا لزوم لذكرها .

أما دواء الحب، فهو أن تتوهم أن حبيبك قبيح الوجه، وأنتك لاتحبه ، فإن هذا التوهم فعله
عجيب . يا رعى الله من اخترع دواء التوهم فإن فيه برأ من الآلام والأمراض . ألا تذكر أيها
القارئ يوم آلمك ضرسك ولجئت إلى الطبيب فعالجك ، وكلما عالجك زادت ضرسك إيلاًماً . فلم
تجد بداً من الفلسفة، فتوهمت أن ضرسك لا يؤلمك ، فوجدت أن هذا التوهم فيه الشفاء .

على أنه قد لايفيد من كان ضرسه عنيداً ، ولكن جزاء صاحب الضرس العنيد أن لايفيده
التوهم . ويقال إن أحسن دواء للشقاء أن يرى الإنسان آثار الشقاء فى غيره ، فإنه إذا رأى
حماراً فى بعض أسواق المدينة ، قد لحقه الهزال ونال منه الشقاء ، وبدت عليه آثار الخصاصة
والحاجة ، رفه منظر هذا الحمار التعس عن نفسه ، لأنه يجد منه شريكاً له فى النحس
والتعاسة ، فيقول لنفسه أيتها النفس ، تأساء وتعزية ، ألسنت ترى هذا الحمار التعس شريكك
فى الحياة والجدة والسعى والعمل، شريكك أيضاً فى الشقاء .

أما الفلسفة التى تسكن آلام الضمير وتوبيخه فإنها خير الفلسفة ودواؤها خير دواء . فإنه
لم يفلح رجل فى ميدان الحياة، ولم تفلح أمة فى مجال الاستعلاء إلا بقتل الضمير . فإن صوت
الضمير عند أهل الشر بغيض ، مثل نهيق الحمار فى أذن بيتهوفن . أو مثل نعيق البوم شؤم؛
أو مثل نعيق الغراب عند العاشقين . وفى حياة الضمير ، موت الجدة والسعى ، والنشاط
والهمة . والسعيد من جعل ضميره، آلة من آلات النصب . فالمرء فى الحياة مضطر، رغم أنفه
إلى كثير من الشر . فكيف تستقيم له السعادة ، إذا لم يكن ضميره من الضمائر الخرس . ولما
انتهى إبليس من سخره ، ضحك ضحك زنوج نيام من اللذة التى يجدونها فى لحوم البشر .

رقص الضمائر

جعلت أماشى إبليس يوماً فى أسواق القاهرة، فرأينا حماراً عليه حمل من البرسيم ، قد عالج الهزال حتى كأنه خيال يسعى . وهو يحاول أن يأكل من البرسيم الذى يحمله ، ولكن لا يستطيع ذلك ، فنظر إلينا نظرة الذل والمسكنة ، وكأنه يقول فى نظره ، أليس من الشقاء أنى أكاد أنوء بحمل من البرسيم ، ثم أحاول أن أعالج سغبى بشئ منه فلا أستطيع . وقد مرت على ثلاثة أيام لم أذق فيها حلاوة الطعام ، وبى من الجوع والهزال ما يبدو لعينيكما . فمال إلى إبليس وقال ساخراً : إن هذا الحمار يشبه الإنسان ، وحمل البرسيم الذى على ظهره ، مثل الفلسفة التى تشغل ذهن المرء ، ثم يريد أن ينتفع بها فلا يستطيع . كما أن الحمار يريد أن يأكل من البرسيم ، فلا يجد إلى الأكل منه سبيلاً . وبعد ذلك، جعلنا غشى حتى وصلنا إلي أرض خلاء ، فرأينا بها رقصاً ، قال إبليس ذاك رقص الضمائر ، كل ضمير من ضمائر الناس يرقص على النعمة التى تشابه طبعه ، ورأينا الضمائر آتية زرافات ووجدانا ، ثم بدأت الأركستر تعزف والضمائر ترقص ، فوالله ما رأيت رقصاً أغرب من ذلك الرقص .

ومن العجيب أنى التفت إلى جانبى فلم أر إبليس . ثم نظرت إلى مكان الأركستر ، فإذا هو دليل العازفين ورئيسهم وقائدهم . وقد أخبرنى بعد ذلك أنه هو الذى وضع النغمات التى ترقص على أوزانها الضمائر . وكانت الرقصة الأولى ، رقصة الكبير والتهيه ، ولكن الضمائر كانت تسميها رقصة عزة النفس والإباء . ثم بعد ذلك كانت رقصة الجبن والذل التى كانت تسميها الضمائر رقصة الحزم والتؤدة والصبر . ثم بعد ذلك كانت رقصة النفاق التى تسميها الضمائر رقصة الكياسة والذكاء . ثم رقصة الظلم والاستبداد التى كانت تسميها الضمائر رقصة العدل والحرية إلى آخر ما رأيت وسمعت من الرقص والأنغام ، فعلمت أن ضمائر الناس تدب ل إبليس ، وتشرب من كأسه وتسكر من خمره ، وترقص على نغمه ، وتحسب الكبير إباءً ، والتهيه عزةً ، والجبن حزمًا ، والذل صبرًا ، والنفاق كياسة وذكاءً ، والظلم عدلاً .

ورأيت ضمائر من كنت أظن فيهم الخلق الحميد ، فإذا هى سوداء قبيحة مثل أوجه القرود . ورأيت بينها ضميرى ، فوالله ما عرفته حتى نادانى وعرفنى نفسه ، وأنا أنكره وهو يتشبث بى ويقول أنا صاحبك فلا تخجل منى فأقول له : إذهب عنى فإنك لست ضميرى . إن ضميرى

نقى طاهر ، وأنت قذر فيضحك الملعون ضحك الساخر، فمن لم يرضنا من أصحابنا وصفنا له ضميره ، وبيننا مواضع قبحه فقد رأيناها موضعاً موضعاً .

وبعد ذلك مررنا بفتيان سكارى، كل ينظر إلى وجه أخيه ثم يضحك من غير سبب . فسألت إبليس عن الضحك وأصله وكيف كان اختراعه ؟ قال إبليس : إن الرجال الوحشيين الذين لا يعرفون الحضارة والمدنية ، مثل رجال نيام نيام الذين يستطيعون لحم الإنسان ويأكلونه، لا يضحكون ، بل عليهم من وحشيتهم وقار كثيف، حتى إذا سكروا استفزهم السكر، فيضحكون من غير ما سبب. وكذلك أجدادكم الوحشيون، فى أول الخليقة الذين كانوا يستطيعون أيضاً لحم الإنسان ويأكلوه ، فإنهم كانوا لا يضحكون ولا يمرحون حتى عرفوا كيف يصنعون الخمر، فعلمهم شربها الضحك . وأما أنتم فإن ضحككم عادة ورثتموها عن أجدادكم، فهو بقية من بقايا تأثير الخمر فيهم ، قلت ولكننا نجد الفرد منا يجيد الضحك وهو لا يشرب الخمر. قال إبليس : إنما سبب ذلك أن أجداده الأولين كانوا يدمنون شرب الخمر، ولولا أدمان أجدادكم معاقرة الكأس ، لما استطعتم أن تضحكوا ، ثم جعل إبليس يضحك فقلت : أما والله إنك لساخر فظيع، وهذا صوت ضحكك ، مثل صوت تصادم الأقلاك. فأى شئ كان يستفز أجدادك إلى الضحك ، أعنى إذا كان لك أجداد، ولكنى أعرف أنك لست عريقاً فى النسب .

الإنسان والبهائم

حدثنى إبليس قال : إني أرى فى الحيوانات العجم خصالا ، هى فى الإنسان ضئيلة خافية. فللكلب من الوفاء والأمانة ، ما ليس للإنسان ، وللخيل من الود والولاء ما لا يبلغ بعضه الإنسان، وللبغال والحمير من الصبر والحزم ما ليس له، وللقرود من الذكاء والفطنة وحب التقليد ما ليس له. ولو فطنتم يا بنى آدم ، لرأيتم أن تزوجوا بناتكم من ذكور البغال والحمير والكلاب والقرود لكى يكتسب بالوراثة نسلهن من حميد صفات هذه الحيوانات (انظر أيها القارئ إلى سخر اللعين إبليس وأحذر أن تصدق قوله فإنه كاذب لثيم) قال إبليس: ولا مرأ أن هذا يرفع من شأن الإنسان ، ولا تحسب أن النساء يتزعجن من هذا الزواج ، فإنهن قد ألهمن فضائل الحيوانات ، وهذا تفسير ميلهن إلى صغار الكلاب والقرود ، ولقد بلغنى أنكم فطنتم إلى ما يعود عليكم من الفوائد فتزوجتم من اناث الحيوانات العجم وزوجتم نساءكم من ذكورها. فإنك إذا مشيت فى الأسواق ورأيت أحد الناس، حكمت عليه أنه من نسل القرود ، لما يبدو لك من ذكائه وفطنته وحب التقليد. وإذا رأيت رجلاً آخر حكمت عليه أنه من نسل الكلاب، لما يبدو لك من أمانته ووفائه ، ولقد قيل إنكم عرفتم بالذكاء والفطنة فما سبب هذا الذكاء وأين مصدره ؟ إلا أن تكونوا من نسل القرود فاكسبتم هذا الذكاء من أجدادكم القرود.

على أنه ليس فى ذلك عار عليكم ، إذا صح ما يقوله داروين ^(١). الفيلسوف الإنكليزى عن أصل الخليقة فإن قوله ، يجعلكم وغيركم سواء فى النسب ، ولكنكم تكثرون فى بلادكم الجثث المحنطة التى تدعى المميا من صنع القدماء . على أن الأحياء منكم جثث محنطة فأنتم اثنتى عشرة جثة محنطة ، وهذا سبب أنك إذا رأيت مصرياً رأيت فى عينيه خيال الموت وشممت منه ريح الموت. تمر بكم الحوادث الناطقة وتعظكم ، وأنتم لاتفهمون قولها ، لأنكم جثث محنطة. تدور الأقلاك دورتها وتمر بكم الساعات والأيام والسنون وأنتم فى سكون أهل الكهف، لاتوقظكم دقات الساعات ولا أجراس الأيام ، ولا طبول السنين ، حتى صرتم إذا هز

١- لم يقل داروين أن الإنسان أصله قرد ولكنها مغالطة من إبليس الخبيث .

أحدكم كتفه أو نقض ثيابه ، نزل عنها غبار القرون الذى تراكم عليكم ، والعنكبوت التى بنت عشها فى أجسامكم ، وإنه ليصدق فيكم قول أبى العلاء المعرى فى الإنسان .

حق وإن كان أحسا صورة فى الإنس أن يلجم أو يرسنا
وأن تسمى رجله حافراً فى واجب التشبيه أو فرسنا

وعلى ذكر غبار القرون أقول إنهم اختلفوا فيه . فبعضهم قال : إنه مثل دقيق الحنطة ، وبعضهم قال : إنه أسود مثل الكحل . ولكن هؤلاء مخطئون فإن الذى جعل غبار القرون أسود قذارة نفوس من يتراكم عليهم من الناس ، وهذا الغبار تزعمون أن له فعلاً عجيبيًا ، يحسب أحدكم أنه إذا أخذ قليلاً منه وصره فى خرقة وعلقة على جسمه كالتميمة ، صار فى مأمن من الحوادث وعدواتها ، لأن فيه سرّاً من أسرار الحياة .

وإنى أخشى لطول ما عبيد القدماء الحيوانات من عجول وكلاب ، أن يكون قد صار فى نسلهم شئ من صفات هذه الحيوانات . وإنى أرى كثيراً من الناس فأحسب أنهم لو عاشوا فى زمن القدماء لعبيدهم القدماء ، لأنهم يشابهون معبوداتهم . فلما وصل إبليس فى سخره إلى هذا قلت لو كان فى السخر من دواعى الحياة ما يستفز النفوس الغافلة ، لاتخذت منه بوقاً استفز به نفوسنا التى لا يكاد يوقظها من نومتها نفخ إسرافيل فى الصور ، ومن أجل ذلك ، رى أننا سنبعث يوم القيامة بعد بعث الناس كلهم ، لأن موتنا أعمق من موتهم ، ونومة القبر عندنا أعمق من نومة القبر عندهم ، وليس من العجب أن نقوم يوم القيامة نحك أعيننا وأنوفنا بأيدينا ونحن متخلفون متأخرون فنجد أن الحساب يوم الحساب قد انتهى . وذهب أهل الجنة ، وذهب أهل النار إلى النار وبقينا ليس لنا مأوى . ولكن السخر لا يستفز النفوس الراكدة إلا كما يستفز الميت تقطيع جثته . ولقد جاء فى قصص اليونان ، أن هناك طائرا يدعى الفينيق إذا كبر وشاخ وحرقت خرج من رماده طائر جديد . ويا ليت أن نفوسنا من صنف ذلك الطائر ، فنشعل تحتها من السخر نارا تحترق فيها ثم تخرج من رماد تلك الأنفس نفوساً جديدة . ولكن النفوس التى ملؤها البلادة والغباء ، لا يحرقها ولا يصقلها السخر حتى ولو أشعلت تحتها القناطير منه واستأجرت كل ما فى المجحيم من الزبانية والأبالسة وجعلتهم يسخرون دفعة واحدة واشترت كل ما فى جهنم من الفحم ، وأشعلته تحت هذه النفوس البليدة فإنك لن تشعل فيها نار الذكاء .

ولقد سألت إبليس مرة أن يصف لى صوت الجحيم فقال: إن أصوات الجحيم مثل صراخ إله مجنون جريح من أمثال آلهة القدماء ، وسألته ما مقدار الفحم الذى يكفى لحرق الفرد من أفراد المجرمين ؟ فقال : إن المرأة الحسنة البادنة يطفى شحمها النار. ومن أجل ذلك نشعل تحتها من الفحم أكثر مما نشعله تحت غيرها. وقد جعلنا مرة نشعل القناطير من الفحم تحت امرأة بادنة حتى نفذ ما فى الجحيم من الفحم، ولم ينفد شحمها. فأرسلت أحد الزبانية ، كى يستعير مقداراً من أخشاب أشجار الجنة وحطبها . وأحسبك لاتعلم أن الزبانية يسلخون الحسان من الفتيات والغلمان المجرمين ، ويصنعون من جلودهم لباس اليد ثم يبييعونه لأهل الترف ويصنعون من شعر حسان المجرمين ، ضفائر يبييعونها لمن أصابهم القرع من المقربين إلى .

أيتها الانسانية ما أحلاك فى عينى . أنت كالعاهرة وفضائلك مثل تلك الصبغة الحمراء التى تصبغ بها العاهرة خديها وشفتيها، ورذائلك مثل ذلك الكحل الأسود الذى تزين به العاهرة عينيها ، وصوت ضميرك مثل صوت خلخال العاهرة الذى يطرب الفاسق ساعة الفسق، فأنت أيتها الإنسانية تزينك رذائلك كما تزينك فضائلك، وتشينك فضائلك كما تشينك رذائلك. أيتها الإنسانية أنت كالحية الرقشاء ، وفضائلك مثل جلدها الناعم المرقش ، ورذائلك مثل أنيابها اللامعة . أيتها الإنسانية ، أنت كالجثة العفنة وفضائلك مثل ذلك الذباب الكثير الألوان الذى يتهافت عليها ، ورذائلك مثل ذلك اللحم الذى تنزعه الذئاب عن العظام ، فتتغذى به كما يتغذى الناس برذائلك . فأنت أيتها الإنسانية تزينك رذائلك كما تزينك فضائلك ، وتشينك فضائلك كما تشينك رذائلك .

اللهم يا خالق الأنعام والموسيق؛ إعطنى آلة من آلات أنغامك قد روضتها يدك القادرة على النغم ، وأعرنى قطعة من صوتك، ونعمة من أنغامك ، كى أوقظ بها هذه النفوس، وأسمعها لحناً من ألحان القوة والحياة يعيننا على استئثاف الحياة والتماس القوة.

الفلسفة والبطن

وضعت مرة أمامى الكرة الأرضية التى ندرس عليها دروس تقويم البلدان ، ثم جعلت أتأملها ، ووكلت بها النظر كله فصرت لا أرى غيرها وجعلت أرى فيها سرًا غريبًا أرجو حله بالنظر إليها كأن فى باطن تلك الكرة سر الوجود . أليست رمزًا للأرض التى نسكنها ، وعقل الإنسان يحسب دائمًا أنه يجد فى الرمز من المعنى ما يجده فى المرموز إليه . ثم خيل لى أن هذه الكرة التى رسمت عليها القارات والبحار ، ليست فى الحقيقة كرة من الجص ، بل كرة عن الديناميت وضعها إبليس أمامى مازحًا ثم خيل لى أن يديه مدت فى الفضاء فأخذت كرة من الديناميت ورمت بها وجه الأرض ، فتهدمت الأرض ، ولم يبق منها باقية . وعند ذلك أفقت من حلم اليقظة ، وقلت ما يمنع أن تكون الأرض كرة كبيرة من الديناميت .

أليس شر الناس وردائلهم ونقائصهم من عنصر ذلك الديناميت ، فالإنسان إذا شئت ديناميت الشر.

حدثنى إبليس قال: بودى لو مات عالم الإنسان كله وليث ميتًا مدة أشهر ثم يحيا ، فإنه يجد بعد عودته إلى الحياة أن الأفلاك لاتزال تضى ، وأن البحر لايزال زاخرًا ، والرياح لاتزال عاصفة ، والليل والنهار يعتوران الأرض . وأكبر ظنى أنه يزعم من غروره ، أن هذه الأشياء قد هلكت ، حين هلك وأنها بعثت حين بعث.

وحدثنى إبليس قال: ولماذا صار الإنسان وهو حيوان يحدث فى هذا الوجود ضجة أعظم من ضجة غيره من الحيوانات ، فيقرع الطبول ويدق الأجراس ، ويطلق المدافع ترحيبًا أو قتالًا ، محبة أو عداً . ألم يقل العلماء إن الحيوان إذا لطفت أعصايه ورقى ، كره الأصوات الضخمة. إذا الإنسان أغلظ أعصابًا وشعورًا من البغال والحمير ، أم تراه يحب تلك الأصوات الضخمة من أجل جلالها ، أم من أجل أنها تشير فيه ذكرى الوحشية والزمن القديم ، حين كان يهز ذنبه فى سيره اختيالاً ، كما يهز الآن عصاه ويلويه تيتها ودلالاً ، كما يلوى سلسلة الساعة .

ألم يجل بخاطرك أن الإنسان حيوان مفترس ، عليه من الحضارة والنفاق ثوب رقيق يلبسه كى يخفى ملمسه الخشن ، وأنيابه البارزة وأظفاره الطويلة.

وبعد ، فبأى شئ يفخر الإنسان ؟ أبعواطفه وأفكاره وآرائه وعلومه وهو يكتسبها من بطنه؟ لأن الطعام الذى تحويه معدته تستخرج منه تلك الدوافع التى يسميها عواطف ، وتلك الآراء والأفكار التى يسميها حقائق . والدليل على ذلك ، أن الإنسان تختلف أطواره وميوله وأحواله ، حسب اختلاف أنواع الطعام الذى يأكله ، وما يتبع ذلك ، من سهولة الهضم أو صعوبته ، وقد بلغنى أن بعض الأطعمة تكسب المرء بشاشة ورقة أكثر مما يكسبه غيرها . ألم تتذكر أيها القارئ حين رقص الحب فى عروقه ، وغمز مفاصلك فحسبته وحيًا من الطبيعة وسراً من أسرارها ، وروحاً من أرواحها ، وضوءاً من أضوائها . ولو بحثت عن سبب ذلك الحب ، لعلمت أنه خصيصة فى بعض الأطعمة ، والأشربة . وهناك أطعمة أخرى تغرى المرء بالرحمة والكرم ، ومن أمثال تلك الأطعمة البالوظه أو المهلبية ، فإنها تجعل القلب ناعماً ليناً مثلها ، فيلين لدواعى الرحمة . وإنى لأتذكر أنى أكلتها مرة ، ثم خرجت إلى الأسواق ، فلم أر فقيراً إلا أعطيته من دراهمى ، فلما نفذت تصدقت بشيائى . كل هذا الكرم من فعل البالوظه ، قاتلها الله . أما المخلل فإنه يعلم المرء الشراسة وقلة الأدب ، وقد يفرق بينه وبين زوجته لأنه يغريه بالغضب والسباب ، ولو شئت ذكرت لك أصناف الأطعمة وأظهرت لك كيف أن جميع أخلاق الناس وآرائهم مكتسبة منها . وقد بلغنى أن بعض الشعراء لا ينظم الشعر إلا إذا كان به مغص أو عسر هضم ، فلا يغريه بنظم الشعر غير المغص أو عسر الهضم ، قلت هذا والله لاشك فيه ، فإن قراءة شعر بعض الشعراء تورث المرء ، إما مغصاً وإما عسر هضم . وقد زعم بعض الفلاسفة الماديين أن المادة تفرز التفكير ، كما يفرز الجسم الأدناس . فليس من العجيب أن نسمع بعد ذلك أن المادة نفسها من أدناس الزمن .

مناظر الشقاء

قال إبليس " إذا شئت أن تعرف معنى الحياة ، فاسر معي . فسريت في ليل غارت كواكبه وقامت نوادبه ، فجعلت أشق جيب الظلماء كالسايح في الماء ، وأتعرف مظان العبرة لأريق العبرة قدفعت إلى بيت خرج من إهابه ، ونم عن أصحابه وجهه شاحب ، ولونه غائب ، قائم في الظلام كالأحلام ، أو كأنه شيخ ناهضه الزمان وقارعه الحدثان . إذا رميته بنظر صادق ولحظ وامق ، لمحت فيه بقية من النعيم المسنوب ، كأنها الذكرى الخلوب في الخاطر الحرب ، والشمس في ضحى شحب والزهرة فوق الرمس . ويوم صار أمس ، فولجت بابه وقطعت رحابه ، حتى دفعت إلى مكان يلوح منه نور ضئيل ، كما يلوح اليقين في ظلمة الجحود ، فنظرت وما أروع ما نظرت ، امرأة عجفاء بين الصغيرة والكبيرة ذات وجه مهزول ، وشعر مهدول ، ولباس كأنه قد من الظلام وخاطته الأيام ، وحسن زائل ، ولون حائل ، وقدم براها الحفا وجلال كأن لم يكن ، ووقار كأن لم يزل ونظرت في الغرفة ، فرأيت أرضها مثل سمائها ، خالية إلا من البرد اللاذع ، غير سرير من الخشب ليس عليه من الفراش ما يدفع سطوات القر ، وجعلت المرأة تحنو على السرير فوق غلام في السابعة ، تملكه الداء وعز الدواء ، يتلوى على سريريه ، ويسأل عن نصيره وإنما نصيره الموت . ثم يقول : يا أماه قد أخذ مني الجوع مأخذه ، ولو كان ما بي من الداء لصبرت ، ولكنه الداء والجوع والقز يا أماه إلام تغالبنى وأنا الضعيف ، أتطلبني بوتر ولم أرد من الحياة موارد الآثام أماه أين ما ورثته من العيش الفينان والنعيم الوثير... لقد أودى به أبى ... أماه لشد ما عانيت من ذلك الرجل الغليظ الكبد ، أنسيت إذ أتى البارحة مع الفجر ، يتمايل من خماره ، فجعل يضربني وبى من الداء ما بي ، ثم أخذني بيده فرمى بى ناحية من الغرفة ، أنسيت إذ عاتبته فقام إليك وجعل يضرب بك الحائط .

ثم سكت الغلام قليلاً ، ثم صرخ قائلاً أماه إن ألم الجوع لشديد أماه اطعميني ... أو ... أو... اقتليني . وجعلت المنكودة تذرف الدمع ، وتقول: ليس عندي يا بنى ما أقريك غير العبرات ، وكأنما أجهد الكلام الغلام ، ورثى له الموت فمد إليه يده .

أح عليه السقم حتى أحالـه	إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأبدى تساقط نفسه	ويذوى كما يذوى القضيـب من الرند
لقد أنجزت فيه المنايا وعيـدها	وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهـد واللحد لبـشه	فلم ينس عهد المهـد أو ضم فى اللحد ^١ .

يا أملاً خبا ورجاء أقل ، ونعمى مسلوية وعبرة تأسر العبرة، وفرصة قد سرحها الحادث
الجلل، وآية أودى بها الموت قبل أن تنصر اليقين . أى أخى قد جرى بك القدر فى مزلقه،
والقدر مطية شمس، إذا أسلسلت أسعدت ، وإذا جمحت أهلكت. يا زهرة عليها ماء الشباب.
أية ريح غدرت بك، ويا قادمة النسر، أى عائق عاكك عن بلوغ شأوك إلا بعد ومرماك النائي .
حدث كل هذا والمرأة مطلقة عبراتها ، ولاملجأ للمحزون خير من البكاء ولولا أن الشقاء
كان عقيدها من ليلة زفافها ، لفعلت مالم تفعل، ولاثارت الأصداء من مكانها ولطمت ذلك
الوجه الواهن الحر. ولكن الحزن يدفع الحزن ، كما أن الخط فى القرطاس يعفى على الخط...
فتح الباب فجأة ، ودخل منه رجل بادن أحمر العين، غائر الخد يتصبب العرق من وجهه
وثيابه، يتمايل تمايل الغصن اللدن، تهزه الريح الهوجاء ، فلما رأت المرأة أبلدها الخوف قليلاً،
ثم ارتعشت وكأنا دار بخلدها ما كان يحاوله ذلك الفاقد العقل، فوقفت أمام سرير ابنها فتقدم
نحوها زوجها وقال : قولى للغلام اخل الفراش . قالت : إنه لا يسمع ما أقول . قال : أنا
أسمعه ولو كان ميتاً . قالت: إنه كذلك ، قال فإنى أحبيه، فاخلى لى السبيل إليه. قالت:
كلا لا أتحنى ما دام فى رفق ، فوثب عليها زوجها ، ولكنها تماسكت ، ودفعته عنها دفعة
ألقته على الأرض ، فقام مغضباً ووضع يده فى ثيابه ، فأخرج منها خنجراً، ثم وثب ثانية
عليها وطعنها فى صدرها طعنة دانت بينها وبين الأرض ، ثم بادر نحو الفراش فأخذ الغلام بين
يديه وقذف به ناحية من المكان ثم ارمى على السرير .

أيها الموت ما أروع طلعتك وأندى كفك ، وأجزل نعمتك، إنك لتسل الضغن من الضلوع ،
فإذا بطشت بالرجل بطشت بشماتته بالناس، وشماتة الناس به وبحسده للناس وحسد الناس له.
أيها الموت كم وامق لك تباعده، وكاره تدانيه يا أخا الفقر والجهل والظلام بك تم أمر هذه
الثلاثة ، وازدانت دولتها . أنت مرآة حياة الناس، فيها كالنفس الرقيق. يفرع الناس منك فزع
الطفل من وجه الظلام. يسعى الإنسان وأنت تسخر بسعيه وغروره فلو كنت لاتنزل إلا بمن كثره
الشقاء لتمت فيك رحمة الله.

ولما رأى إبليس منى الحزن قال هذا معنى الحياة، تجنى الأقدار على المجرم فيجنى المجرم
على البرئ . فقلت : لاتفرر بى فإنك تحاول أن تخذعنا بالشقاء كما تخذعنا بالنعيم، والعاقل
من لا يزدهيه تغرير الحوادث .

طرق الانتحار*

وبينما نحن نغشى فى أسواق المدينة، رأينا الناس مزدحمين، فجعلنا نزاحمهم حتى وصلنا إلى وسط الحلقة، فرأينا غلاماً ملقى على قضبان الترام، قد مرّ الترام على ساقه فهشمها، ولكنه لم يزل به رمق من الحياة، فرأينا الناس يرفعون أيديهم إلى رؤوسهم، كما ترفع الكلاب أو القردة أذنانها، فسألنا عن الغلام، فقيل لنا تلميذ سقط فى الامتحان، فحاول الانتحار، فصاح إبليس فى الناس قائلاً: يا أبناء الطين والوحل، تتركون الغلام يموت من التزيف، وترفعون أيديكم إلى رؤوسكم كأن ذلك دواء للتزيف، وكان خليقاً بكم أن تسرعوا إلى طبيب فتأمنون به إلى الغلام قبل أن تفيض روحه، فلما سمع الناس ذلك تعوذوا بالله، وانصرفوا وجاء رجال الإسعاف فحملوا الغلام إلى المستشفى.

وبعد ذلك ركبنا الترام إلى الجزيرة، وجعلنا نغشى على ضفة النيل ونظرت فى الماء فرأيت صورتى فيه ولكنها صارت كلما نظرت إليها تسخر وتضحك منى. فقلت لإبليس إنى لأنظر إلى صورتى فى الماء كأننى أنظر إلى مخلوق غيرى، بينى وبينه نافذة تطل على دنيا جديدة غير دنيانا هذه، وكأن تلك الصورة فى الماء تدعونى إليها، فقال إبليس وما يمنعك من الذهاب إليها، هل هناك ميتة خير من ميتة فى هذا النيل السعيد الذى يأتى إليكم بالخير والامراض؟ هل هناك ميتة خير من ميتة فى هذا النهر المبارك الذى تستمدون منه حياتكم فهو أبوكم وإلهكم؟ هل هناك ميتة تطهر بها نفسك فى هذا النهر، من أدران الحياة وأقذارها، من لؤم وخسة، ودنائة وقسوة؟ ثم ضحك إبليس قليلاً وقال على أنى لا أرضى لك تلك الميتة، لأن النهر يقذف بجثتك على جانبه فيتصيداها الناس من جوانبه، كما يتصيدون الميت من الأسماك ثم يعرضونها على الطبيب، وهم يسدون مناخرهم من عفونتها، فيقطعها الطبيب وهو يغازل إحدى ممرضات المستشفى، ثم يرمى بقطعة منها إلى كلبه، وهو يمازحه فيأنف الكلب أن يأكل منها، ما أقبح تلك الميتة وسكت قليلاً ثم قال ما تقول فى الانتحار بالكهرباء، إنه أحدث طريقة جمعت كل أسباب الراحة، هذا إذا كان التيار عظيم القوة وهى طريقة حسنة إلا إذا كنت تأنف أن تموت ميتة المجرمين من الأمريكان. وسكت قليلاً، ثم قال: وماذا تقول فى الانتحار بحمض الفنيك؟ كلا إن الانتحار بالسم ميتة مثل ميتة الكلب الكلب، ثم إن فعل السم يشوه وجه الحسان المعشوقين، ويفسد جمال من تعبدهم الأعين

والقلوب، وسكت قليلا ثم قال : إلا أن أمثل طريقة من طرق الانتحار، هى أن تقتصد بضع جنيهات إذا كنتمن يرزقهم الله بها، وأن تركب السفينة الذاهبة إلى الشام أو إلى أوربا حتى إذا كانت السفينة فى عرض البحر العظيم العميق، أصدع إلى ظهرها فى ليلة الظلام، والقمر فيها باعشان من بواعث الجلال، ثم انتظر حتى ينام السامرون ، وارم بنفسك فى أحضان اليم العظيم، فإنك تأمن بذلك أن يعيث الناس بجثتك بعد موتك وماذا عليك لو أكلتك الأسماك . أليست الأسماك أشرف من الدود ؟ ولئن تأكلك الأسماك خير من أن تأكلك الديدان. ثم إن فى هذه الميتة فضيلة أخرى، وهى أنك إذا كان لك فى الأرض قبر لم تسلم من الناس، ولا من وطئ أقدامهم النجسة ولا من لؤمهم. أما فى هذه الميتة ، فأنت بعيد عن الناس وقسوتهم ، وخستهم وأقدامهم وأصواتهم. فقلت لإبليس حسبك حسبك، فقد والله حبيت إلى هذه الميتة ، ولو لم يكن فيها من الفضيلة إلا البعد عن الناس، لكفاها ذلك فضلا. وليس الذى يؤلنى من الموت وقعه ، ولأما يخشى المرء أن يلاقيه بعده، وإنما يؤلنى أن يصير المرء جثة تقلبها الأكف ويغسلونها بالماء كى يطهروها من الأدناس . وهم لو غسلوها بالمحيطات الخمسة ، لما طهروها من دنسها . وكيف يكون الميت طاهراً أو الموت مصدر الدنس . فباليت أن المرء إذا مات رفع إلى السماء أو اختفى جسمه، وصار لا يرى إلا كما نرى الهواء، كى تصان جثته عن الغسل والتكفين والنواح والحمل على الأعناق ، ولو لم يكن فى الموت غير ذلك لكان الموت قبيحاً . أو ليت أن المرء يموت بضع أيام كى يجرب الموت، ويعلم ما بعده ثم يرجع إلى الحياة.

وفى أثناء هذا الحديث، كانت الشمس توجه أشعتها إلينا فتنفذ حرارتها إلى مجرى الدم فى العروق ، فالتفت إلى إبليس وقلت : انظر إلى البون العظيم الذى بين أن تسطع الشمس على الحياة والأحياء ، وأن تسطع على الموت والأموات . فهى إذا سطعت على الأحياء من الناس، بعثت فيهم حرارتها من العواطف ما تتحمل به الحياة. وإذا سطعت على الزهر ، بعثت فيه من بواعث الحياة ما تبعثه فى صدر الإنسان. فضحك إبليس ساخراً وقال : ويحك أأنت ترى سطوع الشمس على الأحياء ، مثل سطوعها على الأموات ؟ أليست حرارة الشمس تولد الشهوات وغيرها من عوامل الشر، فى صدور الأحياء كما أنها تولد الديدان فى جثث الأموات، والديدان فى جثث الأموات، مثل الشهوات فى قلوب الأحياء؟

ثم رأيت طفلاً على وجهه نقاب من القذارة ، توسد الأرض ، وصار يضرب بعصاه على قطعة من الخشب ، فقلت أنقر على دفك فبان فى عمرك فسحة لمعاناة آلام الحياة والموت والتفكير فيهما، فضحك إبليس وقال: أنا الكفيل له بذلك .

الجحيم

زرت إبليس مرة فى الجحيم وطلبت منه أن يربنى بعض أنواع العذاب فى جحيمه، فبرقت عيناه بريق القسوة وأخذ بيدى وقال : تعال أنظر إلى بنى جلدتك يعذبون ، ولكنك ربما خشيت على جلدتك ما تراهم فيه من العذاب . فقلت له هون عليك، فإنى أعتقد أنك أنت وزبائنتك وجحيمك الذى آراه حلم فظيع ، وسأفبق منه يوماً ثم اهزأ به فقهقه، ثم سرنا حتى وصلنا إلى ضرام عظيم عليه قدور كبيرة ، وفى كل قدر امرأة أو رجل يعذب وقد سلخ الماء جلده وهوى لحمه ، حتى سال دمه وشحمه وبدت عظامه ، وكانت صرخاته ينفطر لهولها القلب، وعلى كل قدر عفريت فأتى بقلب الرجل بسيج فى يده، كلما نضج جانب من جوانبه أدار جانبه الآخر . فقلت لإبليس متى ينتهى عذاب هؤلاء؟ قال : لا ينتهى أبداً ، وكلما نضجت جلودهم ولحومهم أعيدت لهم جلود ولحوم.

ثم سرنا حتى رأينا رجالاً مصلوبين على قوائم من الحديد الملتهب ، وحول كل رجل عدد من الزبانية فى يد كل عفريت منهم قضيب من الحديد الملتهب، وهم يضربون الرجال حتى تتهرى لحومهم ، فتعاد لهم لحوم . ثم سرنا حتى وصلنا إلى بركة فيها النار السائلة وفيها النساء والرجال يعومون ، حتى إذا وصلوا إلى حافة البركة، ثم سرنا حتى وصلنا إلى قنائل من النار، فيها يعذب المعذبون . ثم سرنا حتى بلغنا ساحة فيها كثير من المعذبين يقطع الزبانية من لحومهم ويطعمونهم ما يقطعون ، ويجمعون دموعهم فى أوعية ويسقونهم منها ممزوجة بماء النار. وفى مكان آخر وجدنا أناساً فى أقفاص ضيقة من الحديد ، والزبانية يتفكهون بتعذيبهم فيطعنونهم بسيوف من نار، ويصبون عليهم ماء النار، ثم سرنا حتى وصلنا ساحة واسعة فى وسطها أناس يسقط عليهم من السماء ذر كثير نارى يغطيهم جميعاً ، فيحترقون ثم تعاد لحومهم ويفعل بهم كذلك إلى الأبد. ثم تحولنا إلى ناحية من نواحي الجحيم ، حيث يعذب المعذبون بالأمراض ، يسلط الله عليهم السل والوباء والزهرى واليرقان والسوداء والبرص والحمى وغيرها من الأمراض ، تجتمع على كل منهم حتى يتهرى لحمه . وقد رأينا هؤلاء المعذبين ، مطروحين فى أماكنهم كأنهم جثث عفنة تتصاعد منهم رائحة كريهة ، فسددت أنفى كى لا أقب من خبث تلك الرائحة ثم سرنا إلى مكان يعذب فيه المعذبون بالحشرات ، وهو مكان

كالجب المنخفض ، وفيه العقارب والشعابين أشكالاً وأنواعاً ، وفيه البق والدود والبراغيث والقمل والصراصير والخنافس والفيران ، وفيه كثير من الحشرات التى لم نسمع عنها فى الدنيا تأكل أجسام المعذبين أكلاً . وقد اختلطت هذه الحشرات بلحومهم حتى تكاد لا تميز بين المعذبين وبين الحشرات التى يعذبون بها .

ثم سرنا إلى مكان آخر يعذب فيه المعذبون بالخوازيق ، فيأتى الزبانية بالتعس المجرم ويجلسونه على خازوق حاد رفيع فينفذ منه ، ويخرج من رأسه ثم تعادله الحياة والصحة ويفعلون به ذلك إلى الأبد ، ثم رأينا جماعة من الناس يعذبون بآلة يوضعون فيها ، وتربط بها أيديهم وأرجلهم ، ثم يدير الزبانية تلك الآلة فتتفكك أعضاؤهم ، وهم يصرخون صراخ المجانين من شدة الألم ثم سرنا بعد ذلك إلى مكان آخر ، يعذب فيه المعذبون بالسم فيسقون سما ملتهباً يقطع أحشاهم ويفتك بقلوبهم وأمعانهم وورثاتهم ، فيتصبب العرق من أبدانهم وهم يتلون من الألم كما تتلوى الديدان . ثم تركناهم وسرنا إلى مكان آخر يعذب فيه المعذبون بالجنون ، فيعطى الواحد منهم شربة يشربها فيجن ، ثم يؤتى إليه بولده المعذب مثله فيخنقه الأب المجنون ويأكل منه ، ثم تعطى له شربة أخرى فيفيق من جنونه ، ويرى ما فعل بابنه فيصيح كالمجنون ويضرب رأسه بحيطان الجحيم ، وينتف شعره ويعض نفسه حتى يتهرى لحمه من العض ، ودموعه تسيل على جسمه ، ثم تعاد الحياة لابنه ويسقى الإبن شربة الجنون ، فيفعل بأبيه ما فعل أبوه به ، فلما رأيت هذا العذاب اشتد بى الألم والوجل ، وسقم قلبى منه وكانت الزبانية كالوحوش المفترسة ، يقطعون أجسام المعذبين ، ويأكلون منها ثم يقرضون أسنانهم ، ويلحسون الدماء التى لوثت شفاههم ، ثم يضحكون ضحكة الظفر والجدل ، وكأن هذا الجحيم أربعة أشياء جمعت فى مكان واحد ، مارستان كبير وميدان حرب ، وحريق هائل وحمام ساخن . وكان فى الجحيم أنواع كثيرة من العذاب غير ما ذكرت ، منها العذاب بالصواعق الدائمة ، والعذاب بالزلازل والبراكين . إذ يرمى بالمعذبين فى جوف البركان . ومنها العذاب بالحيوانات المفترسة ، مثل الأسود وغيرها ، إذ يجعل المعذبون قريسة لها . ومنها العذاب بالثلج والبرد الشديد . ومنها العذاب بالجوع والظما . ومنها تعذيب المعذب بأن يدفن حياً . ومنها التعذيب بالسهم المسمومة .

ولما أظهرت لإبليس اشمئزازى وشدة امتعاضى من تفتته فى أنواع العذاب ، قال: أما علمت

أن الجحيم مطهى بطبخ فيه طعام الأبالسة، فأنكرت على إبليس أن يكون ذلك صحيحاً ، فسار به إلى تنور عظيم، ورأيت الزبانية يجيئون بفتيات وفتيات من المعذبتين ، عراة وهم أنعم الناس جلدًا ، وأرقهم لحمًا ، وأجملهم جسمًا. فقلت ماذا تصنعون بهؤلاء ؟ قال إننا نصنع غذاء . ثم نادى إبليس أحد الزبانية، وقال لى : هذا هو الطاهى ، ثم سأله أى أجزاء هؤلاء الحسان نستلذ أكله؟ قال: الصدر لنعمته ولينه، ونحن نصنع منه أصنافًا كثيرة . وهو غذاء المقربين من أهل النار، أما الرأس والأكارع ، فإنها غذاء الأصاغر .

فلما رأى إبليس تعجيبى وإنكارى قال: لم تتعجب ؟ ألسنت ترى السواد الأعظم من الناس يعيشون فى الدنيا تعساء ، يعملون ويشقون نهارهم وليلهم، ثم يكاد أحدهم لا يصيب الكفاف وإنما هم يسخرون كالحیوانات العجم، كى تسعد الأغنياء ، بشمار عملهم ، فكما أن الأغنياء فى الدنيا يأكلون لحوم الفقراء ، ويشربون دماءهم، كذلك فى الآخرة ، تنضج لحوم السواد الأعظم من الناس فى الجحيم ، كى يستلذ المقربون أكلها. وأنت ماذا يروعك من أنواع العذاب التى رأيتها فى الجحيم؟ إنها كلها مأخوذة من دنياكم ، وكل فرد منكم معرض لأن يعذب فى الدنيا بشئ منها . ألسنتم تعذبون بالسّم والجنون والتقطيع والتمثيل وبالخوازيق وبالحيوانات المفترسة وبالزلازل والبراكين والنار والجليد والسهام والسيوف والقنابل وبالأمرض والحشرات وبالجوع والظّمأ وغيرها من أنواع العذاب ؟ وليست دنياكم إلا جحيما كبيرا ، فلا يعيش فى الدنيا إلا من أجرم وأفسد فى حياة قبل الحياة الدنيا، وإنما عيشته فى الدنيا تكفير عن سيئاته التى أتاها فى حياته الأولى . أما من أحسن عملا فى تلك الحياة الأولى ، فإنه يعيش فى عالم آخر غير عالمكم .

اختراع التقبيل*

يا رعى الله من اخترع التقبيل ، فإنه قصيدة من قصائد النسيب، وآلة من آلاته، ونغمة من نغماته . حدثنى فيلسوف قال : إن آدم هو أول من اخترع التقبيل. قال: زعموا أن آدم وحواء ذهبا إلى شجرة من شجر توت الجنة وجعلا يأكلان من ثمرها ، حتى سال رضاءيهما ، وامتزج بماء الثمر الذى أكلاه ، فأعطاه ماء الثمر من حلاوته ، فبينما يأكلان لمست شفة آدم شفة حواء عن غير قصد ، فراقتهما تلك اللمسة المعسولة بعصير الثمر، فكانا كلما أراد أن يراجعا لذتها ذهبا إلى شجرة التوت (يا ليتهما لم يذهبا بعد ذلك إلى الشجرة المحرمة) ويللا شفتيهما بعصير ثمرها ، ثم حك أحدهما بشفة الآخر.

وجاءت حواء إلى آدم يوماً ، وقالت له: يا آدم إنك قد اخترعت نوعاً آخر من أنواعه قال آدم : وما هو قال : هو التقبيل بإطباق الشفاه . قال آدم أجدت يا حواء ولكن لاغرو، فأنت أم النساء . وزعموا أن الحلاوة التى نذوقها إذا قبل أحدا عشيقته ، هى بقية جاءتنا من سبيل الوراثة من حلاوة ثمر توت الجنة الذى بلل آدم وحواء شفتيهما بعصيره .

والقبل غذاء العاشق والشاعر . فهو إذا قبل حبيبته ، كانت روحه فوق شفته وطى أنفاسه ، فإذا تصافحت الشفاه، تصافحت الأنفس . إنك لتشرئب بعنقك عند التقبيل ، فتشرئب نفسك حتى تطل على حبيبك ، من عينك وفمك . فإن العين والفم بابان تطل منهما النفس على مرأى صالح ومعتنق طيب .

أيام الشباب وأيام التصابى ، من لى بتلك القبل البطيئة التى تضرم النفس وتشعل العين وتوقد الخيال. أيام الشباب وأيام التصابى لكنت تلك القبل عقداً فى جيدك ، ورونقاً غصاً فى ريعان الحياة. أيام الشباب، أنت فجر الحياة، فىك تغنى القبل بصوتها الغريد، كما تغنى الأطيار فى فجر النهار، وفىك تينع القبل فى روض الشفاه ، كما تينع الأثمار والأزهار فى الروض . أيام الشباب أنت عنوان الحياة ، فىك يقرأ القارئ آية الحب وآية العمر.

إن فى القبل من بيان المنطق وفصاحة القول، ما يعجز (برك) (وششرو) ، ومن بلاغة التعبير وشرف الخيال، ما يزرى بشكسبير وابن الرومى والمتنبي . والقبل شتى المعانى، فإن

للحب قيلة، وللشهوة وللحسد والحقد قيلة، وللإشفاق والرحمة قيلة، وللحزن قيلة، وللذل قيلة، وللجبن قيلة، فغلام يقبل أمه، وعاشق يقبل عشيقته، وماجن يقبل هلوكا، وامرأة تقبل شريكها فى بعلها، وأخت تقبل أختاً لها قد أضر بها الحب، وزوج يقبل قبر زوجته، وذليل يقبل يد السلطان أو قدمه أو التراب الذى تحتها، وعابد من العامة يقبل أرض ضريح ولى من الأولياء .

إذا رأيت امرأة تقبل امرأة أخرى أخرى، فاعلم أنها تحبها حباً صادقاً أو أنها تكرهها كرهاً شديداً . ولكن من النساء من تقبل صاحباتها إذا علمت أنهن يعرفن سرّاً من أسرارها . والتقبيل هو لغة النساء، فكأنها تقول لهن فى تلك القبل يا صاحباتى لقد علمتن أنى أحب فلاناً . والقبل إشارة لايعرف سرها مثل النساء، كما لايعرف سر إشارة الماسونية مثل الماسونيين .

حدثنى إبليس قال : أتريد أن أقص عليك كيف استكشفت القبل ؟ قلت افعل قال إنى لما أغريت حواء بأن تأكل ثمر الشجرة المحرمة، جاءت بآدم وجعلت تغريه بأن يأكل من ثمرها وهو يتمنع، فاقتربت منه وهى تكلمه فلمست شفتها شفة آدم عن غير قصد، فوجد آدم فى شفة حواء حلاوة فقال لها ما هذه الحلاوة ؟ قالت إنها حلاوة ثمر الشجرة المحرمة، فضم آدم حواء إليه ووضع فمه على فمها، ثم قال ما ألد هذه الحلاوة المحرمة . هكذا اخترع التقبيل . فلما التذ آدم حلاوة الثمر المحرم، ذهب إلى الشجرة المحرمة، وجعل يأكل منها، فكان ذلك التقبيل سبب سقوطه وعصيانه الله، وخروجه من الجنة وشقائكم بخروج جدكم منها .

فالقبل هى عقارى . وكلما التقى عند التقبيل فم يفم، حدثت شرارة هى من شرار جهنم، وإن ذلك النور الذى تشعله القبل فى عيون العاشقين، ليس من نور الجنة ولكنه من نور الجحيم . والناس تقول إن اللحاظ من أعمالها، تغليب الإرادة على الإرادة، ولكن عمل القبل أشد وهى خير سلاح تحارب به عدوك الجميل . وماذا على الأمم لو جعلت القبل سلاحها فى حروبها، بدل المدفع والديناميت، فيأتى الملكان المتغاضبان، ثم يقبل الواحد منهما الآخر حتى ينهزم أحدهما .

أيام الهدنة

توجد أيام يسميها الشياطين أيام الهدنة، لأنهم يتهادنون ، فليس بينهم وبين الناس عداً يجتمعون فيها ، ويشرب أحدهم فى صحة أخيه من الجعة فهم يفضلون الجعة على غيرها من المشروب. ولا غرابة فى تفضيلهم الجعة، لأنهم يبتردون بها من حر الجحيم . فمن أجل ذلك ، لا يريدون أن يجمعوا على أنفسهم حرارة الجحيم، وحرارة الوسكى أو الكنياك .

ذهبت مع إبليس مرة إلى حانة يأتى إليها الشياطين كى يشربوا الجعة ويقصون القصص والحكايات . وفى أثناء ذلك ، يتفكهون بالنوادر الهزلية، ويضحكون كأن لم تكن بينهم وبين الناس عداوة . وكانت هذه الحانة تسمى حانة إخوان الصفاء ، فلما جلسنا وجلس إلينا كثيرون من الشياطين ، جعلوا يقصون أخبار السماء والأرض، فالتفت إبليس إلى وقال : سمعت أحد الملائكة يقول لحافظ من المحافظين ، وهو الملك الذى يحصى ذنوب الناس، مالى أراك منتوف الجناحين ؟ قال الملك عافاك الله من الناس فإنى استخدم ريش جناحى كما تعلم ، فى كتابة ذنوبهم ، وقد تكاثرت على ذنوبهم حتى برت ريش جناحى وأتلفته، وأنا كلما تلفت ريشة من كثرة الكتابة ، نتفت من جناحى ريشة أخرى، حتى نفذ ريشى ولم تنفذ ذنوب الناس^(١) .

فضحك إبليس وقال: إذا شاء تصدقت عليه ببيع ريشات من جناحى، فطلبت أنا من إبليس أن يعطينى ريشة من جناحه ، أدخرها وأذكره بها فأعطانى ريشة من جناحه، وهى محفوظة عندى. ومن شاء من القراء أن يرى كيف يكون ريش إبليس، فليخبرنى وهى التى أكتب بها هذا الحديث .

قال إبليس : إنى لأذكر أن الكواكب كانت تسمع غناء الملائكة فيطربها ويعينها على الدوران، كما أن النياق تسمع حذاء الحادى فيطربها ويعينها على الأسفار ، فهى فى سيرها تنصت إلى الغزل الرقيق الذى تحدها به الملائكة، مثل غزل العباس بن الأحنف أو قيس بن الملوح أو برنز أو شلى ، ولكنها تأنف من سماع الشعر البارد الثقيل ، فقد غناها أحد الملائكة مرة بقطعة من الشعر المرذول ، فضجت الكواكب ووضعت أصابعها فى آذانه، وجعلت تستغيث وتقول : إن عدتم إلى مثل هذا الشعر اختل نظام الكون.

١- كتابة المحافظ ذنوب الناس بريش جناحيه مأخوذة عن الشاعر بيرون .

وبعد أن شربنا من الجعة ما فيه الكفاية، وتركنا حانة إخوان الصفاء، وجعلنا نمشى فى الأزقة . وبينما نمشى إذ زلقت قدم أحد المارة فسقط ، فقال : وهو لا يعرف أن إبليس من المارين، احسأ احسأ فهذه من فعلاتك يا إبليس ، فالتفت إلى إبليس ، ثم قال: إنه لا يغيظنى من المرء شئ مثل غروره وبلادته، فإذا زلقت قدم أحدكم ، حسب أن ذلك من فعلاتى ، وإذا عطس حسب أنى سددت منخره ، وإذا تشاءب حسب أنى دخلت فمه، كأنى ليس لى عمل فى هذا الوجود الضخم سوى أن أسد مناخر الناس القذرة ، أو أن أدخل إلى أفواههم النجسة، أو أن أتشبه بأقدامهم . ولو علم هذا الثقيل أنى أمد يدى إلى السماء فأغمرها فى الأثير الأعلى ، وأمد رجلي فى باطن الأرض ، فأدفعها بالنار المشبوبة عند مركز الكرة الأرضية، لما نسب إلى أفعال الصبيان .

ولقد جعلت أنا وشيطان آخر نلج بيوت الصالحين المتقين من الناس، فدخلنا منزل الشيخ فلان، وهو رجل من أهل التقوى والصلاح ، فوجدناه يتغذى مع امرأته وهى تقول له : يا حسرة وألف حسرة ماذا أجداك ورعك وزهدك وقيامك الليل، ولو بذلت من جهدك فى تكميل حياتك بلذاتها بعض ما تبذله فى الصلاة والأوراد، لكنت أحب إلى الله وأقرب إليه ، فقال اسكتى ، يا فلانة ، هل حياة خير من حياة تخدمنا فيها الملائكة ، أما والله إن تحت هذا الخوان لملائكة على رؤوسهم، فقلت والله لا تكذب العبد الصالح ، ثم قبعنا وجعلنا نمشى مثل القطط ، حتى صرنا تحت الخوان، وحملناه على رأسينا حتى دميا، ثم كشف عن رأسه فرأيت فيه دملاً فى حجم البعرة فقال : هذا من آثار خوان العبد الصالح . قص إبليس هذه القصة ثم ضحك حتى استلقى على قفاه من شدة الضحك .

ثياب الكائنات

حدثنى إبليس قال : الإنسان حيوان جليل، قيل إنه يمتاز عن غيره من الحيوانات بالضحك ولكن الباحثين قد وجدوا أن من الحيوانات ما يضحك . وقد أخبرنى صديق لأثق بحديثه، إنه رأى بقرة تبسم له وتغمزه بطرفها ، وقيل إن الإنسان يفضل الحيوانات بشرب الخمر، ولكنهم وجدوا أن الخيل تشرب النبيذ وتستلذه ، وقيل إن الإنسان يفضل الحيوانات بلبس الثياب ، ولكننا نجد القروء يصنع لها أصحابها الثياب فتأنس بها وتعجب بها، كما يعجب المرء بشيابه وتزهى بها كما يزهى بلباسه .

على أن المرء لم يلبس الثياب إلا بعد أن أتقن النفاق ، فلبس الثياب وادعى أنه لبسها كى تقيه من الحر والبرد . والصواب أنه لبسها كى تخفى قبح جسمه . ومن أجل ذلك ، ترى المرء إذا عظم جماله خفف من ثيابه ، والدليل على ذلك ثياب النساء الرقيقة التى إنما صنعت لتظهر رقة أجسامهن، ودليل على ذلك أيضاً ما كان يفعله اسكندر المقدونى ، فإنه كان يتعرى أمام أصحابه ، كى يريهم جسمه الجميل ويوهمهم أنه من أبناء الآلهة .

إذا بحثت وجدت أن أكثر الناس ولعاً بحمامات البحر، هم الذين رزقهم الله شيئاً من الجمال. وقد تمر بالمرء ساعات يتذكر فيها أيام العرى فى أول الخليقة، أيام كان المرء عارياً من حلل الحياء الحميد ، كما كان عارياً من حلل النفاق الذميم. ويقال إن سبب اتخاذ الناس الثياب ، أن الحيوانات فى أول الخليقة لما رأت نعومة النساء صارت تتعشقها ، وتنظم فيها الغزل والنسيب ، فلما رأى الإنسان ذلك ، لبس الثياب كى يخفى عن الحيوانات جسمه ألم يجلب بخاطر ك أننا أيضاً ثياب للعوامل والخواطر والآراء التى تتنازعنا؟ وهذه الآراء أليست لباس الحق والباطل؟ وهذه العوامل أليست لباس الخير والشر؟ فهل الحق والخير والباطل والشر من قماش واحد ينسجه الزمن على منسج الأيام والليالى؟ أم هى أقمشة شتى؟ وما هو الزمن؟ هل هو لباس أيضاً؟ والمادة أهى لباس القوة؟ والقوة أهى لباس أيضاً؟ أم ما هى؟ أهذا الوجود كله ثياب تحتها ثياب وفوقها ثياب؟ ومن الذى جعل المرء قادراً على الرغبة فى رؤية الحقيقة التى فى ثياب الكائنات؟ وما هى القوة التى يحاول بها معرفة حقيقة الحقائق التى تضرها ثياب الكائنات؟ .. هل هناك حقيقة تحت هذه الثياب؟ أم الكائنات ثياب ليس وراءها حقيقة كالثياب التى يضعها الغلام بعضها فوق بعض كى يخيف بها أخاه الصغير؟ فإذا كان الأمر كذلك، ما الذى يلج إلى روح المرء ويجعله قادراً على تخيل حقيقة ثياب الكائنات؟ أليست الحقيقة التى ينشدها هى التى تغريه بتلمس تلك الحقيقة؟

دولة البغال

حدثنى إبليس قال : إن الله لما أراد أن يخلق الإنسان ، جمع الملائكة وقال لهم : إنى أريد أن أخلق حيواناً ، وأن أهبه من العقل والذكاء أكثر من نصيب غيره من أصناف الحيوانات ، لكى أرى ما هو فاعل بعقله ، وذكائه ، ثم أسلبه ذلك الذكاء . وقد بلغنى أن الله سيسلبكم عقلكم وذكاءكم ، ولأظن أنكم تجدون فرقاً كبيراً بين حالتكم الأولى وحالتكم الثانية ، فماذا أنت فاعل فى ذلك اليوم؟ قلت هذه مسألة قد فكرت فيها قبل أن تلفتنى إليها ، فإنى أرى أنه ليس من المستحيل ، أن نفيق من النوم يوماً فترى أن عقلنا وذكاءنا قد انتقل منا إلى الحيوانات ، ولم يبق لنا من العقل والذكاء شئ ولاغربة فى ذلك ، فإن العلماء تقول : إن كل نوع من أنواع الجنس البشرى ، هو مستودع فيه مقادير من القوى ، فيعلو هذا النوع وببسط حضارته على العالم ، حتى إذا نفذت قواه سقطت دولته ، وارتفع شأن غيره من أنواع الجنس البشرى ، وإذا نظرت فى التاريخ . وجدت ما يثبت ذلك . ثم إن العلماء الآن فى حيرة وبأس ، فإنهم يقولون : ماذا يكون أمر هذا الكون بعد أن تنفذ القوى التى فى جميع أنواع الجنس البشرى؟ كيف يتقدم الوجود وكيف تنشر الحضارة ؟ وإنما الحضارة رهينة بارتفاع دولة نوع من أنواع الناس بسبب ما هو مودع فيه من القوى . والجواب على هذا السؤال بسيط ، فبعد أن تنفذ جميع القوى . المودعة فى الإنسان ، ينقل الله العقل والذكاء إلى الحمير والبغال أو القرود ، فتعظم دولة البغال حتى تصير الأرض مستعمرة من مستعمراتها ، فتبنى البغال الأساطيل وتعد الجيوش وتنشر الحضارة والعلوم فى أنحاء الأرض ، حتى إذا نفذت القوى التى أودعها الله فى البغال ، عظمت دولة الحمير ، وإذا سقطت دولة الحمير عظمت دولة القرود ، وهكذا غير ما ذكرنا من أصناف الحيوانات.

ولقد رأيت فى الحلم مرة أن دولة الناس قد ذهبت ، وانتقل العقل والذكاء إلى البغال ، وصارت البغال تستخدم الإنسان لحمل الأثقال وجر العربات ، ورأيت أن عدداً من أعيان الناس قد ربطوا فى مريط ، وكان البغل الذى يملكهم قد وكل بهم أحد الخدم ليؤجرهم للزبائن ، ويأخذ أجرة استخدامهم ، ثم رأيت أن بغلاً من أعيان البغال جاء إلى المريط ، وطلب أن يمتطى إنساناً ليذهب إلى مكان عمله ، فقال الخادم : أتريد أن تغطى من الأكابر أم من الأصاغر؟ فقال : ويحك أنا لا أمتطى إلا الأعيان ، فإن منزلتى العالية لاتسمح لى أن امتطى أحقر منهم . ورأيت فى الحلم أيضاً أن إناث البغال الأغنياء ، كانت تشتري الغلمان الحسان لتلعب معهم ، كما كانت نساء البشر تشتري القرود والكلاب لتلعب معها .

مؤتمر الحيوانات

حدثني إبليس قال: أبت ضمائر الحيوانات ما بينها من التنافر، فاجتمع نوابها لتوحيد حضارة الحيوانات، فأرسلت الحمير حماراً مفكراً ينوب عنها، وأرسلت القردة قرداً لبيباً. وكان في هذا المجمع نواب عن جميع أصناف الحيوانات حتى الإنسان، فلما حضر النواب قام القرد اللبيب وقال: يا معشر الحيوانات إننا اجتمعنا اليوم على فرض مقدس، وهو النظر في أمور معاشنا، فإننا كما يشهد أخونا الإنسان الجالس على يميني، كلنا حيوانات (تصفيق) فينبغي أن لا يكون بيننا ذلك التقاطع والتجافي، والاختلاف في منازع الحضارة التي هي أسمى ما ينشده الحيوان في حياته، وأنتلاف نوابنا في هذا المجمع، دليل على أننا خليقون بأن نفخر على تلك النباتات الخرساء التي ليست لها حياة، (تصفيق شديد وتحبيذ) ولكني أحذر إخواني الأفاضل أن يفخر أحدهم على أخيه، فلا يليق بي أن أفخر على أخي الإنسان، كما لا يليق بالإنسان أن يفخر على أخيه الحمار. (تصفيق شديد وعند ذلك هز الحمار رأسه إعجاباً بالخطيب) ولكي لا يظن بنا أخونا الإنسان الحقد عليه لكبره وادعائه، أرى أن ننتخبه رئيساً لهذا المجلس. فقام الثعلب وقال: إنني يوافق رأيي رأي القرد، ولكن ينبغى أن نقيد في دقاتر المجلس، أن انتخابنا للإنسان لا يكون إقراراً منا بأنه يفضلنا. فقام الإنسان وقال: لا أعرف أنتم تعرفون أني أعرف إنكم تعرفون الفرق الشاسع بين الإنسان وبين غيره من أصناف الحيوانات (هنا عارضه ساخر قائلاً لا تتبجح بالعرفان) وإنما قبلت أن أكون رئيساً لهذا المجلس، كي أرشدكم إلى الرأي الرجيع الذي خص الله به البشر (ضحك وسخر من باقى النواب) وأنا لألومكم على ضحككم الذي كان يزرى بكم لو لم تكونوا بهائم (ضحك شديد وعند سماع هذا القول استلقى القرد على قفاه من شدة الضحك حتى بدت ناجذته السوداء) ثم قام الديك وجعل يصيح ويقول: أين المساواة والعدل والإخاء؟ لقد نقضنا كل ذلك ولم يبق بيننا غير سنة الفم وشريعة البطن، وصار كل حيوان طعمة لمن يفضلته قوة ولو دام هذا الحال خربت الأرض. فإن الأمة من الأمم إذا كثرت اعتداء بعض أفرادها على بعض، فسدت حالها وركدت ريحها. فكيف تنكرون اعتداء القرد على الفرد وتعدونه نذير الخراب؟ ثم تحسبون أن تقاتل

عناصر الحيوانات وأجناسها ذريعة إلى الحضارة ومظهر من مظاهر سنة النشوء والرقى ،
وتقولون القوة أساس الحياة . ولكن أين القوى؟ إذا كان كل قوى فوقه قوى يلتهمه . من أجل
ذلك، أرى أن نحرم سطو الحيوان على الحيوان ، كى يستقيم السلم وتنتفى أسباب الحروب فقام
الثعلب وقال : الله يعلم أنى أبغض العداة والاعتداء ولكن أنظمة المعيشة فاسدة ، ولامناص
من السطو ما بقيت هكذا . فإن تملك المرء للشئ من الأشياء يحدث حاجة وعوزاً كما قال
حيوان جليل من البشر ، أعنى البحترى :

كان يحيى ميتاً من ظمأ فضل ما أوبق ميتاً من غرق

فالتملك سرقة شريفة مشروعة . ومن أجل هذا التملك ، كان الحيوان فى حاجة إلى التحيل
للكسب والرزق واستخدام الدهاء وشحذ الحيلة له . ولولا الدهاء والحيلة ما استقامت الحياة .
والدهاء أجل مظاهر العقل، لأنه أكبرها نفعا ، ولكن الحاجة تدعو إلى السطو والمؤم والشر
والاسفاف . ومن أجل ذلك أرى أن نحرم التملك، وأن يكون كل شئ ملكاً مشاعاً بين الناس .
ثم التفت إلى الديك وقال : لاترع يا خليلي من عداوة الأقوياء ، فإنى حاميك وناصرك ،
وقد هديتنى ببلاغتك وصياحك إلى الحق، وبغضت إلى الباطل ، وندمت على ما أتيت من
الشر، ولن ترى منى إلا ما يسرك إن شاء الله تعالى .

ثم قام القط وقال : لقد صدق الثعلب ، فإنه لا يأكل لحوم الدجاج ، لأنه يبغض الدجاج فهو
يحب الدجاج حباً جماً ويحب من أجل الدجاج الدال والجيم ، وأنا لا أكل لحوم الجرذان من
عداوة، ولا يلتهم الأسد فريسته غلظة وقسوة وإنما هى الحاجة والحياة . (تشاءب الأسد تشاوباً
طويلاً).

ثم قام الأرنب وقال : لقد أثبتت الأطباء أن أكل اللحوم رأس كل شر، وأن الحيوان إذا أبطل
أكل اللحوم ، كانت حياته خيراً كلها، فإن الهضم يحول اللحم إلى دوافع الشر كما ورد فى
كتب الطب الحديث ، فإن أكل اللحوم يبيت فى الإنسان خصال الشر، من قسوة وغلظة وشره
ودناءة وشهوة خسيصة ، فخليق بنا أن نحرم أكل اللحوم ، وأن نقنع بالحشائش . (وعند ذلك
بدأ الأسد يزمر وينظر إلى الأرنب نظرة القاتل) .

ثم قام الحمار وقال : قد نسى أعضاء المجلس النظر فى أمر ذى بال، وأعنى العمل والأجر،
فإن بعضنا على عظم نفعه يبيت فى إسطبل كأنه من أقداره ، معبد إله القذارة فى خرافات

الوثنيين ، ثم لا ينال من البرسيم ما يسد سغبه ، فيمشى فى الأسواق ينظر إلى أفواه غيره من الحيوانات التى من الله عليها بما لا حاجة لها به ، من البرسيم أو الشعير مثل نظرة فلاتة التى يقول فيها الحيوان الجليل النابغة .

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر المريض إلى وجوه العود

أما والله لولا الصبر والحياء والحلم واللطف والرقه والأدب والظرف، لطغت الحمير وأبت إلا أن تنال نصيبها من السعادة ، فقام الأسد وزمجر قليلا ثم قال: لامراء فى أن فلسفة الحيوان وآراءه تختلف مناحيها باختلاف جهازه العصبى، فإن جهاز الأرنب جعله يرغب فى تحريم اللحوم، كما أن جهاز الحمار الحليم الظريف جعله يطلب الإنصاف فى الأجر والعمل ، وجهاز الديك فغرفاه بالصياح وطلب الإخاء والمساواة وتحريم السطو والحرب ، وكل واحد منهم مظهر خاص من مظاهر المادة، ولا ريب أن جهازى العصبى هو الذى يغرنى باتخاذ اللحوم عقيدة ، فأرى فى أكل اللحوم صلاح الدنيا وعمرانها ورقياها .

فانظر كم نوع من أنواع الحيوان قد فنى، هل كان يرى فناء عدلاً؟ وهل ترى فى حياة الناس، والحيوانات والطيور والأسماك ، والحشرات والنباتات والجماد شيئاً يستقيم بغير السطو والاعتداء ؟ فأين الحقيقة؟ وأين المصيب؟ هذا الإنسان يتكرر على أخيه الحمار حقه ومطلبه ، وهذا الحمار ينكر على الإنسان اعتدائه وتسخير إياه، وهذه الطباء تنكر على أكل لحومها، وهذه الأسماك يأكل بعضها بعضاً فأين الحقيقة ؟ وأى المذاهب الفلسفية مصيب؟ إنما الفلسفة حاجة من حاجات المزاج ، وكلما كان المزاج أبعد عن المألوف المعتاد كان أحوج إلى الفلسفة . والحياة الصحيحة لا يحتاج المرء فى أن يعيشها إلى فلسفة أو شك أو يقين أو إنكار . وحقيقة الحقائق هى حقيقة المعدة الصحيحة ، والجسم الصحيح، وماعدا ذلك، مظهر من مظاهر الاضمحلال والانحطاط . فالشك والتساؤل من مظاهر الانحطاط ، وكذلك الإنكار الذى يكاد يغرى المرء بإنكار نفسه وحياته وإنكار كل شئ . وكذلك الإحساس الشديد والاعتقاد بما وراء الطبيعة من الأسرار التى يتوهمها والخروج عن المألوف من العادات والآراء والسعى فى إصلاح الوجود وكثرة القول فى ذلك وإعداد الأنظمة التى تهيب هذا الإصلاح، والإكثار من استخدام الرموز وتقديس حياة الفرد ، والرغبة فى أن تتشد النفس غايتها ، والرغبة فى حمل متاعب الفقراء ، والتألم لهم ومذاهب الاشتراكية التى تخفض الناس إلى

مستو واحد، والإقراط فى حب الجمال والسعى وراء الأحلام والخيالات ، من أمثال الخيال الكاذب الذى يدعى المثل الأعظم ، والتغفل فى كشف حجب الحياة عن أدناسها وامها وجرائمها ومقابحها ، وحب الشهرة ورغبة المرء فى أن يشرك الناس فى عواطفه والتعلق بتقريظهم ، فقد لاحظ الأتية أن هذه الصفات تكثر فى المرضى والبله والمجانين، وعدد أفاضلهم ما لاحظوه من أمثال ذلك، راجع موريل وفير والجرين ومنيان والمبروزو وبرجر وماكس نوردو وغيرهم .

فقام الإنسان وقال : إن كل ما قلته لا يخفض من قيمة المذاهب الفلسفية ومناحى التفكير ، فليست قيمتها قيمة ذاتية ، بل قيمتها قيمة تصحيحية، فليست الحقيقة فى مذهب منها، بل كل منها به شئ من الحقيقة . قال الأسد: هذه مغالطة غير وجيهة ، فإن الحق كالجواهر كلما قسمته قلت قيمته . قال الإنسان: بل كالشجرة تأخذ من غصونها وتفرس ما أخذته فتخرج من الشجرة بستاناً . وكما أن للأشجار تلقيحاً ، كذلك للآراء والمذاهب تلقيح ، وكما تخرج نوعاً جديداً من الثمار من أنواعها القديمة، كذلك تلقيح المذاهب، يخرج مذاهب جديدة من المذاهب القديمة ، قال الأسد : هذا عمل البله والمجانين الذين اختل عقلهم، حتى لم يعد لهم شغل فى الحياة، سوى التفكير . ولما انتهى الأسد من قوله، أحس جوعاً شديداً فأعمل أنيابه فى حيوان من النواب المحترمين ، ففر النواب وانفض المجلس على غير اتفاق .

آية المسخ

حدثنى إبليس قال : غضب الله على الناس يوماً فرأى أن يمسخهم فقال: أيها الناس إذا ألحت لكم بالخير وأغريتكم به، وأودعته فيكم، صنعتم الشر تتقربون به إلى فتعذبون من تظنون فيه الشر، وتقسون على كل من تحسبونه غير راغب فيما ظننتموه خيراً . وإذا ألحت لكم بالشر كى تتجنبوه ، وغرسته فيكم كى تعرفوه وتذوقوه وتكرهوه، ملتم إلى الشر ثم تكفرون وتلومون وتعذبون لأنفسكم ، وتقولون : إني أودعت فيكم الشر، وخلقت فى نفوسكم كل ضعف وفساد . وإذا جعلت الخير والشر فى نفوسكم متكافئين ، ظللت ضعفاء الرأى والهمة والعزم، كاللعبة التى يتنازعها طفلان ، كل يجذبها إلى ناحيته حتى تتمزق. وأنتم لاتصنعون الخير حتى تقادوا إليه من آذانكم الطويلة. أنتم تتشدقون بالمثل الأعظم ، والعقائد والوحى والفضيلة ، ولكن أعمالكم أعمال الشياطين .

ثم أخذ شيئاً من رماد الجحيم ، وذرّه فى وجوههم فمسخهم قروداً ، فلما رأى القرد شكلهم أنكروهم ، وذهبوا إلى فيلسوف منهم وسألوه عن أمرهم، فقال : هذا من مظاهر سنة النشوء والرقى فى البشر ، فإن نوع القرد ونوع الإنسان من أصل واحد، ولكنهما فرعان مختلفان . ولاريب أن من ترونهم كان أصلهم من البشر ، فعلمهم الدهر فيما علمهم اتخاذهم الشعر لباساً، بعد أن كانوا يتفون شعرهم ، وعلمهم السير على أربع بعد أن كانوا لايقرون على ذلك لنقص فى خلقتهم. فذهبت القردة وقالت لكاهنهم ما قاله فيلسوفهم فغضب الكاهن وقال : كفر والله فيلسوفكم ، وصار خليفاً بالعذاب الأليم . أيجعل القرد الذين أتم الله نعمته لهم وجعلهم خير عنصر أخرج فى العالم، وعلمهم اعتلاء نواصى الأشجار وأغصانها ، مثل هؤلاء الناس الذين لا يحسنون المحاكاة والتقليد، ولا يجيدون تسلق الأشجار فذهبت القردة ونتفت لحية الفيلسوف ، وأرادت أن تمثل به ولكنه اعتذر ، وقال حاشا لمثلئى أن يخفض من منزلة القرد بعزو هؤلاء الناس إليهم، ولم أقل إنهم بلغوا حد الكمال من المرتبة القرديّة، ولن يبلغوا تلك المنزلة، فهم لا يصلحون لها ، وقد قدر بقاء الصالح للحياة وفناء غير الصالح لها، ونحن الصالحون.

أما هؤلاء الذين يحاولون بلوغ المنزلة القردية فقد كتب عليهم الفناء فى معترك الحياة . قال الكاهن: ينبغي أن تنتهى عن سنة النشوء الكاذبة التى تحاول أن تفسر بها كل شئ فليس رأى كما ترى، وإنما هؤلاء قوم أحسنوا عملاً فرفعهم الله من حضيض عالمهم إلى سماء عالمتا، فأنكر بعض القروء أن يكون الأمر كما قال الكاهن. وزعموا أن قروء الناس يعجزون عن أن يحسنوا عملاً، وإنما قروء القروء هم الذين يحسنون عملاً. فقال كاهن آخر: الحق ما أقوله لكم، إن هؤلاء قوم ليسوا من القروء ، والدليل على ذلك أنى كلما جذبت ذنب أحدهم انفصل فى يدي وبقي من غير ذنب، وإنما هم قوم أرسلهم الله إلينا كي نسخرهم فى الأعمال الوضيعة النافعة، مثل بناء البيوت وفرشها . أما اعتلاء الأشجار وغيرها من الأعمال الجميلة الفنية فقد خصت بها القروء.

أما قروء البشر، فإنهم بقوا على فسادهم وسفالة نفوسهم حتى ضج منهم قروء القروء، فأراد الله أن يعاقبهم فمسخهم مرة أخرى، بأن أرجعهم من المنزلة القردية إلى المرتبة البشرية. ثم إلتفت إلى إبليس وقال: فأنتم قد كنتم أناساً ، ثم صرتم قروءاً ثم رجعتم إلى حالتكم الأولى ، وأنتم لاتشعرون . وما يدريك ، لعل الواحد منكم يمسخ فى اليوم الواحد ألف مرة فيعيش ألف حياة ، ويعالج كل مظهر من مظاهر الحياة وأنواعها ، ثم يرجع إلى حالته الأولى فيتنبه إلى ما كان يزاوله من أمر المعيشة البشرية من غير أن يحس ما عاجله من المعاش الأخرى .

زيت الفضيلة ونار الرذيلة

حدثني إبليس قال : إنكم تحسبون أنى لم آت خيراً وأتم وأهمون ، فإنى قد عاجلت من الخير قدر ما عاجلت من الشر. أحياناً تعملون العمل تريدون به الخير فأجعله شراً ، وأحياناً أظهر لكم الشر فى مظهر الخير. ولكنى لا يغيظنى شئ مثل الشر الذى أقدر أنه شر فيكون أثره الخير بالرغم منى. ولو فطنت إلى الخير والشر لرأيتهما ثعبانين ، كل منهما آخذ بذنب أخيه ، يأكل منه فثعبان الخير يأكل من ثعبان الشر ، وثعبان الشر يأكل من ثعبان الخير. ومن أجل أن طولهما واحد يأكل الواحد منهما بقدر ما يأكل منه أخوه ، فيزيد بقدر ما ينقص .

ولقد اجتمعت الأبالسة يوماً وأرادت محو الفضيلة ، وإلغاء الخير ، فقامت بينهم وقلت : يا أباالستى أتريدون أن تقفلوا فى أوجهنا منافذ الرزق ، ألا تعلمون أنكم إن محوتم الفضيلة محوتم الرذيلة بمحو الفضيلة ؟ وإذا نفيتم الخير نفيتم الشر أيضاً ؟ قالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قلت : ألا تعلمون أن من فائدة المجرم أن يبقى الطهر وحب الخير فى الناس ، لأن حب الخير والحلم صفة إذا انتفت أسبابها ما ربح المجرم المعتدى شيئاً ، لأنه لا يجد طاهراً ساذجاً حليماً يعتدى عليه . ومن أجل ذلك ترى الوقح يكره أن يكون المظلوم وقحاً والعاذى يكره أن يكون الحليم عادياً . وترى المرء يكره سوء الأدب فى غيره ، لأنه يريد أن ينتفع بسوء أدبه. ولكن سوء أدب الفريسة يحول بين العاذى والمعدو عليه. فالوقح يشتم الوقاحة ، والكذب يشتم الكذب ، وكل امرئ يحض الناس على الفضيلة التى ليست فيه ، لأن الفضيلة إذا انتفت أسبابها انتفت أسباب الرذيلة أيضاً . ومن أجل ذلك ، جعلنا أياماً فى السنة سمينها أيام رذيلة الفضيلة ، نحض الناس فيها على الخير ، وهذا الحض على الخير ، بمنزلة إراقة زيت الفضيلة على نار الرذيلة لإشعالها به . فلو كان كل الناس من أهل الرذيلة ، ابتذلت حرفة السارق والقاتل ، ودخل فى الحرفة من ليس من أهلها وصار النصب والنهب مثل تجاذب الذرات الكيماوية ، وصارت يد المسروق منه فى ثياب السارق ، وبطلت صنعة المحامى والقاضى بإبطال السنن والشرائع .

ما هي السعادة

سألت إبليس ما السعادة فقال :

السعادة بمنزلة البرسيم الذى تليح به للنعجة العنيدة ، فتجربى وراءك وأنت، كلما قاربتك أبعدته عنها فلا تطعمها إياه .

والسعادة هي بمنزلة الأسفل من كعوب قصب السكر، فتمص أولاً زعزوعة الأيام طامعاً أن تؤدى بك الأيام إلى أحلا الكعوب ، فإذا وصلت إليها وجدت السوس قد سلك فيها مسلكه وأفسد حلاوتها .

والسعادة؛ مثل الملح الذى نسى الطاهى أن يصلح به الطعام .

والسعادة؛ هي الدرهم الذى وعدك أبوك به كى تقلل من جلبتك ، ثم لم يف بوعده .

السعادة؛ هي كل شئ قبل أن تصل يدك إليه.

والسعادة؛ هي لقائف الطباق التى يضع فيها المازح شيئاً من المفرقات.

والسعادة؛ هي الحلوى التى يضع لك المازح فيها قطعة من الثوم أو الملح .

والسعادة؛ هي اللقمة التى لن تمضغها .

والسعادة؛ هي الماء الذى لا تجده عند الظمأ .

والسعادة؛ هي الدرهم المزيف الذى ليس فى صرتك غيره.

والسعادة؛ هي الغرفة المحرمة فى بيت الغول.

والسعادة؛ هي القطر الذى علم بمجيئك إلى المحطة فهرب منك .

والسعادة؛ هي الطعام الذى يسقط فيه الذباب قبل أن تذوقه.

قال إبليس : وهناك نوع آخر من السعادة خير من الذى ذكرته:

فالسعادة ؛ هي أن يخف ألم ضررك فبعد أن كنت تتمنى الموت من ألم الضرر، صرت

تتمنى من أجل ذلك الألم للنوم فقط .

والسعادة ؛ أن يرمى من نافذة فوقك وأنت بين المادة ماء قذر ورطل من حديد فتلوث بالماء

وتنجو من الرطل الحديد.

والسعادة؛ أن يسطو عليك لص فيسرق مالك وتنجو منه نفسك .

والسعادة؛ أن تزلق قدمك فتقع فتهدم أنفك بدل أن تفقأ عينك .

والسعادة ؛ أن تجد بعد كل ألم لذة.

والسعادة: أن تجد لذة فى ألم غيرك فتلتذ أن الألم بغيرك لابلـك.
 والسعاد: أن ينبحك كلب فيمزق ثيابك وإهابك ، ولكن لا يصيبك بداء الكلب.
 والسعادة: أن تكون ذا نعل أمام اللاتعلين، وذا كساء أمام اللاكسائين (اللاتعليون
 صيغة الفكاة والصواب الذين لاتعل لهم) .
 والسعادة أن تعوز البقلاوى فيسعدك خبز الدرہ. فالسعادة كما ترى ممزوجة بالشقاء،
 والشقاء ممزوج بالسعادة، ومن طلب سعادة غير هذه ، كان كالمستقى من ماء السراب .

أحلام اليقظة

الخير والشر*

ذهبت مرة إلى مدينة من مدن القدماء لم يبق منها إلا أطلالا ونوفا، فجعلت أنظر إلى تلك الأطلال ، كأنى أنظر إلى خيالات العصور الخالية .

غربت الشمس، ثم رأيت النجوم فى السماء ، كأنها أطلال الفردوس، فرأيت فى السماء أطلالا . وقد خيل لى أن هذه الأرض قبر ، والسماء غطاء ذلك القبر، والناس أموات والنجوم أزهار وضعت على ذلك القبر، كما توضع الأزهار على قبور الأفراد . فاستلقيت على الأرض وجعلت أنظر إلى النجوم نظرة هوجاء، ثم رأيت فى السماء جنيان، جنى تتطاير من عينيه النار وجنى ينبعث من عينيه النور. الأول له أذنان مثل أذنى الحمار ، والثانى له أذنان مثل أذنى الإنسان . ثم رأيتهما قد وضعا أيديهما حولى ، فوضع أحدهما يد تحتى ووضع الآخر يد فوقى، ورفعانى بين يديهما حتى وضعانى على سحابة تشرف على الأرض . ورأيت الأرض مثل كرة القدم فى الحجم، ثم قال الجنى الذى ينبعث من عينيه النور وأشار إلى صاحبه : هذا إبليس لا يغرنك منه أن أذنيه مثل ، أذنى الحمار، فإنه على ذلك كثير الدهاء كثير الذكاء ، ولكن لو لم يكن بينه وبين الحمار شبه ما فضل الشر على الخير. فضحك إبليس وقال: لاتضع الوقت فى المزاح ، ثم التفت إلى وأشار إلى صاحبه وقال : هذا الذى أمامك هو صاحب الخير، وأنا صاحب الشر. وهذه الكرة التى أخرجناك منها هى كرة نلعب بها، فإما غلبنى وإما غلبته، قلت : ومن الحكم بينكما ، قال : الله يحكم بيننا. ثم جعلا يلعبان بالكرة الأرضية ، هذا يضربها برجله من ناحية ، وذاك يضربها بها من ناحية أخرى ، ثم نظرت إلى الجنى صاحب الخير فرأيتة يكبر فى حجم جسمه ، ورأيت إبليس يكبر ، فسألت صاحب الخير عن ذلك فقال: أنا أكبر لأنه لانهية للخير ، وإبليس يكبر فإنه لانهية للشر، ثم نظرت حولى فرأيت أنى نائم على الأرض ، وكان الجنيان قد خفيا عن بصرى . فقلت لنفسى: أكبر ظنى أنى كنت أحلم .

طبيعة الإنسان

ذهبت مرة فى المساء إلى شاطئ البحر لأروح عن نفس من الهم الذى يعتور المرء من التفكير فى أساليب الحياة، وما يأتى الناس من شر ثم اضطجعت على الأرض، وجعلت أردد لحظى بين السماء والبحر، فصغرت لدى حياة الناس من عظم ما بين السماء والبحر، وبينما أسخر من طبيعة الإنسان وما تغرى الناس به من غدر ولؤم ودناءة وكذب وقتل وخيانة، وقع بصرى على ملك من النور، كله جمال وفى يده مرآة، ثم رأيته قد اقترب منى ووضع المرآة أمام عينى، ثم قال: انظر فى هذه المرآة فنظرت فرأيت جنياً، ملأماً بين السماء والأرض، رجلاه رجلان حيوان مفترس، لها كساء من الشعر، وباقيه ملك كريم، فنظرت إلى قدمه فرأيت أظافر مثل أنياب الفيلة، ورأيت الدود والبق والعقارب فوق رجله وفوق قدميه، فأغمضت عينى من قبح ذلك المنظر، ثم سمعت صوت الملك يقول: ارفع بصرك وانظر إلى وجه الجنى فى المرآة، فرفعت بصرى، ونظرت فى وجه ذلك الجنى، فرأيت وجهها ينبعث منه النور، كله حنان ورفق وعينين لحظاتها كلها ذكاء، وجبيناً لو صور الحق إنساناً لكان جبين هذا الجنى جبينه، ورأساً مكللاً بالأزهار، حوله حالة من النور.

ونظرت إلى صدره فرأيت به نبيلاً جليلاً، فخفق قلبى طرباً بجمال هذا المنظر وجلاله، ثم نظرت فى يدي ذلك الجنى فرأيتها مثل يدي القرد، فراعنى ما رأيت، وعجبت كيف يقرن ذلك الجمال الجم بذاك القبح الجم؟ فقال الملك: إن صورة هذه الجنى تمثل النفس الإنسانية، فإن هذا الجنى رأسه فى السماء ورجله فى الأرض، وكذلك النفس، وإذا نظرت إلى النفس، رأيت أعاليها كلها جلال وجمال، وأسافلها مثل بثر كله حشرات.

وهذا الجنى له يدان مثل يدي الحيوان، فإنما هذا مثل العمل فإن الغريزة تحث المرء على العمل من خير وشر.

ثم رفع الملك مرآته من أمامى وقال: إذا أردت أن تعيش عليل النفس سقيم الأمل، ضئيل الهمة فانظر فى أسافل هذا الجنى، وردد بصرك فى الدود والبق والعقارب وغير ذلك من الحشرات التى فوق قدميه، فإن هذه أسافل النفس، ويكون مثلك فى هذه الحال مثل من يريد أن يستحم فيرى غديراً صافياً طاهر الماء، فيعدل عنه إلى الماء الآجن فى المستنقع الموى. لم لا ترفع بصرك إلى السماء فتري أعالي النفس، كما رأيت أعالي هذا الجنى من لحظ كله ذكاء وجبين، كله جلال ووجه كله ضياء. فلما قال الملك قولته هذه رفعت بصرى إليه فرأيت قد خفى عنى فرجعت إلى بيتى، وقلت: خاب من نظر فى أسافل النفس الإنسانية ورجع بصره خاسئاً عن أعاليها.

عظم الوجود*

رأيت فى الحلم مرة أنى كنت نائمًا على الأرض فى بستان أنيق، وجعلت أنظر إلى النجوم والظلام حولى كالعباءة ، فبينما أنظر إلى السماء، رأيت عينين كبيرتين تطلان من السماء ، وكل واحدة منهما فى حجم القمر، ولكنهما كانتا مثل أعين الناس ، ورأيت النار تنقذ فيهما كأن فى كل عين منهما جحيماً ، ثم رأيت يداً كبيرة كأنها يد جنى مدت من السماء إلى الأرض ، فقبضت على ورفعتنى فى كفها حتى صارت الأرض فى عيني إذا نظرت إلى أسفل مثل النملة، وصارت الشمس مثل التفاحة الصغيرة ، والكواكب حولها كالنمل فتملكنى الرعب حتى صرت من شدة الرعب لا أحس به، ثم نظرت إلى ما فوقى فرأيت كواكب وشموساً غير الكواكب التى يراها الناس ، وشموساً غير الشمس التى يراها الناس، رأيت كل هذا وأنا فى يد ذلك الجنى.

ثم رأيت عيني ذلك الجنى فى سمائي والنار تتطاير منهما فصحت قائلاً : من أنت أيها المخلوق الكبير، فضحك ضحكا كاد يصم أذنى، ضحك صوته مثل صوت تصادم الكواكب وتكسر الأفلاك ، ثم قال : أنا أعظم من أن أكون مخلوقاً ، أنا روح الأبد . أتخسب أيها المخلوق الفقير، أن كل شئ مخلوق مثلك؟ أتعيس قدرة الله بما أودع فيك من المقدره ؟ ثم قال: انظر أيها المغرور ؟ ثم رفع صوته وأمر الأفلاك من نجوم وشموس أن تتصادم ، فتصادمت وتكسرت، ثم غابت أشلاؤها فى الفضاء . قلت هل فى الوجود؟ فضحك ضحكا عالياً ثم قال لا ... انظر أيها المغرور ثم رفع يده، فرفعتنى فى يده ، فرأيت أفلاكاً غير الأفلاك التى رأيتها قبل . وهكذا جعل يأمر الأفلاك فتتصدع، ثم يرينى غيرها حتى كدت أموت من جلالة ذلك المنظر وهوله، فصحت قائلاً : أرنى الأبد الذى أنت روحه ، فضحك وقال: إنى ليعجبينى غرور الإنسان، فإن غروره هو نتيجة من نتائج الطموح ، والطموح دليل على الحياة وعنوان العبقريه، اعلم أيها المغرور أنك جزء حقير من الأبد، فكيف يفهم الجزء الحقير الشئ الكامل؟ قلت إذا كيف فهم الحكماء وحى الحق؟ قال: إن ضمائر الأفراد ثقوب يطلون منها على الحق ويناجونه

منها ، ولكن مثلهم فى تلك المناجاة مثل جماعة من العميان ، لمس أحدهم خرطوم الفيل فقال
الفيل ، مثل الثعبان ثم لمس أحدهم جانبه فقال : الفيل مثل الحائط ، ثم لمس أحدهم ذنبه ،
فقال الفيل : مثل الحبل الطويل ، ولمس أحدهم رجله ، فقال الفيل : مثل الدعامة المستديرة ،
وكذلك الحكماء لا يرون الحق إلا كما ترى النور من ثقب صغير ، فكل عقيدة من عقائد الناس
مكملة لأختها ومتممة لها . ولما انتهى إلى هنا ، قال اذهب إلى مكانك من الأرض ، ولا تنس
عظم الوجود ، فإن إحساسك بعظمته فيه معانى العبادة كلها .

حكم وأمثال

من دواوين عبد الرحمن شكرى

حياة الناس إما ماء نهر فيصلحه التدفق والمسير
وإما ماء آجنة كثير قذاه ويأجن الماء الطهور

* * *

ليس يدري مضاضة القدر الفاء لب إلا معالج البأساء

* * *

أكذب الدين ما ينيم قوى المرء كما يخرس الرياح الركود

* * *

وما علم الغل الفتى كمصيبة دهنه فلم يعطف عليه ضريب

* * *

لم يزر بالحق حب الحسن بينهم فالحق والحسن إن فكرت سيان

* * *

لا تحسب الحب بين الناس منقصة فالحب سلوة هذا العالم الفانى

* * *

والعيش سر أنت باحثه فعسى تجوب مجاهل السبل

والعيش سجف أنت رافعه عما جهلت بجذ ذى حيل

والنجاح ليس بخير مكتسب كم نجحة شر من الفشل

كم ظافر بأقل مطلب خذلت يده بمطلب جل

ضحكات لاتعرف الخير والشر ولا تضر الجوى واللغوى

* * *

وفى اللون آيات من النور جمّة ويارب لون قد يضئ له جمر

إنما تنطق النفوس لدى كل مصيخ إصاخة المذعان

ولنجى النفوس ليس الذى الـ جم فاه من رهبة أو هوان

إن وأد الأبناء أهون خطباً وإثاماً من وأد تلك المعانى^١

* * *

كالمكان الخراب يبعث فى النف س خشوعاً ورعدة للظنين

* * *

رب جان علم العا جز وجه العزمات

* * *

هكذا سنة السورى وقديماً هلك الليث فى زمان القروء

* * *

كل عيش سهل المساغ وإن مر سوى عيش يائس مصفود^٢

* * *

فإذا شاء رأى فى الجذب خصباً ورأى فى الراكد الماء المعين

* * *

يد نحو النجم كفاً له ويحسب النجم قريب المنال

* * *

ربما اضمحل الرباء حياءً ويدافى الحياء بعض الرباء

* * *

وما كل ما يأتيك عفواً محللاً ولاكل ما لا ينتحيه ملام

* * *

وافتقار النفس للح ب عنيف لا يرائى

* * *

ورب لون هاج شجر الفتى وفتح الذهن بمراى الضياء

* * *

ووالله ما أدري أواف بعده أحق بإجلال الفتى أم ضمينه

١- أثاماً اسم مصدر . ٢- مر وامر بمعنى أى أنه صار مرا

ألا عللاتى يا خليلى أنتصا

على العيش بالإحسان والصدق والندى

* * *

كلما اضممرت حباً لحبيب كذبت أخلاقه ذاك الهوى
فى ضياء الحسن وعد كاذب مثلما أومض برق وخبا

* * *

خلق الإنسان كى يشقى بما يبتغى فى نيله براء الشقا

* * *

ولربما كره الفتى صور الردى وهو الجرى على الحمام المقبل

* * *

ندمنا وقد تمحو الندامة ما مضى ولكنها قد توس المرء فى الباقي
وتودى بعزم صادق ذى عرامة وتنحى على بال السليم باقلاق

* * *

ومن سمت نفسه لغايتها الـ قصوى بعزم ثبت واقدام
يكرم الحب كل تكرمة ويعظم الحسن أى إعظام
إنما الأرواح شتى فاسلكوا كل روح حيث لاتذوى منهاها

* * *

وكم فى الشعر من حلم لذيذ يعين على حياة أو حمام

* * *

وهل يرفع الإنسان فضل أصابه إذا كان يزجيه إلى الفضل زاجره

* * *

كفى بنفسى داء انسى رجل أخشى الحياة واقلنى سطوة الأجل

* * *

بعض الأمنى كالحيا ة إذا انقضت ليست تجدد

وما هجروك من عبث ولكـ ٥ غايات الوسائل فى الحثوف

* * *

إذا كان الحبيب على سـ ٥ فلا يغنى التردد بالعتاب

* * *

نغمات مثل الربيع حسان ٥ وغناء يحيى الهوى والتمنى

فالأزاهير كالطيور على الغصـ ٥ ن سكوت والطيور زهر يغنى

* * *

ويح شمل الصحاب لو كان صدق الـ ٥ قول أن لا حياة بعد الحياة

* * *

أنا والغيب كالغلام إذا حاـ ٥ ول فتحاً لمغلق الأبواب

* * *

ويا حسن ما تملأ الخيالات انهاـ ٥ حلى على جيد من الدهر أجرب

* * *

وفى اليأس يأس يبعث المرء بعثة

إلى الغاية القصوى من السعى والمجد

* * *

إنى لاذكر أياماً لنا سلفت ٥ كما تذكر صوت اللجة الصدف

وكلمتنى الرياح الهوج فى قمهاـ ٥ سر الطبيعة مخبوء ومنكشف

* * *

وإنما الكون قلب لا سكون له ٥ حياته نبضات الحادث الجلل

* * *

وما نصب المصباح إلا لضوءـ ٥ وإن كان فى احشائه الدهن فانيا

وليس الذى يحيا حياة ذليلة

خليقا بأن يدعى على العيش باقيا

* * *

صن بالفضيلة حسنا أنت زائنه ما كل حسن يعف الذيل فتان

* * *

وان الجسوم غذاء النفوس وان النفوس حياة لها

* * *

وقد يخز الشر روح الغبى كما يخز الدود أهل القبور

* * *

فهم يدحون الخير من خوف سامع

وهم يهجرون الشر خوفاً من العذل

* * *

إن الذى اتخذ الظلوم وليه اطفى اذا عد الطفاة واطلم

* * *

إن العقيدة فى الضمير مكانها ليست بتحريك اللسان ولا الفم

لاتعد الظن رأيا صادقاً يفتح الظن مغاليق الحمام

* * *

هو كالأخفش فى الحافظه لا يرى الاشياء إلا فى الظلام

* * *

ومن شقوة الإنسان ان اقتداره ضئيل وما يرجو من العيش واسع

* * *

متعلق بالعيش يرجو صفوه كتعلق الطفل الرضيع بأمه

* * *

وإنى لارجو فى اخائك لذة كلذة أهل الرأى فى حسن الفكر

* * *

نعمننا بكم حيناً فلما صدقتم ثكلنا كم ثكل الفتاة رضيعها

* * *

كما افلقت من قانص الدر درة وقد امننت اطماعه أن يضيعها

بحسب ان الاقدار ما خلقت إلا لتجرى بنسج مؤدده

* * *

ان الوسائل والغايات ما اشتبهت

على امرئ فدواعى الطيش فى العمل

* * *

فقد يخطئ الإنسان ما هو طالب

ويصمى من الأشياء ما ليس يقصد

* * *

يرجو الفضيلة لكن لا يعالجها ويطلب الخير لم يمد له مدداً

* * *

وما كنت الاقاذف الريح بالشرى لوته عليه الريح والترب تارب

ألم تر أن الشر مغرى بربه يغالبه عن نفسه وهو غالب

* * *

واحسن من شكوى الزمان واحتقاره

إذا عدوات الدهر غالت خطوبها

* * *

لكل دهر إمام قائم أبداً يبين للناس معنى الصدق والكذب

* * *

فصبر يعين المرء فى حين بأسه وصبر يعين المرء عند طموحه

* * *

إذا أنت أكرمت اللئيم اهنته بفعل حميد ناقد لفعاله

* * *

مهما تطاول بالنبات فروعه فاصوله فى الأرض ذات طرائق

وكذا اللئيم إذا تراقع قدره غالى برأى فى الفسولة صادق

* * *

يسوءك اليوم فترجو غداً ان غداً ليس بيوم جديد

* * *

وقد يحمد الانسان عقبى ذنوبه ويشقى بما لم يجنه ويصاب

* * *

ويل القوي من الضعيف اذا طغى

ويل الضعيف من القوي العادى

* * *

يمشى وحيداً فى الخلاء وحوله جيش من الآراء والعزمات

ومن يصحب الأيام من بعد خبرة يقل لديه تافه وثمانين

* * *

أعز صديق فى الخفاء يكيدنى وأصدق صحبى فى الوداد يمين

* * *

وما العيش إلا الذئب تدمى نيوبه وللعيش ناب قاتل واظافر

ولكنه كالخمر تحلو لشارب وإن سلبت منه النهى والسرائر

* * *

ماترى الناس فى الحياة حيارى ضل من كان عالماً أو جهولاً

* * *

واعاد الاتام قصة من ما ت فكانوا قابيل أو هابيلاً

فترى الخلق فى المطامع إما قاتلاً ظالماً وإما قتيلاً

* * *

فمن لى بعيش لا أبالى صروفه اقول لدهرى طر بصرفك أوقع

* * *

إذا كنت فى روض فقلبى طائر يغنى على اغصانه ويطير

يُقتل المرء على الجرم ولا يسأل الجبار عما يجترم

نعيش بالغش ما حيننا غش عدى أو أجنة

* * *

جلدة السخل بها الذئب ارتدى فاذا ما غفل الراعى هجم

* * *

إذا ظمى الفؤاد إلى كمال رأى ضرب الخلود كقيد شبر

* * *

وكان الجهل لى عبداً فولى فيا شوقى إلى جهلات عمرى

* * *

وفى كل وجه لو فطنت اشارة تدل على ما فى الضمير من السر

* * *

بنى ادم لا تذكروا العدل ذكراً فما العدل إلا ما ترون من الأمر

* * *

ولو كان للآثام ريح خبيثة تطيب كل الناس بالنند والعطر

ولو كان سوء النفس داء بجلدهم لاصبح كل الناس يوصم بالعر

* * *

والموت اطهر من خبث الحياة وإن راعت مظاهره الاجداث والظلم

* * *

ضما نركم لو تعلمون حبا نل لها من اباطيل التفاق سيور

* * *

يعين على شتمى وإن هو لم يقل مقالاً وبعض الصامتين يقول

* * *

وارقص على نغم الحيا ة فما لها ابداً معيد

* * *

من لى بعيش لا أحسن صروفه كالماء أو كالنار أو كالجلمد

* * *

ضحك يهد القلب وقع رعوده ولرب ضحك في النعيم مفرد

* * *

وفي صروف القضاء عرقلته تقتل روح الذكاء بالريب

وتبعث اليأس والملالة والشك وتودي بهمة الطلب

* * *

والقلب مثل الزهر يحييه الهوى يوماً ويدركه الأسى بمات

* * *

وما الشعر المشبوب في الرأس حلية ولكن رماد للحياة يرب

* * *

عيث نسبة الغناء إلى الروض ض فليس الغراب كالورقاء

* * *

ولا تحسب أن السكوت جلادة فما كل صمت يحمد العيش صاحبه

* * *

على الدهر والدنيا على العيش والردى فرائض لا تبلى ولا تتحول

وتهلك هاتيك الشعوب وتنطوى كما يهلك المرء الضعيف المقتل

* * *

وعش مع هذا الكون كوناً معظماً وكن في قواه بين ناهٍ وأمر

* * *

فانى رأيت النفس كالافق بهوها تسير بها الآمال سير الكواكب

* * *

إن المقادير اجناد مجندة تصول بالحق لا ظلم ولا خطل

لارحمة عندها ترجى ولا مقة ولا الشفاعة تقصيهها ولا الخول

* * *

إذا ابتلى الله قومًا بالهلاك فلا سمع لديهم ولا عزم ولا حيل

* * *

لا الدهر غرُّ ولا الايام ظالمة وانما العيش فينا والردى علل

* * *

كل له أجل يسعى ليلبغفه وليس يفلت إما جاءه الأجل

* * *

ان من يدرس الحياة طويلاً لخليق بضحكة الجهلاء

* * *

ظماً النفس مثله ظماً الجسم وداء النفوس كالادواء

* * *

وحسوت النعيم والبؤس حتى لم ادع كأس لذة او شقاء

* * *

واشقاك ان قيسود المقام بح غلت عليك فلم تصدع

فاصبحت فيها كطير الحبا نل رمت الخلاص فلم ترفعى

* * *

يقضى الغبى حياته فى غفلة عن نفسه ويعد فى الأحياء

* * *

لولا طماع الحالمين وهمهم بقى الورى كالتربة الغبراء

* * *

وليست نفوس الناس إلا اسنة لها كل يوم مطعن وجلاد

وهب أن ما يأتى الفتى غير مقنع أليست لذاذات الطراد تراد

* * *

جهلنا فما ندرى على العيش ما الذى يراد بعيش نحن فيه نقاد

سوى أن عيش المرء بالشك فاسد وان يقيناً فى الحياة رشاد

يقيناً بان العيش نشوة صائل له عزومات فى الحياة حداد

* * *

للنفس افق مضى نوره عمم وارضاها النتن من رجس وادناس

* * *

نفسى كالطائر الحبيس فلا مفر من جور سطوة القدر

* * *

تعاودنى ذكرى الربيع الذى مضى كأن حبيباً قد طواه حمام

لقد جف قلبى والزهور نضيرة وقد شاب قلبى والزمان غلام

* * *

وهون عندى الموت ما الدهر صانع فلست من الخطب العظيم اخور

فليست مساعى المرء إلا جنازة تخب به نحو الردى وتسير

* * *

من ثمار القدرة العلم وفى العجز الضلال

قيمة المرء مساعيه إذا عز المنال

بذلوا النفس ليحفظوا إنما البذل نوال

* * *

فتفس الفتى فى مسلك العيش توأم لها فى الادانى توأم وحبيب

* * *

ولحظ الفتى من نفسه وخصاله إذا طاب نفساً فاللحاظ تطيب

* * *

وكل وداد لو فطنت تجارب فمنها مضى مغدق وخلوب

* * *

وقلت لقلبي إنما العيش خلصة من الموت لا تبلغه يا قلب صاديا

وما احسب النفس اللجوج شفاؤها من العيش ما يدنو وان كان شافياً

حب النقيصة أثرة مذمومة يغدو لها الخلان كالاضداد

وهو المحاسن الفسة ومسوودة وتناصر كتناصر الأجناد

ظن الفتى كفعاله ومقاله وخصاله من مضر أو بادی

* * *

وأن هيام المرء فضل وفطنة إذا كانت الاخلاق غير لئام

* * *

لولا المصائب والآلام قاطبة ماكان فى الناس إشفاق واحسان

لو تشعر النار لم تعنف بلامسها او تألم النار لم تحرقك نيران

* * *

وكيف ترجى العدل فى قول حالم تطلب دنيا حلمه فشكاهها

* * *

ولاخير فى نيل الوداد بشافع إذا انت لم يطرب إليك حبيب

* * *

يا طارق الموت فيك إلا من انشده فانت ارحم من صحبى وخلانى

* * *

والكون آية شاعر يأتى بمبتكراتها

* * *

بخلت به بخل الشحيح بماله وكان جواداً بى على كل عاتب

* * *

وكل امرء فى العيش للعيش خادم يقاد الفتى فى العيش قود الجنائب

* * *

هذا جزاء امرء بالناس منخدع فالغافل الغر فينا فرصة الجانى

من ضح نفساً فلايزرى به صغر ان الكبير كبير النفس والشان

اعتدت من أهل دهرى كل منقصة فلا الومك فى مكر وعدوان

وما عتابيك فى طبع بليت به الطبع اغلب من نصح وعرفان

* * *

يحسب الكون اطاراً دونه رسم من يهوى مضيقاً كالشهاب
اسقنى خمر المساعى والهوى فجمال العيش فى ذاك الشراب

* * *

والنفس بيت الله أن طهرت والنفس إن لم تصف مثل الجحيم

* * *

تعلمنى الاقدار ان ارحم الورى فقلبى لكل العالمين رحيم
وانظر فى نفسى واعرف عذرهم على شرهم داء النفوس قديم
وان جميع الناس اهلى واخوتى وإن كان فيهم جارم وذميم
وليس خصيمى من يريد شقاوتى فانا جميعا للقضاء خصوم

* * *

وكم من نفوس ساميات اذلها فعادت بادناس الحياة تطيب
ترى أن خير الكون ما هو كائن ووحى النفوس الساميات مرب

* * *

لايسعد الناس من الحرص سنتهم حتى يطهر داء الحرص بالندم
ترى السعيد شقاء النحس متهماً

مرأى الشقاء لدى المجدود كالتهم

* * *

وانما ملجأ النفس التى كرهت عزو الأمور إلى الاقدار والقسم
تبتغى عالماً جديداً من الكون قد نشأ
خارجاً منه مثلما تخرج الليلة الضحى
إذا جعل الإنسان نصب لحاظه مآثمه هانت عليه مكارمه
فبيأس حتى يحسب الخير خدعة وينحل عنه صبره وعزائمه
وإن جعل الإنسان نصب لحاظه مكارمه هانت عليه مآثمه
فيصبح مفروراً بتيه بخيره يرى أن كل الخير ما هو عالمه

ويحمدون العقل فى جزره ويكرهون العقل فى مده

* * *

ما حيرة المرء دليلاً على فساد هذا الكون فى عقله

* * *

وحنقت من قدره نفسه ورفع الجهال من قدره

* * *

الفكر عدوى ما لها من راقى وليس منها حافظ وواقى

* * *

الفكر نور الله فى الوجود فعمره كخلده المديد

* * *

فإن ذكرارك فى فؤادى كالنار فى معبد المجوس

* * *

وما العيش إلا نومة راع حلمها ووقع سؤال ما عليه جواب

* * *

فلا تحسبن الشر يمحى بتوبة وإن غفر الجرم العظيم متاب

* * *

وكم حدثت بالشر ذا الخير نفسه وذاك حديث ما عليه عقاب

ولكنه فى النفس إثر يشوبها وكل ضمير بالمغيب يشاب

* * *

ظمئنا فخلنا الشر فى العيش منهلاً ولكن ورد الجارمين سراب

كذلك حال الناس فالناس آجن مرير وماء النابغين غير

وبارقة تجلو الظلام وصاعق يشب لهيباً والانام قشور

* * *

كان وجيع الحز حلم إذا مضى وذكرى دموع البائسين غمام

ولولا الأذى ما ذقت فى العيش لذة فكل نقيض بالنقيض يشام

ولاشر إلا فيه للخير مألّف كما تألف الماء الطهور مدام

* * *

فلا تحسبن الصبر فى استكانة قرب وعيد فى التواضع والصبر

* * *

والروح كالكون لا تبدو أسافلّه عند اللبيب ولا تبدو أعاليه

كأننى منك فى ناب لمفترس المرء يسعى ولغز العيش يدميه

* * *

قد ثار ثائر نفس عز مطلبها يطهر الكون من شر وأشرار

وتنثر الخير نثر البذر يحمله نسيم الرياح على زهر وإثمار

أوليتها ملك فى الجود دولته فى جحفل من جنود الريح جرار

* * *

إن النفوس لأسرار مخبأة فكل روح عن الدين مستتر

* * *

الخلد فى وحشة كالموت فجنبه فكل روح إلى الأرواح مفتقر

* * *

والنفس كالركب فى الصحراء سيرتها

تمضى الشجون ويبقى بعدها الأثر

ورب نفسين حال الدهر بينهما كما يدين لصدع اللجة الحجر

وإن أوجع ما تمنى النفوس به صدع الزمان وسوء الظن والضجر

والدهر للنفوس بحر زاخر أبداً بحر النفوس ومنها العشب والدرر

فما تألف منها فهو منتظم وما تناكر منها فهو منتشر

* * *

يا ويح من حسب الحياة ذخيرة تنمو على الاسراف والامضاء

* * *

شهادة للكریم بیغضه الوغد صیال اللثام بالتهم

* * *

قد تسفل النفس والحجی صعد فی راجح العقل ساقط الهمم

* * *

الكذب احيولة يصاد بها القا نص فيها عدل من النقم

والشر قد تجتويه من ندم يدعو نفوساً لاحسن الشيم

لايندم المرء نفسه خبثت فانكرت خبثها من السقم

* * *

كأن عذاب المرء للمرء ضحكة فقد اغرم الإنسان بالشر والأذى

* * *

إذا ما أراد المرء اخفاء عيبه رمى غيره بالعيب لم يعدو من رمى

* * *

وبعض دواعى العقل حرب لبعضها

فلا يعرف الإنسان فى العيش من دعا

* * *

فان حياتى غلة ربها الردى وخير شراب المرء ما نفع الظمأ

* * *

هو الرغب مثل الريق إن ساء طعمه فأخواجه بالمرء أخرى وامثل

الحق حمل يؤدد النفس محمله إذا مضيت بشلو منه مقبور

* * *

وكن لى مثل الماء يبدى ضميره ولاتك مثل الليل والليل قاتم

* * *

يرجى غريق اليم حتى عدوه ويحسب زهراً طافياً أجبلا شما

* * *

وإن حياة الطامحين عواصف الـ شتاء وعيش القانعين ربيع

* * *

وتعظم نفس المرء حتى كأنها عوالم فيها الكائنات تدور

* * *

وأكثر ذل العاقلين خديعة وأكثر ذل الجاهلين خمول

* * *

فلا تحسبن الحرب سهماً ومغفراً فان سلاح الصائلين عقول

* * *

فصبر الجاهول القدم نومة راقدة ولكن صبر العاقلين مقبل

* * *

فزرني في ليل الشباب كسارق ولا تنظر يا موت ذل مشيبي

* * *

فالحسن ثوب باللجين مطرز والقبح في ثوب المحاسن يستر

والقلب مثل البحر يفزع قاعه أهنا قلوب الخلق مالا يسبر

* * *

وجزعت حتى قيل ليس بصابر وصبرت حتى قيل لا يتذكر

* * *

ولو خوف الإنسان من شر غيره لما قاد ذاك العير منه لجام

لو أدرك الإنسان آماله وصابه منها كقطر المطر

ولم بعد يعرف ما يبتغى ولم يجد في العيش ما ينتظر

لكان اشقي الناس في عيشه حتى تقول النفس أين المقر

لا عيش إلا بطلاب المنى لولا المنى في عيشه لانتحر

* * *

وما كل امر تستقيم صدوره لمن لم يرضه تستقيم عواقبه

* * *

إن الشتاء إذا تطاول امره جاء الربيع بطيبه وروائه

وكذا الشتاء إذا تمادى عهده جاء النعيم يذل من غلوائه

* * *

إن من أخطأ الرجاء يرى الدهر ربيعاً تقضى بغير قذاة

* * *

كل يوم يفنى من المرء شئ ما سمعنا عليه صوت النعاة

* * *

فاناس تسرههم سيئاتى واناس تسوءهم حسناتى

* * *

وفى السعى شئ يعوق الطموح فيخطى الأجل ويصمى الاقلا

* * *

إنما الآمال أزكى متجر لا تخف من حبسها أن تكسدا

* * *

إن الحمية لو دبت إلى رمم ربت قلوب الأعادى من عوادبها

* * *

كيف أرجى منكم رحمة أن كان قلبى ليس بالراحم

* * *

ولقد رأيت الدهر فى احواله اتخذ الامان على النفوس دليلا

* * *

أرى بنفسى ان ابين سريرتى لمظلل قد غره اعلاتى

وكيف ألوم الدهر فيما يرببنى واحسن شئ فى الزمان عيوبه

* * *

وهل ينكر العيب الا الرضى وهل يجحد الفضل الا الحسد

* * *

تعرض الأشياء فى أوطانها آفة الجوهر ان لا يعرفنا
كم جهول عزيت عنه النهى نبذ الدر ونال الصدفنا

* * *

وكيف تنالك الدنيا بشئ وانت البرء من حدث الزمان

* * *

ولولا خداع شاب طبعك لم يكن إليك لمن يبغى الوفاء سبيل

* * *

وما اخال الحياة الا كجولة الفكر فى الضمير

* * *

وخل اعان على الهموم فكان الخداع وكنت الحذارا

* * *

ولكن العظيم اذا تلظى على مكروهة شمت الحقيير

* * *

يقولون الصحاب ثمار صدق وقد نبلو المرارة فى الثمار

* * *

وان أك مخطئاً بالفضل يؤتى من الخطأ المبين عن الصواب

* * *

ومنزلة الرجاء من المساعى كمنزلة البشائر فى الربيع

* * *

وكم فى العز مفسدة لقوم وفى الارزاء أعلاء لناس

تطامن للنوائب ان تمادت فلولا الحزن ما عرف السرور

* * *

فلاتثلم ضميرك بالدنايا وهل شئ أرق من الضمير

* * *

وهل ضمن البقاء من المعانى سوى لمعات خداع خلوب

* * *

ولولا خدعة الأمل المرجى لاسلمنا النفوس إلى الحمام
تعاف الرحمة الغراء نزلاً قلوباً قد اضر بها تعالى

* * *

فان الزهر فى القيعان ينمو وان الثلج فى قمم الجبال

* * *

وخوف الناس من حكم المنايا كخوف الطفل من وجه الظلام

* * *

وان الموت مرآة ابانت حياة المرء كالنفس الرقيق

* * *

إذا ما سبنى سفهاء قوم فما يغنى اهتمامى بالعواء

* * *

حياتى بين اعدائى ممات وموتى بين احبابى حياة

* * *

إذا عاث القوى فلاتراعوا فان الظلم نعش للظلموم

* * *

تمد يداً لو أن الحق فيها لاذوته الخاصة والسؤال

* * *

بلونا سهمة الأيام حتى رأينا الشك ينبت فى اليقين

(٣)

الثمرات

الطبعة الأولى : مطبعة غرزوزى بالأسكندرية ، ١٣٣٥ هـ ، ١٩١٦

كلمة

هذه ثمرات أفانين من ثمرات الفكر والعواطف ؛ بعضها قديم وبعضها جديد ، وليست الحياة إلا ثمرات الفكر والعواطف جديدها وقديمها .

أحلام الشباب

احذر أن يكون أملك في صلاح الحب كبيراً ، فإنه بقدر أملك من صلاحه يكون يأسك من فسادِه ؛ ويقدر يأسك من فسادِه ، يكون جهلك جمال الحياة . فإذا أردت أن لا يغيب عنك جمال الحياة ، فاجعل أكثر حبك حناناً وعبادة للجمال واحذر أن تجعله غاية فليس الحب آفة ، ولكن الاغترار به آفة الشباب .

وقصة الحب الخائب تمثل زوال آمال الشباب ، فإن الشباب باب يظل على الأبد ، إذا قرره صاحب النفس الظامئة إلى الكمال شم منه ربح الخلد ، فأصابه داء الأبد فكان من مرضى الخلود . وإن إبلال المرء من ذلك الداء أشد على النفس منه ، فإذا أصيب امرؤ بذلك الداء ثم أبرأته التجارب منه ، كان برؤه أوجع في النفس منه ، لأن الحب يترك مكانه يأساً لا يمحوه شيء غير تعاقب الأيام وقد لا يمحوه تعاقبها .

كل إنسان إذا بلغ الشباب وبلغ من التهذيب مبلغاً زعم أن الحب فرض على كل مخلوق ، وأن فيه برأ لما في هذا الوجود من الشر . ولا يزال يلتمس صلاح الكون بصلاح الحب ، حتى إذا أكلت التجارب قلبه ونهشت لبه ، عاد ذلك الحب يأساً بعد أن كان أملاً فيفتيق من حلم الشباب ، وكأنه ذلك الرجل الذي رأى أنه يعاني خيال حبيبته ، فلما عانقه ذهب عن ذلك الخيال بهاؤه ورأى المسكين أنه يعاني رمة بالية .

إن عبادة الجمال تمنح المرء سعة في الذهن ، وتطلقه من رق التعصب لجانب من جوانب الحق ، فإنها تربيته أن للحق جوانب كثيرة ، وأن أكثر الناس لا يرون إلا جانباً من جوانبه ، ولكن واسع الروح الذي امتلأ روحه من حب الجمال وإجلاله ، وامتلاً ذهنه من صور الجمال والملاحة ، لا يقيد رأيته بجانب واحد من جوانب الحق .

إن عبادة الجمال تطلق المرء من عقال التحيز والغباء وضيق الذهن ، وتفيض على روحه نوراً يضيء له أسرار الحياة ، وتفتح أبواب القلب لكل طارق من حسنات الطبيعة .

ورب أمة كان أفرادها يغذون أبصارهم برؤية الجمال ، ويغذون قلوبهم بعبادته ، فكان للجمال بينهم سلطان على التناسل ، فكانت تولد لهم أبناءً حسان . وقد أذكرني هذا ما تفعله نساء الفلاحين في مصر ، فإنهن يضعن في غرفة الحبلوى صورة السفير عزيزة أو صورة خضرة

الشريفة ، ويزعمن أن الحبلى إذا أكثرت من النظر إليها أتى الوليد حسناً ، ويقلن أن نظر الحبلى إلى الصور الجميلة ، يكسب الجنين شيئاً من الحسن .

رأيت مرة فى الحلم أنى أحببت فتاة روحها واسعة كبيرة ، فهي كالغابة سمت فروعها وأشجارها حتى أضللتنا أعاليها فى أعماق السماء ، وإن من النفوس نفوساً غير محدودة بحدود الفكر ، نفوساً لا نهاية لها ، نفوساً يضل المرء أعاليها فى أعماق الأبد . هذه النفوس ، مثل نفس من أحببتها ثم صحت من النوم فلم أر حولي غير نفوس أحقر من البق .

رأيتها مرة فى الحلم ، وفي يديها نسر ميت تقص جناحيه ، فسألتها ما هذا النسر ؟ قالت: هو قلبك أقص جناحيه اللذين يسعدانه(*) على الطيران . لقد طالما سما هذا القلب إلى آمال فى الحياة بعيدة كالنجوم ، فما زال يعلو وجناحه يساعده على الطموح حتى لمس بهما حاجب الشمس ، لفحته النار فاحترق ، فهوى إلى الأرض صريعاً . أيها النسر ! قد كان لك عن تلك الآمال مغنى ومنأى . لقد كنت فى وكرك آمناً لفحات الحب ، فلاح لك الشمس بحاجب مضى فعزك منها ما عزَّ اليهودي من ديناره فأصابك مصرع أهل الغرور .

رأيتها مرة وفي يديها زهرة ذابلة تقطف أوراقها ، فقلت لها ما هذه الزهرة قالت : هي آمالك فى الحياة قد خانها الحب كما يخون الخريف الزهور ، ضنت بها على الشتاء فقطعت أوراقها واحدة فواحدة ، تلك أوراق الربيع الفاتت .

أيتها الزهرة ! قد كانت لك فى الربيع أيام كنا نستضيء فيها برونق منك غض ، فالآن إذ ذهب الربيع لا معتب على الدهر فيك . هذه يد إليك حبيبة ضنت بك على غير رفيق ، فنثرت أوراقك وفاءً لذلك الزمن الفاتت والعهد القديم . رأيتها مرة وفي يديها عقدة تحاول حلها فقلت: ما هذه العقدة قالت: هي إيمانك بالحياة عقدة لم تعقدها العزيمة فلا غرو إذا حلها اليأس .

إن بين الحب واليأس صلة ، مثل الصلة التى بين الحب والأمل . فليس الأمل أقرب من اليأس إليه . الحب مثل الخمر . فالخمر حلوة مرة ، وكذلك الحب . أليس للخمر نشوة ، وللحب نشوة ، أليس للنشوان صحو وللحب صحو ، فإذا أفاق المغمور من خماره ، أحس ألماً يذكره بسكرة أمس . وإذا أفاق المحب من خمار الحب ، بقيت فى قلبه حسرة تذكره بالعهد الفاتت والحب الذي مضى . الحب حيوان نصفه الأعلى حسناً كاعب ، ونصفه الأسفل ثعبان .

رأيتها مرة في النوم كأنها نجمة الفجر تطل من سماء أحلامي ، أو كأنها قبلة لذينة ، طويلة صارخة ذات نغمة ، مثل ضحك الحسان ، أو كأنها قطرة من قطرات الندى ، نائمة على أوراق زهرة ذابلة . أيتها القطرة الطاهرة إذا شئت كان لك من قلبي فراش ، فإن قلبي زهرة الحب الذابلة الدامية . رأيتها مرة تحوك لي كفناً من الآلام ، وهي تنظر إلى نظرة أسف وحزن ، وكأنها تقول لا تلزمني جنابة القضاء أنا أمة القضاء ، أتبع أمره ولا أرد له حكماً . غير أنني قد أخذت طرفة من الحكمة ، فتبعت قول أولئك الحكماء الذين يزعمون أن التسليم لحكم القضاء من شيمة العبد ، فينبغي أن تكون رغبة المرء وحاجته فيما يجيء به القضاء ، فيكون هو والقضاء سيان . لا لأنه قدير كالقضاء ، ولكن لأنه جعل إرادة القضاء إرادته فقلت لها : لا معتب عليك . إني أحبك حتى ولو كنت غير فاهمة ماتقولين ، فضحكت كما تضحك الشمس فوق القبور ، وكانت قد فرغت من نسيج ذلك الكفن ، فوضعتني فيه وقبلتني قبل أن تطويه ، قبلة جمعت بين حلاوة النعيم ومرارة الشقاء ، فكانت كالحياة حلوة مرة : تركتني ياحبيبتي بين ضحكة قاسية ، ودمعة قاسية ، أردد نفساً أعمق من الأبد ، أدفع الشكوى في نحر الهواء . لا أنيس لي غير سكون القضاء ، وأنين الصدى ، وذلك القلب الواهن الخفوق ، الذي أذوته الحوادث العاصفة ، كما يذوي الحر أوراق الغصون . لم أنس إذ قبلتني وأنت في ساعدي فامتصصت روحي في قبلتك ، كما يمتص الرضيع اللبن من ثدى أمه ، ونظرت إلي وقد انعقدت في وجهك ابتسامة كلها حنان ودعابة ، فوقعت لحاظك المصقولة عليّ وقوع قطرات الرحمة على النفس الصادية المجذبة ، وفي عينيك هالة يرقص الحسن فيها ، كما يرقص القمر على صفحة الماء ، ثم تزايلت في الفضاء وقد بسط الليل أجنحته السوداء وصبغ الهواء بمداة فبقيت كما قال رختر : أنا والليل ، ثم سمعت في القلب ضربات لم أدر أوقات الساعة أم نبضات قلب الدهر ، أم هي صحكاته من غرور الإنسان ، أم هي تنعي إلى المرء نفسه أم هي تذكرة بالموت وحث على التقوى ... ياعدو الرحمة ما وقعت لحاظك عليّ إلا لتهيج للقلب شجواً قد وأدت الحب في ريعان شبابه ، ووقفت ترقص على قبره مرحاً ودلالاً . لا عتاب . أنت الذي أسلفتني الأمل ، وأنت الذي سلبتني ، والأمل كالحرباء كثير الألوان .

الذكر والأمانى

الذكر والأمانى صنوان لِرَأْ (*) في قرن . غير أن باعث الذكر التعلق بما مضى ، و باعث الأمانى الرغبة فيما يستقبل . ومن أجل ذلك ، كانت الأمانى أقرب إلى خاطر اليافع ، وأحب إليه من الذكر . لأن عيشه مقتبل ، ولم يزعجه بما تقع به الحوادث الكارثة ، ما يخفض من غلواء طموحه ، وتعلقه برغائبه . أما الشيخ الهرم ، فقد لقي من الطارقات ما تركه فقير الأمانى ، غني الذكر ، والأمانى إذا استثيرت كانت كالنار ، يتبع شبوبها خمودها ، وإنما يستثيرها الطموح .

إن كل أصناف النعيم الزائل تشير الذكر الغر فينبعث اللسان بالكلم الرقيق ، فهو تارة يناجي الزمان الخالي ، وينشد فيه لذاته ، وتارة يتوجع من فقدانها ، وتارة يسألها الرجوع إلى ما عهد منها ، ألا يجول بخلدك إذا قرأت قول ابن زريق :

بالله يا منزل القصر الذي درست آياته وعفت مـذ بنت أربعة
هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعه
إن تلك الليالي وذلك الزمان الذي عمرته لذاته ، قد صار جزءاً من نفسه وشيئاً من حبة قلبه ، فهو لا يستطيع أن يكون بمنأى عنه وليس هو براغب في ذلك ، ولكنه لو رغب ما وجد إلى رغبته سبيلاً . وكيف يمل صحبته وهو خلاصة حياته . وأحق شيء منها أن يفدى من سلطان النسيان .

على أن الذكرى لا تكون إلا بعد سطوة من سطوات النسيان . فإذا كان النعيم الخالي حاضر الذكرى في ذهن المرء ، لم تكن ذكراه خليقة أن تدعى ذكرى . وفي مثل ما نعني ، يقول الشريف الرضي :

وقال تذكر هذا بعد فرقتنا فقلت ما كنت أنساه لأذكره
وهناك نوع آخر من الذكر ، لا يكون إلا إذا كان المرء في حال بينها وبين تلك الحال التي وقع له فيها النعيم الزائل صلة ، فإذا أسعده النعيم في ليلة الاثنين مثلاً ، ذكر هذه الليلة حين تعود في كل أسبوع وفي مثل ما نعني يقول ابن المعتز :

يا ليلة نسي الزمان بها أحداثه كوني بلا فجر
باح الظلام ببدرها ووشت فيها الصبا بمواقع القطر
ثم انقضت والقلب يتبعها في حيث ما وقعت من الدهر

* جاء في تارح العروس مادة «لُرْ» : اللز:الظمن كالكز . واللز : لزوم الشيء بالشئ والزامه به «المحرر» .

(يعني بقوله وشت فيها الصبا بمواقع القطر ، أن القطر إذا وقع على الأزهار ذات الرائحة الطيبة ، أخرج تلك الرائحة ، فتأتي ريح الصبا تحملها إلى كل مكان . فكأنها تشي بالأزهار ، وتبيع سرها المعطار) .

الذكر نوعان : ذكر النعيم الزائل ، وذكر الشقاء الزائل . أما ذكر النعيم الزائل ، فإنه يبعث ابتهاجاً في النفس . لأن ذلك النعيم كان من نصيبها ، ويبعث أسفاً لأنه لم يدم لها ويختلف مقدار الابتهاج ، ومقدار الأسف ، أما ذكر الشقاء الزائل ، فإنه يبعث الابتهاج للخلوص منه ، والأسف لأنه حدث والخوف من أن يعود .

الذكر أشباح وأرواح تعمر الخاطر الحزب فتثار لذلك العهد الميت . أيها الزمان الخالي ، لشد ما نعاني من ذلك الحجاب المنوع الذي تضعه بيننا وبين لذاتنا البائدة ، وأحبابنا الألى ذهبت بهم حوادث الأيام كل مذهب . ولكنك لا تعلم أيها الغصوب أنك تحجب عنا أجزاءنا وأشياء من حبات قلوبنا . على أننا نستعين بالذكر والأمانى ، في إزاحة حجابك وهي قديرة على إسعادنا .

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً
الطموح يثير الأمانى ، وقد تثيرها الأشياء التي تذكر المرء رغبته كما قال الشاعر :
ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً وستائناً من النور حالياً
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانى

إن الذكر تثير الأمانى . والأمانى تثير الذكر ، لأنك إذا ذكرت النعيم الزائل ، وددت أن تقع على مثله ، فتتهيئ لنفسك أسباب الطموح والبلوغ إليه . ثم إذا كنت تناجي الأمانى ، كانت تلك المناجاة عاملاً في تذكيرك بمثل أمانيك ، أى بالنعيم الزائل .

إذا عمرت الذكر والأمانى نواحي الخاطر ، كان كأنه معبد مقدس يبعث الإجلال والوقار والخشوع في النفس . أليس الذكر موصولاً بالنعيم البائد ، وهو ميت ، وأي نفس لا تخفض من جماحها وخلاعتها عند ذكر الموت .

إن الإنسان إذا مات ، أقيم له تمثال يجعله متردد الحضور في الذهن ، كلما رآه الرائي . وكذلك الحادث إذا مات ، كان الذكر تمثاله الذي يستجلبه من قبر النسيان .

قال الشاعر شلي (النعيم إذا مضى استحال إلى ألم) . يعني أن الذكر يبعث الحسرة على فواته ، ولكنها حسرة لذينة رقيقة معسولة ، تتمشى في الخاطر كما يتمشى النسيم البليل على وجه التعب .

ولم أجد أحداً شعر بتلك الصلة المتينة التي بين الذكر والأمني ، مثل ما شعر بها الشاعر العربي عنتره حيث يقول :

ألا قاتل الله الطلول البواليا وقاتل ذكراك السنين الخواليا
وقولك للشيء الذي لا تناله إذا أبصرته العين ياليت ذاليا

لم يحمد الشاعر الطلول ؛ لأنها تذكره بمن كان يعمرها ، وتلك الليالي والأيام التي قضاها في أحسن حال حين كان الخطب . مأمون الطروق ، مخفوض الجناح ، ولم يحمد ذكرى السنين التي مضت لأنها كانت لباس لذاته أيام كان وفاء الأصحاب والأحباب يسعده . أيام كان النعيم مضروية قبابه عليه . أيام كان الحسود متعباً من حمل ثقل الحسد . ثم إن الشاعر لم يحمد في البيت الثاني الأمني لأنه يحسبها خدعة وعناء ، ولكن من النفوس نفوساً تسكن إليها ، وتتخذها علالة . أما جمع الشاعر بين الذكر والأمني فسببه عرفان أن الأمني تثير الذكر ، والذكر تثير الأمني .

وقع الأقدام

وقع الأقدام هو شِعْر (بكسر الشين) الأرجل . فإن فيه من بلاغة التعبير ولطف التفهيم ما في نبضات القلب . ووقع الأقدام هو للأرجل بمنزلة تلك النبضات للقلب . فتارة يخفق القلب فرحاً وتارة يأساً أو أسفاً أو أملاً ، وكذلك الخطأ ، تارة تتم عن جزع ، وتارة تتم عن فرح أو أمل أو ندم أو جبن . أليست خطأ الجبان في الميدان دليلاً عليه ، أليست خطأ العاشق قصيدة من قصائد النسيب ؟ أليست خطأ الجازع تبين عن جزعه ؟ أرقّت ليلة فجلست قرب النافذة ، وجعلت أسمع وقعات أقدام المارة ، وكنت أجد في سماعها لذة تلهيني عن الأرق ، وكأنت تحدثني أحاديث شتى عن يأس اتخذ الليل لباساً ؛ يضرب برجليه الأرض ؛ كأنه يريد أن تسكت وقعات خطاه ضجيج اليأس في صدره . وعن العرييد الذي تحكي وقعات أقدامه أنشودة هوجاء مثل أناشيد الريح ، وقد أمالت الأغصان . والمجنون الذي تحكي وقعات أقدامه نبضات قلب المحموم ، أو كأنها غلام أخرج يضرب بالطبل . والأمل الطموح ، الذي يكاد لا يلمس الأرض فتحكي خطاه خطأ الراقص المرح . والشاعر صاحب الخيال المستفز ، يكاد يسمع صدى وقعات أقدامه في عالم الخيال ، ويخشى أن يخرج صداها قبة السماء . وصاحب الخيال الذي يحسب أنه يتصدق على الناس بخيالاته . والزمن الذي يسعى برجل عرجاء فلا تسبقه الريح ، والأيام التي تحكي وقعات أقدامها دقائق الساعة . وخطا الغيد تتلو على سمعك لحناً مهذباً شجياً كأنه أوزان الغزل والنسيب . أو ما سمعت أيها القارئ وقع أقدام الموت في دار جارك ، وقد حل به القدر المتاح فحكى لك قصيدة في الرثاء ؟ أو أنين الريح فقل لمن يرى ظلام الموت ولا يرى جماله أن هذا الظلام الذي تراه ، هو لون أستاره ، ودون هذه الأستار الجمال الجم .

إن هذا الكون العظيم ، ليتلو على المرء في كل حادث من حوادثه الصامتة الناطقة نغمة من نغماته . هذا الكون قلب عظيم ، نبضاته وقع أقدام الحوادث . كل نبضة منها تبلغ أقصى نواحيه فتخفق لها جوانبه . كما تخفق الضلوع . والوجود دائرة ليس لها محيط فإذا لمست أية نقطة منه كان لك أن تقول إنك لمست مركز الدائرة .

وأنت أيها القارئ ، فيك تلتقي الحوادث الماضية من قديم الزمن . فيك تلتقي الدول والأمم . فيك يلتقي الشرق والغرب . فيك تلتقي الأنظمة والآراء . فهي طرق كثيرة تؤدي

إليك . أنت أيضاً مركز دائرة الوجود ، أنت لولا الحوادث الماضية من سياسية واجتماعية وطبيعية ، لولا الحوادث التي حدثت في هذا الوجود الذي لا حد له ، لما كنت كما أنت الآن .

أما سمعت أيها القاريء خطا الغيب يطرق من وراء حجاب ، فراعك سماعها ولجأت إلى عمل ساعتك كي يلهيك عن سماع ذلك الطارق المهيّب . الأقل لمحتقر الحياة الراغب عن عمل يومه ، المشرئب بعنقه ليسمع وقع أقدام الغيب ، أيها الراغب عن ساعتك ويومك وحاجة عمرك لم تتعرف ما لم يأتك به . الغيب أليس ذلك السحاب الذي وراؤه الغيب والقدر إذا قاربك كان هو الغيب والقدر ؟ لم يروعك المجهول من الحوادث . أليس المعروف منها أدعى إلى الروح من المجهول .

إني ليخيل لي في بعض أحلام اليقظة ، أن الآخرة في مكان قريب من هذه الدنيا . فأكاد أسمع ضجيج أهلها ، ووقع أقدامهم ، فأرمي الفضاء باللحظات ، كالمشوق الذي يحسب أن حبيبته على كثر . فأحسب أنني أرى الآخرة بلحظاتي ، فلا أرى غير هذا (*) الناس . ألم تنصت إلى الربيع القادم وقد بلغ الشتاء مبلغه .

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما فسمعت وقع أقدامه وكأنه حسناء في ساقبها الخلاخيل ، تسمع رنة أجراسها في تغريد العصافير . والصبح ألم تسمع وقع أقدامه ؟ إنما الصباح أحو الربيع الأصغر ، قد غني به الربيع فعلق في ساقبه من خلاخيله تحبباً إليه . ألم تسمع رنات أجراسها ، وقد صدحت الطيور في الفجر ، وقد هب النائم من مضجعه ، ورأى مطلع الشمس فحسب أن الكون يخلق مرة جديدة .

زرت المقابر في ليلة من ليالي الشتاء ، فخيّل لي أنني أسمع أقدام الموتى . فصرت أتلفت لأرى تلك الأقدام التي أسمع وقعاتها . ثم عوى الريح في زوايا القبور ، فحسبته أنين الموتى ، فجعل الخيال المشبوب يُملي علي وأنا أكتب :

ألا أن للموتى لصوتاً كأنه خرير المياه الجارية على الصلد
ويحكي حفيف الغصن في لين وقعه وطوراً كأصداً الطبول على بعد
ويعول أحياناً كاعوال ثاكل رمتها صروف الدهر في الولد الفرد^(١)

* هكنا في الأصل .

١ - من قصيدة (صوت الموتى) في الجزء الثاني من ديوان المؤلف .

إنه ليخيل لي أن الأطفال يسمعون وقع أقدام الملائكة . ألم تر طفلاً يصغى إليها فحسبته يصغى إلى غير شيء .

ألم تسمع وقع أقدام الأفلاك في دوراتها ؟ هل سما بك الخيال مرة بين الشمس والقمر ، والنجوم فسمعت تلك النغمات الفضية التي تطلقها خطا الأفلاك في دوراتها ؟ أم هل غبت مرة عن هذا الكون ، وجعلت ترخى للتفكير عنانه حتى حسبت أنك كائن في غير هذا الكون ، وقد خيل لك الوجود الذي لا جد له ، وهو يخطو في الفضاء فسمعت وقع أقدامه ؟ أه ما ألد تلك السويجات التي يطلق المرء فيها من رق هذا الوجود ، فيصير وجوداً كائنًا بذاته .

كلمة في الضحك والبكاء

قال الشاعر بيرون المرء أرجوحة بين البكاء والضحك
وإنما المرء ضحكة ودمعة . والحياة دمعتان : دمعة تراق عند البكاء ، ودمعة تراق عند
الضحك . والعاقِل من جعل حياته ضحكة واحدة أو دمعة يريقها عند الضحك ، ويضن بها
على البكاء ، فيسكن البيت الضاحك المشمس ، ويرغب في الصديق الضاحك .
الضحك عدو الهم . وكما أن القنبلة تبعث الرجل في قلب الجيش ، كذلك الضحكات تفرع
الهموم .

وأوجع البكاء بكاء الرجل . أما بكاء الغلام فقد لا يحز في قلبه . فإنه داعم العين ضاحك
القلب . حدثني صديق قال : بكيت مرة وأنا صغير ، ولكنني كنت مشغولا عن بكائي بالتفكير
في غير شيء ، ولقد بلغ بي ذلك التفكير الطائش منزلة لم أكن أعرف فيها أنني أبكى . أما
الرجل ، فإنه إذا بكى عينه ، بكى عواطفه وبكى قلبه .

كل شيء في الوجود يضحك . فالرعد يضحك . والرياح الهوجاء إذا أتت ضحكت والخريف
يضحك . والضوء يضحك . واللون يضحك . والحسن يضحك . والصديق يضحك . والزهر
ضحك . والربيع يضحك . فقد قال البحتري (١) :

وجاء الربيع الطلق يخال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما
والمشيب يضحك فقد قال دعبيل :

لا تعجبي يا مسلم من رجل يضحك المشيب برأسه فبكي
والأرض تضحك . فقد قال الشاعر :

(تضحك الأرض من بكاء السماء)

وإني أكاد أقول إن الضحك بكاء ، والبكاء ضحك . ألم يضحك الإنسان في الشقاء ؟
ألم يبك في النعيم ؟ أما ضحكه من الشقاء ، فادعه إذا شئت الضحك المر . أو الضحك الباكي ،

١ - جاء البيت في ديوان البحتري

أتاك الربيع الطلق يخال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

انظر مقدمة المحقق حسن كامل الصيرفي لديوان البحتري ، ط . دار المعارف ١٩٦٣ م ، ص ١١ ، ١٢ ،
والجزء الرابع ، ص ٢٠٩ .

« المحرر »

أو الضحك الحزين . أو الضحك العابس . أو البكاء المتنكر . وأما بكاءه من النعيم ، فادعه إذا شئت البكاء المشرق ، أو البكاء الضاحك ، أو البكاء العذب .

وللمعاني والأحوال ضحكات فليأس ضحكة ، وللهقد ضحكة ، وللأمل ضحكة ، وللظفر ضحكة وللحب ضحكة . ومن العظماء من نبه ذكر ضحكته ، وذاع صيتها . فإنهم يقولون في ضحكة الاحتقار ، ضحكة مثل ضحكة بيرون ، وفي ضحكة الأمل والاستبشار ضحكة مثل ضحكة جيتي .

الغناء ضحك والموسيقى ضحك . غير أنه ضحك موزون مهذب شجي .

وإن لأحوال الحياة ضحكات ، فالنعيم يضحك لأنه يخدعنا . والشقاء يضحك ، لأنه يشمت بنا . كذلك للحرارة ضحك ، وللبرودة ضحك . غير أن ضحك الحرارة ، مثل ضحك الشبان ، وضحك البرودة مثل ضحك الشيب . ضحك الأطفال مثل تغريد العصافير ، وضحك النساء ، مثل صوت الحلى . وضحك الرجال ، مثل صوت الرعدة فالأول ينم عما يمكنه من الطهارة . والثاني ينم عما يمكنه من الرقة ، واللفظ والحنان . والثالث ينم عما يمكنه من الثبات والعزم . الرجال يلتذون الضحك أكثر من الأطفال ، لأنهم زاولوا مصائب الحياة ، وكما أن الراحة أحسن ما تكون بعد التعب . كذلك الضحك أعذب ما يكون بعد مزاولة أمور الحياة ، والرجال أقرب إلى الضحك من النساء لفظ إحساسهم ، ورقة إحساسهن . فإن رقة الإحساس ، ثغرة يهجم منها على الإنسان .

الضحك العذب خير من البكاء . وكذلك الضحك المر أفضل من البكاء المر . لأن في عنصر الأول شيئاً من احتقار المصائب ، وهذا أليق بالعزیز النفس ، وبه أبر . وإن في الناس من يضحك فتحسبه يبكى . ومن يبكى فتحسبه يضحك . وهذا أشقى الناس . لأنه لا يقدر أن يخلط نفسه بتفوسهم ، وشعوره بشعورهم . وإن من الناس من يستجلب منظره لآخر الضحك ، كما قال المتنبي في كافور :

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربّات الحداد البواكيا

ومن رحمة الله أن المرء مهما كرّثه الشقاء قادر على الضحك ، فإذا تكلف الضحك ، خرج ضحكه سقيماً فاتر الصوت ، مكثوباً . ولكنه إذا لجّ في هذا الضحك المكثوب الحزين ، انقلب ضحكاً مجنوناً غالباً ، لا سبب ولا حد له . هذا من رحمة الله بالناس .

نظر الشاعر إلى الطبيعة

﴿ في النعيم والشقاء ﴾

إذا كان لك من المقدار سلطانه الذى يصول به ، لم تقدر أن تمنع الشاعر من أن يفرغ ما يثور به صدره . أمحسب أن الغريد إذا ضمت أسلاك القفص كانت ما نعة إياه الغناء العذب ، أو أن الشقاء إذا حنيت عليه أضرع الأديب أسكته . إن البلبل إذا أطلق نغماته وهو آخذ بأطراف النعيم بين الأشجار والأنهار ، كساها الجلال جلبابه ، ونشرت حولها الطلاقة هالتها . أما إذا جاد بها وهو فى سجنه ، كانت كأنها لابسة حدادا ، أو كأنها صوت المريض المودع عواده ، فتثير عواطف الرحمة والخشوع ، ويكون جمالها فى هذه الحال مثل جمال السحب التى طرزت أطرافا أشعة الشمس الذهبية . فكأنها البرد الأسود المزركش ، الذى يجمع بين اللون العابس واللون الضاحك .

قد ضمن المتنبي فى نفسه من المرارة وسوء الظن بالناس ، ما يضره كل من قصر عن إدراك آماله وأطماعه . ولكن تلك المرارة ، لم تكن داعية إلى إضعاف لذة التغريد . فإن من قيد البحث بنفوس الشعراء ، علم أن المرارة لا تمحو تلك اللذة ، وإنما تكسبها ألما لذيذا ، ولو أننا أردنا أن نصف جمال شعر الأديب البائس ، لما وصفناه بأبلغ من قولنا الجمال الحزين ، أو البهاء العابس . فإنك إذا رأيت حسناء بلغ منها المرض مبلغا عرفت أن ماء الحسن جائل فى أنحائها ، ولكن الألم يكسبها رقة ولطفا غير رقتها ولطفها . كذلك نغمات الشاعر الذى تملكه الشقاء .

أليس عجيبا أن ذلك الشاعر الأبي ذى الأمانى الضخمة الذى يقول :

وكل ما قد خلق له وما لم يخلق

محتقر فى همتى كشعره فى مفرقى

يعرف كيف يتودد ويتحجب إلى الأسد حيث يقول :

أجارك يا أسد الفراديس مكرم فتسكن نفسى أم مهان فمسلم

ورائى وقد أمدى عداة كثيرة أحاذر من لص ومنك ومنهم

فهل لك فى حلقى على ما أريده فإننى بأسباب المعيشة أعلم
إذا لأتاك الرزق من كل وجهة وأثريت مما تغنمين وأغنم
ألا يجول بخاطرك أيها القارئ أن قائل هذه الأبيات قد استعار براعة السياسى المدرب ،
والسفير الحكيم رسول الصلح .

إذا سمع الشاعر الحزين ، غريداً يرسل النغمات العذاب التى يخفق لها القلب خفوق الثوب
فى مهب الريح ، زعم أنه ينوح من أجل شقائه . وإذا رأى الورد يقطر بالندى ، حسب أنه
يبكى عليه . وإذا رأى النهر يتدفق قال إن خريره من أنينه ، وماء من بكائه . وإذا سمع
الريح الهوجاء قال : إنها خلست هياجها وقلعها من هياجه ، وقلقه . وإذا عانق النسيم أوراق
الفصن الزاهى ، حسب أنه استعار حنينه . وإذا رأى السحب ترخى على السماء سترها ، قال
إنها مقدودة من همومه وأحزانه . أما القطر ، فهو من آماقه والظلام حداد الليالى عليه .
والنجوم جمرات أشجانه وأشواقه . ثم لا يبقى شيئاً من أعضاء الطبيعة ، حتى يجعله من
خدامه واتباعه ، مثل ذلك قول الشاعر الأندلسى :

على وإلا ما بكاء الغنائم وفى وإلا مانواح الحمائم
وعنى تطير الريح صرخة طالب لشار ويبدى البرق صفحة صارم

يابن آدم أكثر أنايتك وإعلاءك لشأن نفسك وإعجابك بها . وما أكثر غرورك وأنت
الضئيل الحقير . إن للطبيعة وأجزائها لشؤوناً إذا استعرضتها لحق الهزال شأنك . تقول إن
الطير يبكى على مصرعك وهو يتغنى بالغزل الرقيق . وتقول إن السحب مقدودة من همومك ،
وهى تملأ وجه السماء لترضع بناتها الأزهار من لبانها . فإذا شئت رأيت أن أجزاء الطبيعة ،
ملؤها الجلال والحب والحسن والرقه . فكيف ترضى لنفسك أن تكون ملؤها الدناءة والقساوة
والطمع ، إذا كنت لا تستمد شرف النفس وجلالها من الطبيعة ؟ فدع هذه العروس مطمئنة فى
خدرها ، ولا تفسد هواها بأنفاسك الخبيثة ، ونظراتك اللثيمة ولا تدنس أرضها المقدسة
بقدمك التى لا تسعى إلا إلى إرضاء شهرك أو بفضك أو دناءة نفسك . فأنت كالحشرات التى
ترود فى جنباتها .

لقد كان القدماء أصدق منا نظراً فى الأمور ، لأنهم لم تتملكهم الأناية كما تملكتنا .
فزعمنا أن الطبيعة ليس لها حياة مثلنا ، ألا يرى المرء فى كل ورقة من أوراقها من المعانى

أشياء كثيرة ؟ أليس ذلك لأن لها حياة أجل من حياتنا التى ليس فيها من المعانى سوى الإحساس بعبثها ؟ وسبب ذلك أن حياتها بالرغم من تغاير أطوارها مطمئنة . وأما حياتنا ، فهى أسيرة البغض والحسد واللؤم . انظر إلى الطبيعة ترى الأرض تعانق الضياء ، والضياء يغازل الماء ، والغصن يميل على الغصن ، والموجة تتسرب فى خلال الموجة . فهما أولى بييت اسماعيل باشا صبرى :

كأن صديقًا فى خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا
ثم انظر إلى الناس ، تر كل فرد يرمى الآخر بعين من تلك العيون التى يقول فيها أبو تمام :
يرموننى بعيون حشوها شزر نواطق عن قلوب حشوها مرض
أو التى يقول فيها البحتري :

وفى عينيك ترجمة أراها تدل على الضفائن والحقود
لقد صدق البحتري ، فإن العين لا تخفى معانيها ، فهى تارة حشوها أمل وتارة يأس ، وتارة حشوها حب ، وتارة حشوها بغض ، وغير ذلك من المعانى .
قلنا : إن القدماء كانوا أحسن منا نظرًا فى الأمور ، لأنهم كانوا إذا نظروا إلى الطبيعة ، نظروا إلى حى جليل ملؤه المعانى البليغة . ومن أجل ذلك ، كانت تبعث فى نفوسهم الإجلال والخشوع ، أو الصباية والاستعبار والحب . وكل هذه معان من معانى العبادة . فما أخلقهم بعرفان ما تجهله من أسرار العقيدة الصحيحة .

وقد اختلف الشعراء فى نظرهم إلى الطبيعة ، فكان الشاعر شلى يرى أنها وعاء للحب والعواطف الرقيقة .

أما وردز وارث فقد كان ينظر منها إلى تغير حالاتها ، واختلاف أنواعها ، حاسبًا أن ذلك صادر عن حسن تفكير . أما هومير الشاعر اليونانى ، فقد كان يرى فى جلالها ما هو جدير بالتقديس والعبادة .

وكان ولتر سكوت يرى فى حياتها استقلالاً عن حياتنا . وإنك لتجده فى شعره يلحقها بغيرها من الأشياء ذات الحياة . وقد سلك البارودى فى هذا الباب ، مسلکًا حسنًا حيث قال :

وإن مررت على الروحاء فامرلها أخلاق سارية هتانة الدير
من الغزار اللواتى فى حوالبها رى النواهل من زرع ومن نعم

ألا ترى أنه جمع بين الزرع والنعم جاعلاً شرب الحيوان ، مثل شرب النيات . وفى ذلك من شرف الخيال ما يستعصى على أولئك الشعراء الذين يتضاءلون أمام العظماء ، تضاؤل أعقاب لفائف التبغ فى عين الشمس .

رسول الأمل

يقول الناس : إن رغبة المرء فى الحياة تعظم إذا عظم النعيم ، وتقل إذا تضائل . زاعمين أن النعيم هو الذى يربط المرء بالحياة ، ويرغبه فى البقاء . ولكن هذا وهم . فإنه يربط المرء بالحياة روابط تختلف حسب اختلاف أزمان الحياة وأحوالها . ففى الصبا ؛ يربط المرء بالحياة روابط الأمانى ، فإذا قللكه الشقاء كان غير مباليه طموحاً إلى ما يستقبل ، وانتظاراً لمواتاة النعيم . وفى الرجولة ، يربط المرء بالحياة روابط السعى والعمل ، وانتظار نتيجة مساعيه والتذاذها . وإن المساعى لتكاد تشغل الرجل عن لذات الحياة ، وهى التى تلتبس فى الأهل والأصحاب والشعر والجمال والغناء . فيكون حاله مثل حال الرجل الذى يسرع فى طريق ينبت على جانبيها الغرس الكريم ، والثمر الطيب ، والزهر البهى . فإن سائقاً من الأمل يعجله عن أن ينعم بها رغبة أن يصل إلى ما هو خير منها . حتى إذا بلغ من الطريق غايتها لم ير غير أرض خلاء . ولو أحسن الإنسان نظره فى أمور الحياة ، علم أن أفضل لذاتها ، ما يكتسب من الأهل ، والأصحاب ، والشعر ، والجمال والغناء ، وغير ذلك من الموارد ذات اللذات الشريفة التى تعلو بالنفس عن الفناء ، فى عبادة درن(*) الحياة .

إنى لست ناصحاً للرجل أن يهجر مساعيه ، وإنما أريد منه أن يقصر من غلواء اندفاعه فيها ، حتى يقدر أن ينعم بلذات الحياة . أما إذا بلغ المرء من حياته منزلة الشيخ ، كان التذكر هو الذى يجعل له فى الحياة رغبة ، لأن كل شئ مضى منها قد صار جزءاً من نفسه .

مثل هذه النفس مثل الطفل ذى الخلق الجامع ، لا يهدأ حتى تضع فى فمه قطعة من الحلوى . وكذلك النفس لا تروضها بأحسن من أن تغذيها بالأمل ، ولو كان ممنوعاً مصدره ، مخلوقاً أكثره . غير أن أبهى وأعظم ما يكون الأمل إذا كان المرء فى حال من أحوال الشقاء فهو ، كما قال البيهترى :

كالكوكب الدرى أخلص ضوءه حلك الدجى حتى تألق والمجلى

قال الفيلسوف باكون : (الأمل يطيل الحياة إذا لم يكن مخلوقاً فى كل حادثة) . على أنه مثل الجلد إذا كنت فى حال لا يتسع لها قدره ، أمكنك أن تطيله ، وهو مثل الحبل الذى يربط السفينة إلى جانب المرقأ ، والنجم الذى يهتدى به السائح ، والأثر الذى يقفوه العربى ، والسراب الخلوب ، والدرع الحصين .

ويقول العامة : إن أولاد يعقوب لما رموا أخاهم السيد يوسف فى الحب ، بعث الله له ملكًا من الملائكة الكرام يتلقاه فى أسفل الحب ، وإنى لأحسب أن ذلك الملك هو الأمل .

لم يجتمع فى شئ من الأضداد ما اجتمع فى الأمل . فهو جليل حقير ، كبير صغير ، قوى ضعيف ، قادر عاجز ، بل هو الطبيب الذى عنده لكل داء دواء . بل هو الحديقة التى تنبت أنواعًا شتى من الأزهار والفواكه . بل هو البرق فى السحاب . بل هو مقذاف فى يد الغريق . والأمل مثل حجر الفيلسوف الذى يغير عناصر الأشياء ، فإذا مس الحديد صار ذهبًا . وكذلك الأمل إذا مس الشقاء جعله نعيمًا . وهو مثل المصباح ذى الدهن المعجون بالطيب يبعث نورًا يستضىء به العقل ، وحرًا تصطبى به الضلوع الباردة من اليأس ، ورائحة زكية تسرى فى أنف الناشق التعب . فكأنها أنفاس المسيح التى كان يحيى بها الموتى .

ولكن خليقًا بالمرء أن يحذر الأمل من حيث يأمنه لأنه إذا علق آماله بالمستحيل ، كان مثل الرجل الذى بنى بيتًا على أساس ضعيف ، فلما احتواه البيت تهدم فوقه فصار قبره .

على أن تأثير اليأس فى النفوس ، يختلف حسب اختلاف طبائعها . فإنه يبعث الألم والشقاء فى بعضها ، ويبعث الراحة والكسل فى بعض .

إن بعض الناس ينصب لنفسه الأمانى ، وهو يعرف أنها علالة حتى إذا أخذت بلبه خادع نفسه ، وجعل يتطلب تحقيقها ، ويدل عقله لسلطانها ، فهو فى هذه الحال مثل الوثنى الذى ينصب صنمًا من عمله ثم يعبده . أو كالأمة التى تضع فوقها ملكًا من صنعها حتى إذا استبد وطغى ، استذلت أنفسها له زاعمة أن له حق الاستبداد بها . على أنه لو لم يكن فى الأمانى إلا أنها إذا تعلل بها المرء الذى نزل به الشقاء ، خلقت لشقائه أجنحة يطير بها ، لكفاها ذلك مقرظًا لها .

إن الإنسان ليستضيف الشقاء بأن يأمل السعادة الكاملة ، لأن مساعيه المهزومة تفتح عليه أبوابًا وتجلب إليه ضروريًا من الهموم ، وإن رجاء المرء السعادة الكاملة ، مثل رجاء الغلام أن يقفز فوق ظله إذا رآه منبسطًا أمامه .

على أن سعادة الإنسان موقوفة على سياسة الإنسان للأحوال التى تحوطه قال أنطونينس (إذا أردت أن تعيش سعيدًا ، فكن أكثر شبهًا بالمصارع منك بالراقص ، فإن ثبات الأول ينفعك ، من حيث تضرك خفة الثانى ، ورشاقة وقفته) ولكنى أقول : إن المرء فى حاجة إلى الوقفتين ؛ وقفة المصارع ، ووقفة الراقص . فينبغى له أن يتعرف الحال التى هو فيها ، ثم يلتمس الوقفة التى تنصره عليها .

الإيمان بالحياة

فى ليلة من لىالى الدهر اذكرها ما وقعت على مثلها وعادت بذكرى ذلك الإحساس الذى جعلنى أكتب هذا . قمت من النوم فزعاً وإشفاقاً على تلك الشعلة التى بخشى خمودها ، تلك الحياة التى نجلها ولو كان ملؤها الشقاء . فكم من حزين لم يدع له الدهر نعيماً إلا سلبه . يتعلق منها بخيط الأمانى ولو سألت رجلاً جمع فى شخصه ثلاثة فكان المقعد الأصم الأعمى عما يرى فى الحياة من النعيم لقال بأن فضيلة البقاء فى البقاء . لأن فى الحياة لذة ليست من تلك اللذات التى تملأ أوقاتها ، بل هى حقيقة فى نفسها كاتنة بنفسها .

سمعت فى تلك الليلة صوت الناديات عن قرب فامتلكنى الفزع ، فجعلت أرفه عنى بالتفكير ، لأن فيه حياة أحسن من الحياة بل هو الحياة . ثم تدليت من النافذة ، فأخذت وجه السماء بنظرة حائرة ، فإذا هو وجه سقيم ، مثل وجه المرأة إذا نظر إليها الحزين .

وقد يأخذ علينا هذا من يقول إن الطبيعة هى التى تطبع على المرء صورتها الحسنة أو القبيحة ، فتعين إحساسه أن يكون ابتهاجاً أو امتعاضاً . ولقد كاد يكون هذا القول حقاً فى جميع حالاته ، لولا أن الإحساس درجات ، وقد يبلغ بالمرء درجة يمتلك فيها فيقيس به الأشياء ، ويحكم عليها بحكمه . وقد يسلك الإحساس بالمرء مسلك الحزن حتى ينتهى به إلى هذه الدرجة ، فيريه الحسن من الطبيعة قبيحاً .

من سودت نار الجوى عيشه يسود فى عينيه صوء الضحى

وإذا سلك الإحساس بالمرء مسلك الاستبشار أراه كل شئ من الطبيعة حسناً .

على أن جمال الطبيعة قائم بذاته ، مهما اختلفت هيئاته وتباينت صوره ، فليس الليل المقمر أو الروض الأخضر أو اليوم الأزهر يغط على بهاء وجلال الليل الخدارى ، والدجن المستقر . وجعلت هذه الأفكار تترد فى ذهن .

كتردد الآمال فى خلد الطمروح المسترى

فأحدثت عندى اندفاعاً إلى معرفة المجهول من أمر الحياة الذى هو مفتاح أسرارها ، والذى نحوم حوله ولكننا لا نصل إلى مركز الدائرة منه . ولكن أين أنا منه ، وقد أخطأ الباحثون والعلماء وسألت نفسى عن تلك الحياة الجديدة التى أحسست بها ، فعلمت أن ذلك الإحساس

هو البرء من الداء ، فإننا نقضى أكثر العمر فى غربة عن أنفسنا ، فلا نرجع إليها حتى يردنا إحساس بكارث دخل علينا أو على غيرنا . نحن نعلم أننا أحياء ولكننا لا نؤمن بالحياة . ثم إننا نخادع أنفسنا ونزعم أننا نؤمن بها لأننا نحسب أن معنى الحياة التنفس ، ولو أنصفنا الحق لعلمنا أنه الشعور بأعباء الحياة ، وما تتطلبه من القلق ، من أجل اختلال شؤونها وما يحث عليه ذلك القلق من الدأب فى إصلاحها .

إنى نظرت فى أحوال هذا الجيل الذى نعيش فيه ، فوجدت أن سالف الدهر على ما به من ظلمة الجهل ، وما تضره من الشر ، أحب إلى من هذا الدهر الذى يدعوته عصر العلم والسكينة ، لأن الأولين كانوا إذا عرفوا شيئاً آمنوا به ، ولكننا نعرف ولا نعتقد . وربما قال قائل : إن العلم بالشئ هو الاعتقاد به ، ولكننا لا نقف معه فى هذا الوادى ، لأن العلم بالشئ لا يصير اعتقاداً إلا إذا امتلأ من الإحساس .

ثم إنى نظرت فى فقدان ذلك الإحساس ، فعلمت أن سببه اندفاع الأولين فى سبيله . فقد بلغ منهم الإحساس مبلغاً ، وملكهم الاعتقاد فعظم إيمانهم بما رأوه حقاً ، وإن لم يكن كذلك ، فنازعوا البقاء من خالفهم فى عقيدتهم . فإن من سنن الحياة أن يتبع الشئ نقيضه فتلتقى الأطراف عند ابتعادها . ونحن لا نريد لأنفسنا حالا مثل حالهم ، ولا نرغب فيها . ولكننا نريد أن يكون اعتقادنا بقدر ما عندنا من العلم ، ولو صح لنا ذلك ، لكننا فى حياة هى الحياة التى خلقنا الله لنسعد بها . فإذا قال قائل : إن العلم ينافى الإحساس قلنا له إن العلم لا يكون إلا إذا دخل التفكير شئ من الإحساس . فكيف ينافى الإحساس وجود العلم إذا كان العلم لا يستقيم إلا به . ونستخرج من ذلك ، أنه إذا كان القليل من الإحساس يستعين به التفكير فى إيجاد العلم ، فإن الكثير منه يمكن العلم من النفس حتى يصير اعتقاداً . وإن الذى غرر بالمعترض حتى زعم ما زعم هو أنه نظر فى حال الأولين ثم فى حالنا ، فوجد عندهم جهلاً وإحساساً كثيراً (وإذا شئت قلت بدل الجهل قليلاً من العلم) ووجد عندنا علماً وإحساساً قليلاً (وإذا شئت قلت بدل العلم جهلاً أقل من جهلهم) .

ولو أنصف لعلم أن ذلك رد فعل حدث من اندفاعهم فى طرف ، واندفاعنا فى ضده .

إن من مناظر الحياة التى يسخر منها الساخر ، ويضحك الضاحك ، ويبكى الباكي ، ويحزن الحزين ، أن نرى فى منزلة بين الشك واليقين ، بين الإنكار والاعتقاد ، أننى أنظر فى تاريخ كل اضطراب ، كان باعته الإيمان بالحياة فأتناسى كل ما علق به من الشر ، لأن باعته

الإيمان بالحياة . وأرى إعراض الناس عن فهم معانى الحياة سكوناً إلى المظاهر ورغبة فيها . ومن الواضح الثابت أن الإنسان إذا تنعم بالحياة ، وكثرت موارد خيراتها صعب عليه أن يؤمن بها أو يسعى فى تحسينها . ولقد أعجبتنى كلمة فى هذا الباب لنا بليون الأول ، وهى أن كل التعاليم القائمة تقع كالبناء المتهدم عند ذكر الإيمان ...

ثم إن الإيمان بالحياة يبعث النشاط فى قلب الأمل ، والإقدام فى قلب الجبان ، ويمهد مسالك السعى ، ويوطئ مراقى الفضل ، ويمكن الثقة بالله وبالناس من قلب الإنسان .

قد يتدفق التفكير بالحقائق التى تجعل الحياة طيبة إذا اندفع فى سبيل الإيمان بالحياة التى خلقنا لنسعد بها حسب استطاعتنا ، لكنه قد يتجههم ويمكن اليأس من القلوب إذا اندفع فى غير ذلك السبيل السوى .

كان لى منذ زمن إلى مذهب (اللأدرية) فإن فيه راحة للبال من الوسواس التى تعتور الإنسان ، واستقراراً بعد ذلك القلق الذى يترك الإنسان فى سبيل البحث عن أسرار الحياة ، ومعانيها وأولها وآخرها . ولكن فيه مع ذلك قتلاً للإحساس ومحوراً لمبالاة ما يقع فى الحياة . على أن ذلك الإحساس وتلك المبالاة اللذين يبعثان القلق ، هما معنى الرغبة فى الحياة . فإذا قتلا ضعف أماننا وإيماننا بالحياة ، وحسبناها خدعة فتنبض قوانا المندفعة فى مقاومة الصعاب . وإذا صح ذلك عندنا ، صح أيضاً أن الإنسان خلق كى لا يستقر إلا على قلق ، لأن ذلك القلق هو الباعث على الحركة التى تسير بالوجود إلى منازل مختلفة (وربما كان منها ما هو من منازل الإصلاح) .

ولكن أحمد مواقف اللأدرية ، شعور الإنسان بضعفه أمام القوة العظمى ، فإن فى ذلك الشعور معرفة لقوانا ، ولما هى قادرة عليه فيكون سعينا على علم وتبصر . ولقد قال الفيلسوف سقراط كلمة فى هذا المعنى (وأظنها وردت فى جمهورية أفلاطون) « الناس كلهم جهلاء ولكنى أمتاز عنهم بعرفانى أنى جاهل وجهلهم أنهم جاهلون » .

قال إسماعيل باشا صبرى :

وإن تبك ميتاً ضمه القبر فادخر لميت على قيد الحياة دموعاً

لكأن ذلك الميت الذى على قيد الحياة ، الرجل الذى لا يبالى شؤون هذا الوجود ، ولا يتألم من اختلالها ، فهو لا يبذل جهداً فى إصلاحها وتلك أنانية وبخل ولؤم .

وإذا كان الأمل أعظم ما يمتلكه الإنسان في هذه الحياة ، فلم لا نأخذ بقول إميل زولا « يجب أن نثق بالطبيعة الإنسانية ، وليست هي التي زعم جان جاك روسو أنها خالصة من الشوائب ، ولكنها هي التي يجب أن نرجى ما يستقبل من أمرها ، وأن نثق بها ، بالرغم مما يشوبها من الدناءة والقسوة والقبح ، ويجب أن نعلق آمالنا بإجهادنا لقوانا ، وما وراء ذلك من العمل ، وأن نعتقد أن سعينا موصول بغاية حميدة ولو أننا لا نعيش حتى نرى ذلك » .

الذوق

جاء فى قصة دون كيشوت للكاتب الأسباني الشهير سرفانتس ، أن رجلاً اشترى زقاً من الخمر المعتقة ، ودعا أصحابه ليذيقهم لذاتها ، ويسمع منهم كلمات الثناء عليها ، فلما ذاقها أحدهم صمت قليلاً ثم قال : لقد كانت تلك بالغة غاية اللذابة ، لولا أن مذاقها يشوبه مذاق الحديد ، وذاقها آخر فصمت مثل الأول ثم قال : لقد كانت تكون بالغة غاية اللذابة لولا ما يشوب مذاقها من مذاق الجلد فجعل الحاضرون يسخرون منهما ويتهمونهما بسقم فى الذوق، فلما أفرغ الزق وجدوا فيه قفلاً من الحديد ربطت به قطعة من الجلد فجعلوا يعجبون من سلامة ذوقيهما ، وعرفانهما دقائق الأمور .

وإنما أوردنا هذه القصة لنضرب مثلاً للأذواق ، وكيف أن الصحيح منها ما كان قديراً على تتبع الأجزاء الدقيقة . فلو عرض عليك كتاب ، وسئلت رأيك فيه ، وكنت نافذاً إلى حسناته ، كان خليقاً بك أن لا تحيد عن الرأى الرجيع . ثم إنك لا تكون صادق الحكم فى آداب اللغة العربية مثلاً إلا إذا درست آداب العصور التى تعاقبت عليها ، فإذا درست آداب عصر واحد ، كان رأيك أبعد ما يكون من الصواب . ومثلك مثل الحكم الذى إذا سمع شهود الإثبات أفاد من المتهم ، قبل أن يسمع شهود المسمى . فإذا أردت أن لا تضل أصالة الرأى ، كان خليقاً بك أن تعرف أنحاء الأمر الذى أنت حاكم فيه . فإذا أردت أن تكون ناقدًا لفن التصوير ، ولم تدرس إلا صور الأوائل ، مثل روفائيل وتشيان خفيت عنك حسنات المصورين أصحاب المذاهب المخالفة لمذاهب الأوائل .

والأذواق تتفق فى أشياء وتختلف فى أخرى ، من حيث الاستملاح والاستهجان ، فما اجتمعت عليه الأذواق فهو ذوق عام ، وما اختلفت عليه فهو ذوق خاص . ولكل امرئ من هذا نصيب حسب أهوائه وطبائعه وما تغذى به إحساسه ، وما وقعت عليه حواسه . ولا يجحد أحد أن فى دائرة الذوق ما يتفق عليه الكثير ، ولولا ذلك ما كان بين الناس صلات لأنها لا تكون إلا بمقدار من التعارف . والتعارف لا يكون إلا بمقدار من التشابه فى الأذواق . ولقد رأيت الناس يعرضون ما يعالجونه من المسائل العقلية على عواطفهم ، جاعلين لها سلطاناً على قوة الحاجة ، ويحكمونها فى أشياء لا تقوى على أن تحسن مناصحتهم فيها ، وتبدى لهم عن الرأى الرجيع ، ورأيتهم يهملون ملكة انتقاد النفس ، فلا يتعهدونها بما يصلح من شأنها

ويعمل فى انائها ، حتى تضعف فتضعف قوة الحكم على الحقائق بقدر ضعفها . ورأيت أناساً رفضوا ما تصدره عواطفهم من سنن وعادات ، وأسأوا الظن بها اتكالا على قوة الحاجة ، وما رأوا فيها من الحكمة والتدبير . ولكن فاتهم أن للعواطف مجالا فى كثير من الأمور ، وما تقول فى رجل يرى زوجه فيريد أن يعرف نصيبها من الجمال فيقول فى نفسه إن طول أنفها خمسة أشبار ونصف ، وهكذا يريد أن يعرف مقدار تناسب أعضائها ، والتناسب معنى من معانى الجمال ، فكأنما هو موظف من موظفى مصلحة المساحة ، وقد أمر أن يقيس قطعة من الأرض .

فليس جمال المعانى ومعانى الجمال بما يحكم فيه قوى العقل ، غالبية للعواطف ولا هو نظرية تحل بالتفكير فيها ، حتى أنه قيل إذا لم يكن ناقد الشعر ذا عواطف مشبوية كان خليقاً به أن يجد لنفسه مهنة أخرى .

فالعواطف هى أكثر الأشياء سلطاناً على الأذواق ، فإذا كانت العواطف سقيمة كانت الأذواق كذلك . ولا شئ يفسد العواطف مثل مزاوله الرذول ، فإن المرء لا يزال حتى يراه لأسباب الفضل جامعاً ، ولأصناف الحسن شاملاً ، وحتى لا يرى الفضل إلا فيه . فإنك لتتشدد الأزهرى فى أزهره ، والشاب فى دار تمثيله ما يسمع الصم فلا يسوءك إلا أنك طربت ولم يطرب ، وعرضت بضاعة لو صادفت ذا ذوق صحيح ماردتها عليك ولكن .

تعرض الأشياء فى أوطانها أفة الجوهر أن لا يعرفها^(١)
وإذا بالأول يتشدك من حواشيه ومتونه ما يزيده فى فتونه وإذا بالثانى يتغنى بشعر ملوء
الرهن والغميمة فأنشدهما قول البحترى :

إن الخطوب طوينتى ونشرننى عبث الوليد بجانب القرطاس
وقل لهما انظرا كيف جعل الخطوب لا تعرف ما هى فاعلة به كما يبعث الطفل بجانب
الورقة ، فتارة يطويها وتارة ينشرها ، وأنشده قول الشريف :

ينأى ويدنو على خضراء مورقة لعب النعامى بأوراق وأغصان
(النعامى ربح) فإنه جعل مرح الإنسان فى النعيم ، مثل لعب الريح بالأغصان والأوراق ،
فلا تجد منه بعد ذلك إلا ازوراراً مثل ازورار التقى عن مظان الريبة .

اجتمع أعظم المصورين وصنع كل صورة أملاها عليه ذوقه ، زعم أنها بلغت غاية الجمال ، إذا رأيتها وجدت اختلافاً عظيماً ينبئ عن مثله فى أذواق هؤلاء المصورين ، وربما كان بين تلك الرسوم ما يستسمجه بعضهم . على أنك لو قلت لهم ما هى أصول الجمال ، لقالوا كذا وكذا واتفقوا على أشياء عامة حتى إذا عرضوا عليك ما يستملحونه من معانى الجمال ، عجبت لاختلافهم فيما يعرضونه عليك . ومن أجل ذلك قال العلامة داود هيوم : الأذواق تتفق فى الأصول العامة ، وتختلف فى الأمثلة الخاصة والأفكار . بعكس ذلك تتناكر فى النظريات العامة حتى إذا ولج بها البحث إلى الدقائق أدت بها إلى التعارف .

على أنه مهما تباينت الأذواق ، فإن لذلك التباين حداً إذا تعداه امرؤ عد سقيم الذوق . فإذا تمارى اثنان فى تفضيل ابن المعتز على البحتري ، كان أحدهما مصيباً والآخر مخطئاً . ولكن خطأ المخطئ لا يعزى إلى سقم ذوقه . أما إذا لج امرؤ فى تفضيل ابن الفارض على البحتري ، فلا نجد له شيئاً أحسن من أن نرجو له مغفرة واسعة .

ولقد وضع أناس الأخلاق فى دائرة الذوق ، لأن الناس متفقون على أصول عامة ، مثل بغض الشر وحب الخير . ولكنك إذا أردت أن تقسم الأفعال إلى خير وشر ، وجدت اختلافاً كبيراً فى تقسيم الأمم لها . ألا ترى أن العرب لم تكن ترى حرجاً فى الإغارة وأن الإسبانى كان لا يجد حرجاً فى أن يجعل السيف سلاحه الذى يقتل به عدوه ، ولكنه يأبى أن يجعل السم سلاحه خيفة أن تنسب إليه فظاظة فى الخلق . أما العادات فهى بنات الأذواق ، فإذا كثرت العادات وقيدت المدنى نمت كثرتها وتقييدها إياه على سقم فى ذوقه ومن الذى ينعم بالحمل الثقيل .

رداء ولا رداء

إذا كنا نحمد العرى من أجل أنه يسلك الناس في صعيد واحد غير رافع للغنى شأنًا ، ولا خافض للفقير جناحًا ، فخليق بنا أن نحمد الكساء من أجل أنه باعث الحياء في الصدر . والحياء غذاء الضمير ، ولا خلاق لقوم لم تصح ضمائرهم . يا عجبًا للمرء ، إن أجل شيء فيه مستجلب من كسائه ، ذلك الكساء الذي كان شعراً على ناقة أو ذنباً لبعير لوث البعر ذنبه^(١) . ألا قل لمن لا يرفع للمادة شأنًا ولا يقيم لها وزنًا ، لقد طوح بك الضلال . أما رأيت كيف أنها تحيي الحياء ، فتحيأ بحياته الضمائر والأخلاق . ولو أنك رميتها بنظر صادق لعلمت أنها الوجود وروح الوجود ، فإذا زعمت أنها روح الوجود فقل مع (بركلي) أن ليس في الوجود مادة . فإذا ظنوا بك الظنون فقل كل عقل تظن به الظنون .

يقسم الناس الوجود إلى مادة وقوة ، أو إلى جسم وروح ، فيخطئون في بعض ما يعنون . لأن القوة في المادة ، والمادة في القوة . وهما شيئان لا يفرقان أبدًا . ومن أجل ذلك أنظر إلى ما يدعو الناس جمادًا غير ذي حياة فلا أراه كذلك : تلك الفاكهة العفنة ، لولا أن فيها من القوة شيئًا ، لما قدرت أن تعفن . وذلك الغصن الذاوي كيف يذوي إذا لم يكن فيه من القوة ما يذويه . فإذا فهمت ذلك ، عرفت أن كل شيء في الوجود حي ، وأن الفناء معنى من معاني البقاء . لأنه انتقال من حياة إلى حياة ومن هيئة إلى هيئة . قال بركلي أن ليس في الوجود مادة فصدق . (*) وقال علماء الفسيلوجيا ليس في الوجود ما يسمى عقلا أو روحًا لم يكذبوا .

هنا يقف الضئيل موقف التعجب والإنكار . ثم يقول ضدان لا يتفقان ، وقد وهم في ذلك ، فليس بين القولين مغايرة ، فالأول ينظر إلى صفات في أجزاء الوجود غير التي ينظر إليها الآخرون . فإذا أردت أن توفق بين القولين فقل المادة هي القوة ، والقوة هي المادة . فإذا بلغت هذا المبلغ من العرفان ، فهمت قول قاسم بك أمين « العقل ، والإدراك ، والنفس ، ألفاظ لا تدل على أشياء حقيقية ، بل وضعت للمكات كان يتوهم وجودها بالذات في زمن كان العلم فيه قاصراً ، يستمد مادته من الخيال ، ثم استعملها علماء هذا العصر بحكم العادة ولسهولة التعبير وتقريب المعاني إلى الفهم . والحقيقة أن البحث العلمي لم يجد في الحياة الفسيلوجية إلا خلايا متنوعة ، قابلة للنمو بذاتها ومتأثرة باشتراك خلايا آخر » .

١ - هذا يراد به السخر لأن كل الضمير غير مكتسب من الكساء ولم تنشأ فائدته الخلقية حتى نشأ الضمير .

كان الإنسان فى بدء وحشيتته يمشى مكشوف الجسم فاقد الحياء . ولكن حب التزين كان أخذًا من لبه مأخذًا غريبًا ، فاتخذ اللباس حلية وما زال يخلع زيًا ويلبس آخر ، حتى ظهرت فطنته فاتخذ من اللباس وقاء من الحر والبرد . فكان هذا اللباس مورى الحياء فى قلبه ، فستر جسمه وغطى على ما يتخلق به من خصال السوء ، فكأنى به وقد تعلم الحياء تعلم الرياء أيضًا ، فكان أكثر أهل الحياء ، من أهل الرياء لأن الحياء المقبوح يزعمهم عن ارتياد الرب أمام الناس ولا يزعمهم عن واقعة الرذيلة فى السر .

كان أقوى الناس جسمًا فى الزمن الخالى أقدرهم على جمع المال فكان أحسنهم لباسًا . والقوة معبود الناس ، فكانوا يجلون لباس القوى من أجل قوته ، فما زالت بهم الحال حتى أجلوا المرء من أجل لباسه . أليس اللباس الحسن دليلًا على الغنى والمال ؟ هو العبد المطواع والرسول اللبيب إذا سرحته سعى بينك وبين الناس بأحسن ما تحب ، وهو الحجة البيضاء والرأى الرجيع .

وبارِ تَمِيمًا بالغنى إن للغنى لسانًا به المرء الهية ينطق

وهو مغط على عيوبك ورافع عن حسناتك الخمول وهو إذا شئت الداء العياء والسم المميت . لقد حجب الجاه إلينا اللباس فأحبينا الزينة حبًا فى الجاه . إن الرجل إذا خلع ثياب زينته خلع فيها روحه ، فلا راجعها حتى يلبس ثيابه . ولقد صارت قيمة الرجل ما يتحلى به . وإذا كنت فى ريب من ذلك ؛ فانظر إلى المثرى يرفل فى زينته ، واطل عليه وهو فى الحمام ، تر أنه خلع عظمتة ومجده حين خلع ثيابه .

قال شكسبير ثياب المرء دليل عليه . لقد صدق شكسبير إلا أنها كادت لا تكون ذلك الدليل . أما رأيت إنسانًا ضفا عليه الحرير ورف ، تحسبه من الملائكة وهو من الشياطين .

اثان أحدهما حسن البزة والثانى رثها ، قد هم الأول أن يبصق فى وجه الثانى . غير أنه رأى ثيابهما تخفى فجأة . أحسب أيها القارئ أنه فاعل ما هم به من البصق - كلا - إنه ليخجل أن يبصق على جسم مثل جسمه . فالعرى مُنْزِل الرفيع من سمائه ورافع الوضع من حضضه ، فهو من هذا الوجه مثل الموت . أنت بفلاح من صميم الريف ، وقف به عند دكان أستين أمام تلك التماثيل ذات الثياب الجدد ، فإنك ترى صاحبك يكاد يحييها ، لأنه يحسب أن حياة المرء فى ثيابه . قاتل الله الثياب ، لقد كدنا نكون فى حياتنا أمواتًا وكادت ثيابنا تكون لنا فى ذلك الممات أكفأًا .

ينثر الزارع فى أرضه الحب ثم يقيم عندها قطعة من الخشب ويضع عليها ثياباً بالية . فإذا مر بها الطير كانت له تلك الثياب البالية وازعاً عن التقاط الحب ، لكأن ذلك العصفور أعقل من المتمولين الذين يلتقطون قوت الفقير لايزعمهم عنه تلك الخرق البالية التى تكاد لا تكسو جسمه . أتمحسب أن الممثل يفخر بأزياء الملوك والأمراء ؟ أليست عظمة الإنسان أيضاً مستعارة من ثيابه المستعارة ؟ ترى الفقير لابساً ثوباً يطل عليك الفقر من كل خرق من خروقه.

هذه أبواب الحاجة تنفذ منها إلى الأبصار . أيها الغنى ؛ إنك لتحسب أن كل خرق فى ثوب الفقير جرح رغيب فى عرضه ، وإنك لواهم ، فإنه أقرب إلى طبيعة الإنسان . منك أنت تعيش فى ثيابك وهو يعيش فى نفسه .

تقديس النجاح

إن الأمة فى عصور قوتها مثل الأفراد فى سنى نجاحهم . فى الحياة تحكم على الأعمال بنتائجها لا بالدوافع التى دفعت إليها . ومن أجل ذلك ، تجد أفراد الأمة القوية يقدسون النجاح تقديساً كثيراً . وهذا أثر من آثار عبادة القوة ، لأن العمل إذا كانت نتيجته النجاح ، كان محبوباً إلى الناس . وإذا كانت نتيجته الفشل كان مبغضاً إليهم . ولا أظن أنهم مخطئون فى ذلك . نعم ينبغى للمرء أن يذكر دائماً أن الدوافع المختلفة التى تدفع إلى الأعمال توجد اختلافاً فى قيمة الأعمال ، ولكن الذى يعين قيمة العمل هو النجاح . ولا أعنى به ذلك النجاح السريع الذى يعقبه الفشل الطويل ، والمبنى على أساس من الغش والكذب ، وإنما أعنى ذلك النجاح الذى يتخذ له الأفراد والجماعات عدته ، والمبنى على أساس صحيح متين من القوة .

فإذا نظرت إلى الأمم فى حين ضعفها ، وجدتها تحكم على الأعمال بالدوافع التى دفعت إليها لا بنتائجها . وهذا ولا شك إحساس بالعجز لأن الأفراد إذا خافوا أن يحكموا على أعمالهم بنتائجها كانت ثقتهم بأنفسهم قليلة كأنهم لا يستحقون أن تكون نتائج أعمالهم النجاح . ومن أجل ذلك ، تجد أفراد الأمة الضعيفة يكادون يقدسون الفشل فى المطلب الجليل ، خصوصاً إذا كان نصيبهم . لأن كل إنسان يجل النجاح ويقدمه ، إذا كان النجاح نصيبه ، ولكن سواء كان النجاح نصيب المفكر أم كان نصيبه الفشل ، ينبغى له أن يتذكر دائماً أن قيمة النجاح الصحيح أكبر قيمة فى الحياة ، لأنه مبنى على قوانين وقوى مثل القوانين والقوى التى بنى عليها هذا الوجود .

العامة يكثرون من ترديد هذه الكلمة (الأعمال بالنيات) وهذه حقيقة . ولكنهم يخطئون فهمها ويخطئون فى استعمالها . فليس معناها أن النية التى دفعت إلى العمل ، هى وحدها التى تعين قيمته . وليس معناها أن هذه النية ، أهم من العزيمة والصبر ، والجلد والعلم ، والخبرة والدهاء ، والاعتماد على النفس ، وغيرها من القوى التى اشتركت فى تحقيق النجاح واستجلابه .

ومن الغريب أن بعض المفكرين يتابعون العامة فى الحكم على الأعمال بالدوافع التى دفعت إليها لا بنتائجها ، والسبب فى ذلك ، إما أنهم يخطئون معنى النجاح الصحيح وما يستلزمه

من القوى الكثيرة ، وإما أنهم يرون أن بعض العاملين ينجحون بالرغم من كونهم أهملوا بعض الفضائل المدنية . نعم إن هذه الفضائل تردع عوامل الاعتداء التى فى صدر الإنسان وتعدده لأن يتبع سنن الجماعات وأنظمتها ، ولكن الذى نسيه هؤلاء المفكرون ، أن النجاح أساسه القوة ، والقوة مصادرها كثيرة ، من فضائل شخصية أو مدنية . والنجاح يتطلب قوى وملكات وفضائل خاصة ولا يستقيم لأحد إلا بها .

إن أفراد الأمة القوية يتعلقون بوسائل النجاح ، ولا يحجمون عن العمل خشية الفشل . أما أفراد الأمة الضعيفة ، فإنهم يحجمون عن العمل خشية الفشل لأنهم لا يتعلقون بوسائل النجاح فيكون خوفهم من الفشل داعية الفشل . ويرجع ذلك إلى إهمال وسائل النجاح . ولقد يفشل الرجل العظيم ، وينجح الرجل الضئيل ، لكن هذا العظيم ، على عظيمته ، نسي حقيقة كبيرة ، وهى أن الإنسان لابد أن يؤهل نفسه للنجاح فى الحياة ، كى ينتفع بمواهبه وينفع بها غيره . وقد تجنى على المرء تربيته ، فإنها قد تعدده للفشل فى الحياة ، خصوصاً إذا كانت فى نفسه صفات من الصفات التى تجعل نجاحه مستحيلاً ، مثل ضعف ثقته بنفسه ، وتوكله على غيره ، والحياء المفرط ، الذى هو فى الحقيقة ، دليل من دلائل الضعف .

وقد يتساءل العاجز عن الصفات والقوى التى يستجلب بها النجاح ، هل هى أجل ما يطمح إليه الإنسان ، وأشرف ما تتصف به النفوس ؟ أم هناك فضائل وقوى أعظم منها وأجل ؟ ولو بحث هذا السائل لوجد أن الصفات والقوى والملكات التى نجلها فى نفوس الناجحين ، ونعدها ثمينة نادرة مثل الذكاء أو قوة المنطق والتفكير ، أو رقة الشعور وجلال العواطف ، هى رخيصة جداً فى نفوس العاجزين أهل الفشل . وهذا ليس بغريب ، فإن المفكر الذى جرع كأس التجارب يجد أن الملكات والقوى النادرة ، لا قيمة لها فى نفسها بل قيمتها فى استخراجها واستعمالها ، وما ينشأ عنها من المؤثرات . كما أن الجواهر الكريمة أو المعادن النفيسة لا قيمة لها ، مادامت فى بطن الأرض ، بل قيمتها إذا استخراجت وصادفت رغبة فيها . أما إذا لم يوجد من يرغب فيها ، لم تكن لها قيمة . فينبغى للمرء أن لا يحتقر تلك الملكات التى تقدر النجاح فى الحياة ، فإن ذمها إياها وهو لا يملكها ، يكون مثل ذمه عنقود العنب ، لأنه لم تصل إليه يده .

ثم إن النجاح فى الحياة تختلف مظاهره ، فقد يفشل المرء فيما يرضاه الناس له من الحياة وينجح فيما يرضاه لنفسه . إلا أن نجاح المرء فى الحياة ، يقاس بمقدار قواه سواء كانت مادية أو عقلية أو روحية .

يحسب بعض الناس أن فى تقديس النجاح ظلمًا وقسوة وغبنًا ، وأنت لا تجد أحدًا يقول بذلك إلا إذا خشى الفشل . أما إذا كان من الرجال الذين لا يطغيهم النجاح ولا يكرههم الفشل ، فإنه يجد من ثقته بنفسه وعمله ما يعينه على استجلاب النجاح ، وتحمل الفشل . ومن أجل ذلك تجد الأمم التى تقدر النجاح ، أكثر جرأة من الأمم الضعيفة التى تخشى أن تحكم على أعمالها بنتائجها لا بالدوافع التى دفعت إليها .

غير أنه قد يخشى على الأمة الضعيفة ، إذا جعل أفرادها يقدسون النجاح أن يتعلقوا بمظاهر النجاح ، دون النجاح ، والتعلق بمظاهر النجاح ، ليس دليلًا على القوة ، بل على الضعف .

غير أن التظاهر بالنجاح الكاذب يكون فى الجماعات التى تحكم على الأفعال بالدوافع التى دفعت إليها ، كما يكون فى الجماعات التى تحكم على الأفعال بنتائجها . غير أن الجماعات التى تقدر النجاح ، يُعلمها تقديس النجاح التمييز بين النجاح الصحيح الذى يتخذ له المرء عدته من القوى المختلفة ، وبين النجاح الكاذب الذى ليس له نفع ولا بقاء .

إن أجل ما تمتاز به الجماعات الغربية على الجماعات الشرقية ، أن الأمم الغربية أكثر تقديسًا للنجاح ، وهذا جعلهم أكثر تعلقًا بالفضائل الشخصية ، مثل الاعتماد على النفس والعزيمة والصبر والشجاعة وغيرها من الفضائل الشخصية ، التى هى أهم من الفضائل المدنية والتى هى وسائل النجاح وعدته .

خليق بنا أن نعتز بالآثر الذى للدوافع والنيات فى تمييز الأعمال ، ولكن ينبغى أن نذكر أن القضاء والمقادير ، لا يهمها الدوافع ولا تعترف بها ، بل يهمها النتائج وتعترف بها ، نحن نغايير المقادير وتختلف عنها فى شئ ، وهو أن النيات والدوافع تهمننا فينبغى أن لا نغالط أنفسنا ، ونخفى عنا قيمتها ، ولكن ينبغى أيضًا أن لا نغالط أنفسنا ونخفى عنها أن النتائج قيمتها هى القيمة الكبرى . وإذا كانت المقادير والوجود كله يقدر النجاح فى كل مظهر من مظاهر الحياة فلم لا نقدر النجاح فى حياتنا وأعمالنا .

الحياة واليأس

الآملون فريقان : فريق أملهم ، غفلة عن ثقل الحياة وعظمها وبلادة وغباء . وفريق يعدون الأمل ، واجباً عليهم وفرضاً فرضته الطبيعة ، وأنا من الفريق الثانى . ومن أجل ذلك لم يكن أملى مستطيلاً مستمراً مستأنفاً ، لأن النفوس تعجز عن أن تجعل الفرض كذلك .

يحسب كثير من الناس أنهم يعدون الأمل واجباً ، وهم مخطئون ، فإن أمل الجمهور غفلة . وهم غافلون عن أن أملهم غفلة ، لأنهم غافلون عن غفلتهم . ومن أجل ذلك لا يفهمون سبب شكوى الأديب من عظم الحياة . ويحسبون أن ذلك ضعف فيه . ولو أنهم أفاقوا من غفلتهم ورأوا عظم الحياة ، كانوا كمن أقام طويلاً فى حجرة مظلمة ثم خرج منها ونظر فى عين الشمس . فتأذت عينه بتلك النظرة . فالأديب يشكو الضياء لأنه ينظر فى عين الشمس . وهم لا يفهمون شكواه لأنهم فى حجرة مظلمة . ولكنهم يقولون له : أنت جنيت على نفسك ، لم تنظر فى عين الشمس ؟ ويحهم إذاً كيف يعرف سر الحياة إذا بقى فى تلك الحجرة المظلمة ؟ ولكنهم يقولون هذا غرور منك . والغرور مدعاة الأذى إذا كان الطموح إلى منازل العرفان غروراً ، فلا خير فى الحياة .

الحياة مثل حمل ثقيل من الذهب على كتف رجل ضعيف ، إذا وضعت هذا الحمل على ظهر حمار من أهل الغفلة والضمير النائم ، لم يحس عظمه ، ولكنك إذا وضعته على كتف الأديب أحس عظمه وجلالته . إن جلاله الحياة هى التى تفزعنى وتلجئنى إلى اليأس فى بعض الأحيان : تلجئنى إلى اليأس لأنى أرى الناس غافلين عنها ، وإنما يلهيهم اهتمامهم بصغيرات الأمور .

ترى الصانع يسيل عرقاً من فرط اجتهاده قواه ، فكأنه قصر من الثلج من قصور الشتاء التى يبنيتها الروس ، وقد رماها الصيف بلفحات حره . وإنك لتكاد تسمع نبضات عروقه البارزة ، فكأنها تريد أن تفتق جلده ، فتسعد ذلك العرق السيل الذى يشهد بما يعانيه من الجهد والبلاء . وهو تارة يترنم بأغانى الوله وأشعار الغرام ، وتارة يطلق من شفثيه صفيراً ، يحسبه السامع صادراً من قلب ملاً السرور نواحيه ، وتقلبته القناعة والرضا بقسمة المقدور . ولو فتح له صدر ذلك العايب بالأغانى لوجد أحزاناً تنتاب ، وهواجس تعتور ، وعواطف تتواثب ، فما ميدان القتال بأعظم هياجاً من قلب ذلك الصانع .

كذلك الغنى ذو الأبهة والجلال تراه فى عربته الفاخرة ، وعلى لباسه رواء يضارع ذلك البشر الذى يجول فى أنحاء وجهه فيحسده الرأى . ولو علم الرأى أن سكينه ذلك المشرى مكذوبة ، وأن بين جنبه قلباً يعانى من آلام المعيشة قدر ما يعانى الفقير فى كسر بيته المتهدم ، وربما كان الفقير يفضل فى أنه لا يبالى التعم إذا أدبر مثل مبالاته إياه . لو علم الرأى ذلك لخفض من غلواء بغضه وحسده .

إن خاطراً واحداً يمر على ذهن الإنسان ، قدير على أن يفسد عليه نعيم يومه ، وإن حادثاً من صروف الدهر لكفيل بإتلاف حلاوة المعيشة ، فكيف لا يتمكن اليأس من نفوسنا ، إذا كانت هذه حياتنا .

على أن الإنسان مودع فيه ميل طبيعى إلى الحزن ، تغطى عليه الغفلة عن شؤون الحياة واختلالها ، كما يغطى الرماد وجه النار الكامنة . فإذا صحا من تلك الغفلة هاج به اليأس هياج الأسود فى أقفاصها ، وانتزع منه السكينه والاطمئنان ، وكاد يطفى مصباح الأمل الذى تستضى به النفس حتى يرى الحياة عبثاً ، لا مفرقاً بين حالات الغنى والفقير ، ولا بين المساعى المختلفة والأشغال المتنوعة ، لأنه يحسب أن كل ما يقضى الوقت فى معالجته عبث ثم يعتريه الملل والضجر ، رغباً فى عيشة أرقى من هذه العيشة التى يطوف ما يطوف فى أنحائها ولا يعرف الغاية التى يسعى إليها .

كلما بلغ الإنسان مبلغاً من العرفان الصحيح بأحوال هذه الحياة ، وكانت عواطفه مهيجة من أجل اختلال شؤونها ، كان قريباً من منازل اليأس .

استعرض النفوس البشرية وارف عنها ذلك الحجاب الذى وضعه عليها التحفظ والاحتجاز والنفاق والحياء ، تجدد فيها من الدناءة والقسوة والقبح ما يجعل الشك فى اليقين ، والقلق فى الاطمئنان ، واليأس فى الأمل .

هذا كارليل ، الفيلسوف الكثير الثقة بالنفس البشرية ، ذو الأمل الضخم الذى أخرج إلينا عقيدة (الأمل والعمل) كان على ذلك ينتفض مذعوراً فى مجلسه ، ثم تشور به السوداء فيقول : لا أدري كيف عشت هذه السنين وأنا لا أعرف ما أنا (*) يريد بقوله (أنا) النفس البشرية . ألا ترى أن الإنسان إذا بحث فى دناءة النفس وقسوتها وقبحها ، وكيف أن بعض هذه الأوصاف تأخذها بالوراثه وبعضها بتأثير البيئة الفاسدة ، وبعضها بسبب نظام التربية

تأخذها بالوراثة ، وبعضها بتأثير البيئة الفاسدة ، وبعضها بسبب نظام التربية الفاسدة فيعترضه في بحثه مسائل منها ، معنى الحياة والسبب الذى من أجله خلقنا ، والغاية التى نسعى إليها . كل هذه مسائل لا يقع عليها الإدراك مهما أكثر الناس من القول فيها .

من أجل ذلك كان اليأس قريباً من نفوس الشعراء ، لأن عواطفهم أبداً مهيجة مشبوبة . وإنك ترى الواحد منهم يطنب فى تقرىظ الطلاقة ، والبشر والابتهاج والفرح ، فإذا خلا إلى نفسه ، فأرسل ما يثور فيها ترفيهاً لها ، وجدت ذلك الثائر يأساً صريحاً ، هذا (وردز ورث .) شاعر الطبيعة الذى جعلها كتابه إذا قرأت شعره حسبته الماء الزلال تحنى عليه الأزهار ، ولكنه إذا أفرغ ما يثور به صدره ، حسبت أن هذا الوجود لا صلاح له .

وهذا بيرنز الشاعر الذى قال فيه كارليل إن المصائب كانت تصب فوقه فينثرها عنه ، كما ينثر الجواد الماء عن شعره - هذا الذى إذا شئت كان لى من أغانيه غداء يفضل الغداء تلك الأغاني التى لو كانت معى فى الصحراء ما أحسست بشؤم الحياة - هو بيرنز الذى يقول (خلق الإنسان ليحزن) وهذا بيرون الذى يقول فيه كارليل - لا تحسبوا أنكم تقرأون أشعار بيرون وإنما تقرأون أحزانه - كان لا يستقر فى مكان من ملله الحياة ، وكان أعظم لذاته أن يتفرد فى الأرض الخلاء فيصرخ كى يسمع صدى صوته ، إذا رددته الجبال . فهو كما قال الحسن بن هانى :

يرى الناس أعباء على جفن عينه وإن حلّ فى وادى أخ وحميم

فود بجدع الأنف لو أن ظهرها من الناس أعرى من سراة أديم

فإنه هو الذى يقول فى قصة دون جوان « لا أرى شيئاً يمنعنا من إتيان جريمة التناسل ، غير الجوع والفاقة » ذهب فى هذا القول مذهب أبى العلاء المعرى ، إذ يقول « هذا جناه أبى على » . لشدما عانت تلك النفوس العظيمة من اليأس ، إذ كانت ترى فى التناسل جريمة شنعاء ووزراً بليغاً .

قال أحد جبابرة ملوك الرومان : وددت لو أن للناس جسماً واحداً فأقطع رقبتة بضربة واحدة من سيفى . فما أشبه ودادته بودادة أبى نواس ، فإن كليهما يود فناء العالم ، ولكن الأول يخرج من ودادته سليم الأنف ، لا مثل خروج أبى نواس مجدوعها . قلنا إن أصل تهيج اليأس فى نفوس المفكرين الإحساس بدناءة النفوس ، واختلال شؤون الحياة . ولكن أصل اليأس فى

أكثر الأحياء ، وقوع الحوادث بما يزعج النفس المطمئنة. فإذا لم تكن لها إرادة عظيمة تأسر بها عواطفها ، غلبها اليأس . ولليأس أصل آخر يرجع إلى ضعف في همة المرء ، وتقصيره عن عمل ما تفرضه عليه منزلته في الحياة . فإذا أحس بخذلان قواه ، وما يكون وراء ذلك من الأضرار بسعادته ، تملكه الحزن ودب إليه اليأس من كل جانب .

• أغلاط الحقائق •

كلمة ما سارت فى أذن إلا وخزتها ، غير اذن من عرف أن كل حقيقة ناقصة ، حتى تقرر بأمثالها . ومن أجل ذلك كان فى كل صواب شئ من الخطأ ، وفى كل خطأ شئ من الصواب (قال فيكتور هيجو كل أغلوطه لها جانبان جانب مشرق وهو الخطأ وجانب مظلم وهو الصواب) . وسبب هذا أن الإنسان الفرد ، غير مستقل بذاته . ومن كان هكذا ، كان كل معنى ينتجه ذهنه جزءاً من معنى ، وكل حقيقة يقع عليها جزء من حقيقة . ومن أجل ذلك ، كان كل شئ فى الوجود مرآة لكل شئ وتفسيراً له .

كل رأى فى أول أمره يطرق طروق الضيف الغريب . فمن الناس من يستقبله بالإجلال ، وهو الذى يرغب فى حلاوة الجديد ، ومنهم من يستقبله بالإعراض عنه والخوف منه ، خاشياً أن يكون ضيفه مجرمًا متكرراً . فإذا طال مكث الضيف بيننا لقيناه غير مأخذناه فتعدم إذ عدنا حلاوة الجدة . ذلك الخوف الذى استحوذ علينا من طلعتة ، فإن الضيف يكون قد نبذ من عاداته ما نبغض ، وتلبس بما نحب . وكذلك المعنى إذ طال عليه القدم فارق غرابته بأن يفارق أكثره ... لا شئ أكثر إفساداً لمعنى جديد مثل معنى قديم .

الخطأ يتسرب إلى المعنى الجديد من التناقض ، لأنه إذا أراد امرؤ أن يفهمك شيئاً ، لم تفهم كل ما يريد أن يفهمك . فالتفاهم الكامل لا يوجد بين عقليين متشابهين ، ولكنه يوجد بين عقليين كل منهما هو الآخر . فالتفاهم الكامل من أجل ذلك مستحيل .

كيف يفهم الإنسان ؟ ولم يلق المعنى على اثنين متشابهين فى مقدار ذكائهما فيفهمان فهماً مختلفاً بعض الاختلاف ؟ أما افهم فسببه وقوع ما يعرض عليك على معان كنت قد اجتنيبتها ، أو معان خرجت من توالد المعانى التى كنت قد اجتنيبتها . فإذا تعارف المعارض والمجتبى تعارفًا قليلًا أو كثيرًا ، فهمت المعارض بمقدار ذلك التعارف . فإذا تناكرا كل التناكر ، لم تقدر أن تفهمه . ومن هذا تعرف سبب اختلاف فهم اثنين لمعنى واحد . فإذا شئت أن تضرب مثلاً من الألوان ، فقل إن تعارف المعارض والمجتبى فى ذهن الأول ، مثل تمازج الأصفر والأخضر ، وإن تعارفهما فى ذهن الثانى مثل تمازج الأصفر والأسود . وتستخرج من ذلك ، أن الحقيقة الواحدة ، هى حقائق متشابهة . فالحقيقة الواحدة فى ذهنى ، غيرها فى ذهنك . بل هما حقيقتان متشابهتان . المرء ليس بفاهم كل ما تريد أن تفهمه .

والمعانى التى يخرجها التفكير خارجة بسبب توالد المعانى التى فى ذهن المفكر ، وهى كما علمت ناقصة فيخرج المعنى المولود ناقصاً . والتفكير نوعان : تفكير يقدر المفكر أن يعرف كيف خطأ وسار ، وتفكير لا يقدر المفكر أن يتتبع خطواته . وهذا النوع الثانى هو الذى يدعونه الإلهام . فقد يقول المرء كلمة لا يعرف كل معناها ، غير أن يرى نفسه مدفوعاً إلى قولها . فإذا وقعت فى أذن غيره كانت مفتاح ليه ، وربما خطر فى ذهن أحدنا خاطر لا يعرف كيف خطر ، فيجتهد فى أن ينسأه حتى إذا قرأ فى بعض الكتب وجده مشروحاً . وروى أن بشاراً الشاعر سمع أحد الناس يفسر بيتاً من أبياته فأعجبه تفسيره ، فقال لروايتيه ارو هذا المعنى لهذا البيت فوالله ما عنيته . هذه أشياء بالغة بنا أن نعتقد أن تلك النفس المودعة فى كل فرد هى زى من أزياء روح الوجود ، ومظهر من مظاهرها . ولا يروىك أيها القارئ قائل يقول لو كانت نفوس الأفراد مظاهر من مظاهر روح الوجود ، لكانت كل واحدة أحنى على أختها منها وأحب لها ... أليس فى نفس الإنسان صفات متضادة ، كل واحدة تهم بقتل الأخرى ؟ ... وأضرب مثلاً من أمثال ما روى عن بشار فأقول : إننى نظمت منذ سنين هذين البيتين

ما أشبه الحزن بالسرور وأشبه المكث بالمرور

وما أحوال الحياة إلا كجولة الفكر فى الضمير^(١)

أما شبه الحزن بالسرور فكبير . من أجل أن كليهما ميزان للبقاء ومقياس للعمر . لأن تقسيم الزمن من صنعنا نحن ، نقسمه إلى دقائق وساعات ، وليست الدقائق والساعات إلا ضحكات القلب وعبراته ، فطول الزمن وقصره ، غير موقوف على طلوع الشمس وغروبها . ولكنه موقوف على إحساسنا بالحياة التى تنبض فى عروقنا ، وشعورنا بما يملأ صحيفة العمر من الحزن والسرور . قال إدسون : أنكر ملك من ملوك مصر أية الاسراء قائلاً إن مسافة ما بين أول الاسراء وآخره شاسعة ، والزمن الذى وقع الإسراء فيه قصير ، فأتاه حكيم من قومه ، وقال له إنى جاعل بينك وبين الشك سترًا من الحجة ، قال ما حجتك قال أنت بأناء كبير فأتى به ، فملأه ماء ، وقال للملك: اخلع عمامتك وادخل رأسك فى الماء ، ففعل الملك ذلك ، فحسب أنه غريق تقاذفته الأمواج حتى رمت به على شاطئ قريب ، فجعل يمشى فى تلك الأرض حتى لقيه أناس فاستجداهم فرحموه فى غريته ، وأخذوه وآووه وزوجوه من قومهم فتاة

فلبث معها سنين ، وولدت له أبناء حسان الوجوه ، ثم خرج يمشى على شاطئ البحر فتذكر ما كان في من العز والسلطان ، فأسف على حياته الماضية ، وذكر أن ضياع سلطانه كان من أجل إنكاره آية الإسراء ، فقال : صل لله ركعتين عسى أن يقبل منك التوبة ، ويرجعك إلى ما كنت فيه من جلالة الملك ، فخلع ثيابه ونزل في البحر ليغتسل ويتوضأ . ولكنه لما رفع رأسه ، وجد نفسه في وسط اتباعه وعساكره والحكيم بجانبه والإتاء أمامه ، فسأل الملك أتباعه كم سنة غبت عنكم ، فتعجبوا من قوله وقالوا إنك ما لبثت أن وضعت رأسك في الإتاء حتى رفعتة ، ولم تغب عنا . فنظر الملك إلى الحكيم وقال صدقت هذه أبيض الحجج . وإنما ذكرت هذه القصة لتعرف أن طول الزمن وقصره ، غير موقوف على طلوع الشمس وغروبها .

إن الزمن في عصرنا هذا يعدو عدواً بعد أن كان يمشى برجل عرجاء في العصور الغابرة ، لأن الحركة الحيوية الآن أسرع منها في القرون الغابرة . فإذا تفهمنا الصواب ، علمنا أن يوماً من أيامنا أكبر من يوم من أيام آبائنا ، لأننا نعمل في يومنا ما لم يعمله الأولون في أيامهم . كم خطرة من خطرات النعيم والشقاء تمر علينا لا كما تمر الريح المكسالة ، بل كما يمر السهم يشق الهواء شقاً . وكم خطرة دونها خطرات منتجات خواطر آخر . هذه حياتنا حياة كأنها محمولة من أجل أن نبضاتها سريعة . وإذا شئت أيضاً قلت إن يوماً من أيام آبائنا الأولين أكبر من يوم من أيامنا ، لأننا نعمل أكثر مما كانوا يعملون في يومهم . وكثرة العمل تلهي المرء عن أن يحس طول الوقت . فإذا نظرت إلى هذين الرأيين نظراً صادقاً علمت شبه المكث بالمرور .

لم يخطر بذهني وأنا أكتب هذين البيتين هذه المعاني ، بل كنت أنظمهما ، وفي اللحن معنى أقرب غوراً . وإنما ذكرت هذين البيتين لأقول إن المرء قد يقول قولاً غير فاهم منه إلا جانباً من جوانبه .

ومن دلائل روح الوجود أن المرء قد تتملكه الفكرة في إظهارها الهلاك فيريد أن يغلب نفسه عليها فلا يقدر .

وما معنى النهضات والاضطرابات واندفاع الناس بدافع عنيف من دوافع الآراء والعقائد . هذه الحجج ليست أحلاماً ، ولكنها أيضاً ليست بالتفكير الذي جعله الماديون من إفراز الروح .

كلما قرب المعنى إلى الصواب ، بعد عن أذهان الجمهور . فإذا أردت للمعنى أن يكبر بأن يردده الناس صغر بأن يصير لفظاً ميتاً . فإن في هذا الموت حياته بين الناس . وهذا سبب أن

النظريات والكلمات العامة التى تملأ أفواه الناس أكثرها فاسد ، غليل المعنى وجمهور الناس كالنساء .

فإذا شئت أن ترضى النساء فلا تسمعهن غير ما يردن أن يسمعن . فالحقائق عند العامة ، مثل الدنانير إذا مزج عنصرها الكريم بعنصر غير كريم (كالنحاس) كانت أبقي على الزمن ، منها وهى من الذهب المحض . وكذلك الحقيقة إذا مزجت بشئ من الخطأ كانت أبقي على الزمن ، وإن من المفكرين من يذهله خوفه من الناس عن رأيه حتى يدخل عليه وهو لا يدري من الخطأ ما يجانس بينه وبين أفكارهم ... اثنان قد ينظران إلى الحقيقة من وجهين كل يزعم أن أخاه مخطئ ، وهو مخطئ فى زعمه ، مصيب فى نظره إلى الحقيقة ، من ذلك الوجه فلا غرو إذا وجدت معنيين متضادين ، وكلاهما مصيب راجع . ومثل ذلك أن يقول قائل إن سبب احتقار المرء الحياة ، أن الحزن من ضياع شئ كان ماله ، والخوف من ضياع شئ هو ماله سيان . أى أن الخوف من زوال النعيم ، يفسد النعيم ويذهب به . وقد يناقضه آخر فيقول : إن نعيم الحياة مستجلب من خوف الإنسان من زوال النعيم ، لأن ذلك الخوف يدفعه إلى التذاذ النعيم أكثر من التذاذ إياه لو كان ذلك الخوف من فقدانه غير متملكه . فالأول يقول إن ذلك الخوف يفسد النعيم ، والثانى يقول إنه يزيده ويصلحه . وكلا الرأيين مصيب . وإنما تأثير الخوف يختلف مثل اختلاف طبائع الناس ... إذا تعرفت الصواب علمت أن كل مجادل فى أكثر الأحيان غير فاهم ما يعنيه مجادله ، فيجتهد كل واحد فى أن يبين عن فساد رأى لم يره مناظره . وربما كان صاحب الرأى غير فاهم رأيه فهما كاملا ، وإنى أكاد أقول بأنه يستحيل على المرء أن يفهم رأيه فهماً كاملا ، فإنه ليس بغريب أن يخفى عنه أكثر جوانبه .

فالحقيقة الواحدة ، لها أزياء كثيرة تختلف مثل اختلاف نظر المرء إلى الحياة . أليس فى الناس عابد الخرافات والأوهام وعابد الحاجة والفهم ؛ أليس فى الناس المادى والشاعر عابد الجمال ، أليس فى الناس غير هؤلاء فرق كثيرة ، كل واحدة تنظر إلى الوجود نظرة تصبغ أشعتها صبغة فى النفوس . لا عجب إذا لبست الحقيقة الواحدة من الأزياء المختلفة ما يجعلها حقائق كثيرة ، وإنما ينسج تلك الأزياء أساليب التفهيم والإعراب عما فى النفوس . ومن أسباب اختلاف أزياء الحقيقة أن الإنسان قد يبلغ منتهى الإجابة بأن يضع المعنى فى أسلوب صادق كاذب . ومثل ذلك قول جويتى : إن الإنسان لا يسمع غير ما يفهم . هنا هو الأسلوب الصادق الكاذب . هو فى الحقيقة نوع من أنواع المبالغة . وعلى ذكر المبالغة ، أقول إن أكثر

أمور الحياة مبنى عليها ، ولكنها أنواع بعضها يصلح الحقائق كالذى يعتمد عليه الشاعر فى تفسير الحقائق النائية الغامضة . فوظيفة المبالغة التى يعتمد عليها الشاعر ، مثل وظيفة المنظار المكبر . غير أن المغالاة تلحق بالصواب شيئاً من الخطأ ، وسببها الإلحاح فى الدفاع عن رأى كثر منكروه أو جاهلوه ... خرج جان جاك روسو إلى الحياة فى بيئة كل شئ فيها متكلف، وكان التصنع يجول مجالا عجيباً فى أحوالها . ونسى الناس قوانين الطبيعة وما ينتجه العقل من تفسيرها ، فكانت حياتهم جريمة كبيرة . قال روسو بوجوب الرجوع إلى العقل فيما يسنه من أوامر الطبيعة . قال بوجوب ترك المردول الذى تسنه السلطة ، والخضوع لهذه السلطة ، ولكنه دار بعينه فرأى أناساً بعيدين عن هذه الحقيقة ، وأن صوت المغالاة أقدر على إيقاظهم من صوت الحق ، فكانت المغالاة موقظة لقومه من غفلتهم ، ولكنها كانت مفسدة أكثر مبادئه، غالى روسو فى تقرّظ الطبيعة حتى قال إن كل شئ يخرج منها حميد ، ونسى أن أبائنا الذين كانوا أقرب إليها منا قد ضرهم قريهم منها فى كثير من الأحوال . من أين تأتى المرء تلك الدوافع التى تدفعه إلى الشر ؟ أليس من الطبيعة ؟ .

انظر إلى عيشة الأولين ترها قطعة من الدمأرأيت كيف أن المغالاة تفسد الحق. انظر إلى بودلير الشاعر الفرنسى ترأيه تقيض رأى روسو . ولكنه ، مثل روسو ، من أجل أن المغالاة أفسدت رأيه ، وإذا شئت فقل جعلته حقيقة مغلوطة ، قال بودلير انظر إلى الأطفال الصغار تر فيهم من الأثانية والقسوة والزهو ، وما يثبت أن الطبيعة ليست كما قال جان جاك روسو خالصة من الشوائب . ولكن بلغت ببودلير المبالغة مبلغاً بعيداً ، حتى قال إن كل شئ يصدر من الطبيعة خبيث ، وأنه ينبغى أن نعصى كل أمر أو نصيحة لها . زعم أن الطبيعة قبيحة ، فينبغى أن نحيلها بما تملبه علينا الفنون ، واستشهد فى إثبات قبح الطبيعة ، بأن المرأة من نساء المتوحشين ترى من العار أن تخرج إلى الأسواق غير موشومة الجسم ، وأن أهل المدنية كذلك ، قد اتخذوا من الفنون سلاحاً يحاربون به الطبيعة . وقد نسى بودلير أن ذلك السلاح الذى نحارب به قبح الطبيعة مأخوذ من الطبيعة .

من الحقائق التى هى أغلاط أيضاً نظرية فى علم الحساب وهى أن ثلاثة رجال هم أبدأ ثلاثة رجال . اعطهم عملاً يعملونه ، وسل علماء الاقتصاد ، هل هناك ربح ناتج من اشتراكهم فى العمل ، ومن تفرد كل واحد منهم بفرع من فروع العمل ، فيقول علماء الاقتصاد : نعم هناك ربح فى أن يتقن كل واحد ما يتفرد به من فروع العمل . فثلاثة رجال فى حين انفرادهم

خمسة رجال أو ستة رجال فى حين اشتراكهم فى العمل ، وتفرغ كل منهم لفرع منه . ثم واجه بهذا القول علماء الحساب يقولون لك إن ثلاثة رجال هم أبداً ثلاثة رجال . ثم واجه بهذا القول العلامة راسكن يقل لك إن ثلاثة رجال فى حين اشتراكهم وتفرّد كل واحد منهم بفرع من فروع العمل أقل من رجل واحد ، لأن ما يخسره العامل من ذكائه وملكات عقله بسبب انفراده بفرع واحد من فروع العمل (مثل صنع رأس دبوس) أكثر مما يكسبه المتمول من المال

يقول علماء السياسة بصيانة حقوق الفئة الكبرى من الأمة من غير إضاعة حقوق الفئة الصغرى . ولكن إذا تضادت مصالح الفئة الكبرى ومصالح الفئة الصغرى ، ولم يمكن حفظ مصالح الفئتين فهم يقولون بإضاعة الفئة الصغرى ، حفظاً لحقوق الفئة الكبرى . هذا عدل وهو غير عدل . هذا صواب ، وهو غير صواب . هذا خطأ وهو ليس بخطأ ماذا تقدر أن تقول غير ذلك ؟ .

الذى دفعنى إلى كتابة هذه المقالة أنه يغيطنى ضيق الفكر الذى يبديه كثير من الناس ، فى النظر إلى الحقائق . هم يظنون أن الشئ إذا كان صواباً فليس به شئ من الخطأ ، وسبب ذلك صلابة فى الرأى خارجة من قلة اختبارهم أمور الحياة اختبار المفكر الباحث . ومثل هؤلاء أناس يقولون إن الشئ إذا كان شراً فليس به شئ من الخير ، وإنه إذا كان خيراً فليس به شئ من الشر . لكن أمور الحياة ليست كذلك ، وكما أن السم ، وهو شر جزء من الدواء وهو خير ، كذلك أمور الحياة تمتزج الأضداد فيها ، هذا مفتاح الحياة ، ومن عرف الحياة كان أكبر من الحياة ، فإن عرفانه الحياة يملأ صدره حزمًا وبصيرته صفاء .

المثل الأعلى

كلما بلغ الإنسان مبلغاً من العلم ، زعم أنه وصل إلى الصميم من دائرة العرفان ، حتى إذا تعداه البحث إلى ما هو الصق بالحقيقة منه ، زعم في الثانية ما زعم في الأولى . ولا يزال يأخذ الجديد من الأمر مأخذ الأشرف ، لأنه بما تكون له مهابة في النفس وحلاوة تعلو به عن حقيقة قدره . ولئن تكثرتنا بما انتهينا إليه ، وانتهى إلينا من صنوف العلم وأبوابه ، فلا نزال نخبط منه في طريق عذراء ، ونركب مركباً غير ذلول ، وإنما نعنى ما يرجع منه إلى معنى الحياة وما ينبغي أن تكون عليه .

فاسأل النابغة القدير والحكيم الأديب ، عن مبلغ علمه وما وصل إليه من الحقائق ، ثم اعرضها على غيرها تر أن منها ما يكذب بعضه بعضاً ، فتكاد تحسب أن الحق موصول بضده ومردود إليه ، وأنه يختلف كما تختلف الفرائز ، وتكاد تحسب أن الحق في الشرق غيره في الغرب ، وأنه في الشمال غيره في الجنوب .

انظر إلى مسألة من تلك المسائل التي لأكها البحث ، ثم نبذها على غير جدوى ، اللهم إلا صيحات تتبعها نزعات ، ونزعات ترددها أفواه الباحثين وقلوبهم ، تجد أنها قد مضى عليها الدهر وتوارثتها الأيام ، وتلقفتها العلماء وهم مختلفون في أنحائها ، كما كانوا والزمان على غير هذا الوضع .

ثم دع هذه وانظر إلى أخرى استقر الباحثون في أصولها وأخذوها مأخذ الحقيقة ، وعاشوا بها زماناً حتى كان أناس غيرهم ، فوجدوا فيها من الباطل ما لم يجدوه الأولون .

وانظر إلى أخرى كانت حقاً معظماً عند قوم ، فصارت باطلاً مخذولاً عند آخرين ثم عادت كما كانت في أول أمرها تجد ما يمكن الشك من قلب الباحث ، ويضع أمر هذا الوجود موضع الريبة ، لولا أننا نتهم أنفسنا بالتشيع إلى ما نتبجح به من مذاهب العلم ووسائل العرفان ، ووسائل التهذيب ، لأن الفساد يكمن في خلالها ، ثم يسطو على الرأي فيجعل السقيم صحيحاً والصحيح سقيماً .

وقد أصبح العالم بين الناس من لم ينته إليه من العرفان إلا ما كان نائباً عن النفس ، وما تحتوي من عواطف وآمال وأغراض .

على أننا لو أنصفنا أنفسنا ، لعلمنا أن الإدراك لم يقع على كثير مما نزعّم أننا ندركه ، وأنه موصول بما تملّيه النفس من الآمال والرغائب .

ولو أننا تعرفنا الصواب من حيث ينبغي ذلك لحدنا مغبة البحث بعد هذه الأجيال الطوال، ولكن صرف الناس عن ذلك أنهم أخذوا المادة مأخذ العنصر الأشرف ، فصاروا يتعرفون حالاتها . وسبب ذلك أنهم خرجوا إلى الوجود ، وهم يجهلون فلقت أنظارهم المادة ومناظر أعضائها ، فاختطفت بهجتها النواظر ، واجتذبت القلوب فكانوا كلما بحثوا عن شئ أو نظروا إلى أمر أتبعوا خواطرهم ما وراء ذلك ، من الريح المادى والفائدة التى زعموا أنها كفيلة بتهذيب حياتهم وتنظيمها .

ولكن للبحث طريقاً أشرف غاية ، وهو أن ينظر المفكر إلى ما وراء ذلك من الصلة التى تجعل بينه وبين الخلق الحميد سبباً يكون مصدره النفس . ولا يستقيم ذلك إلا إذا نظرنا نظراً صادقاً فى تاريخ النفس ، وأحوالها وأطوارها وما يصدر عنها من الإحساسات التى قملأ صحيفة العمر أقوالاً وأعمالاً ، ثم نأخذ من هذه ما هو كفيل بتهذيب نظام الحياة .

فمن تلك العواطف التى يجب أن نعرف تأثيرها فى الحياة ونتتفع بذلك ، عاطفة إجلال العظيم الجليل الحسن من أمور الحياة ، التى تكفل تهذيب نظام الحكومة ، ونظام الأهل ونظام الصداقة ، ونظام الحب ، ونظام العلم ونظام العمل وغيرها مما يتشعب منها ويتصل بها .

ونذكر الآن معانى تلك العاطفة وهيئاتها التى تتلبس بها ، ومنازلها من النفس ومآخذها من القلب ، فإن لها من اللباس وهى فى صدر الشاعر ، غير ما لها وهى فى صدر الحكيم لأن كل واحد ينظر إليها ، ومن وراء ذلك شئ يُعَيّن وجهة النظر .

إن حب الحسن الطيب آخذ من قلب الشاعر مأخذاً بليغاً لأن ممتزج بيقينه . والناصفة الحكيم لا يرى اليقين إلا فيما كان مصدره الرغبة فى الحق ، والعالم المذهب لا يرى استقامة إلا بما كان مرجعه إلى توقيير الحميد من الخلق ، والجليل من الأمر . فإذا أخرجنا هذه المعانى من أزيائها ، ازددنا يقيناً فى أن المثل الأعلى جماع تلك المعانى . لأن الحب ، والإجلال والتوقير ، هى المعانى التى تضرها مراتب العبادة . ولكن العظمة والحق والحسن ، أشياء مقرونة فى قرن . فإذا نظرنا إلى الوجود ، علمنا أن كل أجزائه أزياء لتلك القوى الخفية ، التى ملؤها الحق والحسن والعظمة ، والتى لا نشعر بها إلا من حيث اتصالها بالحواس والإحساسات .

بين الأمر الحسن الجليل وبين القلب صلة ، أصلها تلك النعمة التى يحدثها وقوع القلب على ذلك الأمر ، وهذه الصلة تختلف باختلاف العوامل التى تدفع القلب إليه .

وليس تلك الصلة إلا ذلك الشعور الذى يدعونه حباً أو توقيراً أو إجلالاً أو عبادة ، وإنما هذه المعاني مراتب من مراتبه ، تختلف باختلاف العوامل التى تميل بالقلب إلى الأمر الجليل . فإذا كانت الصلة شريفة السبب عالية النسب ، كان ذلك الشعور خليقاً بأن يدعى بما هو أكثر دلالة على الفناء فى شخص المعبود .

ولا تحسب أن مظاهر الروح تختفى فى عصر من العصور ، فلم يكتفها أن ذاعت المذاهب التى تفسر الكون تفسيراً مادياً ، كأنما الكون لعبة فى يد الفلاسفة ، يحلها ويربطها الواحد منهم لابنه ويريه خفاياها ، وسر تركيبها وصنعها . فإن هؤلاء الفلاسفة قد رفعوا شأن المادة ، وبينوا أن لها نظاماً وسمناً وأن العقل البشرى مظهر من مظاهرها ، ونتيجة من نتائجها . وهذا صواب ؛ ولكنه لا ينفى عنها وحدة وروحاً . وقد فاتهم أن العقائد وغيرها من مظاهر الروح التى تغرى المرء بالسمو إلى مراتب المثل الأعلى ، سنة أيضاً من سننها . وأن طموح النفس إلى الجميل والجليل ، وكفاحها فى سبيل ذلك المثل ، مظهر من مظاهر سنة النشوء والرقى . فمن الناس اليوم من يتخذ الاشتراكية عقيدة ، ومنهم من يتخذ التهذيب وتكميل الفرد ديناً . والسبب فى ذلك أن النفس ، لا بد ، أن تبلغ الرضا بما يستنبطه العقل من معانى الحياة وأسبابها ، وإن استعصى ذلك ، ولا بد أن تصيب مخرجاً لها ومجالاً لقواها فى الحياة .

الصيف

هو برء من العشا وشفاء من الكبر^(١)

لكأن نفس المرء تعظم فى الصيف حتى تملأ الفضاء ، وتختفى فى الشتاء اختفاء الأزهار . وكما يخيل للمرء أن سماء الصيف اسمًا وأبعد من سماء الشتاء ، كذلك يخيل له أن سماء نفسه فى الصيف أسمى وأبعد شأواً ، ويخيل له أنه إذا مد يده قبس الحياة من الضياء والنسيم ، ويحس كأنه ينتشى من حرارة الشمس كما ينتشى الزهر منها ، وكأن المرء يعيش أياماً كثيرة بالصبر والاحتمال حتى تتاح له ساعة تحسر له الطبيعة فيها عن جمالها ، وإن من عاش السنين ولم يرو من محاسنها كان كأن لم يعيش .

نرى الأزهار فى الصيف ناعسة كأنما أنامها طرف الشمس باقتدار لحظاته . إن محاسن الطبيعة تسحر النفس حتى تتضاءل بلاغة الرائي ، وحتى يعرف من نفسه العى والعجز ، فإنها تبيع من جمالها ما يبيع الوارث المسرف من ماله ، وما تبيع الخليفة من محاسنها ، فيحس المرء لذة فى رؤية أشعة الشمس نائمة منطرحه على الأرض ، كلذته فى رؤية الحسناء المنطرحه على فراشها . ويشم النسيم كأن النسيم يحمل نفحات أشعة الشمس المذهبة ، وكأن الشمس زهرة تبيحه عطرها وكأنما حفيف الفصون ذكرى الماضى ، أو كأنما هو صوت ينادى المرء من عالم آخر أو هامس يهمس فى أعماق نفسه ، وكأنما تلك الفصون قلب دائم الخفقان .

فى الصيف يحس المرء كأنه طائر يهم بالطيران فيتشبث بالأشجار خشية أن يطير .

هل فى ضمير ذلك الغدير الذى كان لنا زمناً ينبوع الحياة ذكرى الأوجه التى تقاربت على وجهه ، وتحابت ونظرت فيه لترى خيالاتها يقبل بعضها بعضاً ؟ هل فى ضمير ذلك الغدير ذكرى تلك الأوجه والأيام ؟ فكم رأينا عنده أشعة الشمس تنفذ من خلال الأشجار كأنها فراش على وجه الغدير ، وكانت تضى كما تضى الذكرى فى ليل النسيان فتجلو وجوه السنين الماضية ، وكأن تغريد العصافير تغريد الأمل فى النفس . وفى بعض الأحيان كانت تغرد العصافير وهى مختبئة فى الأشجار كأنها أقواء الأشجار الصادحة .

(فشدو الطير صوت فم الربيع)^(٢)

١ - من الجزء الرابع للمؤلف من قصيدة (حديقة الصيف) .

٢ - من شعر المؤلف .

إن اعظم لذة يقتبسها المرء من الأزهار والغدران والنسيم ، هي لذة الأحلام . فيحلم بحياة سعيدة كحياة الأزهار ، حياة يشم منها نفحة الزهر ، ويسمع منها تغريد العصفير ، ويرى منها أشعة الشمس . والأزهار هي عيون الطبيعة يذوب أمامها روح الرائي ، كما يذويه سحر عيون الغيد . وإنما يشجونا الصيف لأن أنفاسه مثل أنفاس العاشق . أما الحريف فإنه يبعث إلى التفكير لأن أزهاره تتناثر كما تتناثر لذاتنا البائدة ، وأيامنا الخالية وأحبابنا الذين طوحت بهم عواصف الأقدار .

فى الصيف أحسب الشمس بابًا يلج المرء منه إلى الفردوس ، وأحسب الروض ثغرة يطل المرء منها على الخلد . وأرى الماء فى الغدير فأحسبه ماء الحياة الذى أسمع عنه فى قصص العجائز ، وكأن الخلد فى جرعة منه ، وكأنما الضوء تبر منشور أو غدران صافية الأديم . والضوء شعر الطبيعة ، موقعه من البصر ، موقع الألحان من القلب . ويعجبني سطوع الشمس على الوجه الجميل ، لأنه يذكرني سطوعها على الفاكهة والزهر .

فى الصيف يخيل للمرء أن للدهر صوتًا وفمًا ، وأن لكل شئ منطقًا وكأنما روحه قد ألهمت لغات الكائنات .

الصيف حلم جميل من أحلام الطبيعة . تحسب فى الصيف أن صانعًا صبغ الوجود صبغة جديدة ، فتلمس الزهر ثم تنظر فى يدك لترى أثر طلاء لونه الجديد . ويخيل لك فى الصيف أن الروح بركة صافية ، تنطبع فيها صور الحياة كما تنطبع صور الروض فى غدرانها . وأن ألوان الصيف كؤوس مثل كؤوس الرحيق ، ينتشى المرء منها كما ينتشى من الخمر المعتقة . أما فى الشتاء فإن جفاء الطبيعة وجيع مثل جفاء الأحباب . والجمال ضياء السعادة وزهرها ، فإنه ينسى المرء الشقاء والشر ، حتى يحسبهما حلمًا من أحلام النوم ، فيكاد لا يرى للشقاء والشر سبيلًا إلى هذه الطبيعة التى يبصر جمالها ، كأنما هى منى النفس التى تتشدها .

وإن المرء لينظر إلى محاسن الطبيعة فى الصيف ، كأنه نقل إلى عالم مسحور كان يحلم بمحاسنه . فالصيف هو شهوات السمع والبصر ، بل هو شهوات النفس والحس ، تصفى الأذن فيه إلى شدة الطيور قبل أن تتغنى ، وتتطلع العين إلى الزهر قبل أن تراه ، وينشق الأنف نفحاته قبل أن يحملها النسيم إليه تلك النفحات التى تكاد تصبغ النسيم بلون الزهر ، وتكاد كل نفحة تكون زهرة تلمسها اليد . وكما أن السماء ترتسم على صفحة البحر ، كذلك تريق

السماء لونها على الزهر . فإذا كانت السماء مشمسة كان الزهر مثلها ، وإذا كانت داجية كان داجياً ، وإذا كانت مقمرة كان الزهر مقمراً .

تفلت النفس من رق مشاغل الحياة كي تلتذ الصيف ، فهي كالعصفور الذى يفلت من يد الصبى الذى يعذبه ، فلا يفلت من الخيط الذى قيده به ، فإذا طار وقع على قرب ، فلا يلتذ أنه طليق ويخشى في كل طرفة أن يأسره معذبه فأه لو كانت الحياة فرحة وعرساً أو حلمًا لذيذاً من أحلام الصيف والسعادة . ولكن مشاغل الحياة ، لها فى عنق النفس قيد من خيوطها ، مثل خيط الطفل فى عنق الطائر .

ويخيل لك فى الصيف أن عصافيره المغردة ، خارجة من صدرك ، وأنها أشجانك وأمانى نفسك ، ويخيل لك أنك ترى فى أنغام الطيور شيئاً من السماء والماء والأزهار ونفحاتها ، والرياح ونسماتها ، والشمس وأشعتها . وكأن سمو الطيور موقظ فى نفسك الرغبة فى السمو، فتود النفس لو تسمو كالطيور حتى تسامر النجوم ، التى هى طيور السما ، ثم تتعدها إلى ما وراءها وتظل النفس تسمو إلى الأبد .

جنة الأدباء

كنت يوماً أقرأ رسالة الغفران التى صنفها المعرى ، فجلبت لى النوم قراءتها ، فرأيت فى الحلم جنة مثل الجنة التى يصفها ، وفيها الأدباء والشعراء .

رأيت أديباً لا أعرفه ، يتلو على طلابه درساً فى خيال الشاعر ، وسنن الطبيعة ، فسمعتة يقول : إن التماس معرفة سنن الطبيعة يكسب الشاعر دقة فى التمييز ، ويجلب له حسن الذوق فى اختيار المعانى ، والتفريق بين الخيال السقيم والخيال الصحيح . وهو أيضاً ينمى صحة المنطق فى أشعاره ، ويكون باعثاً لأن يخفض الشاعر من غلواء المغالاة بأن يعلمه جلالة البساطة ، فإن مظاهر الطبيعة تفتح للشاعر باباً من الخيال يغنيه عن تطلب تلك الأوهام التى تسلك فى باب المغالاة ، والتماس معرفة سنن الطبيعة ، ينمى عاطفة تقديس مظاهر الوجود ، وذلك يفيض على القلب طهارة ويجعل فى الروح سعة ، لأن تفهم أسرار الحياة ومعانيها . وهو أيضاً يزيد خيال الشاعر صحة ، فيكون سموه مثل سمو النسرين ، ولكنه إذا رمى الأرض بلحاظه أصابها بها فهو بعيد السمو ، بعيد النظر . فيجمع الشاعر الذى يلتبس عرفان سنن الطبيعة ، بين سعة الخيال وصحة المعنى ويكون خياله مكتسباً من صدق النظرة ، لا مثل خيال معالج المغالاة فإن خيال هذا مكتسب من كذب النظرة . أليست المغالاة نظرة كاذبة . ولكنه لا يسلك فى باب المغالاة المذمومة ما يقوله الشاعر عن لسان من بدهه خطب أو كثره حزن ، أو ما يقوله أيضاً عن لسان عامى النفس ، فإن هؤلاء يلجئون إلى المغالاة بحكم الطبيعة للتعبير عن عواطفهم وآرائهم .

ثم أبصرت أبا زيد السروجى ، يلقى درساً فى المترادف . ويقول كلما عظم التفكير بين الأدباء ، قل المترادف . والسبب فى ذلك أن كل مترادف يأخذ معنى لم يكن له قبل ، لأن ذلك من دواعى التدقيق فى البحث وراء التشابه والمتناكر من المعانى . وخير للمترادف أن يسد حاجة من حاجات التفكير ، بدل أن يعيش مقبوراً فى كتب اللغة ، وسيكون للمترادف نفع جليل ، فيجد ما كان غير محدود من المعانى ، ويلبس المعانى الجديدة ثياباً جديدة ويزيل ذلك الإبهام ، الذى يجعل المتناكر من المعانى متشابهاً ، والمتغاير متعارفاً ويعوق الأديب عن التفكير الصحيح .

ثم أبصرت صديقاً من الأدباء المعروفين أعهد فيه الشذوذ ، يلتقى على الطلاب درساً فى فلسفة الشذوذ . فسمعتة يقول :

الشذوذ عنوان العبقرية ، ودليل على سعة فى الروح ، فإن ضيق الروح لا يرى الصواب إلا فيما تسنه العادات . ولكن واسع الروح يرى أن الصواب كثير المنازل ، ويعرف من منازلها ما لا يعرف قتيل العادات . والشذوذ أيضاً دليل على شجاعة المرء ، فإن الجبان يخشى أن يرتاد مظان الشذوذ جيناً ، فلو أنه كان عزيز النفس لرأى أن فى بعض الشذوذ خلاصاً من الضعة ، وانتصاراً لجلالة النفس والضمير الحر ، فإذا رأيت أمة ذليلة كثر بينها أهل الشذوذ الذين يجروون ، ويقدمون الذين لا يبينون جلالة النفس بالخفض والجاء ، الذين ينصرون ضمايرهم بإعزاز أنفسهم الذين يعرفون أن العادات مظاهر الحق والباطل ، ولباس الصدق والكذب ، الذين لا يخشون الداء والفقر ، والجوع والسب والاحتقار والخمول فى نصرة الحق ، إذا رأيت أمة ذليلة كثر بينها هؤلاء فاعلم أنها أمة عزيزة .

ثم أخرج من ثيابه رغيلاً فجعل يأكله ، فكدت أبكى فرحاً من جرأة هذا الجريء ، ثم قلت له أصبح أنك تحتقر الحياء ، فقال إنى أريد أن أرفع عن النفوس حجاباً من الحياء الكاذب ، فأجلوها مكشوفة الجسم ولكنى أجلوها فى زى طفل صغير . والطفل إذا كشف جسمه ملأنا ضحكاً ولم يملأنا غضباً ، ثم رفع يديه وقال أيتها الآذان العفيفة إنى لا أتلو عليك غير ما يحدثك به ذلك الهاتف الذى يهتف من أعماق الروح ، فإذا أبت لك اللجاجة أن تنزلنى منزلة الطبيب الذى يصلح سقم المريض فيعطيه من الصحة والعافية ، ويأخذ من دراهمه فانزلينى منزلة الطبيب الذى يأخذ من صحة المريض ويعطيه أجره إتلاف جثته . أليس هو خيراً من ذلك الطبيب ، الذى يتقاضى المريض أجره إتلاف جسمه وجعله رمة بالية .

فتركته وجعلت أمشى حتى رأيت فلاناً الشاعر يلتقى على تلاميذه درساً فى مستقبل الشعر ، فسمعتة يقول : الشعر عند كثيرين من شعراء اليوم مثل إناء حلية يضعونه فى بيوتهم زينة لها ، أو كفاكهة الجص التى ليس لها نفع ولكنه عند العبقرين إناء متفعة يستعملونه فى الحوائج . أليس إناء الحاجة خيراً من إناء الحلية ، وسكت قليلاً ، ثم قال : ألم تسمع فى قصص العجائز أن ساحراً أسر فتاة حسناً وجبسها فى قصره وأعطاه مفاتيحه ، ولكنه حرم عليها أن تقرب غرفة من غرفه وأنها ترقبت غيابها حتى إذا غاب عن القصر ، فتحت تلك الغرفة فرأت فيها من بنات الملوك عدداً كبيراً ، وكان قد أحبهن ذلك الساحر

فأسرهن واحدة فواحدة ، ولما ملهن سحرهن وجعلهن فى الغرفة ، فعلمت الفتاة أنها لا محالة سائرة إلى حيث سرن ... إلى آخر هذه القصة ... إنه ليجول فى خاطرى أن تلك الفتاة هى الشعر فى هذا العصر ، وأن ذلك الساحر هو غول التقليد والعجز والجبن الذى حرم على الشعراء أن يقربوا المعانى الكريمة التى سحرها وجبسها . انظر إلى الشعراء كيف يبغضون كل من كان حر الذهن حر الرأى ، فإذا سلك بينهم طريقاً عذراء ، قالوا ما هو إلا خابط ليل قد أضل طريقه ، قلت صدقت قال ولكن الشعر حر يأبى أن لا يرى جوانب الحياة ، وينظر فى تلك الغرفة المحرمة ليرى ما بها من المعانى الكريمة الأبتكار .

ثم مررت بالسيد عصفور يلقى على سامعيه درساً فى فن الغناء فسمعته يذكر للغناء تعريفاً بليفاً ، كان بودى أن أذكره ، ولكن منع من ذلك أنه يقال ولا يكتب ، لأن كله صياح .

ثم رأيت على قرب ، تمائيل عارية ، فقريت من بعضها ، وكان تمثال عطارى فقلت له : ما تستحى أن تخرج إلى الناس عارى الجسم ، فقال على رسلك . أما والله لقد كدتم تنسون أن الإنسان خلق عرياناً ، وصرتم تعيشون فى ثيابكم ، بدل أن تعيشوا فى أنفسكم . ولم يبق بينكم غير هذه التماثيل توقظكم رؤيتها من غفلة المدنية ، وذل العادة وتخرج من قلبكم ذلك الجبن ، الذى مكته الجهل منها ، فكيف تستحون من رؤية أجسامكم وأنتم لا تستحون من مواجهة الرذائل ؟ فقلت : أعوذ بالله هذه بقية من بقايا الوثنية . فقال : يا قتلى المظاهر وأهل الرياء ، إنما الحياء هو إباء المرء أن يعاقر الرذيلة . وأما ذلك الحياء الذى يمنع المرء عن التماس ما يفك عنه قيود العادة ، فهو مثل الحمرة التى تصبغ بها الهلوك وجهها لتخفى ما بقى من الحياء الصادق . وكان تمثال الزهرة قريباً منا ، فلما سمعت حديثنا قالت : ليس الجمال ضعفاً ، ولكنه قوة للأمم تزيدها رغبة فى الحياة ، فتلتبس أسبابها وتستفز قواها رغبة فى التمتع به ، وإنما الضعف يتسرب إلى الأمم من رغبتها عن بعض أنواع الجمال . وليس التعلق بجمال الأجسام وجمال الفنون عائقاً عن الرغبة فى جمال الخلق ، وجمال العلم ، وجمال القوة ، فإن أنواع الجمال مثل أصابع اليد يعين بعضها بعضاً ، وليس جمال المادة وجمال أشكالها بمخفوض الشأن إذا عد أنواع الجمال ، فلولا جمالها لكانت الحياة حملاً ثقيلاً ، فالجمال أجل نعمة أنزلها الله على الناس ، ثم إن بين جمال الخلق وجمال الجسم صلة ، والدليل على ذلك أن رؤية الجمال تهيج فى القلب عواطف الرحمة والكرم والرفق .

إن لذتنا فى الجمال تفك عنا أغلال العادة لنعيش معها . فلذة الجمال هى نشوة الحرية ، ولكن جلال الجمال صحو من تلك النشوة . ثم تضاحكت وقالت هيهات أن تأخذوا من الفكر

الحر ولو أفقتم من غفلة العجز لعلمتم أن أغلاط كتاب الشرق التى سببها التقليد والجهل .
كانت تقول ذلك وهى تسخر فغضبت ورفعت هراوتى لأضربها بها فانتبهت من النوم فزعاً من
أجل ألم شديد فى قدمى اليمنى فعلمت أنى ضربت بها الحائط وأنها كانت هراوتى التى
رفعتها فى الحلم لأضرب بها الزهرة ربة الجمال .

قتلى المظاهر

قال المتنبي :

خير الطيور على القصور وشرها يأوى الخراب ويسكن الناووسا
وكذلك الصفات ، أحسنها ما كان حلية النفس العظيمة ، وأقبحها ما تخلقت به النفس
الضئيلة . وكما أن الظلام مأوى الذنوب ، كذلك النفس الضئيلة مأوى المظاهر ، لأنها وسيلة
العاجز وحيلة الضعيف ، ومن انقطعت دون الفضل أسبابه مت إليها بأسباب أوهى من حبال
الشمس ، وهى خدعة يزيفها الناقد .

بين الفضل الصحيح وذلك الفضل الذى تخلقه المظاهر ، مثل ما بين العين الباصرة ، والعين
المصنوعة من الزجاج ، أو مثل ما بين العروس الحسناء وعروس الحلوى التى تصنع فى المواسم .
إن الدهان الذى تصبغ به العجوز وجهها لا يخفى قبحه ، كذلك المظاهر لا تخفى حقارة النفس .
فاحذر أن يعرف الناس منك رغبتك فى لباس نفسك زياً ليس من أزيائها ، فإن لك إقرار
منك بصغر شأنك وضآلة همّك ، فتصير متهم الفضل محذور القول . إنك إذا لم تكن فاضلاً
فإن عرفانك الفضل فى غيرك ، غاية الفضل . وإذا كنت فاضلاً تنقص من فضلك بأن تزيد
من حلى النفاق والرياء .

لو بُزَّ هذى النفوس عطاؤها لرأيت أقبح ما رآه الناظر

لتضالعت نفس التقى ودونها منع الوقار موارد ومصادر

إن النفاق يسر كل رذيلة شنعاء يبيدها الفوى السادر^(١)

يا عجباً لقتيل المظاهر . هل أبصر أحد بالعمى أم سمع أحد بالصمم أم صلح أحد بالداء ؟
حتى يريد أن يسود بالمظاهر . يا عجباً لمن يعرف أن المظاهر خدعة ، ثم يجد نفسه لها أهلاً .
يا عجباً لمن يفر من النقص إلى المظاهر ، أيفر من النقص إلى النقص ، وهو فى الحالة الأولى
أفضل منه فى الثانية إنى ما رأيت أمة ابتليت بأعظم من المظاهر ، فإنها قيمت القلب وتقتل
الحياء الوازع عن مواقف الرذيلة وتلهى عن تطلب الفضل الصحيح ضناً بالسعى وخشية
العثار .

وإن من قتلى المظاهر الفقير الذى يحتذى الغنى فى أساليب معيشته ، والغنى الذى يحتذى الفقير فى مثل ما يحتذيه الفقير ، وبين هذا وذاك رجل ينفق فى غذاء جسمه مالا ينفقه فى غذاء عقله .

وإن من المناظر التى يبكى منها الضاحك أن ترى الرجل يمشى مجيلاً بصره فى أنحاء لباسه ، كما تحبيل الحسناء فى الحمام طرفها فى أنحاء جسدها العارى ، ثم ينظر فى حذائه وهو يكاد يغسل عنه الغبار بدموعه ، كأنما عرضه فيه فهو يخشى عليه أن يلوث . يمشى ذلك المسكين فرحاً برؤاء لباسه وهو يكاد يأكل أصبعه من الجوع .

أما مثل الفقير المحتذى الغنى ، فمثل الغراب الذى أراد أن يحتذى الطاووس فاستعار ريشه ، فكان ذلك داعياً إلى سخر الطواويس منه ، أو مثل الفراش الذى لا يزال يتهاقت على الضوء حتى يهلك .

ومن قتلى المظاهر ، الرجل الذى ينصح ابنه فيغريه بالفضيلة ، لأنها جالبة تقريظ الناس . ولو عرف هذا الرجل أن نصيحته هذه داعية إلى التلبس بالمظاهر ، وتلمس التقريظ حتى من الرذيلة ، لأشفق على ابنه وقلل من ذكر تقريظ الناس . ومثل هذا الرجل آخر يقول لابنه افعل هذا لأنه يقربك من رضى ، واجتنب هذا فإنه يدينك من غضبى ، فيحسب الغلام أن الشئ شر لأنه يغضب أباه أو خير لأنه يرضيه ، فإذا غفل أبوه أو مات وراودت الغلام نفسه ، أن يأتى شراً لم يعتصم منها .

ومن الذين استعبدتهم المظاهر ، الرجل الذى يعلق بطرف لسانه شيئاً من الحكم السائرة ، ثم يبتغى المجالس وهو لا يعرف أهلها فيطلق عليهم من حكمه ، ما ينفخ أوداجه من ثنائهم عليه . وإنما مثل هذا الطفيلى مثل أم العروس الحسناء إذا كمنت تحت سرير بنتها ليلة الزفاف . ولو لم يكن فى ذلك التقصى إلا أنه عدو الحياء ، لكفى ، فكيف به وهو دناة ولؤم .

ومن ينتظم فى هذا السلك ، الرجل الذى آتاه الله بسطة فى العلم أو فى المال فأبغض الإنسان . ولو كان مثل جوناثان سوفت يبغض فرداً ويحب نوعاً لرحمناه ، والبغض مظهر من مظاهر حب الذات . وخير البغض ما كان حباً معكوساً ، وخير المبغضين من أبغض الرذيلة حباً فى الفضيلة . وفى مثل ما نعى قال العلامة صمويل جونسون : إننى أحب الرجل الذى يجيد البغض . وكما أن النحلة لا تضع الحرير ، والدودة لا تمج العسل ، والماء لا يقدح شرراً ، والنار لا ترشح ماء ، كذلك ، ليس من طبع العظيم أن يبغض . فإنه واجد صلة بينه وبين كل

شئ ، لأنه حلقة من حلقات سلسلة الوجود ، بل هو المنزلة التي يهبط إليها السامى ، ويعلو إليها الوضع ، هو أخو الطفل والغلام واليافع والرجل والشيخ ، وهو صاحب التقى ، والفاجر ، واللص والورع ، وهو الذى لا يأنف من أن يحنو على المسئ ويرحم المخطئ .

وليس مدعى الفقر فى باب المظاهر بأحق من مدعى الغنى ، ولا مدعى الفضل بشر من مدعى النقص ، ولا محب الحمول بخير من محب الشهرة ، وإن من قتلى المظاهر ، من جعل مهنته فتق لحيلة لاجتلاب الشهرة ، ولو علم ذلك الأبله أن الأجراس التى توضع على صدور المعز لا تزيد فى ألبانها ، لما حسب أن الشهرة جالبة للفضل .

ومن يلج هذا الباب ، باب المظاهر ، الرجل الذى إذا حدثك ذم نقبصة من النقائص ، كى يلفتك عما فى نفسه منها ، وإنما مثل هذا الأحمق ، كمثل أخيه الذى يرى فى ثوبه قطعة ملوثة فيغسلها فى المداد ، كى تخفى فيكون ذلك داعية لإظهارها كما يكون التصنع فى كتم السر داعية لإظهاره .

عصور الانتقال

سبيل الإنسان فى الحياة ، مثل سبيل الغلام الصغير إلى المدرسة ، تعترضه فيه الهواجس فيحيد عنه إلى الحارات ويضيع وقته فى اللعب .

وكذلك الإنسان ، قد يحيد عن الغرض الذى خلق ليسعى إليه فى الحياة ، ثم يضيع الحياة عبثاً . وسواء كان الغرض من الحياة جليلاً أو حقيراً ، فلا بد للأفراد والجماعات أن تشعر فى الحياة بغرض تسعى إليه ، وقد تكون حياة الأفراد والجماعات ، مثل نهر من الماء تعترضه تيارات متضادة من الميول والآراء والمذاهب المختلفة . من أجل ذلك يضطرب سطحه ، ويصعب على الأفراد والجماعات فى مثل هذه الحال ، أن تعيش حياة سعيدة . وكما أن الإنسان قد يودى به سعيه إلى طريق مسدود لا منفذ له . فيضطر أن يرجع إلى طريق آخر كى يصل إلى المكان المقصود ، كذلك الإنسان فى الحياة ، وكذلك الأمم والشعوب والجماعات ، قد يودى بها سعيها إلى طريق مسدود من طرق الحياة فتضطر أن نسلك طريقاً آخر يودى بها إلى الغاية التى تقصدها من النجاح والقوة .

وإذا كانت أمة فى عصر انتقال وتغير ، كانت حياتها مثل نهر تعترضه تيارات كثيرة متضادة ، فحينئذ تكون حياتها الاجتماعية والفكرية مضطربة متماوجة ، فيقع المفكرون من أفرادها فى حيرة وارتباك ، وفى مثل هذه الحال يصعب عليهم أن يحكموا حكماً صادقاً على الحقائق ، كما أنه يصعب على من كان فى وسط الزحام ، أن يحكم حكماً صادقاً عما يحدث فى ذلك الزحام من الشجار والللطام والخصام ، فإذا أراد أن يحكم حكماً صادقاً ينبغى له أن يتعد عن الزحام لكى يراه رؤية تامة صحيحة. فنحن نظن أن الحركة الفكرية فى حياتنا سريعة ولكنها فى الحقيقة أبطأ من السلحفاة ، فينبغى لكل منا أن يحرك هذا التفكير الحيوى بما يستطيع .

تمر العصور والقرون على الأمم والجماعات ، كما تمر الأيام والسنون على الأفراد ، ولكن لحوادثها قيوداً تقيد بها تلك الأمم والجماعات ، كما تقيد بها الأفراد . وإن المرء ليحاول أن يفلت من قيود الحوادث الماضية ، كما يحاول الطائر أن يفلت من حبال الصياد . وكذلك الأمم تحاول أن تتخلص من قيود الحوادث الماضية والقرون الغابرة ، ولكن ذلك لا يكون إلا إذا

صادفها من العوامل ما يحرك قواها الكامنة ، فتستخدم تلك القوى كى تصدع عنها قيود الحوادث الماضية . وهذه القوى تختلف مصادرها من أمل أو غضب أو يأس ، فإن لليأس فى بعض الأحيان قوة مثل قوة الأمل .

ونحن من الأمم التى تشغل أعناقها أغلال الحوادث الماضية وقيودها ، فإن القرون الغابرة وما أبقت فى حياتنا من الأثر ؛ مثل ضعف العزيمة والطيش والتقلب والسأم والجهل وضآلة النفوس ، والجبن والتوكل إلا على عزائمنا والاعتماد إلا على أنفسنا ، كل ذلك مثل حمل ثقيل لا ننهض به ، يثقلنا ويكاد يفقدنا بواقى حياتنا ، فكأن هذه الحياة التى نعالجها نوم مضطرب غير هادئ ، وكأن حمل الحوادث الماضية ، وما أبقت من الأثر السيئ الكابوس الذى يضغط على صدر النائم ، وليست هذه الحركة التى فى حياتنا غير حركة النائم الذى أثقله الكابوس ، يتقلب ويتلوى من الألم . فهل رأيت أحداً حسب ذلك التقلب والتلوى نشاطاً وهمة ونهوضاً . نعم إن الكابوس لا يزال بالنائم حتى يوقظه . وكذلك الأمة من الأمم فى عصر التغير والانتقال ، تكون كأنها تحلم بالعصور المظلمة السوداء الهائلة التى مرت عليها ، فيورثه الحلم كابوساً فما يزال يتلوى ويتقلب من ألم الذكرى ، حتى يوقظه التلوى والتقلب ، وكذلك الأمم ولكن الأيام السوداء أيام التعاسة والشقاء ، تبقى فى نفس المرء أثراً تمحوه عوامل الرخاء شيئاً فشيئاً ، ولكنه لا يمحي كله بل يبقى فى النفس شئ منه ما بقيت النفس ، وكذلك يبقى فى الأمم ما بقيت الأمم ، أثر من القرون الماضية ولكن العوامل والمنازع والرغائب والآراء الجديدة تجدد قوى الأفراد ، كما تجدد قوى الأمم وتقلل من ذلك الأثر الذى أبقتة القرون الماضية والذي يعوق الأمم عن منازل الرقى والقوة . وهذا الأثر الذى تبقيه القرون الماضية له مصادر كثيرة فهو ناتج من مرور عصور مظلمة على أمة من الأمم بالذل والتعاسة والضعة ، فإن الذل والضعة ينحطان فى العزائم ويمحوان الاعتماد على النفس ويورثان النفس ضآلة والذهن جهلاً ويمحوان الفضائل الشخصية التى تؤهل الأفراد والأمم للنجاح فى الحياة .

وهذا الأثر السيئ قد يكون سببه فساد الأنظمة القديمة ، فإن الأنظمة تفسد الأيام والسنون صحتها ، كما تفسد الأيام صحة المرء وشبابه . فينبغى للأمم أن تنهياً لقبول الأنظمة والآراء والمنازع والرغائب والآمال الجديدة ، وأن لا تياس من فساد الأنظمة والآراء والرغائب القديمة ، لأن حياة الأمم مثل الماء إذا ركد ولم يحركه ويجدده تيار جديد من الماء عطن وفسد ، ولكن من أين تأتى النفوس الضعيفة تلك العوامل والدوافع التى تدفعها للتعلق بالمنازع والآراء والأنظمة الجديدة التى تجدد حياتها ؟ .

إن النفوس مهما كانت ضعيفة لـ، ها أعماق لم يصل إليها باحث ، ولم يبلغها مفكر . وكما أن البحر العميق تنظر إليه فتحسب أنه خلو من الحياة والأحياء وهو ملآن بها ، كذلك النفس تنظر إليها فتحسب أنها خالية من عوامل الحياة وهى ملأى بها . غير أن للنفس قوى تبقى ساكنة راكدة ، حتى يحركها محرك من العوامل الأخرى النفسية ، أو من عوامل هذا الوجود ودوافعه . فكما أن الرياح تهب قوى البحر وأمواجه . كذلك للحوادث رياح تهب قوى النفس إلا أن بعض الأمم مثل بعض الأفراد ، لا تصادف تلك الدوافع التى تهب ما كمن من قواها . نعم إن هذه الأنظمة والآراء والمنازع الجديدة ، قد تغير حياة الأمة كل التغيير حتى تصير كأنها أمة أخرى . ولكن خير للأمة أن تحيا حياة ثانية ، وأن تتغير أحوالها من أن تنعدم وتفنى . وإذا نظرت إلى التاريخ ، وجدت أن تلك الأمم التى فسدت أنظمتها القديمة ، ومرت عليها عصور مظلمة بالتعاسة والذل والضعة ، يأتى عليها عصر تكون فيه بين عوامل التجدد والحياة ، فلا تخشى من التغيير وعوامل المحافظة على القديم ، فتجبن عن الجديد وتحجم عن أن تجدد حياتها باقتباس المنازع والرغائب والآراء الجديدة . فإما أن تحيا حياة ثانية وإما أن تنعدم وتفنى فى شخصية غيرها من الأمم .

على ظهر البحر

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء^(١)

وقمشت على الأذى مشية الثمل من نشوة الرجاء لا من نشوة الصهباء

فكانها وهى تناهض البحر ، والبحر يناجزها طالب يناهض صعاب الأمور أو كأنها الزاهد فى نفوره ووحشته وسكونه وعزلته ، أو كأنها الأمل إذا عبّ اليأس وطفى أو كأنها الفرضات العذاب تحوطها الخيبة والهزيمة ، أو كأنها السعى بالغاً بالمرء رغبته ، أو كأنها المحب هائماً على وجهه ، سالكاً طريقاً عذراء ، أو كأنها الفكر فى سفرته فإن للفكر سفره مثل سفرة الفلك.

قمشت السفينة فتمشت فى الصدور القلوب ، وتحركت لمشيتهما الذكرى فى الخاطر الحرب وجعلنا نرمي المرفأً بلحظات كلها حشرات وزفرات ، كلها آيات بينات تتم عن ود صحيح وحب رجيح . تلك الزفرات مفاتيح القلوب ، وتلك اللحظات حبات القلوب ، وكأنى وأنا على ظهرها قارئ طوى كتاباً وفتح كتاباً ، وبين هذا وذاك مجال للتفكير فيما قرأ قبل استئناف القراءة ، فجعلت أنشر صحف ما مضى من حياتى ، فكأنى مفيق من حلم لذيد ساء أن مضى وسره أن لا يزال يذكره فينعم بالذكرى ويشقى بها ، لأن فيها رجعة النعيم المسلوب وحسرة على فواته . وبعد أن خلبنا من الذكرى سلوتها ونعيمها ، بعثنا بالفكر واتخذنا منه دليلاً على ما سيكون . ولو لحظت حياتك بنظر صادق ، علمت أن ما كان وما هو كائن وما سيكون ، مثل الحب والزرع والمحصول ثلاثة فى واحد ، وواحد فى ثلاثة ، ينثر الزارع الحب فيخرج الزرع خروج الجنين من بطن أمه ، فإذا طاب عاد حصيداً .

أيها البحر ليتنى موجه من أمواجك ، أهيم كما أشاء ، غير مسجون الفضيلة والفؤاد واليد واللسان . إنى أرى الموجة تتسرب فى خلال الموجه ، والريح تعانق الريح ، والضياء يغازل الماء . والسماء تلاحظ البحر لحظات تسكن فى قلبه كأنها لحظات الحبيب فى خاطر المحب ، فتترى فى السماء نجومًا وفى البحر نجومًا . أيها البحر قد علمتنى معنى الحب والبغض والغضب ، أيها البحر أنا منك وأنت منى ، فإنك مشبوب العواطف وأنا مشبوبها ، فكن على

رفيقاً كما يرفق القرين بالقرين . إنى لأنظر إليك فأرى لكل هائجة جناحاتهم به إلى السماء ،
وكان الأمواج جيشاً وغى ، هازم ومنهم ، وكأننا من البحر على ظهر فرس جموح ، وقد خانتنا
اللجم فصارت تطفئ وتدفع بنا كل مدفع .

ثم ارتفعت الشمس وكشف الظلام عن منظر بهج كأنه قطعة من الفردوس فجعلنا نتساءل
أى ملك كريم حدا بنا إلى هذا النعيم ، رأينا وما أروع ما رأينا ، حسنات وجنات ومنظرها هو
فى العين بهجة ، وفى القلب شجو . هنا يهب المرء نفسه للماء والهواء . هنا يهبط الشعر
وتنزل الحكمة . هنا تولد النعمات وتحيا الأشجان وتجري العبرات ، ويجهد القلب بالخفقان .
أيتها السحب ما أهيمنى إلى نواحيك ، وأنت أيتها الأمواج ما أشوقنى إلى حياة مثل
حياتك.

هنا يهبط الفكر والخشوع ، وتعظم النفس حتى تصير كالسما أعاليها وكالبحر أسافلها ،
وكالأفق غايتها . والأفق كلما قاربت باعدك ، وكذلك غاية النفس .

هنا يحس الرائي كأنه يحمل فى نفسه بحراً من الآمال والأشجان ، وكان البحر قلب أمواجه
نبضاته ورياحه خطراته ، أو كأنه مخلوق كبير تارة يروعك بزئيره وتارة يشجيك بخريه ،
وخريه البحر ذكرى سنية الماضية فكأن خريه هاتف يهتف فى أعماق نفسه ، وكان المرء إذا
امتطى البحر امتطى منه مطية الخلد ، فالبحر كالنفس فإن للبحر أمواجاً ، وللنفس أشجان .
والبحر كالدهر ، فإن للدهر أمواجاً مثل أمواج البحر . والبحر كالحياة فإن البحر يفرع كما
تفرع الحياة . ولكن قلب المرء يحس لذة فيما يهيج فى نفسه الخشوع . والفرع من مظاهر
الجلال سواء جلال البحر وجلال الحياة .

وصف البحر

وجاءت بك الأمواج وهى ثوائر ^(١)	تناعت بك الأمواج وهى نوافر
وعزم الشباب الغر وهى بوادر ^(٢)	كان بها عجز المشيب إذا انثنت
وثب وثبة اللهفان حين يكاشر ^(٣)	فى نومه الظل البطئ مسيره
ضمنت وجهل شره متطاير	لنصب حلم خامل البطش هادئ
بليغاً له مما اثرت زواجر	كان لنا من لج مائك واعظا
عساكر حرب قد تلتها عساكر	لمحتك والأمواج فى وثباتها
وتجربى عليك الريح وهى خواطر	فبيننا يريق الضوء فوقك ماء
يرجعه لحن من الماء مائر ^(٤)	ويتلو عليك الصائدون غناءهم
أحاديث قد تاقت لهن الحرائر ^(٥)	ويسمعك الملاح من شجو قلبه
وإذ أنت مقبوح السريرة غادر ^(٦)	إذ الجوجهم والرياح كتائب
تقاذفها مستوفز اللج هامر	ورب سفين يقرع النجم مجدها
ويسعى لها قبر من الماء سائر	يروعها فى كل هوجاء موعدا
وما الرسائل الهوج إلا الهوامر ^(٧)	فليس الغمام الغمر إلا رياحها
بأهدأ من لج فتمته الزواخر ^(٨)	وما ذلك اللج الذى فى سمائها

١ - تناعت : بعدت .

٢ - أى أن الأمواج إذا ابتدوت الشاطئ كان لها بطش الشباب وعزمه وإذا رجعت كان بها عجز المشيب وضعفه .

٣ - اللهفان هو الغضب والمكاشرة المشاجرة والمعاركة .

٤ - مائر : أى سائل .

٥ - تاقت : اشتاق ، والحرائر : النساء المحجبات .

٦ - كتائب جيوش .

٧ - أى أن الغمام فى صولته مثل الرياح والرياح مثل الأمواج .

٨ - فتمته : نسبة إلى نفسها .

إذا ذكر الملاح زوجًا وصبية	طفى سجنُ قى مرجل الصدر فائر ^(١)
ينفس عنه بالغناء وكفه	تقيم على جفن به الدمع حائر
وتذهل عن مهد الوليد فتاته	إذا ما رمتها بالوعيد الزماجر ^(٢)
وما هي إلا دولة طار شأنها	فأوحت إليها (؟) *
وما هي إلا صولة ثمت انجلت	واكبر غرقاها المساعي البوائر ^(٣)

١ - المرجل : القدر ، توضع على النار .

٢ - الزماجر : جمع زمجرة أى صوت الرياح والأمواج الذى يشبه زمجرة الأسد .

* - غير واضحة فى الأصل ولعلها المظاهر .

٣ - البوائر : من بار يبور إذا تلف ، هذه القصيدة من الجزء الثانى من ديوان المؤلف .

(٤)

الصحائف

الطبعة الأولى : مطبعة غرزوزى بالأسكندرية ، ١٩١٨

الحياة الجليلة

ليس هناك صلة بين الكبر وعزة النفس، فإن الكبر سببه غفلة المرء عن حقارة ما يتيه به من مظاهر الحياة ، وأما عزة النفس فسببها عرفان المرء جلالة النفس فالكبر هو غرور المرء بماله أو جاهه أو ثيابه أو أدبه أو علمه ، وأما عزة النفس، فهي صحو من ذلك الغرور. أليس بين الناس من هو ذليل النفس واسع التبه عريض الكبر ؟ إذا فطن المرء لعظم الحياة، رأى أن له رأياً وحقاً في شئون هذا الوجود ، أو كأنه يحمل الوجود على كتفيه، فإذا غفل عن عظم ذلك الحمل وجلالته ، كان مثل البهائم يساق إلى حيث يشاء سائقه ، وإنما سائقه هو ذلك العظيم الذى صحا من نشوة العادة وخلص من رق المظاهر ، والذى لا يبيع عزة نفسه وحرمتها وصحة ضميره بالخفض والجاء، والذى يهزأ بالفقر والجوع. إذا كان الشبع لا ينال إلا بإذلال النفس ، ومن أهان نفسه فقد أهان الناس فيها ، فالعظيم هو الذى يسخر من احتقار الناس إذا كان رضاهم لا يستجلب إلا بأن يقيد نفسه بقيود العادة القبيحة ، وبأن يتزين بتلك المظاهر البيضاء التى كلها رياء ونفاق ، والتى يستر بها الناس سواد نفوسهم والضئيل هو الذى يحسب أن جلالة الحياة فى أن يأكل مريضاً وأن يشرب رويًا ويتحلى ويتزين ويسمى محترماً مؤدباً .

أيها البائعون بالوفر عز ال نفس إن النفوس ذخر جليل

المصريون قوم تعوزهم خشونة فى الحق سببها صدق السريرة، وإقامة من غفلة الحياة فإن مر الأيام يجعل الحياة عادة لا يهمننا صلت أم فسدت ، وإن تلك الظواهر البيضاء الناعمة التى تزلق عن نفس صاحبها كما ينزلق الزيت عن قفا الزيات تغرى المرء بأكاذيب الحياة الحقيرة من غرور وخداع ورياء وكذب تيه .

وهذه المظاهر تنسيه عظم الحياة وتشغله عن التماس القوة فى الخلق والرأى واليد، فإذا فطن المرء إلى عظم النفس التى هى جزء من أجزاء روح الوجود لرأى أن يجعل صحته وراحته فى سبيل إعزازها ضحية فإن المرء يعصى الله ويغضبه بأن يهين نفسه ويحتقرها ولا تنهض الأمم إلا إذا أعزت نفوسها، فكيف تنهض فى مراقى الحياة النبيلة، ونحن نعبد النعيم أكثر من عبادة الجليل ، ونعيش فى ثيابنا وجاهتنا بدل أن نعيش فى نفوسنا.

يا عبّاد المظاهر لقد ألهمتكم عن عظم الحياة حتى صار أكثر الناس يعيش فى آراء الناس، وحتى صار أكثرهم يعيش مقبوراً فى الأحوال التى تحوطه، أو مدفوناً فى ثيابه، وحتى صار أكثرهم يحسب أنه يستخدم قوى عقله، كى يكسب رزقه ويصون جسمه ويحفظ له صحته وهذا زعم فاسد، فإن المرء إذا بلغ من التهذيب مبلغاً، علم أنه يلتمس من الرزق ما يقيم حياته كى يستخدم قوى عقله فهو يعيش ليفكر فالذى يحسبه وسيلة، وهو التفكير، إنما هو الغرض الأقصى، الذى يحسبه غرضاً، وهو الحياة، إنما هو وسيلة الفكر والعمل.

أول فرض كتب على المرء هو أن يحس عظم الحياة وجلالة النفس ولم يكن ذلك الإحساس أول فرض لأنه أكثر جلباً للمنفعة من غيره، ولكنه كان أول فرض لأن فى كل نفس شيئاً من الله، صلاحه فى أن يحس المرء عظم الحياة وجلالة النفس فليس الذى يأتى الخير ويواقع الفضيلة رغبة فيما وراءها من المنفعة، أو رهبة مما يجلبه الشر على فاعله من الأذى بجلبيل النفس مثل الذى يأتى الخير، ويزاول الخلق الحميد إحساساً بعظم النفس، فإن كل نفس لها رأى وحكم نافذ فى شؤون هذه الحياة، فإذا بلغ المرء من التهذيب منزلة يرى فيها أن على نفسه فرضاً نحو الحياة والوجود فرضه عليها عظمها وجلالتها من أجل أنها عضو من أعضاء تلك الروح الخالدة التى هى سر الحياة، وقوة من تلك القوى التى تزجيه إلى منازل الرقى، كان أقرب إلى الله من ذلك المختبل الذى به مس من الجنون، الذى يسهر الليل يردد كلمات لاتغنى عنه شيئاً، كلمات لاتغذى عقله ولا تربى نفسه، ولا تقوى جسمه. والعبادة هى أن يقوى المرء عقله وروحه وجسمه.

يحسب كثير من الناس أن ترديد تلك الكلمات، يقوى فيه عاطفة التقوى، وهو لا يفعل ذلك. و ليست التقوى أن يعف المرء خوفاً وجبناً، بل هى عفاف المرء من أجل عرفان عظم الحياة وجلالة النفس.

الإيمان مزيج من ضدين، الطمأنينة والخوف غير أنه فى روح العظيم أكثره طمأنينه، وفى روح الحقير أكثره خوف. والطمأنينة هى تلك الثقة بالله التى تبعث المرء إلى العمل، والسعى والقلق رغبة فى صلاح الحياة وإحساساً بعظمها، فإذا سأل سائل كيف تجتمع الطمأنينة والقلق، قلت إن الطمأنينة هى أن يثق المرء بالله، وأما ذلك القلق، فهو رغبته فى صلاح شؤون الحياة وطموحه إلى منازل الكمال فيها، وإذا وثق المرء بالله فرغ للاهتمام بأمور الحياة بعد أن كانت قلة وثوقه من الله تدفعه إلى أن يمضى حياته فى تعديد حبات المسابيح.

وليس الطمأنينة أن يكون الضمير نائماً ، ولكنها أن يكون الضمير يقظان هادئاً ... إذا نظرت أيها القارئ إلى عظم هم المسلمين التي بسطت مدنيته بين أسبانيا والصين ، ثم نظرت إلى ضعف عزائمنا وخمود هممنا ، وسألت نفسك عن سبب ذلك ، علمت أن السبب هو إمتلاؤهم من روح الدين ، وأتينا قد مات روح الدين في قلوبنا ، وصرنا نحسب أن مظاهر الدين ، هي روح الدين ، فلو سألت شيخاً من مشايخنا أي الناس أقرب إلى الله ، قال لك هو الذي يسهر الليل يقرأ الأوراد ، ويعد حبات المسابيح ... إلا أن أقرب الناس إلى الله ، أعظمهم إحساساً بعظم الحياة ، وأكثرهم معرفة لجلالة النفس .

إن روح الدين هي قلق المرء رغبة في الكمال ، وهي إياؤه أن يكون قتييل العادات والمظاهر ، وهي أن يثير المرء قوى نفسه وعقله .

أكذب الدين ما ينمى قوى المرء كما يخرس الرياح الركود^(١) .

قوموا بنا نهدم كل عقيدة بنيت على قلة الوثوق من الله ، ونعلى شأن كل عقيدة بنيت على حبه وإجلاله إنك إذا أردت أن تعمل لدينك ، فاعمل ما فيه صلاحك وصلاح الناس في هذه الحياة ، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم (أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) هذه كلمة من الكلمات التي لا تموت أبداً . أنظر إلى قوله (أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) أليس معنى هذا القول أن تعمل ما فيه صلاح الكون وانظر إلى قوله (أعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) أليس معناه أنه ينبغي لك أن لاتزدهيك مظاهر الدنيا ، فتجهل جلالة النفس ، أليست هذه عقيدة العمل والأمل التي رفع الأوربيين اعتقادهم بها وخفضنا ذهولنا عنها ، جاءنا سيدنا محمد عليه السلام ليعلمنا كيف نعبد الله بأن نعبد القوة والحياة والجمال ، لا بأن نعبد المرض والضعف والموت والسل ورضاب المعتوهين . جاءنا رسول الله يعلمنا جلالة النفس وعظم الحياة . جاءنا يعلمنا كيف نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ، ما رأيت روح الدين ظاهرة في كلمة مثل ظهورها في هذه الكلمة (أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) فإن فيها حثاً على الوطنية والحضارة والعمران ، حثاً على القلق ، رغبة في انتصار الجليل على الحقير . حثاً على عبادة القوة ، حثاً على الثقة بالله ، حثاً على معرفة عظم الحياة

(١) من قصيدة الحياة والعبادة في الجزء الثاني من ديوان المؤلف .

حثًا على التخلص من رق العادات التى تقتل جلاله النفس ، أليست هذه الكلمة سر تقدم الأهم ورقياها ، ومعنى الحضارة والعمران ، ثم يقول رسول الله (أعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) أليس فى هذه الكلمة حث على التخلص من رق زخارف الحياة ؟ ومانع للمرء أن يكون عبداً للجاه أو المال ، مانع للمرء أن يكون قتيل الكبر وغيره من أكاذيب الحياة الحقيرة مانع للمرء أن يذل نفسه لتلك المظاهر البيضاء التى كلها رياء ونفاق ، مانع للمرء أن يعيش فى آراء الناس ، مانع للمرء أن ينمى ضميره بأن يطعمه من الرغبة فى احترام الناس إياه ؟ والرغبة فى احترام الناس ، هى داء النفوس وإذا شئت فقل هى خشخاش الضمائر .

بحسب المرء أنه إذا أخذ من العلم بنصيب صار من الخواص ، وهذا وهم فإن للنفس عامية مثل عامية العقل فمن أراد أن لا يكون عامى النفس كان خليقاً به أن يزجىها إلى التماس جلاله الحياة ، فإن للحياة جلاله لا يفهمها قتلى المظاهر الذين يحقرون أنفسهم بمزاولة الحقيير ، تلك المزاولة التى تغطى على عظم الحياة ، وتقتل فى النفس عزة النفس وإغما يحجب الحقيير إلى المرء جهله الصلة التى بينه وبين الله من طريق الحياة الخالدة ومكانه فى الحياة فإنه لو عرف أن فى نفسه عزمات ساكنة ، وقوى نائمة لقلق كل القلق ، رغبة فى إثارة تلك القوى النائمة فأما ثارها وإما أراق حياته فى سبيلها . وإن من فعل ذلك كان كأنه استدان حياته فرد الدين لدائنه ورد معه ربحاً كبيراً . يقول بعض الحكماء بالتماس السكينة والراحة والطمأنينة التى يدخلها التهذيب على النفس ، وهو لا بأس به إلا أن ذلك السلم قد يصير خمولاً ، وتلك السكينة غفلة ، وتلك الراحة موتاً لجلاله النفس .

فليست جلاله النفس فى سكونها ولكنها فى هياجها ويقظتها ، فإن النفس لا تكون نبيلة إلا إذا كانت هائجة يقظى وأعنى بهياجها طموحها إلى الكمال والقوة والجمال فإذا هدأت يأساً وعجزاً أو مللاً أو التماساً للراحة كانت مثل الرماد ليست قوة النار فيه ... إن أكثر نفوس هذه الناس موودة بين جنوبهم مقبورة فى المظاهر ، مدفونة فى الحقائق .

الغفلة واليقظة

يخيل لى أن الناس مثل رجل سكران لا يقدر أن يخطر خطوتين إلى الأمام حتى يخطو إلى الوراء ومن أجل ذلك ، كان سيرهم فى سبيل الرقى الخلقى بطيئاً . إن السكر ليخطو خطوة إلى يمينه وهو يحسب أنه سائر إلى أمامه وهكذا الناس فى الحياة . وإنه ليخطو خطوة إلى أمامه ثم يستريح من عنائها ، ويحسب أنها كانت سفرأ طويلاً . وكذلك الناس فى الحياة ، ولقد زاد فى اعتقادهى صحة هذا التشبيه ، ذلك الفخر العريض الذى يملأ أوداج الناس إذا عدوا حسنات الحضارة فإن قولهم مثلاً « قد بلغنا منزلة جليلة من منازل الرقى » ، مثل قول السكران بعد كل خطوة يخطوها « وصلنا بالسلامة » .

لمثل هؤلاء الفاخرين نقول مقال ماثيو أرنولد « إنكم تصفون مراحل التقدم بكلمات ينبغي أن لانصف بها غير مرتبة الكمال » .

إن كل ناقد ضحية نقده ، وسبب ذلك أنه إذا رأى قومه قد وقفوا لحاظهم على جانب من جوانب معنى الحياة حتى حسبوا أن ذلك الجانب هو معنى الحياة كاملاً ، وكان فرضاً عليه أن يلفتهم إلى جوانب أخرى ، ولا يزال يلح عليهم فى ذلك حتى يغيب عنه ذلك الجانب فخوف الناقد أن يكون ضحية إلحاحه ، خوف يبعثه الجبن والخوف وهذان باعشان لا يليقان بمن نصب نفسه لخدمة قومه ، فلا رأى لمن يلومنا فى الإكثار من ذكر قتلى المظاهر ، والإلحاح فى التخلص من العادات التى تقتل عزة النفس وجلالها تغرى المرء بالاهتمام بصغيرات الأمور .

إذا أردت أن تعرف مكان أمة من القوة ، فالتمس الناس فى مجالسهم واسمع ما يقولون ، فإذا رأيت أنهم يعنون بالصغائر أو يستقبلون الحق كما يستقبل السيد عبده فاعلم أن سهامهم طائشة . ولست أعنى بالاهتمام بالصغائر التبسط والفكاهة ، فإن المرء قد يجد من وسائل التهذيب فى الفكاهة ما لا يجده فى بعض الجد ، وإنما أعنى الحديث الذى يسفل بقائله الذى يبين عن غلظ فى كبد قائله وخمود فى شعوره ، وينم عن نفس لا تحس ما حولها من عوامل الخير والشر ، أليس من العجيب أن أجلس إلى صديق فأحدثه مثل هذا الحديث ، وحولى من عوامل الشر ما يستنهض الهمم لمناجزته ، ومن أسباب الشقاء ما يستصرخ النفوس الكريمة

لمعالجته ؟ أمم تحيا وأمم تموت وأناس يشقون من شرق بالنعيم والوفر، وآخرون يشقون من ظمأ إليه. كما هذا حولى وأنا أحدث صديقى حديث النفس الضيئلة هذه الغفلة من لؤم الإنسان أليس من لؤم الإنسان أن وجود الناس فى إنارة الحفلات وشراء أعلام الزينة بالمال الجم، وحولهم أناس يعالجون الجهل والفقر ؟ مثل الذين يفخرون بحسنات الحضارة مثل الذين يفخرون بتليد آبائهم ماذا صنع الفاخر بحسنات الحضارة حتى يفخر بها ؟ هذه ليست حسناتنا بل هى حسنات السابقين وفخر المرء بما ليس له دليل على صغر فى همته . كيف تفخر بالآلات والمخترعات إنها ليست من صنعك ، وكيف تفخر بالأنظمة والشرائع التى بسطها سعى العاملين هل أنت وطأت سبيلها ؟ لك أن تفخر بها من أجل أنها من صنع الإنسان، ولكن ليس لك أن تفخر بها لأنك زيد أو عمر . إن الفخر استراحة وترويض للنفس من عناء العمل بعد أن يتم المرء فرائض الحياة، وهو لا يتمها إلا ساعة موته .

إن فى هذا الوجود من الشر ما يخجل الفاخر، ولكن اللؤم قد تغفل فى نفوسنا، حتى صرنا لانخجل من مظاهر الشقاء، وسبب ذلك أننا لانعبد القوة فى الرأى والمخلق والجسم، فإن عبادة القوة تلهينا عن الصغائر ، وتغرينا بجليلات الأمور ، فلتهينا عن أن نبذل المال فى غير وجهه؛ فننضن به عن احفلات والزينة وتجود به فى مناجزة الشر.

لقد منيت مصر فى هذا الزمن بفئة من الكتاب يلومون من يريد أن يلفتهم إلى جليلات الأمور، وأن يلهم عن صغيراتها بأن يهيج فيهم عواطف نفسه، ولاسكينة نفسه ماحية إحساسه بالشقاء ، وإذا غلبت سكينة النفس إحساس المرء بالشقاء ، كانت مطية له إلى الغفلة ونوم الضمير، وصارفة عن عبادة القوة، وإذا غلب إحساسه بالشقاء سكينة نفسه، خيف عليه اليأس والنظرة السوداء .

الحياة وسيلة

يعجبني من المرء أن يكون جريئاً على القوة فهو فى جرأته عليها كالطفل يلعب بسيف من الخشب على أنها قد تكون فى يده كسيف قاطع فى يد ذلك الطفل ، وخليق بالمرء أن يناهض القوة ، فإما تملكها وإما أهلكته وعلى ذكر ذلك نقول إن هناك نوعاً من الحزم ، هو حزم التجار والموظفين يزجر أهله عن التماس القوة خشية الفشل ، فيوهمهم أن عظم الحياة فى سلوك السبيل الموطأ ، وإنما عظم الحياة فى سلوك مجاهل الحياة التى لم توطأ ، وأن ينفق المرء منها ، فإن الحياة مثل الدراهم قيمتها فى تصريفها ، وكما أنك تنفق من مالك لتشتري حاجاتك ، كذلك ينبغي أن تنفق من حياتك كى تشتري بها القوة.

إذا نظرت فى أبطال القصص المشهورة رأيت أنهم كانوا ينفقون من حياتهم فإنهم لولا ذلك ما رغب فى قراءة أخبارهم أحد . فإن القراء يشعرون أن كل إنسان وسيلة فى يد القضاء ، والوسيلة لاتصان عن الاستعمال ، فإنك إذا صنتها عنه لم تعد وسيلة ، وكذلك المرء ، إذا كان حزمه ينأى به عن تعرف المجهول أم مزاولة الجديد ، لم يؤد فريضة الحياة فإمّا فريضةها أن تكون وسيلة يرمى بها كل مرمى .

كلما عظمت الحضارة ، كثر استعمال الوسائل ، وحياة الأفراد وسائل منها ، فتصغر حياة الفرد عند المفكر بقدر إكباره حياة النوع ، فحياة الأفراد ضحية لحياة النوع، والعظيم هو الذى ينفق من حياته وهو واسع الأمل مستبشر بذلك الإتفاق ، لأن فيه سر الفرائض ومعنى العبادة ، ولو أن الله لم يأمرنا بشيء غير تلك التضحية ، لكان قد أمرنا بكل خير ونهانا عن كل شر. وإنما العقائد كلها ، تفسير لتلك الفريضة أو حث عليها . فإن المرء ربما ضل إذا قيل له انفق من حياتك فإنك لاتعيش للحياة الفانية ومطالبها، بل أنت الروح الخالدة التى فى الناس قاطبة. ومن أفاق إلى ذلك . ثم يجد فى تضحية مطالب الحياة الفانية غيباً . ومن أجل ذلك ، بعث الله إلينا الأنبياء والحكماء يخبرونا عن السبل التى نسلكها فى تضحية حياتنا، وإنما كانت كلماتهم إرشاداً وتفسيراً لمطالب الحياة الخالدة.

حكى أن جورج الثالث ملك الإنكليز سأل جمس وات المخترع الشهير عما يزاوُل ، قال المخترع إنى أزاوُل شيئاً يحتكره الملوك أو المخترعون ، فإنه ينبغي لكل إنسان أن يكون فى

تطلبه القوة ملكاً صغيراً أو مخترعاً صغيراً فللكاتب من قلمه شارة من شارات الملك، وللصانع فى آلات عمله شارات من شاراته وهو لا يكون كذلك إلا إذا صدقت سريرته ، وأحس عظم الحياة . نحن لانحس عظم الحياة إلا فى دقائق قليلة من عمرنا ، وربما لا يحسه أحدنا طول عمره مع أننا فى حاجة إلى أن نحس عظم الحياة فى كل دقيقة من دقائق عمرنا على أن ذلك مستحيل لأن الإحساس بعظم الحياة ، حمل ثقل لا يقدر على حمله إلا قليل من الناس ، فى قليل من ساعات عمرهم. والعظيم من حمل ذلك الحمل حتى يهلكه فينبغى للمرء أن يجعل نفسه فى منزلة ذلك الثور يقول العامة إنه يحمل الدنيا على رأسه كما تحمل فتاة الريف جرتها. وهذا ما عانيت بإنفاق المرء من حياته وتضحيتها فى سبيل تحقيق مطالب الروح الخالدة. وهو مظهر من مظاهرها يشرف بتحقيق مطالبها. ولكن أكثر الناس يفر من حمل ذلك الحمل، أى الإحساس بعظم الحياة . فبعضهم يجد فى الخمر وسيلة تنجيه منه، وبعضهم يجد فى اتباع العادات وإسلام نفسه إلى تيارها نشوة تنجيه منه. وبعضهم يجد فى حزم التاجر أو الموظف ذلك الحزم الذى كله ضلالة نفس وإسفاف خلاصا له من ذلك الإحساس .

يهرب الناس من رؤية الشقاء كما يهرب القاتل من خيال قتيله . وكما أن القاتل يرى فى صورة المقتول عنوان جريمته ، كذلك المرء، يرى فى مناظر الشقاء اتهاماً له ومبيناً عن تقصيره فى أداء فرائض الحياة فإن مناظر الشقاء تهيج فى المرء إحساسه بعظم الحياة وهو لا يريد أن يعالج ذلك الإحساس ، فيجتهد فى أن ينيمه بأن يقر من مناظر الشقاء... يرى المرء شيخاً قد أكل الشقاء نضارة وجهه وشرب مائه ، ثيابه قذرة وريحة خبيثة ، فيفر منه لأنه يعبد الجمال، وهذا منظر من مناظر القبح ، وكان ينبغى أن تغريه عبادته الجمال بمحاربة الشقاء ، لأن الشقاء عدو الجمال.

خليق بالمرء أن يجتهد فى أن يملأ روحه إحساساً بعظم الحياة ، وأن يملأ عمره من ذلك الإحساس إن منظر الغافل عن عظم الحياة منظر يبعث البكاء واليأس من صلاح الناس.

كل إنسان له ميل إلى العظمة ، ورغبة فى التماسها . وهذا سبب ميله إلى تحقيق مطالب الحياة الخالدة ، فإنه إذا علم أن التماس العظمة فريضة عليه وجد أن حاجته فيما هو واجب عليه وأنه مأمور بما هو حبيب لديه إلا أن يغتر بمظاهر الحقارة وصغيرات الأمور ، فيحسبها من مظاهر الأمور إلا إذا حسبها من جليلاتها أو انتفى لديه كل جليل .

أساس الفرائض

إذا قرأت سيرة الأنبياء رأيت أن أول وعظهم ، كان حضاً على التوحيد والتخلص من عبادة الأوثان ، وقد يحسب القارئ أن ذلك التوحيد أجل من مواقعة الفضائل التى هى أساس المعاش فى هذه الحياة ولكن النبى قد زجر الناس عن عبادة الأوثان ، لأن عبادتها من عبادة صغيرات الأمور وحقيراتها . فهى من أجل ذلك تقتل الفضائل التى هى أساس المعاش فعبادة الأوثان، مظهر من مظاهر اهتمام المرء بحقيرات الأمور . فإذا نظرت فى تاريخ الزمن القديم فى أول الحضارة، رأيت أن عبادة الأوثان ، وعبادة العادات ، وعبادة الملوك أصلها واحد، لأن سيد القبيلة كان حاكمها وحاميها ، فإذا مات صار ربها ومعبودها . وكانت الأوثان رموزاً يرمز بها إليه .

وأصل العادات هو ذلك الإجلال وذلك الخشوع الذى يغمر قلب المرء عند رؤية سيد قبيلة، وتلك العبادة التى تحنى رأسه لإله قبيلته . ولما سلك الناس مسالك التفكير، صارت الأصنام والعادات حلية وزينة ، بعد أن كانت رموز العبادة ولايزال بيننا من يحسب العادات من تعاليم الدين وأوامره ، ومن ينزلها منزلة الدين.

وهذه بقية من بقايا الوثنية ، ولكن لاغرو فقد قال أمرسون «إن الشئ يكون فى أوله حاجة الضرورة . ثم يعود زينة وحلية » إن آفتنا هى أننا قد ننسى أن تلك العادات ، حلية وزينة لا حاجة من حاجات المعاش فيجوز أن نتحلى بها ولكن ينبغى أن لانعبدها .

ولقد كنت أعجب من المصلحين فى زجر الناس عن عبادة الأولياء ، حتى عرفت أن نهى الناس عن عبادة الأولياء ، نهى لهم عن عبادة الأوثان ، ونهى لهم عن عبادة العادات، ونهى عن عبادة الملوك، ونهى عن عبادة صغيرات الأمور ، وترغيب فى جليلاتها . إذا نظرت فى سيرة فولتير الحكيم الفرنسى رأيت أن إلحاحه فى زجر الناس عن عبادة القسس والأولياء ، قد كان زجراً لهم عن عبادة الحكام .

فرض على النبى أن يزجر قومه عن حقيرات الأمور وهذا أشرف الزجر وأحسن الوعظ لأن الذى يزجر الناس عن السرقة أو الغدر أو كفران النعمة وجحد المعروف ، إنما ينهاهم عن نتائج عبادة الحقير من مطالب الحياة الحقيرة، وقد يظن المرء أن اهتمام الناس بالحقير يسليهم عن افتقاد الجليل، ولكن لا يغريهم بالردائل ولو بحث المفكر فى أعماق النفس وعوامل الخير والشر وأسباب الأفعال لرأى أن اهتمام المرء بالصغير دافعه إلى الردائل ، وكأن الناس يحسبون أن الاهتمام بالصغير شئ حقير ، فينبغى للواعظ أو الناقد أن لا يضيع وقته فى زجر الناس عنه

وهم مخطئون فى زعمهم ، لأن فناء الحياة فى صغيرات الأمور ينأى بالمرء عن عظيماتها وينيم ضميره ويلهيه عن مناجزة الشر .

إن الناس يخشون أن يبحثوا علاقة القوة بالحقوق والفروض ، فإنك تسمع أحد الناس يقول إن لى حقاً أن أفعل كذا ، ولكنه لا يتساءل كيف عرف أن له ذلك الحق ؟ ومن أين أتاه ؟ ثم تسمع آخر يقول ليس لك حق أن تمنعنى من عمل كذا ، فلا يخطر ببالك أن تقول له من أين عرفت ذلك ؟ وكيف حكمت أن ليس لى حق ؟ ولا عجب إذا كان المشركون قد زعموا أن ليس للنبي أن يجرهم عن حقيرات الأمور ، وأن يغريهم بجليلاتها ، فالإنسان له من الحقوق أكثر مما يدرى ، وعليه من الفروض أكثر مما ينشط له ولكن من الصعب التماس المفكر تعيين حقوق المرء وفروضه على أن تركها غير معينة قد يكون فرصة ينتهزها صاحب الدهاء فيعينها كيف شاء ، فإن الأفعال كالعجين فى يد صاحب الدهاء ، إذا شاء جعلها حقاً وإذا شاء جعلها فروضاً . كذلك العجين تشكله اليد كما تشاء ، ترى أن الإسلام قد جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرضاً على الإنسان . فإذا سألت ، علمت عن سبب ذلك ، علمت أن الذى جعل ذلك الأمر والنهى فرضاً ، هو ألفت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أعرف بجليلات الأمور من الأمور بالمعروف والنهى عن المنكر ، أى أنه أعرف بوسائل القوة فإنه إذا لم يكن أعرف بها لم يكن أعرف بجليلات الأمور ، وإذا لم يكن أعرف بجليلات الأمور ، لم يكن ذلك الأمر والنهى فرضاً عليه فالقوة هى أصل ذلك الفرض الذى فرض عليه ، وذلك الحق الذى له لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض وهو أيضاً حق .

إذا رأيت مجنوناً هارباً من مستشفى المجاذيب ثم تبعته فرأيتك قد وقف على نار ورأيتك يريد أن يأكل الجمر يحسبه تمراً ترى من العدل أن تتركه زاعماً أن ليس لك حق أن تمنعه عن أكل النار .

وإذا أردت أن تمنعه عن أكلها فقال لك ليس لك أن تمنعه أتزعم أن من العدل أن تتركه يفعل ما يشاء ؟ إذا كنت تزعم ذلك ، فأنت مخطئ وإن تركك إياه يأكل النار جريمة كبيرة ، فالعقل مظهر من مظاهر القوة ، والقوة هى التى منحتك حقاً وجعلت منعك إياه من أكل النار فرضاً عليك .

لعل القارئ يتفهم معنى القوة ، ويتخلص من ذلك الفزع الذى يملك الناس عند ذكرها فإن العقل والفضيلة والعواطف والعدل ، كلها مظاهر من مظاهر القوة ، فالحقوق والفروض نتائج من نتائج القوة ولا أعنى أن القوة تبيح لك الظلم وتجعله حقاً من حقوقك ، وإنما أعنى أن مقدرتك على عمل الخير تجعل عمله حقاً من حقوقك ، فتعمله بالرغم ممن ينكر عليك ذلك الحق . فتمنع

ذلك المجنون من أكل النار ، وتمنع الطفل من أن يرمى نفسه فى البئر حاسباً أنه باب الجنة فإذا زعم ذلك الطفل أن ليس لك أن تمنعه عن ولوج باب الجنة بأن يرمى نفسه فى البئر فاصفحه صفة تدمع لها عينه ، إذا كنت لا تقدر أن تمنعه عن البئر إلا بالصفع خذه واذهب به إلى أمه.

إذا سألت ما الذى جعل للقوى من الأمم حقاً فى إرشاد الضعيف منها ، قلت هو الذى جعل للعاقل حقاً فى أن يمنع المجنون من أكل النار ، أو أن يمنع الطفل من أن يرمى نفسه فى البئر ، أى اقتدار القوى من الأمم على إرشاد الضعيف منها ، وعرفانه وسائل القوة.

ولكنى لا أنكر أن ذلك العاقل الذى منع المجنون من أكل النار ربما فعل ذلك دهاء ، فقد يكون ذلك المجنون ذا مال وعقار ، وقد يكون إشفاق هذا المشفق عليه خدعة ، يريد أن يغر بها الرائيين فيولونه أمره فيضع يده فى ماله ويتحكم فيه وينتفع به ، ولكن أتحسب أن فعل ذلك الماكر ، يبيح للشارع أن يسن شريعة يقول فيها كل من منع مجنوناً من أكل النار ، عوقب بكذا من قانون العقوبات ، لأنه يعد محتالاً أليس هذا من السخف والسفه ؟!

وإنما ضربت هذا المثل لأقول ضعف الأمم ، مثل جنون الأفراد داء يبيح للقوى منها ، أن يرشد الضعيف ، قد يكون خدعة ماكر ، سببها رغبة القوى فى الانتفاع بمال الضعيف ، لأنه لو كان منع القوى الضعيف عما فيه ضره حراماً ، لجاز للشارع أن يحرم على الناس منع المجنون من أكل النار.

والذى جعلنى أظهر أن للقوى أن يرشد الضعيف إلى وسائل القوة ، اعتقادى أن إنكار الضعيف حق القوى فى ذلك يلهمه عن التماس القوة وتطلب أسبابها ، بأن يد له حبال الآمال فيأمل أن يقنع القوى أن ليس له حق فى إرشاده والتحكم فى أمره وإذا نظرت فى التاريخ ، رأيت ما يؤيد اعتقادى هذا رأيت أنما ضعيفة تقضى عمرها فى إنكار الحكم فى أمرها على القوى وتصرف أيامها فى الاحتجاج عليه ، وكان ينبغى لها أن تصرف تلك الأيام وذلك العمر ، فى التماس القوة والتهيب لها .

ولا يفزع من ذلك الحق الذى تسنه القوة للقوى ، أى حق تحكمه فى أمر الضعيف وإرشاده إلى ما فيه خيره ، إلا من كان ضئيل الهمة ، فان جزعه من ذلك الحق ، دليل على أنه لا يريد أن يكلف نفسه عناء تطلب القوة ومن كان كذلك حكم الله عليه بالفناء .

إن الأمة التى تعيش جازعة من التماس القوة ، كما يجزع الطفل من التماس حاجته فى غرفة مظلمة ، هى تلك الأمة التى يقول فيها شكسبير « أمة تخاف أن تعرف نفسها » .

فكفى بذلك الحق الذى قد يسىء القوى استعماله واعظاً وزاجراً عن العجز ، وشاحداً للعزم وهادياً إلى منازل القوة .

هبة الحياة وهبة الموت

إن فى الناس من يهاب الحياة أكثر من هيئته الموت وفيهم من يهاب الموت أكثر من هيئته الحياة وصحيح النفس من كان بين الحياة وهبة الموت موازنة فى نفسه . إذا رجحت هبة الموت دل ذلك الرجوح على سقم فى النفس أيضاً . ولكنه فى الحالة الأولى ، عبد ذليل ، وفى الحالة الثانية ، امرؤ طائش السهم طائش الأمل ، وهو فى الحالتين سقيم النفس .

إننا إذا أغرينا الناس بأن لايهابوا الحياة، خفنا أن يغريهم ذلك الإغراء بأن يغالوا فى حب الحياة حتى لايجبونوا وحتى يهابوا الموت ، فنكون قد أغريناهم بالخنوع للذل والظلم ، وإذا نحن أغريناهم بأن لايهابوا الموت، خفنا أن يدفعهم ذلك إلى كره الحياة، والرغبة فى التخلص منها ، فخليق بنا أن نحشهم على أن يجعلوا بين الرهبتين موازنة ، كى لاترجح إحداهما ، ولكن الإنسان لايملك صحة نفسه ، فإن وراء رغبته فى صحة نفسه عوامل لايملك لها دفعا، مثل الوراثة والتربية والبيئة، فاذا تحالفت هذه الأسباب على إسقام نفسه بأن تجعله جباناً أمام الحياة أو جباناً أمام الموت ، كان ضحية لها ولاتغنيه نصيحة الناصحين شيئاً .

إن سقم النفس يؤثر فى العقل بأن يخص المرء بالنظر إلى جانب من جوانب الحق، فيغيب عنه باقى جوانبه ، فيجئ رأيه صحيحاً سقيماً ، فهو صحيح لأنه نظر إلى جانب من الحق، وهو قيم لأنه قد غاب عنه جوانب كثيرة . إن تعلق الذليل بالحياة سقم فى نفسه ، وكره المنتحر بحياة سقم فى النفس أيضاً . ولكننا لانسمى الجبن أو التذلل جنونا، فلماذا نسمى الانتحار نونا؟ الجبن سقم فى النفس وكذلك الانتحار ، ولكن إذ سئلت أيهما أخف شراً ؟ قلت الانتحار فإن شر خنوع الذليل وتعلقه بالحياة ضعة أكثر شراً وأوسع ضرراً .

فينبغى لمن يكتب فى مضار الانتحار الذى ينهى قراءه عن أن يجعلوا هيبتهم الحياة أرجح من هيبتهم الموت ، أن ينهاهم عن أن يجعلوا هيبتهم الموت أرجح من هيبتهم الحياة . إن أكثر الناس يحبون الحياة لأنهم يهابون الموت، ولافخر لهم فى ذلك . وإنما الفخر لمن يحب الحياة ، وهو لايهاب الموت أرونى رجلاً يحب الحياة ولايجبن أمام الموت أريكم ألف رجل يحبون الحياة لأنهم يجبون عند ذكر الموت.

إننى لست من الجازعين الذين ترتعد فرائصهم عند ذكر خبر انتحار ، لآنى أعلم أن حياة الفرد شيء ضئيل إذا قيس بحياة النوع وليست حياة النوع رهينة بحياة المنتحرين ، فإن الذى

ينتحر لآته غير صالح للحياة كما أنه لا يسقط من الغصن غير التمر الذى فسد فلا تحسب أن سقوط التلميذ فى الامتحان هو الذى يدفعه إلى الانتحار، ولا تحسب أن صحيح النفس عابد القوة يأتى الانتحار، ولكن الذى ينتحر ؛ لأنه سقيم النفس ولسقم النفس أسباب منها السوداء أو اليأس الطبيعى ، وبعض الناس يرث نصيباً وافرأ منها .

على أن فى كل نفس شيئاً منها قد تهيجه التربية أو البيئة إنك إذا جئت بجنود السماء والأرض، وأردت أن تعين أمراً على سقم نفسه، وأن تنجيه منه لم تفلح ، وإنما مثلك مثل من يأتى بشمرة عفنة ، يريد أن يذهب عنها عفونتها ، ويعيدها صحيحة سليمة . إنه لا يجزع من خبر انتحار منتحر إلا من جهل عظم الإنسان ويقدر جهلك عظم حياة النوع ، يكون اغترارك بحياة الفرد .

إذا أردت أيها القارئ أن لا تجزع من كثرة سماع أخبار المنتحرين، فارفع رأسك إلى السماء فى ليلة زهراء ، وانظر إلى النجوم وعوالمها وضئالة عالمنا فإن فى تلك النظرة برأ من الاغترار بحياة الفرد . لست أدعى أنى أصح الناس نفساً ، استغفر الله ، إن فى نفسى لسقما كثيراً وإنى لأدعو الله أن يزيدنى من صحة النفس، ولكنى لو كنت أسقم الناس نفساً لما منعنى ذلك من أن أقول إن سبب الانتحار ، سقم النفس لقد جعلنى ألح على القارئ أن لا يغتر بحياة الفرد ، عرفانى أن اغترار الأمم بحياة الفرد سبب من أسباب سقوطها .

والمصريون أحوج الناس إلى إجلال حياة النوع أكثر من إجلال حياة الفرد إن الذى يجزع من سماع خبر انتحار يسئ إلى نفسه وإلى أمته بذلك. الجزع ، لأنه ليس من عبادة القوة مثل الناس فى هذه الحياة مثل جيش محارب ، الموت أمامه إذا سقط من صفوف الجند رجل سدوا ثغرة فى صفوفهم فتحها سقوطه فتلتئم الصفوف ، وتسير فوق جثته إلى الموت فهم لا يجزعون لسقوطه، فإن جزعهم يوقظ الحيرة والرعب فى قلوبهم .

وهذه حالنا فى الحياة ألسنا نسعى إلى الموت على قبور الماضين؟ ألسنا نسير إلى الموتى على قبور الهالكين؟ نحن نسير على أديم الأرض ، وهو من أجسام الموتى ، كما قال أبو العلاء، فهل أشعل ذلك جزعاً فى قلوبنا ؟ وبعد، فإنى أحاسب أديباً فى قوله إن الانتحار دناءة ونذالة إن الانتحار جبن أمام الحياة، وسقم فى النفس، وجهل لفروض الحياة ، وضعف فى العزيمة ، وجهل لجلالة الحياة.

أما الدناءة والنذالة ، فهما كلمتان تصدقان فى أكثر المتعلقين بالحياة ولا تصدقان فى كل المنتحرين ، فإن أكثر الناس يتعلقون بالحياة جزعاً من الموت، وإنما شرف الأحياء ، فى أن يكون تعلقهم بالحياة سببه إحساسهم أن ذلك التعلق فرض فرضه عليهم عظم النفس ، وأن يكون سبب رغبتهم فى الحياة، إحساسهم بعظم الحياة وجلالتها وعرفانهم فروضها .

وليس كل من ينتحر جزعاً من ثقل الحياة، فإن من المنتحرين من ينتحر احتقاراً للحياة واحتقاره سببه جهله جلالة النفس فيها وقد لا يكون هذا المحتقر للحياة هائباً لها .

إن طموح المرء إلى منازل القوة والكمال لا عيب فيه. وإن فضيلة الأحياء فى ذلك، الطموح ولكن شر الطموح ، ما يغرى المرء باحتقار الحياة ، إن أدب الإنسان أو علمه أو كرم خلقه لا يغنى عنه شيئاً إذا جهل فروض الحياة، أو لم يكن له من الصبر والعزم ما يعينه على أداء تلك الفروض.

عبادة القوة

بعض المفكرين ينهانا عن عبادة القوة، وإنما يريد أن يردنا عن عبادة القوة، عبادة مكذوبة ، عبادة العامة، عبادة الجبناء ، ولكنه لا يريد أن يردنا عن عبادتها عبادة صادقة فليست عبادة القوة أن تهابها فى غيرك ، ولكنها تطلبك أسبابها ، فإنما يعبد المرء معبوده حق عبادته بالتقرب منه. إنك تزاول الصدق لا بأن تحببى غيرك وتتجنبه. رأيت أحداً عبد الصدق بالكذب ؟ فكيف يعبد أحد القوة بالضعف والجبن ؟ كيف يجلب امرؤ القوة فى غيره ويتجنب أسبابها ، ثم يزعم أنه عبدها ؟ هل عبد الفضيلة عابد إلا بمزاولة الفضيلة؟

ترى أن هذا الناهى لم يرد أن ينهانا عن عبادة القوة فإننا إذا لم نعبد القوة فأى شىء نعبد؟ أنعبد المرض والضعف والموت واليأس والقبح أم نعبد القوة والحياة والأمل والجمال؟ أليست القوة حياة وأملاً وجمالاً ؟ أى أمة صار لها شأن قبل أن تعبد القوة ؟ ليس الدليل مستعبداً لأنه عبد القوة فى القوى، ولكنه مستبعد لأنه عبد الخوف والعجز واليأس . فلو أنه عبد القوة فى القوى، لرأى أن من عبادة القوة أن يقرع القوة بالقوة فليست العبادة فى العمل والأمل والتفكير. وكيف يكون المرء عاملاً كبيراً ومفكراً كبيراً إلا إذا عبد القوة. إن عبادتك القوة فى غيرك تدلك على مكان القوة منه وتغريك بالتماسها . فإن عبادتك القوة فى الريح أو الصاعقة أو الشلال أو الكهرباء أو الجسم أو الرأى أو الخلق، دليل على أنك تتوق إلى القوة وأنت عرفت مكانك فى الحياة - دليل على أنك فهمت معنى الحياة. أليست هذه العقيدة هى العقيدة الوحيدة التى تنهض بالأمم ؟ إن الإنسان لا يقدر أن يحب الحياة إلا إذا عبد القوة ، وهو لا يعرف عظمها وجلالها إلا إذا أحبها . أفهم الدليل أن القوة أعظم من الحياة ؟ فإن ذلك يعلمه عظم الحياة ويعلمه كيف يحبها حباً صادقاً ، فإن عظم الحياة فى أن تكون القوة أحب إلى المرء منها ، وعظم الحياة فى أن تكون وسيلة إلى القوة فى الرأى والجسم والخلق . فينبغى للمرء أن يحب القوة أكثر من حبه وسائلها . فالمال والجاه والأدب والعلم ، هى وسائل تبلغ بالمرء إلى القوة والقوى وسائل تبلغ بالمرء إلى فرائض الحياة فإذا استعبدته تلك الوسائل وحسب أنها غايته التى يسعى إليها كانت مطية له إلى العجز.

فليست عبادة القوة فى أن تلهيك وسائلها عنها ، ولكن عبادة القوة فى أن تستعيد تلك الوسائل . وليست عبادة القوة مغرية لك بالرضا عن طغيان من يسىء استعمالها فانك إذا كنت تعبد القوة من أجل أنها حياة الكون ورقية أغرتك تلك العبادة الصادقة أن تفرغ القوة بالقوة لإصلاح ما أفسده طغيان ذلك الباغى . وإنما الطغيان مبين عن ضعف فى خلق ذلك الباغى ، وضعف فى رأيه تصلحه قوة فى خلقك ورأيك إذا كنت قوى الخلق والرأى .

من أجل ذلك كان فى القوة دواء ما تحدث من الشر وذلك الشر إنما أحدثته القوة كى تمهد به سبيل الخير . فهى مثل البانى الذى يهدم بيتاً ضعيف الأركان كى يبنى مكانه أمتن أركاناً . اقرأ التاريخ تر أن اليونان والرومان والعرب لم تنهض إلا بعبادة القوة فى الجسم والرأى والخلق ، حتى إذا غفلت عن عبادة القوة ، وألقتها عبادة المظاهر الكاذبة عن عظم الحياة وجلالة النفس جاءت بعدها أمم أحدث منها عهداً بعبادة القوة ، بنت حضارتها على آثار تلك الحضارة الماضية .

هكذا تحيا الأمم وهكذا تموت وإنما حياة الكون ورقية فى أن يحيا القوى وأن يموت الضعف فخلق بالمصريين أن يعبدوا القوة وأن يتلمسوها فى أنفسهم ، وأن يجلوها فى غيرهم - خلق بهم أن يتلمسوها فى الكتب وفى الزهر . وفى الكهرياء وفى الريح وفى جسم الملائم أو المروض وفى الحضارات الماضية وأن يجلوها فى حسن أخلاق عيسى وفى عزيمة محمد عليهما الصلاة والسلام وفى طموح نابوليون وفى طهارة البرى وفى إقدام الجانى .

لقد زادنا غفلة عن عبادة القوة ذلك الرأى السقيم الذى أذاعه مشايخنا فى القرنين الماضيين ، وهو زعمهم أنه خير للمرء أن يكون ضعيفاً مظلوماً من أن يكون قوياً ظالماً من يدري ؛ لعل ذلك القوى الظالم أقرب إلى الله من ذلك الضعيف المظلوم . أليس جبن ذلك الدليل هو الذى خلق ظلم هذا القوى نحن نسب نيرون الظالم ونذم ظلمه ، ولانذكر لؤم نفس من تركه يعيش ظلماً ، إنما زاد فى غفلتنا عن عبادة القوة قول مشايخنا «المؤمن مصاب» وغير ذلك من الكلمات التى أذلت رقاب الناس للطغاة من أمراء الدولة الأيوبية ودولة المماليك والترك فينبغى لكل امرء أن يكتب على قلبه هذه الكلمات «القوة أعظم من الحياة» فإنه إذا فعل ذلك كانت أمتة أمة قوية فى الجسم والعقل والخلق .

العبادة هى تربية العزيمة والحياة فرصة ينبغي للمرء أن ينتهزها فى تربية عزيمته والتماس القوة بها كى يعبد الله عبادة صادقة.

حكى أن زركسيس ملك الفرس كان قد بنى جسراً على البسفور ، كى يمشى عليه جنده إلى أوربا لمحاربة اليونان فهدمه البحر فاستشاط الملك غيظاً ، وأمر الجند أن يضربوا البحر بالسياط عقاباً له ففعلوا . إنى أرى أن هذا العقاب لم يكن من بوادر الحنون .

على أن جنون القوة خير من جنون الجبن . يعجبنى من المرء أن يستطيل على قوى الطبيعة بالعزة والإباء إن فى ضرب زركسيس البحر بالسياط استطالة على قوى الطبيعة ورغبة فى تذليلها ونوعاً من الشعر وعنواناً للحياة - متى يستطيل المصريون على قوى الطبيعة بالعزة والإباء والإقدام ، نحن نياس من المجد لأننا نزعم أن ليس فى نفوسنا من القوة ما يعيننا عليه ويدينه منا .

إن القوة كامنة فى نفوسنا فى ناحية من نواحيها فينبغى لنا أن ننشدها فيها وأن نوقظ تلك القوى النائمة بأن نقلق كل القلق ، فإن القلق قوة تفك قوى النفس من أسرها ، وتبغتها من نومها إن القلق هو الذى رقى بأوربا ذلك الرقى . قلق الأوربيون حتى فكوا أرواحهم وأذهانهم من أغلال العجز ، فنالوا حرية العقيدة والإيمان ، والتفكير والعمل.

إنى أرى شيخاً قد أكب على الأرض يتمتم ويبصق ويسعل ، وقد قطع السعال صدره ويدها ترتجفان من الضعف ، وقلبه يرتجف من الرعب وكل جبان أمام الله جبان أمام الحياة أرى هذا الشيخ ثم أرى فلاحاً قد قتل الجد أعصابه يضرب بفأسه الأرض ، ويتغنى بما دار بينه وبين حبيبته فى خلواته فاسائل نفسى أيهما أحب إلى الله رجل يحيى الأرض فتحيها بحياتها الناس أم رجل لا يرى العبادة إلا فى أن يعذب روحه وجسمه ؟ رجل يرى العبادة فى العمل والقوة أم رجل يراها فى الضعف والجبن والسعال والبصاق والانتكباب على التراب يهيله فوق رأسه ؟ رجل يرى العبادة فى الثقة بالله أم رجل يراها فى أن يرى ربه فى منزلة ملك مستبد ، وأن يجعل نفسه فى مكان عبد ذليل ؟ ألا إن بين هذا الشيخ الضعيف وبين العربى من صحابه النبى عليه السلام فرقاً واسعاً ، فقد كان العربى فى صدر الإسلام ؛ يرى أن روح الدين فى عبادة القوة . أليست عبادة القوة هى التى نصرته فى فتوحه وجعلته مالكا بدل أن يكون عبداً ومالكا للقضاء بدل أن يكون عبده ؟

من الأكاذيب الشائعة قولهم لا تطلب عمل شئ تقصر عنه همتك. هذه الكلمة من أسباب ضعفنا ، كأنهم يريدون أن يقولوا إن النجاح الضئيل خير من الفشل الجليل، كأنهم يريدون أن يقولوا إن همة المرء شئ يوزن بميزان البائع . يقولون إن إلتماس السهل والقنوع به أجلب للسكينة والأمن فهم يزعمون أن السكينة ينبغي أن تكون أجل شئ عند المرء وهذه ضئالة فى الافهام فإن المرء إذا عرف عظم نفسه وجلالها ، رأى أن السكينة شئ ضئيل فى جانب عظم النفس وما يرضاه عظمها من القلق والطموح . ليست حياة المرء غاية ولكنها واسطة لأن يكمل المرء نفسه بالتماس القوة ولأن يستطيل على الممتنع من أمور الحياة فليس جزاؤه فى النجاح ولكن جزاءه فى الاجتهاد ، ولا رأى لمن يلوم الناس فى طلب الكمال. رأيت مرة امرأة تعلم طفلها المشى، رأيتها أوقفته ثم ابتعدت عنه قليلاً ، وألاحت له بقطعة من الحلوى فأخذ الطفل يخطو خطوة ثم خطوة حتى إذا قرب من أمه ابتعدت قليلاً ، هكذا جعلت تليح له بقطعة الحلوى، وهو يخطو فى طلبها ، حتى علمته المشى فلما أعطته قطعة الحلوى وتركته لتتظر فى أمر لها، جاء أخ له كبير فأخذ منه قطعة الحلوى وتركه يعوى كالكلب إذا حلت بينه وبين قطعة من العظم ، ولكن هذا الطفل ربح فهو قد خسر الحلوى، ولكنه تعلم المشى هذا الطفل مثل الإنسان فى الحياة، يجهد نفسه كى يبلغ أمله حتى إذا كاد يبلغه أتى دونه حائل، فهو إذا لم يبلغ أمله فقد علمه السعى كيف يعيش .

كلما خطا المرء خطوة فى سبيل التهذيب ، خلس من رق الصغائر ولا يزال كذلك حتى يعرف أن عظم حياته فى عرفانه مكانه فى الوجود ، وأنه خلق ليحفر للقضاء مجراه ، وليكون جزءاً من القضاء جزءاً من القوة جزءاً من الحياة وإن كثرة اهتمامه بالأشياء الحقيرة ، نزول منه بنفسه عن مرتبتها وجهل لها، فإذا بلغ المرء منزلة يرى أن كل نوع من أنواع قوى الوجود كائن فى أعماق نفسه، مثل قوة الجمال والحياة والاعتقاد والإنكار، وأن الطبيعة لباس لتلك القوى التى مقرها النفس وتفسير لها، وأنه ينبغي له أن لايهتم باللباس أكثر من اهتمامه بالقوة التى تلبسه ... إذا بلغ المرء هذه المنزلة كشف له عن سر الحياة .

ليس الدين غاية ، ولكنه واسطة يعرف بها المرء عظم النفس وعظم الحياة، بأن يعبد القوة كى يؤدى فرائض الحياة، ويحقق مطالب الحياة الخالدة فينبغى للمرء أن لا يدين بدين يشغله عن معرفة عظم الحياة . إن أنظمة الحياة مثل نظام الحكومة ونظام الزواج ونظام الأسرة ونظام المودة

ونظام الحب، كلها وسائل إذا صلحت بلغت بالمرء منزلة يطل منها على معانى الحياة ولكن قليلا من الناس لاتزدهيه هذه الوسائل . وإن أكثر الناس يحسبها غايات فيغتر بها ، فمن أبى أن يغتر بتلك الأنظمة كان مفكراً عاقلاً إلا أن يكون قد جهل عظم هذه الأنظمة الذى تستفيد من أجل أنها وسائل إلى غاية هى عبادة القوة فى الخلق والجسم والرأى ، فإنه إذا جهل أنها وسائل تزجيه إلى معرفة عظم الحياة وأراد أن يخلص من رقها كان مجرماً كبيراً . فالعبرى العاقل يشبه المجرم من حيث إن كليهما يعرف أن أنظمة الحياة وسائل لا غايات ، ولكن العبرى يجبل تلك الأنظمة ويسعى فى توطيدها ما دامت وسائل يلتمس بها صلاح الكون، فاذا فسدت كان أول من يسعى فى هدمها ولكن المجرم يأبى أن يكون عبداً لها ، لأنه قوة عمياء من قوى الهدم.

الحق الذى لم يشبه من شوائب الشخصية شائب لانفع له ولاوجود ، لأن مزية المعنى فى أن يلمس فلايفقع وأن يكون بينه وبين الإرادة صلة يحرك بها المرء ويحكمه بها . والحق المطلق من قيود الشخصية إذا قاربتة بعد عنك ، فهو كالسراب خادع للذهن مهلك للنفس ، والتماس المرء إياه يكسبه ضعفا فى همته ، ويقعده عن العمل ، وينسيه جلاله الحياة ومعنى الفرائض ، فيكون مثل من يدمن النظر إلى طرف أنفه فيخفى عنه كل شئ.

يوجد نوعان مضران من أنواع التفكير ، نوع يختصر الأبد فى نقطة وهذا تفكير ذوى الأذهان المغلقة الضيقة من الأغبياء ، ونوع يد النقطة حتى يجعلها فى الطول كالأبد ، وهذا تفكير أهل التردد والتفريط من الأذكيا فنفع النوع الثانى من التفكير فى أن يفك عن المرء قيود العادة وأن يوقظه من نشوة المظاهر وضرورة فى أن يجعل بين الذهن والإرادة سدا والنوع الأول أقرب إلى العمل من أجل أنه يجعل الحق محدوداً أو العمل من طبعه التحديد ولكن النوع الثانى قد يدفع المرء إلى العمل أيضاً من أجل أنه يفك المرء من قيود العادة، ولكن طموح المرء إلى أن يحد الأبد بفكره ، داء يجعل حاجته غير محدودة ورغبته غير مقيدة بقيود العزيمة، وذلك يسوق إلى اليأس من الحياة فإذا أحس المرء الحياة إحساساً صادقاً عرف فرائضها، وإذا عرف فرائض الحياة رأى أن يقيد حاجته بقيود العزيمة الممكنة .

حكم القوة

كثير من الناس يحلمون فى أثناء تفكيرهم ، ثم يزعمون أنهم يفكرون ويسلك فى عقد هؤلاء الذين يتساءلون عن انتهاء حكم القوة ، لو أفاق هؤلاء من حلم التفكير لرأوا أن هذا التساؤل ليس له معنى . إن كل شئ فى الوجود لباس للقوة ، ومظهر من مظاهرها والقوة هى روح الوجود . أنى لست أشفق على القراء من شئ إشفاقى عليهم من كلمات هؤلاء الجازعين من حكم القوة ، وإنما تساؤل هؤلاء عن انتهاء حكم القوة مثل تساؤل من يقول متى يلد الحمار أرنبا ؟ بل هذا المسؤل عنه أقرب إلى الإمكان من انتهاء حكم القوة . إذا شاء هؤلاء الجازعون سمحنا لهم أن يتساءلوا متى يلد الحمار أرنبا . وأما قولهم متى ينتهى حكم القوة فهو قول أعظم فكاكة وأقل معنى .

إن كثيرا من الناس لا يعرفون معنى القوة تمام العرفان ، فإنهم لو عرفوه تمام العرفان لعجبوا من تساؤل من يسأل عن انتهاء حكم القوة كيف ينتهى حكم القوة إذا كان كل شئ فى الوجود مظهرا من مظاهرها مثل الشمس والحيوان والنبات والهواء والخلق الحميد والمعنى السديد والجمال والأمل أليست هذه مظاهر من مظاهر القوة ؟

لعلهم يقولون إننا نعنى بهذا التساؤل قوة المادة ، وهذا الايضاح ليس بأقل غرابة من ذلك الإبهام ، لأن القوة والمادة شيان لا يفترقان حتى قال العلماء إن القوى صفات من صفات المادة . من الذى يقدر أن يفصل القوة والمادة فيقول هذه قوة ليس فيها مادة وهذه مادة ليس فيها قوة . أليس العدل أيضا مظهرا من مظاهر القوة ؟ أليس العدل انتصار قوة من قوى الخير على قوة من قوى الشر ، كما أن الظلم قوة من قوى الشر ، على قوة من قوى الخير ، والحكم فى الحالين للقوة .

كأنى بمن يتساءل عن انتهاء حكم القوة يعنى بالقوة الظلم ، وهذا خلط عجيب واضطراب فى التفكير ، وجهل لمعانى الكلمات . إذا حدثك بمحدث بقصة ظلم حدثت فى عهد استبداد ، وقال لك إن هذا كان فى أيام حكم القوة ، فقل له أنت تخطئ فى استعمال هذه الكلمة ، فإننا لانزال فى أيام حكم القوة فالدهر هو أيام حكم القوة ، والأبد هو أيام حكم القوة وإنما أردت أن نقول إن هذه القصة حدثت فى أيام الظلم وأما مجاراتك إياه فى استعمال القوة مكان الظلم ، فدليل على أنك لا تكلف نفسك عناء التفكير .

نحن لانزال فى أيام حكم القوة . غير أن قوى الخير التى وراء الشريعة والنظام ، أغلب لقوى الشر التى وراء الظلم ، فلماذا تعنى بالقوة قوة الشر ، وأنت قد ذكرت اللفظ مظهرا من النعوت ، بريئا من الإضافة كأنك تعنى أن كلمة القوة لاتطلق إلا على قوى الشر . إنى رأيت

العامّة يفزعون عند ذكر القوة كأنها غول من أغوال العجائز ، أو حيوان مفترس أو مجرم شهير ، ولكن ينبغي للأديب أن لا يجاريهم فى ذلك الفزع ، وخلق به أن يفهمهم أن العدل والشرية والنظام ، مظاهر من مظاهر القوة .

وأما جزع الجازعين من انتصار القوى على الضعيف من الأمم فهو جزع مثل جزع الطفل من رؤية الظلام . إن انتصار القوى على الضعيف هو سبب استئثار الرقى ، فإن الضعيف إذا أحس أن القوى غالب له ، وعرف أن حياته فى التعلق بأسباب القوة ، وأنه إذا لم يتعلق بأسباب القوة مات ، ورأى أمامه قوياً يريد أن يغلبه على أمره ، بذل جهده فى تطلب القوة وارتداد مظانها إلا إذا كانت إرادته قد مرضت مرضاً عضالاً ، فإنه إذا كانت إرادته كذلك ، كان ضائعاً لا محالة ولا يقول إن ذلك ليس من العدل إلا من جهل معنى العدل فالعدل هو انتصار قوة من قوى الخير ، على قوة من قوى الشر وانتصار الإرادة المشلولة ، انتصار للموت والجهل والشر . أليس الضعف هو رأس الشر .

أليس إحساس الشرقى بأن حياته رهينة بالتماس القوة هو الذى جعل يوقظه . أليس عرفانه أن القوى غالب للضعيف هو الذى أزعجه من نومه ؟ أليس خوفه من ينعدم أن فى الغرب هو الذى بدأ ينفذ عنه غبار القرون .

إننا لا نقدر أن نتصور كوناً ليس القوى غالباً فيه للضعيف ، ولو فرضنا أن من الممكن إبطال سنة انتصار القوى على الضعيف وتعليقها عن العمل كما يقول النحويون ، فى هذا الوجود الذى نعيش فيه لبدأ الوجود يفسد نظامه لأن نظام الكون وأنظمة المعاش ، سببها انتصار القوى فى الجسم والخلق والرأى فلولا هذه السنة ما أيقظ العزائم موقظ ، أليست هى التى نبهت المصريين إلى مصالحهم المادية والأدبية والاقتصادية ؟

يقول بعض الناس إن الشريعة جعلت أفراد الأمة سواء وهذا قول نصفه حق ونصفه باطل ، فإن الشريعة جعلت الناس فى مرتبة واحدة إذا انتهكوا حرمة حرمتها ، ولكن الناس ليسوا سواء فى مشاعيتهم وفى معاملاتهم التى لا تخرج عن دائرة ما حلله القانون فمن كان منهم قوى الجسم والخلق والرأى ، غلبت مساعيه مساعى من هو أضعف منه جسماً ورأياً وخلقاً وانتصر عليه فى تلك المعاملات فالحكم للقوة ، سواء كانت قوة الشريعة فى معاقبة من خرق سياجها ، أو قوة أجسام الأفراد أو قوة خلقهم أو قوة رأيهم فى مشاعيتهم ومعاملاتهم أو قوة الأمم فى فتوحها واستعمارها . لو كان أقل ما فى التساؤل عن انتهاء حكم القوة أنه لا معنى له ، لما أشفقنا على أنفسنا منه ولكن هذا التساؤل يلهينا عن التماس القوة وإغنائها فى الخلق والجسم والرأى اتكالا على اقتراب عهد انتهاء حكم القوة ... خليك بنا أن لا نصغى إلى ما يلهينا عن عبادة القوة ، والتماس أسبابها وإننا لأخرج إلى ما يفرينا بعبادتها والتعلق بوسائلها .

وسائل القضاء

المصريون يعوزهم شيئان ، عرفان معنى القدر ، فإن الذى نهض بالعرب هو عرفانهم معناه والذى قعد بهم هو إساءة فهم معناه ، والشئ الآخر هو أن ينفضوا عن أنفسهم غبار القرون الماضية ولكنهم لا يمكنهم عرفان معنى القدر ، ونفض غبار القرون إلا إذا قلقوا ذلك القلق الذى يدفعهم إلى تعرف سبيل الإصلاح ، والتماس القوة بالتفكير فى الحياة ووسائلها .

وكما أن الانتفاض بطير عن المرء غبار الأرض ، كذلك القلق يطير عن الأمم غبار القرون أى آثار العوامل من الحوادث الماضية .

لا تحسب أنك تعبد القوة بأن تدم صاحب القوة ، أو بأن تستغيث وتلهث وتصخب وتصرخ ، وإنما تعبد القوة بأن تتعرف مصادرها ، فتسعى من طرق مختلفة ، فإن صاحب الذراع المفتول لاتخونه الحوادث ولو سدت حوله أبواب الحيل ، والأمة برجالها ، والرجال بأجسامها وعقولها .

نحن نرث الزمن والزمن يرثنا ، وإنما الخلد أن يفيق المرء إلى أنه يحمل روح الحياة الخالدة بين جنبه فهو من أجل ذلك ، معبد من معابدها وبيت من بيوتها ، وإن الروح التى تحس فيه هى الروح الخالدة التى تحس فى غيره ، ولولا صدق ذلك ما دفع الجماهير دافع من الجنسية أو الوطنية ، ولا عرفوا للتضحية معنى ، ولا أحسوا لها حسيًا وإنما فقهوها أو أحسوا إغراءها لأن النفوس ليست وحدات متباينة منفصلة ، ولو صح أنها منفصلة ، ما كان هذا التضافر بين أفراد الأقسام وكلما عظم إحساس قوم بهذا الأمر ، كثر ظهور العظماء بينهم ، وكلما قل الإحساس به ، قل ظهورهم ، وإنما إحساسهم به هو الذى يغريهم بإغفال ما ينشده الناس من مطالب المظهر الخاص من مظاهر الحياة العامة ، لاعظام العظماء ما يغفل عنه الناس من مطالب الروح التى هم مظاهرها ، لاحق لضعيف ، فلو كان الحق فى كف العاجز لأصبح الحق باطلاً مخذولاً هذه سنة الله من كان عاجز النفس والرأى واليد ، كان صلاح الخلق فى هزيمته وليس الظلم رأس الباطل ، بل رأسه العجز ، فإن الذى يحيى الظلم خنوع العاجز ، فالظلم نتيجة من نتائج الذل ، ولو نظرت فى التاريخ ، لعلمت أن ظلم الطاغية إذا انتفى قبل أن تنهبا النفوس لمحوه ، نبت مكانه ظلم أشد وهو ظلم الفوضى .

إذا رأيت أوراق الخريف تذبل على أغصانها ، ورأيت أمة تفنى علمت أن كليهما عدل وحق ، وأن كل من لا ينمو يفنى ، وكل ما لا يزيد ينقص ، وكل ما لا يتقدم يتأخر ، وإنما فنت الأمم لأن الدهر سلبها عرفان سبيل استرجاع حياتها وتجديدها .

ليس فى الأمم أو اللغات أو الأنظمة أو العقائد شئ لا يعترضه الفناء ، وإنما هذه وسائل من وسائل الحياة لاغايات .

يقول قائل إن فالقوة ليست أبداً سائقة إلى الفضيلة . وهذا القول فى الصميم من الحق ، ولكن القوة فيها دواء ما تحدث من الفساد ، بل ذلك الفساد من سلاسل الحوادث التى تقضى بها القوة أمرها بالقوة هى التى سمت بالرومان إلى منزلة علياء من منازل الملك والشوكة . وكما أحدثت القوة الحضارة ومستلزماتها ، والشرائع الرومانية الشهيرة التى عم نفعها أحدثت تلك الفتوح التى أكثرت الثروة والترف ، وما تبعه من الانهماك فى الرذيلة والطغيان فى الخلق الفاسد ، فاستلزمت هذه الحال ظهور المسيحية وروادعها من تهرب وتعبد ، فلما جهل الناس معنى العقائد وصار أحدهم يرى أن من العقيدة أن يحرق أخاه فى عهد الاضطهاد ، تناهت قوة النفوس إلى الحرية والرغبة فى الملاذ التى ظهرت فى عهد إحياء العلوم فى أوروبا ، بعد أن كانت تغرى المرء بأن يضطهد نفسه ، ويحرمها اللذات فالقوة دواؤها فى دائها والشر يحو الشر ، إن سعادة أمة وشقاها أمر ضئيل إذا قيس بالسنة التى قضت بسعادة الأمة أو شقائها وكما أن الفرد وسيلة من وسائل القضاء ، كذلك الأمة وسيلة لا غاية.

هنيئاً للأمة التى ترى فى قوى الطبيعة مرآة حياتها فتعظها قوى الطبيعة فتعظها القوة التى فى الغصن الداوى تذويه ، والتى فى الغصن المورق تكسوه قوى الفناء وقوى الحياة ، وليس الفناء إلا مظهراً من مظاهر الحياة وسبيلاً إليها .

ولاريب أن يقظة النفس وإحساسها عظمها ليس مما يتهاى لكل نفس ، ولانما يستقيم فى كل حال ، ولكن النفس ليست الحجرة الصغيرة تعرف ما تحويه فليس من الرأى أن حكم على نفس بالقدرة أو العجز ، إذ أن فى كل نفس قدرة كثيرة ، وعجزا كثيراً وصفات متباينة وشمائل غائرة غافلة .

القوة ملأ الحياة والنجاح فى تذليلها ورياضتها كما تروض المطية وهى كالحسناء لاتروضها إلا بأن تكون جريئاً عليها . لايعبد أحد القوة بأحسن من تعرف مكانه فى نظام الوجود وما ينبغى له أن يكون .

إذا نظرت فى الوجود رأيت أن القوة أعظم من الفضيلة لاريب فى أن الفضيلة قوة ، ولكن الطبيعة لاتأنف من أن تجعل القوى غالباً للفاضل إذا كان فى ذلك وسيلة من وسائل الرقى انظر فى التاريخ تر أن صاحب الرذيلة قد يغلب صاحب الفضيلة ، إذا كانت قوى الأول أكبر

من قوى الثانى هذا شئ قد يحزن الباحث ويدفعه إلى اليأس ، ولكنه إذا جد فى بحثه، رأى أن ذلك معين على الأمل وسائق إليه .

إن الطبيعة تخرج الخير من الشر ، وتخرج الشر من الخير وينبغى أن لا يجارها أحد من الناس بأن ينصر القوة على الفضيلة ، لأن ما يحل للقضاء لا يحل للناس فالشئ يعد خيراً أو شراً إذا نسب إلى الإنسان، ولكنه إذا نسب إلى القضاء لم يكن خيراً أو شراً هذه سنة الله، من خالقها بأن يجارى القضاء فى فعل الشر ، خسر بفعله ما كان يربحه إذا لم يفعله ، فيخسر من ضميره وصحة عواطفه وطهارة خلقه وسكينة نفسه فهو وإن كان رابحاً بفعل الشر من مال أو جاه أو منفعة فإن الذى يخسره من سعادة أكثر من الذى يربحه من مظاهرها ، لأن السعادة ليست دائماً فى المال والجاه والمنفعة ولكنها فى سلامة الضمير وصحة العواطف وسكينة النفس ، فإذا كان المال والجاه والمنفعة سائقة إلى طهارة النفس وسكينتها كانت السعادة فيها، ولكن من فعل الشر خسر طهارة النفس وسكينتها وسلامة الضمير وهدوءه .

إن وقوع القضاء بما لو فعله الإنسان عد فى الشر ينبغى أن يكون دافعاً إلى اليأس أو الحزن أو باعثاً إلى مجازاة القضاء فى مواجهة الشر، لأن شريعة القضاء غير شريعة الناس وليس كل حلال له حلالاً لنا ، لأن الإنسان لا يقدر أن يخرج من الشر خيراً ، وإنما الاضطهاد فى الدين سببه إنكار أعوان محكمة التفتيش هذه السنة الكبيرة (أى أن الإنسان لا يقدر أن يخرج من الشر خيراً) فكان إنكارهم إياها باعثاً إلى مواجهة جرائم كثيرة من قتل وتعذيب، والتخلق بالقسوة وغلظ الإحساس . جهل الجزويت هذه السنة، فكان أحدهم يكذب أو يخون من أئتمنه أو يتجسس على من أضافه ويسعى به عند المضطهدين ثم يزعم أنه إنما أتى الشر كى ينصر الفضيلة والخلق الحميد .

القضاء أوله فى الأزل وآخره فى الأبد فهو من أجل ذلك يأتى بالشر كى يدفع به الشر أما الإنسان فعمره أيام قلائل ، فينبغى له أن يجعل قواه فى جانب الخير ، لأن بقاء الوجود فى ذلك فإذا كان جانحاً إلى الشر بأن تكون الوراثة والبيئة والتربية قد غرست فى نفسه عوامل الشر، كان فعله الشر جالباً له الشقاء ولا أريد أن أقول إن كل شقاء سببه فعل الشر، ولكنى أقول إن كل شر نتيجة خسران، وإن كان من نتائجه ربح أيضاً .

لا يجوز لأحد أن يقول إن العقاب الذى يجلبه فعل الشر على فاعله جزاء لفاعل الشر لأن الجزء لا يكون إلا إذا كان المرء غير مقيد بقيود الوراثة والبيئة والتربية ، فإن هذه أنصار

القضاء والإنسان عبد القضاء وليس الشقاء الذى يجلبه فعل الشر على فاعله جزاء أو العقاب الذى تضعه الحكومة للجانى عقاباً ، وإنما هو نتيجة طبيعية ، فلا يجوز لنا أن نسميه جزاءً ، كما لا يصح أن نسمى ذبول الأزهار أو احتراق فتيلة المصباح أو تحول النار إلى رماد عقاباً لها ، ولكنه نتيجة طبيعية ، وكما أن القدح إذا رميت به على صخر تكسر ، كذلك الإنسان ، إذا أتى الشر خسر ، إنه من الخطأ أن يزعم زاعم أن عقاب الحكومة للجانى ظلم له ، كما أنه من الخطأ أن يزعم آخر أن تكسر القدح أو ذبول الأزهار أو احتراق فتيلة المصباح ظلم لها ، فشقاء الإنسان إذا كان قد أتى شراً ليس بظلم ، بل هو نتيجة طبيعية وكذلك شقاء الإنسان إذا لم يأت شراً بأن يكون ضعيف العزيمة أو مهيج العواطف فكما أن البخار المحبوس إذا عظم كسر الإثناء ، كذلك العواطف المهيجة القوية ، تحز فى نفس صاحبها وتشقيه فلا يصح أن نقول إن صاحب العواطف المهيجة قد ظلمه القضاء ، كما لا يصح أن نقول إن الإثناء الذى حبس فيه البخار مظلوم ، وإنما الفرق بين ذلك الإثناء وبين صاحب العواطف المهيجة أن الأول لا يتألم وأن الثانى يتألم ولكن القضاء لا يعوقه تألم الإنسان لأن ألم الإنسان شئ ضئيل فى سبيل الحياة ، ولولا الألم ما ذبقت اللذات .

إذا بلغ الإنسان منزلة من العرفان يعرف فيها حقارة حياته الخاصة ، بأن يعرف مقدار جلالة الوجود رأى أن القضاء غير ظالم فى الحكمه ، ولو أن ذلك رأى لا يذهب آلامه ، فقد يعينه على احتمالها ولا يعرف المرء مقدار جلال الوجود إلا إذا عبد القوة فى جميع مظاهرها ، فيعبد القوة فى الجسم والخلق والإرادة والفكر .

إن فى نفس المرء عزمات نائمة إذا لقيت من الحوادث ما يثيرها غيرت مجرى القضاء وإن نوم تلك العزمات سببه يقظة عوامل فى النفس تسعى إلى غير ما تسعى إليه تلك العزمات وهذه العوامل تعين مجرى القضاء أيضاً فالقضاء لا يقع إلا بما تريده النفوس ولكن قوى المادة لها تأثير فى النفوس ، فإنها تحد قواها وتعين عواملها والنفوس قوى من قوى الطبيعة ، وكذلك قوى المادة ناتج من انتصار قوة على قوة .

قوموا بنا إذا نتعرف سبيل تذليل القوى وترويضها ولا يستقيم لنا ذلك التعرف إلا إذا قلقتنا كل القلق لأن اطمئنان المرء وسكينته تفسده كما أن ركود الماء يفسد الماء . الاطمئنان والسكر والغفلة والعجز والنوم إخوة يحزنتنى أن أرى أكثر المصريين هادئين ناعمين لا يتساءلون عن معنى الحياة ، كأن الأحياء منهم رفات الأموات .

أكاذيب الحياة

وجدت لكل أمة داء وداء هذه الأمة أنها ترضى من الغنيمة بما لا يروى ظمأ ولا ينقع غلة فهي إن وقعت على المظاهر سكنت إليها ثم لاتلبث أن تجعلها بالمكان الأجل لأنها تضع على سيئاتها حجاباً منوعاً ، وتخلق لها من النفاق والكذب حسنات تخدع ذا البصيرة العمياء والرأى الضئيل . ونفس العاجز تنأى عن الحقائق ذعراً منها وقصوراً عن شأوها الأبعد ومرماها الأشرف ، وهى إن وجدت ما يكسوها مهابة واحتراماً عند قوم يقرنون الفضل إلى ضده ، كانت سريعة التلبس به ، رغبة عن النصب واحتمال العثار فهذا نوع من الجبن يقعد بالنفس عن إدراك الفضل الأغر حتى إذا راجعها المرء قالت له أرح خطاك وأبق على قواك فإن فى النفاق فضلاً لايعوزك ، وهل رأيت أحداً من أهل الفضل ، ساد بعد خموله من غير أن يجعل النفاق مدرجة الرقى ثم لاتزال به حتى تأسر عزيمته وتخدع همته ، والنفس خلافة .

ولقد زميت باللحظات والفكر إلى سيد ومسود ، قرأيت المظاهر تفعل بهم ما لا تفعله الخمر بقتلاها ، ولا يلحقه الهوى بأسراه فليس الغنى فى عزه وجاهه بأبعد منها منزلاً من الفقير المتحيل لرزقه ، ولا الفتاة العذراء بأعلق بها حبلاً من العجوز الشمطاء ، ولا الفتى اليافع بأحسن صلة من الرجل الجليد ، لا والله ولاينجو من حباتها التى هى أوسع من حباله الأمل ، العالم الذى يزهى بعلمه وأدبه فما ظنك بالدعى الذى هو أحوج إليها . وهكذا يسلك حبل المظاهر الابن والأب والبنت والأم والسيد والخادم والتلميذ والمعلم والقاضى والمحامى والعصامى والأصيل .

وإنى محدثك عن صديق صحيح الرأى والفضل إلا أن به فرقاً من ذلك الظالم الغصوب الذى يدعونه الرأى العام فكنت إذا عاتبته فى شىء أتاه من تلك المظاهر التى تفسد النفس ، أذرى دمة يود لو أنها دمة التوبة ، ثم يقول شر النقائص ما تلبس به المرء عن كره له وأنت تعلم أنى لا أتى من المظاهر إلا ما يدفع عنى غوائل رأى العامة وقولهم فيمن خالف مذاهبهم ، والمداواة أحسن حالا ، وأسلم ما يتذرع به المرء فى نفى ما يسوءه ، ولو علم ذلك الصديق أن المجاراة لاتكون إلا فى الفضائل ، وأن الناس لم يفسدهم إلا نوع من تلك المجاراة حتى أصبحوا مثل الأنعام ، يفعل أحدهم السيئة فيتهافتون عليها لمحا تلك الدمة اللثيمة التى هى

شفيع النفاق واستبدالها بأصفي منها عنصراً وأكرم نسباً وكيف نطبق ذلك الحمل الثقيل الذي يضعه علينا رأى العامة إذا وضع السنن والعادات وهو رأى الجهلاء فى عهد يلقاك أحد أبنائه بوجه وقاح كأنه قد من أديم النعال فيقول بملء فيه أنا كذا ويعزو إلى نفسه من الفضائل وأصناف العلوم حتى لكأنه ارتضعها من ثدى أمه.

ولقد جعلت من بعض همى أن أنقب عن نقائص أهل المظاهر ، وأن أعرضها على هذه الصحف لعلها تكون مرآة ينظرون فيها مالا يبصرونه فى أنفسهم والمرء عمى عن عيب نفسه خبير بعيب غيره ، فمن هؤلاء الداهية اللثيم، فى ثياب الحر الكريم، ينصب حباله ويبرى نصاله ويشخذ آماله وهو يقول : (يا ليت لى نعلين من جلد الضبع)

ومنهم صاحب الذى يطوى قلبه على دخل ، تسره سيئاتك وتسوء حسناتك ومنهم الداعى إلى الدعوات الاجتماعية الذى يدور مع الزمان كما أراد ، ولا بغية له إلا أن يعتلى على رقاب الناس ، فهو فى تنقله مثل خيام العرب (يوماً بحزوى ويوماً بالخليصاء) .

أو مثل قلب الوارث إذا سئم من هلك ، رده صاحبه إلى هلك، ومنهم الشيخ الذى يكيد بصلواته ويعصى الله فى خلواته ثم يقول قول الشريف الرضى.

كم عرضوا لى بالدنيا وزخرفها لمع الهلوك فلم أرفع لها رأسا
وكيف يقبل وفد الناس محتملاً ذل المطامع من لا يحمد الناسا

ومنهم ذو الشراء الذى لا يرى المجد إلا فى وسام يجله العيان ويحمده البيان. ومنهم الفتى اليافع الذى يتفق فى شراء ملابس ما لاتنفقه العروس ومنهم قتيل السياسة الذى يطوف ما يطوف حتى إذا انهك بدنه فى نهاره ، رجع إلى بيته بصوت قد يح ، وارتمى على فراشه ثم تحجى العجائز هذه تصب الماء والملح فى أذنه وتلك تصب الخل فى أنفه وهو بينهما ينشد قول بشار،

سترى حول سربرى حسراً يلطمئن لطماً

ومنهم الوارث الذى يضيع ماله المورث بين الحان والحسان، ثم يتطلع إلى أموال الفتيات الوارثات ، فلا يزال يخدعهن بزي غرض ودمع غزير، فتتهيم الفتاة بين ماله وجماله حتى إذا كانت ليلة الزفاف، وعلمت أنه خالى الوفاض أخذت بأذنه وبرجله ، وجعلت تقول .

وغررتنى وزعمت أن لك لابن فى الصيف تامر

وإن خليقًا بنا أن نعرف أن لاهياة لقوم يهتمون بالمظاهر ، وأن نتخلص من تلك السنن والعادات التي تسنها المظاهر، والتي تنزع الفضائل من النفس وتضع مكانها حياء مكذوبًا ، وترفعًا عن غير ريبة وتأديًا ظاهره صدق وباطنه نفاق ، وقد ورد في قصة نوترام للشاعر الفرنسي الشهير فكتور هيجو أن فرنسا أرادت مرة أن تتغلب على بلاد فلندر فجاء سفراء هذه البلاد إلى باريس عاصمة فرنسا رجاء في نزع الغل من صدور المعادين، والتماسًا للسلم الذي تقوم به المعيشة الطيبة، فكانوا على جلالة قدرهم وعظم تراثهم يجالسون الفقراء والمساكين، ويمرون أبناء السبيل، ثم إذا جاء وقت الغذاء افترشوا الأرض ويسطوا أمامهم الخبز والجبن، وجعلوا يأكلون هنيئًا مريئًا لا يبالون قوله لائم ، وكان أعظم الفرنسيين يزدرونهم وينفرون منهم، نفار المعمود من طعامه فقال لأعظم الفرنسيين رجل محنك منهم، والله إن هؤلاء لقوم خشن عند الحفيظة إذا لان غيرهم صلبوا ، وإنهم والله لأعظم منا وحمية أكثر التماسًا للحقائق، وأقل اهتمامًا بالمظاهر وهم على صغر ملكتهم وقلة عددهم أقوى من أن نهتضمهم لأنهم لم تأسروهم المحاكاة .

انظروا إلى فعل هؤلاء يا قومنا ، عفا الله عنكم فإننا لنعهد منكم أن كلمات الفخر والإدعاء أقرب إلى أفواهكم من قول الحق فكأنها ، كما قال البحترى (كالحيل خارجة من جبل مجريها) .

أى والله ، لكأنها خيل فى حلبة السباق استعارت سرعة للبراق ودييب الترياق . ثم إذا نبغ فيهم الرجل العظيم نبحوه ، كما ينبغ الكلب ضوء القمر. وإنما مثل هؤلاء الذين يرضون بحالتنا الاجتماعية وبذلك الأصوات الجانحة فى طلب الإصلاح، مثل الطفل الصغير الذى إذا نظر إلى الماء ورآه ساكنًا زعم أنه قريب الغور ، وإذا رآه هائجًا مائجًا زعم أنه بعيد الغور ، وهذا خطأ لأن قرب الغور ليس من لوازم سكون الماء وكذلك بعده ، ليس من لوازم هياج الماء .

الرغبة فى الإصلاح هى سخاء المرء عن ماله وجهده وقوته وجاهه وقدرته وسلطانه ، فى سبيل نفع وطنه وإن أحسن ما يخدم به وطنه، إحياء العلم وإنماء التربية التى تنعش النفوس ، فتسرى بها مسرى الرائحة الطيبة فى أنف الناشق التعب، أو كأنها نفثات المسيح التى كان يحيى بها الموتى وإنما مثلنا مثل الرجل الذى أخذه تيار الماء، ولكن لم يتوغل به. ثم هو لا يزال قادرًا على تخليص نفسه بإجهاد قواه إجهادًا شديدًا ولكنه إما أن يتهم قواه بالعجز ،/ وإما أن

يتراخى عن إجهادها زعمًا منه أنه إذا استنجد برجل على الشاطئ أسعفه الرجل ووفر عليه قواه .

إذا ظل رأى العامة هكذا قائدًا للداعين للإصلاح مرشدًا لهم، وهم منه هيابون عيافون لمراجعته ، صرنا فى غمرة وأية غمرة.

ثم إذا ظللنا هُكِّذا نعتمد على غيرنا، كنا كالمتموكن على الماء أو الهواء أو المتخذ من المحيط عصا أو الذى يميل على جسم من مال .

إن فى بردى جسمنا ناحلا لو تركأت عليه لانهدم

بين الرغبة فى الإصلاح وبين ما يأتى قبلها من دور القول، مثل ما بين صوت المدفع وصوت القربة، كلاهما عظيم ، ولكن وراء صوت المدفع من القوة ما يحط الصخور من شماریخ الجبل الأشم ، وليس وراء صوت فرقة القربة إلا هواء يدخل فى فراغ .

الأمة أغنى من الحكومة وأقدر منها على إصلاح أمرها، وأعرف منها بآماكن الفساد، وأعلم منها بطرق إصلاحه ، ولا ينقصها إلا أناس يناصرونها العتاب والعذل والنقد حتى يوقظوها من نومة العجز .

إذا أخذت شيئًا من الطين ورميت به الحائط . بقى بعضه عليها ، فاذا فعلت ذلك مرارًا كثر ما يبقى على الحائط من الطين وكذلك الرجل المصلح فى اجتذاب رأى العامة الذى ، إذا جعله العلماء قائدًا لهم ظغى عليهم وازدراهم .

يغىظنى أن أرى الناس قد شملهم الادعاء وأباحوا لأنفسهم أن يجهروا بأفكارهم ، وهى لم تنضج بعد ، فلا يقرأون من الكتب إلا ما كانت آراؤهم تتطلع من سطورها ولو أنصفوا لأخذوا بقول الفيلسوف الأديب رسكين ، إذا لم تجد فى الذى نقرأه سوى ما يجول فى فكرك من المعانى ، كان خليقًا بك أن تهجره إلى ما تتطلع منه غرابة المعانى ، فتتنظر فيها نظر الباحث فى المنظار المكبر، ثم هو إذا لم يحسن النظر إليها كان خليقًا أن لا يعرف صحتها.

مثل الكتاب اليوم مع القراء مثل الطاهى الذى يتعرف ذوق مولاه، فى طعامه وشرابه طمعًا فى أن يرضيه ، وهم يرمقون رأى القارئ ، كما يرمق المنافق مولاه المستبد ، ويقرظونه بأحسن من مدح الشعراء فى الخليفة هارون الرشيد.

ولقد فاتهم أن الأصل في النقد رغبة الناقد في أن يسد النقص من الفضل فيدعو الفاضل بذلك إلى استئناف رقيه في منازل الفضل ، والناقص إلى الخروج عما تلبس به من الضعة فهو أصل من أصول العمران ، وعامل من تلك العوامل التي تسعى في تهذيب أمور الحياة ، وتنظيم شؤونها وأصلة الرغبة في الحميد الحسن .

إن هذه الحياة منازل يعمرها الناس ، فمنهم الفاضل ومنهم المفضول ، فإذا وقع النقد على امرئ في إحدى هذه المنازل كان ذلك داعية إلى طموحه ، والطموح سبب من أسباب التعلق بالرغبة والوصول إليها . قال الاستاذ محمد عبده كل نقد فحشوه لوم حتى ما كان منه قاصراً عند بث المحمودة والإقرار بالفضيلة ، فإن حمد الكامل عدل للناقص على التقصير وإزعاج للمحمود وزجر له عن ملابسة الإغواء فالتقد كما قال الأستاذ لوم لمن وقع عليه وهو أيضاً تنبيه لمن لم يقع عليه فإذا كان وقوع النقد على من هو أرفع منك منزلة في الفضل ، كان في ذلك إظهار لما أنت فيه من الضعة فتأبى نفسك أن تعمرها بعد ذلك ، وترغب فيما هو أقرب إلى الكمال ، وإذا كان وقوع النقد على من هو في منزلة من الفضل ، مثل منزلتك خفت أن يتعداه إليك فيلحقك منه مالا ترضاه .

على أن النقد إذا كان آلة في يد من لا يعرف كنهه أو في يد من لا يريد أن يقوم به بحيث لا يتعدى معانيه التي وضعت له ومبانيه التي أقيم عليها ، سهل على المضللين أن يخادعوا الناس عن معاني العظمة والحقارة ، خذلاً للحق وانتصاراً لأهوائهم .

وإذا تقصينا مواقع النقد وعددنا نتائجه ، عرفنا أن خيره قريب من شره ، وهما يسلكان مسلكاً واحداً ، فخيره في عدائه للغرور الذي يحدثه كثير من الثقة بالنفس ، وشره في عدائه للأمل والإطمئنان الذي يحدثه قليل من تلك الثقة .

وإذا نظرنا في شؤون الحياة وجدنا أن النقد تختلف أزياءه ومذاهبه والقائمون به فإن العالم الذي له في البحث عن أصول الأشياء مجئ ومذهب ، والخطيب الذي يقرب في فمه مقولا كشقشة الجمل ، والشاعر الذي بين قلبه وقوله صلة ، مثل التي بين أليفين متحابين ، سواسية في استعمال النقد وتتبع فضائله ثم إذا نظرنا في أمور الناس ، وجدنا أن كل إنسان ناقد منقود وأن العمران لم يستقر إلا بما وراء ذلك من التوفيق إلى منازل الكمال .

ولقد قال النابغون ما أملت عليهم عقولهم من الآراء التى يريدون أن يصلحوا بها نظام المعيشة ، ولكنهم يودون أن يصلوا بالناس إلى غاية الكمال ومنتهى الفضل ، فيأخذون بأسباب تقصر عن آمالهم .

على أن رأى فى هذا لا يقع على رأيهم ، لأن تلك الحياة التى ينشدونها ليست حياتنا التى ننعم بما صلح ، ونسعى فى تلطيف ما اضطرب من أمورنا ، لأن منزلة الكمال ينتفى عنها التفكير والعمل والإقدام ، وغير ذلك من الصفات الحميدة التى لا تكون إلا إذا وجدت مجالاً لها وغاية تسعى إليها .

وربما قيل إذا أراد مصلح أن يصل بفاسد إلى درجة من الإصلاح ، فإنه يدفعه فى هذا السبيل إلى منزلة أبعد ، لأن السعى يعود بأقل منها فإذا زاد عن القدر المطلوب ، كان وقوعه عليه بسبب اعتراض العقبات ويكون المصلح فى هذه الحال ، مثل الذى يرمى بسهم إلى جهة تهب منها الريح ، فإذا أعطى الريح ما تتطلبه من إجهاده نفسه فى إرسال السهم ، كان موقع السهم موقع آماله فيه ، وإنى أقول ، هكذا يجب أن تكون عزائمهم التى تدفعهم إلى الإصلاح ينبغى أن تكون موصولة بأبعد مما يريدون منه ، ولكن الوسائل التى يتخذونها فى هذا السبيل يجب أن تكون موافقة لحال الفاسد الذى يريدون إصلاحه ثم إن للإصلاح طريقين أحدهما أن يبتدع المفكر نظرية يحسبها تكفل بتنظيم أحوال المعيشة ، ثم يحمل الأحوال على أن تتحول حتى تشابه هذه النظرية ، والطريق الثانى أن ينظر المفكر فى أحوال ما يريد إصلاحه وتاريخها وأسباب اجتماعها ثم يستخرج لكل حال وسيلة لإصلاحها مشاكله لها .

ضحايا الحياة

قد يحسب المرء أنه يؤثر نفعه بما يسعى إليه في مساعيه ، وهو يسعى في غير علم إلى نفع غيره ، كالعظيم العبقري الذي يرضى عواطفه ولا يفهم غاية قوله ولا يدرك تأثيره ولقد يكون قول المفكر كالنهر الذي يختفى في باطن الأرض في مكان ، ليظهر في مكان آخر يجهل أهله مصدره ، وكالماء الذي تشربه ولا تفطن عند شربه إلى أنه من ماء المحيط وكل امرئ في الحياة يضحي كثيراً من حياته لنفع غيره من غير أن يفطن إلى ذلك وقد زعم شوبنهاور أن قاعدة التناسل ، هي هذه التضحية إذ أن العاشق يحب من الغواني من يختار ويصطفى ، فيظن أن ذلك الاختيار من مشيئته ، وهو من إرادة الحياة العامة التي قد تغري المرء بأن يحب نقيضه لما تستقيم به أغراضها ولا تستقيم به سعادته في كثير من الأحيان.

والناس كالماء ، فمن خاف من الناس أن يمتزج نفعه بنفع غيره أو أن ينعدم فيه ، كان كالماء لا يختلط فيركد فيويى. فلا رأى لمن يقول إن أساس الحياة حب النفس لا أساس غيره فليس للحياة قاعدة واحدة ، بل إن أساس الحياة جانبان نقيضان في كل معنى من معانيها ، وفي كل قاعدة من قواعدها وفي الآراء والأخلاق.

وكما أن حب النفس أساس للحياة ، كذلك التضحية أساس آخر ، ولا تستقيم الحياة إلا بهذه القاعدة المزدوجة انظر إلى الأخلاق تر أنها توسط بين نقيضين ، كالحزم الذي أساسه الخوف والشجاعة ، والكرم الذي أساسه الاقتصاد والتبذير .

إن الرجل العظيم في الأمة كالمحرك أعماق الماء ، قد يؤدي بصفاء الركود وبهيج القذى كما يهيج الدر والعظيم يخلط بين حب النفس والتضحية في نفوس الناس ، حتى ينتفى العداء بينهما كي تستقيم أغراض الحياة ويخرج بالناس من النظر الأقرب إلى النظر الأبعد ، ومن المعيشة في حقيرات الأمور إلى المعيشة في الحياة العامة . أتحسب أن أفراد الجماهير التي نقاتل في حروب أوروبا تبغى باقتحامها أتون الحرب الزبون ربحاً يناله كل فرد يسوقهم تغالب جنسيات الذي هو مظهر من مظاهر روح الحياة ووسيلة من وسائلها ، وليست التضحية قاصرة على ما أتى المرء عفواً من غير فطنة إليه ، بل إن أجل التضحية ما أتى بعد الفكر ، والتألم

فى مغالبة النفس وزجرها ، ولاينفى هذا الألم لذة يجدها من يختار سبيل التضحية ولا نقول إن كل امرء قادر على أداء مطالب روح الحياة ، أو أنه قادر على أن يريد أداء ذلك وأمثال هذا يخدمون روح الحياة بالتناسل ، والمحافظة على القديم من الأنظمة وبالأعمال اليومية ولا تنكر عليهم منزلتهم ولكن تنبيه النفوس ، يوقظ فى بعضها من القوى ما لم نطقن إليه. هل كان الأنبياء والمفكرون والمصلحون لا يفكرون إلا فى سلامة لحمهم وجلدهم وشهوة بطونهم ؟ وليس أعظم الناس خدمة لمطالب الحياة الخالدة العامة أكثرهم رغبة فى خدمتها ، بل إن كثيراً من العظماء ، كانوا ينقمون من روح الحياة قهرها إياهم على العمل فيما فيه عدا الجماهير لهم، ولكن ينبغى أن لاتنظن أن وجود الرغبة أمر لافائدة فيه، فإن الرغبة تفتق الحيلة . ومن لا يقدر على الكثير، قد يمكنه القليل .

وللرغبة على أى حال أثر فى عمل المرء وخلقه ولا مرء أن بعض العظماء كانوا غافلين عن نفعهم للنوع البشرى ، وتحققهم مطالب الروح العامة فيه، ولكنى قدمت أن سبب صدق السريرة والتضحية ، والتضافر ، إحساس المرء أن شخصيته الفانية ليست هى روح الحياة التى تحس فيه، فلا يحس غيباً إذا أغرته روح الحياة بتفضيل مطالبها وتحقيقها ولا تنكر على الناس غريزة التوقى وحب النفس ، ولكننا نوضح أنها ليست الأساس الذى لا أساس غيره للحياة وكل رقى فى العلوم والآداب والحضارة أساسه التضحية والتضحية لها وقت لاتتعداه ، فإن تعدته كانت أسلوباً من أساليب الندم، ولا تكون التضحية ما دام الفرد مقدساً ومن نفع الثورة الفرنسية أنها أبانت مزايا تقديس الفرد من الناس، ونصرته على الحكومات الطاغية التى كانت قبل عهدها، ولكن بعض فلاسفة القرن التاسع عشر بلغ بالفردية إلى منزلة جعل فيها أفراد الأمة الواحدة كأن كل فرد منهم دولة مستقلة وكأن الحكومة مجلس سفراء بين هذه الدول الصغيرة وعلى هذا القياس ، يصير لكل فرد حقاً فى أن يكون جاهلاً أو غيباً أو ضعيفاً وأن له حقاً فى أن يموت جوعاً ، كى لاتأخذ الحكومة من فرديته وحرية بالنظر فى أمره ، والتدخل فى كل صغيرة من صفات أموره.

إن فكرة التضحية فكرة راسخة فى أذهان الناس من القدم إلا أنهم لم يعرفوا كيف يستخدمونها ، فكانوا يتقربون إلى آلهتهم بالضحايا البشرية ونحن نعبد الله أيضاً بالضحايا البشرية حق عبادته بأن نضحى من أموالنا ومساعدتنا وأيامنا وليالينا ومن مجهودنا كل عزيز

فى سبيل تحقيق مطالب الروح الخالدة، التى إنما تحقق بما تؤدى إليه المنافسة بين عناصر الحياة والأجناس من تجديد الحضارة ونشرها واثار الفكر وإثارة إحساس الناس بالحياة فالدين أن يهين المرء أمته قدر استطاعته ، كى تؤدى نصيبها من الجهاد فى سبيل الحياة والعمل لها ومن أجل ذلك كانت الآداب والعلوم والمخترعات واللغات والحضارة، من مظاهر جهاد الأجناس ومنافستها واعتلاتها كما يتضح لك من حضارة المصريين واليهود والإغريق والرومان والعرب والتوتون .

ولما كان أساس التضحية صدق السريرة الذى سببه إحساس المرء بحياته العامة ، صار من يختار سبيلها ينتصر على الهزيمة ، لأنه يصير أسمى من الهزيمة منزلة، فانما تعترض الهزيمة مطالب الحياة الخاصة، ولا تعترض روح الحياة العامة التى تنبه إليها فوجدها فى نفسه والسعادة هى اعتقاد المرء أنه أعظم من النجاح والفشل ، وأنه أعظم من أن يجد لذته فى أن يكافأ ، فإن لذة النفس العظيمة فى أن تعطى الناس من عظمتها أكثر من لذتها فى أن تكافأ على ذلك الإعطاء ، فإن النجاح هو إحكام العمل ، لا مديح الناس، وصدق السريرة يشعر المرء كأن نوراً عليه ، فيسعد بنور الله .

على أن حب المكافأة على العمل قد يكون ضريباً من ضروب اللؤم ، وكما أن الزهر لا يتطلب جزاء على نفحته ، ولا المطر على مطرته ولا الشجر على ثمرته ؛ كذلك النفس العظيمة، لا تتطلب جزاء على عظمتها، وحسبها أن صدق السريرة ينبت الشجاعة فى النفوس، فيبرز منها الشهداء الذين يلتذون آلام الشهادة ، والذين يعلمون أن الحياة ثمن الموت ، وأنهم ليسوا خليقين بأن ينالوا راحة الموت إلا بالجهاد .

إن من أمكنه أن يعتقد أن غاية الحياة المأكل والمشرب ولم يحتقر نفسه من أجل هذه العقيدة ، فهو حقير ، ومن كان لا يعمل إلا رغبة فى الجزاء وكان يحترم نفسه بالرغم من هذه الخلة فهو حقير، ولا تغبط أمثال هذا فإن وراء لذاته أعظم وأجل هيهات أن يلتذها .

أكاذيب العشرة

لا مرء أن أكثر أعمال المرء وأقواله يرجع إلى حب النفس ، وإن كان لها فى بعض الأحيان مرجع ثان ، فإن الدوافع المتغايرة قد تشترك فى الاغراء بعمل واحد ومن أجل ذلك كانت مودات أنفوس ممزوجة بشئ من الأذى يبعثه حب المرء نفسه ، ورغبته فى أن ينتفع بصاحبه فكل امرء يضرر جليسه شيئاً من الكيد والكراهة ، لأن نال منه جليسه فيما ينفسه له فى كلامه ممزوجاً بشئ من المحبة ، لأن نوله جليسه من نفسه بأن سمع ما دسه هو جليسه من كلامه ، هكذا عشرة الناس ، وأكثرهم غافل عن بعض نفسه ، وبعض نفس جليسه ، وبعضهم يفتن إلى ما شرحناه وكلهم يحس أن ما شرحناه عدلاً ، وإذا فطن أحدهم إلى لؤم هذه العشرة انكروه وابتغضوه وحاولوا إخفاء الحق الذى فطن إليه فانه لايتهم بها أفرادهم حتى يغفر له ذلك بعض الناس ولكنه يتهم كل الناس فلا يغفر له أحد .

إن لؤم الخلق فى عشرتهم ، كالملاح فى طعامهم ولا مرء ، فإن الحياة تخرج من الشر خيراً ولولا الخلق فى العشرين لتبذوا العشرة ، كما ينبذون الطعام الذى لاملح فيه ، فإن المرء لا يغفر من لؤم عشيره إلا مشاكلته له واقتراحه به . وإن المرء ليحس أنه إذا آلم جليسه ، كان أحسن منه حالا وهذا الإحساس يرضى المرء عن نفسه ، ومن أجل ذلك ، يجلس الناس بعضهم إلى بعض ، كى يجسد كل منهم لذة لنفسه فى إيلاام جليسه . فهم يجتمعون كى يسر كل امرء منهم بجليسه ، ولكنه سرور معكوس فهو إنما يسر به أنه فرضه لإرضاء نفسه وإشعارها أنها أسعد حالا من جليسه ، بمحاولته خفضه ليرفع من نفسه بحفضه ، فينشأ من هذه العاطفة المزج السهل البسيط فى البيئات المهذبة ، وينشأ اللؤم والمكر والكيد والإسفاف فى البيئات المسفة فى الشر المتدلية إلى الحضيض منه .

فبعض الناس يتصيد الناس فى مجالسهم ، ليسد مجرى كلامهم بهجائنك ، يحسب أن ذلك الهجاء يرفع من شأنه ، وبعضهم يتلطف إليك حتى إذا أنست به وسكنت إليه ، ذهب يشيع فى الناس أنك تتقرب إليه وتتودد له ، وإنما يفعل ذلك كى يزيد عظما فى أعين الناس ، ومنهم من يتواضع لك لكى تواخيه . حتى إذا جالسته انتهز مشهد أكابر الناس فيرفع عقيرته ، كى يوهم الناس إن له دالة عليك ، وأنه أعظم منك منزلة ومنهم من إذا رأى لك حسنة كتّمها أو مدحها بما يشعر الذم تعريضاً أو تصريحاً ثم إذا وجد خسة لغيرك ذكرها وأعاد ذكرها ، كى تتبرم بما يعنى ويقدر إليه من الرغبة فى تحقيرك ، ثم تراه يلوم أهل الحسد ، موهماً أنك منهم ويذم أهل

الحبيث ويدعى صفاً السريرة وصدقها ويدعى أنه مخلص لك.

وادعاه الإخلاص بعد انتقاصك ، والكيد لك ضرب من المكر والسب ، إذ لو عرف بين الناس بعداوتك ، ما نال منك قدر نيله منك بادعاء الإخلاص ، فإنه لو عد عدوك خشى أن يحمل الناس تعريضه بك على عداوته ، فيدعى الإخلاص لك كيما يقول الناس إذا نبهتهم إلى مغامره أنك لا تبغى منه الحق ، وإنما تبغى منه مدح المتحيز لك. ولو أنك شرحت للناس ما شرحناه هنا من لؤمه كي تتقيه ، لرأى مجالا للتخلص منه بأن يمدحك في بعض المجالس مدح المفرط ، ثم يصفك بسوء الظن كي لا يلومه الناس على مغامره وكي لا يصدقوك إذا ألحت لهم بها وكثير من الناس يخلط في سوء الظن ، فيعده كله مغالة ووهماً ، وقد يكون منظراً .

ومن الناس من إذا عرض بك أمامه معرض أو ذمك قاذح ، جعل يمدح أمامك قاذحك وهاجيك كي يؤلمك ، كأنما يقول لك في تضاعيف كلامه إن قاذحك من أهل الصدق والفضل ، إذا وصفت له خلق ذلك الحبيث عارضك ، وكأنما يخشى أن يصيبك البطر إذا لم يؤلمك وإن من أهل الحبيث من يحسب أن الناس لا يفطنون إلى خبثه وهذا قصر في النظر لا يتفق مع ما يوصفون به من العقل ، ويعدون من العقل أن يحاول المرء أن يكون خبيثاً من غير أن يفطن الناس إلى خبثه ، ويظنون أن الناس لا يتعاضون إلا ليبرز كل منهم في إساءة عشيرته ، تصريحاً أو تعريضاً حسب ما توطئه لهم الظروف وهذا مثل ما يحكى من القصص ، فقد زعموا أن بين الحشرات حشرات إذا ازدحم مكان بها بالت كل حشرة على أختها ، كي تخلق لها الطريق وكذلك هذه النفوس الحقيرة ، فإن كل مودة من موداتها ، دنس ترمى به غيرها كي يقال أنها أظهر منها فتنتفع بهذا القول وتتكسب به. ومن الناس من لا هم له في معاشرتكم إلا مدح نفسه أمامك فيتطلب منك أن تصفى إليه كأنما يلقي عليك علماً وحكمة ، وهو إنما يلقي عليك ما يلقي الطبيب على تلاميذه من أوصاف الرمة البالية ومنهم من لا هم له من معاشرتكم إلا أن يجد منك مادحاً له ، فإذا قصرت في مدحه حقد عليك وأضررك لك السوء ومنهم من يضمر لك البغض إذا لم توطئ له السبيل لانتقاصك ، فإذا فطنت إلى بغضه وكيده ، عد قطنتك جناية عليه وهذه حقيقة لا خيال فيها ، وعاطفة تطفو على تلك النفوس لمن كان صحيح البصر ، كما يطفو القذى على وجه الماء ومن الناس من لا هم لهم إلا إخفاء قول مادحك وإذاعة قول هاجيك ، وإنما مثلهم مثل الكلب الذي كان إذا غنى صاحبه وأطرب طرب الناس

وتصايحوا فيظل الكلب صامتًا حتى إذا أخطأ المغنى ولم يفتن الناس ، فطن الكلب فيملاً الأرض نباحاً .

يظن أهل الخبث أن المرء منهم لا يصح أن يعد خبيثاً إلا إذا أحس خبثه وهذا من الغفلة في الصميم ، فان المرء لا يقدر أن يحصى أو أن يفتن إلى كل ما يغريه به حبه نفسه ، وإيثارها من أصناف اللؤم وحيله وطرقه وقد يكون من لوازم وإتيان الخبث استحالة إحساسه أنه خبث ،

ومن الناس من يمدحك مرة ، ثم يؤله مدحه إياك لأنه يعد كل مدح لغيره ذمًا لنفسه ، فيحقد عليك ويكيد لك ، كى يمحو أثر مدحه ومنهم من إذا جلس إلى عدو لك ينكر فضلك ، وكان أعرف به أنكروه مع عدوك وشايعه على ذمك حتى ينشرح صدر عدوك له فيطرى نفسه ، لعدوك ، كى يكافئه على مشايعته له فى ذمك بتصديقه فى اطرائه نفسه وفى بعض الأحيان يجلس عدوك إلى صديق لك حتى يسكره من لذة الثناء عليه ، فينشرح صدر صديقك لعدوك فيملأه ضغينة عليك وكرهاً لك وقدحاً فيك ، فلا يجد عند صديقك همة فى المكافحة عنك ، بل تصح عزيمة صديقك فى انتقاصك كى ينال ثناء عدوك ومن الناس من إذا عرفت خبث عشرته تلتطف إليك ، فتحسب أنه يواليك فتسهو عن خبثه فيكيد لك فى الخفاء .

ومن الناس من إذا ذهب إلى مرقد ، جعل يعد ما له وما عليه ، كالتاجر فيقول أسأت إلى فلان مرة وأساء إلى فلان ثلاث مرات فأكون قد خسرت إساءتين فلا بد أن أستعيضها من فلان لاغرو أن فى الناس البله والأغرار ، ولكن فيهم ذوى الخبث الذين يبيتون يعدون إساءاتهم إلى الناس ، كما يعد الشحيح درهمه ، ويسهرون يحرسونها خشية اللص ، كما يحرس الشحيح ماله فاحذر أن تتجاهل هذا الأمر ، وتعد تجاهلك لؤم النفوس إنصافاً وعقلاً واعتدالاً ، فتكون كالنعامة التى تدفن رأسها فى الأرض ، كى لاترى قانصها ثم تحسب أنه لا يراها لأنها لاتراه .

ومن الناس من يتغذى بائيلام من تراءت حسناته ، فإن الناس يعدون حسناته جرائم وقد بعثهم الله رسلاً كى يأخذوا صاحبها على التكفير عنها بما يبيثون له من الآلام والمكابد فى مشهد ومغيب وبعض الناس يشكو لؤم الناس وكيدهم وخبثهم كى يعد من الأبرار المظلومين لامن الأشرار الظالمين وإنما هم أن يلبس لباس الأبرار ومن الناس من يأتى إليك فتحسن إليه وتكرمه ، فيعد أكرامك إياه تخفيضاً لنفسه ، وإحسانك ضعة فيه ، فيمقتك من أجل إحسانك إليه ومثل هذا مثل الرجل الذى أضاف خبيثاً وأحسن إليه ، وبينما هو بين اليقظة والإعفاء سمع ضيفه يتحرك فرآه قد استل مديته واقترب منه وهم أن يطعنه فقام ذلك المحسن فرعاً ،

وقبض على ضيفه الشرير ، وسأله عن خبره فبكى وقال إني ما أحسن إلى محسن إلا أبغضته وأغرنتى نفسى بأن أصيبه بأذى وبعض الأغرار ينكر هذه الخلة ، ولو كان عنده شئ من علم النفس ، لعلم أن كثيراً من النفوس لا تمقت شيئاً ، مثل مقتها إحسان محسن ، إذ إن إحسانه إقرار بأنه أعظم منها فى الأمر الذى أحسن إليه فيه .

ومن الناس من تذكر له معنى حسناً أو فكرة حكيمة ، فيأتى أمام الناس يذكرها لك ، ويسألك عن رأيك فيها ، فيتوهم الناس أن له فضل ابتداعها ومنهم من يحاول أن يقنعك أن لافضل لك ، كأن أمثال هذا يخشى أن لا تعزه إذا فطنت إلى فضلك وبعض أهل الخبث إذا جلس إليك ، وكان يخشى منك أمراً جعل يدس لك فى كلامه من الوعيد ما يوهمك أنه لا يخشى مهاجمتك إياه ، ويستطيل فى اتخاذ هذه الوسائل التى هى ادعى لمهاجمتك إياه ، وإنما يفعل ذلك أملاً أن يشعرك الخوف منه ، فيقول فى كلامه أنى أكره رجلاً ولو تمكنت منه لوجأته بسكين ، ثم ينظر إليك ليرى أثر كلمته فى نفسك.

والسبب فى أن كثيراً من الناس لا يفتن إلى حروب اللفظ واللسان التى ميدانها العشرة ، أن كل رجل منهم مشغول بسلاح لحظه ولسانه الذى يقاتل به ومن رحمة الله أن انشغاله به يلهيه عن جرح لسان غيره فى كثير من الأحيان ، ومن الناس من إذا خلا بك ، جعل يغلو فى مدحك حتى تثق به ، فإذا كنت أمام الناس جعل ينظر إليك نظرات بغض ، وأنت حائر لا تعرف اتهمه فى إخوانه وتعهده عامداً أم تعده غير عامد ، ولكنه لا يلبث حتى يخلو لك ، فيمجدك تمجيدياً يحو أثر ما وقر فى نفسك منه ، ولكن الناس لم يسمعوا مدحه إياك فى خلواتك فلا يشكون فى أنه عامد .

ومن الناس من إذا سلم عليك صديق امتعض لأن أحد الناس التفت إليك ولم يتلفت إليه وإذا أكرمك خادم ارتعدت فرائضه وأبغضك كل البغض ، وعد إكرام الخادم إياك إهانة له ، فإذا جالسته فى ناد وطلب قهوة بقرش واحد وطلبت قازوزة بأربعة قروش ، عد طلبك كيداً منك كى تكبر فى عين الخادم وتصغر من شأنه ، فإذا ناديت ماسح الحذاء كى يمسح نعليك ، ولم يشأ هو أن يمسح نعليه ، عد مسح النعال من الطيش والخبث ومنهم من يلقاك عابساً كى تسأل عن سبب تغاضيه ، فيعظم بسعيك إليه وسؤالك عنه وتشبثك به ومن الناس من يذمك كى تداريه وتحاسنه وتسعى فى ملاطفته ، ولا بد أن يكون هذا خسيس النفس ، وكيف يعتز بنفسه من

لا يفهم أن اعتزازك بنفسك ينأى بك عن ملاطفة هاجيك ، وبغريك بكرهه وابعاده ، وينفى عنك كل مودة ورغبة له فى الخير .

ومن الناس الخبيث الذى يبرر نفسه بذك ، أليس من إنصافه نفسه أن تدم لأن عرفته ، ولولا معرفتك إياه ما دمت ، ومن الناس من إذا سألك سؤالاً فادته ، عد علمك به نقصاً فيه فيكافئك بالعداوة عليه ، فإن لم تفده عد سكوتك لؤماً ونفاقاً ، ومنهم من إذا واجهته بالمودة ، عدها منك عداوة وإهانة له ، فيضمر لك العدا ، ومنهم من أفنت خلاعته حياء يحاول أن يغض منك ، فينسب إليك سواته ، كى يبرر نفسه فتشاركه فى سوء الفكر ، وإن لم تشاركه فى سوء خلقه فينتقم لنفسه من الفضيلة فيك حتى تياس من الفضيلة ، ومنهم من يتلطف إليك حتى تقرن اسمك إلى اسمه وتشيد بمدحه فيختلف إلى الناس ، يسبك فى كلامه كى يقول الناس إنك حقيق بالسب إذ ذمك من ترضاه وقدحه ولو أن من ذمك كان متهماً لديك فى مودته مذموماً عندك ، لحالج الناس شك فى ذمه إياك ، ولكنك مادحه ومصطفيه ومرتضيه فكيف يعد قوله كذباً ، وأعلم أن الناس يكفرون عن سيئاتهم بعزوها إليك ، فيحولون توبيخ ضمايرهم منهم إليك كى يعيشوا عيشة راضية فنصرة الفضيلة بعزو الرذيلة إليك ، تكفير عن خذلان الفضيلة فى أنفسهم فاجعل فضيلتك فى نفسك لا فى ألسنتهم ، كى لاتنقم على الفضيلة خذلانها إياك واعلم أن الخوف سبب إسراع كثير من الناس إلى انتقاصك ، فإنهم يخشون أن يعد إحجامهم عن انتقاصك حباً للرذيلة ومن الناس من يدور فى النوادي يذكر الآراء السخيفة ويعزوها إليك ، ويفندها كى ينال إطراء الناس بالنيل منك .

واحذر من أسأت إليه أقل من حذر من أساء إليك ، فإن من أسأت إليه ، قد يغفر لك إساءتك . وأما من أساء إليك ، فإنه يذكر أبداً أنه أجرم إليك ، فإذا أكرمك ، عد إكرامه إياك اعترافاً منه بجرمه فيمقتك من أجل إكرامه إياك .

ومن الناس من يرى فطنة جلسائه إلى كذبه وادعائه ونفاقه ، فلا ينزجر عن هذه الخصال ، لأنه يعرف أن القول يؤثر فى الناس أثره وإن عرفوا كذبه ، وأن الادعاء ينال بعض الإعجاب مهما كان واضحاً بالرغم مما ينال أيضاً من السخر والاحتقار وأن النفاق فى بعض الأحيان يخدع الناس بالرغم من عرفانهم أنه نفاق .

(٥)

نظرات فى النفس والحياة

لاروشفو كولد - ليوباردى - شوبنهاور (١)

إن علم النفس من العلوم الحديثة ، ولكن وصف النفس الإنسانية ومحاولة كشف مجاهلها ومخباتها أمر قديم عاجله الشعراء والكتاب فى كل قوم ، ولكن لعلهم لم يبلغوا من الصراحة مبلغ النظريات التى بلغها سيجموند فرويد وأمثاله ، وإن كان لكل مفكر نصيب وطابع خاص فى الصراحة . ولا نظن أن أديباً أو مفكراً أعفى النفس الإنسانية من تطلعه إلى غرائب أمورها ، أو الأمور المألوفة التى هى فى منزلة الغرائب لانزوائها فى ظلمات النسيان كلما رأت النفس فى ذلك النسيان مأرباً لها . ولكن نفعها بتذكيرها علم وفهم . ولعل بعض ذوى الفهم والزكاة ، يرى فى فهم النفس ،(*) نزعاتها وخواطرها ، سبيل رقيها وتخلصها من شوائبها ، وربما غالوا فى أثر الفهم فى العاطفة والنزعة والطبع وأملوا منه أكثر مما يستطيع جنيده من ثمرات أثر لطف الفهم فى لطافة الحس والنفس ورقتهما . ولكن بما لا ريب فيه أن جهل النفس صفاتها وطبائعها هو العمى الروحانى ، وهو مصدر شر فى ذاته بما يؤدى إليه من بلادة الطبع والإمعان فى قسوته والاسترسال فى حمقه . ومن الأدباء المفكرين الذين لهم نصيب من بحث النفس - على سبيل التفكير والتأمل لا على طريقة القصص فى التصوير - لاروشفو كولد النبيل الفرنسى ، وليو باردى النبيل الإيطالى وشوبنهاور الفيلسوف الألمانى ولكل منهم نظرات صائبة وكانت فى حياة كل منهم عوامل أدت إلى التفكير فى النفس والصراحة فى القول وإلى الإلمام بمكونات النفوس ومعروضاتها من غرائز ونزعات وصفات . فقد سخط الأول على حكومة أمته وضرب بسهم فى حرب الفروند وجرح فى حصار باريس ونفى إلى الريف . فكان عائشاً بين المؤتمرين ، وخالط أناساً من طبائع مختلفة ودرس أطماعهم وأطماع نفسه ولعل نفيه إلى الريف أعطاه فرصة وفراغاً كى يعيد على فكره ماوعاه من طبائع الناس فى حياته العملية وما وصل إلى علمه من حيل رجال القصر الملكى ونسائه ودسائسهم وحبهم ويغضهم

١ - المقتطف ، سنة ١٩٤٧ م ، الجزء الثالث ، المجلد ١١١ ، أغسطس سنة ١٩٤٨ م ، ص ١٨٥ - ١٩٣ .

* - (فى) ليستقيم المعنى « المحرر » .

وحبهن وبغضهن . وكل ذلك كان مادة يستمد منها نظراته . أما الثانى وهو ليوباردى فقد كان معاصراً لشوينهور ومات قبله ولو أنه كان أصغر منه سنًا ، وكان من أسرة نبيلة فقيرة . وقد أنكه نفسه وجنى علي صحته بالإسراف فى القراءة والإطلاع حتى صار يعد حجة فى الأدب على حداثة سنه . وقد سمح له أبوه بعد تمنع شديد وتأبٍ كثير ، أن يرحل إلى المدن الإيطالية الكبيرة وأن يعاشر الناس ولم تكن إيطاليا قد وجدت بعد بل كانت تتحكم فى دويلاتها حكومات رجعية تشجع التجسس والدسائس والتلفيق فبدأ له ما يبدو للرجل المفرط فى الفطنة من طبائع الناس لأنه درس نفوس الناس فى كتب الأدب حتى اعتل وصار لا يستطيع لاعتلاله أن يجاريهم ، ولا أن يماشيهم لأنه لم يتعود من صغره أن يألف تلك الطبائع كى يهون عليه بعض المكروه منها ؛ إذ أنه كان كالمحجوز فى بيت أبيه . وكل هذه الأسباب مهدت وسائل كشفه مكاره النفس وصفاتها التى تغالط فيها .

وأما شوينهور ، فقد رحل أجداده من هولانده إلى ألمانيا وصاروا من أهلها . وكان أبوه من التجار وقد أراد أن يكون ابنه تاجراً مثله ، وأرسله فى رحلة إلى فرنسا ثم إلى إنجلترا . وقد قارن الفتى بين حرية الفرنسيين فى حياتهم الاجتماعية ومغالة الإنجليز فى ذلك الزمن فى مراعاة العرف والتقاليد . ولعل هذه المقارنة هأت للفتى دراسة طبائع النفوس فى حالى تبذلها واحتشامها . وقد ورث عن أبيه حدة فى الطبع كما ورث عن أمه الميل إلى دراسة النفوس ؛ إذ كانت أمه أدبية قصصية مفكرة . وهذا بالرغم من أنه لم يكن على وفاق معها ، وقد شجعه ته كبير شعراء وأدباء الألمان ، كما شجعه فاجنر الموسيقى وغيرهما . وكان غزير الإطلاع لم تحف بالآداب الأوروبية بل درس الفلسفة الشرقية ، ولا سيما الهندية كما درس عقائد بود . وكان لا يحجم عن البحث فى دخائل نفسه كما يبحث دخائل نفوس الناس . وفيما يلى بعض نظرات هؤلاء المفكرين مع التعقيب عليها :

من نظرات لاروشفو كولد :

١ - بعض الناس إذا مات كان إحساس الناس بافتقاده أعظم من احساسهم بالحزن عليه ، وبعضهم إذا مات كان إحساس الناس بالحزن عليه أعظم من احساسهم بافتقاده . (وبريد افتقاده للانتفاع به) . والحزن على هالك لا يكون على قدر الانتفاع به ، بل على قدر الانتناس به والراحة فى مخالطته . وفى هذا الباب استثناء ولا كاستثناء . مثل ذلك حزن من لا عائل له غير المفقود ومن انقطعت عنه الأسباب والحيل ووسائل كسب الرزق ، وحزن أشمال هذا إنما يكون حزنًا على أنفسهم لا على المفقود إلا إذا كان مما يرجى للانتناس بعشرته ولطف أساليبه فى الحياة .

٢ - أكثر الناس لهم فضائل خفية لا تظهر إلا بالتجربة وفي حالات مرتبة لتلك الفضائل. فهم مثل الأعشاب الطبية ، التي تظهر فضائل طبها بالتجربة وفي حالات خاصة - وهذا صحيح ، ويجوز أن يقال في كل إنسان ، فإنك قد تعرف إنساناً لا خير فيه ولا فضل له فإذا عرضت له حالات غير منظورة رأيت له شيئاً من الفضل يدهشك فتلع في إنكاره ، لأنه لا يتفق وما تعرف من طباعة التي جبل عليها ، وما ذلك الإنكار إلا لأن المفكر ينسى أن النفس الإنسانية مستقر كل فضل وإن غاب ، وقرارة كل نقص وإن رسب ، وإنما يليها من هذا وذاك في أكثر الأحيان ما اعتادته وسهل عليها إبراده وعمله .

٣ - قد يفخر الناس بعيوبهم ويجهرون بالمباهاة بها ك ، ما يفخر شارب الخمر بقدرته على شرب الكثير منها ، أو كما قد يفخر مواقع الشهوات بقدرته عليها وما ظفر منها ، أو كما قد يفخر الآخذ بالثأر أو الذي يدفع الشر بشر أعظم ، وقد يفخر غير هؤلاء بعيوبهم إلا الحسود فإنه يخجل أن يفتخر بلؤم الحسد ، فإذا افتخر حمل ما ظهر منه على سبب آخر غير الحسد فيحمله على الغضب للحق والغيرة على الصدق والصواب أو الانتصار للعدل الخ .

٤ - الاعتراف بالجميل المصنوع معك هو الدين الذي تدفعه لكى تعود فتستدين فتجد من يقرضك . وليس ذلك الاعتراف من أجل أنك تراه فرضاً واجب الأداء ، وفضيلة تحبها لذاتها من غير مأرب آخر . وهذا من السخر الكثير الذي نجده في نظرات هذا المفكر . ولك أن ترفض هذا الرأي في حالات ، ولكن ينبغي لك الاعتراف بأنه يصدق في أكثر الناس : لأن النفس طبعت على الأثرة ، وهى تتخلى عن أثرها إذا تخلت ؛ لأنها تجد أو تأمل أن تجد مسرة ونفعاً والمسرة نفع أيضاً . ولعله يعنى أداء ما يتطلبه الاعتراف بالجميل ؛ إذ أن بعض الناس قد يعترف بجميل لم يُصنع معه رغبة في الحث عليه واستعجاله وتَصِيدُ لأوجه الخير من الناس .

٥ - بعض فضل أهل الفضل بمجوج ثقيل ، كما أن عيوب بعض الناس وتقائصهم قد تستلمح وتستلطف فتغتفر ؛ وما ذلك إلا لأن ظاهر المرء مفضل لدى الناس على حقيقته ، وأسلوبه في ملاطفتهم ومعاشرتهم مُقَدَّم على فضله .

٦ - لولا مخادعة الناس بعضهم بعضاً ما استطاع الناس أن يعاشر بعضهم بعضاً . وهذا صحيح . ومن أجل ذلك قد يكره الناس من لا ينخدع لهم بلباقة أو يدعى الاتخداع في أمور كثيرة . هذا إلا إذا كان انخداعه دليلاً على البلاهة ، فيرون أنه لافضل له في ذلك الاتخداع وأنه خليق بالهزء والاحتقار .

٧ - بعض الناس لا تظهر مهارتهم ولا يظهر فضلهم إلا إذا اقتصروا على قول الأقوال التافهة بأسلوب لبق ، وإلا إذا اقتصروا على عمل من الأعمال الهيئته بلباقة محبوبة تغنى عن مطالبهم بما هو فوق ذلك . ومن أجل صحة هذا الرأي قد تتعجب لنجاح أناس فى الحياة نجاحاً لا يتفق مع عظم قدره وقلة ما يعرفون . أما قول الناس أن الخيبة فى الأمر العظيم أعظم من النجاح فى الأمر الهين ، فقد يكون صحيحاً مشجعاً على محاولة عظام الأمور ، ولكن أكثر الناس يهمهم النجاح فى الحياة ولا يستطيعون أن يسيغوا الخيبة .

٨ - قد يفعل الناس الخير . رغبة فى التستر وراءه كى يعملوا الشر آمنين . فليس عملهم الخير فى هذه الحالات من جبههم للخير . وهذا سخر لا ذع ، ولكنه حقيقة مشهودة .

٩ - الكسل والكبر يحملان أكثر الناس على الميل إلى اعتقاد النقص فى غيرهم من غير بحث أو دليل - وهناك أسباب أخرى لهذا الميل منها أن الناس ترى أن ما ينقص من قدر غيرهم يزيد فى قدرهم . ومنها معرفتهم أن النقص شامل للنفوس البشرية كلها محتمل فيها ، وبين الاحتمال والحقيقة وبين الجواز والوقوع خطوة فى نظرهم لا تكلفهم تعباً ولا نصباً . ومن الأسباب أيضاً أن الناس من قديم الزمن كانت خطتهم نقل نقصهم إلى نفوس غيرهم بل إلى حيوان أو جماد إذا لم يكن إنساناً . وكانت لهذا النقل شعائر ورسوم عند البدائيين ، وقد وصفها سيجموند فرويد فى كتاب الطوطم والطابو أو المقدس والمحرم .

١٠ - إذا اعترف إنسان بخطئه فكثيراً ما يكون ذلك رغبة فى إصلاح ضرر أصابه من ذلك الخطأ ونيل إعجاب الناس ، لاجئاً للصواب واقتناعاً به أو قد تقنعه المنفعة المرجوة . وإلا بقى على عماه لا يدرك وجه الخطأ ، ولا يستطيع أن يقنعه دليل منطقى . وما يسهل هذه الغفلة عن الخطأ النفسى أن النفس كما قال سيجموند فرويد فى كتاب العلل النفسية فى الحياة اليومية تستطيع أن تنسى ماترى نسيانه من أمرها زيناً ، فإذا لم يكن سبيل إلى ذلك النسيان ورأت فى الاعتراف بالخطأ فضلاً ونفعاً لدى الناس وإعجاباً ، أقدمت على الاعتراف بالخطأ مطمئنة .

١١ - بعض العظماء ليس من المستطاع الاعجاب بعظمتهم إلا على بعد ، كالصور الفنية قد لا يستطيع إدراك جمالها الفنى إلا إذا ابتعدت عنها . وهذا تشبيه بديع ؛ لأن دقائق الألوان والخطوط وتفصيلها قد تعوق عن إدراك القدرة الفنية التى بها استطاع الرسام رسمها . ومن جهة أخرى يستطاع تشبيه جمال هذه العظمة على بعد بجمال المناظر الطبيعية ، فإنك قد ترى وأنت على ظهر سفينة جزيرة كأنها جنة غناء فيحاء ، فإذا نزلت إلى البر وجدت الذباب والأقذار والوحل وما هو أشد على النفس من ذلك . والظاهر أن مؤلفى كتب سير

العظماء والمشهورين فى هذا العصر يخالفون هذا الرأى ، ويرون أنه يستعصى إدراك عمل العظيم وقام فهمه إلا إذا عرض فى مبالدة أو نقائضه عرضاً تاماً . فهم يحاولون الوصول إلى أعماق نفسه ووعيه الباطن . متناسين وصف سيجموند فرويد للوعى الباطن . ولعل فى عملهم هذا أيضاً شيئاً من الحسد والانتقام من غير أن يشعروا به كحسد القبائل البدائية التى فى كتاب الطوطم والطابو والأقوام الذين كانوا فى محفل تقديس مليكهم الجديد يريأون به أن يمس بأيديهم لأنه مقدس فكانوا يمسونه بأطراف قضبان ، لكن هذا المس المقدس كأن يتحول من غير أن يفطنوا إلى ضرب قد يؤدى بحياة الملك حسداً له على منزلته وما بلغ من جلالة الملك .

ومن نظرات ليوياردى ما يلى :

١ - المخادع الماهر هو الذى لا يظن أن كل الناس يسهل خداعهم على كل حال ، بل يعرف أن من الناس من يتظاهر بالانخداع حتى يعرف غاية المخادع ويكشف أمره . أما المخادع غير اللبق فإنه يستسهل خداع الناس فلا يتخذ أهبطه لاتقان الخداع ، ومن أجل ذلك كثيراً ما يكون المخادع مخدوعاً . وهذا صحيح ومن أجل ذلك قد يكون خداع الرجل الأبله مضحكاً وخداع الساذج مكشوقاً لجميع الناس إلا لصاحبه ، فهو وحده المخدوع به . على أن للمسألة وجهاً آخر وهو أن نجاح المخادع غير موقوف على مهارته وسذاجة الناس فحسب ، بل على رغبة الناس فى أن ينخدعوا . وهذه الرغبة تكون لأسباب متعددة . فالغرور قد يؤدى بصاحبه إلى احتقار كفاية المخادع فلا يراه ينهض له بخداع متقن . واعتقاد الصدق وسلامة النية فى المخادع قد يعمى عن خداعه . والرغبة فى الائتناس بالمخادع قد تسهل له اتقان خداعه . والفائدة المرجوة منه قد تذهب بحذر المحاذر منه . ومن أجل هذه الأسباب وغيرها قد يخدع المرء من هو أذكى منه وقد يخيب الذكى اللبق فى خداع من هو أقل منه فطنة .

٢ - كثير من الناس يسيئون إليك ، ثم يأبون أن تقبل الاساءة بثملها . وهذا شائع حتى إن بعضهم ينسى إساءته إليك ، ويرى من اللؤم أن تتذكرها ومن النذالة أن تتألم بسببها ومن الحق أن لا تقبلها بصدر رحب . فإذا لم تفعل عد المسئ نفسه مساءً إليه ، وهذا الطبع من وسائل الناس ومغالطتهم فى أمور الحياة حتى يظفروا بما يشاعون .

٣ - بعض الناس يعيشون طول حياتهم وهم معروفون بالنبل والكرم والشرف ، وذلك لأنهم لم يقابلهم فى حياتهم ما يضطرهم إلى أن يتخلوا عن نبلهم وكرمهم وشرفهم ، ولكنهم لو أخرجوا وأخوَجُوا إلى ذلك التخلى لاستطاعوا أن يبيذوا الأوغاد واللؤماء فى لؤمهم . فهؤلاء نبلاء النفوس . لأنهم ليسوا فى حاجة لأن يكونوا لؤماء وهذا الرأى يذكرنا قول البيهترى :

إذا أخرجت ذا كرم تخطى إليك ببعض أخلاق اللئام

٤ - عرفت طفلاً كان يقول إذا لم تحب أمه طلبه ، وإذا منعتك من شيء : آه ماما الآن تحب الخبث والعناد . أو ماما مولعة بالشر ، ، ولو فطن الناس إلى أحكامهم التي يحكمون بها على جيرانهم وأصدقائهم وأعدائهم لوجدوا أنها من هذا القبيل ، فإذا مدحنا إنسان واسترضانا وكنا نعهده قبل ذلك وغداً ، عدنا نقول إنه ليس بوغد إلى الحد الذي كنا نظن ، أو أنه عرف الحق فرجع إليه ، والرجوع إلى الحق فضيلة فهو من أهل الفضيلة . إلى آخر ما يكون من أمثال ذلك .

٥ - إن صاحب النقص لا يكون خليقاً بسخر الناس منه والزراية عليه ومبالغتهم في ذلك إلا إذا بالغ في تكلف ضده ، كالشيخ الذي يتكلف أخلاق الغلمان وطباعهم وعاداتهم وهيتهم أو كالفقير الذي يحاكي الأغنياء ، أو كالجاهل الذي يظهر بمظهر العالم المتكلم ، أو كالرفي الذي يحاول أن يقنع مجالسه أنه متقن عادات أهل الحضرة وأنه منهم حذوك النعل بالنعل . وهذا يصدق أيضاً في تكلف إخفاء العيوب الجثمانية بما لا يخفيها بل يزيدها وضوحاً وينم عنها .

٦ - كثير من الناس يريدون أن يكسبوا الشهرة بعمل الخير من غير كلفة أو مؤونة ، ومن أجل ذلك قد يعرضون أن يصنعوا الخير لإنسان اعتماداً على أن تعفقه أو زهده أو حيائه أو قناعته أو شيئاً من أمثال كل ذلك يمنع من قبول ما يعرضون عليه من المعونة ، فيكتفى بشكرهم ويمدحهم لدى الناس وأن يذيع أنهم من أهل الخير . فإذا خيب ظنهم وقبل معونتهم وورطهم بذلك القبول ، تغير لونها وتلجلجوا في الحديث ، وقد يضمرون له المقت والضغينة ثم يغيرون موضوع الحديث ، وإنما مثل هؤلاء مثل من يدعون الناس إلى وليمة ولم يعدوا وليمة وليست عندهم مادتها ، وإنما يختلفون عن أصحاب الوليمة الموهومة ، في أن ذاك سعى إلى الخير وهذا إلى طعام .

٧ - من الغريب أنه في أكثر لغات العالم يطلق الناس اللفظ الذي يدل على الفضيلة لما يدل على البلاهة ف، تراهم يضحكون ويقولون : فلان رجل طيب - على نياته - وهم يريدون أنه أبله - أليس هذا ما يدل على اعتقادهم أن الطيبة وحب الخير سلامة النية أدلة على البله ، وأن عكس ذلك دليل على الفطنة ، فهم يكشفون عن سريريهم وسريرة الناس من حيث لا يشعرون .

٨ - أفراد الناس في الهيئة الاجتماعية مثل ذرات المادة في الكون : كل ذرة تقاوم وتضغط على ما يليها من الذرات ، فتؤثر بهذا الضغط المتسلسل في الذرات البعيدة ، وهذه

تؤثر فيها بضغطها المتنقل المتسلسل ، فإذا بطلت مقاومة ذرة فى مكان ما المجذبت جميع الذرات من كل ناحية إلى ذلك المكان ، فتسحق الذرة التى بطلت مقاومتها وتحل غيرها مكانها وهكذا الناس فى الحياة .

٩ - إن من عاشر الناس واشترك فى حوادث حياتهم كثيراً ما يرى فيها ما لو كتب قصة عده القارئ مبالغاً من نسج الخيال الجامح وأبى أن يصدق أنها من حوادث حياتهم ، ولذلك قيل أن الحياة قد تكون أغرب من الخيال ، وقارئ تلك القصة قد عدها نابية عن أصول الفن الذى يرخص فى الخيال المذهب القريب من المعقول ، ويقول إنها تعدت الخيال القريب المعقول وما هى إلا قطعة من الحياة . وهذا يدل على أن تناقض أخلاق النفس أكثر فى الواقع مما نظن . ومن أجل ذلك قال كاتب حديث ، وهو سمرست موم : إن مهارة القصصى فى تقليد الحقيقة وتنسيقها ونفى المبالغة فيها والتأليف بين المتناقضين تأليفاً يزيل وحشة الخلاف وشك الغرابة ، ويفسر اجتماعهما ويلطف من حماقات النفوس وفجاءتها غير المألوفة .

ومن نظرات شوينهور ما يلى :

١ - كثيراً ما ينطق الإنسان بأقوال قد تضره معرفة الناس لها . ولكن قلما ينطق بما يجعله أهلاً للهزاء والسخر وهذا صحيح لأن الإنسان بطبعه حيوان معجب بنفسه . ولكنه قد يكون مغرماً بالظهور بين الناس - وهذا نوع آخر من الإعجاب بالنفس - فيؤدى به حب الظهور إلى أن يجعل نفسه أضحوكة ، إذا لم يجد سبيلاً آخر إلى الظهور .

٢ - قد يتألم المرء من ظلم وقع به أو إهانة صغيرة مقصودة كانت أم غير مقصودة أكثر من تألمه من مصائب القضاء والقدر ، لأن مصائب القضاء والقدر عامة ولا إهانة فيها ولا استعلاء إنسان على إنسان . أما الظلم أو الإهانة فإنها دليل على ظهور إنسان على إنسان باللسان وحده أو بالقوة أو بالكر والحيلة فتشعر بالمدلة والنقص وتدعو إلى التفكير فى الانتقام وتزيد حقيقة الإهانة والظلم فى الذهن حتى لا تطاق وقد يقدم المرء على الانتقام حتى ولو كان فيه أضعاف ما فى ذلك الظلم أو الإهانة من المضرة . وقد يؤدى انتقامه إلى ضياع حياته وهو يردد قول شمشون « على وعلى أعدائى يا رب » ثم هو قد لا يلتذ الانتقام وإن فاز به ، بل قد يجد له مرارة وحسرة .

٣ - كثيراً ما يكون تجسس إنسان على إنسان لمعرفة أسرار سببه الحسد أو الملل والسأم . فهو قد يحسد إذ يعتقد أن إنساناً نال من أطايب الحياة وملذاتها أو ما يعده المتجسس ملذات

وأطايب أكثر مما ناله ذلك المتجسس ، فيلاحقه ويأخذ عليه نظراته وكلماته وأعماله فى خلواته ، وجلواته ، وكثيراً ما تكون الضجة التي يدعى فيها الأشرار نصرة الفضيلة من نوع هذا الحسد .

٤ - فى بعض الأحيان نود أن يحدث أمر ، نود أن لا يحدث وأن لا يكون فتجتمع فى النفس رغبتان متناقضتان فى وقت واحد ، فمثلاً إذا كان لابد أن نؤدى اختباراً فى أمر من أمور الحياة كى نصير ظافرين مسرورين فإن الرغبة فى الظفر والمسرة تغرينا بأن نود اقتراب موعد ذلك الاختبار ، ولكن الخوف من الخيبة يغرينا أن نود لو تأخر موعد الاختبار ، فإذا اتفق حدوث ما يؤخر ميعاده كأننا نحس بحسرة وأسف . فمسرة لتجنب احتمال الخيبة مدة من الزمن ، وأسف لتأخر ميعاد النجاح والفوز بما نريد وكثيراً ما يتوهم الناس أن اجتماع الضدين فى النفس فى وقت واحد أمر محال وهو ليس كذلك وقد فسر سيجموند فرويد هذه الأحاسيس الثنائية المزدوجة فى كتاب الطوطم والطابو أى المقدس والمحرم ، ووصفها عند الأقوام البدائيين.

٥ - لا يستطيع الإنسان أن يعرف مقدار ما فى نفسه من الصبر والجلد على تحمل الألم ومن القدرة على العمل العظيم أو على مكافحة الخطوب ، إلا إذا اتبحت له فرصة لاختبار نفسه . وقد تظهر فى بعض النفوس قوى كانت كامنة ، وكانت لا يعترف أحد لها بها حتى صاحب النفس قد تدهشه قواه الخفيفة إذا ظهرت ، وإنما مثل الإنسان أمام نفسه مثل الناظر إلى بحيرة هادئة مصقولة كالمرآة ليس بها موج ، فلا يستطيع الرأى أن يدرس عظم أمواجها التى تحاول أن تهشم الصخور ، وذلك إذا هبت عليها الأعاصير . وبعض من يخاف وقع الخطوب قادر على مجادلتها ومناهضتها ، وقد يعجز بعض من يخافها كما قد يعجز بعض من يبدى شجاعة فى الأمور اليومية الصغيرة ولا تتعب حنجرته من وصف شجاعته . فإذا اختبرته الخطوب والمصائب ذل وضعف .

٦ - فى أكثر لغات العالم اصطلح على أن الصفات الشائعة بينهم صفات احتقار ، فيقولون هذا أمر شائع وعمومى ومبتذل ومشترك ومطروق ومألوف ومعروف ، ويقولون فلان من العامة من الدهماء إلى آخر ما هناك من المترادفات . وهذا الاصطلاح فى اللغات دليل واعتراف على أن الفضل غير شائع بينهم ، بل يشذ به الآحاد وأنهم إنما يشتركون فى النقص .

٧ - بُعد مكان الشئ يصغر من حجمه ويخفى معايبه . وهذا مثل العدسة التى تصغر أحجام الأشياء . أما العدسة التى تكبر الأحجام فإنها تكبر ما خفى من العيوب . وماضى

الحياة يتأثر ببعده حتى تصغر متاعبه وحتى تألف الذكرى حسناته وتتغاضى عن سيئاته ..
أما الذهن الحاضر فلا ميزة له من هذه الناحية لأن الشئ الصغير يبدو كبيراً إذا كان قريباً حتى أنه قد يحجب عن النظر ما هو أكبر منه حجماً وأبعد مكاناً . ومن أجل ذلك تبدو متاعب الحياة اليومية شاقة عظيمة خطيرة فتشغلنا وتثير قلقنا وأحاسيسنا المختلفة إلى أعظم حد ودرجة . ولكن إذا حملها الزمن فى تياره وابتعدت عنا صارت حقيرة صغيرة وقد ينساها الإنسان بعد أن شغلته وشقت عليه .

٨ - الإنسان يتبع ما دُرّب عليه من الصغر ويعتقده ويسير على نهجه . وكثير من الناس يدرّبون على لون واحد من ألوان فضيلة من الفضائل ويتزهون أنفسهم عما يقابلها من الرذيلة فى شكل واحد دون جميع أشكالها ومعارضها . فإن التجار من أصحاب الدكاكين يتزهون أنفسهم عن قطع الطريق وعن التلصص ليلاً والسطو على المنازل للسرقة ، ثم يحسبون أنهم قد جمعوا جميع أصناف النزاهة . فإذا اتهمت أحدهم بالسرقة شق عليه ذلك مع أنه قد يغش المشتري فى الثمن أو صنف البضاعة فيكون سارقاً من غير شك . ولكنه لا يعد نفسه سارقاً بل يرى أنه منزّه عن السرقة . وقس على ذلك فضائل الناس ورذائلهم فى أحوال الحياة المختلفة . وشبيه بذلك أن الرجل الموصوف بالشجاعة قد تكون شجاعته مقصورة على أمور دون أمور ، وكذلك الجبن .

٩ - الأمل هو تحول الرغبة فى حدوث شئ إلى توقع حدوثه ، حتى لقد يكون التوقع قريباً منظوراً بالرغم من أن فرص احتمال الحدوث فرصة فى الألف أو فى مئات الآلاف كما فى توقع الكسب من أوراق اليانصيب .

١٠ - قد نرى أشجاراً على بعد فتعجب لجمالها فإذا اقتربنا منها وجدناها شيئاً مألوفاً لا كما صورت لنا . وهذا مثل سعادة أكثر الناس فإننا نرى سعادة السعداء على بعد ونغبطهم عليها ، فإذا اقتربنا منها وبحثناها زالت روعتها أو أكثر بهجتها ؛ لما فى حياتهم من آلام ومتاعب وأمراض ومشكلات ، فإن السعداء غير معفين من هذه الأمور بل يشاركون الناس فيها .

١١ - من أسباب خطئنا فى الحكم على الناس أننا نفرض وجود الصفات المتجانسة فمثلاً نرى الكرم : فتنسب إليهم النزاهة والشرف والنبيل وننسى أنها قد تجتمع وقد لا تجتمع ، ونرى الكذب : فتنسب إليهم المكر والغش والاختلاس والسرقة ، وقد لا تجتمع .

(٢)

من نظرات لاروشفو كولد^(١)

١ - ما كانت الفضائل تستطيع أن تغزو لها مكاناً في العالم كما غزت ، لولا أنها كثيراً ما تكون ممزوجة في أنفس أصحابها بشئ من الإعجاب بالنفس يذيع دعوتها ويعلن عن شأنها ويكافح من أجلها وأجل أصحابها - وقد يختلط الإعجاب بالنفس بالإعجاب بتلك الفضائل ، فهو وإن كان يهين لها جنداً وأعواناً ، إلا أنه كثيراً ما ينقض من طهارتها وكمال نبلها ، أو يقضى عليها بما يدعو إليه الإعجاب بالنفس من شرور الأثرة . فإن المرء قد يرتكب الجرائم ويؤذي من خالفه لأنه يعد مخالفة أو عدوه مخالفاً وعدواً للفضيلة ومناصره مناصراً لها ، وإن قل حظه منها .

٢ - إذا أسفنا لنبوة مَنْ بُنا عنّا فإننا قلما نأسف لافتقار المتعة بعقله وأدبه بل كثيراً ما نأسف لأننا فقدنا بفقدته رمزاً يدل الناس على ثقة بعض الناس بنا وحسن رأيهم في عشرتنا ورغبتهم في أن يكونوا معنا - فنعتز بالأصدقاء في أعين الناس ونزيد بهم قدراً وجاهاً : أى أن الأسف لنبوة صديق أساسها الأثرة وحب النفس - ولكن هذا الأساس لا يمنع من أن تكون الفضيلة فضيلة ، فكثيراً ما يختلط الإيثار بالأثرة في النفس حتى عدّ مظهرها من مظاهرها إذ أن النفس تنشد في الإيثار شيئاً يرضيها ويريحها بالرغم مما تتكلفه بسببه ، وما يرضيها ويريحها منفعة لها وإن كانت مطلباً نبيلاً .

٣ - في بعض الحالات يخالف المرء منهاج حياته ونفسه كما يخالف غيره من الناس ، وذلك لتعدد نزعات النفس المتغايرة الخفية ، ولكن الناس كثيراً ما يحكمون على المرء أنه يسير على وتيرة واحدة وطبع لا يخالفه طبع ، وصفة لا تغايرها صفة ، وقلما يدركون تغييره وخلافه لنفسه ، إلا إذا تغيروا له وكان لهم مأرب في تغيير حكمهم عليه فإذا حدث ذلك ربما اتهموه بمخادعتهم ، وربما كانوا هم الذين خدعوا أنفسهم به . وسواء أظنوا إلى أنهم هم الذين خدعوا أم لم يظنوا فإنهم قد يحملونه جريرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طوعاً فإنهم قد يحملونه جريرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طوعاً فيتضاعف ذنبه لديهم . وقد يكونون

١ - المقتطف ، سنة ١٩٤٧ م ، الجزء الخامس من المجلد ١١١ ، ١ ديسمبر ، سنة ١٩٤٧ ، ص ٢٦٧ .

معذورين فى انخداعهم ، لأن الحياة تفرض التجانس فى صفات النفس الواحدة كى يسهل فهمها ومعاشرتها . حتى أن الصفات المتناضة قد يكون بينها شئ من التشابه والاتسجام والتجانس ومادامت فى النفس الواحدة .

٤ - فى بعض الأحيان يفضل المرء أن يُحرَمَ من أن ينسب إليه خير صنعه عن أن يعرف الناس الأسباب الحقيقية التى دعت إلى عمل ذلك الخير ، فيظهر من الأسباب غير ما يبطن .

٥ - لعل أعظم النجاح فى المهارة التى بها يقنع الماهر الناس أنهم لا يستطيعون ضرره من غير أن يصيبهم ضرر فيها بونه ويتجنبون أذاه ، وقد يسعون فيما ينفعه هيبة واتقاء لشره - ولكن لا يستطيع كل إنسان إقناع الناس على هذه الطريقة ، بل إنها قد تكون عاقبتها خيمة لمن لا يتقنها ومن لا يعرف أساليبها ودعاها ومستلزماتها ؛ لأنه إذا خاب ولم يقنعهم أو إذا رأوا أنهم يستطيعون أن يقضوا عليه وعلى وسائله بأن يبادروه بالعداء بادروه به وحاولوا القضاء عليه ، وقد يفعلون ؛ فإذا ليس من الكياسة أن يحسب المرء إظهاره العداء للناس أو تهديدهم كافياً لنيل احترامهم وهيبتهم إياه .

٦ - من العيوب ما يمتزج بفضائل بعض الناس كما تمتزج العقاقير السامة فى الأدوية بمقادير لا تسم ، على أنه لو حاول المرء وتعهد مزج فضله بعيوبه السامة قضى على فضله وفضيلته إلا أن الحياة نفسها قد تخرج من الشر خيراً ، كما أن بعض الخير قد يكون من عواقبه الشر .

٧ - من الصعب أن يحب إنسان إنساناً تجرد من كل دواعى الاحترام . ومن الصعب أن يحب إنسان إنساناً بذه وشأه . فالنفس تأبى فى أكثر الأحيان أن تحب من تجرد من كل دواعى الاحترام ومؤهلاته . ولكن أثرها تأبى أن تحب من تستصغر أمرها وتزدري شأنها عند استجلاء عظمتهم وعلو شأنه ، وإن كانت تحترمه سرّاً أو علانية ، ولكن الحالات الشاذة قد توجد فى الأمرين .

٨ - من الصعب أن تحترم النفس من لاخير له ولا شر .

٩ - كثير من الناس عُذوا من العظماء بالرغم من شرهم الكثير ، وهذا يذكرنا قول هنرى^(٢) هين الشاعر الألمانى « إن شجرة الإنسانية قلما تذكر بالزراع الذى سقاها ورعاها وإنما تذكّر بالعداى الذى حفر اسمه على جذعها بمدبته » - نعم إن سير العظماء الذين شكلوا حوادث التاريخ والأمم ونشروا الحضارات كان يمازجها شر كثير مسرف ، وهذا مشاهد فى حياة أمثال الإسكندر المقدونى ويوليوس قيصر ونابليون بونابرت . ولكن إذا كان الناس فى بعض البيئات يرفعون المجرمين الذين يعبثون بالأمن إلى مراتب البطولة ، فلا غرو أن يفعل الناس

ذلك مع من صهروا الناس بنار حروبهم ، وأنزلوا بهم شرًا كثيرًا إذا كانت عاقبة ذلك نشر الحضارات والآراء .

١ - إن العظماء لا يمتازون عن غيرهم من الناس بعظم فضائلهم ، وإنما يمتازون عنهم بعظم ما يعملون وما يقولون - وهذه النظرة تفسر السابقة . وليس معناها أن العظماء أقل فضائل ، وإنما يعنى أن الناس تتوقع خلوهم من النقص خلوا تمامًا بسبب ما يبهرهم من آيات عظمتهم ، أو أنهم يريدون توريطهم بمطالبتهم بتلك العصمة ، أو أن بروزهم مما يبرز نقصهم أو أن ما يزاوون من عمل الخير وبما جر شرًا ونقصًا .

من نظرات ليوباردى :

١ - المكر - وهو من جهود العقل والذكاء - قد يلجأ إليه الماكر كى يخفى نقص عقله وذكائه . وذكاء المكر هذا : ثيرًا ما يلجأ إليه الناس فى البيئات التى حال فساد الحكام فيها دهرًا طويلا دون تعهد العقل بالتربية والتثقيف ، فترى فيهم الجهل وقلة النور الفكرى والسذاجة وشيئًا من الغباء ، ومع ذلك ترى أيضًا نوع من ذكاء المكر تعوضهم به الحياة عما فقدوه .

٢ - فى بعض البيئات التى بين الحضارة والهجمية إذا كان الرجل فقيرًا جدًا احتقره فى سريرتهم من هم أحسن منه حالا من الناس ، حتى يكاد يسقط وينزل فى نظرهم عن مرتبة الإنسان . وإذا كان غنيًا لم يكن آمنًا على حياته بسبب الحسد والرغبة فيما عنده - وهذا صحيح فى البيئات التى يثرى فيها المرء باستخدام قوته أو احتياله أو سلاحه ويفاخر باستخدامها جميعًا . وفى هذه البيئات يحتقر الناس من يجبن عن استخدام القوة أو السلاح أو الحيلة لدفع عادية الفقر الشديد ، وكما يحتقرون مثل هذا الفقير فإنهم يجلون المجرم العاثر بالأمن حتى أنهم قد يلبسونه صفات البطولة والعظمة ، وكثيرًا ما تتم هذه الصفات حيث لا يجد المرء فرصة لنيل ما يستحق بسبب المحاباة والظلم والرشوة واحتيال الحكام لتسخير أداة الحكم فى أغراضهم . وقد تكون هذه الصفات بسبب آثار حكم مضى ، وعهد سابق وأحوال فى الحكم انقضت . وقد يكون العهد السابق والحكم الغابر قد خلف فى نفوس الحكام والمحكومين خصالا مستعصية باقية .

٣ - فى بعض الأحيان يمدحنا ممدوح بسبب أعمال أو صفات طالما ذمناها فى غيرنا فنسرع إلى مدح تلك الأعمال والصفات - ويحجم المرء عن المآثم والنقائص إذا خاف لوم الناس أو

بغضهم أو ذمهم أو عقابهم ، فإذا وجدهم يمدحون المآثم والنقائص ويحبذونها ويزينونها أقدم عليها غير هيب ولا وجل . وهذا لا يمنع من مؤاخذة غيره على ما يفعل مثله إذا وجد لنفسه فائدة ولكنه يحاول أن يفرق بين عمله وغيره وإن لم يكن بينهما فرق .

٤ - أكثر ذوى الفضل كانوا على بساطة فى السلوك والعادات ، ولكن من الغريب أن الناس تعد تلك البساطة دليلاً على قلة الفضل والعقل - وذلك إما لأن تلك البساطة تشابه فى أذهانهم صفات الطفولة أو البلاهة ، وإما لأن البساطة تنافى التكلف لهم الذى يجرى بالظهور بالمظهر الذى يرضى رغباتهم وفوائدهم . وهذا التكلف لهم ، منبعه مكر اللباقة الذى يعدونه أعظم مظاهر العقل ومزايه ، لأنه يحوطهم بما يشاءون ، وكل هذا التكلف قد يخالف بساطة العظماء ، ومن أجل ذلك يعدها الناس نقصاً فى الفضل والعقل .

٥ - مهما بلغ المرء من اشمئزازه من الدنيا وأحوالها بعد اختبارها فإنها لو أومضت له وابتسمت ودعته إليها لبأها وصالحها وابتسم لها بعد العيوس ورجع إلى الاتئناس بها ولو بعض الرجوع . وكذلك حاله مع من يتودد إليه ، بمن اختبرهم وساء رأيه فيهم ، فإذا لم يعد لعشرتهم إذا توددوا له قل سوء رأيه فيهم .

٦ - يحسب المرء أنه إذا خاب ، حزن أصدقاؤه ومعاشروه لخيبته ، وإذا نجح فرحوا بنجاحه . ولو كشف له عن مكنون سرهم لوجد فيه عكس ذلك فى كثير من الأحيان - أو على الأقل يجد بجانب الأسف لخيبته شعوراً بالامتعاض والاستخفاء يناقضه ، ولكنه يخالطه ، وقد يجد ذلك حتى عند أقاربه وعند من ينتفع بنجاحه ويخسر بخيبته من الناس . لأن النفس لا تستطيع أن تتغلب على أثرها كل التغلب وإن تغلبت على بعضها .

٧ - أكثر الناس لا يخجلون من الأذى الذى يصنعونه للناس ، وإنما يخجلون من الأذى الذى يصنعه بهم غيرهم ، لأنه ينقص من أقدارهم لدى أنفسهم - أما إذا خشى المرء أن يخجل إذا ظلم غيره فإنه يعمل على أن يشرك الناس فى ظلم المظلوم ، فإذا نجح فى حمل الناس على مشاركته فى ظلم المظلوم أمن من الخجل ومن تأنيب الضمير . ولقد كان الطفافة قديماً تخذون من الناس رجلاً يكون أداة لتنفيذ ظلمهم ، حتى إذا لم يعد صالحاً لتنفيذه قضا عليه وأتخذوا غيره ، وبذلك ينالون أغراضهم كما ينالون حمد الناس إذا بطشوا بأداة ظلمهم .

٨ - الدنيا كالمرأة الجميلة المعشوقة لا ينال الفتى لديها خطوة بالخجل والحياء ، فمن أراد أن يعلموا حظه ، وجب عليه أن يودع الحياء ، وأن يكون لسانه بوقاً يدعو الناس إلى الاعتراف

بزياءه الحقيقية والمزعومة ، أو أن يجد أناساً لهم رغبة وفائدة فى أن يكونوا أبواقاً له . أما إذا انتظر حتى يسرع الناس للبحث عن فضله وإعلانه فإنه لن يرى إلا من يسرع إلى اخفائه .

٩ - لو حُوسب كل إنسان على ما يقوله فى غيبة أصدقائه لما رضى أن يقولوا فيه مثل ما قال فيهم - فإنه مهما كان مخلصاً لهم لا يسلم لسانه من سقطات فى غيبتهم لا ترضيهم ، وهو بالرغم من ذلك يدهش إذا بلغه أن أحدهم قال فيه مثل ما قال فيهم ، وبعد نفسه مظلوماً لا يجد جزاء إخلاصه وسلامته لهم فى غيبتهم .

١٠ - قُبما يكون البعيد عن الناس القليل الاختلاط بهم مسيئاً الظن بهم ، إلا إذا كانت العزلة بعد المخالطة . فليس أسوأ رأى فى الناس مما يرسخ فى النفس بقراءة الكتب التى تعلم سوء الظن بالناس ، وإنما يكون هذا المقتبس من الكتب كلاماً غير راسخ فى النفس لأن العشرة هى التى تُقْطِن إلى سوء الرأى فى الناس بسبب مرارة اختبارهم - وليس أشد الناس سوء ظن بهم المعجب بنفسه وليس من الحتم اجتماع الاعجاب بالنفس وسوء الظن بالناس فإننا قد نرى الرجل الشديد الاعجاب بنفسه عظيم الثقة بها ، ثقته بنفسه قد تدعوه إلى حسن الظن والرأى، فيحسب أن الناس يعجبون بنفسه ، كما يعجب فينشرح صدره للعطف عليهم ولا سيما أن ذلك العطف يتفق وما فى نفسه من العظمة المزعومة التى تقضى أن يشمل الناس ببركات خيرها . وإذا ظهر منه غير ذلك من سوء الرأى فى الناس كان سحابة صيف عن قليل تنقشع .

من نظرات شوينهور :

١ - مما يجعل الإنسان غير مبال تعاسة التعساء ولا آبه لها ، أنه يعتقد فى نفسه العجز عن تحمل متاعب أكثر من متاعبه . ومن أجل ذلك إذا حسن حال إنسان بعد ضيق وبؤس فقد يعطف على أهل البؤس إما سروراً بنجاته من مثل حالهم وإما خشية أن يعاوده البؤس فهو يرحم نفسه إذ يرحمهم . وأما الذين لم يصادفوا فى حياتهم بؤساً ، فإنهم كثيراً ما ينصرفون عن العطف على أهل البؤس ؛ لأنهم يرون أنفسهم بأمن من غوائله ، فلا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم مكانهم - على أنهم لو حارلوا وضع أنفسهم مكان أهل البؤس لنفروا من هذه المحاولة وتأففوا وامتنعوا . ومن الجائز أن التعميم يضعفهم فيريدون أن يتجاهلوا ما يؤذى سمعهم ويصرهم من مناظر البؤس . على أن الكفاح للخروج من الضيق ، إذا نجح قد يُعوْد بعض الناس برودة الطبع والقسوة ، إذ يعد كل معاملة للناس قتالاً كالذى تعودوه فى الكفاح ويرى

أن الحياة معركة لا يظفر بالنصر فيها من يترك القتال كي يضمّد جروح الجرحى : فينسيه هذا الرأى فائدة التعاون .

٢ - قد يكون سبب سعادة الإنسان ونجاحه فى الحياة أنه له ابتسامة سارة يبتهجها الرأى عند رؤيتها وينشرح صدره ، فيعطف على صاحبها ويصنع له كل خير يريد . وقد يحسب الرأى بهجة هذه الابتسامة وحلاوتها من طيبة قلب صاحبها ، واستقامته وسلامة صدره من الشر والأذى والأحقاد ، وهى قد تكون كذلك ، وقد لا تكون - إذ ربما كانت من تكوين الوجه وشكل خلقته ، من غير حقيقة خلقية خلف ذلك التكوين ، أو قد تكون من لباقة المخادع الماهر فى إخفاء سريره - فينبغى لمن يغتر كل الاغترار بمثل هذه الابتسامة أن يتذكر قول شكسبير فى قصة هامليت « قد يكثر المرء من الابتسام وهو وغد » ... ولكن من ذا الذى لا يغبط صاحب هذه الابتسامة التى هى مفتاح القلوب والخير .

٣ - بعض ذوى الكفاية العظيمة فى أمور الحياة أو العبقريّة لا يحاولون إخفاء عيوبهم ولا سيما إذا كانت من الأخطاء أو العيوب التى يعدها الناس بالحق أو الباطل من لوازم تلك الكفاية العظيمة ودليلا عليها . وهم لا يحاولون إخفاء عيوبهم أو أخطائهم لأنهم يرون أنهم قد أدوا ثمنها من كفايتهم . وبالعكس ترى بعض من عدموا الكفاية النادرة وإن كان لا بأس بهم ، يحاولون الظهور بمظهر العصمة ويتألمون ويملكهم الغيظ إذا ظهرت أخطاؤهم ، ويحاولون أن يقتنعوا الناس أنهم معصومون . وما ذلك إلا لأنهم ليس لهم فضل عظيم نادر من أجله تغتفر سيئاتهم - بالرغم من ميل الناس إلى التشفى من أهل الفضل بنسبة النقص إليهم - فحزبة من لا فضل له لا تتحقق لدى الناس ، إلا إذا خلا من الأخطاء . وقد تبالغ كل طائفة فى خطتها : فالطائفة الأولى فى رفع الكلفة ، والطائفة الثانية فى استخدام كل وسيلة مهما كانت ظالمة لإثبات خلوها من العيوب ونقلها إلى غيرها ، هناك طائفة ثالثة هى من أهل العجز يحاكى آحادها ما يحسبون أنه من عيوب ذوى الكفاية كي يسلكوا فى زميرتهم ويُعدّوا منهم .

٤ - من الجائز أن يحزن إنسان لموت خصم أو منافس أو عدو حزناً كثيراً إذا افتقد ذلك الإنسان خصمه الميت عند النجاح والظفر ، فيود لو كان حياً كي يرى كيف ظفر فى الحياة بعده بالنجاح والسعادة ولم يظفر الميت . وهذا نوع من الحقد والتشفى من الميت يكون عند ذوى النفوس الدنيئة .

٥ - رغبة الإنسان فى أن يظل شهيراً بعد موته إنما هى مظهر من مظاهر حب هذه الحياة الدنيا .

٦ - إذا غالى الناس فى اعتناق رأى أو مبدأ أو مذهب فلا بد أن يعودوا فى المغالاة إلى صده حتى تستقر حياتهم بين الطرفين وإنما مثلهم فى الذبذبة مثل رقاد الساعة .

٧ - كل فضيلة من الفضائل لها رذيلة من نوعها ، وكل رذيلة لها فضيلة من نوعها . ومن أجل لك كثيراً ما نخطئ فى الحكم على الناس ، فقد ننسب إلى إنسان الفضيلة التى هى من نوع رذيلته أو الرذيلة التى هى من نوع فضيلته ، فيظن الحازم المتأنى جباناً ، والمقتصد المدبر بخيلاً ، والمبذر المتلاف سخياً كريماً ، وسئ الأدب صريحاً مستقيماً ، والأحمق متحلياً بفضيلة الثقة بالنفس ... الخ .

٨ - كثير ممن يجعلون عظم منزلة الإنسان فى العالم بسبب فضائله وعقله يشتمون فى القسوة فى الحكم إذا حكموا فى معاملة آحاد الناس إذا يطالبونهم بما يناسب عظم منزلة الإنسان التى أساسها الفضائل والعقل . ولكن الفضائل كثيراً ما تخذل الإنسان ولا تؤاتيه ، والعقل كثيراً ما يسخف أو يخطئ أو يسهو فعظم منزلة الإنسان فى الكون بسبب ما هو معرض له فى حياته من آلام ومصائب وعذاب ، وجهازه العصبى أرق من جهاز غيره من الحيوانات فهو مرهف الحس وله خيال يصور له آلامه وعقل يشغل بها . فإذا عاشرت إنساناً فلا تنظر إلى ما فى إرادته من شر وما فى عقله من قصور ، وما فى آرائه من سخف أو هوى ، فإنك إن فعلت ذلك كرهته أو احتقرته بل أنظر إلى آلامه من واقع ومنظور ، وإلى حاجاته وتعبه فى الحصول عليها وإلى بواعث القلق فى حياته ، فإن من يتحمل كل ذلك خليق بالعطف والمحبة والإعظام .

٩ - قصور العقل وسوء الخلق أمران مختلفان قد يجتمعان وقد لا يجتمعان . ولكن قصور العقل قد يساعد على إفشاء رذائل صاحبه فتحسب أنها ناشئة منه . فالغباء كثيراً ما يظهر دناءة صاحبه وشره ، بينما العاقل الحازم قد يدرك وسائل إخفاء شره ويستطيعها ، فيحسب أنه خال من الرذائل وأن العقل وحسن الخلق متلازمان أبداً . كذلك سوء الطبع قد يستهوى صاحبه فيمنعه من إدراك الحقائق التى لولا سوء خلقه وطبعه لاتضحت لعقله ، وقد تتضح فى حالات دون حالات .

١٠ - كل حيوان لا يقسو إلا لياكل أو للدفاع عن نفسه . أما الإنسان فإنه قد يقسو من غير داع إلا التلذذ بالقسوة ، فهو كما سماه العلامة جوينو صاحب كتاب «الأجناس البشرية»

«الحيوان الذى بذ كل الحيوانات فى خبث طبعه وشره» وإذا وجد حيوان يقتل أكثر مما يأكل فما ذلك إلا كما يقول الفرنسيون فى أمثالهم : « عينه أكبر من معدته » - فالإنسان قد يقسو من غير فائدة لنفسه إلا التلذذ بالقسوة ، وقد يبلغ هذا التلذذ مرتبة الجنون ، وكثيراً ما نسمع عن حوادث تعذيب ترتكبه حتى بعض الأسر المحترمة فى عهد الحضارة والثقافة . وكان شهوة القسوة تفرز فى جسم الإنسان سمّاً زعاقاً يتجمع كسم الأفعوان وينتهز أقل سبب وأصغر فرصة كى يؤذى به بعض الناس أو الحيوانات . ولعل التلذذ بقسوة الألفاظ المؤلمة والنظرات التى تتم عن القسوة وباللسان والمكائد كلها أنواع من التلذذ بالقسوة هى عوض سيكولوجى عما كان يصنعه الإنسان فى أيام الهمجية بأعدائه وأسراه وعبيده تلذذاً بالقسوة لأجل القسوة سرّاً وعلائية من غير رادع . ومن العجيب أن بعض المرضى بمرض نفسى أو عقلى يلتذون ألم قسوة غيرهم بهم ، ومادام الإنسان يقتتل على الحياة وهو رقيق الجهاز العصبى وذو خيال وعقل فلا سبيل إلى محو طبع التلذذ بالقسوة كل المحو - إلا إذا أسعف طب الغدد الحديث - وربما كان تلذذ الإنسان بالقسوة لشدة فرحه بأن الألم نال غيره ولم ينله ، فهى نوع من الجبن أو وسيلة للنجاة من الخوف على النفس .

(٣)

خاتمة آراء لاروشفو كولد مع الشرح ^(١)

قبل أن تنتقل إلى غير من ذكرنا من المفكرين ، وقبل أن نستعرض طرقاً من أخبار حياتهم وأن نتأمل فى المختار من أفكارهم ، يحسن أن نذكر هذه الطائفة الأخيرة من نظرات لاروشفو كولد ، فعنه أخذ كثير من المفكرين والقصصيين . وهو يمتاز عن كتاب هذا العصر والذين سبقوهم إذ أنه لا يتصنع الابتكار فى رأى تصنعاً ولا يخلط الفكاهة بالجد خلطاً تضيع معه معالم الحقيقة . فإنك تقرأ كتب برنارد شو أو أوسكار وايلد فلا تعرف فى بعض الأحيان أين تنتهى الفكاهة وأين يبدأ الجد . أما لاروشفو كولد فإن فكاهته تفسر الحقيقة ولا تخفيها ولا تبعث مثل تلك الحيرة . كما اتضح مما ذكر فى المقالين السابقين وكما هو ظاهر فى هذا المقال:-

١ - إن تصنع القدرة والكفاية فى أمور الحياة قد يعوق عن القدرة والكفاية ، وهذا صحيح ، إذ أن ما تلاقيه مظاهر التصنع من النجاح فى خداع الناس والانتفاع بهذا الخداع والتكسب به أمور قد تقنع صاحب التصنع فيقنع بالادعاء دون الحقيقة ، ويستريح إليه فلا يعانى الشدائد فى معالجة نفسه ، أو ما يحسبها شدائد تعظم فى نظره وتهوله إذا حاول التهدى إلى صفات القدرة الحقيقية والتماس أسبابها .

٢ - إن حسن النصيحة لا يكفى لمعرفة الانتفاع بها ورجاحتها لاترشد إلى القدرة على ذلك الانتفاع ولا تفيدها ، إذ أن المرء محتاج إلى مقدرة على اتقان العمل والاهتداء إلى طرقه وأوقاته المناسبة كى يعمل حسب النصيحة الراجعة قدر احتياجه لما يحتاج إليه من المقدرة ، إذا عمل من غير نصيحة وإرشاد نفسه .

٣ - إن فى المصائب نفاقاً كثيراً مختلف الأسباب والأنواع : فمن الناس من يبكى ادعاء للحنان والرحمة ، ومنهم من يبكى كى ينال عطف الناس ورحمتهم واشفاقهم عليه ، وإن لم يكن متأثراً فى سريره بمصابه ، ومنهم من يبكى إذا فقد قريباً أو صديقاً كى لا يلومه الناس إذا لم يبكى ، ولولا خشية الملامة ما بكى .

٤ - إن خداعنا لأنفسنا من غير أن نفطن إلى مخادعتنا أنفسنا أسهل من خداعنا للناس من خداعنا للناس من غير أن يفطنوا إلى مخادعتنا لهم ، ولكننا نظن عكس ذلك حقاً .

٥ - لا يرتاع من احتقار بعض الناس له ، ولا يبيت مغیظاً محتقاً إلا من رأى نفسه جديراً بالاحتقار ، أو من كان عنده ما يسميه علماء هذا العصر مركب النقص أو عقدة نفسية أو الشعور بالنقص ، سواء أكان ذلك بسبب نقص نفسى أم نقص جثمانى ، فإن ضعف الأعصاب قد يحل محل النقص النفسى فى إثارة هذا الغیظ . وإذا وثق المرء من نفسه فإنه قد يرجى منه التسامح فى الإهانة إذا لحقته أكثر كما يرجى التسامح ممن فقد الثقة بالنفس ، إلا إذا صار الانتقام لكل إهانة شريعة الشرف والعرف ، كما يكون فى البقاع التى يشيع فيها الثأر وتشيع فيها المبارزة فيضطر المرء إلى الانتقام من خوف الذم والاضطهاد بسوء الرأى فيه ، إلا إذا علا شأنه ولم يشك أحد فى مقدرته ، ولم يقدر على تتبعه بالتعبير فصفحه صفح القادر الذى حظى بإقرار الناس بقدرته وكرمه ، وفى البقاع التى اختل فيها الأمن لفساد الحكومات ترى كل إنسان يدفع عن نفسه خشية أن يتسامح فى الاعتداء القليل فينال الكثير من شر الناس وظلمهم وتهجمهم إذ يتهم بالعجز . واستبداد الحاكم يولد الشعور بالنقص فى نفوس المحكومين ، فيسرع كل منهم إلى الانتقام من جاره إذا حسب أن إهانة لحقته ، إلا إذا حال الاستبداد بينهم وبين الانتقام ، وكثيراً ما يسرع الحقير إلى إهانة غيره . كى يلفت نفسه ويلفت الناس عن حقارة نفسه ، وكى ينقل فى زعمه وخياله تلك الحقارة إلى غيره .

٦ - إننا فى بعض الأحيان نفضل أن يخدعنا من نحب ونود عن أن يزول عنا ذلك الخداع ، فإننا به نعيش فى نعمة المحبة والاخلاص اللذين نتخيلهما فى نفس من نحب ، فردا زال عنا الخداع كان زواله نقمة وتعاسة . وقد يعرف المخدوع منا بنصف انتباهة أنه مخدوع فيتغافل حتى يغفل فيعيش فى نعيم الخداع .

٧ - لو كـ المرء نفسه من الجهد كى يصير إلى ما ينبغى ويحب أن يكون قدر ما يكلف نفسه من الجهد كى تخفى ما هو عليه مما يريد اخفاء لما احتاج إلى نفاق ، إذ أن الجهد فى سبيل الرياء قد يكون فيه من العناء والمشقة قدر ما فى الجهد الذى يصير به إلى ما ينبغى ويحسن .

٨ - إن مغالطة المرء الناس كى يخفى حقيقته عنهم مما يساعده على اخفاء حقيقته عن نفسه سواء كان نجاحها شاقاً يشفع لئله عند نفسه كى تخفى حقيقته عن ذاتها ، وكان نجاحها برهاناً على ما يريد المرء أن يقنع به نفسه دليلاً على ما يوهمها من أمرها ، وإذا خابت مغالطته الناس ، احتاج إلى الإمعان فى اخفاء حقيقته عن نفسه كى يتقن بذلك أساليب مغالطة الناس ، وكى يعرف كيف يتجنب الخيبة فى مخادعتهم .

٩ - إننا نرتاح إلى رؤية من نتفضل عليهم ونساعدهم ونبرهم أكثر من ارتياحنا إلى رؤية من يجودن علينا وينعمون إلا إذا خشينا أن يورطنا الأولون حتى نجود بما لا نود أن نجود به، وإذا خشينا أن تفلت من يدنا نعمة نرجوها عند الآخرين إذا ابتعدنا عنهم فينقلب الحال . أما إذا لم يكن هذا ولا ذاك فقول لاروشفو كولدا ، هو الصواب لأن رؤية من نجود عليهم تدعو إلى الزهو والارتياح والخيلاء والشقة بالنفس ، ورؤية من يجودون علينا تدعو إلى استضعاف النفس والاستخذاء والشعور بالنقص والعجز .

١٠ - كثيراً ما يبقى الحسد حتى بعد زوال النعمة المحسودة - ولعل سبب ذلك أن شدة الإحساس بالحسد لا يستطيع إيقافها وانتهائها كما لا يستطيع إيقاف المندفع في سيره إذا بطل الدفع ، فيظل سائراً بعد الدفع مدة ، أو لعل السبب أن الحسود لا يغتفر لمن زالت نعمته تمتعه قديماً بالنعيم الزائل ، فيريد أن ينتقم منه كأنما بانتقامه بعد زوال النعيم يستخلص تلك المتعة الماضية واللذة الغابرة والسعادة الزائلة من لحمه ودمه حتى تكون كأن لم تكن ، وحتى يندم المحسود على ابتهاجه بها ، وقد يزداد الحاسد غيظاً إذا عجز عن أن يجعل ذلك النعيم الزائل كأن لم يكن .

١١ - القدوة عدوى وما من خير أو شر إلا وله قدوة وعدوى ، فالأقتداء بالخير إنما يكون للمنافسة ونيل الثواب أو للزهو ونيل إعجاب الناس ، والأقتداء بالشر لأن النفس إنما يعوقها عن الشر في كثير من الأحيان الخوف والحذر وتجنب الملامة والعقاب ، فإذا لم تجد النفس ملامة ولا عقاباً بل وجدت مشجعاً ومحسناً ورأت أن مواجهة الشر أمر شائع غير ملوم أقبلت على عمل الشر ومواقفته اقتداءً بمن يعمله ، ومن أجل ذلك كثيراً ما تنقلب المقاييس في الأماكن والأزمنة المختلفة لاسيما في عصور الثورات والانقلاب والتغير . ومع ذلك فهذه حقيقة مشاهدة في الحياة اليومية ، إذ يقبل الناس على الشر لأنهم يجودون من يمدحه ويعدده محمداً وخيراً لا شراً ، قد يتباهون به من أجل ذلك .

١٢ - كثيراً ما يفخر الإنسان بعيوب ليست من عيوبه وبصفات ليست من نقائصه لأنها بعيدة كل البعد عن عيوبه فهي وإياها في طرفي تقيض وهي لبعداها عنه تلفت الناس عن عيوبه وتعميهم عن نقائصه . ومن أمثال ذلك أن ذوى التردد والعجز والجبن كثيراً ما يدعون التهور والخرق والحمق والتسرع في الانتدفاع من غير ترو سترأ لترددهم واحجامهم ، والذين يسهل انقيادهم يدعون العتاد والتصلب والإصرار علي رأيهم ويفتخرون بذلك إخفاء لسهولة انقيادهم .

١٣ - من السهل أن يغتفر المرء لأصدقائه العيوب التي يرى أنها لا تضره ولا تصيبه بسوء وإن أصابت غيره من الناس ، وهذا الغفران يكون مادام المرء ناظرًا إلى أصدقائه بعين الرضا ، وكثيراً ما يغتفر لهم خيانتهم أصدقائهم مادام الغافر يرى أنه بآمن من أن يخونوه لأنه يزعمه عندهم في منزلة أعز وأرفع - وقد يسخر ويضحك من المغدور به ويلتمس العذر لمن غدر به . أما إذا حاق به الغدر دونه بعد اطمئنان إلى الوفاء واستنامة إلى عزته ومنعته فإنه لا يصفح للغادر كما فعل قديماً بل يسخط أشد السخط . ومصاحبة الرجل صاحب الشر على ما في ذلك من خطر ، إنما تكون لأسباب متعددة فبعض الناس يلزمه كي يعرف شره ونيتته وما يبيت فيتجنب بذلك ما يتوقع من شره . وبعضهم يلزمه وبجاريه تزلزلاً إليه واتقاء لشره بالتزلف والتقرب ، وبعضهم يتابعه كي ينتفع بشره وبعضهم يزامله لأنه يتمنى لنفسه في سريره جرأة على الشر ليست له ، فمزاملته له إعجاب مستتر وهذا لا يمنع من أن ينقلب عليه إذا انقلب الناس .

١٤ - يقول التعساء المحرومون أن الحظ أعمى ، ويقول السعداء أن الحظ مبصر ، إذ كل من الطائفتين تدعى الفضل ، فالطائفة الأولى تعتقد أن الحظ لا يستطيع لعماه رؤية فضلهم ، والطائفة الثانية ترى أنه رأى فضلهم فكافأهم بما هم جديرون به من الخيرات والسعادة .

١٥ - في بعض الأحيان يشكو المرء من نقص بعض ملكات عقله كي يدفع عن نفسه التهمة في ملكات أعز وأرفع ، ومثل ذلك أنه قد يشكو من ضعف الذاكرة ولكنه لا يشكو أبداً من ضعف ملكته في الحكم على الحقائق مع أن الملكة الثانية قد تتأثر بضعف الذاكرة وهذا لا ينفي صدق قول مونتاني الفرنسي صاحب الرسائل المعروفة إذ قال إن ملكة الحفظ والاستدكار قد تكون قادرة ولكنها مقرونة إلى ملكة ضعيفة في الحكم على الحقائق .

١٦ - كثيراً ما تنفذ أمور باسم الحب وتعمل أعمال وتقال أقوال ، ولا شأن للحب في كل ذلك ومثله مثل الدول التي كفت يد الحاكم - مثل دوق جمهورية البندقية - وغلت سلطته ومع ذلك تجرى كل أمور الدولة باسمه .

١٧ - من الغريب أن المرء قد تكون له ذاكرة قوية فيتذكر بها حوادث حياته الصغيرة التافهة ، ولكن ذاكرته على قوتها لا تستطيع أن تعينه على أن يتذكر أنه حدث جلوسه مرات عديدة بهذه الحوادث التافهة حتى صار الحديث مملولاً مكروهاً - وقد فسر فرويد هذا النسيان في كتاب العلل النفسية في الحياة اليومية وأوضح أن النفس تستطيع أن تنسى عمداً ما تريد نسيانه وأن تدفع به إلى الوعي الباطن .

١٨ - لو استطاع مستطيع أن يمنع رجلا من أن يملق نفسه وأن يمدحها سرا أو جهرا ومباشرة أو غير مباشرة وبالقول أو بالعمل وبالحاطر الذي خطر في النفس أو في الظاهر وفي الحقيقة أو في الخيال لكان هذا الإنسان الممنوع من تمليق نفسه وسيلة أشقى الناس وأتعسهم وأكثرهم مللا من الحياة .

١٩ - يعترف الناس أن الميول والنزعات النفسية لها أثر في تكوين آرائهم ولكنهم قلما يدركون عظم هذا الأثر - وكثيرا ما ينسونه إذا كانت لهم فائدة في نسيانه ، بل قد يتكرونها .

٢٠ - الأحاسيس والميول النفسية والصفات التي تتصف بها قد تولد أضدادها ومن أمثال ذلك أن الجبان قد يشجع من الخوف فيقبل مندفعاً بدل أن يفر ، إذا أحست نفسه أن في الفرار ضرراً أشد ، أو إذا حسبت ذلك ، أو إذا جن جنونها من الخوف فاندفعت من غير ترو والخوف يُسبب الثبات أيضاً ، والثبات من مظاهر الشجاعة والقدرة والعزيمة ، ولكن المرء قد يخشى أن يتزحزح عن رأى أو مسلك أو مكان من الخوف فيظل ثابتاً عليه .

٢١ - أشد ما ينبغي أن يكون حذرنا من الأحاسيس والنزعات النفسية أن تغطى على الصواب ، إذا لبست لباس العقل والحكمة واتخذت منه أسباباً وحججاً وأدلة ، لأن العقل كثير الافتتان في استنباط الحجج وتمويهها وتعزيزاً للميول النفسية والشهوات ، وتسويغاً لما قد لا يسوغ .

٢٢ - كما أن للفضل ثمرة فإن له موسماً ، والفضل الذي يكون في غير موسمه كالفاكهة التي قد تأتي في غير موسمها وموضعها ، فإذا بعدت كل البعد عما يناسب مزاج ذلك الموسم الغريب عنها كانت مستهجنة غير مقبولة فالبطيخ المبرد في برد الشتاء لا يستحب ، وكذلك الفضل إذا جاء في غير أوانه ومكانه وكان عند من لا يقدّره يُستهجن ويبرد .

٢٣ - الإعجاب بالنفس موجود في كل نفس ولكنه يختلف في الطرق والوسائل التي يظهر بها ويشيع بها نهيمته ، وقد يختلفي زمناً كي يتمكن ويحتال وهو إذا لم يظهر بالقوة ظهر بالمكر والحيلة ، وقد يظهر ويفوز بِطِلْبَتِهِ حتى بالتمليق والتواضع فهو كما قال لاروشفو كولد دائما يُعوّض نفسه ويتخذ كل أهبة ووسيلة كي لا يخسر شيئاً ، وإن أدعى الخسارة والتخلي عن الغرور والكبر ، وكما الإنسان قد وهب من ملكات الجسم ما يناسب مطالبه وأعماله فقد وهب من الكبر ما يخفى به نقائصه عن نفسه ، والأصل في ذلك أن يكسبه ثقة بنفسه كي يستطيع أن يعيش ، فإذا زاد عن حد الصلاح كان مفسداً .

٢٤ - أن بعض صفات الحمد مثل الحواس فمن لم يجربها ولم يعرفها فى حياته وولد خالياً منها لا يستطيع إدراك كنهها كالذى ولد أعمى يصعب عليه إدراك معانى البصر كلها ، وكذلك من خلا من بعض صفات الحمد لا يستطيع أن يفهمها وقد ينكرها أو يحار فيها ويتهم أصحابها بالكذب والادعاء - والمراد بالخلو منها أنه لم يتعودها ولم يعود نفسه ارتياد مواردها واتباع أحكامها .

٢٥ - إن الغريزة تعوض بعض التعويض ما يفقده المرء بسبب نقص حظه فهى تعلم الفقير أن يستفيد من المال القليل أكثر من استفادة من هو أغنى منه ، وتجعل له المكر عوضاً من نقص العقل أو ضعف الجسم .

٢٦ - إن رغبتنا فيما نطلبه بالعقل رغبة ضعيفة إذا قيست برغبتنا فيما نطلبه بالنزعات النفسية ، إلا إذا كان العقل وهو يدعى الاستقلال خادماً للميل النفسى ومحتالاً له بذلك الادعاء كى لا يفطن الناس إلى أنها رغبة الشهوات النفسية ، لا رغبة المنطق المستقل والعقل المسيطر عليها .

٢٧ - كثيراً ما يكون الاغتياب باعثة الغرور أكثر من خبث النفس فلا تأمن الرجل الموصوف بطيبة القلب أن يغتابك إذا كان مغروراً ، وأى الناس يخلو من الغرور ، ولكننا كثيراً ما يدهشنا الاغتياب إذا كان من رجل موصوف بطيبة القلب وباعثة الغرور .

٢٨ - إن السرور الذى لجده فى التحدث عن أنفسنا نبغى أن يفطننا إلى أنه يسبب الامتنعاض لغيرنا ، فإن غرور كل إنسان يجعل غرور غيره أمراً يكاد لا يطاق - ومن الغريب أن كل إنسان يضجر من كثرة تحدث غيره عن نفسه ، ولا يفطن إلى ضجر غيره من تحدثه عن نفسه .

٢٩ - أمراض النفس لها نكسة كأمراض الجسم وقد نظن شفاءها فيما قد يكون هدنة نفسية أو فيما قد يكون مرضاً آخر ، فالحب أو الطمع أو البغض إذا كان أحدها أو شئ من أمثالها مرضاً نفسياً وانتهى ، فكثيراً ما ينتهى إلى اختفاء كاختفاء النار فى الرماد ، أو إلى خمود كخمود البركان الذى ربما ثار بعد خموده - وهو إذا اختفى فقد يُسبب للنفس عقدة نفسية كالشعور بالنقص . ولعل هذا ما يعنيه بقوله : « إن النفس قد تتنقل من مرض إلى مرض » .

٣٠ - إن الغرور كثيراً ما يساعد المرء على تحمل آلام كثيرة ولكنه قد لا يساعد على تحمل آلام الغيرة والحسد والإحساس بالعار لأنها آلام إذا استشرت أنقصت من ذلك الغرور الذى يراود

للاستعانة به على تحملها أو أضعفته أو قضت عليه فتقضى على العماد الذى يعتمد عليه لتحملها .

٣١ - إن الغرور كثيراً ما يحمل المرء على عمل ما يخالف طبع نفس صاحبة وميلها . أما العقل فقلما يستطيع بالمحاجة أن يحمله على ذلك - ومن أجل لك كثيراً ما يعمل المرء أعمالاً فاضلة والحامل عليها غرور صاحبها لا طبعه وميل نفسه .

٣٢ - إن الخجل الذى ينشأ بسبب مدح لانتحققه قد يحملنا على عمل أعمال ممدوحه وما كنا نعملها لولا ذلك الخجل - أو الميل إلى الخجل أو ما سببه الخذر من معرفة الناس . فيظن الناس أن هذه الأعمال صادرة عن طبع دائم ، ويحسبون أنها وتيرة فى الخلق وهى ليست كذلك .

لقد انتهينا مما اخترناه من آراء ليوباردى وشوينهور ولارشفور كولد . والقارئ يرى أن لارشفور كولد إنما استنبط ما استخرج من آراء فى النفس بأن جعل رائده أثرة النفس فتتبع الأثرة فى مظاهرها من خير أو شر ومن مدح أو ذم ورد ماخفى أو بعد عنها إلى أساسها ولم ينكر للأثرة مظاهرها الفاضلة فى حياة الناس .

(٤)

من نظرات تشستر فيلد (١)

فيليب دورمر ستانهوب لورد تشسترفيلد من نبلاء الإنجليز . وأهم مؤلفاته رسائله إلى ابنه ، وقد ضمنها نصائحه التي اكتسبها من خبرته في مخالطة الناس ، فقد شغل مناصب مختلفة وعاشر أناساً كثيرين من طبقات مختلفة ؛ إذ كان أولاً عضواً في مجلس النواب ثم في مجلس اللوردات ، ثم سفيراً في هولاندة ، ثم حاكماً لأرلنطة ثم وزيراً ، ورسائله دخر مملوءة خبرة بالنفوس وكثر من تجارب الحياة . وقد أسرف الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى في ذمها ولكنه اعترف في ثنايا ذمه بما فيها من فطنة وخبرة إذ قال لوسل منها ما لا يجمل التخلق به لصلحت كى يقرأها كل فتى ، وأوجه الاختلاف بينهما كثيرة : منها أن جونسون كان ينمق الرسائل في الأخلاق النظرية ويحتذى ما درسه في الكتب ، وشستر فيلد كان يسترسل في وصف النفوس كما خبرها بأسلوب سهل موجز حتى عُدَّ آية في بلاغة الإيجاز . ومنها أن جونسون في أيام فقره تطلع إلى أن يمه النبيل الغنى بمعونة تعينه على نشر مُصنَّفاته ، فلم يفعل اللورد أو أنه تباطأ أو أهمله مدة . فأرسل إليه الدكتور جونسون رسالته التي كانت كصوت بوق يؤذن بعصر جديد ، وباعتماد الأدباء على كسبهم بدل الاعتماد على معونة النبلاء . ومؤرخو الأدب يقولون : إن ابن تشسترفيلد الذي كتبت له الرسائل لم ينتفع بها انتفاعاً كبيراً ولم يفده ذكاء ولا خبرة . ولا غرابة فالكتب لا تخلق عقلاً ولا تنشئ ذكاء غير موجود وإنما تظن وتربى ما هو موجود ، والخبرة قلما تفيد إلا إذا عاجها المرء بنفسه . وكثير من الناس يعالجون التجارب ولا ينتفعون بها فكيف بها إذا كانت تلقينا وقولا بقوله غيرهم ، وإنما يكون نفع التجارب إذا صادفت النفوس توفيقاً واستعداداً . وكل ما يقال في ابن تشستر فيلد أنه لم يظهر فضلاً كبيراً ولا نقصاً خطيراً ، وإنما كان من غمار الناس . وأمل المؤرخ الذي كان يأمل نبوغه بسبب الرسائل ، إنما هو نوع من الاعتراف بكياستها وفطنتها .

وقد أوردت نتفاً على سبيل الاقتباس منها ، والتفكير فيها ، لا على سبيل الترجمة الحرفية ، وربما أدمجت بعضها في بعض :

١ - بعض الناس يمدح نفسه بصيغة الذم فيكسو الفضائل لباس النقيصة والعيب ، ثم ينتقص نفسه بتلك الفضائل ، ويعيبها بتلك المحامد التي كساها كساء العيب ، كى يجعل

مدح نفسه سائغاً لدى الناس . فيقول مثلاً : من عيوى التى لا أستطيع أن أغالبها أنى أقول الحق فى غير موضعه ، وآتى بالصدق فى غير مكانه ... أو يقول : من عيوى أنى ما رأيت إنساناً مصاباً إلا وددت أن أشاركه فى مصابه ، كأنى أحمل الدنيا أو كأنى موكل بها . و«تزال» بى تلك الودادة حتى أقاسمه المصاب وأشاطره وأعينه على ما حل به وأهين له من أمره ترفيهاً ورشداً ... أو يقول : من نقائص المذمومة أنى كلما رأيت مظلوماً نصرته ، وإن كان فى نصره ضرر لى . ومن مقابحى التى لا أستطيع الخلاص منها أنى كلما رأيت ضعيفاً أعنته على أمره ... والعاقِل حقيق بالنصراف عن هذه الوسيلة التى توهمه أنها تحمل الناس على اغتفارهم له مدح نفسه ، إذ هى لا تحملهم على الاغتفار بل تزيد الناس سخرية به وازراء عليه - ومن الناس من يتخذ لنفسه شعاراً فى أمر من الأمور ويوهم الناس أنه وحده كفيل به لاشريك له ويردده فى كل فرصة حتى يمل الناس أمره ولا تنفعه طلاقته ولا أنه ذرب اللسان ذلقه ، وللناس اقتنان فى هذه الأساليب المتغايرة . وفى الحالتين المذكورتين ، المدح المراد للنفس ، مدح لم يقصده صاحبه إلا بطريقة ملتوية ولكنها حيلة مكشوفة .

٢ - إذا أكثر رجل من القسم ولجّ فى الحلف كى يحملك على أن تصدقه وكى يقنعك بحلفه فى أمر لا يستدعى تصديقه كل هذا الحلف فهو فى أكثر الأحيان كاذب فيما يقول وإلا ما تكلف جهد الحلف كى يخفى به كذبه ، وكى يداوى شكه فى تصديقك كلامه ، وكى يعالج خوفه من رفضك قوله - هذا يذكرنى قصة رجل من أهل المدينة كان يقول للناس : أنا والله من قُرَيْش والحمد لله . فقال له سامع : الحلف والتحميد هنا أمران مريبان . أى يدعوان إلى الشك والريبة فى صدقه . على أن الرجل قد يكون صادقاً فى كلمته وإنما يعالج بالحلف اشتهاه لدى نفسه ولدى الناس بالكذب فى أمور أخرى غيرها . قد يكون الحلف عادة عودها ، ولكنها توقفه موقف الرجل الظنين المتهم فى صدقه .

٣ - كثير من الناس يكرهون أن يُتهموا بالحقاقة أو الغباء ، أو السخف ، أو الحقارة ، أو ما شابه ذلك من أوجه النقص والعيب أكثر من كرههم أن يتهموا بالآثام والخطايا والجرائم والشر - ولكن قلما يفتن المعاصر إلى سبب هذا التفضيل ووجوبه ؛ إذ أن الرجل يكره ما يلحق به الاحتقار أكثر من كرهه ما يلصق به خوف الناس منه . وهو يعرف أن الناس قد يعجبون بالشر والخطايا ويزيد صاحبها عظماً وقدرًا فى نفوسهم ويفخرون بها . ولكن الناس لا يستعظمون السخف ، ولا يجلون الحقاقة والغباء ، ولا يفخرون بهذه الصفات التى تزيد صاحبها احتقاراً فى نظرهم . فلا يستهين العاقل بنسبتها إلى الناس اعتماداً على أنه لم

يجعلهم من الأشرار ولم يقل إنهم من المجرمين فقد نسب إليهم ما هو أقبح فى نظرهم وأكثر مجلبة للذم . على أنك قد ترى ساذجاً ينسبها إلى صديق ، فإذا غضب صديقه دهش وقال من غير تعمد للسخرية أنا لم أقل إنه مجرم شرير ولم أقل إلا أنه سخيئ !! .

٤ - كل إنسان يفضل أن يمدحه مَادَح بالصفة التى يدعيها لنفسه ، وليست فيه أو ليست غالبية عليه ، على أن يمدحه بالصفات المدحوة التى يقر له بها الناس ، ويعترفون بفضلها فيها لأنه فى الحالة الأولى يكسب محمداً جديدة ولا يكشف شيئاً فى الحالة الثانية إلا اعتراف بعض الناس بما لا يشك فيه أكثر الناس ولا يمارون . وهذا يذكرنا أن الكاردينال ريشليو السياسى الشهير ما كان يبتهج إذا مدحه مَادَح بحنكته السياسية وخبرته وبراعته ، وإنما كان يسره أن يمدحه مَادَح بإجادة فن من الفنون الجميلة لم يجده ولا برع فيه ولا أتقنه . وهكذا أكثر الناس كأنهم ما سمعوا قول الإمام على رضى الله عنه « قيمة كل امرئ ما يحسن » .

٥ - مَهْدٌ لتفكك منفذاً إلى عقول الناس من طريق قلوبهم وما تشتهى نفوسهم فإن عقول أكثر الناس وعرة صعبة المسلك ملتوية ، وعندى أن هذه النصيحة تنفع أيضاً مع من كان الطريق إلى عقله موطأ سهلاً ممهداً فإذا لجأت إليه من طريق قلبه وجدت عقله ازداد سهولة وصار أخف مؤونة ، وقد لا يكلفك طريق قلوبهم إلا البشاشة والملاينة وطيب الذكر وحسن القول .

٦ - كما أن النقود الصغيرة من العملة القليلة القيمة لاغنى عنها فى معاملات الناس اليومية الصغيرة ، فنقود الفكر القليلة القيمة لاغنى عنها فى مجالس الناس ومحادثاتهم ومفاكهااتهم . ومن أراد أن يستبعدها وأن لا يتعامل معهم فى أمثال تلك المجالس إلا بالفكر العويص والرأى العميق والفلسفة البعيدة والألفاظ الفخمة والتعقير فى الكلام كان مثله مثل الرجل الذى لا يريد أن يتعامل فى المعاملات اليومية الصغيرة إلا بقضبان الذهب الثقيلة الكبيرة فتمتنع المعاملة . وهذا يذكرنى قصة رجل كان له ابن هذه صفاته وكان الرجل فى مرض الموت وأبى أن يرى ابنه إلا إذا ترك هذه الصفات فوعد ابنه بتركها فى زيارته لأبيه ولكنه لم يستطع مغالبة طبعه فكان الموت أحب إلى أبيه من زيارته .

٧ - بعض الناس مولعون بالأحكام العامة والجمال المألوفة والأمثال السائرة يرددونها كلما أتاحت لهم فرصة ويوهمون أنفسهم أنها تصدق فى كل حالة . والعاقل من تجنب الأحكام العامة والجمال المألوفة ، فليست حالة إلا وفيها اختلاف قل ، أو أكثر عما يشابهها من الحالات . وكذلك الأمم والطوائف والجماعات تختلف آحادها فليس من الصواب أن يحكم المرء

على أمة أو طائفة أو جماعة من الناس حكماً عاماً - وكثرة التشاؤم بالأمثال والجمل المألوفة التي سارت مسير الأمثال لا يلجأ إليها إلا من لا يميز دقائق الفكر . وبعض الناس لا ينتهي من مثل إلا ليبدأ مثلاً آخر أو حكمة معروفة ، كأنه آلة الحاكي تزد من غير تمييز .

٨ - من العلم ما يكسب صاحبه راحة في عيون الناس وقلوبهم ، ومنه ما يكسبه زينة ، والأول لاغنى عنه ، ولكن ينبغي أن يذكر العاقل أن كثيراً من الناس لا يستطيعون وزن الأمور ومعرفة رجاحتها ، وإنما يحكمون بما هو روثق يرونه - وإذا كان حكم الناس بالنظر أكثر من حكمهم بالفكر ، فقلما يصيب أحد النجاح إلا إذا كان له نصيب من النوع الثاني من العلم .

٩ - إن المكارم الكبيرة والنعم السابغة قد يصنعها المرء بسفهٍ ويفعلها بخرقٍ ويهجم بها على من يجود عليه بخطأ أو طيش وحماسة فتسبى مكارمه ونعمه التي يصطنعها عنده فتصير أسوأ من الإساءة إليه إذا جاءت بلطف يثلم حدها ويقل غريها ويقلل ألقها . قرب نعمة قد تجلب عدواً ، وإساءة قد لا تنفر صديقاً .

١٠ - المشاكسة في الأمور الصغيرة من علامات ضوالة النفس وكثيراً ما تكون مصحوبة بالشعور بالنقص يداويه صاحبه بمشاكسة أو مهاترة أو مغاضبة ، فتكون أظهر لنقصه عند من درس طبائع النفوس .

١١ - من أسباب النجاح الصبر على مضض الحديث الغث الممل أو على سماع رغبات الرجل المشاكس أو الملح ، وهو إصغاء لا يلزمك عملاً تعمله - أو خطة ترسمها وتتكلفها وتنفذها - وقد تجد شيئاً من الفكاهة إذا عودت نفسك هذا الصبر ، وقد تجمع إلى الفكاهة فائدة أخرى ، وهي دراسة نفس محدثك ، وفي دراسة النفوس لذة بالرغم من ألم ذلك الصبر ومضضه وبعض من اشتهر باللباقة من الساسة ، وبالحنكة فيها ، أكثر بضاعتهم الإصغاء والابتسام .

١٢ - إذا هشتت الناس وتبسّطت وتسهلت ظن من ينصب الحبال للناس ويدبر الوسائل لاقتناص الكسب منهم أنك لست ممن ينصب الشرك أو الشباك فلا يُعد لك عدة ، ولا يتخذ لك أهبة ، ولا يلجأ إلى الحذر معك ، كما أن ذوى السذاجة يركنون إلى طيب قلبك ، ويستنيمون إلى سلامة طويّتك فتريح في الحاليتين .

١٣ - الأغرار من الشبان ومن لم ينتفع بتجاربه من الرجال يرون أنهم يكسبون بالعنف والشدة في كل معاملة أو معاشرة أكثر مما يكسبون بدهاء الخبرة ولباقتها وتأنيتها في معالجة الأمور ، ويعدون كل هذه الصفات ضعفاً عجزاً وجبنًا ورياءً ، وأنها صفات لا تليق ، وهم في

عنهم وشدتهم يدعون لأنفسهم الحكمة كما يدعى السكران بأنه غير مخمور - وقد يكون ادعاؤه مضحكاً يدل على أنه سكران ، وأن أنكر ذلك إذ يترنح وتلعثم ويتلجلج ويخلط ولا يبين فى كلامه ، ويتكلف الاتزان ويتفاضب تارة ويعاتب تارة ، وهذا أيضاً شأن الأغرار الذين ليس لهم إلا سبيل العنف .

١٤ - إذا كان لك فضل فليس السبيل إلى اعتراف العقلاء المبصرين والدهاة ، ولا إلى اعتراف من يغمط الناس حق فضلهم وهم كثيرون ، أن تكبد الناس بمباهاتهم به فى الأحاديث والمجالس وبأن تظهر لهم أنك تعرف من فضلك أكثر مما يعرفون فإن الناس قلما يفتفرون لك ذلك ويعدون فضلك إساءة إليهم وإن اعترفوا به سرّاً أو جهرّاً . وهم يحاولون انتزاع اليقين والثقة به من نفسك بأساليب مختلفة ، ولكنك قد تحملهم بالملاطفة وسياسة التأنى وأساليبها على اغتفار الفضل لك - وكذلك إذا كان لك فضل على إنسان بأن صفحت عن ذنب له أو إساءة أو زلة أو كنت قد انتشلت من وهدة سقطة كاد يتردى فيها وأزرت به ، فليكن همك أن تنسيه فضلك عليه واطلاعه على سيئاته وموضع النقص منه . فإن كثيراً من الناس يحقدون على من اطلع على زلاتهم ونقائصهم وإن كان اطلاعه عليها من ناحية انتشاله إياهم من وهدة زلتهم ومعونته لهم وانقاذهم من عواقبها ، فإن تلك المعونة وذلك الانقاذ لا يشفعان لاغتفارهم واطلاعه على نقصهم . وفضلك فى ذلك لا يشفع لك بل يزيد حزازة حقد من تفضلت عليه . إلا إذا كانت لك لباقة تنسيه فضلك عليه واطلاعه على نقصه ، وقد يكون مثلهم مثل المرأة التى لطمت سائق الترام الذى رآها قد زلت قدمها وكادت تسقط تحت الترام فجذبها إلى نفسه وأنقذها من الموت .

١٥ - الناس قلما يفتفرون ذنب من إذا شرعوا يحدثونه أسرع إلى إظهار معرفته للحديث . وبعض الأغرار ومن لم ينتفع بتجاربه لهم ولع عجيب بهذا التسرع إلى إظهار معرفتهم حديث المحدث - كأنهم يخشون أن يحسب الناس أنهم قد فاتهم شئ من أمور العلم والدنيا لم يدركوه ولم يطلعوا عليه قبل حديث المحدث ، وهو اطلاع لا يزيدهم فضلاً بل نقصاً فى نفس المحدث الذى لا يهمه أن يزن قدر علم من سبقه واستلج حديثه وإنما يهمه أن لا يسلب منه جليسه كرامة نفسه وأن لا يشعره الاستخذاء .

١٦ - ينبغى للعاقل أن لا يظهر الامتعاض والغضب إذا ظهر عليه إنسان بالحجة أو بذه شأواً وشأناً أو مزح معه مزحاً مستكرها ، بل الكرامة والريح فى أن يكظم غيظه وأن يسرى عن نفسه وأن ينظر إلى هذه الأمور كأنه يشاهد مشهداً فى عالم آخر من غير تصنع للكبر المضحك المغالى فيه والذى يجعله كالممثل الهازل ، ومن غير شجار أو مهاترة ؛ لأنه بهما

يضيع كرامته ، ومن غير أن يأذن لفكره وذاكرته فى معاودة هذه الأمور فيتعجب ، ومن غير أن يلجأ إلى التعريض فى ثنايا كلامه بالسخر المعمى أو الواضح . وهذه أمور قد تسبب عداوات وثرارات قد يشترك فيها أصدقاء خصمك وأقاربه ، فكأنك أثرت حول نفسك النحل من خليته ، وأقل مافى هذه الأمور من الضرر إذا لم يتخذ خطة متسعة النواحي لاغتيابك أن يأذن ويبتسم صامتاً لمن يغتابك كما قال الشاعر :

فسامع الذم مقربه وقابل الغيبة كالقائل

١٧ - كثير من الناس لا يميزون بين التسامح والتسهل فى المعاشرة وبين التملق والتفادى فيأبون التسامح ويرفضون التسهل ، ويضحون بحسن المودة وطيب العشرة بأن يراجعوا كل إنسان فيما يصف به نفسه أو ينسبه إليها أو يغلطوه أو يكذبوه أو يكثروا من مخالفته مع أن بعض الناس يُعد القليل من مخالفته تكذيباً - ويفعل المغلط المراجع المقاطع ذلك بدعوى نصرة الحق والانصراف عن التملق والتفادى ، وإنما يفعل ذلك خشية أن يظهر إنسان بفضل يدعيه أو رأى يرتثيه أو حجة يدلى بها . وتوهم المغلط المقاطع نفسه أنه إذا لم يفعل ذلك أضاع كرامته ولم ينصر الحق وأعان على الباطل بسكوته ، وكأنما تنهد الأرض وتسقط السماء إذا لم يفعل ذلك فلا يميز الكبائر من الصفائر ، وإنما يكون الباطل الذى يحارب ما تختل به أمور الناس لا ما يتسهل ويتسامح فيه العشير فى العشرة .

١٨ - أحسن ما تكون الفضيلة إذا أرادها المرء كما يريد نظافة جسمه للراحة والصحة والعافية لا للمباهاة ، وكما أن المرء لا يطلع الناس على نظافته ولا يلفتهم إليها ولا يحدثهم بها ، كذلك الحازم العاقل لا يحدث الناس عن فضيلته .

١٩ - فى أكثر الأحيان إذا قال الإنسان قولة مزح بريئة جر إليها حديث محدثه وكانت صلتها بالحديث أو بإنسان مذكور فيه تفسرها فبأنها تنقل إلى إنسان آخر له صلة أيضاً بالحديث مبتورة ويخفى ناقلها صلتها بحديثه فتخرج عن معناها وتصير إهانة ، ولو أن ناقلها ذكر حديثه وصلته به ما كانت إهانة . فيحسن تجنب المزح البرئ اعتماداً على صدق الناقل إذ كيف تكفل صدقه ؟ .

٢٠ - الحازم لا يشارك المغتاب بالكلام ولا يشاركه بالإصغاء والسكوت ، فقابل الغيبة كقائلها ، وإنما يجب أن يقول إنه لا يعرف من أمر الغيبة شيئاً وهو إذا لج فى إنكارها جنى فوائد منها أن الناس تبرئه من الغيبة وتعهده غير متتبع أخبارهم فيقل حذرهم منه ، وكلما أمعن فى إظهار الجهل والإنكار أكثروا من تعريفه ما يدعون معرفته من أخبار غيرهم ، إذ أن

الناس منهومون بادعاء معرفة أخبار الناس وأسرارهم ، وكلما قلت معرفتهم زادت تهمهم باطلاع معاشرهم على ما يدعون معرفته ، ومنهم من يستطيلُ بادعاء صداقة الناس بالباطل؛ كى يستطيل بادعاء معرفة أخبارهم وأسرارهم بالباطل أيضاً .

٢١ - فى الناس أصناف يجمال أن لا يشركهم العاقل فى خاصة شؤونه ، ولا أن يطلعهم على بواطن أمره وأخباره وأسراره . ومن هؤلاء الغرير الجاهل فإنه يذيعها كى يعرف أنه عالم بالناس ، والخائن كى يوهم الأغرار أن غيرهم قد ائتمنه ، والماكر الداهية كى يفيد من إذاعته ما يستطيع ، والخبيث إذ أنه يحولها مادة صالحة للأذى يؤذى بها من أشركه فى أمره ، والزميل الذى ربما جعلته الحياة منافساً فيتخذ منها مادة لمنافسة زميله وتنقصه كى يفوز فى موضوع المنافسة بدلا منه . والمنافس مهاكاً كان شهماً ذا مروءة لا يؤمن على سر أو خبر أو شأن خاص ، إذ أن المنافسة قد تحمل الناس على الانصراف عن سبيل المروءة حتى يفوزوا فى المنافسة ، ثم يعودون إلى مروءتهم وشهامتهم بعدها .

(٥)

نظرات أناتول فرانس (*)

أناتول فرانس هو الاسم الذى اشتهر به كاتب من كتاب القرن العشرين وهو فرنسى كان أبوه يبيع الكتب فنشأ مولعاً بالاطلاع ولكنه كان يخالط الناس ويتقصى أخبارهم وقد جمع فى كتبه بين السخر والحنان والتسامح والرأفة بالضعفاء والفقراء ، ولكن عقله لم يكن من العقول التى تَتَشَبَّثُ بمبدأ من مبادئ الفكر لا يتعداه ولا ينظر إلى غيره ، بل كان ينظر إلى جوانب كل أمر حتى أنه قد ينطق بعض أشخاص قصصه بآراء مختلفة إذا اختلفت حالات نفوسهم ، ثم يكون أول من يلفت إلى هذا الاختلاف وقد برع فى القصص الطويلة كما برع فى القصص القصيرة .

ومن قصصه الشهيرة قصة « تاييس » وهى - كما قال استاذ كبير - تشبه قصة « هايبيشيا » للقصصى الإنجليزى شارلز كنجزلى ولكن الشبه جاء من ناحية تقارب عصرى القصتين ، وعند التمحيص يختلف أشخاص القصتين ، وأناتول فرانس قلما يجارى فى تذوقه لفنه . ومن كتبه قصة (كتاب صديقى) وفيها انتشى من نفحات الطفولة والصبا ، وجمع إلى ذلك دقة الملاحظة ونضج الذهن ، وله قصة الثورة الفرنسية الكبرى واسمها « الآلهة ظمأى » وليس فيها عنف فلوبير فى قصة سلامبو عن قرطاجة . ولكن تحت هدوء فنه يحس القارئ مرسل الثورة يفور وكان همه أن يفسر روحها . ومن كتبه الشهيرة (حديقة أبيقور) وهو نظرات فى النفس والحياة ، وكتاب (الحياة الأدبية) وهو مقالات فى النقد والأدب ، و (طموح جان سرفان) و (قصة ممثل) و (سلفستر بونار) و (آراء الأب كوانيار) و (الحجر الأبيض) و (ثورة الملائكة) وفى الكتاب الأخير يميل إلى الروح الأغريقية القديمة . ومن كتبه المؤثرة (حياة جان دارك) و (جوكاستا) وله قصص أخرى متعددة بعضها يغلب عليه السخر وبعضها يغلب عليه النقاش الفكرى أو وصف تاريخ فرنسا وحياتها فى عهده . ويتردد أشخاص بعضها فى أكثر من كتاب . وبالرغم من عداؤ رجال الكنيسة له فقد أنصفهم فى وصف بعض أشخاص الكنيسة فى كتبه . قد اعتنق المذهب الاشتراكى فى أواخر أيامه .

* - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٢ ، الجزء الثالث ، ١ مارس سنة ١٩٤٨م ، ص ١٦٩ ، ١٧٧ .

ويمكن أن يقال باختصار أنه بالرغم من سخره كثير التسامح كثير الحنان .

ومن نظراته ما يأتي : -

١ - كنت وأنا طفل صغير أقرأ كتب الزهاد المترهين من ذوى التقشف فأحدث ذلك عندي رغبة فى أن أكون راهباً زاهداً متقشفاً وامتنعت عن الطعام وحاكيت حياتهم فقال ، أبى يصفنى « إنه مجنون » فعزيت نفسى وقلت إن أبى فى الحياة الأخرى سوف لا ينال ما سأنال من جزاء على الزهد فلا يقاسمنى مجده ولا يشاركنى فيه فأختص به دونه ، فلم يؤلنى تَنَقُّصُهُ لى واتهامه إياى بالجنون وانشرح صدرى وسُرَّتْ نفسى ، وهذا احساس يشترك فيه الصغار والكبار فإن الرجال قد يودون صديقاً ويرجون له كل خير فإذا خالفهم فى أمر سُرُّوا بحرمانه المأمول من خيره المنظور وعزوا أنفسهم بالاختصاص به دونه ، وإن كانوا صادقين فى مودته ... وكذلك الحال بين الأحباء وقد يزداد هذا السرور بحرمان المخالف حتى يصير تشفيماً وانتقاماً كريهين .

٢ - كان الدرس فى حصة الآتسة لافورت المعلمة فوضى من الاضطراب وكان عندها شئ من الذهول وقلة المبالاة . فإذا لج الصخب فى تنبيهها هجمت على أى تلميذ وضربت ثم تعود إلى تبلدها وذهولها ... وهكذا الدنيا قد تعاقب من ليس أحق بالعقاب ، والعاقل من حاول أن يظامن نفسه على تلقى ضرباتها كما كان يصنع تلاميذ المعلمة لافورت .

٣ - أهم ما فى التضحية هى التضحية ذاتها . أما أنها فى أمر غير حقيقى . وأنها لاتعود بفائدة ولا عائدة فهذا لا يقلل من قيمتها مادام صاحبها الذى يؤدى ما تفرضه عليه التضحية يجد إليها اطمئناناً وبحس فيها راحة وبراها أمراً واجباً وأنها عائدة من غير شك بالخير ، وهذا هو الذى يسوغها .

٤ - كنت إذا غَايَظْتُ تلميذاً صغيراً مثلى يَهَوُّنُ على ذنبى إليه شعورى بعظم ذنبى ، وهكذا الكبار أيضاً يهون عليهم ذنوبهم احساسهم بالذنب ويشعرون كأنما قد كفروا عن ذنوبهم به حتى صار كأن لم يكن - وهذا قد يدعوهم إلى الاطمئنان وإلى معاودة تلك الذنوب .

٥ - كنت قد اعتزمت وأنا صغير أن أكتب تاريخ فرنسا فى خمسين مجلداً ولكن منعنى أنى لم استطع معرفة تاريخ أول مَلِك . ومن ذلك الحين أحمد للصعوبات فى الحياة فضلها وأشكر صنيعها ، فكم أنقذت من ورطة وكم أسعفت بخيبة فى طيها نعمة . أما صديقى فونتانيه فإنه يرق بين أرجل الصعوبات « أن كانت لها أرجل » ... كما يرق أطفال الشوارع بين السيارات المسرعة .

٦ - عندما طلب منى القس فى الكنيسة أن أعترف (وهذا أمر يؤديه الكاثوليك) أدركتنى الحيرة إذ كنت صغيراً لا أميز صفات أعمالى ولا أعرف أيها أعد ذنباً ، فحاولت أن أتذكر ذنباً جنيته كى أعترف به للقس فلم استطع ، فاعترانى الحجل والأسف إذ لم أجد ذنباً . ثم تذكرت إتلاقى قُبعة صديقى فونتانيه فارتاحت نفسى وتعاضمت لدى ، وقلت الآن أستطيع أن أعترف بذنبى من غير خجل أو شعور بالنقص ... وهذا قد يفسر لنا فخر الكبار بذنوبهم فى بعض الأحيان ومباهاتهم الناس بها .

٧ - بما علمنى حب الصغار المحافظة على التقاليد والعرف المألوف بالرغم من طيشهم وثورتهم عليه فى بعض الأحيان . إن عمى كان قد صنع لى حقيبة كتب جديدة من شئ لم يكن حقيبة كتب ولا كانت حقيبتى كحقيبة التلاميذ فجعلوا يسخرون ويضحكون ويبتكرون الفكاهات إزاء بها ، ولكنهم لم يفكروا فى السخر من حقيبة كتب صديقى فونتانيه وكانت قديمة ممزقة مُرَعَبِلَة ولكنها كانت على شكل حقائب الكتب فكان لاشك فيها . وهذا يذكرنى قول وردزورث الشاعر الإنجليزى « إن الطفل أبو الرجل » فهذه الغرائز والطباع موجودة أيضاً فى الكبار . وهم يسخرون من كل جديد لأنه يخالف المألوف .

٨ - كنت وأنا غلام صغير أذهب إلى حلاق كى يقص شعرى وكان يحكى لى أثناء الحلاقة « كما هى عادة الحلاقين » كيف أنه كان فى سفينة عرض البحر تحطمت واضطر ركابها أن يأكلوا إنساناً منهم . وكان يهش وابتسم وهو يحكى لى كيف أكلوا اللحم البشرى وكأنما كانت هشاشته هشاشة المتفائلين بالحياة ، المؤمنين بالإنسان ، ولا يرون إلا جانب الأمل فى حياته ... ولا غرابة فى اطمئنان ذلك الحلاق . فإن الناس كثيراً ما يأكلون اللحوم البشرية على سبيل المجاز والاستعارة كما يصنعون فى استغلال الضعفاء المحرومين والنساء والاقتتال على النظريات ، وكما يصنعون فى الغيبة والنميمة فى حياتهم اليومية ، وفى إهمال المُشردين من الأطفال وغيرهم.

٩ - كانت حياتى فى الطفولة حياة صغيرة ، ولكنها كانت « حياة » أى أنها كانت عندى قطب الدنيا ومركز الكون ومحور العالم . وكل حى حتى ولو كان كلباً صغيراً يحس كأنما هو مركز الكون ومحور العالم .

١٠ - كنت فى صغرى مُدُلَّلاً مُنعمًا على قدر ما يستطيع أهلى من التدليل والتنعيم ، وكنت أجد لذة فى حياتى المنزلية كما يحك العصفور الصغير جانبه بريش عشه الناعم لذة وسروراً واطمئناناً . ومع ذلك فقد كنت أحسد غلاماً مشرداً وكنت أراه من نافذة منزلى وكان أبواى يمنعانى من مخالطة أبناء الشوارع . وكانت أم ذلك الغلام تتركه حراً طليقاً قدراً ممزق

التياب كى تكسب قوتها بأن تفصل ثياب الناس فلم تكن تقيده تكاليف الحياة ، وكان يخيل لى أنه كان ينظر إلى كما ينظر العصفور الطليق إلى العصفور الحبس ... وهذه الفكرة تذكرنى قصة من تصنيف ستاسى أومونييه القصصى الإنجليزى الذى تتبع فيه دائرة الحسد ، فوجد كل إنسان يحسد من هو أحسن منه حالا حتى إذا بلغ أكبر محسود وجده وقد ستم تكاليف حياته وقيودها وهمومها يحسد أحقر حاسد ولو كان صعلوكًا متشردًا حسبه حراً طليقًا غير مقيد بتكاليف الحياة .

١١ - عندما نبحث عن الحق كثيرًا مانجده أمرًا مألوفًا وإن كان غريبًا قبل معرفته ولكن تلك الغرابة تُحييهِ إلينا ولو لم نشعر بالغرابة للملناه وضجرنا به . والمراد حقائق النفس والحياة التى نشاهدها ونغفل عنها ، كأنما قد غُطيت عنا ولَبَسَتْ علينا .

١٢ - كانت عندنا خادمة ريفية سمحنا لها مرة أن تذهب إلى باريس وبعد عودتها سألتها ماذا رأيت فى باريس ؟ وماذا أعجبك منها ؟ قالت الفجل ! رأيت فجلاً كبيراً . إنها رأت كل ما يستطيع رؤيته من حضارة باريس ومبانيها وماقى نوافذها وشوارعها ومتنزهاتها ولكن لم يعجبها إلا أنها رأت فجلاً كبيراً ... وهكذا بعض الناس فى الحياة يرون ماتعرضه عليهم ثم لايعجبهم منها إلا ما هو شبيه بالفجل فى نظر الريفية .

١٣ - إننا نرى الأطفال لا يستطيعون أسهل الأمور والأعمال إلا بعد الدربة والمزاولة وننسى حقيقة أولية وهى أن هذا يصدق أيضاً فى الكبار كما يصدق فى الصغار . فإن كل عمل مهما هان يصعب حتى يتعوده من لم يتعوده من قبل .

١٤ - إذا كان لبعض الأمهات ابن ذكى وسألتها جارة عن سنه أصغرت عمره وقللت منه كى تظهر على جارتها وتنتصر وتعلو إذ أنها تعرف أنه من المحال أن يكون لجارتها ابن صغير ذكى فى مثل السن التى ادعتها لابنها وهى إذ تستشير اعجاب جارتها وتستشير حسدها ، ومن الأمور المتناقضة فى النفس أن الذى يباهى الناس ويستفز حسدهم بالمباهاة لايمنع ذلك من محاولة اخفاء كل ما يمكن أن يحسد عليه فى حالات نفسية أخرى إذا أزعجته عاقبة الحسد . وبعض الأمهات وغير الأمهات يخشين صولة القدر المفاجئة وضريته المباغته إذا كن فى سعادة وغبطة وحبور وهن فى ذلك مثل الأمهات الأثينيات قديماً اللواتى كن يضعن أطفالهن عند قدمى تمثال غيسيس « ربة الحسد » ويتضرعن إليها أن تغفر لهن سعادتهن بأطفالهن خشية الوثنيين قد خيل لهم ربة ربة للحسد فإن للناس افتناناً عجيباً باستشارة إعجاب الناس واستفزاز حسدهم وهم يخشون هذا الحسد ويعلمون أنه كثيراً مايحيق بهم السوء

منه من غير استشارة واستفزاز ، لميل كثير من الناس إلى إلحاق الأذى بمن يحسدون . والحسد وإن عم ، من الغرائز الموروثة بسبب هذا النظام الاجتماعى .

١٥ - سأل أندريه الصغير أمه وقد مات أبوه : هل مات أبى وذهب عنا ولا يعود ؟ قالت نعم . فصمت قليلا . ثم قال : هذا شئ حسن لأنى أحبك كأنى أحب اثنين وإذا عاد أبى إلينا لا أجد فى قلبى شيئاً من الحب أخصه به وهذا ما أخشاه . وإحساس أندريه الصغير هو الإحساس الذى بنى عليه فرويد نظريته فى حب الابن للأم وغالى فيه حتى جعله مثل حب « أوديب » لأمه وهو لا يعرف أنها أمه وهذا قياس محال وقصة الملك أوديب قصة معروفة من قصص قدماء الإغريق .

١٦ - المراهقة وأحلامها قد تسبب للمراهق حزناً ولكنه حزن مملوء بالسعادة فتلتقى التعاسة والسعادة فى وقت واحد . ولا غرابة ، فإن من الناس من يأنس إلى الحزن ولو سلب منه أحس فراغاً فى نفسه وحياته .

١٧ - من الخطأ المضحك أن يحزن إنسان أو يتملكه الغيظ إذا ابتكر نظرية فوجد ما يثلمها ويهدمها ، إذ أن النظريات ما خلقت إلا كى تكون هدفاً للرماة ، وكى تصاب حتى تزول كما تزول الفقايع ، وإحساس المرء بالغيظ إذا عورضت نظريته حماقة وضيق ذهن واثرة ونقص .

١٨ - وجد الباحثون بعد البحث والتقصى أن القصص الخرافية والأساطير الشعبية موجودة أمثالها عند شعوب لا تتصل فى ماضى تاريخها - وهذا قد يجعل المفكر يرى أن اعتقاد بعض المؤرخين أن الحضارة نشأت فى بقعة من الأرض انتقلت منها إلى باقى البقاع فيه غلو إذ أن عقل الإنسان أساسه مشترك ومهينات الحضارة كثيرة متنوعة ، والمعروف أنها تنمو بتبادل الآراء على طرق المواصلات فليس أشحذ للذهن منها . وأما قول بعض المؤرخين أن جمهور الناس لو ترك وميله ، حدثت له رجعة ونكسة وأنه أميل إلى التخريب . وأن سطح الأرض مكسو بالحضارات التى هدمت وخرجت فلا ينفى ما ذكر . والحقيقة أن الخلاف خلاف لفظي محصور فى تفسير معنى نشأة الحضارة فعند أية مرحلة يعترف بالنشأة ؟ نعم قد تسبق بعض الأمم غيرها فى نمو الحضارة ، ولكن النمو غير النشأة .

١٩ - كان معلمنا المسيو شوتار جباناً يخشى الكلاب والصوص والرعد والعربات فى الطريق ، وكان يخشى كل ما قد يؤذى الإنسان . ولكنه كان إذا وصف الحروب والوقائع فى دروس التاريخ وما قاساه الأبطال فيها من آلام وجروح ومشاق وما لاقوه من العذاب والموت ،

برع كل البراعة . وكان يخيل له أنه يقاسيها معهم ويقاسمهم مجدهم ، وكان يجد لذة فى إهلاك الجيوش الكثيرة بحيل قديمة ، أو مبتكرة يتخيلها ، وهكذا شأن كل جبان يحاول أن يعرض نفسه عما فقد من الشجاعة إما بادعاء الشجاعة وإما بوصف أعمال الشجعان والأبطال ويجد فى ذلك ما يعينه لاحترام نفسه . ولذته فى وصف إهلاك الجيوش الكبيرة بوسائل مبتكرة ، من القسوة التى كثيراً ما تلازم الجبان . وأكثر الناس بهم شئ من الجبن حتى ولو كانوا شجعاناً . وقد قال أحد الأبطال « من زعم أنه لم يخف قط ولم يجبن قط فهو أكبر كاذب » وإنما العبرة بما تؤول إليه النفس بعد التغلب على الخوف عند مفاجأة الخطر وبعد أول وهلة . ومن المعروف أيضاً فى الاختلاف بين الطبع والقول إن بعض الكتاب المتزمطين فى حياتهم يولعون بتصنيف كتب المجون كأن أنفسهم تريد أن تأخذ حظها مما فاتها منه فى الأعمال بتنميق الأقوال فيه والافتنان فى أساليبه بالكتابة ، وقد تكون صفتهم العجز عنه لا التزمت ، فيلجؤون إلى ما يلجأ إليه هؤلاء من زخرف القول .

٢ - شغف بعض الناس بالمعرفة ناشئ من البغض أو الحسد ، ولكن شغفى بالمعرفة كان شغف من يود أن يألف الأشياء والحيوان والإنسان ، لاشغف من يتخذ المعرفة أداة للأذى . وكل ما رأيته أو سمعته كان يهين لى وسائل هذا الشغف ويعيننى على الإحساس بعناصر الحياة وأسسها .

٢١ - كان دوسيل رجلاً فاضلاً محباً للحرية ولكن الثوار المتطرفين حبسوه فى أثناء الثورة الفرنسية الكبرى فصرخ ممتعضاً قائلاً : أهذا جزاء خمسين سنة قضيتها فى مناصرة الفضيلة والحرية ؟ وهذا يذكرنا غيظ بارناف عندما ساقوه إلى المقصلة « الجيولوتين » كى يعدم وكان من الذين ناصروا الثورة من أول نشأتها ونشأته فدق الأرض بقدمه من الغيظ وقال : أهذا جزاء مناصرتى للحرية وعملى على تحقيقها . ويذكرنا أيضاً غيظ كاميل ديمولن وهو من أوائل المنتصرين للحرية عندما ساقوه إلى الإعدام فمزق ثيابه من الغيظ وقال للجمهور : ألسنت أول من دعاكم إلى الثورة على الاستبداد ؟ وكان الجمهور يهزأ به ويضحك ويسخر منه . وكم من إنسان فى هذه الدنيا يفعل كل ما فعل هؤلاء ويحس كما أحسوا إذا غمط حقه ووكل حظه ووجد جزاء الخير شراً ، وجزاء العمل تثبيطاً لتضارب الآراء وتنازع المصالح . والعاقل من لا يجعل جزاءه بإظهاره الغيظ سخر الجماهير اللاهية عنه فى أثناء اقتتالها على الحياة وتنازعها النافع كما فعل هؤلاء .

٢٢ - قد علمتني المدرسة أن التلميذ الصغير كثيراً ما يعجب بما يقرأ أو بما يلقى إليه من غير فهم أو إدراك للمعنى . وإنما هو يلتذ بإحساسه وخياله . أو بالإحاء أو قدوة من يقول أنه فاهم أو يدعى الفهم أو يخشى أن يتهم في عقله .

٢٣ - ماتت جدتي وأنا صغير وبالرغم من خيبة أملى عندما سمعت العصافير تغنى وكل شئ في الدنيا كان كأن لم تمت جدتي . فإني كنت أحس إحساساً غامضاً أن جمال الأشجار وبهاء السماء وأصوات الأحياء أمور كلها متصلة بما يسمونه الموت وبه يتجدد .

٢٤ - لا بد أن نتخلى عن كثير من أمور ماضى العالم ولكن ينبغي أن لا نتخلى عنها كلها وأن نكون فارغى القلوب والعقول منها . لأننا لا نستطيع بناء المستقبل إلا بمادة الماضى .

٢٥ - من أهم أسباب سعادتي أنى كنت دائماً إذا رغبت فى شئ وأعوزنى الحصول عليه واستعصى علىّ ، لا أكيد نفسى بالحزن والغيظ لفواته بل استعيض عن ذلك بأن أتخيل أنى حصلت عليه وحزته وتمتعت به . وقد أكتسبت هذه العادة تخيل التمتع به شدة فى الوضوح وأثراً بالغاً فى الاحساس ومصرة كمسرتى بالحقيقة . فكان الخيال يغنى عن الحقيقة ، ونعمة الخيال هذه لاشك فيها ، إلا أنها قد توهن قدرة المرء على العمل ولا سيما إذا كان بطبعه يميل إلى الكسل ويجنح إلى الراحة فتسبب خيبة الكسالى .

٢٦ - كنت فى صغرى عظيم الثقة بالحياة شديد الإيمان بها بالرغم مما كانت تلحقه من الشقاء والتعاسة والمصائب . ولكل إنسان نصيب من هذه الثقة بالحياة حتى بالرغم مما تلحقه بذاته من الآلام والشقاء وإن كان يرى أنه أحق من غيره بالسعادة وبالعصمة من الشقاء - والآن صرت أفرق من كلمة الغد وأخشى المستقبل من الأمور والحوادث ، وقد فقدت ثقتى بها تلك التى كنت أعتز بها فى الشباب . ولكنى لا أزال أحب الحياة كما يحب العاشق عشيقته التى فقد ثقته بها .

٢٧ - كانت أمى تعظنى وتمنعنى من مخالطة الصغار المشردين فى الشوارع وتقول يا بنى لا تحسب أن ذلك من جنابة جنوها ، وإنما جنت عليهم الحياة فصرت أرحمهم بدل من أن أحسدكم على نعمة الحرية التى فى التشرد . حقاً لقد علمتني أمى من صغرى بقولها هذا أن لا أغتر وأن لا أخدع بقول الأثرياء السعداء أن الأشقياء إنما كانوا أشقياء بسبب ماجنوه على أنفسهم وهم إنما يقولون ذلك كى يسوغوا إغفالهم لإصلاح مساوى الحياة .

٢٨ - حَبَّبَ إِلَى الخيال وقراءة الكتب حياة الترهّب والتّقشف وامتنعت عن الطعام ، فسألتنى أمى عن سبب ذلك وقد راعها أن ترى طفلها الصغير تبدر منه بادرة الرغبة فى الزهد ، فقلت إذ سألتنى يا أماء أنى أفعل ذلك كى أكون شهيراً ذائع الصيت وأطبع بطاقة أكتب فيها اسمى وأكتب تحته « الزاهد الشهير فى الدنيا » فصرخت أمى : لقد فقد ابنى رشده قبل سن الرشد ، فقال أبى : لا تزعجى نفسك إن الدنيا ستعلمه الزهد فى الشهرة قبل أن يزهد فى الحياة ... وقد فعلت . لقد علمتنى الدنيا الزهد فى الشهرة قبل الزهد فى الحياة وما من مرة عاودتنى فيها الرغبة فى الترهّب إلا جددت الحياة فى نفسى الرغبة فى مقاسمة الناس أعمالهم وأن أجّد السعادة فى ذلك .

٢٩ - لو عاشت أمى لَسُرَّها أن تجد أكبر فضيلة لى فى التسمّح مع الناس ولوجدت أن أكبر نقص لى فى الشعور بهذا التسمح لأن التسمح لا تتم فضيلته إلا إذا كان أمراً طبيعياً يصدر عن المرء من غير شعور بأنه يتسمح ومن غير اعتداد به .

٣٠ - إن للأطفال منطقاً عجيباً ولكنه مستقيم - لقد قالت جيسى الصغيرة لخالها : إنك لا بد أن تحببى يا خال ؟ قال متفهماً : ولماذا أحبك ؟ قالت لأننى صغيرة . وكأنها تقول إن الصغير الضعيف أحقّ بالرعاية وإن الضعيف أحقّ بأن ينال ما يحتاج إليه ، ووجه الخلاف فى هذا المنطق أن الإنسان لا ينال دائماً فى هذه الدنيا ما يحتاج إليه . ولكنه خطأ طبعى من جيسى الصغيرة لأنها لا تعرف الدنيا ونظامها .

لم يتسمع هذا المقال إلا لنظرات قليلة من كتاب واحد من كتب أناتول فرانس العديدة وهو القصة المسماة « كتاب صديقى » .

« للبحث بقية »

(٦)

تكملة نظرات أناتول فرانس^(١)

١ - كان جان ايلو (السماك) قليل الكلام ولكن كلامه كله كان مقصوداً على ذكر المصائب ووصفها كمصائب أقاربه الذين أبتلعهم البحر وهم يصطادون السمك . وعلى كثرة ذكره المصائب ؛ لم أجده إلا وادعاً مطمئناً كأنما يجد فيها كلها خيراً ؛ لأنها أمرٌ مُقَدَّر - وهذا السماك الجاهل يذكرني حكمه جويتى كبير أدباء الألمان التى وصل إليها بالثقافة ورياضة النفس بعد العهد الذى أسماه عهد العاصفة والشدة وهى قوله : الرجل السعيد هو الذى يطمئن إلى مايريد القضاة كأنما هو الذى يريد ويرغب فيه إذا كان أمراً محتوماً . وقد وصل جان ايلو إلى مثل هذه الحالة بالطبع والغريزة أو العادة .

٢ - وكانت خادمتنا ميلانى تمر كل يوم على صاحبات الدكاكين ، ويشوقها أن تحادثهن . وكان كل حديثهن مقصوداً على ذكر الأسقام والأمراض وأنواعها ، وآلامها وأوصافها ، كأنما فى وصفها لذة لهن . فإذا انتهين من حديث الأمراض ولجنَّ فى حديث الجرائم التى تقشعر منها الأبدان - وهكذا تُرْفِه الحياة عن بعض الناس حتى بأنواع غريبة مألوفة من أحاديث النكد والفرع والرعب .

٣ - يتفق فى بعض الأحيان ؛ أن يتنافر زميلان فى كل أمر ، وأن يختلفا فى كل شئ وأن يتشاجرا فى كل خلاف . ومع ذلك ، تكون بينهما رابطة وثيقة ، وصلة متينة ، وألفة دائمة أساسها هذه المشاحنة التى تصير ديدنا لا يستغنيان عنه وعادة لا تتم سعادتهما إلا بها ، ودعامتهما إذا استراحا فترة من المشاحنة اتفقا فى أمر واحد كالسخر بمن عداهما من الناس .

٤ - كان فى طريقنا حانوت على باب صنمان قد علمتنى أمى أن أراها بيتسيمان إذا أحسنت السلوك ، ويعبسان إذا أسأت وكانت أمى تقول : اعمل خيراً تبسم لك الدنيا - وتوهى ابتسام الصنمين وعبوسهما من الإيحاء النفسى ، ولكنه مؤسس على حقيقة ، وهى أن المرء إذا كان راضياً عن سلوكه وعمله سُرَّتْ نفسه فتنعكس أشعة سروره على مرآة الدنيا .

١ - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٢ ، الجزء الرابع ، أول أبريل سنة ١٩٤٨م ، ص ٢٤٩ - ٢٥٦ .

٥ - قالت بلقيس : ان سكرة الفزع تسرى فى أوصال جسمى ليلا ، فإن للخوف أو الفزع لذة فى بعض الحالات . وهذا يذكرنى قول لفنجستون الرحالة المستكشف وقد أوقعه أسد على الأرض ووضع قائمه عليه ، وكاد يفترسه ويقضى عليه لولا أو رجلا قتل الأسد : فقال لفنجستون : إنى كنت أشعر بذهول لذيذ من الخوف . ولعل هذه اللذة فى الخوف ، من الأساليب التى تخفف بها الحياة فى بعض الأحيان ويل الآلام والمصائب . وربما يعترى مثل هذا الدهول كثيراً من الحيوانات التى تكون فريسة وطعمة لغيرها . ويذكرنى هذا قول بيرون الشاعر الإنجليزى أن من رحمة الحياة : أن الإنسان لا يستطيع أن يتحمل إلا قدرًا محدودًا من العذاب ، فإذا زاد العذاب أغمى عليه ، أو هلك . وهو فى الحالتين لا يحسه - وما يذكر عن الجنود أن أشد الجروح قد لاتصحبها آلام فى بعض الحالات ، أو تصحبها آلام أقل من آلام الجروح الخفيفة .

٦ - كان لى صديق اعتزل العالم وعود نفسه أن لا يفكر ولا يعمل خشية أن يكون لفكره أو عمله عواقب من الشر يصيب الناس ولا يتوقعه فقلت له : أن امتناعك هذا قد يجلب الشر أيضاً وليس الفكر والعمل والقول ما يُقصر عليه مصير الإنسان والتحكم فى حياته فإن حصة صغيرة تنسلخ من جبل قد تكون لها عواقب كثيرة غير متوقعة وامتناعك عن العمل قد يتخذة أناساً طريقاً للخير والهداية فيقاتلون من لا يعتنقها . قال صديقى فلا بد إذا أن يموت الإنسان حتى يسلم من عمل الشر . قلت : إحذر من قولك هذا فإن موتك أيضاً عمل ، وكل عمل قد تكون له عواقب من الشر غير متوقعة .

٧ - زار جان سرفيان بيت صديقه ادمار ورأى مظاهر الترف والنعيم فشعر بنقص ووضاعة وسألته أم صديقه قائلة : ما صناعة أبليك ؟ قال مستخذاً أنه مفجلاً للكتب وأحس بالغيب والنقمة على أبيه الذى اختصه بكل ما استطاع . وود أن لا يراه أبداً من الغيب والحنق والشعور بالذلة وكل ذلك بسبب زيارة قصيرة لبيت الترف وهى زيارة لاتنفعه كما نفعه أبوه - وهذا يذكرنى اعتراف جويتى كبير أدباء الألمان أنه فى أحلام اليقظة كان يجول فى خاطره أن أباه ليس الرجل الذى رياه بل أن أمه حملت به سفاهاً من أمير جليل الشأن . ويذكرنى أيضاً قصة من قصص جى دى موباسان سمح فيها فلاح فقير لرجل غنى عقيم لزوجه العاقر أن يتبنيًا ابنه وأن يربياه وكان جاره قد رفض ذلك مستعزاً بابنه فلما كبر الغلام الذى ربي فى النعيم وترعرع وزار القرية ، ورآه الغلام الفقير المستعز به فقد على أبويه حرمانه من هذا التبني فى

كفف النعيم ولعنهما وهجرهما وهما فى حاجة إليه فى كبرهما - وهكذا الإنسان ينسى فضل أقرب الناس إليه إذا غلبته الأثرة والغيظ والحسد والطمع .

٨ - وكان جان مغيظًا محنقًا وأحس برغبة فى أن يرى إنسانًا أو جمادًا - أو حيوانًا - يشبع منه نهمة غيظه وكرهه وقسوته - وهكذا الإنسان قد ينكل بمن لم يكن سبب غيظه إذا استشرى الغيظ وتلكه الغضب وفارقه الإنصاف ونزل إلى مرتبة الجنون أو الإجرام أو البهائم أو مادون ذلك .

٩ - قال الأب سرفيان : تعلم يا بنى واشتهر ولا تخش عندما تصير وزيرًا أن تجلب لك المعرة بوضاعة أصلنا فإننا نخفى أنا وعمتك فى قرية صغيرة فغضبت العمة ، وأبت إلا أن تدبر أمور منزل ابن أختها عندما يتعلم ويشتهر ويصير وزيرًا وألحت على أن تدبر شؤونها وشاغت أخاها وشاجرتة كأنما كانت تعاركه فى أمر قد حصل أو هو قريب الحدوث وهكذا الناس فى حماقتهم يتطاحنون حتى على الخيال أو المحال .

١٠ - قد يتسامح المرء فى الاختلاف العظيم إذا اطمأنت نفسه إلى عقيدته أو عرف أن خصمه لا يستطيع السموق بفكره والتسامى برأيه إليه كى يلم به ويستوعبه كما كان يصنع الراهب لونهجمار مع من ينتقد دينه وعقيدته ، ولكنه قد يدركه الغيظ إذا خلط مناقشه ووضع فى طائفة ليس منها وبينهما فى العقيدة والطريقة فرق قليل إذا كانت بين الطائفتين منافسة . وهكذا كان يغضب الراهب لونهجمار إذا نسبته أحد الناس إلى طائفة من الرهبان غير طائفته وكان يقول إن الرجل الذى لا يستطيع التمييز بين الطائفتين لا يستطيع أن يرى الذبابة فى اللبن وهذا يدل على أن الطوائف المتقاربة قد تكون أشد تباعدًا ونفورًا بسبب قلة الخلاف بينهما كما يدل على أن الإنسان غريب الخلاف لنفسه فيتسامح فى الأمر العظيم ويتحامق فى الأمر الصغير فى بعض الأحيان .

١١ - إنك إذا اغتفرت لإنسان ذنبًا وكان اغتفارك ذنبه على سبيل الاحتقار له والزراية عليه والإزراء به والإصغار لشأنه والتهوين من أمره ، فإنه قد لا يغتفر لك صفحك عفوك وكرمك إذا كان باعثك على ذلك الازدراء والاحتقار ، وإذا عرف أن هذا كان باعثك . وهذا بالرغم من استفادته من اغتفارك ذنبه والصفح عنه .

١٢ - قد يثير وقار المعاتب الذى لا يقبل الجدل من الغيظ أكثر مما تثيره ضجة المخالف الصاخب الذى يقبل الجدل ويقابل الصخب فيه بصخب مثله ؛ لأن الأمر قد ينتهى عند ذلك ولا

يختلف كبتاً ولا قهراً فى النفس مادامت ضجة المخالف تقابل بضجة مثلها أو قد تكون معاودة بعد مثل هذا الخصام إلى الألفه والعشرة . أما وقارُ المخالف الهادئ الذى لا يقبل جدلاً ولا صخباً فلا حيلة فيه ولا سبيل لدفع لومه وقد يسبب القطيعة والوحشة طول العمر .

١٣ - إذا ثار ثائر وخاب وهزم عدو مجرمًا عاصيًا . أما إذا ظفر ونجح عد حاكمًا شرعيًا - قوله الشريعة والقانون وأعداؤه هم المجرمون - فلو أن يوليوس قيصر هزم بعد عبوره نهر روبيكون فى زحفه على روما ، ولو أن نابليون بوناپرت خاب وقتل يوم انقلاب برومبير عندما ثار على الجمهورية الفرنسية الأولى ، لعدا الآن من المجرمين ولم تعرف شرائع وقوانين باسمهما .

١٤ - فى بعض الأحيان تستغل حكومة السلطة فى الحكم فيخاف الناس أن تسقط إذا تعودوا تتابع الحكومات المستغلة فتأتى بعدها حكومة شر منها . وهذا يذكرنى قصة امرأة عجوز كانت تذهب كل يوم إلى بيت العبادة كى تدعو ربها أن يطيل حياة الطاغية الذى كان يحكم بلدها سرقوزة ، فعلم بها وأرسل فى طلبها فلما مثلت بين يديه سألها لأى أمر تدعوه كل يوم بطول العمر . فقالت أخشى إذا مت أن يخلفك من هو شر منك . ويذكر هذا بقصة الجريح الذى سقط الذباب على جروحه وامتنص دمه فأشفق عليه رجل وأراد أن يبعد الذباب عنه فرجاه أن يتركه ؛ لأن الذباب الواقع على جروحه كان قد شبع من دمه فإذا أزاحه عنها حل محله ذباب لم يرتو من دمه بعد فيكون هو الخاسر .

١٥ - كانت فلسفة روسو مؤسسة على أن الإنسان بطبعه مخلوق خير طيب فاضل ، وهى عقيدة لا يعتنقها إلا من لا يستطيع الضحك ولا الابتسام . وقد ظهر تناقضها عندما اعتنقها ساسة الثورة الفرنسية الأولى وحاولوا تطبيقها فقد كان روسبيير يحسب أنه من المستطاع أن يبلغ الإنسان كمال الفضيلة ، فاشترك فى حكم الإرهاب كى يبلغ به حد الفضيلة ، فاضطر إلى الإكثار من استخدام القتل عقوبة . وهكذا كل سياسى عظيم التفاؤل بهذه العقيدة يبدأ بقتل بعض الناس ، ولو ترك يصنع مايشاء لقضى على الناس جميعاً أو على أكثرهم .

١٦ - من العجيب أن كثيرين يضعون الإنسان فى فصيلة تشبه فصيلة القرود ، ثم يغضبون إذا رأوا خصاله تشبه خصال القرود .

١٧ - إنما كتبت قصة الثورة الفرنسية كى أوضح أن الإنسان لم يبلغ من الكمال حداً يمكنه من أن يكون عادلاً إذا عاقب بدعوى مناصرة الفضيلة . فالرحمة إذا أقرب إلى العدل ولن يتم

عدل الإنسان إذا نظر إلى جانب العدل وحده وأهمل جانب الرحمة - ولكن الناس ثور وتقتل وترتكب الموبقات بدعوى مناصرة الرحمة أيضاً وإزهاق ما يخالف مبادئها .

١٨ - قرأ لنا معلمنا المسيو كروتو قصة مارسياش الإنسان الحيوانى الذى أراد أن ينافس أبولون رب الفنون الجميلة فقهرها أبولون وقتله وسلخه ، فارتعت ووجمت ولم أعرف كيف أسوغ قسوة رب الفنون الجميلة إذ سلخ خصمه ، وأخلق بمن كان رب الفنون الجميلة أن ينزه نفسه عن هذه القسوة وأن ينزه الناس عن قذورتها ، وإلا فبأى شئ تكون تلك الفنون جميلة إذا لم ينزه نفسه ، ولكن عندما تذكرت أن صورة مارسياش تشبه فى خيالى صورة معلمنا كروتو الذى كنت أمقته ، سهل على أن أغتفر لأبولون قسوته - وهكذا الإنسان يسوغ الشر إذا وقع بشبيه من يكره ولا يرى القسوة قسوة إذا قاساها من يعادى أو شبيه من يعادى.

١٩ - أستطيع أن أقول قول روسو أنى لا أكذب إلا لتأييد الحق - وإذا استرسل المرء فى هذا المنطق استطاع أن يسوغ كل شر بدعوى تأييد الحق أو تأييد ما يخال أنه الحق وإذا لم يتضح له ولم يتحقق بما لا شك فيه أنه الحق .

٢٠ - كان من سوء حظ جان سرفيان وهو عائد إلى منزله أثناء ثورة الكوميون فى باريس أن قابل بعض الثوار تقودهم امرأة ورأى الثوار أن جنود الحكومة يقتربون فأرادوا الفرار فقالت المرأة تقتل هذا أولاً وأشارت إلى جان ولم تكن تعرفه ولم يكن له ذنب بل كان من حزبيها أو يميل إليه . لكن المرأة استهواها حب سفك الدماء فأطلقت عليه الرصاص ووقفت ترقص على جثته - وعدل هذه المرأة أو ظلمها مثل عدل أو ظلم كثير من الناس وإن ظهرا فى مظاهر أخرى، إذ أن من عادة الناس أنهم يتكلمون أولاً ثم يبحثون وقد لا يبحثون .

٢١ - كتاب الاعترافات يغالطون أنفسهم ويغالطون الناس إذ يزعمون أنهم لم يخفوا عن القراء شيئاً من حياتهم وأفعالهم وخصالهم وخطرات نفوسهم . إذ أن هذا الاعتراف الكامل أمرٌ لن يستطيعه إنسان ، ولم يستطعه جان جاك رسو ، بالرغم من صراحته فى اعترافاته وذم نفسه والإساءة إليها .

٢٢ - أعظم فائدة تفيدها حقائق الحياة أنها أساس يبنى الناس عليها آمالاً للحياة ليست فيها .

٢٣ - مما جعلنى أغتفر للحياة آلامها أنى قرأت قصة لكاتب وصف فيها أناساً لا يفضيئون ولا يحزنون ولا يألون ولا يشتهون ولا يحبون فرأيت أنه قد محا السرور والسعادة والجمال والشعر والفنون عندما محا آلام الحياة ومكارهاها .

٢٤ - كنت فى صغرى أحب أن أتودد إلى أقرانى فيعترينى الحياء فلا يكون جزائى إلا السخر ، لأن الحياء يبعث على الإحجام عن التودد والارتباك والتردد فيه فلا يكون نصيب صاحبه إلا السخر منه والانصراف عنه - وقد يخال ما به الكبر والصلف والزهد فى الناس والتعالى عنهم - وهذا إذا لاقى من هو أكثر منه جرأة ، فإذا قابل من هو فى مثل حياته كان نصيبه أيضاً الإهمال والانصراف عنه ، فالتناس كثيراً ما يسيئون الظن بصاحب الاحتجاز والاحجام عن التقرب إليهم من حياته وخشية أن يكون نصيبه فى تقرُّبه منهم النفور منه أو الإهانة أو السخر أو الازدراء ، فكم منع الخوف من هذه الأمور من مودات وألفة وتفاهم . والناس معذرون إذ أن صاحب الحياء يشعر بنقص من أجله وقد يستره بالكبر ، وقد يغالى فيستره بالخشونة والتجهم فى معاملة الناس .

٢٥ - ربما كان أشد الناس اضطهاداً للناس هم الذين قاسوا آلام الاضطهاد وثاروا عليه ولكن معاناتهم له لا تعظّمُ والمعروف أن الذين يريدون أن يغيروا نظم الحياة كما يشاعون يأبون على غيرهم أن يريدوا ما أرادوا ، وقد يغالون فى ذلك .

وقد كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ يرتعد إذا رأى شباناً فى مظاهرة سلمية ، ويود أن يستخدم الشرطة النار والسلاح لمنعها . وهذا الشيخ كان فى شبابه عضواً فى كل جمعية سرية ثورية ، وزعيماً فى كل ثورة . ومن الأقوال المعروفة : أنك إذا أردت أن يتخلى ثائر عن حذته فاجعله وزيراً فإنه يصبح من المحافظين ، إذ أن مسؤولية الحكم ونظرته إلى الأمور تدعُوْانه إلى أن يرى من الأمر مالم يكن يرى قبل قيامه بأعباء الحكم .

٢٦ - كثيراً ما يحدثك محدث فيقول سنرى قريباً تغيراً كبيراً فى نظم الحياة وسننها ولكن الأمور لا تتغير إلا ببطء - ومادام الإنسان إنساناً فإن طبائعه وغرائزه التى نشأت وفت ورسخت فى مئات الآلاف من السنين لا تتبدل إذا تبدلت إلا ببطء ، فمثل الإنسان إذا غير نظام حياته وحسب أنه غير طباعه أو نسخها مثل من يغير ثيابه ويحسب أنه قد غير نفسه ، وليس معنى ذلك أن نظم الحياة لا يحسن أن تتغير فقد قال أناطول فرانس فى مكان آخر أن نظم الإنسان وشرائعه وقوانينه كثيراً ما تكون مؤسسة على القسوة والظلم والمحابة ، فإذا لم تنظف من حين لآخر كانت كالحجرة المظلمة المهملة تحت الأرض تربي فيها الحشرات وتغزل فيها العناكب خيوطها وبيوتها فليس لها إلا المكينة .

٢٧ - الغريزة فى الفن كالغريزة فى الحب ، هما الدليل الذى يعتمد عليه : فإذا فارق الإنسان غريزته فى الفن كان كالسمك الذى أخرج من الماء لا تطول حياة فنه بعده .

٢٨ - إن الأفكار الغالبة على الجنود وإن كان بينهم أبطال أفكار بعيدة عن البطولة وكذلك نزعاتهم مثل الإقدام على العدو خوفاً من أن يبيدهم إذا نكصوا وولوا الأدبار أو مثل خوفهم من العار والتعيير إذا أدبروا وجبنوا ، أو مثل اتقاء العواقب المتنوعة غير المعروفة للهزيمة إذا انهزموا خوفاً ، أو مثل الخوف من الحكم بالإعدام على من يفر هرباً أو حتى مثل الخوف من الخوف . فإن الخوف من الخوف قد يؤدي إلى مظاهر الشجاعة والبطولة ، أو لأن الإنسان سريع الاستجابة للإيحاء ، فإذا وضعت في يديه سلاحاً أحس بميل إلى إدخاله في بطن ما .

٢٩ - كثيراً ماتصدر عن المرء أعماله وأقواله كأنها آتية إليه من خارج نفسه ، وإنما هي من استجابته لأمر الحياة واندفاعه في تيارها . ومن أجل ذلك كثيراً ما يكون المرء أعظم أو أحقر من نفسه أى من المؤلف منها في حياته .

٣٠ - من فوائد العمل أنه يصرف المرء عن التفكير في آلام حياته وعن الأفكار التي قد تستحوذ على العقل والنفس وتستعبدها فتكون مثل الجنون وهو يشيع الغرور في الإنسان وقد يوهمه القدرة على مغالبة القدر ويلفت المرء عن مقدار عجزه في أمور كثيرة .

٣١ - صديقات عقيلة برجريه أرغمنها على ترك زوجها وكانت قد خانتها وقبلت وهي تحتقره في سرها ، لأنه هو المظلوم ، أن تغتفر له لومه أياها وأن تصالحه وتبقى معه . ولكن صديقاتها أبين إلا أن تترك بيته صيانة لكرامتها بعد أن اتهمها في شرفها ، وكن يظهرن مآزرتها ومناصرتها ، وإنما كان مقصدهن الذي أخفينه رغبتهن في التخلص منها وهي ثقيلة لديهن رعاء ، وقد تَفَضَّحْنَ برعونتها و حماقتها ، فكان كيدهن لها يلبس لباس المناصحة والموازرة ، كما أنهن كن يكرهن زوجها لأنه رجلاً مفكراً وكن يستن به الظن من أجل ذلك .

٣٢ - إن خلق عالم جديد ربما كان أسهل على المرء من فهم نفسه فهما كاملاً على سبيل التقصى من غير أن يفوته شيء من حقائقها .

« للبحث بقية »

(٧)

خاتمة نظرات أناطول فرانس^(١)

١ - ذهبت إلى أمى وأنا طفل صغير وقلت لها : إن عاشق خادمتنا ، جوستين قد هجرها فنظرت إلى وقالت : هل هى التى أخبرتك بذلك ؟ قلت : لا ولكنى لاحظت وعرفت . قالت : إن من التطفل المعيب أن نتحدث عما قد نلاحظ من أمور الناس ، وأشد منه عيباً أن نحاول معرفة ما ليس من شأننا من أمورهم ، أو أن ندعى تلك المعرفة .

٢ - ورأيت قصة تُمثّل فى دار التمثيل ، وكان أحد الممثلين يمثل الشيطان ، وكان من حوادث القصة أن يقتل بطلها الشيطان ، فلما رأيت الشيطان مقتولاً اعترانى الوجوم والذهول وظللت فى مكانى بعد انصراف النظارة المشاهدين حتى جاءت سوزان تبحث عني فقالت مالى أراك واجماً حائراً ؟ قلت : لقد قتل الشيطان ياسوزان وإذا قتل الشيطان زالت الشرور ، وإذا زالت الشرور زالت الفضائل التى فى مكافحة الشرور وبها تُعرف ، فماذا يكون مصير الناس عامة والفضلاء خاصة ياسوزان ؟ فضحكت سوزان وطوقتني بذراعها وقالت لا تقلق فكرك ولا تزعج نفسك فإن الذى رأيته قميلاً لاحققة فلا قتل للشيطان ولا زالت الشرور لا انمحت الفضائل التى فى محاربة الشرور وبها تعرف . وهذا يذكرنا الذين يخشون إذا أمن الإنسان الفقر والجوع والعري والمرض أن تضعف غرائز المقاومة فيه وعزائمه التى بها ارتقى بسبب الكد كى يأمن الجوع والعري ويسبب إعمال فكره لتجنب الفقر والمرض ، فيضعف عقله أيضاً ، ومثل هؤلاء يقال : لا تنزعجوا ولا تزعجوا أنفسكم ولا تقلقوا بالكم ، فلا زال الفقر ولا المرض انمحي ، ولا قضى على الجهل .

٣ - كان اعتمادى فى الهروب من المدرسة وأنا صغير على الفوضى التى تخالط نظام الحياة مهما كان النظام سائداً . وهذه الفوضى المخالطة للنظام قد تلتف من ظلم الحياة وشدة العدل - أو قد تزيد ظلمها - والإحساس بهذا الاختلال الملازم للنظام ، قلما يكون إذا كان المرء راضياً عن الحياة . والإطمئنان إليه كما فعل أناطول الصغير لذة وسعادة تحجب عنه الخوف من عواقبه ؛ إذ أنه يرى أنه قد يُلطف شدة الحياة . وهذه الفوضى الملازمة للنظام تكثر فى أعقاب دول الأمم التى قاست عصوراً طويلة من الاختلال أو فى أوقات الانقلاب .

١ - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٢ ، الجزء الخامس ، أول مايو ١٩٤٨ م ، ص ٣٢٩ - ٣٣٥ .

٤ - ينبغي للإنسان إذا اعتنق رأيًا أن يقبل نتائجه وعواقبه القَصِيَّات وإلا كانت مقدّمات أفكاره تخالف أعقابها واختل منطقة وحاول التوفيق بين المتناقضين وقد يخدع الناس وهو لا يشعر بهذا الخداع ، وهذه الفكرة تذكرنى أنى قرأت مقالين للأستاذ جولييان هوكسلى فى أولهما يأسف إذ أن شركات الاحتكار وكبار المالىين تتخذ من نتاج العلوم فى الطب والهندسة وغيرهما وسيلة للكسب بدلا من أن ينتفع به الشعب كله إلا فى حالات الأوبئة التى يخشى منها كبار رجال المال على أنفسهم وإلا فى مجهود الجمعيات الخيرية الضئيل ولكنه لم يفسر كيف استطاع منع احتكار نتاج العلوم للكسب تفسيراً مفصلاً مقنعاً إلا بقوله تنشأ لجنة علمية مشرفة . وفى المقال الثانى يقول إن الحروب لاتزول إلا إذا كانت هناك تربية دولية تحاول أن تقضى على غرائز الكره والانتقام والحسد والاقتتال وغيرها ، ولكنه لم يفسر تفسيراً عملياً مقنعاً كيف يقضى على هذه الغرائز ونظام المنافسة يحييها ويزيدها تمكيناً كلما حاول المعلم محوها بالوعظ ، هل صحيح ما قال نيتشه الفيلسوف الألمانى إن الإنجليز يحجمون عن تتبع أفكارهم إلى نتائجها القصيات أم أن هذه صفة أكثر المفكرين من كل أمة إذا غلب عليهم الفكر وخشوا من غلبته أن تزعزع ثبات حياتهم .

٥ - فى بعض الأحيان يتخذ المرء لنفسه عوناً على المصائب بأن يهزل معها أو يداعبها على سبيل الفكاهة والترويح عن النفس ، كما كان يصنع المسجونون فى سجون الثورة الفرنسية الكبرى وهم علي وشك أن يُعدموا فكانوا فى سجنهم يحاكون المحكمة الثورية على طريق الفكاهة والسخر فيحاكمون إنساناً ويدعون اعدامه ، ثم ينتقلون به إلى الحياة الأخرى فيحاكمونه فيها . والإنسان إذا لم يستطع إلا مواجهة الأمر المخيف أحس إحياء بالإقبال عليه ، كالفتاة التى تركتها قريناتها فى حجرة مغلقة مع جثة على سبيل المزح فليج بها الذعر وأحست هذا الإحياء حتى احتضنت الجثة وهى لاتعى ، فلما عادت قريناتها وجدنها جثة لاحراك بها معانقة للجثة . ومن المستطاع أن يفسر عمل المسجونين بأنه كان من محاكاة ميل النبلاء الذين كانوا قبل الثورة يتخذون من كل أمر جل أو حقر مادة للهو ، وشاعت هذه العادة حتى أن الملكة ماري أنطوانيت أحبت أن تعيش فى أكواخ يخيل للرائى أنها مهدمة كأكواخ الفقراء ، وإنما كان مظهر تدهمها زينة وتصنعاً بالفن فاتخذت من الفقر مادة للهو . وقصتها تذكرنا قصة محبوبة ابن عباد ملك الأندلس أو أشبيلية فإنها رغبت فى مثل هذه الرغبة ؛ لأنها اشتاقت حياتها الماضية ، فبنى لها ابن عباد كوخاً إذا رأيته حسبت أن أرضه من الطين كأرض أكواخ الفقراء ، وإنما كانت أرضه من العنبر الغالى وأمثال هذا اللهو بكل شئ تكثر

مؤذنة باضمحلال الدول . على أن لهر المسجونين فى سجون الثورة كان دليلا على الشجاعة أو لاستشارة الشجاعة فى نفوسهم وقهر الخوف .

٦ - القط الأليف من فصيلة الأسد المتوحش وكذلك الإنسان المهذب الخير من فصيلة الشرير الأثيم . والوديع المسالم المتحضر من فصيلة الهمجى الساطى ، ولكننا ننسى ذلك حتى تبدر بادرات الغرائز الكامنة ، والرجل الواحد قد يكون فى معاشرة إنسان مهذباً كاملاً خيراً وفى اتصاله بإنسان آخر شريراً دنيئاً خبيثاً . وفى الثورات والحروب ينضو المسالم المتحضر الوديع لباس الحضارة والوداعة والمسألة وقد يبد المسمين بالمتوحشين فى قسوتهم وهمجيتهم . ولكن القسوة والهمجية قد تكونان ظاهرتين حتى فى أثناء السلم فى حياة الرجل المتحضر الذى يألفه أصدقاؤه وكأنهم لا يرون شره وخبث طبعه .

٧ - بعض الكتاب إذا كتبوا للأطفال كتباً اقتصروا فيها على لغو القول مدعين فيها أنهم أسفوا وهبطوا إلى مستوى عقول الأطفال ، فتكون نتيجة ذلك أن الأطفال - ولا سيما الأذكيا - يضحكون منهم ويهزمون بهم ولا أعنى أنه ينبغى التفكير النظرى ، فهذا لا تستسيغه عقول الأطفال ، ولكن الأطفال يعجبون بكتب الخيال مما ألفه العبقريون مثل كتاب روبنسون كروزو وأجزاء من الأوديسية ، ونستطيع أن نقول أيضاً كتاب ألف ليلة المهذب المنقح وأجزاء من كتاب أسفار جاليفار ودون كيشوت وأسرة روبنسون السويسرية وأمثالها ، وكتاب أليس فى أرض والعجائب يقبله الكبار كما يقبله الصغار بالرغم من سخف العبقرية فيه ؛ لأنه كأنه يعطى العقل أجازة مسلية ، وأما محاولة تلقين الأطفال النظريات العلمية فى كتب يحسب الكاتب أنها تفهمها عقولهم فهى محاولة لا يقبلونها ولا يجدون فيها مسرة إذ هى للتلاميذ الكبار لا للصغار منهم .

٨ - لا شئ أكثر خداعاً للمرء من فطنة الحواس - لأنها إما ناقصة وإما ينتفع بها المرء كى يخفى عن نفسه ما يريد إخفاءه لمنفعة عاجلة أو ميل نفسى - ولو اتضحت الأخطاء أنها أخطاء ماخدع بها أحد ، ولكن فطنة الحواس هى التى تكسوها ثوب الصواب والحقيقة فيتحامق الناس فى نصرتها والافتتال عليها .

٩ - بالرغم من أنى رجل مسالم أحب السكينة والنظام ، فإنى أحب أن يكون فى نفس كل إنسان شئ ولو قليل من التمرد مهما كان سن ذلك الإنسان . أما الاستسلام التام للحياة فهو ركود وفناء .

١٠ - لو استطاع الإنسان أن يدرس نفسه دراسة تامة وأن يعرفها حق المعرفة لسببت له تنغيصاً وشكاً ويأساً . ومن أجل ذلك أرى أن رسائل مونتاني الذي كان يدرس فيها نفسه لم تكن إلا لهواً يتسلى به كي ينسى آلام وجع الكلى الذي انتابه ونغصه - ولكن أنا تول نسي ما قال مونتاني وهو أنه كان يدرس في نفسه نفوس الناس ولا سيما من حوله ومن كان يقابلهم. فى مثل هذه الدراسة نجد تعزية لا تنغيصاً مادام يرى غيره شريكاً له فى صفات نفسه بل ربما كان فيها أكبار لنفسه .

١١ - مهما قسمنا العمل قسمة عادلة بين الناس فإنه سيظل عبئاً ثقيلاً على أكثر الرجال والنساء ؛ لأنه عبء الحياة ، وهذا لا يمنع من إنصاف المثلث بأعباء الحياة والترويح عنه .

١٢ - إنه ليؤلم الإنسان إذا كادت حياته تنصرم أن يفكر فى أن العالم بعد موته يعيش ويعمل ويحس ويفكر كأن حياته لم تكن ، وعندئذ لا يكون له رأى أو عمل أو إحساس فيها ولا يحاول تنظيمها كما يشاء فهو يحس كأنه غارق فى مد الحوادث وتيار الزمن . وقد عزاه شوبنهاور بأنه ماهو إلا مظهر من مظاهر إرادة الحياة وأنه لا حياة له من غيرها ، أى عزاه فى كتبه وهى تعزية لا تعزي .

١٣ - كما أن الطبيعة تحول الإنسان وتشكله وتغيره وتتحكم فيه . فالإنسان كذلك يغير الطبيعة ويشكلها ويحورها وهذا موضوع كبير يرجع إليه فى كتب فون راتزل ، ومس سميل ، وفير جريفز وغيرهم . وقد أراد أوسكار وايلد أن يضع هذه الحقيقة فى أسلوب فكاهى فقال : إن الطبيعة تحتذى ألوان الرسامين المصورين الحديثين فى ألوان الضباب الذى يحدث فى لندن . وإننا ما كنا نرى للضباب مثل هذه الألوان قبل احتذاء الطبيعة ألوان الرسامين الحديثين . وما هو أبلغ فى الفكاهة أن ماكس نورداو الناقد الألمانى الشهير أخذ هذا القول مأخذ الجد فقال إن هذا الرأى يدل على سخافة عقل أوسكار وايلد وانحطاطه وقوله هذا فى كتابه المسمى (الانحطاط) ، ولكن ماكس نورداو معذور إذ أن بعض الكتاب لا تكاد تستطيع أن تميز فكاهته من جدّه .

١٤ - حقاً إن للعقل أثراً فى الجسم كما أن للجسم أثراً فى العقل « وهذا شئ يعرفه الأطباء حق المعرفة وهو موضوع كبير أيضاً » وقد كان بيير الصغير يذمن النظر فى صور المزارع فتعاوده ذكرى الأيام التى قضاها فى المزارع وعاد بعدها نضير الوجه بض الجسم ظاهر الصحة يقبل على طعامه وينضج وجهه ويعاوده مظهر الصحة إذا أذمن النظر فى صورها وتأملها تأمل المستمل محاسنها فكأنه عائد من نزهة ريفية .

١٥ - إن شغفى بقراءة الكتب من صغرى جعلنى أحسن من عهد ذلك الصغر بفناء العالم؛ إذ كم من فكرة جاءت ثم زالت وكم من رأى ولد كى يموت ، وكم من نظرية استحدثت كى تنمحي كما تنمحي الفقايع وكم من مذهب ساد ثم باد ، وبعد أن كان مقبولا صار مرفوضاً ، فصرت أحسن برحلة عقل الإنسان فى فيافى الزمن .

١٦ - كان لى كلب كنت أتأمله وهو نائم يحلم كأنه فأراه ، وتارة يئن كما يئن المتوجع المهموم ، وتارة يبسم وكأنه يضحك وتارة يبكى فكأن له نفساً يقظى ووعياً باطناً كما للإنسان - وهذا يذكرنى تورجنيف القصصى الروسى فى قصصه القصيرة التى تشبه الشعر المنثور ، إذ كان يدمن النظر فى عيني كلبه فيرى فيها عواطف الإنسانية جميعها فناده بالآخوة وهى على الأقل آخوة فى الحياة .

١٧ - قال لى أنطون فورنيه الرحالة متفكهاً : أخطر أن تكسر البيضة من الجانب المحدث الأصغر ، اكسرها دائماً من الجانب المنبعج الكبير ؛ لأن قومنا يكسرونها من ذلك الجانب . قد طفت العالم فوجدت أن الناس المعروفين بالخير هم الذين يصنعون كما يصنع غيرهم حتى فى الأمور الصغيرة التافهة ، وإذا خشيت أن تنسى نصيحتى فعليك بالعزلة ، اعتزل الناس كى لا يروا سهوك وكسرك البيضة من الجانب الصغير . وقد احتذى أناطول فى هذه الفكاهة سخر يونوثان سويفت الكاتب الإنجليزى فى كتاب أسفار جاليفار ، فإنه أيضاً تخيل فى دولة الأقزام ليليبوت حزب جانب البيضة المنبعج ، وحزب جانب البيضة المحدث وأقام بينهما حروباً ومؤامرات وعداوات ، والموعظة فى هذه الفكاهة هى أن الناس كثيراً ما يتعادون ويتقاتلون لأسباب تافهة .

١٨ - تذكر أنك لا تستطيع أن تهب أحداً السعادة ، بأن تقهره على أن يرى السعادة فيما تراه أنت سعادة . فلكل إنسان رأى فى السعادة ، وكان يستطيع أناطول أن يقول أيضاً : إن هذا رأى كثيراً ما يتغير فتارة يرى الإنسان السعادة فى شئ وتارة فى ضده . وفى بعض الأحيان يرى السعادة فيما فيه شقاؤه وهو لا يدري .

١٩ - لا بد لكل جيل أن يختبر الحياة بنفسه ؛ لأن الحياة كأنها تنشأ من جديد بنشأة كل جيل إذ أن التجارب لا تُعلم وإنما يكسبها الإنسان بمزاولة الحياة ، وقد لا ينتفع بها بالرغم من ذلك ، ولعل ضرورة اختبار تجارب الحياة فى نشأة كل جيل من أسباب قلة تغيرها أو تغيرها ببطء .

٢٠ - بعض الناس إذا أصابه أمرٌ محزن ونفُس عن نفسه بمظاهر الحزن احتقر نفسه من الكبير ، ولو تذكر أنه ليس أعظم من الأمر الذى أحزنه لما زاد على نفسه المصائب بهذا الكبير ، لأن احتقاره لنفسه بسبب حزنه أو المخالط لحزنه يزيد المصيبة أو الأمر الذى حزن من أجله .

٢١ - بعض حقائق الحياة قد تكون غريبة على قريبا وألفتنا لها حتى أنها لغرابتها قد نعدّها فكاهة لا حقيقة - وهذا يذكرنى قصة من قصص سمرست موام اشتهرت فيها امرأة بفطنة الفكاهة وذكائها وما كان ذلك إلا لأنها كانت ساذجة فكانت لا تستطيع لسذاجتها أن تتجنب ذكر الحقائق المألوفة التى يحاول الناس نسيانها ويخرجون من ذكرها .

٢٢ - المال له دولة عالمية حقيقية كبيرة قوية كدولة البابوية والكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى وهى دولة مستقلة ذات سيطرة ، ولكن كثيراً ما ننسى أن نعدّها بين الدول العظمى .

٢٣ - كثيراً ما تسرف الحكومات إسرافاً كبيراً فى مظاهر الأبهة والعظمة ومناصب السياسة النائية أو غيرها ، وتحاول أن تقتصد فلا تستطيع فتوهم نفسها أن كل ذلك أمر ضرورى لهيبتها وصيانة مصالحها ، ثم هى تشكو من قلة المال الذى تحتاج إليه لإصلاح حال الناس فترهقهم بالضرائب .

٢٤ - ذور العقائد المختلفة فى البقعة الواحدة قد يكونون أقرب أخلاقاً من ذوى العقائد المتفقة فى البقاع المتباعدة فكان الإمبراطور جوليان الوثنى يصوم ويژهّد فى لذات الجسم ويعتقد التكفير عن الخطايا ؛ ويرى أن الأثم مطهر للنفوس ، كما كان يصنع المسيحيون فى عهده ، ولو قارنت بين المسيحية فى أوروبا وبينها عند الزوج لوجدت اختلافاً كبيراً واختلافاً فى أخلاق الفريقين .

٢٥ - بعض الناس يكره العلم من شدة عشقه له كما يكره العاشق محبوبته إذا وجد أنها بالرغم من جمالها وحسن أخلاقها لم تستطع أن تجلب له كل أحلامه وأمانيه ، وكذلك بعض الناس يكرهون العلم لأنه لا يستطيع أن يفسر كل شئ وما ادّعى أنه يستطيع ذلك . وبعضهم يكره العلم لأن الغرائز الإنسانية الموروثة قد تستخدم فى الشر ، والعييب عيب الإنسان لا عيب العلم .

٢٦ - الأفكار كثيراً ما تكون وليدة النزعات النفسية المتناقضة ؛ فتتناقض أفكار الإنسان كثيراً . وهو يحسب أنها غير متناقضة وقد يغضب إذ نبهته إلى ذلك ويلج فى إنكاره .

٢٧ - حسن الذوق ضرورى لأنه ينفر حتى من ليس عنده حسن ذوق فكثيراً ماترى إنساناً قبيح الذوق يقول : فلان « ليس عنده حسن ذوق » . وهو من ضرورات الحاكم والسياسى ؛ لأنه يشمل صفات أخرى كثيرة مثل عدل المرء فى قوله وعمله وخلقه .

٢٨ - ما استطاع الإنسان أن يؤسس الحكومات إلا أنه يأمل أن يكون حاله فى غده أحسن من حاله فى يومه . وهذا الأمل يتجدد بالرغم من خيبته .

٢٩ - ليس انتشار ثورة أو نجاحها دليلاً على مقدار الظلم الذى ابتعثها ، فإنه إذا كانت جماعة من الناس جائعة متبلدة العقول والإحساس من التعاسة هزيلة الأجسام لا سلاح لها إلا الغيظ والمقت كانت أضعف وأعجز من أن تزيل الظلم بثورة ناجحة . وهذا أمر معروف فى التاريخ ؛ فإن بعض الحكام كان يعتمد إيجاد مثل هذه الحالة أو المحافظة عليها كى يظل هو وأنصاره مستأثرين بخيرات الحياة والحكم . ومن المعروف أيضاً أن الثورة الفرنسية ما أستفحل أمرها لأن الفرنسيين كانوا أتعس حالاً ، بل لأن تعاستهم كانت قد قلت نسبياً عن تعاسة غيرهم من شعوب القارة الأوروبية وتعاستهم فى أزمان غابرة .

٣٠ - ربما كانت القسوة جُماع الرذائل . وربما كان العنف ضعفاً لا يغتفر إذ هو على الأقل ضعف الإنسان عن أن يملك نفسه وأن يحكمها .

٣١ - يصح أن نختصر وصف أسباب الخصومات فى كلمة واحدة فنقول : إننا نلوم من لا يفكر كَمَنْ يفكر ، ومن لا يشعر كَمَنْ يشعر .

(٨)

نظرات مارسيل بروسٲ^(١)

ينتمى مارسيل بروسٲ إلى أسرة يهودية فرنسية نشأت نشأة مسيحية كاثوليكية . وله صلة قرابة بالفيلسوف الفرنسي المشهور هنرى برجسون ، وكتب مارسيل بروسٲ على صعوبة قراءتها لا يستغنى عنها الباحث فى النفس ، وقد وجد نقاداً ومعجبين به ، فمن نقاده من ذكر أنه ينظر إلى الحياة بالمكرسكوب ، أى العدسة التى ينظر بها إلى الأمور الصغيرة . فقال بروسٲ : إنه ينظر بالتلسكوب - أى العدسة التى ترى بها الأمور البعيدة - والواقع أنه ينظر بالأثنين معاً بالمكرسكوب والتلسكوب . ومنهم من سماه على سبيل الفكاهة مس جين أوستن الفرنسية ، يعنى القصصبة الإنجليزية المعروفة ، وهذا الوصف لا يشابه الحقيقة إلا كما تشابه الحقيقة الصورة الكاريكاتورية المبالغ فى بعض ملامحها على سبيل الفكاهة ، وصحيح أنه يتفق وجين أوستن فى ولوعهما بأحاديث المجتمعات والمجالس فى القصص وأن لكل منهما بصيرة سيكولوجية وأنهما قد يهتمان بالأمور الصغيرة ولكن بوسٲ يتوغل فى الأمور السيكولوجية - أى النفسية - توغلا لا مثيل له . وقد نشأ مريضاً معتلاً وقضى الثلث الأخير من حياته فيبيته لمرضه . واتهمه ناقد آخر بأنه كان فى أكثر قصصه مولعاً بحياة النبلاء والأغنياء ومن أتصل بهم من الخدم وأنه لم ير الحياة كاملة من كل وجه كما رآها شكسبير أو بلزاك أو أناطول فرانس ، ولكن ولولعه بحياة هؤلاء القوم كان ولوع الباحث لا ولوع المعجب المأخوذ بما يرى ، وإذا وصل فى بحثه إلى حقيقة سيكولوجية فإنها حقيقة فى كل النفوس بلا تمييز بين الطبقات ، وقد نشأ لاعتلاله بين النساء ، ولعل ذلك أكسبه شيئاً من أسلوب النساء فى التحدث عن جيرانهن والاهتمام بأحاديث المجتمعات مهما كانت تلك الأحاديث صغيرة وإعطاء تلك الأحاديث فى بعض الأحيان قيمة نفسية أكبر من قيمتها ، ولكن القارئ إذا صبر على قراءتها عاد بفائدة ما قد تحتويه فى بعض الأحيان من الدراسات النفسية التى تتخللها وبالرغم مما قد يعترض القارئ فيها من الملل فإن فى بعض كتبه قطعاً لا يمل القارئ معاودة قراءتها ، وقد يستطرد فى تتبع البحث النفسى استطراداً بعيداً ، وله

أسلوب شائق فى وصف مناظر الطبيعة والناس . وقد اعترف سمرست موام القصصى فى كتابه المسمى بـ « الخلاصة » ، أنه شعر بملل شديد فى قراءته كتاب « طريقة جرمانتيس » من كتب بروس ، وقد شعرت بمثل هذا الملل ، ولعل من أسباب الملل أيضاً أن القارئ يود أن يقرأ عن حوادث هامة ، وقصصه ليست قصص حوادث بل قصص زيارات أو أحاديث أو بحث نفسى ، أو يود أن يقرأ شيئاً من مثل فكاهة أو سخر أناطول فرانس الحيوى . وقد ذكر هافلوك إيليس فى كتابه المسمى « رقصة الحياة » وهو اسم رمزى مدحاً كثيراً لطريقة بروس فى البحث النفسى ولاسيما فى كتابه المسمى « فى الأجمة المزهرة » وأحسب أن هافلوك إيليس كان مصيباً فى اختيار هذا الكتاب من كتب بروس ولو أن بعض المعجبين به يفضلون كتابه المسمى « طريقة سوان » ولكنى أفضل ما اختاره هافلوك إيليس وأراه أملاً لنفس القارئ . إلا أنى أرى أن كاتباً مثل بروس لا ينال الإنصاف التام ولا يعرف مقدار بحثه فى النفس إلا بقراء كتبه كلها إذا كان ذلك من المستطاع . وبروست يذكر أن حياة الأثرياء التى يصفها حياة تبعث الملل بالرغم من وجاهتها وزينتها . فإذا كان ذلك حقاً فهو يزيد فى براعة فنه الذى به استخلص منها الحقائق النفسية العديدة .

من نظراته النفسية ما يلى :

١ - كثير من الناس يرددون آراء معاشريهم بشغف واهتمام خاص إذ كانوا لم يعرفوها من قبل ولا يستطيعون الحكم عليها أصواب هى أم خطأ ، وإنما يولعون بترديدها وإظهار اللهفة فى ذكرها ، وقد يقنعون السامع أنها آراؤهم وأنهم قادرون على فهمها والحكم عليها .

٢ - قد يسوء رأى المتحدث فى سامعه ولكنه مع ذلك يشركه فى سماع ذم إنسان آخر غائب ، كأنما السامع خال من صفات الذم التى ذكرها ، فيسرع سامعه إلى التصديق والموافقة بشغف ولهفة وبضحك ومسرة ، كى يبعد عن نفسه احتمال الوصف بالصفات المذمومة المذكورة وهو قد يعرف أن محدثه يفتابه كما أغتاب الغائب ، ويذمه فى غيبته كما ذم الآخر . ولكن ذلك لا يمنع من مشاركته فى ذم المذموم ظناً منه أن موافقته قد تبعد الريبة عن نفسه وتمنع محدثه عن اغتيابه فى المستقبل . وهذه محاولة خائبة ، ولكنها تتجدد وتبعث الأكمل والزهو والارتياح .

٣ - فى بعض الأحيان تبدر من إنسان شرير بادرة حنان وعطف أو يؤدى معروفاً غير متوقع ، فنشعر بارتياح نحوه وشكر له أكثر من ارتياحنا وشكرنا إذا كان غير شرير . لعل

شكرنا وارتياحنا تلهفًا إلى الاطمئنان من شره وارتياحًا لزوال الشر منه أو سرورًا وتعاضلًا باختياره إيانًا لعطفه وخيره وأن اختار غيرنا شره ؛ وهذا بالرغم من أننا قد نسئ الظن بالبائع الذي بعثه على الخير وهو شرير . ولعلنا لا نشعر بهذه الלהفة والارتياح إذا كان العطف أو المعروف من رجل من أهل الخير ، لأن العطف أمر مفروض ومتوقع من مثله .

٤ - من طبيعة الكذب أن الكاذب مهما أتقن كذبه ، تبذر منه فلتة صغيرة في أثناء أحكام الكذب وحبكه ، وهو يظن أن سامعه لا يهتم بالتأكد من صدقها والبحث عن حقيقتها لصغر شأنها ، ولكن سامعه قد يتتبعها والبحث ويتأكد من كذبها فتكون سببًا في كشف كل كذبه ، وتدعو إلى سوء الظن به وسوء الرأي فيه ، وقد تطلع هذه الفلتة الصغيرة سامعه بغتة على كذبه فيفاجأ الكاذب مفاجأة غير سارة ويحاول تفسيرها وتلافيتها فلا يستطيع ، وهذا كما يقال في المجرم الذي يفكر ويتخذ كل أهبة لمنع نسبة الجريمة إليه ، ثم وبالرغم من كل تفكيره واحتياطه يترك أمرًا صغيرًا يدل عليه لا يفتن له ويكون السبب في كشف جرمه .

٥ - متى أقنع الإنسان نفسه أنه ذو أخلاق سامية ثم حقد على إنسان أو غضب عليه فإنه ربما استطاع أن يحمل نفسه على ارتكاب أى عمل دنيئ لإشباع حقه وإرضاء غضبه إذ أى شئ لا يكون مباحًا حلالًا للقديس الفاضل والملك الطاهر الذي يراه في نفسه .

٦ - بعض المهذبن المثقفين إذا أدوا خدمة أو أهدوا هدية قللوا من قيمتها وأصغروا من شأنها مجاملة وتأدبًا وتلطفًا في العشرة ، ولكن بعض من تهدي إليه الهدية أو تؤدي له الخدمة يأخذ قوله مأخذ الجد ، يوافقهم عليه بطريق مباشر أو غير مباشر ، أما من قبح الذوق أو قلة العقل أو حبًا للتعاضم فتكون موافقته لمن أدوا له الخدمة باعثة للامتعاض أو الغيظ ، فيمتنعون من التلطف والتجمل معه أو من أداء أى خدمة أو صنع أى معروف .

٧ - قد يمدح المادح إنسانًا ولا رغبة في مدحه إلا للتعريض بسامعه كأن المادح يريد أن يقول لسامعه أنه ليس على صفات المدح التى ذكرها فى المدح ، وقد يفتن فى اظهار قصده المستتر بلباقة تمنع من صراحة المواجهة فيحار السامع ويرتبك ، وقد يجارى المادح فى مدح المدح لا رغبة فى مدحه ولا لأنه يعتقد أن المدح يستحق كل هذا المدح وإنما يجارى المادح خشية - إذا لم يجاره - أن يقال إنه يكره صفات المدح المذكورة فى الحديث وإنه خال منها وأنه فطن إلى التعريض به وإنه يستحق ذلك التعريض به .

٨ - كانت السيدة فيردوران لا تدعو إلى منزلها من الضيف إلا من يوافقها على كل رأى مهما كان سخيلاً ، على كل قول مهما كان باطلاً محالاً ، فلم يبق لها من الزوار غير المستذلين المستضعفين ، وكانت تقول لهم إن فلانة النبيلة الثرية لا يزورها الضيوف والزوار إلا لأنها تدفع أجراً كبيراً لمن يزورها على زيارته لها ، وبالرغم من أنهم كانوا يعرفون أن الناس يتلهفون ويتوقون إلى زيارة تلك النبيلة الثرية وأن قصة دفعها أجراً لمن يزورها قصة ملفقة باطلة ، فإن أمثالهم من المحرومين الذين تستذلهم السيدة فيردوران لأرائها وأقوالها كانوا يستطيعون أن يحملوا نفوسهم على نسيان الحقيقة وإنكارها ، ويستطيعون أن يصدقوا قولها على تلك النبيلة الثرية . وكان يحلو لهم ادعاء الترفع عن زيارة نبيلة تدفع أجراً لمن يزورها على زيارته كما أوهما أنفسهم وصدقوا ، وهكذا تستطيع النفس أن تقبل المحال الباطل الذي لا يخفى بطلانه ، إذا كان فيه ما يرضى زوها أو حسدها أو حقدتها أو حتى ما يرضى ربحاء الموحى الباطل إذا رجت من ذلك الموحى بالباطل عطقاً أو خيراً أو ما يرضى أهواها وخواطرها السانحة التي تستعز بها .

٩ - لعل من أسباب نسبة المحدث عيوب نفسه إلى غيره من الناس ، التلذذ بالتحدث عن نفسه بطريقة غير صريحة ، وهي طريقة تطهره من تلك العيوب في نظر بعض الناس كما يظن ، وتعطيه لذة المعترف اعترافاً غير صريح وغير محسوس وكأنه يجد لذة في مباشرة عيوبه التي ينسبها إلى الناس من غير أن يؤاخذ الناس على تلك اللذة ومن غير أن يفطنوا إليها ، وكل إنسان مشغول منهوم بصفات نفسه وميولها ، فتلفتته تلك الصفات إلى مثلها في غيره أو يتوهم أنها لفتته ، ويقنع نفسه ويخادعها في تلك اللفات وهو يحسب أنه يرى الناس مرآة لنفسه فينسب إليهم ما لا يزينه ، وعلاوة على ذلك فإن كل سيئة في نفس المحدث كأنها مهنة يعرف أسرارها وكل عيب كأنه حرفة يدرك خفاياها ، وكل صاحب مهنة أو حرفة مولع بالتحدث عن حرفته أو مهنته ، لأنه يعرفها أكثر مما يعرف أى شئ آخر ، كما يحلو للطبيب أن يتحدث عن الطب ، وللمعلم أن يتحدث عن التعليم ، وللمحامى والقاضى أن يتحدثا عن القضاء والقوانين ، وللتجار أن يتحدث عن التجارة ، وللمزارع أن يتحدث عن الزراعة . وكذلك صاحب السيئة والعيب ، يتحدث عنهما كأنهما مهنة أو حرفة الكلام فيهما غالب على لسانه ، ولكنه ينسبهما إلى الناس بقصد التجميل والترفع .

١٠ - بالرغم من شرور الناس وقسوتهم وتحاسدهم . فإن كل نفس بها جانب من الخير والحنان والكرم والرفقة ، وقد تجده غريباً في النفس بين صفات تخالفه كما قد تجد الزهرة

النادرة النفيسة غريبة فى وادٍ موحش قفر مجذب . وإذا منعت الأثرة ومنع حب النفس من ظهور جانب الخير من النفس ، فإن تلك الرقة وذلك الحنان والكرم صفات موجودة مستترة فهى موجودة بالرغم من خفائها . وقد تجدد الرجل الفظ الغليظ الطبع القاسى إذا قرأ قصة مؤثرة يبكى لما حلّ بالضعفاء والأبرياء فيها من الآلام والظلم حتى تفيض دموعه وتبلل وجهه وهو قد لا يتورع فى أعمال الحياة عن أن يفعل مثل ذلك الظلم الذى أثار عطفه وأراق دموعه عندما قرأ القصة ، ولكن الإنسان إذا قسا أو ظلم سَوَّغ عمله ، فإنه يعد نفسه دائماً عادلاً مهما كان قاسياً ظالماً ، ويقول أن القسوة قد تكون نوعاً من الرحمة ، بمثل هذا القول يسوغ المرء اتيان ما يجلب له منفعته أو يرضى نهمه غضبه بالرغم من جانب الرقة والعطف فى نفسه.

١١ - كثيراً ما يقول إنسان لآخر يسرنى أن أفعل كذا كى أسرك ثم يحسب أنه قد أدى له خدمة ، أو صنع معه معروفاً ، وما يهم السامع ليس ما يدعى القائل أنه يود عمله ليسره ، بل ما يستطيع أن يعمل كى يسره . ولكن القائل يستطيع أن ينسى ذلك وأن ينسى أنه لم يعمل ما يدعى أنه يود أن يعمل كى يسر السامع ويكاد يقنع نفسه أنه فى الواقع قد صنع معروفاً وأدى خدمة . والمجاملة فى الكلام محمودة ولاشك ، ولكن من غير المحمود أن يغالط المجامل القائل نفسه حتى يظن أن المجاملة تقوم مقام الحقيقة وحتى يحسب أن سامعه مدين له بالمعروف الذى يكاد يقنع نفسه أنه أداه .

١٢ - إذا وصف إنسان إنساناً آخر أمامك بمدح أو شر ، فإنك قد لاتصدق القائل ومع ذلك تتأثر بقوله المرفوض بالرغم منك أو قد تتأثر كلما رأيت ذلك الإنسان الموصوف أو كلما فكرت فيه ، أو سمعت به أو اتصلت به أى اتصال . ولعل ذلك من طرق الإيحاء ولعل هذا التأثير يكون فى الوصف بالشر أكثر مما يكون فى الوصف بالخير لأن أثرة النفس تجعلها أميل إلى التأثير بالشر إلا إذا كانت لها عند الموصوف حاجة ورأت أن الحصول عليها بأن تتأثر بوصف الواصف له إذا كان خيراً .

١٣ - إن الإنسان إذا حدثه محدث مغرم بأن يطبق على نفسه كل حديث بالخير أو الشر ، إذ أنه يفكر فى نفسه حتى ولو كان محللاً فى سماء التفكير النظرى العام . وبعض الناس يستطيعون إخفاء هذا التطبيق إذا كان الحديث كريهاً يخفض من قدر أنفسهم ويظهرون أنهم لم يطبقوا الحديث على أنفسهم ولا صلة لهم بموضوعه وبعضهم ترى فى عينيه شيئاً من الشك والقلق وسوء الظن خشية أن يكون المحدث يريد بحديثه النظرى العام الإشارة إلى شئ فى أنفسهم لا يستلمح .

١٤ - ليس الإقحام فى المجادلة والمحااجة دليلاً دائماً على رجاحة رأى المناظر الذى أفحمك . فقد يفحمك المجادل فلا تستطيع الرد والقول ، وإذا كانت آراؤه لا اتصال لها بنفسك وعقلك أو لا حقيقة لها على الإطلاق . أما المناظر اللبى فهو إذا أدلى بحجة ورأى راجح قد يستطيع أن يجد جانباً من عقلك يألف ذلك الرأى وإن خالفته فيستطيع أن يتصل بأفكارك ويلقحها كما تلقح الأشجار ومن أجل ذلك كان « برجوت » إذا ناظرنى أستطيع أن أرد عليه القول ولكن رأيه كان يلقح رأى ويتداخل فى نفسى وكانت طريقتة فى المناظرة أن يرد على قولى بما يخالف رأى وكأنه لا يخالفه إلا فى بعض الأمور دون بعضها وموضع الاختلاف وأسباب الاختلاف ، فتكون مقبولة أكثر مما تكون لو فصل بين رأى ورأيه فصلاً تاماً .

١٥ - إن سرور المرء إذا فهمه وقدره رجل ذو عقل راجح ، أقل من غيظه أو حزنه إذا لم تفهمه ولم تقدره امرأة ، كأنها لا عقل لها ولا ذكاء ، لغباوتها ، إذا كان يحبها ، فالإنسان يغتبط إذا فهمه من يحبه أكثر من اغتباطه إذا فهمه من لا يحبه .

١٦ - أن اتفاق الآراء والنظريات لا يودى إلى تدانى المثقفين قدر ما يودى إلى تدانىهم إئتلاف الأرواح والأذواق والأمزجة وقد يظهر المرء امتعاضاً وغيظاً إذا وافقه على رأى يستعذ به إنسان يعتقد أنه فاسد الذوق جامد الروح ثقیل الظل حتى ليكاد من امتعاضه وغيظه أن يتهم الرأى الذى شاكله فيه ووافقه عليه من يستثقل من الناس ، إلا إذا كان صاحب الرأى سياسياً فيخفى غير ما يظهر ، لأن هم السياسى كسب الأنصار وإن كان يستثقلهم ، أو إذا كان صاحب الرأى فيه ذلك الشعور بالنقص الذى يدفعه إلى العطف على كل من يردد رأيه ويوافقه عليه ، وإن كان يخالف ذوقه ومزاجه . ومع ذلك فإن الرغبة فى احتكار الرأى لنفسه ولمن وافق مزاجه وذوقه نوع من الأثرة وحب الذات .

١٧ - كثيراً ما يدعى المرء عاطفة أو يتصنع شعوراً أو بهيئ فكرة باطلة وهو يعرف بطلان كل ذلك . فإذا لج به هذا الإدعاء وألح عليه التصنع انقلبت هذه الأمور فى نفسه حقائق ومثله مثل الإنسان إذا أوحى إلى نفسه أنه مريض فلا يزال به الإيحاء النفسى حتى يكون مريضاً معتلاً ، وكذلك إذا ادعى على إنسان دعوى، تستوجب الملامة والمؤاخذة وهو يعرف أنها دعوى باطلة ، فإنه لا يلبث أن يصير ادعاؤه حقيقة فى نفسه ، إذا لم يراجع مراجعة تؤدى إلى التفاهم .

١٨ - مما كنت أتعجب له أن « بلوش » كان كثيراً ما يذم من لا يستحق بعض ذمه أو كله حباً للذم لا لسبب آخر . كما أنه كان يمدح من لا يستحق كل مدحه أو بعضه وقد يختلف

تفسير هذه الظاهرة منه فلعله كان يتخذ من مدح المدوح وسيلة يخدع بها السامع كى يقبل ذم من يذمه ، إذ أن مدحه الناس قد يبعد عن الأذهان أنه حقود سيئ الرأى فى الناس ، فإذا ذم بعضهم تلمسوا له وعذراً أ لعل التفسير أنه كان يرى فى مدح المدوح تكفيراً عن ذم المذموم ، أو لعل الدافعين كانا يمتزجان فى نفسه أوقد يكون المدح والذم استجابة منه للحالة الغالبة على نفسه من راحة أو تعب أو حزن أو سرور أو غيظ عام يحيله على إنسان معين أو ارتياح عام يشمل به نفس إنسان آخر فيصير مدحاً وهذه الصفات كلها تشاهد فى الناس .

١٩ - كان « بلوش » يقسم ويحلف لا أملاً فى إقناع الناس بصدق الكذب الذى كان ينمقه بالقسم ، فما أظن أنه كان يأمل ذلك ، وإنما كان يقسم بدافع أشبه بالهستيريا وانسياقاً مع الشعور المتغلب على نفسه وجسمه . وذلك الدافع إلى الحلف والقسم كان يمنحه لذة شديدة فى تزوين الكذب بالحلف وتجميله بالقسم . وكان وهو يحلف يخيل لمن يراه أنه يفيض حناً ورقة ويذوب لطافة وإن كان موضوع الحلف يخالف كل ذلك وكأنما كان ينتشى من عذوبة الإحساس الغالب عليه والذى دفعه إلى الحلف كذباً - وبعضهم إذا حلف كذباً يخالف عذوبة حلف « بلوش » بالكذب فإن بعض الناس من إحساسه أنه كاذب ومن غيظه وخوفه أن يعرف السامع ذلك يحلف كذباً وكأنه يلتهم سامعه ويقسم كذباً وكأنه يكاد يبتلع ذلك السامع كأنه بالعنف يريد أن يخيفه فيصدق .

٢٠ - إن بعض الناس قد يريدون أن يسمعوا من جليسهم قولاً يسرهم ويرضيهم لكنهم مع ذلك يريدون أن يوهمو أنفسهم أنهم لم يحثوه على قوله ولم يغروه به ولم يلحوا عليه فى طلبه ولم يلجأوا معه فى الحديث حتى يذكر القول الذى يريدون أن يسمعوه منه . وهكذا فعل دوق « جرمانتس » مع « سوان » عندما أراد أن يسمع منه أن صورة جده من رسم كبار الرسامين المصورين فجعل يقول له لا تملقنى أذكر الحقيقة ما رأيك فى الصورة ؟ فلما ضاق « سوان » ذرعاً قال : إنها كالنكهة الباردة والفكاهة الغثة . فلم يستطع الدوق أن يخفى إشارة تدل على الغيظ لأنه لم يظفر بالقول الذى كان يحب أن يسمعه ، بل ظفر بعكس ذلك . والحقيقة هى أن هذا الالحاح كثيراً ما يشاهد فى الناس .

٢١ - قد تكون خشيتنا فقد ما نود أن نملك ولم نملكه بعد ، ولكننا نأمل ذلك فى المستقبل ، أعظم من خشيتنا فقد ما قد ملكناه وتمتعنا به . ولعل هذا من أهم أسباب غيظ المرء واضطغانه إذا نال أحد الناس شيئاً لا يملكه المضطعن وقد لا يملكه ولكنه قد يوهم نفسه أنه ربما حاز بعضه أو كله فى المستقبل فيخيل له الوهم كأن الذى فاز به المحال أن يملكه حتى فى

المستقبل البعيد ، فاضطفافه وغيظه مؤسس على وهم الأمانى الباطلة التي تجعل ما لا يمكن أن يملكه كأنه قد ملكه وسلبه منه الفائز به .

٢٢ - عندما نتكلم ونسمع كلامنا ، كثيراً ما ننسى أن وقع كلامنا فى أذاننا وعقولنا ونفوسنا قد يختلف اختلافاً كبيراً عن وقع كلامنا فى أذان غيرنا وفى عقول السامعين ونفوسهم ، فالأثر الذى نظنه لكلامنا فى أذان غيرنا يكون فى هذه الحالات أثر كلامنا فى أذاننا وفى عقولنا ونفوسنا ، وننسى أن السامع قد لا يصله كلامنا إلا من وراء حجاب نفسى وعقلى أو جثمانى كما يسمع المرء كلام من يحدثه من وراء مسقط مائى لجب صاخب ، فيصله مختلف المخرج ، وقد يختلف معناه فى ذهنه أو يفهم بعضه أو كله على غير ما أراد المتكلم . وهذه حقيقة ينبغى أن لا يغفل عنها المتكلمون ولا سيما من كان معلماً منهم .

٢٣ - إننا إذا قابلنا إنساناً يحدثنا واتجه عقلنا لسماع كلامه لفهمه ، لا نشعر بسرور كالسرور الذى نشعر به إذا أُنْجِه عقلنا إلى أنفسنا . هذا إلا إذا كان اتجاء عقلنا لسماع المحدث لا يشغلنا عن التفكير فى أنفسنا أو كان قصير الأمد أو كان داعياً إلى التفكير فى أنفسنا وفيما بهما .

٢٤ - بعض المثقفين من ذوى الأدب والحياء يخلجون ويتحاشون أن يعرف جلسهم عشيرتهم أنهم قد اطلعوا منه أو أن الناس قد اطلعوا منه على زلة بدرت منه أو نقص ظهر فيه . فإذا بدرت من المجلس بادرة سقطه ، استحيوا له خشية أن يتأثر بظهور تلك السقطة وهم قد لا يهلون من أمر هذه الزلة ، وقد لا يعيرونها اهتماماً ولكنهم بخشون أن يهتم ويتأثر صاحبها لظهورها منه ويستحيون له أن يجرح ظهورها إحساسه ، وهذا منهم من فرط لطافة الحس التى قد تخشى أن يتألم المجلس إذا علم أن الناس قد فطنوا إلى زلته أو سقطته - ومن العجيب أن استحياء لطافة الحس هذه قد يُفطن المجلس صاحب الإحساس والشك والفتنة إلى أن زلته قد كُشِفَ أمرها ، وقد يحقد على من استحى له ، ويعد استحياءه نفوراً من زلته ويغيظه اطلاع صاحب الحياء على سقطته ، وقد يكون هذا التحاشى والاستحياء عناء لاطائل تحته إذا كان صاحب الزلة ممن لا يهتم باطلاع الناس عليها ، ولكنه على أى حال يدل على أن صاحب الاستحياء ليس ممن قلت ثقافة نفسه ، فيتتبع سقطات جلسه كى يظهرها ويكيده بها أو يسخر منه بسببها .

(٩)

تكملة نظرات مارسيل بروس

من مؤلفاته

التي تسمى "ذكرى الأمور الماضية" (١)

١ - بعض المزايا التافهة التي نجدها في أنفسنا قد لانقيم لها وزناً ولا نأبه لها ، ولكنها قد تزداد منزلة وتكتسب قيمة كبيرة في نظرنا إذا أحببنا من يهتم لها ويقدرها ويرى لها فضلاً كبيراً .

٢ - بالرغم من ميل النفس إلى التخلص من سيطرة المسيطر عليها فإنها تشعر بخشوع واحترام وإعظام لمن يستطيع ضرها والتحكم فيها « فإذا استطاعت التخلص من ذلك التحكم بطل سحر الخشوع والخوف وحل محله العدا والسخر . وقد يزداد العدا بمقدار قديم خشوعها وبمقدار خوفها أو حذرهما من عودة ذلك التحكم إلا إذا كان تحكماً محبوباً كتحكم المحبوب وأقربائه ومن يلوذ به ويقرب إليه . ومع ذلك فقد يخالط الحب العدا بسبب بين الخشوع والخضوع والذل » وقد يبقى أثر الخشوع بعد السيطرة .

٣ - من المؤلف أن التفكير في شئ أو الرغبة في الحديث والتفكير في معاني ماسيقال قد يمنع المرء من سماع مايقال له - بل أن كل ذلك قد يمنع من أكثر من ذلك فيمنع من رؤية الأشياء وتدبرها كأن ما قيل لم يقل وما رُئي غير موجود . وهذا يذكرني قول المستر تشرشل في كتابه في حرب الدراويش في السودان : أنه في إحدى المواقع كان مشغول الفكر بتدبر الموقعة حتى إنه لم يسمع قصف المدافع وأصوات طلقات رصاص البنادق وغيرها من الأصوات فكأنما كان ينظر إلى صورة معركة - أو إلى السينما الصامتة . ويتفق أن يمر بالمرء صديق يحبيه فيغفل عنه وعن تحيته سواء رآه أو لم يره وما تلك الغفلة إلا من إنشغال البال وأعمال الفكر .

٤ - إذا حسد الإنسان غيره فإنه يستطيع أن يقنع نفسه أنه لا يحسده ، بل يحتقره ويزدرجه أو يكرهه لعيب فيه - كثيراً ما يخفى مظهر هذا الحسد عن صاحبه وعن الناس لأنه يتقن

التخفى ويتخذ لباساً من الأمور الممدوحة . والواقع أن المرء يستطيع أن يقنع نفسه بهذه الوسيلة أنه لا يحسد بل يحتقر . وكلما أوغل فى اقناع نفسه استطاع أن يقنع الناس أيضاً . ومن أجل ذلك قد لا يفطن المرء أن حسده لغيره كما يفطن الناس إليه إذا أقنعهم بما أقنع به نفسه.

٥ - كنت أرى فى أسرة « جرمانتس » ذلك التحول الذى ذاع فى عهد لويس الرابع عشر، أى تحول الاحساسات والأخلاق والفضائل إلى مظاهر من مظاهر اللطافة فى المقابلة والحديث والحركات وهى تخفى تحتها خشونة فى الأخلاق والاحساسات أو القسوة وقلة الاهتمام بما يعترى الناس من آلام الحياة - ولا أحسب أن بروسى يريد أن يقصر هذه الظاهرة على أسرة أو طائفة أو عصر من عصور الإنسانية ، وإن كانت أكثر ذبوعاً فيه وفى طبقة خاصة فإن الأثرة إذا اقترنت بحب ادعاء الفضائل ولدت مثل هذه اللطافة الكاذبة إذا وجد المرء فيها اخفاء لحقيقة نفسه . ومن الغريب أن طائفة أخرى من الناس تحاول أن تخفى قسوة أخلاقها واحساسها بادعاء الصراحة التامة والتهجم بهذه الصراحة الكاذبة فى خشونة تشبع نهمة الأثرة فى النفس ثم تدعى أن كل ذلك من فضيلة الصراحة .

٦ - بعض الناس إذا أدبى له معروفاً أو أهدبى إليه هدية محبوبة يمتلكه السرور حتى يعجز عن النطق بالشكر فإذا رآه المهدي المؤدى للمعروف وكان مثقفاً فطناً حاضر الذهن بصيراً بالنفوس وجد فى عجزه عن الشكر وحيائه فى مغالبة الفرح ما هو أجل من الشكر . أما إذا كان على نقيض هذه الصفات لم يفطن إلى ذلك الاعتراف الصامت بما أدى من معروف فيحسب أن من نال المعروف جاحد للنعمة . ومن أجل ذلك كثيراً ما ينشأ سوء الظن وسوء الفهم والفهم بين الناس .

٧ - قد يسمع المرء كلمة يرى فيها تعريضاً به أو اساءة إليه . ولا يظهر أثر ذلك إلا بعد مضى زمن قد يطول . وقد يظن قائلها أو صانع الاساءة أنها قد نسيت وإنما يظن ذلك لأن من مصلحة المسئ أو ما يراه مصلحة أن ينسى اساءته ولكنها تختمر فى نفس من أسئ إليه وبعض الناس كان لهم ملكة ينسون بها ويحسبون أن من أساءوا إليهم يحبونهم ويودونهم وقد يظهرون لهم الود ويتحینون فرصة للانتقام والغدر - وقد يدهش هذا الذى ينسى اساءته ويتعجب لأنه مغلوع بنفسه وبالناس من كثرة نسيانه اساءاته .

٨ - الجمال الذى لا تلمحه غير لمحة عارضة مرة واحدة ويغيب عنك قد يكون له أثر فى النفس أكثر من الجمال المألوف ، وقد يكون التفكير فيه أكثر والشغف به أعظم وأتم . ومن

الغريب أنه قد لا يشغف النفس إلا بعد غيابه وقد لا يكون له غير أثر ضئيل فى نشأة الدافع النفسى الملح الذى يدفع إلى التعلق به وإلى استعادة ذكره والخين إليه . والواقع هو أن أكثر أحاسيس الحب وصور المحبوب من العاشق نفسه لا من المعشوق .

٩ - إن عقولنا دائماً تنسى من أحوال من نعرفهم ومن صفاتهم وأمورهم ما لا يتفق وحاجاتنا الحاضرة التى نباشرها ثم ننسى ما يتفق ورغباتنا ونزعاتنا الجديدة وهذا مظهر من مظاهر القاعدة السيكلوجية العامة التى ذكرها فرويد فى كتاب - العلل النفسية فى الحياة اليومية - أى أن النفس تستطيع أن تنسى عمداً ما ترى فى نسيانه نفعاً أو زينة ، وقد كان فرويد يتحدث عما تنساه من أمورها وبروست يتحدث عما تنساه من أمور الناس .

١٠ - إذا وجدنا فى أول عهدنا بمعاشرة بعض الناس شيئاً مما نكره ونبغض فإننا بعد أن نألفهم وتزول الوحشة وبعد أن يخفى عنا بسبب ذلك ماكرهنا فى أول لقاء وعشرة لا تزال نشعر فى صميم النفس بشئ من القلق توقعاً لعودة ظهور ذلك الأمر القديم المكروه فىكون سرورنا بلقياهم ممزوجاً بخشية رجوع ما لانود منهم - وهذا يصدق أكثر مما يصدق فى ذوى الاحساس والخيال والذاكرة القوية أو فى ذوى الحذر الذين يبالغون فى الحيلة من الناس . ولكن الواقع هو أن المرء يحاول أن ينسى عن أصدقائه ما لا يتفق ونزعاته الحاضرة كما قال بروست فى النظرة السابقة .

١١ - بعض السرور لا يلتذه المرء وقت حدوثه ، وإنما يلتذه بذكره وكأن صورة السرور التى حصل عليها عند حدوثه هى الصورة الفوتوغرافية السوداء التى تؤخذ إلى حجرة مظلمة وتستخرج منها الصرة الواضحة . وكذلك بعض السرور يحتاج إلى حجرة النفس المظلمة أو وعيها الباطن كى تستخرج منه صورته الواضحة - وقد يصدق هذا أيضاً فى أسباب الحزن والإساءة .

١٢ - كنت فى سذاجة الطفولة والصغر أحسب أن المتحابين المتآلفين تخطر فى نفوسهم مخاطر متجانسة واحساسات متشابهة فى وقت واحد من صفاء الألفة والمحبة وتختلج فى نفوسهم النزعات المتقاربة والرغبات المتفقة فى قت واحد . ولكن الحياة علمتنى أن هذا قلما يكون وأن أكثره من وهم المحبة وخيال الألفة وأن الواقع يخالفه فإننى عندما كنت أذكر أبوى بحنان وعطف يتضح لى أنهما كانا يتذكran ذنباً لى نسيتته ، وأنهما يريدان أن يؤنبانى أو يعاقبائى . وعندما كنت أحس بالحاجة إلى الإلتناس بمحادثة صديق عزيز أرى به مللاً من المحادثة .

١٣ - العاقل المثقف ينتقد الرجل الذى يظهر مايعرف من غير ضرورة البحث العلمى ، بل على سبيل المباهاة والمفاخرة . ولكن للنفس حالات تغرى ذلك المذهب المثقف أن يباهى بعلمه فيصنع الشئ الذى ينتقده . ولعل امتعاض النفس من الذى يباهى بعلمه من مظاهر الأثرة فيها فى أكثر الأحيان . وإن كانت المباهاة بما يعرف المرء منتقده فى كل إنسان إذا لم تكن هناك ضرورة البحث العلمى .

١٤ - إن من لهم منزلة اجتماعية كبيرة لايتكلفون غير طبعهم وعاداتهم إلا مع من هم دونهم ، وبالعكس ترى من هم دونهم لايتكلفون إلا مع من هم فوقهم منزلة .

١٥ - كنت فى غرارة الصبا ينطبع فى عقلى حديث الناس وادعاؤهم المودة . وكنت أرى كل ذلك حقيقة لاريب فيها ، فما كان يخطر ببالى أن إنساناً يكذب ويقول إنه يودنى وهو لا يودنى فكنت فى هذا الأمر كخادمتى فرنسواز التى كانت كلما رأت إعلاناً عن دواء يشفى كل الأمراض أو أكثرها آمنت به وما كان يخطر ببالها أن التاجر الذى يبيع الدواء دجال يريد الكسب . وكان ينبغى أن أعرف أن الناس لايقولون الحق دائماً وأن ملامح الناس وحركاتهم وسكناتهم وهيئة تقاسيم أوجههم أدلُّ على الحق من كلامهم « ولا أذكر هل كان فولتير أم تاليران هو الذى قال : إن الإنسان خلق له النطق كى يخفى به الحق . ولعل ذلك القول من فكاهات الأول منهما » . وما كان أدعى إلى تعريفى كذب الناس أنى كنت مثلهم أقول غير ما أخفى . ولكن كيف كنت أنتفع بالمثل الذى أعرضه بنفسى على نفسى إلا إذا اعترفت أنى أنافق وأكذب . والإنسان كثيراً ما ينافق ويكذب من غير إدراك لهذه الصفات ومن غير تنبه إليها ، أما دفاعاً عن النفس ، وإما لنيل غرض عارض وإما لإشباع عاطفة ، وهو يفعل ذلك وذنه منصرف إلى أمور أخرى ، فيسمح لأخلاقه التى فى حضيض نفسه بالتخلق بها من غير رادع أو بصيرة متنبهة تبصره بها .

١٦ - كانت خادمتى فرانسواز تحببني ومع ذلك فقد علمت أنها قالت إننى لا استحق ثمن الحبل الذى يجب أن أشق به ، فراعنى قولها ولاسيما أنها هى التى كانت تلفتنى وتفطنتنى إلى نفاق أصدقائى ، فقولها هذا جعلنى أشك فى حقائق الأشياء كلها . وقلت إن الأشجار والشمس والسماء لعلها ليست كما نراها . أو ربما يراها على أشكال أخرى من يراها بعينين غير عيني الإنسان ، أو من يراها بجهاز طبيعى غير العينين : فقد يرى هذا ماهو عوض عنها وبدأت أشك فى أننا نعرف الناس معرفة واضحة ، بل بدأ يخيل لى مايقول كل إنسان أو يعملهُ إنما هو ظل نرى خلفه شعاع الحب أو لهيب الكره ، ولنا مسوغ إذا رأينا هذا أو ذاك .

وفطنت إلى أن مزايا الإنسان وعيوبه وإحساساته ومقاصده ليس لكل منها مظهر واحد ثابت محدود - والإنسان بالرغم من ذلك يحاول أن يسط الحياة والنفوس فيلبسها لباساً واحداً ذا لون واحد كما فعل رتشارد الدنجهتون في قصة - الناس كلهم أعداء - فإنهم حتى لو صح حكمه لابد أن يأتدوا بشئ من المودة كي يسيغوا خبز . الأحقاد والتحاسد .

١٧ - ومهما كان للإنسان من شخصية مستقلة فإنه جزء من جماعة أكبر يتأثر بها في أسلوبه وصوته وحركاته وعاداته وعباراته وآرائه . وشخصيته مكتسبة من شخصيات كثيرة ومتصلة بها اتصال عجالات الساعة ومختلطة بها اختلاط مواد الكيمياء .

١٨ - إن الإنسان ينمو نمو النبات لانمو البناء ، والنبات ينمو من داخل نفسه والبناء ينمو من خارجه بأن تضاف طبقة على طبقة ولينة فوق لينة . نعم أن النبات يستمد الماء والضياء والهواء ، ولكن ما يستمد منه لابد أن يمتزج بكيانه ، أما الذي يحاول أن ينمو نمو البناء فلايزداد بما يضاف إليه ، لأنه لم يمتزج بكيانه كما يمتزج الماء والضياء بكيان النبات .

١٩ - مباحج غضارة الصبا ومحاسن نضارته تكون قبل أن يتحجر وجه المرء ، أى يكون شبيه المتحجر بسبب مكافحة الحياة وأثقالها وعاداتها ، فنرى وجه الصبا يتغير ويعطى الرائي مناظر مختلفة تتغير مثل تغير مناظر الطبيعة ، فإذا فارق الصبا قلما يكون إلا متحجراً فتمل رؤيته . « ويختلف تغير مناظر الوجه حتى فى الصبا فإن بعض الوجوه تسجل على تقاسيمها ما يجول فى خاطر أصحابها من أفكار وخواطر وإحساسات تسجيلا واضحا عظيماً . فإذا جمع الوجه إلى هذه القدرة على التسجيل الجمال كان لاقل رؤيته . وقد أدهشتنى مرة قدرة وجه الإنسان على تسجيل الخواطر حتى كأن وجهه يعرض صور تختلف فى كل لحظة حتى خيل لى أن وجهه يسجل ما فى وعيه الباطن كأنه يدركه بالوعى الظاهر . وخيل لى أنه أناس كثيرون لا إنسان واحد . وهذه القدرة على تسجيل الوجه لخواطر النفس تلاحظ حيث يكون الذكاء والإحساس المرهف » .

٢٠ - كما أن القائد يحاول معرفة أماكن الضعف فى جيش عدوه كى ينتصر عليه من نواحيها ، يتعرف الخدم أماكن الضعف فى صفات المخدم كى يعزوا مراكزهم من نواحيها ، ومن أجل ذلك كنت أعرف وأدرس أوجه النقص فى صفاتى بدراسة سلوك خدمى نحوى : ترى هل من المستطاع تطبيق هذه القاعدة فى قصة المأمون الخليفة العباسى الذى أكثر من مناداة غلام خادم والغلام غير آبه . ثم لما ضجر بمناداة الخليفة له قال : أفى كل حين يا غلام يا غلام؟ أما ينبغى للغلام أن يستريح ؟ فتعجب أحد ندمائه . فقال المأمون : إذا حسنت أخلاق

المخدوم ساءت أخلاق الخادم ، وإذا ساءت أخلاق المخدوم حسنت أخلاق الخادم ، ونحن لا نرضى أن تسوء أخلاقنا كي تحسن أخلاق خادمنا .

٢١ - للمخدّم ما هو شبيه بـيريد سرى تنتقل به الأخبار من أسرة إلى أسرة بسرعة البرق ، كما تنتقل الأخبار فى مجاهل أفريقيا بسرعة البرق من قبيلة إلى قبيلة « إما بدقات الطبول وإما بإشارة النار » . ولقد كانت دهشتى عظيمة من معرفة خدمى صلاتى بأصدقائى وإحساسهم نحوى قبل أن أعرفه وأستوضحه . وما كان ذلك إلا لأن الخدم يلتقطون الكلام أو يسترقون السمع خلصة . ومن كلمات قليلة ولمحات أوجه المخدومين يستطيعون أن يعرفوا ما يريدون كما يستطيع العالم بعلم الحيوان أن يعرف من فحص عظام قليلة كيف يكون الهيكل العظمى للحيوان وهو تام كامل . « وما يساعد الخدم أن بعض المخدومين يتزلونهم فى نفوسهم عن مرتبة الإنسان ، فلا يتخرجون من الكلام أمامهم كما لا يتخرجون من الكلام أمام الخيل والقطط أو الكلاب » إلا إذا تعمدوا إسماعهم ما يريدون إذاعته لنكاية غير مباشرة .

٢٢ - يخيل للمرء أولاً إذا سمع العصفير أن صوتها كلها صوت واحد لا يتغير . ولكن الذى يحب العصفير ويكثر من سماعها فى الغابات يستطيع تمييز أصواتها فيعرف صوت البلبيل ويميزه من صوت القنبرة أو غيرها ، وكذلك لا يستطيع أن يميز اختلاف دقائق محاسن الجمال ومباهجه إلا من أحبه وألفه . « وهذا أيضاً مشاهد فى اكتساب القدرة على تمييز اختلاف الوجوه أو الصفات وإن كانت الصفات النفسية زئبقية متقلبة . وقد ينزل المرء فى أمة نائية فيخيل له أن أكثر أهلها يتشابهون تشابهاً تاماً إذا كان لم يألف وجوههم من قبل كما يخيل للمرء هذا التشابه التام فى أوجه الصينيين أو اليابانيين فإذا ألفتهم استطاع أن يميز الصفات المختلفة » .

٢٣ - قد تنبع من الوعى الباطن ذكرى مباغتة فلا يعرف المرء لماذا ظهرت وتغلّبت على باقى الذكريات المنسية التى رسبت بسبب ضغط عدم المبالاة بها الموزع عليها جميعاً على السواء . وكذلك قد يتذكر المرء صورة من يود بغتة ، ولا يعرف سبب تذكرها ولا يستطيع أن يصل هذه الذكرى بذكرى أمور أخرى تبعثها ، فلا تعليل لذلك إلا أن للوعى الباطن حياة مستقلة توحى بأمثال هذه الذكريات ، على أن بعض ما يتذكر قد يكون تذكره لأسباب تافهة موصولة بها كأن يشم المرء رائحة ، أو يرى أو يلمس شيئاً تافهاً كان قد طرده المرء من وعيه الظاهر لتفاهته فلم يستهلك مجهوداً من نفسه فيعود إذا عاد قوى الأثر . وكثيراً ما يخطئ

المرء فيخيل له أن تذكره صورة من يود ناشئ من أن ذلك الذى يود تذكره فى تلك اللحظة فيحدث الاتصال الروحى « وليس معنى هذا أن الاتصال الروحى عن بعد محال باطل » .

٢٤ - كثيراً ما يتغير شكل الإنسان وتتغير صورته فى نظرنا بسبب عوامل فى نفسه وتنسى أن هذا التغير قد يكون أيضاً بسبب اختلاف احساسنا نحوه ، فنتعجب من تغير صورته ، ونحن ننسب التغير أو قد يكون السبب النظر إليه من جهات مختلفة أو فى بيئات متغيرة كما تختلف مظاهر المباني إذا نظرت إليها من جهات مختلفة .

٢٥ - أنا بين طائفتين من المعاشرين : طائفة أمنت اغتياهم لى ، لا من سلامة طويتهم وصدق إخلاصهم ، بل لقلّة ميالاتهم واهتمامهم بأمرى . وقلّة اهتمامهم تظهر حتى فى أحاديث مجالسهم فى حضورى ، وفى نظراتهم وفى أصواتهم وملامحهم . والطائفة الثانية يتلقانى آحادها بالمودة والحنان والعطف ، ثم إذا غبت يأخذون أجراً على ذلك باغتيايى إذا غبت ومجالسة الطائفة الثانية أكثر راحة . « وإن كانت راحة قد تكون محاطة بالقلق إذا فطن جلسهم إلى عواقب إئتئاسه بهم من اغتياهم إياه إذا غاب . والواقع أن آحاد الطائفة الثانية يتقنون مظاهر المودة اتقائاً عجيباً حتى ليدش المرء الغرب إذا رآهم يغتابون جلساً انصرف عنهم أشنع اغتيا ، بعد أن تلقوه بالترحيب والعطف والثناء والإخاء » .

٢٦ - قال لى برجوت : لاداعى لأن يحزنك؛ مرضك فإنه لا يمنعك من لذات الفكر . قلت: بل يمنعنى ، فنظر إلى وقال أنا واثق أنه لا يمنعك فأحسست بسرور بالرغم من أنى لم أقتنع . ولهذا السرور أسباب كثيرة منها لذة الإيحاء وقبول النفس له بالرغم من مظاهر عدم الاقتناع ، والشعور بعظمة من يتمتع بلذات الفكر ، وفى هذا الشعور لذة . ولذة التمتع من قبول رأى سار يريد أن يصدقه : فإن فى هذا التأبى والتمنع لذة ورغبة فى أن يردّد له . ولذة المغالطة إذ ما من شك أن بروس كان يتمتع بلذات الفكر وإنما عدم اقتناعه مغالطة منه. ولذة فى مباشرة أمر سار أو متعة بريئة يخفيها كى يحتال الناس لمعرفة ما يخفى . ولذة فى الرثاء لنفسه من عدم القدرة على التمتع بلذات الفكر كما يدعى ... الخ .

٢٧ - إن احساسات المرء وخواطر نفسه لا تتبع دائماً نظام تاريخ حياته ، فهو وإن كان عائشاً بظاهر حسه فى الزمن الحاضر ، إلا أنه قد يكون عائشاً فى الحقيقة بإحساسه وخواطر نفسه فى عهد قديم مضى من حياته قبل حوادث أمس واليوم .

٢٨ - قد يبدى المرء شيئاً من السخر ممزوجاً بالاحترام إذا واجه نوعاً من العظمة يرى أنه من قلة الذوق وقبحه أن يزدريه ، ومن حماقة أن يحتقره ، ومن حسن الذوق والفتنة الإشارة

إليه بشئ من الدعابة المزوجة بالاحترام . وبذلك يرضى أثرته كما يرضى ما يحب أن يعرف به من حسن الذوق والتمييز والفطنة .

٢٩ - قد يدعو المرء إنساناً لزيارته على سبيل المجاملة وهو يسر لو أن المدعو لا يقبل الدعوة ، ويفرح لو أغفلها ، فتأتى فاترة ممزوجة بما يشير إلى رفضها وهكذا دعا سنت لوب بلوش لزيارته قائلاً : « ولكنى قلما أكون موجوداً » كى يظهر أنه غير جاد فى دعوته ولكن بلوش بالرغم من هذا التنبيط الظاهر صار يمدح تطف سنت لوب ويقول « بعد هذا التلطف منه ينبغى أن نزوره عاجلاً وإلا كان امتناعنا عن زيارته أو تأخيرها خارجاً عن حدود اللياقة » . وغضب منى لأتى لم أوافق ولم أحدد ميعاداً لتلك الزيارة وما كان يمكننى أن ألفتة إلى أن صيغة الدعوة دليل على الرغبة فى رفضها .

٣٠ - للجفاء أسباب عديدة منها خشية المحب أن يظهر حبه فيتغاضب ويدعى الجفاء (ومن الناس من يتغاضب ويدعى الجفاء أمام الناس كى يعرفوا أنه يستطيع أن يعامل إنساناً يفوقه بمظاهر الغضب أو الجفاء أو بلهجة الأمر) .

٣١ - أعز الحكمة وأثمنها التى نقتبسها بأن نعيش ونتغلب على زلاتنا ، وليست هى التى تلقن بالتعليم أو الأمر ، وإنما صاحب الثانية كالعبد الذى يعمل الصواب كما أمر ولا فضل له فى صوابه .

٣٢ - كان « لجراند » عندما يكون فى صحة مدام ف . يتحرك كأنه لعبة تحركها السعادة كما يحرك الأطفال لعبهم التى لا حياة فيها . وبعض الناس إذا استسلموا للسعادة العارضة كانوا أشبه الأشياء بتلك اللعب ، لأنهم لاسيطرة لهم على حركاتهم وأعضائهم .

٣٣ - مما يدل على أن آراء الناس وفق رغباتهم وميولهم أن المرأة من العامة إذا تلطفت معها امرأة نبيلة غبية قبيحة الوجه الشكل تنسى غباوة المتطفلة وقبح وجهها ولا تفتأ تذكر ذكائها وفطنتها وحسنها . وكذلك قد يتلطف الرجل مع من هو أقل منه منزلة تطفًا ممزوجًا بالزهو والخيلاء الكامنين فينسى هذا عيوب الرجل المتلطف معه وقد يصفه باضدادها من المحاسن .

٣٤ - فى بعض الأحيان إذا توقع المرء حادثاً فى حياته مستقبلاً يخيل له أن حياته كال مسرح الذى يمثل عليه فصل من القصة ، بينما تعد معدات الفصل التالى وراء ستار خلفى .

(١٠)

نظرات ميشيل مونتاني^(١)

ميشيل مونتاني هو الأديب الفرنسي صاحب الرسائل المشهورة وكان ثمرة من ثمرات عصر إحياء العلوم في أوروبا . كان من أسرة نبيلة وولى القضاء وصار حاكماً لإحدى المدن فترة من الزمن ، ولكنه قضى أكثر حياته في قصر أجداده بين الكتب ، وكانت القراءة وكان التفكير والتأمل في صفات النفوس ، أحب شئ إليه في الحياة مع أنه أخذ نصيباً من كل مباحجها ، فإنه كان يحب الحياة شأنه في ذلك شأن أدباء عصر إحياء الآداب والعلوم . ولكنه كان يفضل القصد في كل الأمور ويرى أن الخطة الوسطى هي مفتاح السعادة فلم يكن متهالكا على اللذات كما تهالك عليها كثير من الأدباء بعد عصر الترهيب والتكشف ورفض الدنيا والخشية من متعها . وكان يقول بتحكيم العقل ، ولكنه كان يحذر الاغترار بأحكامه . وكان يعرف قصوره وأنه داعية إلى البر والغرور ورسائله تدل على اطلاع كبير على أدب القدماء وعملهم ، ولاغربة في ذلك فإن أباه كان قد قضى عليه أن يتعلم اللاتينية في سن الطفولة . وله آراء كثيرة كآراء المعاصرين لنا ، مثل رأيه في اجتماع الشخصيات العديدة في النفس الواحدة ورأيه في أن الغريزة في الحيوانات هي في الحقيقة نوع من العقل ومظهر من مظاهره ورأيه في أن التفكير المؤسس على التجربة أصدق من التفكير المؤسس على النظريات العامة التي تعتنق أولاً ثم يحاول صاحبها إثباتها بعد ذلك بما يشاهد . وهو على اعتزازه بحكمة القدماء يرى أن المشاهدة والملاحظة والتجارب أهم منها . ولكن لما لاشك فيه أن دراسته لكتب القدماء كانت رياضة صالحة لعقله مكنته من الانتفاع بالتجارب والملاحظة . وكما يرى أن الاقتناع بالآراء والعقائد لا يكون بالقهر والقسر ، ولذلك كان ينعى على الطوائف الدينية في عصره حرق بعضهم بعضاً وقتال بعضهم بعضاً . ولذلك كان يقول لهم إن أكل اللحم البشرية آراء منهم وأكثر إنسانية . وقد كان معتدلاً في نقد الآراء المقررة . وكان على اعتداله وتحفظه صريحاً في بعض رسائله . وكانت لمونتاني آراء جديدة في التربية مؤسسة على تجاربه ومشاهدته وربما كانت كما يقال « رد فعل » بسبب ما ألزمه أبوه في صغره . وكانت دراسته النفس البشرية في رسائله وسيلة من وسائل التربية ، كما كانت ذريعة إلى السعادة ولذات الفكر . وكان ذا

١ - المقتطف سنة ١٩٤٨م ، المجلد ١١٣ ، الجزء الثالث ، أول أغسطس ١٩٤٨ م ، ص ١٧٥ - ١٨٥ .

رأفة كبيرة بالحيوانات والطيور . ولا غرابة فى ذلك بعد أن رأيناه ينسب إليها العقل . وكان يرى أنها أكثر شبهاً بالإنسان فى إحساسه وعقله مما يظن الإنسان . وقد ترجمت رسائله عقب نشرها إلى لغات كثيرة . وكان الأدباء مولعين بقراءتها وتدبر أوصاف النفس فيها فكانت لشكسبير الشاعر الإنجليزى نسخة منها - وقد ذكر مونتاني فى بعضها أنه يفضل من الكتب تلك التى لا يرتبط فى قراءتها بإتمامها دفعة واحدة بل يفضل من الكتب تلك التى لا يرتبط فى قراءتها بإتمامها دفعة واحدة بل ينتقل فيها ويفادر القراءة متى شاء ويعاودها متى أراد . وهذه كانت خطته فى كتابه أكثرها فإنه فى الرسالة الواحدة ينتقل من موضوع إلى موضوع يتصل بالأول ويوحى به ذلك الموضوع الأول

ومن نظراته ما يلى :

١ - إذا كان المرء أقدر على الفكر وأدق فيه نظراً وأبصر بمسالكه وحيله وعرف الناس منه ذلك فإنهم يكونون أسرع إلى كرهه وأعجل إلى بغضه ؛ خوفاً من قدرة عقله أن تصيبهم بسوء وأن تعالجهم بشر ، لاسيما إذا ظنوا فيه نقصاً فى الأمانة والنزاهة . أما إذا كان غير قادر على الفكر فإنهم قلما يختصونه بمثل هذا البغض حتى ولو كان سئ الخلق . فالناس يخشون أن يستخذه المرء فكره فيما يسوهم ويضرهم سواء أكان أميناً أم كان غير أمين . وهذا سبب من أسباب كره جمهور الناس لذوى الفكر - وهم فى هذه الحالة ينسون أن الغيبى الماكر قد يبلغ بمكره من أذاهم مالا يبلغه المفكر .

٢ - بعض الناس يتعلم المنطق كى يخالف به أصول المنطق والحق ، وكى يقنع الناس بالباطل . وهو كالذى يتعلم القوانين كى لا يتقيد بها وكى ينجو من قصاص خرق سياجها ؛ لأنه بتعلمها يعرف منافذها ومخارجها وأبواب نقصها وحيل التهرب منها . وكذلك نرى أناساً يتعلمون المنطق لمثل هذه الغاية فى تلبيس الحق على الناس . على أن أكثر من يتعلم المنطق كى يطبقوه على الحياة بحسن نية ، يعجزون عن تطبيقه تطبيقاً صحيحاً بسبب غلبة الطباع والتزعات النفسية والشهوات والرغائب والمطامع . فالمنطق الصحيح كثيراً ما يكون مهجوراً منبوذاً فى الحياة سهواً أو جهلاً أو عمداً أو مخادعة من الطبع للعقل . ولولا هذه الموانع لكان نفعه للناس فى الحياة أعظم وفائدته أتم . ولكن المرء كثيراً ما يعتنق الرأى أولاً ثم يتخذ من المنطق ما يسوِّغه .

٣ - قد تكون للإنسان ميول نفسية مستترة وصفات لا يفتن لها . ولكن جسمه قد يدل عليها . فقد كان شيشرون الخطيب الرومانى به ميل شديد إلى السخرية يظهر منه وإن أخفاه بدلالة تجعد أنفه وتقلصه . وكان الاسكندر المقدونى والكبياديس الأثينى معجبين بجمالهما وكانت دلالة هذا الإعجاب فى جسم الأول أنه يميل برأسه زهواً ، ودلالته فى جسم الثانى لشغفه بها أنوثته فى كلامه . وقس على ذلك باقى الصفات المستترة . وقد يحاول المرء أن يخفى الحسد أو الحب أو البغض فينم عليه جسمه ، ثم يتعجب إذا نسبت إليه هذه الصفات.

٤ - قد يظن بعض الناس أن الكذب صفة مقصورة على الأراذل والأوغاد والأنذال . ولكن الحقيقة هى أنها صفة عامة شاملة . فإننا نجد كثيراً من الأخيار الأفاضل الذين تكاد لا تجد فيهم عيباً آخر بارزاً لا يتورعون من الكذب . أما على سبيل العمد أو المغالطة للنفس .

٥ - بعض الناس قد يتعود الكذب حتى لا يستطيع أن يصدق وإن كان الصدق منجيه من ضرر أو تلف . وهذا من غرائب تحكم العادة إذ توهم المرء أن الكذب هو الذى ينجيه كما تعود أن يتجو بالكذب فى حالات ، فيحسب أنها قاعدة مطردة حتى ولو بدا أن الصدق منجيه فإنه يشك فيه ويحذره . وتحكم العادة يذكرنى قصة رجل بمن يعرضون أعمال المهارة فى إصابة الهدف كان يوقف امرأته أمام جدار من الخشب ويرسم حول جسمها خطاً ثم يقذف بالمدى من مكان بعيد بعض البعد فتصيب المدى هذا الخط ولا تمس المرأة ولا تجرحها . واتفق أنه نقم على امرأته وأراد أن يقتلها قتلاً يظنه الناس خطأ فى إصابة الهدف من غير عمد ، فصار يرمى بالمدية فلا يستطيع أن يصيبها ولكنه يصيب الهدف الذى تعود أن يصيبه . وذلك من حكم العادة . ولعل عاطفة فى صميم نفسه كانت أيضاً تمنعه من قتلها ، وإن كان لم يفتن إلى عاطفة الحب أو الرحمة المستترة وفتن إلى عاطفة حب الانتقام الظاهرة . ولعل اعتزاز نفسه بفن إصابة الهدف ، منعه من أن يتكلف الخطأ بإصابة زوجه مهما حاول ذلك .

٦ - فى بعض الأحيان يدفع الخوف الإنسان إلى الانتحار خوفاً من الأمر الذى يتوقع ضرره ، وإن كان ذلك الضرر أهون من الموت . وقد ينتحر المرء خوفاً من الموت فى أى شكل من أشكاله ، فهو يموت من خوف الموت . وهذا يدل على أن الخوف أشد على النفس من الموت . ولا أخاف من شئ قدر خوفى من الخوف ، فإن للخوف عدوى وأخذاً وبغثاً وإلحاحاً . وقد يخاف المرء حتى مما هو عون له على الخوف ، ومنجاة له منه . وإذا لم يدفع به الخوف إلى التهلكة فقد يدفع به إلى الجنون أو إلى الإقدام على ما يخشى ويخاف . وقد يسرى الخوف فى

أهل المدينة الواحدة فيقاتل بعضهم بعضاً من سوء الظن وتوقع الأعداء . وكل منهم يظن أنه يقاتل العدو المخوف الذى بغتهم . وخوف المرء من الأثم قد يكون أشد من الأثم وخوفه من حوادث تصرف الأقدار وانشغال باله بذلك الخوف قد يكون أشد من تلك الحوادث . وقد تسرى عدوى الخوف فى الجيشين المتقاتلين فيفر كل منهما من الآخر كما حدث فى بعض وقائع الحروب المعروفة فى التاريخ . وهذا يذكرنى بما ذكره هازليت فى إحدى رسائله من أن فتاة تركت فى حجرة مغلقة بها جثة فلج بها الذعر والرعب ، حتى أقدمت على ما تخشاه ، فعانقت الجثة وماتت من الهلع والذعر . ويذكرنى بقصة أظن أنها فى كتاب من كتب أناطول فرانس عن رجل من أهل مدينة ذهب إلى الريف ونزل فى نزل صغير ولأمر ما ذاع بين الريفين أنه فوضوى جاء من المدينة كى ينسفهم بالقنابل ، فصدقوا الإذاعة الشائعة وتسلكوا إليه فى خفوت وسكون فى جنح الليل كى يقبضوا عليه مباغته قبل أن ينسفهم بالقنابل وكانوا يرتعدون وهم يتقدمون خلصة نحو حجرته ويفرون عائدين كلما ظنوا أنهم سمعوا صوتاً وكان الرجل قد أحس بهم فظن أنهم لصوص جاؤا يلقطوه ، فسرى الرعب فى نفسه . وفى أوصال جسمه وجعل يرتعد من الخوف وعندما فتحوا الحجرة وجدوا أنه مات من الرعب . ويذكرنى قصة « الجبان » لجى دى موباسان وهى قصة رجل صفح آخر فدعاه المصفوع إلى المبارزة فاشترط الصافع أن لاتقف المبارزة إلا بعد جرح أو موت أحدهما . ولكنه عندما خلا بنفسه فى بيته ، وجد جسمه يرتعد ويرتعش وخاف أن يغمى عليه أمام أصدقائه وخصومه إغماة الخوف فيفتضح ويعرف بالجبن ويلحقه العار فانتحر خوفاً من ظهور خوفه ودلالاته أمام الناس . وأتذكر أيضاً مايسمى بالفرع الأكبر أيام الثورة الفرنسية إذ أن الفرع قد يعم فى عهد الثورات ، وقد يكون معيناً عليها فكثيراً ما بقسو المرء من الخوف ، ومن عجائب الخوف عبد الله بن الزبير وهو من الشجعان . ولكنه لما رأى أن الغلبة ستكون لجند بنى أمية استشار أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات الطيبين فى أن يستسلم فقالت له عش كريماً أو مت كريماً وحشته على القتال . فقال إنه يخشى أن يمثل به أعداءه بعد موته . فقالت لا يضر الشاة سلخها بعد موتها . والواقع أن الإنسان كثيراً ما يغم نفسه بأمور وحوادث مختلفة قد تحدث بعد موته ومن الشجاعة حقاً قول الأستاذ " هالدين " الإنجليزى فى كتابه « تفاوت الناس » أنه اتفق وزوجه أن تهدى جثتهما بعد موتهما للمستشفى للتشريح كى يستفيد البحث العلمى وتستفيد الإنسانية . وهذا يذكرنى قصة إهداء الشنفرى الشاعر جثته بعد موته للوحش كى تنعم بأكلها وذلك فى قوله :

إذا قطعوا رأسى وفى الرأس أكثرى وغُودر عند الملتقى ثم سائرى
فـلا تدفننى إن دفنى مُحـسـرَّم عليكم ولكن أبشـرى أم عامر

ويعنى بأم عامر الضبع - ومن فكاهات الخوف قصة الجبان الذى يدعى الشجاعة مثل قصة ترتزن الترأسكونى لمؤلفها ألفونس دوديه . وكان ترتزن يدعى مغالية الليوث والوحوش مع أنه كان يخشى حتى الأسفار وركوب البحر . ولكن من الأغاليط المألوفة أن يحسب الناس كل من يدعى الشجاعة ويتوعد كى يخيف ، جباناً . حقيقة إن بعض الناس يخفى جنبه وخوفه بادعاء الشجاعة ، ولكن المفاخرة بها قد تكون مفاخرة بحق كما أثبت شارلز لامب فى رسائل « الأغاليط المشهورة » ولأمبروز بيرس فى قصص الخوف من الجثث والأفاعى المحنطة خوفاً أدى إلى الهلاك .

٧ - قد يكون قبول المرء للأكاذيب من السذاجة الفطرية التى تفترض الصدق فى نفس محدثها . وقد يكون ذلك القبول من الجهل وهو عيب العامة . أما عيبى فهو عيب المتعلمين . فقد أبالغ فى تكذيب مالم يقم دليل حسى على صدقه ولا أكتفى بأن أقول إنه لم يقم دليل حسى على صدقه ، بل أقطع ببطلانه واستحالة كونه ، كأن الكون يقاس بملكات الإنسان وهو غير محدود بحدود فكره ونفسه . وقد فطنتنى الخبرة إلى أن العادة لا المعرفة هى التى تزيل غرابة الأمور . ولولا اعتياد الإنسان الحقائق المألوفة لقطع ببطلان مالم يتعود منها . وهذا يذكرنى الدكتور صمويل جونسون وهو أديب أريب ولكنه كان يكذب البحارة بعنف إذا حدثوه عن بعض الظواهر الطبيعية التى تحدث فى البحار مثل ارتفاع مياه البحر فى شكل نافورة فى بعض مناطق الضغط الجوى المنخفض . وكان يقطع ببطلان قولهم ويعده من الأساطير والحرفات التى أُولع بها أهل الرحلات من قديم الزمن . ولكن من غرائب خصال النفوس أنه كان يسرع إلى تصديق أمور أخرى مما يصعب إثباته . وقد يكون للخداع فيه سبيل وقال مونتاني : « ينبغى للإنسان أن يعرف أن الحياة والعالم كتاب لا آخر له » أى لا يستطيع تقصيمهما بالمعرفة .

٨ - قد تتبدل وتتغير صفات النفوس الغالبة حسب أحوال الحياة ودوافعها . فإن نيرون الإمبراطور الرومانى الذى اشتهر بالطغيان وسفك الدماء كان فى أيام شبابه قد طلب منه إمضاء حكم الإعدام على أحد الأشقياء . فقال أسفاً : وددت لو أنى لم أتعلم الكتابة - وهذا يذكرنى رويسبيير زعيم الثورة الفرنسية الكبرى فإنه كان فى صباه قاضياً فى محكمة أراس

ولكنه استقال من منصبه كى لا يمسى حكم الإعدام فى رجل . وبعد ذلك كان خطيب حكم الإرهاب وأرغم النواب على إقرار قانون يجيز للمحكمة الثورية أن تحكم بالإعدام من غير سماع أقوال المتهم أو شهوده أو دفاع عنه ومن غير مناقشته ، وهو الذى كان فى صباه يرفض الحكم بالإعدام ، حتى إعدام المعترف بجرمه أو الذى فحصت الأدلة وثبت جرمه بعد البحث ومع ضمانة العدالة فى المحاكمة .

٩ - اختلاف الميول النفسية والنزعات فى النفس الواحدة ، حمل بعض المفكرين على أن يروا فى كل إنسان أكثر من نفس واحدة . ولكن المفكرين الحديثين يقولون شخصيات لا نفوساً . وقد لوحظ انفصال الشخصيات فى النفس الواحدة فى أوقات مختلفة بسبب حوادث أو أمراض . وعلى هذه الحقيقة أسس ستيفنسون القصصى البريطانى قصته المسماة « الدكتور جيكل والمستر هايد » والأول من أهل الخير والثانى من أهل الشر والإجرام .

١٠ - من أصعب الصعاب أن نقطع بأننا قد عرفنا الحق الذى لاشك فيه مادامت حواسنا وملكاتنا ، وما دام غيرنا من الناس كل يمدنا عمداً أو سهواً أو جهلاً أو عجزاً بما هو أساس حكمنا بما قد يجافى الصواب . ومن أجل ذلك ينبغى للمرء أن لا يتشبث برأى كل التشبث . وعلى ذكر هذا القول أذكر كلمة لأوليفر كرومويل معناها أن من رحمة الإيمان وصحته ، أن يؤمن المرء بأنه قد يخطئ ، ولكن حتى هذا الإيمان بالخطأ لا يعصم المرء من الخطأ والتشبث به إذ أن صاحبه لا يراه خطأ .

١١ - إذا كان تنوع حجج التفكير النظرى يدعو إلى الحيرة والإرتباك ، فإن تنوع تجارب الخبرة قد يدعو إلى حيرة مثلها ، لأن الأمور والأحوال المتشابهة مهما عظم أوجه الشبه بينها ، لا بد من أن يكون بينها من الاختلاف ما يتطلب نوعاً خاصاً من أحكام الخبرة فلا يصح الاعتماد كل الاعتماد على حكم الخبرة والتجربة فى أمر من الأمور لأنه مشابهة قليلة أو كبيرة لأمر آخر خبرناه . فقد يقتضى الاختلاف القليل مسلكاً آخر من مسالك العمل وحكماً آخر من أحكام العقل . ولكن الناس كثيراً ما يكتفون بالمشابهة ويتخذونها نبزاً وهادياً ودليلاً فيخطئون من حيث لا يفتنون ، على أن أحكام الخبرة قابلة للزلل الذى ينشأ بسبب أهواء النفس فشأنها فى ذلك شأن التفكير النظرى . وهم يحسبون أن الخبرة عاصمة منه لأنها أمر عملى - وهذا يذكرنى قول أحد المفكرين الذى قال إن خطأ الخبرة بسبب الأهواء قد يكون حتى فى تجارب معامل البحث الكيميائى .

١٢ - قلما يتفق اثنان فى الحكم على أمر من الأمور اتفاقاً تاماً مهما تشابه رأياهما - ولو أن حادثاً حدث فى الطريق ورآه كثير من الناس ثم طلب منهم وصفه لاختلفوا فى تفاصيل المرنيات حتى ليظن المرء أن بعضهم يكذب عمداً ولكن الاختلاف قد يكون من غير كذب متعمد . لأن نظر كل إنسان إلى الأمور يختلف عن نظر غيره بعض الاختلاف إلا إذا كان هناك إيهاء ورغبة فى الاتفاق لأرب ما .

١٣ - اتفق أن رجلا اتهم بالقتل وشبهت بعض القرائن ولبست الحقيقة ، فحكمت المحكمة عليه بالإعدام . ثم ضبط رجل آخر واعترف أنه جنى تلك الجناية وظهرت أدلة ذلك . فأبت المحكمة أن تعيد النظر فى الحكم على الرجل الأول احتراماً لقداسة القوانين والشرائع . وهذه سنة لاتزال بعض الدول المتحضرة تأخذ بها . وكثيراً ما يفعل الناس ذلك ويعملون بهذه السنة فى حياتهم الخاصة - وهذا يذكرنى قصة تحكى عن كاليجولا الإمبراطور الرومانى إذ حكم على رجل بالإعدام . ثم ظهر أنه لم يجن مانسب إليه . فقال إنه إنسان فإذا لم يكن قد جنى هذه الجناية فلا بد أن يكون قد جنى جناية أخرى . فاقتلوه وهذا من عنف القضاء وجنون الحاكم ولكن للناس ما يشابه هذه القصة .

١٤ - إدعاء المرء أنه يعرف نفسه ؛ دليل على أنه يجهلها . فإن المرء يسير غور النفس ويجد بعد طول ممارسته للبحث فيها ، أن الذى يعرفه من أمورها وأحوالها قليل جداً إذا قيس بما لايعرف .

١٥ - الناس يكرهون النقد وهذا بالرغم من ادعائهم ضد ذلك وقد يلج إنسان على صديق ويدعوه إلى نقد نفسه أو أعماله أو أقواله ويدعى أنه يحب الصراحة ويكرم التملق فإذا خدع صديقه بهذا الادعاء ونقد أعماله أو أقواله أو صفاته وجد منه نفوراً أو عداءً أو حقداً أو غيظاً ، وكلّ منا يلوم الحكام لحبهم ويكره التملق ، وكل منا يود أن يحاط بالمتملقين - إلا إذا خشينا من تملقهم أن يراد به الاحتيال لنيل ما لا نريد أن نجود به .

١٦ - ينبغي للإنسان أن يزداد قوة بمعرفة سقطات عقله ونفسه وأن يكون مثل الجنى فى أساطير الإغريق الذى قيل أن أمه الأرض وأنه كان كلما صرّع وغلب ومس جسمه الأرض ازداد قوة ونشاطاً وقدرة على الكفاح .

١٧ - ينبغي لكل إنسان أن لا يحكم على أعماله بظاهر ما يؤيدها به من حجج . وأن يعود نفسه على أن يبحث عما وراء ذلك من أسباب مستترة ولا يطمئن حتى يصير ذلك البحث عادة

تؤاتيه من تلقاء نفسها . ولكن ينبغي مع ذلك أن يعرف أن هذا البحث مطلب عسير ، إذ أن النفس كثيراً ما تضلل صاحبها فيه بهوسائل مختلفة .

١٨ - إن الإنسان الذى يتطلع إلى بلوغ منزلة كمال الملائكة قد تتدلى به غرائزه فى سبيل هذا المطلب وتهوى به طبائعه فى العمل للوصول إلى منزلة الأبرار حتى يصير فى حضيض الشياطين أو فى مرتبة البهائم أو الوحوش وهو لا يدري بل يخيل له أنه يعمل للخير . فينبغى أن يحذر المرء ذلك .

١٩ - العادة تشكل الحياة كما تهوى ، فكأنما هى خمرة الساحرة سيرسيه التى يحكى عنها فى أساطير الإغريق والتى كانت تسقى من تستهويهم خمرة تحيلهم قردة أو خنازير أو وحوشاً ضارية أو حيوانات مُستَذَلَّة . فليحذر المرء العادة إذا استطاع الحذر منها والتحكم فيها بدل تحكمها فيه ، وهى فى أول أمرها أسلس قيادة للمرء وأضعف ، فإذا تأملت ركبته وغلبته على نفسه . وقد يكون تأصلها إما بسبب أن صاحبها يجهل عواقبها ويستلذ مواقعتها ومؤاتاتها ، وإما من كسل الرأى والجسم . واليأس من التغلب عليها يؤدى إلى تحكمها وإلى ازدياد سوء عواقبها .

٢٠ - الموسيقى على لذتها إنما هى إئتلاف نغمات مختلفة الأصوات والمخارج والوقع ، ومع ذلك يستطيع صاحبها أن يؤلف منها أنغاماً عذبة مقبولة إذا كان ممن يجيد فن الموسيقى . وكذلك من يجيد فن الحياة يستطيع أن يستخدم أحوالها المختلفة من سرور وحزن ونعمة وشقاء وغنى وفقر ، كى يؤلف منها فناً مؤتلف النغمات عذباً مقبولاً .

٢١ - مقاساة الآلام والخطوب هى فى الخوف من مقاساة الآلام والخطوب . فإن المرء بهذا الخوف يُقْبَلُ على ما يخاف كبعض الحيوانات الضعيفة التى يقال إنها إذا تملكها الذعر كل التملك تُقْبَلُ على الوحوش التى تفترسها .

٢٢ - كما أن علم الطب مؤسس على التجارب فعلم الحياة أيضاً مؤسس على التجارب ولا صلاح لها إلا بها - ولكن بعض الناس خلقت لهم غرائز وطبائع يعرفون بها طرق النجاح والصواب وإن قلَّتْ تجاربهم ، كما أن بعضهم لا ينتفع بكثرة تجاربه كالملاح الذى يطوف العالم فتحسب أن أسفاره قد جعلته خبيراً حكيماً عاقلاً عالماً ، ولكنه قد يرجع من أسفاره ، وهو جاهل غبى كما كان قبلها ، ولم تفده تجاربه ومشاهداته عقلاً أو علماً .

٢٣ - لا يمتاز الحق على الباطل بأن الحق من حقه أن يقال فى كل زمان ومكان فقد يكون قول الحق مؤذياً للناس مضرًا بالعدل أو قد يكون قوله لا طائل تحته ولا فائدة إلا العناد الذى يجر إلى خبث النفس والحقد والمهاترة ، أو قد يكون قول الحق كأنه لم يقل من صمم السامع . ولكن متى وجد الإنسان فرصة مؤاتية وزمانًا موافقًا واعتزم أن يتكلم وجب عليه أن لا يتعدي الحق وأن لا يتخطى الصدق إذا وجد أن قوله غير مضر بالعدل والخير . فلو أن رجلاً فر من مجرم حتى غاب عنه ورأيت الطريق التى سلكها وسألك المجرم أن تدله عليها كى يقتله ، ما كان من العدل والخير أن تخبره ، ولهذا المثل أشباه فى الحياة كثيرة .

٢٤ - كثيراً ما يحكم الناس ويتخذون رأياً فى أمر من الأمور قبل تمام المعرفة وقبل اتخاذ الأهبة للحكم وقبل الاستعداد حتى لا يفوتهم شئ من صواب أمره . وهذه عادة شائعة لها أسباب كثيرة مثل الكسل أو قلة الأكتراث والاهتمام بالحق أو الخوف من إرهاب النفس وكدها بالتقصى والتمحيص أو الاكتفاء برأى الغير وحكمه اعتماداً على أنه قد كلف نفسه مؤونة البحث وربما لم يكن قد فعل ، كما لم يفعل من اعتمد على رأيه إلى آخر ما هناك من الأسباب العديدة .

٢٥ - إن الإنسان يخلق لنفسه ضرورات . فإن كثيراً من الأشياء والأمور لاتصير ضرورية إلا لأن الإنسان ألفها فاحتاج إليها ، ألا ترى أن الثياب ما كانت ضرورية قبل أن اتخذها الإنسان ورققت بشرته وأعصابه واحساسه ، فإذا حاول أن يستغنى عنها بعد ذلك هلك . ولكن قد يستغنى عنها من لم يتعودها من القبائل . وقد ذكر هيردوت المؤرخ أن جماجم قدماء المصريين كانت أكثر صلابة من جماجم الفرس لأن قدماء المصريين تعودوا الإقلال من غطاء الرأس أو الاستغناء عنه ، وتعود الفرس غطاء الرأس الثقيل ، فالعادة تشكل الجسم وتتحكم فيه كما تتحكم العادة أيضاً فى النفوس والأمور النفسية . والمؤرخون يقولون إن اتخاذ الإنسان الثياب كان بسبب عصر الثلج الذى زحف فيه الثلج جنوباً وبرد فيه الجو فإذا صح لك كانت الضرورة هى التى دعت إلى الحاجة للثياب واتخاذها من جلود الحيوانات وفروها قبل أن يتعلم الإنسان الغزل والنسج ، ولكن بعض القبائل حتى فى الأقاليم الباردة لاتزال تعيش شبه عارية أو كان ذلك إلى عهد قريب .

٢٦ - ليست عظمة الأمور وقيمتها هى التى تدعو إلى البحث عن أسبابها بل جدتها أو مفاجأتها أو غرابتها هى التى تدعو إلى ذلك وتغرى النفس بالتعلق والشغف بها وباستطلاع

أمرها . وهذا يصدق في أكثر الناس إلا من خصص حياته لدراسة أمر هام . ومن أجل ذلك جاءت المخترعات والمستكشفات القديمة عفوًا كالنار مثلاً - ويقال إن البنسلين في عصرنا كشف عفوًا على أن غرابة الأمور لا تمنع من أن تكون لها قيمة وعظمة .

٢٧ - من الخطأ وقلة الإنصاف أن تحتقر بعض الأعمال الضرورية لأنها محضة متعبة كريهة مع أن الحياة لا تستقيم إلا بها فضرورة العمل من مقاييس قيمته ، والسعيد من تطاوعه نفسه على أن يستنبط سروراً في كل عمل ضروري يعمل به مهما كان كريهاً .

٢٨ - العقل يعرف بملكاته فحيث توجد يوجد العقل . ومن ملكات العقل الحافظة والذاكرة وقياس الأمور والتهدى به إلى الصواب وإلى الرجوع عن الخطأ ، وهذه ملكات نجدها في الحيوانات والطيور . ومن بحث في حياتها وعرف صفاتها من وقاء وتذكر للجميل وحفظ ما تستوعبه حواسها ومن التأنى للانتقام من أساء إليها ومن شهامة أو خبث تعد لهما الوسائل وتدبر الأمور ومن حزن أو سرور ومن ندم أو توبة ومن مكر أو دعاية ومن تهد إلى الصواب بعد الخطأ ومن نظر إلى ما تستطيع أن تعمله إما بتدريب أو بغير تدريب - لا يستطيع أن ينكر أنها عندها قوة الإدراك وحفظ ما تدركه وعندها التذكر والاستنتاج . وقد أطل مونتاني في ذكر شواهد ذلك وقصصه . وذكر أنها ما كانت تستطيع كل ذلك لولا ملكات العقل المذكورة التي نسبها إليها . وللرحالة هانز كودنوف حجاج وقصص مثلها في كتاب « جيرانى الأفرقيون » . ولجاك لندن القصصى الأمريكى أيضاً .

٢٩ - لو كان للكذب وجه واحد فربما استطاع الإنسان معرفته ، ولكن الأكاذيب تختلط وتتفاعل فتنشأ عنها أكاذيب أخرى مختلفة الوجوه والأنواع والأشكال . فلا تستطيع معرفة الباطن بسبب هذا التفاعل . وقد يكون الكذب شبيهاً بالحق فيخدع المرء وجه الشبه أو قد يكون في الكذب شئ من الحق ولكن ما أضيف إليه من الكذب والباطل يخرج عنه حد الحق وقد يجعله أبلغ في باب الكذب .

٣٠ - من الخطأ أن يحتقر المتعلق بأمور الروح أو صفات أو صفات العقل جسمه إكراماً لنفسه . لا كرامة للنفس من غير كرامة الجسم والاهتمام بأموره .

(١١)

نظرات لابرويير^(١)

لا تتم النظرات التي اقتبسناها من الأدب الفرنسى من غير اقتباس بعض نظرات لابرويير والتعليق عليها بما يناسبها من الآراء . قد ترجم حياته ونقده الكاتب المطلع جورج نيقولاوس فى عدد ماض من أعداد المقتطف ، ولكنه لم يكثر من الاقتباس منه . وكنت قد اطلعت على إعلان عن ترجمة كتابه الأخلاق لوكنى لم أره . وفى بعض التعليق الذى نضيفه إلى نظراته ما يجعلها بذكر ما يوافقها أو يخالفها من آراء المفكرين . وقد كان لابرويير معاصراً للاروشفو كولد وهو ينحو نحوه وتارة يرتفع إلى مستواه ، وتارة ينخفض عنه . ونجده فى بعض نظراته يتردد فى رد فضائل الإنسان كلها وعيوبه إلى الأثرة وحب الذات كما ردها لاروشفو كولد . والمفكرون مختلفون فى هذا الرد كما سيتضح . وقد درس لابرويير القضاء وزاول منصباً إدارياً فى نورمانديا . ثم عين مريباً ومعلماً لدوق بوربون حفيد أمير كوندى ، وانتخب عضواً فى المعهد العلمى الفرنسى . وعندما أدركته المنية كان قد ألف من هذه النظرات ألفاً مئة . فعمل اكثاره سبب تفاوته فيها . وقد وصف الفلاح الفرنسى وصفاً ينذر بالثورة الفرنسية قبل أوانها .

وهذه بعض نظراته وأفكاره :

١ - إذا صح مايقولون من أننا نشفق على التعساء أشفاقاً على أنفسنا أن نصير يوماً مثلهم تعساء ، فلماذا لانعطف عليهم ولانحسن إليهم ولا نشاركهم فيما تنال من النعمة إلا بهذا القدر الزهيد التافه ؟؟ ولهذا أسباب منها : أنه إذا كان جانب من النفس بعطف ويحسن خشية أن يصير مثل من تحسن إليه ، فإن للأثرة جوانب أخرى تدفعها إلى الاستئثار بخيرات الحياة . ثم إن الإحسان الزهيد التافه قد يرضى ضمير المحسن فلا يحس ألماً ، بل إن الرحمة من غير إحسان ومعونة قد يعدها من يشعر بها تكفيراً عن كثير من وسائل الاستئثار بالخير ، وإن لم يصحب الرحمة بر فتعيد إلى نفس صاحبها الاطمئنان ، وتدعوه إلى استئثار الكفاح ، والمنافسة فى خيرات الحياة . ومن عوامل الزهد فى البر والإحسان الخوف إذا بذل المرء ماعنده أن يصير مثل من يحسن إليه . وكل هذا لاينافى أن المرء قد يحسن إحساناً زهيداً تافهاً خشية أن يصير مثل من أحسن إليه . وإن الإحسان هنا من الأثرة وباعثه حب الذات . والتكفير عن وسائل الاستئثار أو عن السعادة .

١ - المقتطف سنة ١٩٤٩م ، المجلد ١١٤ ، الجزء الأول ، ١ يناير سنة ١٩٤٩م ، ص ١١٠ .

على أن كثيراً من المفكرين ينكرون أن تكون كل دوافع النفس أساسها واحد وينكرون أن تكون كلها مردودة إلى عامل الأثرة وحب الذات . قال هازليت إن أحاسيس النفس المتضاربة وأهواها المتباينة وهواجسها المتنافرة تُبطل أن يكون للنفس أساس واحد وهو حب الذات ، إذ كثيراً ما يتعسف المرء نفسه لأسباب تافهة لاتفيده بل تضره . على أن هذا لا يمنع أن يكون مرد كثير من الأمور التي تتعسف المرء إلى الأثرة الخرقاء الحمقاء التي تتعسف المرء وهو يظن أنها تسعده ، كما لا يمنع أن يكون الإيثار نوعاً من الأثرة كأن ترجو به النفس العلاء والحمد وطيب الذكر والظفر بالإيثار ، فهي تتجنب الأثرة وتختار الإيثار لأوجه من النفع . وإذا أخذ الإنسان برأى شوبنهاور في وحدة الحياة وأنه مظهر من مظاهرها فحسب ، وأن اعتبار نفسه وحدة مستقلة من خطأ الحواس والاحساس استطاع أن يتخلص من بعض أثرته إلا إذا عد نفسه الممثل الأعظم لوحدة الحياة وإرادتها ، وأنه من أجل ذلك أحق بالخيرات والاستئثار بها وكان « كانت » الفيلسوف الألماني يعد الواجب المفروض فكرة أولية في النفس . وقال ينبغي أن يعمل الإنسان بحيث يصح أن يكون عمله وخلقه مبدأً عاماً . وهذا مشتق من قول جان جاك روسو : إن كل إنسان ينبغي أن تكون إرادته الخاصة مطابقة للإرادة العامة للأمة . وأعتقد أن كل هذه الآراء مشتقة من الفكرة القديمة التي توجد في كتب الأدب العربية كما توجد في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام وهي : ينبغي للمرء أن يعامل الناس كما يود أن يعامله الناس ، أي حب للناس ما تحب لنفسك . ومن الغريب أن الأستاذ هوكسلي « أي هوكسلي الكبير » في مجموعة رسائله يرفض هذا المبدأ بدعوى أن كل إنسان يود أن يغتفر الناس قسوته وجرائمه وأثامه ، فلو اغتفرت كل الآثام والجرائم أصبح العالم فوضى وانتشر الشر . ويدهي أن هوكسلي فسرها على غير معناها ، إذ أن معناها : عامل الناس بمثل ماتود أن يعاملوك به من التعاون التام والامتناع عن القسوة والآثام في معاملتهم لك . على أن أداء الواجب ليس فكرة أولية كما زعم « كانت » بل هي فكرة مكتسبة ولا هي راسخة في النفوس ، بل كثيراً ما تنتفي في النفس وتحل محلها الأثرة الجامحة القاسية .

ولكن مما لاشك فيه أن الإنسان قد تتأصل فيه روح التضحية حتى يكون عمله بباعث نفسى عكس قوله ورأيه ، كما في قصة روبرت جرانث الكاتب الأمريكي المسماة « عمله ضد رأيه » وهي قصة رجل مفكر أبى أن يحبذ عمل إنسان أودى بحياته في إنقاذه طفلاً صغيراً؛ لأن هذا المضحى الذي أنقذ الطفل ومات في أثناء إنقاذه قد خلف زوجة وسبعة أطفال وهو

كاسب رزقهم وتحمل المنكر عليه عمله اشمئزاز أصدقائه من رأيه ، ولكنه بعد زمن فعل مثل الفعل الذى أنكر تحبيذه بدافع خفى من نفسه فأنقذ طفلا من الهلاك وهلك بسبب ذلك ، وهذا يذكرنى قصة « على الحدود » لموريس لى بلان وبها مفكر يرى أن الحروب لا تبطل إلا إذا امتنع كل إنسان عن القتال حتى لو غزيت أمته فى عقر دارها . ولكنه لما رأى الألمان أغاروا على الحدود حمل سلاحه بدافع غريزى من نفسه وذهب ليقاتلهم وليدافع عنها . وهذا غير ما فعل رومان رولان الكاتب الفرنسى الذى أبى الحرب وأبى القتال ورفض حمل السلاح وترك فرنسا وذهب إلى سويسرا فسقط فى نظر كثير من الفرنسيين . وقد قال « كانط » إن المرء لا يستطيع أن يحكم أن الواجب هو الذى يدفعه إلى عمل من الأعمال إلا إذا كان هذا العمل يخالف رغباته المحبوبة السارة ، وليس معنى ذلك أن الواجب لا يكون واجباً إلا إذا كان كريهاً بغيضاً مخيفاً ، وإنما هذه فكاهة من شيلر الشاعر الألمانى يداعب بها « كانط » وقد كان معجباً به . وبعد كل هذه الجولة فى التفكير فإننا لم نقطع برأى بات فى تساؤل لاهروبير .

٢ - قلما يلتذ المرء أن يرى نفسه مكلفاً بمعاونة إنسان فى حاجة إليه . ولكن من الغريب أن الحظ السعيد إذا جعل هذا الإنسان فى غنى عنه وعن مساعدته فإنه قد يسر لرفع العبء عنه ، ولكن سروره لا يكون تاماً بل قد يمازجه شئ من الامتناع كأنما ذلك الحظ السعيد الذى أغنى ذلك الإنسان عنه قد انتقص من قدره ، لأن احتياج المحتاج إليه يشبع غروره وزهوه بالرغم من عبئه . وإشباع زهوه يدعو إلى اطمئنانه إلى قدر نفسه وعظمتها ، أو قل إن الأثرة فى باطن نفسه كانت تفضل أن يزداد سعداً على سعد بأن ينال الحظ السعيد الذى ناله المحتاج إليه ، ثم يظل ذلك المحتاج إليه محتاجاً إليه . وكذلك إذا نال صديق نعمة أو منزلة أو جاهاً فإن المرء يبتهج بما نال صديقه وسر له ، لكن سروره كثيراً ما يمازجه امتناع خفى ، فالسرور بنعمة الصديق لا ينفى وجود عكسه من حسد أو تنغيص أو ألم ، لأنه لم يزد حظاً على حظ بدل أن ينال الحظ صديقه . وهذا من اجتماع الأضداد فى النفس وقد تجتمع .

٣ - إن الذى يستطيع أن يصبر صبراً طويلاً قبل نيل ما يريد لا ييأس كل اليأس إذا لم ينله . أما الذى يتقرب نيله بشغف ولهفة لا صبر فيهما فإنه أكثر تعرضاً لليأس . ثم هو إذا نال ما يريد لا يرى ما ناله بعد آلام اللهفة كفاء لما قاسى فى سبيل توقع نيله وارتقابه من عنت الشغف واللهفة ، فكأنه لم ينله كله أو بعضه .

وهذا إذا كان الشغف به لا يزال فى نفسه كله أو بعضه ، أما إذا كان قد زال أكثره فإن مارسيل بروسى صادق فى قوله إنه إذا تحققت الرغائب بعد زوال الشغف بها قنعنا منها بأقل ما كنا نقنع من قبل ؛ إذ الشغف لا يزال قاهراً حاداً .

٤ - الإنسان يزداد مع الزمن ألفة لمن صنع معهم جميلاً وأحسن إليهم ، ولكنه يزداد نفوراً ممن أساء إليهم . وذلك لأن رؤية الطائفة الأولى تزيد حسن رأيه فى نفسه . أما الطائفة الثانية فإن رؤيتها تذكره إساءته إليهم فتقلل من حسن رأيه فى نفسه حتى ولو كان جانب من نفسه يباهى بقدرته على الإساءة فإن جانباً آخر من نفسه يبصره بعيوب نفسه ولو كان ذلك عن طريق الوعى الباطن الخفى .

٥ - الناس يذمون الإسراف فى كل الأمور إلا الإسراف فى شكر نعمتهم عليهم ، فإنهم قلما يذمون الإسراف فى شكر نعمتهم - إلا إذا فطنوا إلى أنه يراد به المزيد من النعم التى لا يريدون أن يجودوا بها - ولكن الناس فى أكثر الأحوال يطلبون المزيد من شكر نعمتهم مهما بالغ الشاكر فى شكرها ، ولا يرون شكره كفاء لما أولوه من النعمة ، بل يرون أنه دائماً مدين لهم بالشكر .

٦ - الحديث المحبوب لدى القلب أطيب من الحديث المقنع للعقل بحججه . ومن أجل ذلك تُصغى النفس إلى ماتود أن تسمعه أكثر من إصغائها إلى ما يقنعها - بل هى تصنع أكثر من ذلك فتستنبط للحديث الذى تود أن تسمعه براهين وأدلة كى تقنع نفسها أنه أقنعها ، وأنها لم تصغ إليه لأنه محبوب تود سماعه ، بل أصغت إليه لأنه يدلى بالمنطق الحق والبرهان الصادق ، وأحياناً لا تكلف نفسها مثونة ذلك وتكتفى بأنه حديث شائق محبوب تود سماعه .

٧ - الرجل يصعب عليه ، لاسيما إذا كان على شئ من الكبر ، أن يغتفر لآخر إطلاعه على سقطة أو زلة أو سيئة بدرت منه ، وخاصة إن كان عند المطلع على زلته أسباب وجيهة تدعوه إلى مؤاخذته أو لومه ، ولا يهدأ غضب صاحب السقطة أو الزلة أو السيئة إلا إذا ألزم الآخر مثلها وأظهره فى مظهر شبيه بها فكأنه بذلك يحو أو يخفى أو يهون من أمر زلته أو عيبه ويزداد قدراً لدى نفسه . ولما كانت العيوب والسيئات شائعة بين الناس كثيراً ما يتعاونون لتهوين زلاتهم بالزمام غيرهم سيئات مثلها .

٨ - كثيراً ما تصدر من المرء أعمال عظيمة وإحساسات نبيلة فتنسب إلى حب الخير الغريزي في النفس البشرية والحقيقة أنها بسبب ما اكتسبه بالعادة والمراس والمحاكاة للخلق السائد المدوح لدى الناس ، فإن هذه الأمور تكسب المرء قوة خلقية ، أما غريزة الخير فإنها تضعف لولا العادة والقدرة وهما يزيدانها تمكناً .

٩ - كثيراً ما يكون ضعف المرء وعجزه باعثن له على البغض والكره والمقت ، إذ لو كان قادراً غير عاجز للجأ إلى وسائل أخرى . والرغبة في الانتقام وطول التفكير فيه هما بسبب هذا الضعف لأنه لم تتم له بعد أسباب القدرة عليه ، فضعف المرء يدعوه إلى كره الناس . ولكن كسله وحب الراحة والدعة والاطمئنان والسكينة أمور قد تدعوه إلى التخلي عن كرهه وعن محاولة التشفى . ومن أجل ذلك كان من الصعب أن يقهر المرء غضبه في أول الأمر إذ اغضب على إنسان ، ولكن إذا تراخى به الزمن كان من الصعب أن يعانى شعور الغضب والبغض على الدوام ، لأنه يقلل من راحته وهناءته ، إلا إذا جعل للسخط والرضا ، تداولاً وتعاقباً على نفسه .

١٠ - من الصعب محاولة إغراء المرء باتباع رأيك في الأمور الكبيرة قبل أن تتمكن من أن تعودّه على اتباعه في الأمور الصغيرة التافهة . فإن المرء يأنف أن يعمل حسب ما يوحى به غيره - حتى ولو كان صواباً - إلا إذا كان الموحى المغرى صاحب لباقة تمنع الموحى إليه من الشعور بالأنفة لرأى غيره ، فإذا لم ين المغرى بالرأى الموحى به صاحب لباقة كهذه اللباقة دفع المرء الاستحياء أو الكبر أو هوى النفس إلى رفض ذلك الاغراء والتحكم ، ولكنه إذا تعود أن ينقاد في الأمور الصغيرة التى لا يرى أنفة فى الموافقة عليها بسبب زهاتها وتفاهتها ، انزلق واسترسل به التعود فينقاد في الأمور الكبيرة . وهذه حقيقة يعرفها الناجحون فى الحياة الذين يحملون الناس على قضاء ما يريدون وقد يحملون من هم أكبر عقلا منهم ، ومن تظن أنهم لا ينقادون لأمثالهم وإنما يفعلون ذلك باتباع هذه الحقيقة النفسية السيكولوجية . وكثيراً ما يكون الضعف سبب انقياد المرء لرأى غيره . ولكن الكسل وحب الراحة من أسباب هذا الانقياد . وهى حقيقة يستغلها ويستثمرها ذور الإلحاح لنيل مطالبهم ، وكأنهم ينتهزون فرص استرخاء الكسل والدعة ومحبة الراحة ويعرفون صفاتها وأوقاتها فيجسمون فى حالاتها على من يريدون الإلحاح معه باللباقة كتلك التى وصفت .

١١ - قد يكون من الدهاء أن نعامل أعداءنا على أمل أن يكونوا يوماً أصدقاءنا ، وأن نعيش مع أصدقائنا على حذر من أن يصيروا يوماً أعداءنا . ولكن هذا يجافى أصول المودة والعداوة . وقد يدعو إلى أخلاق غير فاضلة وإلى تكلف مالىس من الصدق والنبيل ، وإلى استخدام الكذب والرياء . وأفضل من ذلك أن لا يصاحب المرء إلا ذوى العقل والأمانة والشهامة الذين إذا صاروا أعداءه عادوا من غير أن يتعدوا حدود العقل والأمانة والشهامة - ولكن هل يستطيع دائماً أن يميز من لا يتعدون حدود العقل والأمانة والشهامة فى عداوتهم ؟ . فى بعض الأحيان يستطيع تمييزهم بأن يفحص معاملتهم لأعدائهم قبل أن يصادقهم . فإذا وجد أنهم يعاملون أعداءهم بالخيانة وقلة الشهامة والرعونة ، استطاع أن يعرف أنهم لو صاحبه ثم عادوه أو عاملوه بمثل تلك المعاملة التى تدل على لؤم العداوة وخستها وغدرها وحماقتها .

١٢ - لو أننا لم نسر وتأنينا فلم نضحك إلا بعد زوال جميع منغصات حياتنا ، وبعد كمال سعادتنا لكان من المخوف أن نموت قبل أن نضحك . والحقيقة أن الضحك أو حتى تكلف الضحك ، قد يقلل من متاعب الحياة . ولكن كثيراً من الناس يتشبثون بمنغصات حياتهم ومتاعبها ، بأن لا يبيحوا لأنفسهم الضحك إلا بعد زوالها ، فيكون تشبثهم بها بحرمان أنفسهم من الضحك باعثاً على بقاء متاعبهم وثقل عبئها .

١٣ - أحب الرغبات إلى الإنسان التى لا تتحقق ، لأنها متى تحققت وفاز بها ألغها واعتادها ووجد بعض الملل فى نفسه إليها سبيلاً فى بعض الأحيان فتقل قيمتها . وكثيراً ما ترى الرغبات التى تتحقق ويفوز بها الراغب تواتيه فى غير أوانها الذى يسعد بها فيه أو توافيه فى حالات من حالات نفسه . وفى ظروف من الحياة تقلل من المتعة بها . ولهذه الأسباب كلها تقل قيمة الرغبات إذا تحققت مهما كانت عزيزة محبوبة قبل الوصول إليها . فلا تقنع الفائز بها ، ولا ترتاح نفسه ، ولا تهدأ ، وهو كذلك لا ترتاح نفسه ، ولا تهدأ ، إذا لم تتحقق الرغبات بسبب ألم اللهفة . فالإنسان قلما يرضى سواء تحققت رغباته أو لم تتحقق . وفى هذا عظة له وعبرة لو يعتبر .

١٤ - إن ألم الحزن لفقد من نحب أقل ثقلاً على النفس من نكد العيش مع من تكره . ومن منغصات الحياة مع من نبغض ، لأن ألم الحزن على الفقيد المحبوب يقلله مرور الأيام ، ويكتسى وشياً من الذكريات الجميلة التى تكسب الحزن شيئاً من مباهج الجمال . أما العيش مع البغيض المكره فإنه يزداد ثقلاً على النفس فتزداد به غما مادام دائماً لم يزل .

١٥ - المودة المستكملة الصادقة فى كل بواطنها ومظاهرها ، أندر وأقل حدوثا من العشق الشديد . وفى المودة نأتمن الصديق على أسرارنا بمحض إرادتنا . أما فى الحب فلا إرادة ، بل قد نذيع أسرارنا بالرغم منا ، وقلما تزول الصداقة إلا لأسباب تدعو إلى نقضها كالغدر أو الإساءة التى لاتقبل ، أو الجفاء الذى يدل على الغلظة . أما الحب فقد يوجد كأشد ما يكون بالرغم من هذه الأسباب . فإذا زال فقد يزول من غير سبب ، بل يفىق المحب إلى أنه صار لايحب حبيبته وهو هو لم يتغير . وقد يولد الحب بغتة من غير إرادة أو تفكير . أما المودة فإنها فى حاجة إلى العشرة والألفة والزمن كى تنضج ثمراتها . وقد يكون أشد الحب المباغت من أول نظرة . ورب نظرة إلى وجه جميل أو يد رشيقة قد تصنع بالقلب فى طرفة عين ، مالا تصنعه أعوام طويلة زاخرة بالعطف والمودة وأداء المعروف .

ع . ش

(١٢)

نظرات لورد بيكون (*)

من الغريب أن لورد بيكون من المفكرين الإنجليز الذين أولع أهل الخيال والأهواء بهم فتارة يزعمون - كما قرأت في مقال - أنه إدوارد السادس مع أن بين ميلادهما فرقاً يقرب من الجيل ، ومات إدوارد السادس بعد ضعف ومرض وحضر موته الأطباء وكان فرنسيس بيكون وهو غلام يصطحبه أبوه السير نيكولاس بيكون إلى قصر الملكة اليصابات وكان من أعوانها وكانت الملكة تداعبه فتسمية كاتبها أو وزيرها الصغير وأسرته معروفة والبيت الذي ولد فيه غير مجهول وكل حوادث حياته حقائق معلومة فليس في حياته أي غموض . وبعض أهل الخيال والأهواء يدعون أنه كتب قصص شكسبير الشاعر العالمى ، ولكن شكسبير كان أكثر من العمل . وبيكون كان أكثر من العمل . ويستحيل أن يقوم إنسان واحد بالعملين معاً مهما كانت قدرته . وبالرغم من أن بيكون كان أديباً فإنه كان يعد البحث العلمى أهم من الأدب وقد مات بسبب أنه خرج في يوم بارد كثير الثلج ليجرب تجربة عملية نافعة ، وهى حفظ اللحوم بالثلج ومنعها من التعفن . وقد كان ينعى على القدماء تفضيل الفلسفة النظرية والأدبية على البحث العلمى العلمى ، وله مؤلفات كثيرة فله كتاب الرسائل وكتاب حكمة القدماء فى أساطيرهم وكتاب أقوال مشاهير الرجال ، وكتاب أطلنطيس الجديدة وكتاب تاريخ حياة هنرى السابع وكتاب « نوفام أرجانوم » أى الأداة الجديدة فى العلم والتعليم وكتاب تقدم العرفان ، وعلاوة على ذلك فقد كان له عمله فى البرلمان وفى المحاكم فى سماع القضايا والحكم فيها وكتابة أسباب حكمه بعد التفكير فيها وكان مستشاراً لبعض وزراء الملك جيمس الأول يكتب لهم التقارير ولم يشتهر بشئ من الشعر مع أن بعض الأشراف لم يعدوا كتابة الشعر فى عهده حطة لهم ، فكيف كان يستطيع مع كل هذه الأعمال أن يؤلف قصص شكسبير العديدة ؟ على أن فى قصص شكسبير من الأغاليط التاريخية ما لا تقلل من عظمة عبقريته كشاعر ، ولكنها هى والأغلاط الجغرافية ما كان يقع فيها مؤرخ مثل بيكون ، وشكسبير فى بعض قصصه يشكو حظ الممثل أو الأديب أو نكاية زملائه وهذا لا ينطبق على بيكون ، كما أن

* - المقتطف سنة ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٤ ، الجزء الثانى ، أول فبراير سنة ١٩٤٩ م ، ص ٨٩ ، ٩٨ .

شكسبير كان فى بعض قصصه يداعب أو يسخر من قول بعض الشعراء . وهذا أيضاً يستبعد من بكون الذى كما يزعم أهل الأهواء أنه قد ترفع عن طبقة الشعراء وإن كان أكبرهم قصصه فنسب إلى غيره . أما بحوثه العلمية التى كان يقضى بها وقت فراغه وآراؤه فيها فليست كلها مقبولة لدى علماء هذا العصر ولا غرابة فى ذلك . ولم يكن مبتكراً فكرة تقديم الخبرة والتجربة فى العلم والوصول من الشواهد الخاصة إلى القاعدة العامة ولكنه أذاعها وجعل هذه الفكرة مبدأ عاماً واشترطها فى البحث العلمى العلمى فى كتابه عن العلم والتعليم . ولا شك أن عقله كان أكبر من قلبه ولا داعى للخوض فيما اتهم به من العيوب إلا أنه من الضرورى أن نقول إنه حوكم لقبوله الرشوة فى القضاء واعترف بذلك قائلاً إن أحكامه بالرغم من ذلك كانت وفق العدل . قد ندم على ما فعل . وقد عومل بالرفق فى محاكمته ثم مالبت أن أطلق صراحة وأسقطت عنه الغرامة التى فرضت عليه .

وهذه النظرات من رسائله تدل على كبر عقله وخبرته بالنفوس البشرية .

١ - الحق كضوء النهار لا يزين قناع زخارف الحياة الموهنة أباطيلها وبها رجها وآمال الناس فيها وأعمالهم ونزعات نفوسهم إذا كان الحق خالصاً من شائبة الخداع للنفس ، كما يزينها إذا كان مشوباً بشئ من الخداع للنفس بالباطل خداعاً قد يكون غير مدرك وضوء هذا الحق ، الحق المشوب بخداع النفس ، قد يكون أشبه الأشياء بضوء الشموع فى المراقص المقتنة ليلاً يخفى نقائص ألوانها وبها رجها وحقيقتها ويكسبها شيئاً من الجمال المصطنع ويزين لباسها المستعار ويخفى بعض ما بها من ادعاء . ومن أجل ذلك كثيراً ما يخالط الحق حتى من غير تعمد للخلط شئ من الباطل كى يقلل من نور الحق فلا يتم على أكاذيب الحياة وهى كثيرة ، وهل من شك فى أنك إذا سلبت من إنسان كل ما فى عقله من آراء لا أساس لها من الحق ، ونزعت عنه كل آماله الباطلة التى تملقه وتزين له أمره وعيشه وتحته على استئنافه والاطمئنان إليه وحرمة من مقاييس عقلية باطلة ومن أحكام وموازن يتشبث بها ومن أحلام فى الحياة جميلة لا حقيقة لها ولكنها تريحه وتسعفه ويتعلل ويتسلى بها ، إذا نزعت من عقله ونفسه كل ذلك لم يبق له غير عقل ضامر هزيل ونفس ضئيلة حائرة خائبة . فالباطل قد يمازج الحق كما يمازج المعدن الخسيس الأشد صلابة الذهب الأبريز كى يزيده صلابة ويجعله أصلح ، كتنقود فى المعاملات وإن كان ينقص من قيمة عنصر الخليط .

٢ - جلال الموت وما يحاط به أشد رهبة من الموت . وبعض المفكرين يخيف الناس من الموت بأن يقيس ما فى الموت وهو تلف الجسم كله بما فى تهشم أصبع وهو جزء صغير من الجسم . هو قياس غير صحيح لأن الأعضاء الحيوية أقل تأثراً بالألم والألم فيها أسرع مفعولاً . فكثيراً ما يموت الناس من غير احساس كبير بالألم . وليس فى النفس إحساس قوى يعجز عن التغلب على الخوف من الموت . فالغيبظ وطلب الثأر والحب وطلب المجد والإحساس بدافع الدفاع عن الشرف والحزن والخوف والشجاعة وحتى الشفاق والرحمة وهى أرق الطباع ، كلها أمور تستطيع التغلب على الخوف من الموت ، وحتى الملل من الأمر المعتاد والمكرر قد يتغلب على الخوف من الموت ، فالموت إذاً أقل شدة بأساً وهولاً مما يصوره بعض القائلين .

٣ - من الحماقة والغفلة أن تريد المرء بغيظه وحنقه وكرهه قسوته أن يحقق إرادة الله ، فيؤدى ذلك إلى الإجرام وإلى مثل مذابح سان برثولوميو . لقد كان من الكفر والإجرام قول إبليس إنى أريد أن أصعد إلى عرش الله . أليس مما هو أشد كفرًا وإجرامًا أن يريد المرء إنزال الله من على عرشه كى يشركه فى قسوة الإنسان إذ يتوهم أنه يخدم الله بقسوة مثل قسوة قرصان البحر .

٤ - إن من أعظم العظمة التى هى منزلة عظمة المعجزات أن يحكم المرء نفسه كل الحكم فيما ينوبه من حوادث الدهر . ويعجبني قول سنكا الفيلسوف الرومانى فى هذا الموضوع « أسمى ما يكون عجز المربوب إذا اقتدى باطمئنان الرب » .

٥ - إن الحزن الذى تزينه أسباب الأمل والإطمئنان والإيمان كالثوب القاتم اللون المطرز بالخيوط الزاهية البهجة . فهو أملاً للعين وأشرح للصدر من السعادة التى تحيط بها المكارة والمخاوف المقلقة والتى تكون كالثوب الأبيض المطرز بالسواد .

٦ - مهما كان الرياء لازماً فهو مظهر من مظاهر العجز فى الأمر الذى لجأ إليه المرائى ، إذ لولا العجز فيه ما لجأ إلى الرياء .

٧ - من الناس من يتقنون الصراحة ويتخذونها خطة حتى يعرفوا بها ، فإذا لجأوا إلى وسائل المكر والنفاق لم يصدق أحد أنهم من أهل المكر لما عهد من صراحتهم فكأنهم بهذه الوسيلة يختفون فى مكرهم عن أبصار الناس . وهذا يذكرنى قول أبى تمام الطائى :

سكن الكيد فيهم أن من أعـظم إربٍ ألا تسمى أربىـا

٨ - الرجل الذى يقول كل ما يعرف كثيراً ما يسوقه طبع الكلام وعاداته حتى يقول ما لا يعرف ويدعى أنه شاهد ما لم يشاهد وحضر ما لم يحضر . والناس يأقنون الرجل الكثير الصمت على أسرارهم والثرثار مكشوف العورة كالرجل العريان . وكما أن الثياب تزيد المرء وقاراً فالكتمان يزيده هيبة ووقاراً . وليس الكتمان باللسان وحده بل أبلغ منه الكتمان بضبط المرء تقاسيم وجهه وحكم تقاطيعها حتى لا تنم على ما يكتم لأن الناس يصدقون ما تنم عنه ملامح الوجه أكثر من تصديقهم كلامه وإن فقه وزينه . ومن مزايا الكتمان أنه يدعو إلى استئانة أعدائه وإلى مباغطة مناضليه وأنه يدع لنفسه طريقاً للتراجع إذا أضطره الأمر ، إذ لو أعلن أمره اضطر إلى المضى فيه أو إلى اظهار العجز والخيبة . وهو بكتمانه وسكوته واصفاته بدل الكلام ، يستطلع ما يريد أن يعرف من آراء الناس وأغراضهم وخططهم ، لكن المبالغة فى الصمت والكتمان قد تغرى الناس بأن يظنوا به الجبن والوجل . ثم إن صمت مثل هذا المبالغ قد يحير من يريد أن يعاونه وأن يشركه فى أمره فيفقد ثقة بعض الناس ، ولعل هذا من أسباب شك الناس فيمن لا يعاشرهم ولا يحادثهم .

٩ - يشترك الآباء والمعلمون والحكام والأتباع وأمثال هؤلاء فى تنمية روح المنافسة فينمو التحاسد والتباغض فى نفوس الأطفال الصغار من حيث لا يشعر القائمون بأمرهم الذين تسرهم عاقبة المنافسة العاجلة الفانية ولا يفتنون إلى ما يكتنونه فى النفوس البشرية من عواقب تبقى مدى الأجيال وضررها فى الحياة كثير وهو ضرر غير مقصور على عهد الطفولة . وإنما يلجأون إلى هذه الخطة لأنها فى نظرهم أسهل خطة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه الأطفال .

١٠ - فى النفوس صفة لؤم ذائنة وهى أن كل من لم يستطع اصلاح حاله يحاول افساد حال غيره ؛ ومن أجل ذلك كان ذور العاهات والخصيان والشيخوخ وأمثال هؤلاء من أشد الناس حسداً إلا إذا صادف نقصهم نفساً كبيرة تجعل نقصها زائداً فى شرفها وشفيعاً لمدها ، إذ يقال أن صاحبها أتى بالأمر العظيم بالرغم من عاهته أو نقصه . والحسد داء الأمم والدول ومضعفها ولكنه قد يكبح جماح طغيان الحكام والمقربين لديهم إذ خشوا عاقبته . والحسد كالوباء فمن خشى الوباء كثيراً وذعر منه أصابته غائلته من الرعب . وكذلك من يذعره حسد الحاسد فيظهر الاستخذاء والضعف والذعر فينتهز الحاسد فرصة ذعره ويصيبه بسوء . وإذا فشا الحسد فى أمة أصاب السليم الصفات الكريمة الأخلاق الفاضل النفس ، كما يصيب الوباء السليم الجسم فيمرضه . وفى أمثال هذه البيئة التي فشا فيها الحسد يصبح الفضل نقصاً والرأى السديد خرقاً والعمل الصادق عملاً كاذباً فى دعوى الذين يرون فى انقلاب

الأمور وحقاتها إخفاء لحسدكم ونقصهم وهم مثل الزارع الذى يزرع الشوك والحسك فى الظلام بين الخنطة وغيرها من النبات حتى ينتشر الشوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو .

١١ - قال ديموستينيس الخطيب الأثينى أول صفات الخطابة وثانيها وثالثها الجرأة فى الحركة والفعل . وكذلك ألزم صفات النجاح فى الحياة المدنية وأولها وثانيها وثالثها الجرأة . مع أن الجرأة تدل على على أن تفكير صاحبها محدود لأنه إذا تشعب منه الفكر تردد فى شعابه وألهاه عن الجرأة وشغله عنها فالجرأة أخط من غيرها من الصفات الفاضلة . ومع ذلك فهى من صفات النجاح أولها وثانيها وثالثها .

١٢ - قد يكون المرء صالحاً جداً حتى أنه من شدة صلاحه لا يصلح لمباشرة أى عمل من أعمال الدنيا بنجاح . والحقيقة هى أن النجاح فى الحياة قد يتطلب - إلا إذا جاء عفواً - شيئاً ولو قليلاً من المكر والاحتياىل يخالط فضله وصلاحه . وقد يخفيه ذلك الفضل ولكنه موجود يخفى حتى على بعض من يتفكه ساخراً بغباوة أغنياء الحرب إما حسداً لهم ، وإما دعابة يخالطها بعض الحسد ولو القليل منه ، وإما جهلاً بأن الغباوة لا تحافى المكر والاحتياىل . وإن المكر من مظاهر العقل وهو من صفات النجاح وكثيراً ما يلجأ إليه الغبى كى يجعله عوضاً عما حُرِمَ من الذكاء والفكر .

١٣ - قد ينسى بعض الناس الذين طبعهم الإسراف « وبعضهم يسرف من غير شعور فى أمور لا حاجة إليها وأن توهم غير ذلك » أن الإسراف فى أمر من الأمور يقتضى الاقتصاد أو التقدير فى أمور أخرى - وهذا يذكرنى قول معاوية فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ : ما رأيت إسرافاً قط إلا وإلى جنبه حق مضيع .

١٤ - سوء الظن يكثر فى ظلام العقل كالحفافيش تكثر فى الظلام وإذا عظم سوء الظن عَطَلَ العمل وفصم الصلات وعكر العقل ودعا إلى الظلم والغيرة والتردد والحزن وإلى فقد الأصدقاء . وإذا كان سيئ الظن جباناً هلوغاً يملكه الذعر والرعب إذا فكر فيما يسيء به الظن فإن رعبه قد يدفعه إلى عدم التشبث ظناً أنه إذا تعجل بادر ما يخشاه قبل وقوعه واتقاء ما يسيء به الظن كأنه أمر حقيقى لاخطر منه ، بل هو لازم إذا لم ينزله المرء فى نفسه منزلة اليقين ويتعجل بالحق لمعاقبة من يسيء به الظن وكذلك الذى يسيء به الظن وهو برئ أو يخشى أن يسيء به الظن ينبغى ألا يظهر فى ملامح وجهه وحركات جسمه أنه يخشى أن يسيء به الظن وألا أسى به الظن ريبة وإن كان بريئاً كما قال الطغرائى الشاعر « أن الهَيُوبُ مُرِيبٌ » فى بيته الآتى :

تخفى بسالتة مطارح همم ومرامه أن الهَيُوبُ مُريب

١٥ - إخفاء سوء ظنك بصديقك عنه يزيد من سوء ظنك به ، وقد تمحوه الصراحة وتبطل الوسواس التى تنمو بسبب سوء ظنك به ، ولكن بعض الناس يكره أن تصارحه ويحقد عليك من أجلها ، حتى ولو كانت صراحة بلباقة ولطف فلا يخلص لك بعد مصارحتك أبداً - وهذا يذكرنى قول البحترى .

أدعُ الصَّاحِبَ لا أعذله لا يُسمَى بعِشْقٍ فَيُعَقِّقَ

١٦ - ينبغي لمن وهبه الله قدرة على الفكاهة والسخر أن يتذكر دائماً أن هذه القدرة تبعث الشك وسوء الظن به ويمقاصده حتى يحمل الناس كل ما يقول أو يعمل على محمل السخر بهم والاحتقار لهم وأن لم يكن يريد ذلك . وقد يذكر المرء قولاً بريئاً لا سخر به فيحمل الناس معناه على ما بدر منه فى أوقات أخرى من السخر « وهذا يذكرنى قول لورد تشستر فيلد : ينبغي لصاحب الفكاهة والسخر أن يتقلدها مغمدة كما يتقلد السيف ، لا مُصلياً لها وأن يتخذها عدة للدفاع إذا لزم لا للاعتداء » وأبغض الفكاهة فى نظر لورد بيكون ما تناول بالتنادر والسخر الأمور الخليفة بالخشوع والإجلال .

١٧ - كل من كان فى نفسه شئ يدعو إلى احتقاره مزود بدافع نفسى يعمل للنجاة من ذلك الاحتقار بالحيلة أو المكر أو الشجاعة أو العمل العظيم الذى يدعو إلى الإعجاب أو بالظهور بين الناس إما بالفضل وأما بالشر كى يخيفهم بشره وينال الهيبة والخوف منهم إذا لم يستطع نيل الإعجاب بفضله . فكم من عاهة أو نقيصة فى حياة المرء حثت على العظمة أو على الاجرام وإذا كان صاحب النقيصة عاجزاً كان شديد الحسد .

١٨ - المظاهر المألوفة الصغيرة من مظاهر الفضل أجلب لرضا الناس ومدحهم من مظاهر الفضل العريضة العظيمة النادرة : لأن الحياة اليومية أحوج إلى الأولى كما أنها أحوج إلى النقود القليلة القيمة فى التعامل اليومى - ولأنها أقرب إلى فهم جمهور الناس وأقل هدفاً للحسد .

١٩ - أكثر الناس تغاضباً الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمدللون الذين هم أشبه بهؤلاء . ومن أجل ذلك ينبغي أن يستحى العاقل من أن ينزل نفسه منزلتهم بالتغاضب ظناً أن الغضب من مظاهر العظمة وهو ليس من مظاهر العظمة بل من مظاهر الجهل والمرض والضعف والعجز عن حكم النفس فهو اعتراف بالنقص ، لأن كل هذه المسببات من باب النقص وأشكاله.

٢٠ - بعض الناس عقلهم أعظم مما يُخَيَّل للناس فيهم من العقل . وبعض الناس يخال فيهم من العقل أعظم من نصيبهم منه . فملاصق الوجه قد لاتدل دلالة قاطعة على مقدار المرء من الفهم والتعقل ، وقد يستتر المرء نقص عقله بالوقار والحشمة وبعض الناس له مهارة فى لباس الأفكار التافهة لباس الحكمة وبعض الناس يوهمون غيرهم بالصمت أنهم يعرفون أكثر مما يريدون أن يقولوا ، وبعضهم يوهم ذلك بإشارة وجهه أو يده أو طرف من بدنه أو بالابتسام الماكر أو بالظهور بمظهر التأمل المفكر وهو لا يتأمل ولا يفكر وهؤلاء وأمثالهم على قلة عقلهم يشتهرون بالفضل « وهذا يذكرنى قول شيرير الناقد الفرنسى : إن بعض الناس كالمنازل الضيقة التى تكاد تكون لا عرض لها وطولها كله على الشارع الرئيسى البارز فيحسب الرأى أنها منازل كبيرة وهى صغيرة جداً » .

٢١ - بعض الناس لاخفاء نقص عقولهم يتخذون وسائل أشبه بحيل التاجر المفلس الذى يريد أن يقنع الناس أنه غنى كى يجد من يقرضه مالا ليتلافى أمر إفلاسه وكى يعود إلى الكسب وإلى الارتزاق . وهؤلاء إذا عن موضوع أظهروا عدم الاحتفال له وتهوين أمره أو السخر به بدل فحص فكرته والإدلاء برأى فيه .

٢٢ - قد يكون الرجل ذا أثره محباً لنفسه ومع ذلك يكون فى حاجة شديدة إلى صديق، فليست الحاجة إلى المصادقة والمودة من سلامة الطوية وطيب القلب ، وإنما هى ضرورة كضرورة من يأخذ الدواء كى يجرى به المرارة فى جسمه ويدرها . وأمثال هذا إذا افتقدوا المجلس المصاحب كانوا كمن يأكلون قلوبهم - ولعل هذا هو السبب فى غيظ ذوى الأثرة بمن ينقطع عن مجالسة الناس أو لعله سبب من أسبابه - وبعض الناس لا تتم متعتهم بالسرور إلا بإعلانه لصديق أو جليس ولا يسهل تحملهم للشقاء إلا بالشكوى لعشير أو جليس أو صديق ومكاشفته وهذا يذكرنى قول الشاعر الغربى :

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو ينسيك أو يتوجع

٢٣ - تزداد آراء المرء صحة ووضوحاً بالمحادثة لأنه قد يتكلف بحثها ووضع حد لمعناها وأسبابها ، فيزداد المرء دقة وحكمة بالمشافهة أكثر مما يزداد بالتفكير خالياً بنفسه منفرداً . فهو بالمحادثة يشحذ ذهنه كما يشحذ السلاح على الحجر حتى ولو كان محدثه لا يستطيع أن يجيد مبادلة الرأى ونقده ويستثنى من ذلك الحديث الذى لا يراد به هذا الأمر بل تراد به الضجة وتعطيل الفكر والمهارة .

٢٤ - اختلال الأمن أكثر ما يكون بسبب الحاجة والفقر ولا يداوى ولا يكبح إلا بمداواتهما .
وقد قال تاسيتوس المؤرخ الرومانى فى وصف أمثال هذه البيئة المختلة : بعض الناس لهم جرأة على عمل الشر ، وبعض من ليست لهم جرأة على عمله يرغبون فى أن يعمل غيرهم الشر وأكثر من هؤلاء وأولئك الذين يسمحون بعمل الشر ولا يعينون ولا يدلون على من يعمله ولا يحاولون منعهم . فإن رأيت أمة أاجتمعت فيها هذه الطوائف الثلاثة واستفحل أمرها فأندرها بالتدهور فى نظامها وحياتها التى تحياها ، ولا سيما إذا انتهز الوجهاء والأعيان والأدباء والمفكرون فرصة امتعاض الجمهور من سوء حالهم كى يثيروهم بوسائل ظاهرة أو خفية لمآرب خاصة بهم ، وإذا كثر فى مثل هذه الأمة الذين يسرفون فى الترف أكثر مما ينتجون وازداد فيها عدد المتعلمين الذين يعتمدون على مناصب الدولة ولا عماد لهم غيرها فهى أمة معرضة دائماً للتدهور مهما غرّت ظواهرها .

٢٥ - مظاهر الحزن قد تكون مثل صمامات الأمان ، فالذى يحاول منعها إذا اشتد الحزن قد يكون حاله مثل حال الذى يجعل جروح تدمى فى داخل جسمه بدل أن تدمى على ظاهره وعلى جلده فيعالجها ، وهى إذا دميت فى داخل جسمه سببت التقيح والتسمم فى بدنه وكذلك من يقهر أحاسيسه الشديدة كل القهر ولا ينفس عنها بعض التنفيس بالعمل أو القول أو الكتابة وما شابه ذلك يكون كأنه تسمم بها .

٢٦ - إذا لم تجد النفس منفذاً إلى النجاح والتبريز فى الأمور العظيمة فلا تنتعش إلا بالنجاح والتبريز فى الأمور الصغيرة ، قلما تنتعش وتطمئن إلى السكينة التامة الخالية من أى مظهر من مظاهر النجاح فإنها حينئذ تنطوى على نفسها ويصيبها الملل والحزن إذا لم تجد ما تتلهى به مما يؤدى إلى النجاح والتبريز فى أى أمر من الأمور صغيرها وكبيرها .

٢٧ - أشد الناس أثرة وأنانية لا يتورعون من إحراق مدينة كى يقلوا بيضة أى لا يتورعون من تسبب أشد الضرر من أجل منفعة تافهة ومع ذلك لا يغتر الناس كما يغترون بذوى الأثرة والأنانية لأن مطالب أثرتهم والرغبة فى الفوز بها قد تدعوهم إلى ملاطفة الناس واسترضائهم فيخال ذلك من سلامة طويتهم وطيب أنفسهم ، فيأنس إليهم الناس إلا إذا كان صاحب الأثرة أحق لا يعرف كيف يستدنى مأربها بملاطفة الناس وإظهار غير ما يبطن .

٢٨ - خطرات النفوس الخفية تكون حسب ميول النفس ونزعاتهم أما آراؤهم فحسب ما تعلموا ولكن أعمال الناس حسب العادات التي تعودوا ومن أجل ذلك لا يصح أن يخدع المرء بالناس وأن يخلط بين هذه الأمور الثلاثة كما لا يصح أن يعتمد على طبع واحد من طباع نفس إنسان يعرفه ف؛ في النفوس طباع متناقضة ولا يصح أن يعتمد كل الاعتماد على آرائه وأقواله وأحاديثه إلا إذا صدقتها ووافقتها عاداته وإلا كان عمله ضد رأيه في بعض الأحيان فكثيراً ما تسمع الرجل يفصح عن رأى أو عقيدة ويعطى الموائيق على أن يعمل وفقها ثم لا يفعل ، بل يفعل ما تقتضيه عاداته فكأنما الإنسان آلة مسيرة يديرها لولب العادة كما تدار الآلة في المصنع .

٢٩ - للإنسان مزايا ظاهره تجلب المدح ولا ينال صاحبها غير المدح وقد يكون ممدوحاً خائفاً فكأنه مدح عقيم وللإنسان مزايا أقل ظهوراً : من نالها جلبت له السعادة وأعانه الحظ ، ومثل هذا الإنسان الذى نالها كأنما محركات عقله ونفسه متفقة ومحركات الحفظ كما تتفق عجلات الساعة فى سيرها أو عجلات الآلة . ومثل هذا الرجل قلما يخطئه الناس أو يذمونهم أو يسببون له الخيبة ، ومثل هذا لا يشترط فيه تمام الفهم وكمال الفضل بل قد يكون ناقصه فيهما معيناً له على النجاح ويعكس ذلك تجدد أناساً لا يستطيعون تجنب مؤاخذة الناس ولومهم وانتقادهم مهما أجادوا وأحسنوا فى القول والعمل .

٣٠ - المتعلق الساذج يمدح كل إنسان بكلام يعده لكل من يريد مدحه وهو على وتيرة واحدة والمتعلق الماهر يمدح كل إنسان بما يود ذلك الإنسان أن يمدح به وبما يمدح به نفسه والشرير هو الذى يمدح إنساناً بما يضره ويؤذيه وإذا مدحت من كان فى مثل فضلك أوجبت لنفسك المدح وإذا لم تمدح من هو أكثر منك فضلاً أنكروا الناس فضلك بالقياس .

٣١ - بعض من يود معرفة أسرار الناس يبادرهم بالحديث بالأمر الذى يريده على غفلة منهم واستثناس كمن ينادى إنساناً أخفى وغير اسمه فيناديه باسمه على حين غفلة منه أو يعرض له بما يريد معرفته ويتأمل وجهه خلصة . وقد يصلح رأى هذا الباحث إلا إذا كان جليسه هيوياً فيصدق فيه قول الطغرائى « إن الهيوب مريب » .

٣٢ - ينبغى للقاضى أن يذكر دائماً أن الشرائع والقوانين لم تنشأ كى تكون أحبولة صيد وفخاخاً وشباكاً يصاد بها الناس كيفما كانوا وبأية طريقة .

(١٣)

نظرات جونوثان سويفت^(١)

كان سويفت إنجليزيا ولد في أرنلدة وعاش بها في صباه ثم عاد إليها في أواخر أيامه ومات بها وقد كان فقيراً فأكسبه الفقر غيظاً وشعوراً بالنقص كان يخفيه بالكبرياء عندما ينبغ وعاشر العظماء والوزراء . وقد عاش مدة في إنجلترا أشبه بكاتب للسير وليام تمبل السياسي الإنجليزى وقد استشهد ثاكري في رسالته عنه برسائل سويفت التى تذلل فيها للسير وليام وأظهر أن ضرورة هذا التذلل كانت تحز في نفسه وقلبه وتزيد من شعوره بالنقص . ولكن ماكولى في رسالته عن السير وليام تمبل وصف كيف أن سويفت قد استفاد علماً من مكتبة متبوعه كما استفاد خبرة عملية من معاشرته رجلاً تقلب في مناصب مختلفة واكتسب خبرة بالحياة والناس . وقارن ماکولى بين الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى والكاتب الشهير وبين سويفت فقال إن آراء الأول مكتسبة من الكتب أما آراء سويفت فهى مؤسسة على الخبرة بالحياة . وقد خدم سويفت وزراء حزب المحافظين أولاً بقلمه وكان يأمل أن يُنصَّب أسقفًا فى الكنيسة ولكن الملكة رفضت ذلك لأنه فى بعض كتبه يسخر برجال الدين وطوائف الكنيسة وينتقد حزازاتهم واختلافهم فى أمور تافهة . وأشهر مؤلفات سويفت كتاب أسفار جاليفار يطالعه الصغار لغرابة قصته والكبار لما فيه من نقد لحياة الناس . وقد خولط فى عقله فى أواخر أيامه وقلما سلم منه صديق لحدة طبعه وبالرغم من تلك الحدة أحبته امرأتان وهما اللتان رمز للأولى باسم ستيل والثانية باسم فانيسا . وقد قال ثاكري إن انهيار عقله فى آخر حياته كان مثل انهيار دولة كبيرة . ويقول سير والتر سكوت أن فانيسا ماتت غما بسبب زواجه سرّاً من ستيل ولو أنه من المعروف أن فانيسا ماتت من السل . وقال ناقد أن سخر فولتير كان مثل وخز سلاح المبارزة ، أما وخز سخر سويفت فكان أشبه بوقع فأس القاتل . وقد اتخذ من سخر عبقريته وشدته فى القول وسلطة لسانه سلاحاً فى السياسة لم يسبق له مثيل ، فجعل المقالة السياسية مقالة أدبية مرهوبة لأنه أكسبها رائج الأسلوب كما أكسبها الخيال والأدب والفكر والسخر والشدة ، ولكن شدة سخره كما تظهر فى المقالات السياسية كمقالات دربير التى يقترح فيها على سبيل السخر بخصومه من الوزراء طهى أطفال الأرنلدين وأكلهم

وَيَقْتَنَ فِي وصف طهيهم . كذلك تظهر شدة سخره في وصف ياهو المخلوق القذر في كتاب أسفار جاليفار وقد رمز به إلى الإنسان قوى مواضع أخرى كثيرة ، وقد قارن فولتير بين رابليه الساخر الفرنسي وبين سوفيت فقال إن كليهما ذو بصيرة فطنة ولكن رابليه كان يحب الحياة والناس . أما سوفيت فكان يكره الحياة ويحتقر الناس .

وحب رابليه للحياة سواء أكان حباً للذات الجسم أم كان حباً للذات الفكر ، أمر مشهور تفيض به كتبه . وكان يحارب به الرهينة في المسيحية ونظرها إلى الحياة والفكر . ويمتاز سوفيت بأنك لا تجد حرفاً أو كلمة يصح حذفها في قوله . أما رابليه فقد كان أسلوبه غزير المترادفات وأشباهاها فكأنه في غزارته السيل المتدفق أو النمو النباتي الغزير . وكما أن كليهما قد يعوق السير فكذلك قد يعوق اتمام قراءة رابليه ما به من غزارة الكلام وكثرة الإشارات إلى أمور غامضة كانت معروفة في ذلك العهد البعيد . إلا أن قراءة كتبه تحبيب الحياة وتدعو إلى الأمل وإلى الرغبة فيها أما كتب سوفيت فقد تدعو إلى احتقار النفس البشرية واليأس من الناس . ولكن هذا لا يقلل من رصانة تفكيره كما يتضح في النظرات الآتية التي نوردها مع التعقيب عليها .

١ - قد يكثر الناس من الأعذار والأسباب حتى ينتحلوا الزائفة منها فيضيفونها إلى الوجيهة ظناً منهم أن كثرتها تزيد الراجحة والوجيهة راحة ووجاهة . وهم قلما يفتنون إلى أن زيف الزائفة ينتقص من راحة الراجحة ، ويدعو إلى الشك فيها ، وهذا أمر شائع يضيع الناس به حجتهم ويبطلون حقهم ، وإن كانوا على حق وكذلك الضعيفة من الحجج تضعف ما أضيفت إليه من الحجج القوية ، ويحسبون أن كثرتها تقنع المفكر فيها ، ولكنه إذا فطن إلى ضعف الضعيفة ربما خالجه الشك في غيرها ، وقد يحسب الناس قوة الأخيرة من بلاغة صاحبها أو مكره واحتياله فإذا وثق السامع من بطلان بعض الأسباب أو ضعفها أبى الاقتناع بالسليمة وتحرز من قبولها كل التحرز . وهذا مثل أن يتضح للسامع كذب بعض القول فيشك فيه كله أو يرفضه أو يحكم ببطلان الصدق لجناية الكذب الذي أضيف إليه .

٢ - مهما عظمت المنافع التي استفادها المرء منك فإنه قد يحقد عليك إذا كانت له شهوة ظلم أو حقد أو بغض لإنسان ولم تعنه على ظلم ذلك الإنسان أو على إيذائه أو انتقاصه ولم تساعد على التشفى منه ، فإنه يعدك ممالئاً له وإن لم تكن ممالئاً ويراك خاذلاً لنفسه كأنك خذلت في الخير والعدل . فإن الشهوات لاتنصف ولا تتذكر خيراً استفاد منك صاحبها ولا تأبه

لما يفرضه عليك العدل من الامتناع عن ظلم الناس وإيذائهم . فكأن ما أسديت إليه كان نفعاً زائفاً ، أمراً مدلساً - ويدهش الناس لو فطنوا إلى حد ينقادون إلى مثل هذا الإغراء بالشر والإلحاح في الحث عليه وهم ينقادون إما خوفاً أو طمعاً أو كسلاً أو استهواءً أو شهوة أو جهلاً أو ماشابه ذلك . وبعضهم يحسب الانقياد إلى الشر ضرورة لامناص منها مع هذا الإلحاح وإن كرهها أو ادعى لدى نفسه أنه يكرهها أو كان يهاب عاقبتها ، وربما ينتقاد إليها وهو لا يسوغها فأقنع نفسه بالباطل ، أنه إنما انتقاد إلى ضرورة من ضرورات الحياة التي لامناص منها وربما غالط نفسه وعد انقياده إلى الإلحاح على عمل الشر والأذى من ضرورات الحياة التي لا مخرج منها ولا مناص كي يطلق لنفسه العنان لاشباع نهمتها الفريزية في عمل الشر ولتسترسل فيما هو حبيب إليها منه . والإنسان قلما يتجنى أو يعمل الشر بالإلحاح مفر أو بغير اغراء والإلحاح إلا وهو يعد لنفسه الأعذار كي يستريح إما من تأنيب الناس وإما من وخز الضمير .

٣ - أكثر الناس عندهم من الإيمان والدين القدر الذي يغريهم بكره الناس لمخالفتهم إياهم في أمر من الأمور وليس عندهم القدر الأعظم من الإيمان الذي يغريهم بحب الناس - فتري الناس يضطهد بعضهم بعضاً وقد يكون هذا الاضطهاد خشية عدوى آرائهم وأعمالهم أو قد يدعون أنهم يضطهدونهم لأنهم يحبون لهم الخير ويخشون عليهم الشر أو الأذى . وهذا يذكرنا بقصة « العذاب بالأمل » لمؤلفها فيليب ديه ليل آدم الفرنسي ، وفيها أحد رجال الكنيسة من أعوان محكمة التفتيش يعذب الناس وتكاد تذوب نفسه اشفاقاً عليهم ورحمة لهم إذا لم يعذبهم كي يظهرهم بالعذاب ولم يكتف بالعذاب المادي بل كان يعذب السجين بالأمل ، فيترك له باب سجنه غير موصود كي يطمعه في الهرب ، فإذا أوشك الرجل أن يهرب وينجو من العذاب دلف إليه واعتنقه واحتضنه رحمة له وعاتبه برفق لرغبته في الهرب من التطهير بالعذاب والألم وقلبه يكاد يذوب اشفاقاً عليه من تلك النجاة . وهذا يذكرني قول الشاعر :

فكنت كذباًح العصافير جاهاً وعيناه من وجد عليهن تهمل

وهذه القسوة الموصوفة في القصة قسوة ممزوجة بهستريا الرحمة ولكن أكثر النفوس في قسوتها في الحياة لا تحتاج إلى مزيج من هستريا الرحمة الكاذبة .

٤ - كثيراً ما يخطئ ويخيب ذوى الفكر في أمور الحياة العامة حيث يصيب النجاح من قل عقله وفكره فإن شدة قصور ذوى الفكر وإدراكهم جوانب الأمور واحتمال ما يكون وحدة ذهنهم

فى بحث تفاصيل الأمر صفات قد تدعو إلى الحيرة والإرتباك والتوانى وإلى الشطط عن القصد فى أثناء تلمسهم جوانب الفكر فى الأمر بينما يمضى الرجل الذى لا يفكر كثيراً إلى ما يكلف عمله فيعمله عملاً متقناً ويصل إليه من أسهل الطرق وأقربها وأكثرها ورؤاداً وإنما مثل ذلك مثل المديّة إذا شحذت شحذاً شديداً وأردت أن تقطع بها أطراف أوراق الكتاب ربما حادت وجنحت من حدتها فلا تقطع أوراق الكتاب قطعاً منتظماً بل قد تتلفها بينما لا تحبذ المديّة التى هى أقل منها شحذاً . ولعل سعة الفكر تدعو إلى أن يعد صاحبها من الممكن عملياً ما هو من المحال ، وقد رأينا نابليون بونابرت ينجح فى تنظيم إدارة فرنسا وفى تنظيم معاركه بينما كان خياله وفكره يدعوانه أحياناً إلى طلب المحال ، ولقد عرفت من الشبان الأذكياء من أصابوا نجاحاً كبيراً فى الحياة وكان يتنازعهم العاملان عامل الإرادة الواقعية العملية وعامل الخيال والفكر اللذين كانا يؤديان إلى فشلهم لو استسلموا إليهما كل الاستسلام .

٥ - يلوم الناس الإنسان لأنه لا يعرف حدود قدرته ومقدار عجزه ونقصه ، ولكنهم قلما يعترفون أنه قد يجهل قدرته وكفايته وملكات نفسه وقد يبخسها وينتقص نصيب نفسه منها لأنها تكون كامنة خافية عنه لا تظهرها إلا الأحداث المواتية المناسبة وإنما اختفاؤها عنه كاختفاء منجم الذهب ومعدنه فى بطن الأرض فإنه يخفى على من هم على سطح الأرض . ومثل هذا الإنسان الذى يخفى عنه مقدار ملكاته كأنما يعيش على سطح نفسه كما يعيش الغافلون عن المعدن الذى فى بطن الأرض ممن هم على سطحها - وقد يستنبط هذه الملكات الإيحاء أو الحب أو المنافسة أو الضرورة ، والضرورة التى تستنبط الحيلة والقدرة والملكة فى بعض النفوس إذا صاحبها ما يدعو إلى الارتباك أو كان فى جهاز جسم صاحبها ما يدعو إلى الحيرة أخل بملكاته ولم ينتفع بها كل الانتفاع كالذى لا تظهر كنوز نفسه إلا إذا ابتعد عن الضوضاء . فإن ضوضاء الحياة قد تشردها كما يشرد لب المرء وكما تشرد أفكاره إذا سمع جلبة وأصواتاً صاخبة ولكن بعض الناس لا تظهر كل قدرته وملكاته وكنوز نفسه إلا إذا خاض غمار الحياة وعالج الناس وعشرتهم واحتكت نفسه بالنفوس كما يحتك حجر الصوان بالصوان . قد يفاجأ المرء ببيروز ملكاته وقدرته كما يفاجأ غيره مباغتة ، وقد كان لا يظن أن عنده تلك القدرة كما كان الناس لا يرونها فى نفسه وبغيات النفوس متنوعة .

٦ - دعانا بعض الفلاسفة إلى نيزد أكثر رغباتنا حتى إذا بلغت أقل حد مستطاع أمكننا أن نحصل عليها من غير مشقة كبيرة ومن غير أن نشقى فى الحياة . وهذه الدعوة مثل دعوة

من هو فى حاجة إلى النعل أن يقطع رجليه قد يستغنى عن النعل فلا يشقى بطلبه ولكن ما تقدم إلا بالطلب كما لا يتقدم من هو فى حاجة إلى النعل إلا بقدميه . ومن قديم الزمن ما شحذ ذهن الإنسان وغما عقله ومرن بدنه إلا لأنه خالف هذه الدعوة إلى انتقاص الرغبات والحاجات واستئن لنفسه سنّة الإقبال على طلب الدنيا .

٧ - لو أن إنساناً كتب جميع آرائه فى أمور الحياة المختلفة منذ صغره إلى أن صار شيخاً لوجد اختلافاً وتناقضاً كبيراً فى آرائه فى كل أمر من الأمور فى مراحل العمر المختلفة ، ومع ذلك فإن الناس كثيراً ما يلومون المرء لأنه غير وبدل فى آرائه وهم لا يفتنون إلى أنهم يغيرون ثيابهم وأزياءهم ومطالبهم . ولو أن إنساناً لم يتغير رأيه فى الأمور من عهد طفولته إلى مماته لدل ذلك على أن عقله لم يكبر وأنه أشبه بالحفريات المتحجرة وإن كانت هذه يصيبها التغير أيضاً - ولعل السبب فى ذلك أن الناس يخلطون بين تغير النفاق الذى سببه الأهواء وتغير النمو ، وهم يميلون إلى سوء الظن فينسبون كل تغير إلى النفاق الذى يجعل المرء شبيهاً بالآلة التى توضع فى مهب الرياح فتعرف بها الجهة التى تهب منها . فتغير الرأى قد يكون تهدياً إلى الصواب وغمراً فى العقل وقد يكون طيشاً وعبثاً فيمن لا رأى له . قد يكون مكرراً واحتيالا للكسب . وبالرغم من أن الناس يلومون من غير رأيه فإنهم إذا وجدوا أرباً أو نيلاً منه أو قدحاً فيه تناسوا رأيه الجديد وألزموه رأيه القديم وهو يتبرأ منه .

٨ - عرفت أناساً كانوا ذوى مواهب كبيرة نفعت غيرهم ولم تفدهم فهم كساعة الظل التى كان الناس يضعونها أمام بيوتهم فينتفع بها المارة ويعرفون بها مرور الزمن ولا ينتفع بها أهل البيوت الذين نصبوها . وتلك المواهب النفيسة قد لا تنفع أهلها فحسب ، بل قد تضرهم ، فإن الفائدة المرجوة للمرء فى الحياة لا تكون على قدر مواهبه وإنما تكون على قدر ما يستطيع الاحتيال له من المكاسب والمزايا . فإذا لم تسعفها تلك المواهب على ذلك الاحتيال أخطأت تلك المزايا ولو أن نفوساً أخرى غير نفس ذلك الإنسان لم تتل ما تريد مما يعدل مواهبها ويناسبها ويوازىها ما بالت نفسه ، وقلما تسخطت أو حاولت عبثاً أن تغير سنة الحياة إلا فى حالتها .

٩ - رغبة بعض المفكرين فى إبطال مطامح الناس التافهة ورغباتهم التى لا قيمة لها فى ذاتها ، وإنما تكتسب قيمتها من تكالب الناس وتهالكهم عليها ، خطة تدل على نقص فى الحكمة والخبرة بأمور الحياة ؛ إذ أن كثيراً من أمثال تلك المطامح إذا جعلت جزءاً للعامل

ومكافأة للمُجدِّ ، ترغبه فى الكدح والعمل وفى ارتياد سبل الفضائل والفضل . أما أن يقال إن الفضائل ينبغي أن تطلب لمحببتها والرغبة فيها لا لجزءٍ عليها فنظرة حسنة ، ولكن طباع الناس فى الحياة تخالفها وتتطلب جزاء عليها ، ولا مناص مما تتطلبه الحياة ، فالشهرة والرتب والأوسمة وما شابهها أمور لا قيمة لها فى نفسها ، ولكن قيمتها فيما يؤدي إليه من العمل والجد . ولقد ترى الرجل الفقير الجاهل يكدح طول حياته ويتخلق بخصال الحمد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ؛ كى ينال رثاءً حسنًا إذا مات ، وكى يكتب بعضه على قبره - وهذا يذكرنا كلمة ل نابليون بونابرت فى هذا المعنى وفى فائدة الرتب والأوسمة عندما ليم على إحيائها بعد أن محتها الثورة الفرنسية . ولكن سوفيت بالرغم من فطنته إلى أنها وأمثالها مدعاة إلى العمل ومن محركات الحياة فإنه يسخر بالمتهاكين عليها فى كتاب أسفار جاليفار . إذ اتخذوا الائتمار والكيد والتملق وسائل إليها وأمعنوا فى عمل الشر بسببها .

١٠ - بالرغم من أنه لم يكن بين الناس من استطاع أن يجعل آراء الناس ذات طول وعرض ونظام ومقصد واحد فإن كل مفكر يود أن يحمل الناس على اعتناق آرائه أو يأمل كما أمل أبيقور أن يصير الناس يومًا إلى زمن مقبل تتشابه فيه الآراء والأنظمة بعد أن يُشذَّب بعضها بعضًا كما يشذَّب الحصا باحتكاكه ، فتتحول الحصوة الثقيلة والخفيفة والمستديرة والمستطيلة إلى شكل واحد ووزن واحد أو كما أمل كارتيزيوس أن تجذب فلسفته الآراء الفلسفية المتناقضة إليها فتدور حولها كما تجذب الكواكب غيرها من الكواكب . ومن هذا السبب نشأ اضطهاد الفكر للفكر . فلو تقصينا التاريخ لوجدنا كل طائفة تدعو إلى حرية الفكر مادامت تضطهدا غيرها ، فإذا تخلصت من الاضطهاد وصارت لها السيطرة حاولت أن تقيد أفكار غيرها ؛ ومن أجل ذلك كانت محاولات تحرير الفكر مصحوبة بالرغبة فى تقييده أو يعقبها اضطهاد من نوع آخر - وقد تتبع « فان لون » فى كتابه (تحرير الإنسانية) خطوات هذا الاضطهاد من عهد الكهوف إلى عهد الجيلوتين . ولو كان الفكر غير باعث على العمل ربما استطاعت الفئة الغالبة إهماله . وما صنعه « فان لون » صنعه فى صيغة أخرى برتران ده جوفنيل فى كتاب (القوة) وقد قال جوفنيل : إن كل من يستبد بالقوة إنما يفعل ذلك بدعوى أنه ينوب عن الشعب والواقع كما أوضح أن فى استسلام الشعب ما قد يسوغ هذا القول إنما كان ينذر الشعوب من عواقب المستقبل . ومن الغريب أن جوفنيل - وكان مندوب فرنسا فى سوريا - يقول فى القوة قولاً قاله قبله شيلى الشاعر الإنجليزى فى صيغة أخرى فقد قال فى بعض قصائده « إن القوة كالوباء الذى يتفشى فيصيب كل ما يقربه والخنوع لها عدو

للذكاء والفضيلة والحرية والحق ويحيل الناس أرقاء ويجعل أجسامهم آلات مسيرة « ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يكون في غنى عن القوة أو أن يقيد بها ؟؟ .

فالثورة الفرنسية التي كانت ثورة على القوة وأعطت في أول الأمر كل مدينة أو إقليم حق انتخاب حكامه كلهم ، حتى ضعفت سلطة الوزراء فضعفت الدولة بسبب ذلك ، ما لبثت أن صارت في عهد مجلس أو لجنة السلامة مركزية شبه توتاليتارية . وبالرغم من أن جان جاك روسو في كتابه (العقد الاجتماعي) كان بشير الحريات الفردية فإن به نزعات توتاليتارية تظهر في أمور كثيرة منها تقديس الدولة والقول بانعدام حق كل إرادة في الإرادة العامة . ومنها إباحة حكم الحاكم الدكتاتوري الفرد الذي ينوب عن الديمقراطية في بعض الأحيان . ومنها القول بنفى أو قهر من له إرادة لم تنعدم في الإرادة العامة . ولما كانت الإرادة العامة كالديمقراطية أمراً تقريبياً فهي إرادة الكثرة أو ما يسمى الكثرة ، وإن كانت كثرة ظاهرية . وبعض البعقوبيين الديمقراطيين قالوا - عندما كانوا قلة - أنهم كثرة لأنهم يمثلون مرافق الشعب الحقيقية وإرادة أجيال الشعب في العصور الطويلة المقبلة عندما يتعلم كل أحاده أن يعدم إرادته في الإرادة العامة . فالعالم لاتزال تتنازع فيه القوة الطوائف والأحزاب المختلفة وكل يريد أن يسود رأيه وأن يقهر رأى غيره . ومن الطريف أن نابليون بونابرت وقف يوماً على قبر جان جاك روسو وقال - وقد كان في صفه يردد آراءه - لقد كان من الصالح العام لو أن هذا الرجل لم يولد فقال له جيراردين أن آراءه أفسحت لك الطريق يعنى بأثرها في الثورة الفرنسية فقال نابليون : ربما كان من الصالح العام لو أنا كلبنا لم نولد .

١١ - ربما خيل لنا أن الكلام المواتى الكثير من المحدث أو الخطيب دليل على غزارة مادته من اللغة والرأى وهو كثيراً مايكون دليلاً على أن مادته محدودة فيستطيع اختيار ما يختار من الكلام من غير مشقة . فإذا غزرت مادة الإنسان من لغة أو علم أو رأى قد يطول ترده قبل الكلام - ولعل في هذا بعض العزاء لذوى العى إذ غاية ماتصل إليه غزارة المادة أن يكون المرء أشبه بالعمى في ترده قبل الكلام من وفرة المادة كما قال الشاعر :

تكاثر الطباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد

وكثرة الكلام مع قلة المادة أمر معروف . ولعل أفكك مثل لهذه الشرثرة وإن كانت ثثرة كسبت من بلاغة الأديب مؤلفها كتاب (محاضرات الكلة) أو الناموسية والسرير وهي محاضرات تعظ فيها مسز كودل زوجها وتؤنبه بعد ذهابهما إلى الفراش وهي من تأليف

دوجلاس جبرولد . وقلة المادة لا تعوق تأثير الكلام الكثير فى السامع فإن الكلام يؤثر بترداده كما هو مشاهد فى السياسة وفى غيرها من مظاهر الحياة المختلفة . بل لعل قلة المادة تدعو إلى أن يفضلته كثير من الناس لقلة العنت فى فهم مادته القليلة .

١٢ - قد يتحدث الرجل صاحب الفطنة والذكاء فيخالط بعض كلامه شئ من الفكاهة العامة البريئة فيحسبها السامع انتقاصاً له وهى ليست انتقاصاً وإنما يفعل ذلك إذ يقول فى نفسه أن هذا الرجل المفكر لابد أن يكون وراء كلامه معنى مستتراً غير ظاهر معناه - ومثل هذا الشك غير مقصور على المحدث الفطن أو من كان من أهل الفكر من الناس وإن كان يساء الظن بهم أكثر من غيرهم . فإن السامع إذا صادف كلام القائل صفة يخشى أن يظنها الناس فى نفسه عد كلامه تعريضاً به ، وربما تسرع بالإساءة إلى قائلها ومن أجل ذلك يفرض على مؤلفى القصص أن يقولوا أنهم لا يعنون أحداً بأناس قصصهم وأنهم من صنع الخيال . والواقع هو أن صاحب الفن يستمد من الأمور المشاهدة العامة مادة لفنه فيجعلها فناً عاماً ولكن الناس كثيراً ما يحيلون الفن العام إلى شخصيات معينة وذلك فى قول المفكر أو القصصى أو الشاعر . وأكثر هذه الاحالة ترجع إلى العقد النفسية وإحساس الناس بصدق قول فرويد فى كتاب « العلل النفسية » أن كل نفس انسانية تجمع فى وعيها الباطن ونزعاته وصفاته الكامنة كل ما هو إنسانى فى جميع النفوس بل كل ما هو حيوانى فى الحيوانات كلها فيجعلون كل ما فى الرعى حقيقة كائنة فى الحياة متى أرادوا . وانتقالهم بالفن أو الفكر من التعميم إلى التخصيص يكون بالرغم من ميل الناس إذا كان لهم أرب أو شهوة إلى التعميم فى أحكامهم المخطئة . كتعميمهم فى الحكم على الأمم أو الأحزاب أو الطوائف الكبيرة .

١٣ - فى أثناء طلب أمر من الأمور ومحاولة نيله والسعى والعمل له يفكر المرء فى محاسنه وأطاييه ومسراته وفضائله ، فإذا ناله بدأ يفكر فى أوجه النقص فيه وفيما قد يكون فيه من المساوى والعيوب ؛ وإنما ركبت النفس على هذا الوجه وجبلت على هذا الطبع كى تستأنف مطالب الحياة وكى تطمع فى المزيد من محاسن الأمور فتعمل وتكد ، وربما بخست الأمر الذى نالته كى تستطيع تحقيق هذه السنة الحيوية التى هى قوام الحياة .

١٤ - إذا هاج البحر ورأى أهل سفينة أن تُخَفَّفَ أحمالها وأثقالها كى تنجو وينجوا من الغرق بأن يقدفوا بعض أحمالها فى البحر ، ربما حاول كل منهم أن يخفى متاعه ويعظ غيره كى يلقى متاعه فى البحر وهذا مثل الذين يفضلون نفع أنفسهم على نفع الجماعة ونجاتها ،

فتضيق أنفسهم وتضيق الجماعة التي هم منها وهذا التواكل يكثر عادة في الأمم التي فقد أحادها الثقة بعدل حكومات بائدة وحكومة كائنة .

١٥ - إذا أراد الإنسان أن يتسلق ويعلو فلا بد أن يتسلق كما تفعل القردة على قدميه ورجليه . والطمع في مناصب الجاه والسلطة قد يتطلب من المرء ما هو شبيه بالزحف على اليدين والرجلين ويعنى التقرب بوسائل التملق والخنوع ومعاونة من يرجى نفعه على شهوات غضبه أو حسده أو محاباته إلى آخر هذه الأمور فقد شبهها بالزحف على القدمين واليدين أو بالتسلق بهما كما تفعل القردة .

١٦ - السبب في خيبة كثير من الأزواج أن نساءهم بدل أن يتخذن من الزواج أقفاصاً لأزواجهن كأقفاص العصافير المدللة البيئية التي تزين أقفاصها كي تأنس إليها ، يتخذن من الزواج ما يراه الرجال أشبه بالفخاخ والشباك التي تصاد بها الحيوانات .

١٧ - كثيراً ما يذكر أهل التعاسة حكم الدهر ومشية الأقدار الغالبة النافذة . أما السعداء فقلما يذكرون هذه الأمور ولا سيما الذين يثقون أن الجاه والثروة والسعادة لمن تزول عنهم إذ أن هؤلاء ينسون حتى أثر الأقدار في توزيع الصحة والمرض والذكاء والغباوة والأحوال المساعدة للنجاح . وهذا يذكرنا قصة رجل أصاب غنيمة من مال كثير اختلسه من غير تعب ، فكان إذا طلب منه إنسان صدقة يقف ويلقى عليه محاضرة في فوائد الاجتهاد والجهد في العمل ويقول له لو كنت اجتهدت لصرت مثلي .

١٨ - كثيراً ما يعلل المرء نفسه بأن العصور المقبلة ستقبل على ما انصرف عنه أهل عصره وستشغل بما كان أهل دهره عنه في شغل . فينصفون عمله أو قوله كما أراد وينسى أن أهل العصور المقبلة تستجد لهم فيها أقوال وأمرهم بها في شغل . وهذا الوهم هو ما يزيد إقبال الناس على العمل والفكر والتضحية وإن كان قلما يتحقق ، ولكنه من سنة الحياة التي تزيد ثمرة أعمال الناس حتى بالوهم .

نظرات جورج إليوت سوفيت^(١)

جورج إليوت هو الاسم الذي اشتهرت به ماري ايفانز الكاتبة الإنجليزية الشهيرة . وقد اشتهر من الكاتبات الأوروبيات كثيرات وربما كانت لبعضهن شهرة عالمية أكثر من شهرتها ، ولكن الفحص والتمحيص يدل على أنها من غير شك أعظم بصيرة وأغزر فكراً وأرجح رأياً وأعظم خيالاً من مدام ده سافيني ، أو مدام ده ستايل ، أو جورج ساند . أو جين أوستن أو غيرهن . ويمكن تقسيم مؤلفاتها الهامة إلى أربعة أقسام : القسم الأول يشمل القصص التي تشرح فيها صفات نفوس من حولها من الناس ، وهذه الكتب مثل أموس بارتون وأدام بيد وسيلاس مارنر وغيرها هي أكثر رواجاً بين القراء الإنجليز لأن موضوع كل منها أقرب إلى أذهانهم ولأنها أسهل أسلوباً . والقسم الثاني من مؤلفاتها يشمل قصة رومولا التاريخية التي تصف فيها عهد إحياء العلوم في إيطاليا بمحامده ومكارهه ، والقصة التاريخية أشق وأصعب في تأليفها لأنها تحتاج إلى دراسة ذلك العهد ونقد ما يذكر عنه وتصوره ببصيرة نافذة . وقصة (رومولا) من القصص التاريخية الكبيرة التي يصح أن تحتل مكاناً ما بين أزموند لثاكري ، وسان انطوان وسلامبو لفلويسر وتاييس ، والآلهة ظمأى لاتاتول فرانس وبعض القصص التاريخية الشهيرة الأخرى . والقسم الثالث من مؤلفاتها قصة مدلارش وقصة دانيال ديرواندا وهي لاتقل فيهما بصيرة ولكنها تبعد عن النفوس المألوفة حولها التي وصفتها في القسم الأول ، كما أن عادة الاسترسال في الفكر تغلب عليها ويغلب عليها الأسلوب الفكري . والقسم الرابع من مؤلفاتها رسائل ثيوفراست دعتها باسم فيلسوف أغريقي قديم وهي وصف لخصائص أخلاق الناس على نمط لابرويير . وهذه الكاتبة - فضلاً عن أنها درست ثقافات الأمم المختلفة كما يتضح من قراءة مؤلفاتها - فإنها وارثة بصيرة شكسبير وهنري فيلدنج القصصى الإنجليزي على اختلاف ما بينها وبينهما . وكثيراً ما تذكرنا مقدمات فصول توم جونز لهنري فيلدنج - وهي على شكل رسائل وبحوث في النفوس بآثار هذه الكاتبة ويصح جمع كلمات عديدة من مؤلفاتها لاتقل عن كلمات عظماء المفكرين من الرجال كما يتضح من نظراتها الآتية :

١ - إذا أساء إلينا إنسان ثم خاب فى أمر لاصلة له بإساءته أو خاب فى أمور حياته عامة أحسنا كأن خيبته فى أمور حياته بسبب إساءته إلينا . كأن نظام الحياة لا يستقيم مادام قد أساء إلينا إلا بخيبته ، وكأن تلك الخيبة نتيجة طبيعية للأساءة إلينا . وهذا الاحساس يشتد أعظم ما يشتد فى نفوس ذوى الأثرة والجهل . ولعل سببه أن المساء إليه من غيظه يريد الانتقام فيتخيل أنه قد أصابت المسئ مصيبة فإذا حلت به مصيبة سهل عليه أن يحس أنها نتيجة إساءته إليه . وكل إنسان كما قال أناطول فرانس يحس كأنه قطب الدنيا ومحور العالم وكل من يسئ إليه إذا يكون كأنه خارج على نظام العالم فلا غرو إذا خاب وفشل !! .

٢ - قد يكون الإنسان فظاً قاسياً فى نقد الناس وأعمالهم ، ومع ذلك قد يكون رقيق الحاشية والطبع مع أسرته . وبعض الكتّاب كان بيده اليمنى يصول بقلم يقطر سماً وهلاكاً فى نقد إنسان آخر ، ويده اليسرى يهز أرجوحة طفله الصغير بحنان ورفق ... وهذا يذكرنا هيبير مندوب المجلس البلدى بباريس أيام حكم الإرهاب . وهذا الفارق يعظم أيام الاضطراب والثورات . وقد وصف الدكتور كابانيه فى كتابه لنفروس رفلويسنير كيف أن الإنسان الرقيق الطبع الوديع الأخلاق قد ينقلب ويصير وحشاً ضارياً إذا كان فى جماعة تحبذ أقواله وأعماله القاسية . وفى هذا مصداق النظرة التالية لجورج أليوت وهى :

٣ - عندما نخدع الناس أو نسئ إليهم ونحن وحدنا قد نتردد ونتحرج من بعض أساليب الخداع أو الشر ونأنف منها ونخشى اللوم ولا نريدها إلا للضرورة القاهرة فإذا اجتمعنا والناس واتفقنا معهم فى تلك الأساليب ووجدنا منهم تحبيذاً لها تسلطت أساليب الخداع أو المكر أو الشر والإجرام علينا ، ولم نشعر بصعوبة فى ارتيادها مادام الناس معنا . وهذا ما وصفه وضرب له الأمثال الدكتور كابانيه فى كتابه عن الاضطراب الثورى وأثره فى النفس والجسم .

٤ - إن الإنسان قد تكون نظرياته ومبادئه مخطئة ولكن إحساساته وأعماله نبيلة كما يصدق العكس فقد تكون نظريات المرء ومبادئه وعقائده سامية نبيلة بينما تكون أعماله بالضد من ذلك . ومن أجل هذا الخلاف ينصح النقاد للمؤرخ أن يميز بين مبادئ رجال التاريخ وبين أعمالهم . وهذه نصيحة واجبة لكل إنسان فى الحياة اليومية أيضاً ، إذ كثيراً ما يخطئ فيظن أن مبادئ المرء وإحساساته وأعماله كلها من طراز واحد وهى أصناف مختلفة .

٥ - إن ذوى النقص والعاهات فى حاجة إلى فضائل ومزايا تزينهم ، لأنهم يشعرون بقلق إذا لم تكن لهم إلا عاهاتهم ، أو كان لهم نقصهم وحده . ولكن الفكرة التى تجعل الفضائل أو

الفضل بدلا لهم ووقاية كما تقى الطبيعة الحيوانات فى الشتاء البارد بفرو كثيف - فكرة مبالغ فيها مبالغة كثيرة ، إذ كم من أناس من ذوى النقص أو العاهات لافضل لهم ولا فضيلة إلا أن يكون الفضل ومزايا النبوغ كامنة فى النفس تظهرها الحوادث سواء أكانت عاهات أم لم يكن نقص - فمن الذى يستطيع أن يقطع بأن ذكاء زياد بن أبيه وفصاحته وقدرته فى تصريف الأمور كلها كانت بسبب مطعن أو مغمز فى نسبه ولم تكن هبات طبيعية فى نفسه . ومن أجل ذلك يخطئ بعض العامة خطأ أولياً فى علم المنطق فيقبلون هذه الفكرة ويجعلون الفضل على عاهة أو نقص . وهذا يذكرنا بعض الشواهد التى تصف هذا الخطأ فى علم المنطق كمن يقول مثلاً كل القططة حيوانات . فإذا كل الحيوانات قططة وقلب الفكرة لا يجوز فى علم المنطق .

٦ - من الغريب أن الناس كثيراً ما يتعجبون لحدث شئ هم الذين عملوا لإحداثه ، كما يتعجبون إذا لم يحدث أمر لم يصنعوا شيئاً لإحداثه ، كالآباء الذين يتعجبون من جهل أبنائهم وقلة تربيتهم ، وهم السبب إذ لم يحزموا أمرهم لتربيتهم ، والأزواج يتعجبون لفقدانهم المحبة وانقطاع أواصرها بين الزوج وزوجه ولم يعملوا لتهيئة سبيل بقائها ، والجيران يتعجبون من نفور جيرانهم منهم ولم يعقدوا أواصر المودة معهم .

٧ - ما أشد اعتماد الناس على ما قد يأتى عفواً ، فإذا عمل المرء عملاً يحط من كرامته تعلق باحتمال عدم ظهوره ، وإذا أسرف تشبث باحتمال الكسب من وجه آخر غير منظور ولا محتمل ، وإذا أساء تنظيم عمله تمسك باحتمال أن أساءته تنظيم عمله ليست هامة لتجاحه فيه ، وإذا خان صديقه اعتمد على أن الصديق قد لا يعرف خيانتة له وعاقبة ما نزرع من بذور تلك الأوهام الباطلة فى الاعتماد على الأمر المرغوب فيه الذى هو غير محتمل الحدوث إنما تنتج محصولاً باطلاً ومحالاً من نوعها . وليس الجهلاء وحدهم هم الذين يتشبثون بالمحال المرغوب فيه فقد قال مارمونت وغيره أن نابليون بونابرت فى أواخر أيام مجده كان مهماً صححت له الحقائق يعود إلى ما حسبها قبل تصحيحها .

٨ - ما أشد إلحاح الرغبات الإنسانية فإذا تملكك النفس رغبة لا يغنيه أن تقدم له ما هو عوض عنها من أمر آخر ولو كان مثلها أو خيراً منها . وهذا مشاهد فى تشبث الأطفال بالأمر المرغوب فيه كما هو مشاهد فى تشبث الكبار .

٩ - الشعور بالأمن يكون ناشئاً من العادة أكثر مما يكون ناشئاً من الأدلة والاعتقاد . ومن أجل ذلك كثيراً ما يوجد الشعور بالأمن إذا اعتاده الإنسان حتى بعد زوال الأحوال التى

جعلته عادة وصيرت الإنسان يسكن إليه ويطمئن ، فإن منطق العادة يغلب على ذهنه ، ويرى أن الخطر محال حدوثه مع أن مرور الزمن قد يكون السبب فى حدوثه . ومثل ذلك مثل الرجل الذى يكون سقف بيته آيلاً إلى السقوط فإذا لم يسقط وتعود الأمان حرمة تلك العادة من أن يرى فى مرور الزمن ماهو كفيل بإيهانه وإضعافه وسقوطه . وقس على ذلك كل أمور الحياة .

١٠ - إنها قاعدة عامة وهى أنه لا بد للنفس من أمر خفى غير موثوق به كى يُغذّى أملها وشكها وعملها فلو انكشفت لنا أمور المستقبل لما علقت النفس بها ولأسرعت بأملها وعملها وشكها وشعورها إلى غير المستقبل المشكوف المعروف ... وهذا الرأى أصح حجة من تعجب كعب بن زهير من سعى الإنسان وعمله مع أن القدر مخبوء عنه . وذلك فى قوله :

لو كنت أعجب من شئ لأعجبني سَعْيُ الفتى وهو مخبوء له القَدَرُ

١١ - إذا تحمل أحد الناس غضبنا بسكوت وطيبة قلب وعطف ، فإننا إذا سكن غضبنا قد نشك بسبب مسلكه معنا وهدوئه فى مداراة غضبنا فى أننا كنا على حق ، وتشك فى أن معاملتنا له كانت معاملة لائقة ويزداد هذا الشك والأسف إذا مات من تحمل غضبنا بسكوت وطيبة قلب وذهب ، إلى عالم الصمت الأكبر .

١٢ - قال بوليسس فى قصة سوفوكليس : دعنا مرة واحدة نرتاد سبيل المكر والكذب والاحتتيال والشر ... الخ . ثم نعود بعدها دائماً أبداً إلى سبيل الصدق والشرف فى العمل والفكر والوسيلة . وهذا كثيراً ماتقوله النفس فى باطن نفسها استدراجاً لها ومخادعة ، فتستمر فى الكذب المكر والشر أكثر حياتها بعد أن كانت توهم نفسها أنها مرة واحدة صغيرة ثم بعدها مرة أخرى صغيرة ... الخ .

١٣ - كل عمل مذموم يستدرج صانعه إلى أعمال وأقوال عديدة مذمومة كى يزكيه ويسوغه ، وكى يزكى ويسوّغ الأعمال المذمومة التى يزكيه بها . وتستمر تلك العدوى فى نزعات النفس ورغباتها فإذا أثم المرء لم ينته إثمه بعمله ، ولا تنقطع سلسلة آثامه ، إلا إذا اعترف بخطأه أو أثمه ، فلا يحتاج إذاً إلى شرور كى يزكيه . وإذا ظلم إنساناً لا يقنع حتى يزكيه بظلم آخر . وهذا يذكرنى ما صنعه أحد الكرادلة الذى نقم على رجل نقده فاتهمه بالكفر بالمسيحية فى عهد كان جزاء من يتوب ويقبله وكان الرجل موثقاً فنفر من ألم حرارة انصهار الصليب من الحديد وقدمه إليه كى يتوب ويقبله وكان الرجل موثقاً فنفر من ألم حرارة انصهار الصليب

وزوى وجهه عنه وإنما فعل عدوه ذلك كى يقال إنه نفر من الصليب لكفره بالمسيحية ، إذ كان الناس لا يعرفون أنه وضع الصليب الحديدى فى النار . وهكذا زكى هذا الكردنال إثمه الأول بإثم ثان - على أن تزكية العمل المذموم أو القول المذموم بعمل أو قول آخر مذموم أمر مألوف كثير الحدوث فى الحياة اليومية .

١٤ - كثيراً ما نخدع أنفسنا حتى نصدق أن أثرتها فى معاملة الناس قد تكون أقل قسوة وأكثر إنصافاً وأبر بهم وأعدل لو أننا عرفنا حقيقة حالتهم ولكن إثارتنا الرفق لا يقوى إلا بعد فوز أثرتنا ونيل أنفسنا ما تريد لا قبل الفوز به . وقد تعرف النفس حالة من تعاملهم ، ولكنها تتناساها حتى تنساها . وتتجاهلها ، حتى تجهلها مغالطة من النفس للنفس ، كى تدعى أنها كانت تكون أرفق وأبر وأعدل ، على أنه بالرغم من هذه المغالطة فإن الفوز قد يزيدها أثرة وعنفاً وقسوة وظلماً .

١٥ - بعض الأخيلة التى نخدع بها إنما نخدع بها ونحن نشعر بذلك الخداع واللذة فيه كاللذة التى نجدها فى رؤية مجموعات الألوان التى تصنع من قطع الزجاج الملون فتتخذ أشكالاً بديعة فى الفانوس السحرى . وكما أن الطفل يلذ له أن يلعب لعبة أساسها خداع النفس بالأمور وحقاً عثقتها حتى يصير لعبه جداً ، كذلك العاشق يلذ له أن يخدع نفسه وهو يعرف أنه يخدعها . وهذا يذكرنا قول أبى نواس :

صار جداً ما مزحتُ به رب جَد ساقه اللعب

١٦ - لعل السبب فى أننا كثيراً ما نخيب فى أن نعزى معاشرينا فى مصاب أصابهم ونسليهم عنه أنهم يشعرون ونحن نعزيمهم بحبنا لأنفسنا ، وأتينا إنما نفكر فى كل ما يهمنى من مطالب أثرتنا وهذا لا يمنع أن تكون ممزوجة بشئ من العطف على الناس فى مصابهم وإن كانت هى الغالبة . وبالرغم من أن كل إنسان يعرف ذلك فى نفسه ، فإنه إذا أصابه خطب أو مصاب أمل أكثر من ذلك من غيره وتوقع مشاركة أعظم منه فى مصابه أو خطبه .

١٧ - الحياة اليومية هى محاولة كل إنسان أن يخفى نفسه عن معاشريه وراء كلمات وأعمال مزيفة ، وهؤلاء المعاشرون أشد بعداً عن المرء من نفسه وخواطرها وما بها من شرور لا تنطق بها ، ولا تبين عنها ، وقد لا تعملها ، ومن خير كثير قد لا تصنعه . وكثيراً ما نفكر فى عمل آثام لا نستطيع أن نعملها كما نفكر فى صنع أعمال من أعمال الخير أو اللباقة والمهارة

لا نستطيع عملها ، فخواطرنا قد تكون أسوأ أو أفضل منا . وقد علل سمرست موام القصصى اتهام الأتقاء الأبرار الأخيار أنفسهم أو توقعهم العقوبة فى الآخرة بخواطر السوء التى تتردد فى النفس ولا تصنع صنعاً ، كما أن بعض الناس قد يمدح نفسه بسبب خواطر الخير التى تتردد فى نفسه ولا يعمل شيئاً لتحقيقها .

١٨ - كما أن الشاب المملوء صحة وحياة ونشاطاً يصعب عليه أن يدرك الموت كل الإدراك، وأن يحس وطأته مهما رأى من مظاهره . كذلك يصعب عليه أن يدرك الشقاء الكارث وأن يحس وطأته . وهو يؤمن فى سريرة نفسه أن المقادير لا بد أن تنجى شبابه وصحته ونشاطه وحياته منه حتى ولو كان ذلك آخر لحظة قبل أن يكرثه . ولعل هذا الاحساس هو سبب استهتار الشباب أو شجاعة واستهانتهم بمعضلات الحياة .

١٩ - مما يساعدنا على أن نعمل فى الحياة عملاً قليلاً طيباً أننا لا نعرف ما فى سرائر أصدقائنا ومعاشرينا عنا مما يشبطننا ، ليس فى الحياة مرآة نعرفنا حقيقة أنفسنا فنطمئن . وهذا الاطمئنان يجعلنا نظن أننا نعمل عملاً كبيراً عظيماً ، فنستطيع بذلك أن نعمل ولو عملاً صغيراً طيباً . وكما أن الطفل الصغير الذى لم يتعود نظره الصغير بعد قياس المسافات ، كثيراً ما يصطدم بالأشياء ، كذلك الإنسان الذى لم يختبر أمور الحياة بفطنة يحسب أن مكانته فى الحياة مكانة كبيرة وهى صغيرة جداً ويصطدم بالعراقيل كما يصطدم الطفل الصغير بالأشياء إذ لم يتعود بعد قياس المسافات بنظره .

٢٠ - كثيراً ما يسوغ المرء أموراً غير سائغة ولا جائزة بتغيير أسمائها ، فيسمى اضطهاده الناس مقاومة ، أو الحرق والهوج إصلاحاً وتجديداً . وقس على ذلك جميع أمور الحياة التى لا تسوغ ، فبتغيير أسماء الأمور يستطيع المرء أن يعمل ما هو حبيب إلى نفسه وإن كان شراً مكروهاً .

٢١ - ليتذكر المرء إذا أقدم على عمل أن الحياة كعملية حسابية لا يستطيع عملها مرة ثانية لتصحيحها وتلافى أغلاطها ، كما لا يستطيع تصحيح عمل الطرح بأن يعمل عمل الجمع فى الحساب صحيحاً .

٢٢ - أن الناس قد يرحمون الميت وقد يزكونه . وطلما كانوا يرون من الواجب المفروض ، سحق قلبه ، مادام ينبض وقهر عقله مادام يفكر ، فإذا سكنا سكون الموت فلا بأس من الإحسان إليه بكلمات مزيفة وإحساس بالرفق مصطنع .

٢٣ - إن تخدير النفس بتجاهل الحقائق حتى تجهلها ، حالة نفسية تختلف كل الاختلاف عن حالة السكينة والاطمئنان مع معرفة الحقائق معرفة تامة . ولكننا كثيراً ما نخلط بين الحالين .

٢٤ - أول ما يصيب المرء الخطب أو الضيق قد تستفزّه الإصابة المفاجئة فتكسبه قوة مؤقتة لا تزول حتى يصير الحزن والخطب عادة ونيراً .

٢٥ - بعض الناس لا يستطيعون تحمل حتى القليل من الإهانة إلا إذا استطاعوا أن يغمضوا أعينهم عنها ، أو أن يتمكنوا من الامتناع عن تصديقها ومعرفتها والإقرار بها والفتنة إليها ومغالطة أنفسهم فيها . فإذا لم يستطيعوا إلا مواجهتها ومعرفتها كانت حياتهم عبثاً ثقيلاً لا يقدرون على حمله مع أن كل إنسان لا يخلو من أمثاله في الحياة .

٢٦ - إن بعض ذوى النجاح وإن كانوا معروفين بسلامة الطوية والنية قد يجدون لذة في إيقاع الشر ببعض الناس إذا كان عمله سهلاً ولا يعوق أعمالهم الناجحة . وكأنما يصنعونه على سبيل اللهو أو الفكاهة أو التنفيس عن مخاطر كامنّة في نفوسهم أو لإثبات قدرتهم . وهذا الرأي يذكرني بقصة لسمرست موام عن تاجر إنجليزي في اليابان كان ناجحاً وكان معروفاً بين أهله ومعاشره بطيبة القلب ، فطلب منه أحد الخيّاب من بنى جنسه أن يجد له عملاً يرتزق منه . ولكن الرجل هلك أثناء سياحته ، وعندما سأل سائل التاجر عن سبب اشتراط هذا الشرط قال مبتسماً الحقيقة هي أنني لم يكن عندي له عمل أى أنه كان يعرف أنه هالك لا محالة . وأنواع هذا الشر من أهل النجاح وأمثاله كثيرة الوسائل ... وإذا أصاب النجاح خائباً عفواً من غير جهد كبير منه فقد عليه أهل النجاح الذين كدوا واحتالوا للنجاح وعدوها قسمة ضيزى ، مع أن نجاحه قد لا يؤثر في نجاحهم ولا يقلل منه إذا كان هذا الحقد والحسد شأن ذوى النجاح فكيف بما يعانيه التعساء المحرومون .

٢٧ - من السعادة أن يعود المرء نفسه أن يعيش معها بدل أن يشرئب دائماً إلى اعتبار الحياة سوقاً يرتاده الناس للتفريج عن أنفسهم برؤية المعروضات ، وبعض لم يعود نفسه أن يعيش معها لا يطيق عشرة نفسه . وهذا من أسباب الحاجة إلى المصادقة والمصاحبة .

٢٨ - كثيراً ما نعمل عملاً فلا ترى من الناس ارتياحاً إليه أو اقتناعاً به أو إعجاباً ولا يثبطنا ذلك ، ولا يصرفنا عن عمله ، بل نحسب أن سبب عدم ارتياحهم واقتناعهم قلة ما

صنعنا منه ، فنشأ على عمله توقعاً لظهور ارتياح الناس إليه واقتناعهم به وإن كان غير مقنع .

٢٩ - قد يتوقع المرء حدوث الأمر المحال وهو يؤمن إيماناً تاماً أنه سيحدث ولا فرق بين هذا وبين الجنون إلا أن الحوادث قد تبدد ذلك التوقع والإيمان ، ولا تبدد الجنون .

٣٠ - إن الطبع الذى يميل دائماً إلى السيطرة والتحكم حتى فى الأمور التافهة الصغيرة لابد أن يكون به جانب من الضعة والحقارة ويخفيهما بذلك التحكم .

٣١ - بعض اللغات قد تكون فيها طلاوة وحلاوة لا يشعر بها من يقرأها ، كذلك بعض الوجوه قد تعبر للرائى عن أكثر مما فى أنفص أصحابها من معان .

٣٢ - عندما يريد الناس تصديق الأكاذيب أو إذاعتها حتى يصدقها غيرهم يقولون : لا دخان من غير نار ، ومثلهم مثل الذى يعكر الهواء بدخان « بيته » أو نرجيلته أو لفاقة تبغه ثم يحسب أن الدخان والنار من عند غيره ، وهى من عنده ، والأكاذيب أو النقائص التى يراد تصديقها فى نفسه .

٣٣ - المصلحون يشعرون بسرور فى كل اصلاح ، ولا يعطفون على النفوس التى تأسف مع ذلك لما يصيب كثيراً من الناس فى كل اصلاح من ضرر وألم وشقاء بسبب انتقال الأمور من حال إلى حال عند الإصلاح . والمصلحون لا يقتصرون على حرمان تلك النفوس من العطف ، بل إنهم قد يعدون أسفها على من نالهم الشقاء بسبب الاصلاح ، خلافاً لهم فى الرأى والمبدأ ، أو خيانة لعهد الإصلاح فيشركونها فى الشقاء أو الإعدام .

٣٤ - لا يستطيع العامل صنع عمل جليل شبه معجز إلا بإيمانه بنفسه ، وأكثر إيمان العامل بنفسه مستمد من إيمان الناس به أو إيمان طائفة كبيرة منهم ، ولكنه إذا فقد إيمان الناس به ، لا يلبث إيمانه بنفسه أن يززع مهما كان عظيماً . إلا إذا كان قليل الإحساس لا يلتفت إلى حقائق العالم . على أن العالم قد يكون هو الذى خلق إيمان الناس به فى أول الأمر .

(١٥)

تكملة نظرات جورج إليوت سويفت^(١)

١ - بين النساء من يدفعها طبعها إلى الحماسة حيناً بعد حين وتستنفد جهد شراستها في وقت قليل ولا تستعيده إلا بعد مدة من الزمن فيستريح أهلها . ولكن بين النساء من تعد من أهل الخير والتضحية ومحبة ذويها وهي لا ترفع صوتها في شراسة ، ولكنها لا تفتأ طول يومها تنكد حياتهم بصوت منخفض باللوم والشكوى والتأنيب والمخالفة بتذكيرهم أحزان أمس وما قد يتوقع من أحزان غدهم ، وتبكي إذا سمعت خبراً ساراً ، كما تبكي إذا سمعت خبراً محزناً ، فهي دائماً بين بكاء السرور وبكاء الحزن . هذان الصيغان مشاهدان في الرجال أيضاً ، وإن كان البكاء أغلب على النساء فأى الصنفين أثقل على القلب ؟ المشاهد أن الناس يفضلون الصنف الأول مهما كانت شراسته لأنه يعطى معاشريه فترات راحة . ومن أجل ذلك قد يمدح معاشر الرجل الشرس هذا الشرس فيقول (قلبه طيب - أو قلبه أبيض) وربما كان السبب أن صاحب الوقاحة والشراسة إذا هدأت حدة طبعه شعر باعتدائه على الناس بهما ، فيلين ويلطف ، وملاطفته لشدة اختلافها عن شراسته ولأنها غير متوقعة تكون ذا أثر أعظم في النفس من ملاطفته الناس أمر معتاد مألوف . أما الملاطفة الممنوعة النادرة فهي تفاجئ النفس مفاجأة سارة كما قال الشاعر (أحب شئ إلى الإنسان ما مُنعا) .

أما الرجل والمرأة من الصنف الثاني فإنهما لدأبهما على الشكوى والتحمل واللوم والتذكير بالأحزان يكادان يبلغان بأهلها إلى درجة الجنون . وأشد من هذين الصنفين الرجل والمرأة اللذان يجمعان صفات الصنفين : شراسة متقطعة وتحملاً دائماً .

٢ - للطبيعة لغة وهي لغة صدق لا تكذب ، ولكننا لا نعرف قواعدها فنخطئ إذا حاولنا معرفة معناها ، نحسب أن العين الفاترة الفاتنة الساحرة ذات الأهداب الجميلة الطويلة دليل على الصدق والأمانة ، ولكن صاحبيتها قد تكون ورثت عينيها عن جدتها ، وورثت أخلاقها وطباعها عن مصدر وراثي آخر ، فتجمع بين العين الفاترة التي تدعو إلى الاطمئنان ، وبين الغش والمكر والخداع والشر . وهذه الفكرة أصدق من قول الفيلسوف الألماني نيتشه في وصف سقراط الحكيم الأغريقى القديم الذى كان ذا وجه شنيع وكان مشهوراً بالحكمة والعفة والفهم

١ - المقتطف سنة ١٩٤٩ م ، المجلد ١١٤ ، الجزء الخامس ، ١ مايو سنة ١٩٤٩ م ، ص ٣٤٠ - ٣٤٨ .

والأمانة والصدق . ولكن نيتشه الفيلسوف الألماني يقول : إن من نظر إلى صورة سقراط يستطيع أن يستدل منها على أنه كان مجرمًا بطبعه . وهذه مبالغة لمُسَوِّغ لها فإن خواطر الإجرام تتردد في كل نفس كما قال فرويد . وقد يكون المجرم شنيع الوجه وقد لا يكون . فقد رأيت في كتاب عن المجرمين صوراً كثيرة لبعضهم جمعت بين الجمال والسماحة والطلاقة ، فالقيح أو الجمال ليس دليلاً قاطعاً على الصفات النفسية الغالبة .

٣ - الصانع الماهر الذي يحفره ضميره الطاهر بحجم عن صنع آلة غير محكمة الصنع لأنها قد تضر من يقربها أو يستعملها ولا يعرف الصانع مقدار الإضرار المتتابة التي تسببها سبباً عن سبب . وكذلك كل إنسان ينبغي أن يتذكر أن عمله قد يكون له نتائج بعيدة غير منظورة . وكذلك أقوال المرء يصدق فيها ما يصدق في أعماله وربما استحال عليه أن يتحاشى كل عواقب أعماله وأقواله كما أوضح أناطول فرانس فيما اقتبس من نظراته . ولكن استحالة معرفة نتائج الأعمال والأقوال (أى النتائج والعواقب المتتابة القصصيات) لا تمنع من محاولة التبصر قبل القول والعمل - ولا أظن أن مفكراً في العصور الحديثة كانت لآرائه عواقب ونتائج ومذاهب غير منظورة كما كانت لآراء جان جاك روسو - ولقد قال هنرى فردريك أمبيل : كل المذاهب الحديثة المختلفة في نواحي الحياة يمكن إرجاعها إلى روسو . ومن الغريب أن روسو كان حياً يحب العزلة وينفر من الاجتماع بالناس . ويسئ بهم الظن . وكان يخشى وينفر من الثورة التي كان يتوقعها ويحاول منعها بالاصلاح . وكان يقدر حريات الفرد إلى أقصى حد كما في رسالته « أسباب تفاوت الناس » ومع ذلك فقد تشعبت مذاهب وعواقب أفكاره ومذاهب معتنقيها أيام الثورة الفرنسية وهو في كتاب « العقد الاجتماعي » يذكر آراءً استطاع بها تقييد حريات الفرد إلى حد كبير ، وهذا التناقض أيضاً ظاهر في كتابه المسمى « إميل » في التربية فهو يريد من المربي أن يترك تلميذه حراً يستنتج عواقب ونتائج أعماله بنفسه . ومع ذلك فالمربي الذي وصفه أرادته كان أحياناً يتجسس على تلميذه ويهيئ له النتائج التي يريدتها - ومن أجل ما وصفت من الفرق بين طبع روسو وبين آرائه يخيل لى أنه لو كان عائشاً في باريس أيام حكم الإرهاب لسيق إلى الجيولتين وأعدم لتخلف رجل الفكر عن رجل العمل وذلك بالرغم من أن حُكَّام الإرهاب كانوا قد اعتنقوا مبادئه .

وبالعكس قد يصاب صاحب الفكرة الجديدة أو المبدأ أو الشريعة لتخلف الناس عنه . وأذكر قصة أظن أنها لدستوفيكسى القصصى الروسى وبها يتخيل أن سيدنا عيسى عليه

السلام قد بعث مرة ثانية فى أوروبا ودعا الناس إلى الأخوة والتعاون والسلم والمحبة فخشى بعض الحكام دعوته وضاقوا به ذرعاً وحاولوا أن يصلبوه مع أنهم على دينه .

٤ - إن أعظم حوادث حياتنا تأتى وتروح كما يأتى الليل والنهار والنوم واليقظة والمطر والصحو والحصاد . ولا نستطيع تعيين أوقاتها لها كما تشاء . وربما جاهدنا وعملنا ، ولكن جهدنا وعملنا قليلا الأثر إذا قيسا بضرورة المقادير التى تعمل عملها وتحدث نتائجها بالرغم منا ومستقلة عن عملنا - ولعل هذا من أسباب ما لوحظ فى نظرة المقال السابق من شدة اعتماد الناس على ما قد يأتى عفواً وهو غير مضمون الحدوث . ولو أن من أسباب هذا الاعتماد أيضاً ميل النفس إلى تصديق احتمال حدوث ماتود أن يحدث حتى تكاد من شدة هذا الميل تراه حقيقة واقعة . وكذلك تميل النفس إلى تصديق أن يكون من أحوال غيرها من الناس ، ومن صفاتهم إن خيراً وإن شراً ، وحمداً أو ذمّاً . وكما أن النفس تميل إلى تصديق ماتود أن يكون حقيقة فهى وإن كرهت حدوث ما تخشى حدوثه ، وإذا تملكها الخوف والذعر حتى يصير الذعر مرضاً - تميل إلى تصديق حدوث ما نخشى حدوثه حتى كأنه حقيقة واقعة . ولعل بعض الأمراض من هذا النوع من الوهم الذى سببه الخوف . وهذا الميل النفسى إلى تصديق ماتود النفس أن يكون كأنه حقيقة كائنه هو مسألة سيكلوجية ثابتة . وكذلك التأثير بالذعر حتى تعتقد سببه حقيقة كائنه : وأغرب من هذا وذاك أن الإنسان قد يصاب بأمراض لا من الذعر ، ولكن لأنه يود أن يصاب بها ، فيميل إلى تصديق ما يود أن يصاب به حتى يصاب بها ، وإنما يود ذلك إما لينال التدليل والإعزاز والعناية والعطف كما هو نصيب المريض ، وإما تشفيماً وانتقاماً ممن وكل إليهم أمره كى يكلفهم عناء فى رعايته أثناء مرضه . وإما لأنه يشعر فى ضميره أنه أراد السوء لمن لم يصبه بضرر فيدفعه ضميره إلى تصديق وقوع السوء بنفسه فيصاب . وكل هذه الأمور تذكرنا قول جويتى الأديب الألمانى إذ قال : كما أن روما القديمة كان بها فضلا عن سكانها من الأحياء ، سكان من التماثيل العديدة المنصوبة فى كل مكان . كذلك هذه الحياة الدنيا يوجد فيها دنيا من الأوهام وعالم من الخيالات وهى أعظم أثراً وأتم قدرة فى نفوس الناس وحياتهم وأكثر الناس يعيش فى هذه الدنيا الثانية .

٥ - لابد أن يكون فى نفوس الناس شئ من كذب السريرة مهما تخلقوا بالعدل والصدق ، فإن أفضل رجل إذا حدث إنساناً لا يود أن يؤلمه يضطر فى محادثته له أن يميل قليلا إلى رأيه ملاطفة له ، أو لعله غير قادر على التعبير عما فى نفسه ، أو لعله لا رأى له فى موضوع

الحديث فيجتنى رأى غيره يسد به فراغاً فى نفسه . وكل هذه الأحوال كأمواج فى بحر الإنسانية ، ولا بد أن يسير المرء بسفينته بينها . فمن الحكمة أن لانحقد على الناس من أجل ذلك ، وأن لا نياس من النفس الإنسانية إذا انتقادت بعض الانقياد ودل انقيادها على كذب السريرة .

٦ - إذا كانت آلام كفاحنا فى الحياة لا تخلف إلا نفوسنا كما كانت قبلها مع ما فيها من تحيز للباطل ومن أثره وقلة مبالاة عظام الأمور فإننا نكون قد تألمنا فى هذا الكفاح ولم نربح فضائل أو صفات سامية . ولكن هذا الألم قد يتحول إلى عطف به نكون أكثر قدرة على فهم الأمور كما تتحول القوة إلى قوة أخرى فى علم الطبيعة .

٧ - خليك بالمرء قبل أن يحاول فهم الكون كله - ويأس إذا لم يستطع فهمه - أن يحاول فهم ما حوله من الحياة أولاً ؛ لأن الزمن كالمال إنما يقاس بمقدار حاجتنا إليه . وهذه الكلمة أوسع نطاقاً من قول الفيلسوف الأغريقى القديم « أعرف نفسك » وقد فسر جويتى هذه الكلمة بقوله إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه بالتأمل الفكرى وحده ، بل لابد أن يكون التأمل فى النفس مقروناً إلى العمل وأداء الواجب ، وفى أداء الواجب اليومى يستطيع المرء أن يختبر نفسه وأن يعرفها بالتأمل وقد أعجب كارليل برأى جويتى وأعاد ذكره مراراً .

٨ - إننا كثيراً ما نعتز بماضى حياتنا حتى ولو تغيرت أفكارنا وتبدل شعورنا ، وصرنا إنساناً آخر بهذا التغير ولذلك قلما نرضى عن نقد ذلك الإنسان الأول الذى كناه فى الماضى بل نتلمس له ما يزيكه كراهة لتخطئة أنفسنا القديمة كل التخطئة ، وذلك لأنها بالرغم من كل شئ أساس أنفسنا الحديثة .

٩ - قلما تستطيع الأقدار أن تنتقم منا بسلاح من أنفسنا تتخذه ضدنا من تألمنا لما سببنا لغيرنا من الآلام ، إلا إذا وصف الناس عملنا فى إيلام غيرنا بأوصاف شنيعة ، أو إذا خشينا ذلك ، فعندئذ يتيقظ ضميرنا ويتيقظ إحساسنا الخلقى ويؤنبنا وربما كان لا يؤنبنا لولا لوم الناس وتأنيبهم .

١٠ - كثير من عيوب الناس وغرائب طباعهم سببها أحزان وأحاسيس وحوادث مثلت بالنفس قمحاً ، والحياة التافهة غير الثابتة أو الحياة الضالة التى يحياها إنسان التى نلوم صاحبها عليها قد تكون كحركة الرجل الذى فقد بعض أعضائه وقد تكون نفسه كجزع الشجرة التى قطعت غصونها وأوراقها - وهذا قول مبكر فيما يسميه علماء النفس فى هذا العصر العقد النفسية .

١١ - إننا نستطيع أن نحس روح الله فى كل أمر . ففى الأعمال والمخترعات الكبيرة أو فى أعمال الصناعات الصغيرة نستطيع أن نرضى الله بأعمال أيدينا كما نرضيه بأعمال نفوسنا ، وأن نعمل الخير ونتقرب إلى الله بالأعمال المنزلية والزراعية ، كما نرضيه ونتقرب إليه بالصلاة لأن كل عمل يؤدى بصدق وأمانة إنما هو تقرب إلى الله .

١٢ - ولكن بعض الناس إذا أدوا الصلاة يوم الأحد فى الكنيسة حسبوا أنهم أدوا كل واجبه نحو الله فتستريح ضمائرهم وتجهز لهم أموراً كثيرة ويعدون الحياة منصباً مريحاً ، أو متجراً مكسباً بدل أن يعدوها واجباً يقتضى الجهد والتضحية والعمل .

١٣ - إن قول شكسبير فى قصة ماكبيث : إن الإنسان لا يستطيع أن يكون فى أمور مختلفة فى وقت واحد إنما يراد به الأعمال ولا ينطبق على الإحساسات والخواطر ، فإن لحظة واحدة صغيرة أو أقل من لحظة قد تكون بين خاطرة الميل إلى القتل فى النفس ، وبين خاطرة الرجوع عنه والتوبة والندم . ورب دقيقة واحدة قد تجمع بين النزعة الشريفة والنزعة الدنيئة فى النفس . فالحقيقة هى أن النفس الإنسانية لا تجتمع بين الأضداد فحسب ، بل تجمع بينها فيما يكون أشبه بالموقف الواحد . وهذا ما لا يفتن إليه الذين يحكمون على النفوس بخطراتها ونزعاتها .

١٤ - فينبغى أن نصح أحكامنا العامة على الناس تصحيحاً دائماً مستأنفاً أولاً فأولاً بالخبرة وضرورات الحياة وبما فى النفوس البشرية من قهر وإلزام مع مراعاة الواجب المفروض وتنوعه فى الحالات المختلفة . فإذا نقدنا إنساناً نقدناه من غير التجاء إلى الكذب والباطل والمبالغة . وهذه أمور قد تتسرب إلى رأينا . إما عن طريق الشهوات ، وإما عن طريق أحكام عامة مطلقة وضعها من لا يميز الأمور بالتجارب والخبرة .

١٥ - كثيراً ما تدهشنا الشدة ونباغت بها من أناس عرفوا باللين . والسبب فى ذلك أن لينهم من اطمئنانهم إلى عودة وقوع الأمور المألوفة المعتادة . فإذا جاء غير المألوف ارتاعوا وظهر ارتبايحهم فى شدتهم وعنفهم . ودل ذلك على نقص فى خبرتهم لأموال الحياة ونفس الناس .

١٦ - يخيل لنا أن الناس يجدون لذة فى حماقتهم وشراستهم وغيظهم حتى أنهم يحرمون أنفسهم من مسرات كثيرة ممتعة ، كى يتمتعوا بلذة الحماقة والغيظ .

١٧ - قد تجتمع فى بعض النفوس صفات هى الشدة والشعور بأنها صالحة وحب السيطرة على غيرهم مع ضيق فى الفكر والخيال . فإذا اجتمعت هذه الصفات فى أناس لم يكن سبب

نفورهم من إنسان واضطهادهم إياه تلك المعرفة الممزوجة بالجهل والشك والتي يسمونها الحقيقة. ولكن السبب أنهم فى حاجة إلى أن يملؤا فراغهم من الفكر ، وأن يسدوا ثغرة فى التأمل ، وأن يخفوا ظلهم من الحكمة ، وأن يشبعوا حب سيطرتهم على غيرهم ، وأن يباهوا الناس بصلاحيهم ، وأن يقتنعوا غيرهم به - وهذا إذا كانوا على شئ من الفضل . وقد يكون السبب شعورهم بنقيصة فى أنفسهم يقتصون لها بالتشفى وبالكيد لغيرهم ، أو يكفرون عنها بانتقاص غيرهم واضطهادها .

١٨ - ثق أنك إذا رأيت إنساناً يدعى أنه أطيب نفساً ممن هم حوله ، فهو إما أن له أرباً يخفيه بادعاء ذلك ، وإما أن نفسه قد تغلغل فيها الكبر الروحاني ودنس العجب النفسى . وهذا الكبر والدنس يختلطان بفضله فيفسدانه كما تفسد العفونة المأكولات .

١٩ - تنتقل النفس من الصدق إلى الغش فى معاملتها لنفسها . ثم ترى الغش خطة ضرورية تسوغها بلباقة ، قترى جمال الأعمال وقبحها من نسيج واحد . وكما أن الدول قد تأخذ على دولة عملاً عدائياً ثم تدعن لما يسمى فى عرف السياسة الأمر الواقع . كذلك النفس تدعن للأمر الواقع منها حتى تفاجأ بالقصاص .

٢٠ - إن الرجل الذى ليست له ثقة بنفسه قد يكتسب ثقة بنفسه إذا عاش رجلًا له ثقة بنفسه إذ أن للثقة بالنفس عدوى ، ومثل ذلك مثل الذى أصابه البرد يأنس إلى من لفحه الحر ليدفئ نفسه بحرّه . فيقل أثر القرفيه - على أن هذه المعاشرة قد تأتى بعكس ذلك إذا خشى الأول أن يقحم نفسه فيما يقحم الثانى فيه نفسه بالإقدام من ثقته بها ، وفى مثل هذه الحال إذا لم يُجار الأول الثانى فى إقدامه وثقته بنفسه ، يوشك أن تنفصم عرى الصداقة والمعاشرة ، إلا إذا لم يكن ملزماً بهذا الإقدام . وإذا أقدم وحيل بينه وبين باعث ثقته ولاقى صعوبات أو خصومات كُشف ضعفه . وإنما مثله حيثئذ مثل السلك الذى يزود بالكهرباء فإذا فصل عن مصدر الكهرباء فقد قدرته الكهربائية .

٢١ - إن المرأة مهما كانت معجبة بنفسها لا تشعر بجمالها وحلاوة أنوثتها شعوراً تاماً إلا إذا أحبها رجل . فإن حبه يزيد بها ثقة بقدرة ملاحه أنوثتها ، فتتقبط وتحس إحساسات ما كانت تحسها من قبل . وهذا هو سبب قدرة الرجال على خداع النساء . فإن الرجل إذا أتقن تمثيل مظاهر الحب أحست شكراً له وعطفاً عليه ، وهذا ما كان يصنعه لاندور قاتل النساء فى فرنسا ، فإنه كان يقنع المرأة أنها ذات جمال وحلاوة أنوثة ، فتتقاد له وتطيعه طاعة من نؤم تنوياً مغناطيسياً ، إذ الإيحاء النفسى شبه تنويم .

٢٢ - فى بعض الأحيان ترى سفينة تعجب الرائى وتحسبها محكمة الصنع وتقبل شركات التأمين أن تؤمن عليها ، فإذا صادفتها أول عاصفة شديدة غرقت واتضح أن ذلك كان بسبب عيب خفى فى بنائها ، ونقص مستور فى تركيبها . وكذلك الإنسان يعجب الرائى فإذا صادف أول محنة أو امتحان لنفسه ولقدرته النفسية أو بدهه خطب لم يكن يتوقعه أو أمر من أمور الحياة مفاجئ غير منظور ظهر من طباعه ما كان خفياً وتغير أو تدهور أو تخبط فيكون حاله كحال تلك السفينة .

٢٣ - يُشبه بعض المؤلفين طبيعة الإنسان بطبيعة الموجودات ويقولون إن الطبيعة تصلح ما أفسدته بالضياء والماء والهواء ويتجدد النمو ولكن الشجرة التى قد اقتلعت أو صعقت لا تعود إلى النمو وإن نمت غيرها والتلال التى بعثرت لا تتجدد وإن نشأت غيرها فليس هناك إصلاح حقيقى تام فى طبيعة الموجودات أو فى طبيعة الإنسان .

٢٤ - يقولون إن الإنسان إنما يجنى فى الحياة ما يزرع ولكن هذا ليس كل الحق فكما أن الإنسان يجنى ما يزرع فإنه قد يجنى مالم يزرع ، كما أنه قد يجنى من النبات والزهر والأشجار مالم يزرع وما ينمو بنفسه أو بعمل غيره ، وهذا يصدق فى الخير كما يصدق فى الشر .

٢٥ - إذا عظم إحساسنا إلى حد كبير نما الإحساس إلى درجة يخلو فيها من حب النفس الذى ابتعثه ويصير ناراً تتطلب كل شئ فى النفس وقوداً لها وغذاء للهيبة . وهذا يفسر لماذا ننكر أن إحساسات المرء وأعماله الصادرة عن إحساساته والتى تضره ، سببها الأثرة وحب الذات غير مدركين أن الإحساس فى درجاته المختلفة وحالاته المتغيرة يتغير طبعه وتتغير نتائجه .

٢٦ - قد ننسى أن الإنسان تصيبه عواقب ما يجنى غيره وإن لم يكن هذا الإنسان له صلة بالجناية واشتراك فيها . أليس العدل نفسه يعاقب من هم فى حاجة إلى الجانى أو لهم به صلة إذا عاقبه فيعاقب من يعول إذا انقطع عنهم رزقهم بالعقاب أو يعاقب أقاربهم فى سمعتهم وباضطهاد الناس لهم وذمهم بسبب جريمة قريبهم .

٢٧ - فى أوقات الحزن الشديد تكون فترات تتخللها . فى هذه الفترات لا يتذكر المرء حزنه بل يتذكر حادثاً تافهاً لا صلة له بحزنه كأنما تعفيه طبيعته فى تلك الفترات من تذكر حزنه والانشغال به كى يستطيع أن يعاود تحمله وهو فى تلك الفترات لانشغاله بالأمر التافه بدل الانشغال بموضوع حزنه يكون كأنه أصابه بله مؤقت .

٢٨ - أهل الريف إذا كانوا فى بقعة منعزلة وحلّ بأرضهم غريب أساءوا به الظن ، كأنه أتى إليهم من عالم مظلم مجهول كالعالم الذى تهاجر منه الطيور شتاء إلى أرض الدفء والنور . ومن أجل ذلك يتوقعون من ذلك الغريب أى شئ غريب مهما كان عمله وقوله مطابقاً للمألوف ومهما صدر من نفوسهم مما يخالف العرف المألوف ، فإذا ارتكب إثماً أو جنى جناية بعد زمن طويل وبعد مزاولة الخلق المألوف زعموا أن ذلك مصداق لما توقعوا منه من أول الأمر . فالذى يولد بينهم يكتسب بولادته شيئاً من الثقة به والألفة له ، أما من لم يولد بينهم فكأنما ولد وجاء إلى هذا العالم فى نظرهم بطريقة غير طبيعية مثل طرق الشعوذة . وحقيقة هذا الحذر من المجهول مشاهدة حتى فى نفوس الناس إذا حذروا ممن ينقطع عن زيارتهم ومعاشرتهم أو مجالستهم . ولعلها ناشئة عما فى النفوس البشرية من أمور مجهولة ومن غريزة تمكنت فى النفوس من قديم الزمن من عهد الكهوف وسكانها ، ومن عهد كان كل إنسان يخشى كل إنسان ويصون حياته بذلك الخوف .

٢٩ - إن بعض ما يسميه الناس خيالاً إزرأ به قد يكون تعلقاً بحياة أتم وأعظم وبحقيقة متوقعة فى المستقبل من الدهر ، فبطولة الواحد الفرد أو الأحاد القليلين التى لا تؤثر أثراً كبيراً قد يعدها الناس تعلقاً بالخيال ، ولكننا نخطئ إذ نقسم البطولة الإنسانية وهى متصلة مهما خفى اتصالها وكل منها قدوة وهذا الخطأ كالخطأ فى تقسيم وحدات الجيش إلى آحاد أو الخطأ فى تقسيم أشعة الضوء محاولة لمعرفة قدرة الجيش أو الضوء .

(١٦)

نظرات جوتا أوجيتا^(١)

جوهان ولْفجانج فون جوتا أو جويتى الأديب الشاعر العالم الألماني - ربما كان بين الناس من بلغوا منزلته ، أو بدّوه فى النشر أو الشعر أو العلوم المختلفة أو النقد . ولكن لم يكن بينهم من بلغ شأواً كبيراً فى كل هذه العلوم والآداب كشأوه الكبير ، ومنزلته العظيمة . ومن أجل ذلك كان عجيبة زمانه ، وليس عظم منزلته فى فن أو علم أو أدب واحد ، ولكن عظم منزلته فى تميزه فيها كلها . وقد كان شعاره تكميل النفس بالثقافة من كل مصدر وباب . وله فى العلوم كشف لم تكن معروفة من قبله ، ولو أنه أخطأ فى تخطيط نيوتن العالم الإنجليزي . وكانت له رسائل فى النقد فى الفنون المختلفة والآداب ، وقصصه التمثيلية بعثت فن التمثيل فى ألمانيا ، كما أن قصصه غير التمثيلية مهدت السبيل لفن القصص . ومن الغريب أنه اشتهر بيننا بأقل مؤلفاته منزلة عند النقاد ، وأعنى قصة أحزان ورتر التى ترجمت إلى العربية ، وكان قد ألفها فى شبابه فى العهد الذى أسماه عهد العاصفة والشدة ، وله محادثاته لأكرمان ومراسلاته لشيلر الشاعر ، وترجمة حياته التى سماها « الحقيقة والخيال » . ولكن القصة الشعرية التى اشتهر بها فى ألمانيا وبين الأدباء والمفكرين هى قصة « فوست » . والجزء الأول أسهل من الثانى . ولم يتم الجزء الثانى إلا بعد أن بلغ الشيخوخة ، وأودعه فكره وفلسفته فى قالب شعرى خيالى . وقد كان جوتا يعيب على شعراء الرمزية جعل الشعر أوهاماً وأضغاث أحلام لا حقيقة تحتها . ومع ذلك فقد لجأ إلى الرمزية للتعبير عن الحقائق التى كما قال لا تُصوّر إلا بها ، ولم يكن يعيب الرمزية فحسب ، بل كان يعيب المذهب الخيال «الرومانتيكى» . وقد لفته صديقه شيلر إلى ما فى شعره من هذا المذهب . ولاغربة فإن من كانت نهمة بحثه وفكره وخياله لا تشبع ، ربما لجأ إلى هذا المذهب . ولعل امرسون الأديب الشاعر الأمريكى قد كان يعنى ذلك فى قوله إن جوتا وصل فى بحث ما يمكن عرفانه إلى حدود المجهول ، ثم خطا خطوة وراء تلك الحدود وعاد سليماً .

وهذه مبالغة طريفة. ولكن من يحاول أن تكون له ثقافة متنوعة كثقافة جوتا لابد أن تَفدَحُه وتَبْهَظُه ، وله كلمة يعترف فيها أنه ركب الشطط فى طلب هذه الثقافة . وإنما يهمنى فى

هذه المقالات نظراته فى النفس الإنسانية ، وهذه النظرات تعطيك فى القراءة الثانية بصيرة من كتبوا فى صفات النفوس من أمثال مونتاني ، وباكون أكثر مما تعطيك فى الأولى ، وقد اخترت بعضها لأظهر أنه لم يكن أقل بصيرة من كتبوا فى صفات النفوس من أمثال مونتاني وباكون ولا روشفو كولد ، ولا برويير . ويعجبى مسلك النقاد الذين يريدون الخط من قدر غيره ظناً أن ذلك يرفع قدره ، ولا مسلك المغالين فى اعظامه ، حتى يكاد الإعظام يبلغ مرتبة التقديس والتتزيه . كما لا يعجبنى مسلك الذين يحطون من قدره لأن له مواقف غرامية كثيرة أو لأنه لم يكتب قصائد ليشعل الحقد والبغض فى نفوس الألمان ، وهم يحاربون الفرنسيين لطردهم من ألمانيا . ومن الغريب أنه جمع بين سهولة الأدب الكلاسيكى القديم والطريقة الفلسفية أو الخيالية الألمانية المعقدة . وقد اعترف بنزعة المفكرين الألمان إلى هذا التعقيد ، فكان مؤلفاته بناء جمع بين الطريقة الأغريقية التى كانت تنحو نحو السهولة ، وبين طريقة البناء القوطى التى تنحو إلى غير ذلك .

وقد درج بعض الكتاب على انتقاص لارشفو كولد ومدح جوتا ، بدعوى أن الأول يكثر من اتهام النفس الإنسانية بالأثرة ، كأن جوتا لا يفعل مثل فعله ، وسيوضح أنه يفعل ذلك ، ولا بد لباحث النفس أن يفعل .

وهذه بعض نظراته مع التعقيب عليها :

١ - فى النفس قاعدة سيكلوجية ، وهى أنها تحاول أن تحول موضع ضعفها ونقصها إلى مبدأ عام ممدوح . ومن أمثال ذلك : أن بعض الناس يحسبون التأنى الذى سببه الخوف الكامن قوة لا يغلبها غالب ، ولا يقهرها قاهر ، مع أن أحجامهم قد لا يكون تبصراً وحزماً . وكذلك نرى الضعفاء الذين يعتنقون الآراء الثورية يحسبون أنهم يكونون أسعد حالا باعتناقها ، ويكون الناس كلهم فى أرغد عيش وحال ، ولا يفتنون إلى أن ضعفهم يمنعهم من حكم أنفسهم ومن حكم الناس - وفى هذه النظرة أكثر من ذلك ، فكما أن القاعدة أن النفس تزين موضع ضعفها ، فهى أيضاً تقبح وتُصَغَّر ما ليس فيها من الصفات التى تستطيع التخلق بها . فإن من لا يساعده طبعه على التخلق بآداب السلوك ، يرى أن آداب السلوك ضعف ، ومذلة ، ونقص . وتقبيح ما ليس فى نفسه من صفات الحمد فى بعض الأحيان كى يحسب الناس أنه إنما مدحها لأنها من صفاته ، إذ أن النفس لها وسائل مختلفة متناقضة ، تحاول بها كسب المدح والإعظام .

٢ - مهما عاش الإنسان فى عزلة عن الناس منفصلاً عنهم بأفكاره وإحساساته وأعماله ، فإنه لابد أن يكون أما مديناً وإما دائناً لغيره فى تلك الأمور كلها أو بعضها . ولكن القاعدة هى أن الناس إذا قابلوا إنساناً مديناً لهم بفضل ، تذكروا ماهر مدين لهم به ، وكانوا أسرع إلى التفكير فيما دانوه به من الفضل . أما إذا قابلوا إنساناً هم مدينون له فإنهم يذكرون فضله عليهم ، أو إذا ذكروه أسرعوا إلى تجاهله ، ويضايقهم ما يلح فى تذكيرهم به .

٣ - إن صفات النفوس تظهر فى أعمالها ومعاملاتها . ومن أجل ذلك يخطئ من يظن أنه يستطيع أن يعرف صفات نفسه بالفكر وحده ، وبالتأمل فى نفسه من غير أن ينظر إلى صفاتها فى أعمالها . والواقع أن النفس تحاول أن تفصل عمداً بين الأمرين ، وهذا الفصل قاعدة سيكلوجية فيها ، لأنها تعرف أن العمل قد يغريها بالتخلق بصفات ذميمة ما كان يتخلق بها المرء لولا اضطراره إلى العمل والمعاملات . فكثيراً ما يتجاهل المرء عمداً صفات نفسه التى يظهرها اضطراره إلى العمل والمعاملات ويكتفى بالحكم بصفات نفسه غير المضطرة وهى صفات أرقى وأطهر ، وقد شبه جوتا نوعى الصفات بالسدى واللحمة فى النسيج أو بالزفير والشهيق فى تنفس الإنسان الحى . وقال أنه لا يستطيع معرفة النسيج من السدى فحسب ، أو من اللحمة وحدها ، بل من الاثنين معاً . ومن أجل ذلك يغيظ المرء أن تذكره بصفاته التى تظهرها أعماله ومعاملاته . لأن هذا الفصل بين نوعى الصفات يساعد المرء على التخلق بما يشاء من صفات السوء وهو مطمئن راض عن نفسه .

٤ - لو كان انحياز الإنسان للباطل سببه خطأ الفكر من غير أن يكون الباطل متصلاً بميول نفسه ونزعاتها وعواطفها وأخلاقيها ، سهل تصحيح الباطل وتلاقيه ، ولكن اتصاله بها يجعل تصحيحه وتلاقيه أمراً شاقاً أو مستحيلاً . ومن أجل ذلك إذا استعصى على الإنسان تصحيح خطأ أو باطل فى نفس إنسان آخر خدع نفسه ، وأوهمها أن ذلك الخطأ وأن ذلك الباطل من ضلال فكر صاحبه ومن أغلاطه العقلية غير المتصلة بإحساساته ونزعاته إنما يغالط نفسه هذه المغالطة كى يجعلها تأمل إزالة ذلك الباطل . إذا كان لها خير فى إزالته . إذ أنه يدرك بالفطرة أن مكافحة الخطأ الفكرى الخالص من شوائب النفس أقل مشقة وأيسر مؤونة وكلفة . وهذا يعلل أمل بعض الناس فى التفاهم مع من لا يرجى التفاهم معهم واقناعهم بما لا يمكن اقناعهم به ، ولا سيما أن الأمل فى التفاهم إذا ازداد صير توقعه ؛ حدوث التفاهم كأنه قد حدث ، كما هو شأن الأمل فى أى أمر آخر . فإذا استجدت أسباب تغير من نزعات من لا يريد

التفاهم ومن ميوله النفسية حتى يرى فى التفاهم نفعاً له لبس الزهو مجادلة ونسب هذا التغير إلى قدرته على الاقتناع بالفكر ولباقتة وكياسته فيه .

٥ - أن الفكر قد يصحبه شعور شديد وهذا الشعور له أثر عظيم فى الحياة وهو نافع إذا استطاع المرء أن يمنع نفسه وهو يفكر من الانسياق فى تيار سبيله ؛ لأنه إذا لم يستطع حكم شعوره وضبطه لم يستطع أن يصحح رأيه وأن يعالج ميل نفسه إذا حادت عن الصواب وأن يعرف حدود فكره . ولكن من العجيب أن المرء كلما انساق وجرفه تيار سيل الاحساس فى مجادلاته ومناظراته قال الناس إنه صادق السريرة ، إذ لولا اقتناعه بصواب رأيه ما انساق مع الشعور الشديد فى التعبير عنه وفى مناظراته . ثم يتخذون حكمهم بصدق سريرته حكماً بصواب رأيه . والشعور المنفعل فى إنسان قد يستنبط مثله فى غيره بالقودة والإيحاء وقد أوضح شارلز لامب فى رسالة الأغلاط الشائعة بطلان هذا الرأى وهذا الحكم لأن الشعور الشديد قد يكون ناشئاً من النزعات النفسية التى قد تتخذ الفكر مطية لتبلغ به غايتها وإن كانت غاية باطلة ، أو لتتخذ ستاراً يحجب عن صاحبها وعن الناس كنهها وحقيقتها المستترة وراء لافكر . وصدق السريرة إذا فرضنا وجوده فى صاحب الشعور الشديد لا يمنع من الانحياز للباطل كما قال جوتا : أستطيع أن أعد أن أكون صادق السريرة ولكنى لا أستطيع أن أعد بأن لا أنحاز مع صدق السريرة إلى الباطل لأن صادق السريرة يجهل انحياز نفسه إليه بحكم صدق سريرته .

٦ - إن معرفة الصواب لا تمنع من موقعة الأخطاء التى يصحبها ذلك الصواب إذا كانت أخطاء متصلة بميول النفس فتكون حبيبة إلى النفس ، وتأبى العواطف على المرء إلا أن تعود إليها . وكذلك الخطأ فى الأمور النظرية أو العملية التى ليست متصلة اتصالاً وثيقاً بعواطفنا تعود إليه بعد معرفة الصواب إذا لم يفسر وجه الخطأ وسببه ومكانه وحدوده تفسيراً مقنعاً يذود إلى رسوخ الصواب ، فإن من يكتفى بشرح الصواب من غير نظر إلى الأخطاء التى يقع فيها الناس ومن غير تفسيرها قد يبذل جهداً عظيماً ويتكلف مشقة هائلة ، ولكن قد يكون عمله كله عملاً ضائعاً لا أثر له . وقد يتعجب لضياع عمله وجهده ويدهش لأن تعبه فى شرح الصواب لم يثمر وذلك لأنه لا يفتن إلى أن شرح الصواب لا يكفى إذا لم يشرح الخطأ أو الأخطاء إذا تعددت . وهذه قاعدة هامة فى التعليم إذا أهملها المعلم ضاع عمله وحبط كل الحبوط . ومن أجل ذلك قد يظن المناظر ظناً باطلاً أنه فند رأى مجادله أو مناظره إذا شرح

رأى نفسه ولم يلتفت إلى رأى منافسه فى المناظرة ولم يبين أوجه الخطأ فيه . وقبل أن يفعل ذلك ينبغى لكل مناظر أن يذكر رأى خصمه بدقة حتى يثق من أنه يعرفه تمام العرفان فلا يجادل فيما هو خارج عن الموضوع وهو يحسب أنه موضوع رأى مناظره . وجوتا يحتم هذه الطريقة لأن الخروج عن الموضوع أمر كثير الحدوث .

٧ - إن الأفكار الصحيحة والمبادئ العامة المقبولة إذا اقترنت بفرور الإنسان سببت أضراراً مخيفة فهو يحسب أنه يعمل لهذه الأفكار والمبادئ ، ولكنه فى الواقع يعمل حسب ما يوحى إليه غروره ، فتكون عواقب أفكاره وأعماله وخيمة . ولا شئ أضيع من فكرة ناضجة فى ذهن غير ناضج فإنها تكون مهما عظمت وجلت عاقراً أو تنتج غير المنظور منها . وكل فكرة عظيمة عند بدء ظهورها تكون لها سيطرة طاغية . ومن أجل ذلك قد تنقلب مزاياها كلها أو بعضها إلى نقائص . وهذا يسبب اندفاع النفس فى العمل لها من غير فطنة إلى الأفكار الحقائق الأخرى التى تحدها .

٨ - إذا أكثر إنسان من مجالسة غيره وأطال الحديث ولم يتملقه تصريحاً أو تعريضاً بأية وسيلة على أى شكل كان التملق ، حتى ولو كان مجاملة ، ولم يشعره السرور فى نفسه بنفسه بأية واسطة فإن جلسه لايسر بمجالسته ، وقد يظن به الظنون ويشعر بانحراف عنه . ومن أجل ذلك كانت المجاملة بالتملق من أهم أركان المجالسة والمعاشرة ، ولا بد أن تكون من الطرفين لا من ناحية واحدة من ناحيتها . ومن حاول أن يستغنى عنها فى معاشرة الناس حتى الذين يذمون التملق وجد نفسه مكروهاً ومجالسه كريهة بغيضة .

٩ - إن الحياء والشجاعة صفتان لا يمكن أن يحاكيهما إنسان إذا خلا منهما ، ولكل منهما مظهر واحد لا كبعض الصفات التى تتخذ مظاهر وألواناً متعددة . ومع ذلك فإن بعض الناس مخدوع بهما فيحسب الحياء جيناً وذلة ، وبعد الصفاقة والقحة شجاعة . ولولا كثرة المخدوعين فى هذه الصفات مازهد كثيرون فى الحياء . ولا تنافسوا إلى الصفاقة والقحة ، فإن التقاتل على الحياة يدعو الإنسان إلى الفرار بما يعد ذلة كى لا يستذله الناس . ويرغبه فيما يخال شجاعة كى يخيف به الناس . لا شئ يغيظ الناس مثل وجدانهم الشجاعة عند ذوى الحياء إذا اعتدوا عليهم اعتماداً على حلم حيائهم ، وعلى عدهم الحياء ذلة ، فلا يجدون ذلة ولا استكانة ، بل إن بعض ذوى الحياء إذا لم يجد محيصاً عن ذلك يبذ ذوى السلاطة فى سلاطة لسانهم . وقد فطن شعراء العرب إلى اقتران الحياء والشجاعة وعدوا ذلك الاقتران مثلاً أعلى كما قال الفرزدق :

يُغْضَى حَيَاءٌ وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فَلَا يَكْلُمُ إِلَّا حِينَ يَيْتَسِمُ
وقالت ليلى الأخيلية فيمن حياؤه يخال سقماً وهو فى الحرب زعيم :

ومخـرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيماً
حتى إذا رفع اللواء رأيتـه تحت اللواء على الجيوش زعيماً
وفى رواية « على الخميس » وهو الجيش . ومثل هذا أو أكثر مبالغة قول متمم بن نويرة
فى رثاء أخيه وكان المرثى سيد قبيلته :

فتى كان أحيا من فتاة حَبِيبَةٍ وأشجع من ليث إذا ما تدرعاً
ومثله قول الآخر :

إذا قيلت العوراء أغضى كأنه ذليلٌ بلا ذل ولو شاء لانتقم

١٠ - الحقيقة هى أن أغلاط المرء وأخطاءه وعيوبه هى التى تحببه إلى الناس ماداموا
واثقين أنها لاتضرهم ؛ لأنه بها ينخفض إلى مستواهم ولا يرتفع عنه . أما لو كان معصوماً
منزهاً من العيوب أنكره الناس أو حسدوه أو كرهوه . ومن أجل ذلك كثيراً ما يلبسون الفضل
ثوب العيب كى يكون حجة لكرهه ، أو كثيراً ما يضحون بأناس كى يثبتوا أنهم أنفسهم على
غير الصفات البغيضة التى يدعون كرههم من أجلها . وهذا الإسراع إلى إثبات خلوهم منها
يريب ، إذ لولا وجودها فيهم ما تسرعوا بخلعها على غيرهم وكرههم بسببها ، مع أن القاعدة
السيكلوجية هى أن النفس ترتاح إذا عرفت أخطاء المرء أو عيوبه ، حتى أنها من ارتياحها
واطمئنانها تعطف عليه فى سريرتها ، وتود لو شكرته لأنه بعث إليها الإطمئنان بنفسها على
عيوبها التى تعرفها منها .

١١ - التعلق دليل على أن المتعلق لا يشعر بمحبة أو مودة لمن يتملقه ، فهو بالتعلق

يستعيز عنهما بدلا كى يبلغ ما يريد ، ومع ذلك فإن الناس تعد كلامه دليلا على المودة
والمحبة والإنصاف لأنهم لا يرون فيما يمدحهم به باطلا ، بل مدحه لهم حقيقة وإنصاف حتى ولو
كانوا بجانب من عقولهم يشكون فى بعض قوله ، ويكون أكبر همهم إذا تملقهم إنسان ليس
البحث فى صدق قوله ، بل التأكد من أنه لا يريد السخر بهم بذلك التعلق . ولا سيما إذا غالى
فى عبارات التعلق فإن المغالاة فى التعلق تكون أشبه بالسخر .

١٢ - ينبغي أن لا تتعجب إذا تحولت الصفات الحميدة بالتدرج إلى شر مكروه ، فإن معانى الصفات متصلة متدرجة فى النوع والمقدار ، فقد تتحول الغبطة إلى حسد ، والحسد إلى بغض ، والبغض إلى حب الشر ، وحب الشر إلى ارتكاب الآثام والجرائم . وقد يبدأ هذا التدرج بما هو أمر برئ ويصل إلى ما هو شر مكروه . وذلك إذا استسلم المرء إلى النزعات التى تحدث هذا التحول . ومن أجل أن صفات النفوس متدرجة قد لا يفتن المرء إلا بعد سنين طوال أنه قد استرسل من الصراحة فى القول إلى الثقة بالنفس ، ومن عظم الثقة بالنفس إلى الهوى فى العمل ، فينزلق انزلاقاً بطيئاً لا يشعر به من الأمر البرئ من العيوب إلى ما يجمع الأضرار الكثيرة .

١٣ - فى طبيعة الإنسان عناد وتناقض فإنه يأبى أن يُرغمَ على مافيه خيره وفائده ، ويرضى مختاراً أن يتقيد بما فيه ضرره . وهو إذا وجد نفسه راضياً مختاراً للتقيد أكسبته مظاهر حرية الرضا والاختيار اطمئناناً وتعاضلاً يلفتانه عن قيده وضرره . أما فى حالة الإرغام على ما فيه خيره ، فإن غضاظة الإرغام تحز فى نفسه وتؤله فتلفته عما فيه من الخير وتزهد فيه ، وهذان : العناد والتناقض ، ظاهران فى حياة الأطفال . وقد يعجب منهما الرجال ولو فحصوا عنهما فى حياتهم لوجدوها فى نفوسهم أيضاً .

١٤ - انظر فى نفوس الناس ثم انظر فى نفسى فلا أجد خطأ من أخطائهم كان من المحال أن أرتكبه . وادعاء العصمة والترفع عن الناس أمر ميسور لا يكلف صاحب الادعاء مشقة . ولكن هذا الاعتراف من جوتا يتطلب شجاعة وعظمة نفسية لا تتفق لكل إنسان وقد لام بعض الأدباء جوتا على اعترافه فى كتابه الذى يترجم فيه حياته والمسمى « بين الحقيقة والخيال » إذ قال أنه كان فى عهد صغره يحلم يقظان فى أحلام العظمة أن أمه حملت به سفاحاً من أمير جليل الشأن ، وأن أباه إذا ليس الرجل الذى ينتسب إليه . وقد زكى هذه الشجاعة الكاتب الإنجليزي سمرست موام فى كتاب « الخلاصة » . على أنه عاد بعد اعترافه الأول فقال : وكل ما حاولت عمله أو عملته وكان بسبب نزعات باطلة قد حاولت أيضاً أن أفهمه . وأن أتعلم منه ، وأن أدرس الدواعى إليه وأن أزيلها إذا استطعت .

١٥ - إذا تأمل الإنسان جثمانه ظاهراً وباطناً فى الأوقات المختلفة لا يعدم أن يجد وعكة أو نقصاً أو مرضاً أو ضعفاً ، وكذلك إذا تأمل نفسه فى حالاتها المختلفة . ومن أجل ذلك تدفع النفس نفسها دفعاً عن التأمل فى صفاتها التى تكرها أو تلبسها لدى نفسها لباس

صفات أخرى ، أو تتخذ لها حججاً وأعداراً تركيها . فقلما تفكر النفس فى صفاتها بصدق وجد وإمعان وإنعام .

١٦ - قيل إن العمل ناشئ من الإرادة ، وقيل إنه ناشئ من العرفان ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يعمل إذا أراد إلا إذا كان يعرف ما يريد عمله . ومن أجل ذلك لا أرى فى الحياة أمراً مخيفاً مثل أمر الرجل الذى يعمل وهو لا يعرف ما يعمل .

١٧ - إذا أرضينا غيرنا عَزَّأنا ذلك عن عدم إرضائنا لأنفسنا عند محاسبتها فى القول والفكر والعمل فتسر نفوسنا وتنتعش وتنشط - ويكون نشاطها إذا أرضينا غيرنا بالحق . ولكن من الأسف أن هذا قد يصدق أيضاً إذا أرضينا غيرنا بغير الحق ويعمل الباطل لأن ما نلاقه من العطف والحث يغيرها به .

١٨ - فى هذه الدنيا كثيراً ما يقيس الناس الرجل بالمقياس الذى يقيس به نفسه ، على شرط أن يحدد قيمته ويلتزمها ، لأنه يسهل على الناس بالمقياس أن يعاشروا رجلاً اعترفوا له بقيمة معينة وإن كانوا يكرهون عاداته . ويشق عليهم أن يعاشروا رجلاً لم يحدد قيمته ومنزلته ، وجهلهم بما يضايقهم ويبعثهم إلى الشك فتساورهم به الظنون .

١٩ - ليس الغنى فى التفكير فى عيوب الأصدقاء ، ونقائص من نعرف ، لأن التفكير فيها يؤدى إلى القناعة بحالتنا النفسية على ما بها من نقص ، ويؤدى بنا إلى الغرور . أما التأمل فى فضل الخصوم فهو الغنى لأنه يؤدى بنا إلى محاولة التشبه بفضائلهم وبفضائلهم .

٢٠ - لا بد من أن تكتسب النفس من ضبط النفس بقدر ما تنال من الحرية لأن كل أمر يحرر المرء من غير أن يعطيها قدرة على حكم نفسها يضرها ويدعوها إما إلى الإفراط وإما إلى التفريط .

٢١ - أكثر شرور الحياة ناشئة إما من عجزنا عن أن نضع أنفسنا موضع غيرنا ، وإما من عجزنا أن نضع غيرنا موضع أنفسنا ، والوضع الأول لو أمكن يزيل الحقد والحسد وسوء الظن ، والثانى يزيل الغرور والأثرة والكبر وقلة مبالاة ما يعانى به الناس .

٢٢ - إن التجاذب ليست له قاعدة واحدة فبعض الناس يحب ما يشابهه ، وبعضهم يبيل إلى ما يخالفه . ومن أجل ذلك نرى تجاذب الأشياء - وربما كان هذا أكثر - كما نرى تجاذب الأضداد . وقد يوجد تجاذب الأضداد بالرغم من تنافر وتخالف وتخاصم .

٢٣ - كثيراً ما يظن المرء إذا استطاع أن يعمل عملاً مرة واحدة أنه يستطيع أن يعمل مراراً فتظهر خيبته وعجزه إذا حاول ذلك إلا إذا فقهه وقرس به ، ولم تتغير نفسه ومقدرته وأعجب من ذلك أن الإنسان قد يظن أنه يستطيع أن يعمل ما لم يعمل قط إذا رأى غيره يعمل ، مع أنه لم يجرب قدرته ، ولم يكتسب مراناً عليه .

٢٤ - ليس بين الناس من لا يحسد صاحب المواهب العقلية إلا الأب ، فإن الأب لا يحسد ابنه لأنه كان سبب حياته وربما أقنع نفسه أن ابنه استمد مواهبه منه . وقد علل شوبنهاور هذا الحسد بأن المرء قد يأمل أن يوفق وأن تساعد الحظوظ فيكسب مثل بعض مال ذوى المال . أما ملكات العقل واستعداداته فأمر طبيعي . ومن لم تكن عنده لا يطمع فى حيازتها . ومن أجل ذلك كان الفكر مع الفقر محسوداً أكثر من الغياوة مع المال . وهذا عدا أن صاحب المال يطمع الناس فى نيل معونته ويصول بما يهيئه له ماله من النفوذ فيختفى حسد ذوى الحسد ، بينما يكون صاحب الفكر معرضاً لسوء الظن بفكره ونتائجه وليس عنده مطمع لذوى الحسد ولا عنده سلطان المال .

٢٥ - بالرغم من أن شدة تعلق المرء بآماله تجعله يتوقعها حتى يصير فى توقعه كأنها قد حدثت ، فإن حدوثها بالرغم من ذلك يكون مصحوباً بشى ولو قليل من الدهشة والمباغلة وذلك من الشك الذى يلزم هذا التوقع مهما كان موثقاً به ولعل أثر رد الفعل فى الإحساس يظهر أيضاً هذا الشك الذى يسبب الدهشة ، فإن كل إحساس شديد لابد أن يكون له رد فعل كى تستقر الأمور ، إذ أنه يعرف أنه كان يغالط نفسه فى إنزال أمله منزلة الحقائق .

٢٦ - إن مجالسة النساء تكسب الرجال آداب السلوك لأنهم يتخلقون بما يناسب مجالسهن فيكتسبون رقة وحياء وآداباً ويترفعون عن سعار المهاترة ورفث القول ، ولكن فى البيئات التى يكون الرجال فيها قدوة للنساء ، لا يتورعون فيها من الاسترسال على طباع الخشونة والمجون إذا جالسوا النساء ، تتخلق النساء بهذه الطباع وأشباهها من الطباع التى سماها فلوير « كانيبرى » أى الطباع الكلبية بدل أن يكسبن الرجال من آدابهن وحيائهن .

٢٧ - غفلة بعض الناس عن الحق قد تكون كالنور الذى يجدد نشاطهم . فإذا استيقظوا ونهبوا إلى خطأ شعروا بنشاط مجدد فى طلب الحق والصواب ولكن غيرهم إذا لفتوا إلى خطأ تتخاذل قوى أنفسهم ويظهرون الاستخذاء والاسترخاء ، والطائفة الأولى هى طائفة الفائزين .

٢٨ - قلما يهم المرء انتصار الحق إلا إذا كان انتصاره يزكى فكره وقوله . أما إذا كان لا يزكى فكره وقوله لم يهتم له ولجأ إلى الباطل يتخذ منه حجة ولا يهمه بعد ذلك لو مات الحق لأن عنده أن الحق ما يرى ويقول أو يغالط نفسه وهو يعرف كذب ذلك .

٢٩ - إن الخلق القوى فى إنسان قد يَسْتَنْبِطُ الخلق القوى فى غيره . وهذه النظرة تذكرنا قول جورج اليوت أن من لا ثقة له بنفسه قد يَأْنَسُ إلى من له ثقة كبيرة بها ، كما يَأْنَسُ الذى أصابه البرد إلى من أصابه الحر كي يفيد حرارة ، والخلق له عدوى وإيحاء . ألا ترى أن الجندى يكتسب قدرة على تحمل الآلام وشجاعة برؤية قدرة وشجاعة غيره من الجنود فى الحروب . وكذلك عدوى الخلق فى الحياة اليومية .

٣٠ - يؤلمنى أشد الألم أن أرى الإنسان الذى جعل تاج الحقيقة ورأسها وذروتها كى يحرر نفسه وغيره من حكم الضرورة القاسية بالفكر والعمل ، يفعل ضد ذلك بسبب الانحياز للباطل المحجب إلى النفس فينغمر فى حكم تلك الضرورة القاسية ويغمر غيره فى حكمها ؛ ومن أجل ذلك نرى حياة الإنسان تتقدم بلا تقدم عصرأ بعد عصر وترتقى من غير ارتقاء .

٣١ - إذا سمع الناس إنساناً يمدح نفسه قالوا إن مدح النفس له رائحة كريهة ولكن الظاهر أن أنوفهم لا تشعر بالرائحة الكريهة التى فى ذمهم غيرهم وهو مدح معكوس لأنفسهم .

٣٢ - مما يؤدى إلى حيرة الإنسان أنه إذا طلب أمراً واتخذ له وسيلة يركب الشطط فى طلب الوسيلة ويغالى بها حتى يهمل الغاية وينساها فى طلب الوسيلة فيحيد عما يريد ، لأن الوسيلة متى صارت غاية فى نفسها قد يتخذ لها هى أيضاً وسائل مستقلة عن غايتها الأولى وقد تمنعه من بلوغ تلك الغاية الأولى وكذلك من يضع الغاية موضع الوسيلة .

٣٣ - إننا أسرع إلى الاعتراف بأخطاء عملنا وأبطأ فى الاعتراف بأخطاء فكرنا ؛ لأن أخطاء العمل لها عواقب ظاهرة بارزة من الصعب إنكارها ، أما أخطاء الفكر فقد تخفى أو تستطاع المغالطة فيها . ومع ذلك فمن الناس من يمارى فى أخطاء عمله ، وهى ماثلة أمامه ، إذ ينسب تلك الأخطاء إلى غيره ، أو إلى سبب آخر غير سببها .

٣٤ - إن الإنسان مولع بأن يربط كل شئ بحياته وحاجاته . فصاحب الطاحون يشعر بأن القمح إنما نبت ونما كى يعطى له عملاً بطحنه ، وكى تظل طاحونه دائرة . قس على ذلك كل أمور الحياة .

٣٥ - إن الإنسان مشغوف بمعرفة المستقبل . وهذا الشغف سببه أنه يميل إلى تصديق حدوث ما يود أن يحدث فيه . وهذه صفة يعرفها الدجالون . ويبنون عليها أقوالهم عند ادعائهم كشف المستقبل .

٣٦ - فى جميع العصور كانت الآحاد من الناس هى التى تعمل على تقدم العرفان . أما الجماعات والحكومات فإنها تتنازعها عوامل ودوافع مختلفة قد تؤدى بها إلى تقييد العلم حتى فى أثناء نشره « وفى كتاب أسباب تفاوت الناس للأستاذ هالدين فصل ممتع فى هذا الموضوع » . وعلى أى حال فالحكومات والجماعات تعنى بجامعة العلم والحفاظ وأهل المرونة أكثر من عنايتها بذوى الفكر المستقل .

٣٧ - بعض الناس الذين تعبر حياتهم عن مبدأ أو فكرة قد لا يستطيعون فهم ما تعبر عنه حياتهم فيركبون الشطط وينزلقون إلى الخطأ والغلط . وقد كان نابليون يحتقر الأفكار قائلاً إنها نظريات قليلة الأثر ، مع أنه كان يعترف (بالعمل إن لم يكن بالقول) إن الحياة الفكرية تبعث الحياة ، والفكر يبعث العمل .

٣٨ - عندما يعمل إنسان لابد له أن يرى أن نفسه أعظم من حقيقتها كى يستطيع أداء عمله ، وهذا أمر مغتفر بسبب ضرورة العمل إلا إذا كان رأيه هذا فى الثقة بنفسه يضر غيره أو يؤله أو يقلقه .

٣٩ - إذا عمل الإنسان لخير غيره ونفعه فإنما يعمل كى يشاركه من يعمل لخيريه فى السرور بذلك العمل ، ومن لا يستطيع السرور بالعمل لغيره يضر ويؤذى بذلك العمل . والظاهر أن فى هذا القول ما يخالف قول كانط « إن المرء لا يستطيع أن يحكم أن الواجب هو دافعه إلى العمل إلا إذا كان العمل يخالف نزعاته السارة وميوله المبتهجة » . ولو أن قول كانط حكم بصعوبة معرفة الدافع إذا وافق العمل نزعاته السارة .

(١٧)

تكملة نظرات جوتا^(١)

يحتفى الأدباء هذه السنة بإحياء ذكرى « جوتا الألمانى » ولقد عادت ألمانيا مجزأة كما كانت فى عهده . وكان « جوتا » ينكر الحروب وقسوتها ويندد بفظائعها التى سماها فظائع الأبالسة . وكان فى صباه قد اشترك فى الحملة على الثورة الفرنسية التى تمخضت على الجمهورية الفرنسية الأولى . وكان « جوتا » يرغب فى السلم العالمى الذى ينشده العالم الآن، كما كان راغباً فى ثقافة عالمية كما يرغب اليونسكو . ولهذه الأسباب كان هذا الوقت أنسب الأوقات للاحتفاء بذكراه . ولم يكن « جوتا » من طبقة الأشراف ، بل أسبق عليه صديقه أمير ويمار لقد الشرف . وقد ذكرنا فى المقال السابق أنه فى شبابه ألف قصة « أحزان ورتير » التى اشتهرت فى عهدها كاشتهار قصة « كلاريسار هارلو » لرتشاردسون الإنجليزى و « هلواز الجديد » . اروسو وكانت على طريقة « الستيمنتاليزم » . ولقوة أثرها فى النفوس حاول بعض الشبان التشبه « ببطل » القصة . ومن أجل ذلك لم يكن أثرها حميداً ، اتسع نطاق فكر « جوتا » ونطاق نفسه بعدها ، بالرغم من أن مواقفه الغرامية كانت بها عاطفة غرامية صحيحة ، إلا أنها كانت ممزوجة بالرغبة فى الخبرة والخبرة صنع العالم المجرب . وكانت تتنازع نفس (جوتا) العاطفة والرغبة فى الخبرة ، وهذا التنازع كان فى كل الأمور ، ومن أجل ذلك كان أديباً وكان عالماً . وقد ذكرنا أنه كان يميل إلى المذهب الكلاسيكى وصفاته من سلاسة وسهولة ووضوح كما فى قصته (هرمان ودوروثيا) ، كما كان يميل أحياناً إلى الشعر الفلسفى ، أو إلى الخيال الرمزى ، كما فى بعض أجزاء القسم الثانى من (فوست) المسمى (هيلينا) والحقيقة أنه كان يشعر بلذة فنية فى تجربة كل نوع من الثقافة والأدب ، فقد قرأ مرة قصيدة تأبط شراً التى مطلعها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيل دمه ما يُطلُّ

وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية فترجمها « جوتا » إلى الألمانية لإعجابه بها . وهذا كما ورد فى كتاب « تاريخ العرب الأديب » للعلامة نيكلسون الإنجليزى . و « لجوتا » ديوان

سماء « ديوان الغرب والشرق » يحاكي فيه بعض الشعر الشرقى ، وسمع مرة أن الإسلام هو الاستسلام لإرادة الله فى كل شئ ، فقال هذا ما ينبغى أن يكون عليه كل إنسان . وألف حكمة فى هذا الموضوع . وقصص « شيلر » التمثيلية على العموم أوقع . إذا قارنا بين قصص « جوتا » أمثال (أجمونت) و (تاسو) و (جوتز) و (افيجنيا) ، بين قصص « شيلر » أمثال (وليام تل) و (مارى ستوارت) و (النستين) و « دون كارلوس » واللصوص ، وقد ترجم (كارليل) قصة « جوتا » النثرية المسماة « ولهم ما يستر » إلى الإنجليزية ، ولكنه عاد يتململ ويتأفف من بعض حوادثها ، والواقع أن هم (جوتا) وغرضه هو أن يعرض كيف اكتسب بطل القصة ثقافة حتى من الحوادث ، والمخالطة الوضعية ، ولم يقصد بالثقافة الزهد ، فقد كان (جوتا) زاهداً فى الزهد ، بل كان يراه مؤدياً إلى ضيق النفس والفكر ، وإنما كان يعنى بالثقافة استخلاص الحكمة الصائبة من تجارب الحياة .

وكانت روح « جوتا » روحاً عالمية تخطت حدود وطنه واحتضنت العالم ، حتى أنه أبى أن يكره الفرنسيين فى عهد نابليون عندما غزوا ألمانيا . وقال لأكرمان كيف أكره أمة أنا مدين لها بجزء كبير من ثقافتى ، والثقافة هى كل شئ . وقال « أوسكار وايلد » فى رسالة (الناقد صاحب الفن) : كان جوتا أول من جرؤ وجاهر بهذه الفكرة العالمية ، وسيزداد أثرها فى العالم حتى تؤدى إلى ترجيح العالمية ، ويمحو النقد الفروق الخاصة ، ويقرب توحيد العقل البشرى على اختلاف أمكنته ، وقد نقده بعض الأدباء نقداً شديداً كما فعل مينزل ، وبعضهم كان نقده يخالطه الإعجاب به مثل نقد هينى الشاعر الألمانى .

وفيما يلى تكملة لما أختير من كلماته ونظراته مع بعض التعليق :

١ - كل إنسان له أخطاء وصفات نقص أو عيوب لولاها ما وجدت شخصيته وفرديته التى يمتاز بها ، ومن أجل ذلك نأنس فى بعض الأحيان إلى أخطاء وعيوب أصدقائنا القدماء ، إذ لولاها محبت شخصيتهم وصاروا أناساً آخرين . فإذا تخلص أصدقائنا منها مرة وافتقدناها فيهم أنكرناهم ، وقد نشعر بقلق إذ نشعر بغير المألوف منهم . والواقع أن هذا ليس فى الأصدقاء فحسب ، فإن الحياة كلها مثل حجرة علقمت صور على جدرانها ، فإذا أزيلت بعضها من مكانها ربما أحسنا بقلق هو شبيه بقلق التشاؤم بالأمر غير المألوف ، وكأن إزالتها من مكانها نذير بالموت والفناء .

٢ - إن الإنسان قلما يستطيع أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم ، لأن كلامهم يمر خلال إحساساتهم وخوارج نفوسهم ، ولو استطاع الإنسان أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم وتأويله حسب أهوائهم ، لتجنب كثرة الكلام ، كى يسلم من عنت أو خطب .

٣ - إن الرجل المعجب بنفسه يظهر إعجابه بنفسه بوسائل كثيرة ، وإذا منع من بعضها استحدثت أخرى ، فهو يظهره بضحكة أو ابتسامة أو سخره أو غير ذلك من الوسائل المتنوعة . ومهما كان الأمر الذى حركه إلى الضحك أو الابتسام بعيداً عن موضوع إعجابه بنفسه ، فإنه يظهر فى ضحكه أو ابتسامه أنه مسرور بنفسه راض عنها ، معجب بها ، والرجل الذكى قد يرى أموراً كثيرة فى الحياة تستحق الضحك والسخر ، ولكن الحكيم إذا تدبر مآسى الحياة ومشاقها وآلامها وعجز الإنسان فيها مهما كان قادراً . إذا تدبر كل هذه الأمور ، منع نفسه من السخر بقدر ما يستطيع منع نفسه .

٤ - مما يدل على عجز الناس أن كثيراً منهم إذا واجههم الناس بعيوبهم يتحملون العقاب على تلك العيوب ، ولكن إذا حاول محاول أن يرغمهم على مزايلتها ومباعدتها ضاقت صدورهم ، فهم يفضلون أن يعاقبوا ، وأن يظلوا عليها إذا لم يستطيعوا دفع الوصف بها أو دفع العقاب . وهذا يظهر فى حياة الصغار كما يظهر فى حياة الكبار .

٥ - من الغريب أنك تجد فى بعض الآحايين شباناً يتفق أنك لاتكاد ترى فيهم موضع نقص يصلحهم ، ولكن اندفاعهم مع دافع الشباب إلى مجارة تيار الناس يجعلهم كالسفينة التى تتقاذفها الأمواج ، فهذا الدافع هو أخوف ما يخاف عليهم ، ولا سيما أن الشباب مندفع بطبعه ، وأنه بالرغم من مظاهر ثقته بنفسه كثيراً ما يخفى قلة الثقة ببصيرته التى لم تكتسب بعد من تجارب الحياة ، فينقاد لتيار الناس ولعدوى خصالهم وأعمالهم بسبب ذلك .

٦ - من الناس من لا تتفق طباعه وأية بيئة أو مكانة ، ومن أجل ذلك ينشأ ذلك الصراع المخيف فى النفس الذى يضيع الحياة سدى ، ويقضى على مسراتها ، ولا يقتضى إنفاق المرء والبيئة أن ينقاد ذلك الإنقياد الجارف الذى حذر منه فى النظرة السابقة .

٧ - ليس من السهل أن نصيب العدل فى قدر فضل الساعة التى نحن فيها ، فإذا كانت خيراً أوجبت فرضاً ، وإذا كانت شراً حملتنا ثقلاً وهماً ، وإذا كانت لا خيراً ولا شراً كانت مللاً وسأمًا ، والنفس تميل إلى دفع كل هذه الأمور عنها وإبعادها حباً للراحة ، خلاصاً من المشقة فى الحالات الثلاث إلا من شذ فى النفوس غير المسوقة بمبدأ أو وهم أو إيمان أو إحساس شديد .

٨ - إن الحق والباطل يتبعان من منبع واحد فى النفس ، وكثيراً ما يكونان متصلين فيها اتصالاً قليلاً أو كثيراً . ومن أجل ذلك ينبغى الحذر إذا أردنا محو الباطل من محو الحق معه .

٩ - مما يدعو إلى الأسى أن الناس يزهدون فى الحق لا لأمر إلا لأنه معروف ملمول مألوف ، والألفة تبعث الملل ، وهم لا يفتنون إلى أنه بالرغم من أنه معروف ، لا يستطيعون تطبيقه فى الحياة وإنجاحه وتحقيقه ، فهو يشق عليهم فى العمل وإن كان لا يشق بعضه فى الفكر ، ولعل هذا أيضاً من بواعث الزهد فيه مادام يصعب ويكلف النفس ألماً ومشقة .

١٠ - إذا بدأ الإنسان يعمل قيد ضميره بالعمل وضروراته ، أما إذا تريت وجعل يفكر فإنه يعطى لضميره فرصة لاستعادة حرته - هذا إلا إذا كان التفكير فى تهيئة الأعذار التى تسوغ عمله ، فمثل هذا التفكير لا يعطى ضميره حرته .

١١ - إذا أصغيت إلى إنسان ، فإنه قد يكون مخطئاً مخدوعاً ، وإذا أصغيت إلى أناس كثيرين ، فإنهم كذلك قد يكونون مخطئين مخدوعين . ومع ذلك فإن كثرتهم قد توهمك أنك أصبت الصواب فى قولهم ، وأكثر الناس يحكمون بضغط حكم من حولهم من الناس من غير فحص وتقدير لذلك الحكم ، بل إنه مهما حاول الإنسان التخلص من أثر قول من حوله وحكمهم يجد مشقة أو استحالة .

١٢ - إذا استحسن الناس مبدأ أو رأياً فى الحياة واعتنقوه لا تلبث محاسنه مع مضى الزمن أن تزول . وتظهر وتعظم أضراره ومفاسده من سوء الأخذ به ، فإذا استفحل ذلك حاول الناس القضاء عليه ، ولكن عندما يقضون عليه يقضون على النظام الذى لا تستقيم حياتهم إلا به ، فتعم الفوضى حتى يضطروا إلى إعادة النظام على أساس جديد أو على الأساس القديم ممزوجاً بقليل من التجميل والتحسين . وعلى ذلك فالجهد الذى يبذل فى سبيل التغيير والإصلاح ، أكثر من التغيير والإصلاح إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر لا إلى المسميات .

١٣ - معرفة الخطأ أسهل من الوصول إلى الصواب ، فليس كل معرفة للخطأ تؤدى الصواب ، فإن الخطأ يوجد على سطح الأمور ، أما الصواب المجهول فلا يستطيع كل إنسان البحث عنه . ومع ذلك فإنه بعد تعذر معرفته ، إذا عرفه الإنسان كانت له فجأة الأمر المتوقع ، وبغته الأمر المعروف المنسى ، مع أنه لم يكن معروفاً ولا منسياً .

١٤ - إن محاولتنا أن نضع أنفسنا موضع الرجل الذى يخدع نفسه بأنصاف الحقائق وأجزائها ، أشق على العقل والنفس من فهم الرجل الذى كل فكره خطأ .

١٥ - إذا كان الفكر والمشاهدة مصحوبين بالرغبة فى اعتقاد السوء ، صرفتهما تلك الرغبة عن تبين أعماق الحياة فلا يصلان إلا إلى سطح الأمور . . وهو أمر صحيح فى العلم ، كما هو صحيح فى الأدب ، فما استطاع الشاعر العالمى « شكسبير » مثلاً أن يفصح عن حقائق نفوس من يصف من الناس حتى حقائق صفات الأشرار منهم ، إلا بأن يضع نفسه مكانهم كى ينظر إليهم بالعطف ، فيستطيع أن يستخلص حقائق نفوسهم ، وهو قلما يشذ فى ذلك إلا فى قصصه الأقل جودة .

١٦ - إننا نستطيع أن نُغفل مناقضة لنا من غيرنا ، أما إذا أتت المناقضة لنا من أنفسنا وألحت ، كان كل ما نستطيع عمله أن نصح تلك المناقضة أو أن نصح نفوسنا ، ولما كان تصحيح ميل النفوس أمراً عسيراً ، فإن النفس تحتاط حتى لا تقتحم عليها مناقضة لها من نفسها ، وللنفس وسائل عديدة فى هذا الاحتياط .

١٧ - ربما أصابت المصائب العامة أو الخاصة إنساناً قوياً ، فلا يكون وقعها أشد ولا أثرها أعظم من وقع المداراة وأثرها فى أعواد حبات الخنطة ، فإنها تنزع الحبات ، ولكن تلك الحبات لا يهملها أتعود فتزرع كى تستبعث محصولاً جديداً أم تؤخذ فتطحن فتصير غداء وقواماً . وكذلك ما تستبعثه المصائب من الرجل القوى العاقل الرشيد من الأعمال والأقوال تكون دائماً صلاحاً لنفسه ، يستدرك به فارط أمره أو صلاحاً للناس . وبالعكس ذلك ما تستبعثه من الرجل الأخرق أو الضعيف ، وهذا مثل أعلى قلما يصيبه إنسان ، ولكنه إذا كان دائماً نصب عينيه ، وربما أصاب بعضه إذا كانت نفسه مؤاتيه له .

١٨ - إننا نرتاح للأمور الوسطى ، ونقبل على ما كانت ملكاته فى حدودها لأننا نأنس بمخالطة من هو أقرب إلينا منزلة وشبهاً ، وبمعاشرة من يشاكلنا ولا يكلفنا مشقة الارتفاع فوق الأمور الوسطى وهذا من أسباب رواج شأن أصحابها .

١٩ - إن الكفاح بين القديم الموجود ، وبين الإصلاح والتجديد ، كفاح دائم أبداً وكل نظام إذا اعتوره الفساد دَفَعَ قهراً إلى ضده . وهذا مشاهد فى الأدب كما هو مشهد فى الحياة عامة. مثل النزاع بين أصحاب نظرية امتلاك الضياع الكبيرة ، وأنصار نظرية تأميم الأرض أو الكفاح بين أنصار نظرية حرية التجارة وأنصار حماية المنتجات المحلية . وهذا الكفاح على تعدد مظاهره كفاح معروف من قديم الزمن .

٢٠ - الحرية المطلقة أمر مرغوب فيه ، فلا عيش ولا صلاح للناس معها لأن الناس إذا

تحرروا من كل القيود تحرروا أيضاً عما يمنعهم من الخطأ ، وما يردعهم عن الشرور - وهم إذا طلبوا الحرية المطلقة ، إنما يطلبون نظاماً جديداً وقيوداً جديدة ولا يعرفون خطر طلب الحرية المطلقة إلا بعد أن يكونوا بنارها ، ويصطلوا الليل منها ، وبعد أن يمعنوا فى الأخطاء الناشئة من الإفراط أو التفريط .

٢١ - السعيد هو الذى يعمل ليخلو من هم الحياة وقلقها . فإذا لم يؤد العمل لجمع المال إلى الهم والقلق كان من عمل السعيد أما إذا أدى إلى الهم والقلق لم يكن العمل لجمع المال طريق السعادة ، بل طريق الشقاء فليست الثروة أن تكون ذا مال كثير ، بل الثروة أن تخلو نفسك من توقع الحاجة ، ومن خشية الفقر ، فمن استطاع أن يخلو نفسه من هذه الخشية لم يكن فقيراً وإذا لم يستطع كان فقيراً .

٢٢ - كل عمل يراه الرجل الضيق الذهن حرفة أو صنعة أو مهنة ، يراه الرجل العظيم فناً جميلاً ، فمهما كان خادماً لحرفته أو صنعته ملتزماً لها ، فهو خادم لفن جميل . ومثل هذه الخدمة واجبة على كل إنسان سواء أكان كبيراً أم صغيراً فى مقامه ومرتبته . وإذا عمل الإنسان عملاً واحداً بصدق واتقان ، كان عمله مرآة يرى فيها صورة كل ما يمكن عمله بصدق واتقان .

٢٣ - لا شئ يدعو إلى التزام جادة الفهم المشترك فيه بين الناس مثل العيش كما يعيش الناس ، والالتزام ما يلتزمون ، ولا شئ أدعى إلى ما يشبه الجنون من الشذوذ عن الحياة العامة التى يحيها الناس ومن الخروج على فروضها ونظمها .

٢٤ - لا شئ يدعو إلى التزام جادة الفهم المشترك فيه بين الناس مثل العيش كما يعيش الناس ، والالتزام ما يلتزمون ، ولا شئ أدعى إلى ما يشبه الجنون من الشذوذ عن الحياة العامة التى يحيها الناس ، ومن الخروج على فروضها ونظمها .

٢٥ - التجارب والخبرة لا حد لها ، أما النظريات فإنها محدودة بحدود العقل . ومن أجل ذلك كثيراً ما يعود الناس إلى نظرية بعد نبذها وتركها إذا ازدادوا خبرة وتجارب .

٢٦ - إن أغلاط المرء فى الحياة قد تكلفه عناء كثيراً ، وتوقع به ضرراً بالغاً ، ومع ذلك لا يستطيع أن يثق أنها استنفذت كل عواقبها ، فإنها قد تكون لها عواقب قصيات تطارده بعد أن يظن أنه قد عوقب عليها عقاباً كافياً - ومع ذلك فالشبان خاصة يندفعون إلى أمثال تلك الأغلاط ، ولا يعرفون ما هو مخبأ لهم ، كما قد لا يعرف ذلك الكبار .

٢٧ - فى الفكر كما فى العمل ينبغى معرفة حدود ما استطاع الوصول إليه كى لا تضع جهود المرء سدى ، ومع ذلك ينبغى أن يثابر المرء على اعتقاد إمكان فهم المجهول الذى لا يستطيع فهمه ، وإلا قصر فى أمور كثيرة فى بحثه ، وكان من الجائز أن يصل بذلك البحث إلى كشف كثيرة ما كان يتوقعها .

٢٨ - إنك إذا أردت من إنسان أداء واجبات ومنعت عنه مزايا يستحقها لأدائها ، فاعلم أنك ستدفع ثمنًا غاليًا لهذه الخطأ ، ولا تحسب أنك اقتصدت ، والناس إذا أرادوا الغبن قالوا لا شكر على واجب .

٢٩ - إن الذين عاشروا الأطفال يعرفون أنه إذا زاد التأثير عليهم عن حد معين يخفق هذا التأثير فى إحداث رد فعل يؤدي إلى مخالفة وعناء . ومن أجل ذلك كانت حياة الصغار مملوءة بالتسرع فى الحكم على الأمور بأحكام غير ناضجة . لا بد أن يمضى زمن حتى يستطيع المدرس أن يصحح أثر هذا التسرع وهذا العناء - والمدرس الفطن هو الذى يستطيع أن يعرف حد السيطرة الذى يؤدي بعده التأثير إلى المخالفة والعناد . ويعجبني خطة بعض المدارس الإنجليزية التى تكل أمور التلاميذ أنفسهم ، حتى خصوماتهم وحتى حفظ النظام ، فينشأ التلميذ وهو يشعر بالمسئولية ، كما أنه لا يحس تلك السيطرة القاهرة التى تؤدي إلى العناد .

٣٠ - إذا أراد الإنسان أن يركن إلى خبرة غيره ، ينبغى أن يتذكر أن ذلك الأمر المختبر قد أصبح بينه وبينه حاجزان : حاجز نفسه وحواسه ، وحاجز نفس من يركن إلى اختباره ، وقد تتغير الحقائق من إحدى الناحيتين .

٣١ - إذا فقد الإنسان الفهم الأساسى العام ظن أن كل ما يشتهيه أمر ضرورى وأن كل ما يسره أمر نافع ، فيقيس الأمور بمقياس باطل .

٣٢ - لا يستطيع الإنسان أن يعيش من غير سلطة مسيطرة على حياته ، ومع ذلك فإن هذه السلطة فيها من الخطأ قدر ما فيها من الصواب والحق . فإنها تحافظ على أمور كثيرة ينبغى أن تزول ، وتسمح بزوال أمور كثيرة ينبغى أن تصان ، فهى سبب عدم تقدم الإنسان .

٣٣ - بعض الناس يكونون على جانب كبير من النبل والشرف والصدق لولا أنهم ذكروا مرة أمراً مكذوباً أو باطلاً ، ثم أرادوا أن يسوغوا أنفسهم ويعذروها بأن يعيدوا ذكره مراراً كى يصدق الناس فتتدلى بهم هذه الغريزة يدل أن تزكيتهم وترفع من شأنهم .

٣٤ - لا يمتاز الإنسان بالفضل على خصومه ، إذا لم يستطع بالفضل معرفة فضلهم ، والإنسان لا يستطيع أن يشغل نفسه بكل إنسان ، ولا يعيش مع كل إنسان ، فينبغى إذا أن يعز أصدقاءه ، وأن لا يكره وأن لا يضطهد أعداءه ، أو من وضعهم موضع الخصوم .

٣٥ - قبل الثورة كان كل أمر مجهوداً يطلب من الناس أداؤه ، وبعدها عاد كل أمر مطلباً للناس يطلبونه ، وهذا يذكرنى نقد « مازينى » للثورة الفرنسية إذ قال إنها جعلت الناس تنظر إلى حقوقهم ، وإلى طلب تلك الحقوق ، وصرفت الناس عن واجباتهم - وربما كان فى هذا القول مبالغة ، إلا إذا أريد أن يكون تقديم الواجبات مبدأ عاماً .

٣٦ - المخدوع بقول غيره أو عمله إنما كان مخدوعاً ، لأن فى نفسه صفات مكنت المخادع منه ، فالمخدوع إذا هو الذى خدع نفسه بسبب ذلك .

٣٧ - الحصاد أشق من نثر البذر فى الزراعة ، وكذلك فى الحياة تزداد المشاق كلما قارب الإنسان مقصده الذى يسعى إليه ، وكذلك فى الفنون كلما ألم بها الإنسان وتفقه فيها ، عرف صعوباتها . وأما المبتدئ فيها غير الممارس لها ، فهو أكثر اغتراراً بها وبالقدره على التبريز فيها .

٣٨ - السعادة هى الاستسلام لإرادة الله ، فنتقبل كل ما يصيبنا كأنه ناشئ من إرادتنا .

٣٩ - مهما حررَ الفن النفوس ، فإن أساسه عقيدة وإيمان ومهما خالطه من الفكاهة فإن أساسه الجد .

(١٨)

تنمية نظرات جوتا^(١)

تنقسم حياة جوهان وفانج فون جوتا إلى عهود : أولاً عهد العاصفة والشدة وهو عهد الانتدفاع مع العاطفة والاستسلام للخيال وفيه ألف (جوتز) و (ورتز) . ولو أنه لم يكن مستسلماً كل الاستسلام كما سيتضح من تفسير (هتتر) بالنون و (دودن) لمعنى مؤلفاته فى ذلك العهد . ثم يأتى عهد رحلته إلى إيطاليا ومكتبة فيها وقد أكسبته الآثار القديمة ميلاً إلى المذهب الكلاسيكى وزادت الأثر الذى كان قد اقتبسه بقراءة كتب القدماء . وبعد عودته بدأت صداقته لشيلز الشاعر ، وكان شيلز أشد ميلاً إلى التعبير عن الجانب الثائر من النفس البشرية كما فى قصة (وليام تل) و (اللصوص) و (دون كارلوس) و (عذراء أورليان) وهذا مذهب خلفه جوتا بعد تأليف (جوتز) و (أحزان ورتز) كما أن فى قصص شيلز أناساً وصفهم بصفات الكمال الإنسانى بينما أناس قصص جوتا يتعثرون فى أخطائهم ويتعلمون منها ومع ذلك كان جوتا متزناً فلم يحاول اطفاء ثورة النفس على مفاصد الحياة ونظمها . ولكنه مع ذلك كان يدعو إلى تطهير النفس أولاً من شوائب الأحقاد والأثرة قبل حمل شعلة الحرية المقدسة . وكذلك كان يفضل العمل المتدرج ويرى أنه أنفع من الطفرة التى تؤدى إلى التراجع والتقاعس والتقهقر والانتكاس .

ولعل اتزان هذا سبب نقد الأحزاب المتطرفة له . وفى كلماته مجده يحاول إبراز الحق الذى فى الآراء المتناقضة ويرى أن من الحكمة أن لا يهمل الحق الذى يخالف الباطل . وهذا من شدة إعزازه للحق وصيانتة له من الضياع فى أى جانب كان بينما كان غيره إذا أراد محو باطل لا يصون الحق الذى يمازجه . ومن أجل هذه الصفة فيه قد يخال أنه يتردد بين النقيضين ولا تردد له . ولعل هتتر (بالنون) هو الناقد الذى فسر أحسن تفسير وتابعه إدوارد دودن . ومن تفسيرهما نرى أن ورتز فى قصة (أحزان ورتز) يمثل الشاب الذى يعالج إحساساً شديداً لا يؤدى إلى عمل نافع ثم هو يطلب المحال ويسوقه الخيال ، وكل هذه صفات مرض ونقص تؤدى إلى الهلاك كما أدت إلى هلاك ورتز . فهو لم يصف ورتز كى يكون بطلاً يحتذى بل وصفه للعظة والاعتبار وتجنب صفات نقصه . ولكن كثيراً من الشبان تشبهوا به فهلكوا . ولعل

سبب تشبههم به أن جوتا يكسو أخطاء الشاب ورتو وعيوبه جمال فنه وهو لو لم يكسه لأخطأ ، لأن أخطاء الشباب وعيوبها مكسوة بطبيعتها جمال روح الشباب وهو جمال فنى .

وفى قصة (ولهم مايستر) يتدرج الشاب ولهم من الانقياد للخيال الكاذب والعاطفة الخرقاء وهما يستهوياه مرة بعد مرة . فيكون عمله وخلقه غير مطابقين لمقاصده فيتدرج بالتعلم من أخطائه وعيوبه إلى العمل الصحيح المنتج وإلى فهم الأمور على حقيقتها بعد تضليل الخيال له تضليلا طويلا قد يضل معه القارئ إذا كان شاباً ، وقد يستهويه ذلك الضلال . ولكن جوتا لا يريد للشاب أن يتعلم كما تعلم ولهم مايستر من عيوبه وأخطائه إذ أن هذا يكلفه من الجهد والوقت ما هو أنفوس وأطول من أن يضيع هكذا . ومن أجل ذلك رسم خطة للتعليم تجنب الشبان مثل أخطاء ولهم .

وكذلك نرى فى قصة (تاسو) الرجل الذى يستعبده الخيال ويكاد يهلكه لولا أن له صديقاً ينجيه . أما فى قصة فوست فنرى فوست الذى استفحلت فيه روح التملك والسيطرة حتى تملك حبيبته وهو غير مالك لنفسه ولا مسيطر عليها وكاد يذهب ضحية الإغواء لولا أنه ارتدع وأتعظ وعلى إبليس (مفستو فيليس) فى اللحظة الأخيرة . وبذلك نجا ولم يرد جوتا للناس أن ينقادوا لحب السيطرة كما انقاد فوست فى أكثر حياته (ولو أنه عرضه عرضاً فنياً مغرياً) بل هو يرى أن لا نجاة للعالم والأمم إلا بأن يتعلم الآحاد والأمم ضبط النفس والقضاء على عاطفة حب التملك والتحكم .

وهكذا نجد لكل قصة من قصصه درساً وموعظة . ويخطئ من يستهويه جمال الفن فلا يبحث عن الفكرة الفلسفية والمغزى المراد .

* * *

وبالرغم من هذه الثقافة العالية فقد اختلف النقاد فيه . فمنهم من أسقطه ، ومنهم ، وهم الكثرة ، من رفعه إلى السماء ؛ سماء الفن والثقافة : قال (بورن) : « لقد فضل جوتا الدعة والراحة على البطولة والآلام . ولكن الأبطال لا تردهم الآلام عن نصر الحرية ونقد مفسد الحكومات والانتصار لشعوبهم كما فعل مونتسكيو وفولتير وروسو التعمس الفقير المريض الذى عاش بالرغم من ذلك حر الرأى ، وملتون لم يمنعه قرض الشعر من محاربة الاستبداد » . وقال منزل : « إن كل مؤلفات جوتا إنما هو عرض لشخصيته فى أحسن وضع فنى . فالرجل مع خصوصية ذهنه وخياله ما كان يهمه غير نفسه واشباعها من كل إحساس بمظاهر

الجمال . وقد كان هم جوتا بدل تحرير العقل الألماني أن يحمل عقله وعقل قومه نير كل ثقافة، وأن يداعب حضارة كل أمة تحت الشمس مداعبة الممثل الذي همه الترف واللذات والأثرة » .

وقال جان بول رختر : « عندما أردت أن أزور جوتا قيل لى أنه الآن لا يعجب بشئ ولا يستحسن شيئاً وحتى نفسه التى كان يعجب بها أصبح لا يعجب بها فسألت صديقاً لى أن يحولنى إلى حفرة متحجرة أقدمها له لعل غرابة شكلها تستدعى تنبيه لها . فى أثناء الحديث ظل ساكناً إلى أن جاء حديث الفنون فقرأ لنا قصيدة له لم تنشر . وكنت أشعر أن صوته يحاول أن يدفع بحرارة قلبه كى تخترق غشاء الثلج المتجمد فوقه » وهذا الجمود ضد ما وصفه به حليم فى شبابه .

وقال كارليل : « إنه عصر جديد ، ذلك العصر الذى يظهر فيه رجل حكيم عاقل يستوعب ويحمل عيوب عصره ويتغلب عليها ويشق لنفسه طريقاً فى اتجاه وطريق كان لا يمكن اختراقهما . وهذا هو ما صنع جوتا ، ومؤلفاته هى مرآة عصره الذى وصفه وأوضحه وفسره » . وقال نيبوهر : « أن الألمان الآن يسمعون اسم جوتا بخشوع وإعجاب كما كان قدماء الإغريق يسمعون اسم هومر . وجوتا قد بلغ فى قومه منزلة لم يبلغها أحد غيره وسبب مؤلفاته صارت الأمم الأخرى تهتم للأدب الألماني وتحترمه » .

وقال أمرسون : « ليسفى العالم شئ لم يهتم جوتا بدراسته وتفهمه . فهو مقرر يسجل كل أمر وظاهرة . وقد وصل فى بحثه إلى حدود المجهول . ثم خطا خطوة وراءها وعاد سليماً كما كان قدما » الإغريق يقولون إن الاسكندر المقدونى وصل فى فتحه إلى حدود العالم ثم خطا خطوة وراءها » .

وفيما يلى تتمة لما أختير من كلماته مع بعض التعليق عليها :

١ - مهما كانت حياة الإنسان حياة معتادة مألوفة ومهما كانت النفس راضية بهذه الحياة، فإن فى النفس نزوعاً خفياً إلى مطالب أسمى ونزعات أرفع وأملاً للنفس من تلك الحياة المألوفة المعتادة . والنفس تبحث حولها عن وسائل تدنى بها تلك المطالب وترضى بها تلك النزعات - وقول جوتا هذا يذكرنى بقصة جون بوكان التى عنوانها « ملوك أوربون » وهو يتخيل فيها أن ملوك ذلك العالم الموصوف قد حكم عليهم أن يهبطوا إلى هذا العالم الأرضى، وأن تعيش نفس كل ملك فى نفس إنسان من السوق : وقد ذكر فى المثل القديم أن نفس كل

إنسان تجمع بين قرد وأسد . وفى قصة جون بوكان ترضى النفس بالحياة المعتادة المألوفة حتى إذا تحركت نفس الملك التى فيها نزعته إلى مطالب عالية وأظهرت وسائل وملكات أسمى مما اعتادته .

٢ - كلما تعلم الإنسان درساً هاماً فى الحياة عاقه الفقر الروحى عن الاستفادة منه كل فائدة . ولكنه مع ذلك يكتسب ولو شيئاً قليلاً من الخبرة به . ولعل هذا الفقر الروحى كما سماه جوتا أو العجز الدائم كما سماه مينكين الناقد الأمريكى - هو سبب تخلف الإنسان عن مسايرة العلم وسبب عدم الاستفادة منه أعظم فائدة كما وصف الأستاذ جوليان هوكسلى ، وسبب اختلال حياة الناس واعتزازهم بذلك الاختلال أو اعتزاز بعض المفكرين زاعمين أنه لو بطل الاختلال توقف نمو الإنسان الفكرى . وهذا من باب جعل الإنسان نقصه وعيبه محمداً وميزة . وهذه الصفة فى الإنسان قاعدة عامة سيكلوجية كما أوضح جوتا فى مقال سابق أى تحويله نقصه إلى مبدأ محمود .

٣ - قد يخطئ من يظن أن شرف النفس يعوق صاحبه لطيبة قلبه عن إدراك مكر الخبثاء . ولكن اعتقاد المرء هذا الظن قد يدعو إلى الاسترسال وقله الحيلة ، فينكشف أمره لدى شريف النفس ، حتى ولو كانت آراؤه محدودة كما أن مخالفة عمل الماكر لما ألفتة نفس الشريف النفس تطلعه أيضاً على احتيال الماكر الخبيث .

٤ - لا يستطيع المرء أن يؤسس مثال كمال إلا على أساس الأمور الواقعة الكائنة ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الكمال غير المحدود إلا عن طريق الأمر المحدود . وأما إذا حاول المرء تأسيس مثال الكمال على خياله غير المحدود لا على الأمور الواقعة المحدودة ضل سعيه وازدهاه الخيال واستعبده الوهم .

٥ - القوة التى تدعو المرء إلى التحكم والأثرة هى القوة نفسها التى لو شاء دعتة إلى أن يملأ حياته جمالاً وحرية وإخاء فتعم العالم هذه الأمور . ولكن عليه أن يوجه تلك القوة فى نفسه إلى الجمال والحرية والإخاء توجيهها مستأنفاً مستمراً مثابراً عليه .

٦ - إن الشعور الشديد فى النفس إذا لم يتخذ كقوة لأداء عمل نافع كان مرضاً وأدى إلى اختلال الحياة .

٧ - إن الخرافات جزء أصيل فى النفس الإنسانية فإذا حاربناها فإنها تختفى حتى نظن أنها قد زالت . ولكنها تكمن فى خبايا النفس حتى تجد فرصة فتظهر (*) .

(هذه النظرية لا تطلق على جميع الناس ، فهناك أشخاص قمعوا كل خرافة قمعاً أبدياً فلا يمكن أن تجد فى أنفسهم فرصة لكى تظهر - المقتطف) .

٨ - إن الرجل الذى يتعلم بالفطنة الحدود والقيود التى ينبغى أن يتقيد بها ثم يلتزمها مختاراً غير مقهور ، يستطيع مع ذلك أن يصل إلى الحرية . أما الرجل الذى يقهر على التزام تلك الحدود والقيود قهراً ، فإنه قلما يصل إلى الحرية وهو إن وصل إليها وجد لها مرارة وألماً .

٩ - لا تنال أمة ملكة الحكم على الحقائق حكماً صادقاً إلا إذا استطاعت أن تحكم على نفسها حكماً صادقاً . فالأمة التى تتهرب من الحكم على نفسها لا تستطيع الحكم على الحقائق حكماً صادقاً . وهى لا تستطيع الحكم على نفسها إلا بعد مراحل من الثقافة والنضج والوعى الصادق .

١٠ - أن مقاومة الحقائق الفكرية مثل تحريك النار إنما تطير منها ما هو شبيه بالشرر فتشتعل النار فيما لم تشتعل فيه من قبل فالعنف ليس السبيل لمحاربة رأى لأنه يعد عجزاً عن محاربته بالحجة .

١١ - ليس النجاح فى الحياة فى معرفة النفوس البشرية ، بل فى أن تكون أكبر لباقة ومهارة فى وقت معين من منافسك الذى هو أمامك يواجهك . فربما كنت خبيراً بالنفوس ، ولكن لا تستطيع أن تنتفع بخبرتك .

١٢ - من الصعب أن يعرف الناس بعضهم بعضاً حتى ولو كان داعيهم إلى ذلك العرفان أحسن الميول وأسمى المقاصد فكيف بهم إذا تملكتهم إرادة الشر كما يحدث فى كثير من الأحوال عند الحكم على الناس . وهذا كما قال رومان رولان : « إن كل إنسان لغز يصعب حله سواء أكان يحاول حل لغز نفسه أم لغز نفس غيره ومع ذلك فلا يستطيع الناس أن يمتنعوا عن الحكم على الأنفس والأخلاق ؛ إذ أن هذا الحكم جزء ضرورى من الحياة .

(١٩)

تتمة نظرات جوتا (*)

نشرنا فى العدد السابق جملة من هذه النظرات العميقة . بقيت نظرات حارة فى غرور الإنسان وارتكابه الأغلاط بسبب هذا الغرور .

١٣ - من أشد أغلاط الشبان حمقاً ظنهم أنهم يفقدون أصالة الرأى وميزة الابتكار إذا اعترفوا بحقيقة اعترف بها الناس قبلهم فيحاولون ابتكار شئ جديد حتي ولو كان مناقضاً للحقيقة ومخالفاً لها .

١٤ - الكفر بالنعمة وإنكار المعروف والجميل المصنوع نوع من العجز والضعف وما رأيت قط رجلاً قادراً يكفر بالنعمة وينكر الجميل إلا إذا كان فى نفسه جانب ضعف خفى .

١٥ - ليست التقوى غاية وإنما هى وسيلة إلى الثقافة النفسية . والذين يتخذونها غاية لا وسيلة ، ينتهون إما إلى مخادعة أنفسهم وإما إلى مخادعة الناس . ولعله يعنى بالتقوى التى هى غاية مظاهر التقوى التى تخلو من الصفاء الروحى وطيب السجايا .

١٦ - ليس أساس الصداقة الحب بل أساسها الاتفاق فى المقاصد والأغراض مهما كان اختلاف الوسائل وحالات الحياة . قال جوتا ذلك فى الصداقة بينه وبين شيلر وكانا بنشدان الحق والجمال على اختلاف وسائلهما .

١٧ - كما ينبغى للمرء أن يحذر كل الحذر من العناد والإصرار على الأخذ برأى نفسه ونظره إلى الأمور ، كذلك ينبغى أن يحذر من عجزه إذا حاول التخلص من هذه الحالة والأخذ برأى غيره .

١٨ - كل أمر يحدث يحاول أن يشغل مكاناً لنفسه ، ومن أجل ذلك يدفع أمراً آخر عن مكانه ويقلل مدة بقائه ، فالأمور بينها تنازع كتنازع الناس البقاء .

١٩ - الرجال والشيوخ أميل إلى استنتاج القاعدة العامة وإلى تفضيلها . أما النساء فهم مثل الشبان أميل إلى الشواهد الشاذة عن القاعدة - على أن كل إنسان يميل أحياناً إلى تطبيق القاعدة من غير نظر إلى الأحوال الخاصة الاستثنائية ، كما يميل أحياناً إلى خلق حالة استثنائية لا وجود لها .

٢٠ - لما كان الخطأ يعاد فى العمل ويتردد كان من الواجب أن نعيد ذكر الصواب والحق مهما كانا معروفين . ومن الخطأ أن نهمل ذكرهما اعتماداً على أنهما معروفان مألوفان وهذا يصدق فى التعليم كما يصدق فى الحياة الخاصة أو العامة .

٢١ - ربما استطاع المرء مقاومة مضايقة الحوادث اليومية بذكر حوادث تاريخ الجماعات الإنسانية فى العصور العالمية وما كان بها من كوارث يتأسى بها .

٢٢ - إن أدب اللغة المكتوب المتوارث هو جزء ضئيل مما قيل وما صنع فى حياة الناس . ومع ذلك نرى فى كتب الأدب أموراً وقصصاً وأقوالاً وأحوالاً وآراء وأعمالاً وأحاسيس معادة مكررة . وهذا يدل على أن عقل الإنسان ومآله محدودان .

٢٣ - أحسن الحكومات هى التى تعلم المحكومين حكم أنفسهم بأنفسهم .

٢٤ - قد يكون خلو المرء من الخطأ سببه أنه لا يعتزم عمل أى أمر معقول فهذا الخلو من الخطأ ليس فضلاً له بل هو قصور .

٢٥ - أحسن الجماعات هى التى يكون حديثها تعليمياً وسكوتها تهذيباً .

٢٦ - إذا أستأنف إنسان حكم أهل عصره ولجأ إلى ما يتوقع من حكم الأجيال القادمة دل ذلك على شعور واضح منه بأن فى حياة الإنسان حقاً خالداً إذا لم يظهر لأول وهلة فإنه سيظهر فى المستقبل من الدهر ، ويحول القلة إلى الكثرة - وقول جوتا هذا صحيح ، ولكن هذا الشعور قد يكون مؤسساً على غرور الثقة بنفسه أو غرور الثقة بالناس .

٢٧ - عند الحاجة ينبغى الحذر من أن تتقلب إلى كره ومقت كما يصنع بعض العلماء عند تنفيذ كل منهم رأى مناظره . فإن شعورهم بكره رأى المناظر يتحول إلى شعور بكره صاحب الرأى حتى كأنه عدو لدود ، قد يكون قول جوتا هذا صحيحاً ، إلا أن هذا التحول أكثر ما يكون بسبب الأثرة وحب الاستعلاء والغرور وطلب الظهور وهى صفات كثيراً ما تكون فى نفوس العلماء وتظهر عند البحث النظرى ، والشعور بكره الرأى إنما كان لأنه يخالف رأى كارهه ، فقد ذكر جوتا فى مقال سابق أن الإنسان قلما يهتم انتصار الحق إلا إذا كان انتصاره يركى ويعزز رأيه .

٢٨ - كما أن روما القديمة كان بها عدا سكانها من الأحياء سكان من التماثيل المنصوبة فى كل مكان ، كذلك هذه الدنيا ، بها فضلاً عن الحقائق دنيا من الأوهام أشد أثرة فى النفوس ، وأكثر الناس إنما يعيشون فى دنيا الأوهام التى فى الدنيا وهم يحسبون أنهم يعيشون بنفوسهم وقلوبهم وعقولهم فى عالم الحقائق .

٢٩ - لقد شُبّه ثوار الثورة الفرنسية بالمجانين ولكن أفواه المجانين قد تنطلق بالحق حين يخشى المستذلون النطق به . وبالرغم من ذلك فقد حَذَّر جوتا الألمان من الاقتداء بالثورة الفرنسية كما نصح الأمراء بالإصلاح .

٣٠ - يكثر شكُّ المرء كلما اتسع نطاق ما يطلق من المعرفة . فلا يصح أن يقال عن رجل أنه يعرف شيئاً إلا إذا كان ما يعرفه أمراً محدوداً معيناً . فإذا انتفى التعيين والتحديد انتفى العرفان .

٣١ - قد ظلمت أشغل نفسى وأَعْنَبُها بالنظريات العامة حتى فطنت إلى النجاح العظيم الذى يستطيعه أهل الفضل إذا عملوا فى اتجاه واحد وحدود بدل توزيع جهودهم على مطالب متعددة .

٣٢ - كنت من عهد الصغر أشجع بشغف وعبث الملكات المشكوك فيها ، وهذا خطأ لم أستطع التخلص منه إلى الآن . والظاهر أنه يقصد ملكات غيره ولكنه ربما يصدق فى نفسه أيضاً لاتساع مطالب ثقافته وتنوعها تنوعاً باهظاً فادحاً .

٣٣ - لقد عاش الناس فى عهود التاريخ فى بحثهم عن الجمال والحق تحت ظلال الحروب المتكررة . وذلك لأن الإنسان يأبى أن يحكم نفسه وهو مع ذلك يريد أن يحكم غيره ، ولا نجاة للناس والأمم إلا أن يتعلم الإنسان ضبط النفس وحكمها بدل أن يحاول حكم غيره والسيطرة عليه .

وهذه الحكمة هى خلاصة قصة فوست وهى أنه مادام شرُّ التحكم والتملك دافعاً للنفس فلا نجاة ولا أمان فى العالم ، بل تعتدى الأمة على الأمة ويعتدى الإنسان على الإنسان .

٣٤ - إن الشغف بالحق يتطلب منا أن نعرف حدود فكرنا ، فإذا انتفى هذا الشغف حل الخطأ ، وهو يتملقنا ويفهمنا أن فكرنا غير محدود بحدود . ومن أجل ذلك كان الخطأ أقرب إلى طبيعة الإنسان من الحق ؛ لأن الإنسان يميل إلى التخلص من الحدود .

٣٥ - ومن أجل أن آراءنا محدودة نعتقد أننا دائماً على صواب فيما نرى وقد ترى رجلاً كبير العقل يخطئ ويجد مسرة فيما يخطئ فيه . وقد يستخدم ملكات عقله العظيمة فى الدفاع عن الخطأ .

٣٦ - المقاصد السامية أجدى على طالبها من المقاصد الأقل سموً وسموفاً حتى ولو تحققت الثانية ولم تتحقق الأولى .

٣٧ - ينبغي الحذر من أنصاف الحمقى وأنصاف العقلاء أكثر من الحذر من البله ومن الذين كمل عقلهم ، لأن الأصناف الأولى أكثر خطراً . إذ أن البله لبلاهم لا يتقنون تدبير الشر ، والذين كمل عقلهم يرون في مطالب عقلهم وثقافتهم ما قد يترفع بهم عن تدبير الشر . ولا يراد بالبله طبعاً المجانين الذين يدفعهم دافع إجرامى .

٣٨ - حالنا في قراءة الكتب حالنا مع الأصدقاء الجدد ، ففي أول الأمر إذا عرفنا إنساناً يسرنا أن تكون هناك مشابهة وملازمة عامة ، وأن يكون هناك تأثير من الناحيتين في أى جانب من جوانب الحياة . فإذا نضجت المعرفة واتصلت المخالطة ظهرت أوجه الاختلاف بين الصديقين ، والمسلك المعقول لا يكون بأن نسلك مسلك الأطفال في إحجامهم ونفورهم وخصامهم ، بل يكون بالاستمساك بما نتفق عليه ، ثم نفهم أسباب الاختلاف من غير أحجام ومن غير رغبة في الموافقة من غير فهم واقتناع .

٣٩ - إننا لا نستطيع معرفة الصفات الغالبة على إنسان بالنظر إليه في البيئات التى يتكلف فيها العادات والأخلاق ، كما يكون في زيارته وفي الحفلات ، وإنما نستطيع ذلك بدراسته في بيئته الخاصة التى يرفع فيها التكلف والاحتجاز .

٤٠ - ليس التسامح هو غاية مايراد من جميل الأخلاق والطباع ، فالتسامح خطوة أولية ينبغي أن تسوق التسامح إلى فهم ما يتسامح فيه وإلى العطف عليه بالفهم .

٤١ - إننا كلنا نعيش في الماضى بأفكارنا وإحساساتنا ، وهذا العيش فى الماضى إذا استشرى يؤدى إلى الهلاك . لأننا بهذا الاستشراء نصير عالة على الماضى فتعيش عليه .

(٢٠)

تنمية نظرات جوتا (*)

نلخص الأمور التى أخذها عليه النقاد فنقول إنهم أخذوا عليه - كما يقولون - أن نظرتهم إلى الجمال كانت نظرة أغريقية قديمة لانظرة مسيحية . وأنه كان فى اكتمال عمره وشيخوخته لا يتبسط مع بعض زواره بل يبدى بعض الجفاء إذا لم يكن زائره ممن يتوقع أن يستفيد منهم ثقافة ، وأنه لم ينظم القصائد ولم يكتب المقالات لحث الألمان على قتال الفرنسيين ، وزاد على ذلك أنه أخطأ فى قدر قوة نابليون ، وأنه لم يمالئ الأحرار الألمان فى موقفهم من أمرائهم . وأن الثقافة كانت دائرة عنده حول تكميل الفرد فكان بها شئ من الأثرة . وتعجبني صراحة هنرى هينى الشاعر الألماني الذى نقد جوتا كما شاء ثم اعترف أن شدته فى نقده إنما كانت لأنه حسده عظمتة ، وربما ظلم هينى نفسه بعض الظلم فى هذا القول . فإن مزاج هينى الثائر على كل شئ إلى البرودة وجفاء القول فى شعره عاد يقول : أن أغانيه الشعرية أحسن وأعظم الأغاني . وهو فيها أعف قلمًا ولسانًا من غيره . وأما موقفه من الفرنسيين فإنه لم يؤثر لهم قلمه ولسانه ولا أجره لغيرهم من الأحزاب والطوائف . وقد رفض ما اقترحه عليه نابليون أن يجعل باريس مستقره . ولم تكن ألمانيا فى عهده إلا دويلات متنافرة وقد أوشكت بروسيا أن تتفق ونابليون على أن يعطيها هانوفر . ثم علمت أنه يخبر الحكومة الإنجليزية لإرجاعها إلى أسرتها . وكانت بافاريا ، وسكسونيا ، وورتمبرج ، وبادن ، وغيرها مع نابليون ولم ينشق عنه أكثر أنصاره من الألمان إلا بعد انهزامه فى موقعة ليبزك . ويعترف كل الأدباء أن الأديب يستطيع أن يناصر الحرية من غير كتابة شعر أو نشر سياسى .

وأما أن الثقافة عند جوتا كانت تدور حول تكميل الفرد وأن بها من أجل ذلك شيئًا من الأثرة فليس كل الأثرة من نوع واحد ، والأثرة التى هى إشار للثقافة أمر مشعر منتج لم يستغن عنه مثقف . وأما الذين كانوا يريدون أن يقبل عليهم وهم يضيعون وقته الثمين ثم يشتكون إذا لم يفعل فقد قال جوتا : إن أحق اللصوص هم اللصوص الذين يسرقون وقتك واطمئنان بالك . ولا نريد تبرئته من كل عيب . وإنما نريد أن نظهر ما فى نقد النقاد له من التحامل والمبالغة التى تغير الحقائق . والحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده ، حتى ولو كان فى أقوالهم بعض الحق .

وفيما يلى تنمية لنظراته مع التعليق القليل على بعضها :

١ - لا دواء يستطيع أن تعالج به شعورك بامتنياز غيرك إلا بالعطف والمودة لمن هو ممتاز عنك فبهما ترتفع إلى مرتبته . أما الحسد والحقد فإنهما لا يعالجان امتيازك عليك ، بل بهما تزداد انحطاطاً ، ولا يستطيع أن يدرك مظاهر العظمة وصفاتها فى الناس إلا من كان على صفة من صفات العظمة .

٢ - أنى أشفق على الذين يصخبون ويحزنون بسبب فناء كل الأمور ويسترسلون فى تأمل يجعل الحياة عبثاً وغروراً . فإننا ما خلقنا إلا لكى نجعل الأمر الفانى خالداً بأن نستخلص منه حقيقته وجماله ، وهذا لا يكون إلا إذا قدرنا الحالتين حق قدرهما . والذى يستطيع أن يستخلص من الأمور الفانية جمالها وحقيقتها يستطيع أن يقول للساعة العابرة تريشى .

٣ - يظن المرء أنه إذا تكلم فإنه دائماً ما ينطبق تمام الانطباق على ما يحس أو ما يلاحظ أو ما يجرب أو ما يتخيل أو ما يفكر فيه ، ولكنه إذا فحص الأمر وجد أن كلامه قلما ينطبق تمام الانطباق إذ أن الكلمات التى ينطق بها المرء كثيراً ما تكون الحاضرة التى هى عوض عما لا يأتى فهمى من قبيل سد خانة . وفهم الإنسان وفكره كثيراً ما يكونان مما يعبر من الكلام .

٤ - إن الإنسان لا يفعل ما ينبغى أن يثابر عليه من محاولة إزالة ما يعلق بذهنه أو بذهن غيره من الأفكار المخطئة ، أو التى لا محل لها أو المقصرة عن الصواب بعض التقصير فيتركها عالقة بذهنه وهو لا يعرف عاقبتها . والواجب المفروض عليه هو أن يثابر على محاولة محوها بأن يكون مقصده واضحاً صادقاً نبيلاً ، وتركها عالقة يكون إما من الكسل أو قلة الاكتراث أو سوء النية .

٥ - كل مرحلة من مراحل العمر لها نظرة خاصة وفلسفة هى بها أشبه وإليها أحوج ، فالطفل لخدائه عهده بالدنيا يتلمس الموجودات ، ويتعرف الحقائق الكائنة ، فنظرته إذاً واقعية « ريباليست » فإذا كبر وصار شاباً ازداد عاطفة ، وأملاً ونظراً إلى المستقبل . ومن يزداد من هذه الأمور يكن مثالياً « ايدىاليست » فإذا اكتمل وصار رجلاً وجرب أمور الحياة وشك فى وسائله وتسائل هل هى تنجح مقاصده ودبر وحزم أمره لذلك كان عملياً « براكتيكال » . فإذا شاخ وهرم ورأى كيف أن الأمور كثيراً ما تأتى عفواً واتفاقاً وبالمصادفة ، وأن الأحق قد ينجح والعاقل الحازم يخيب ، وأنه كثيراً ما يكون الجيد والردى إلى مصير واحد . فعندئذ يرى الحياة لغزاً وسراً أى يصير « ميستيك » ولكن ليس معنى ذلك أن هذه النظرات منفصلة فى مراحل العمر انفصال تاماً . بل كل منها تتعدى مرحلتها ، وقد تجتمع فى مرحلة واحدة من العمر .

٦ - الشك العامل النشط المنتج هو الذى يحاول دائماً أن يتغلب على نفسه ، وأن يصل بالخبرة والتجارب إلى يقين محدود . وأن يكون هم صاحبه تطبيق ما وصل إليه بعثه وبرهانه فى الأمور العملية .

٧ - يوجد أناس كثيرون يخيّل لهم أنهم يفهمون ما يلاقونه فى الحياة من تجارب ، وإنما هم يقنعون أنفسهم بذلك كى يستريحوا ، إذ الواقع أن فى الحياة - ولاسيما فى اختلاف أعمال الناس وأخلاقيهم - ما يحير .

٨ - إن الرجل المغرور المعجب بنفسه يطلب مدح الناس إياه ، ولكنه لا يطلب هذا المدح أو الإكرام أو الإعجاب لأعمال أو صفات مجيدة ، وإنما يطلبه لشخصه مهما كانت صفاته وأعماله ، وهذا الطلب ناشئ من شعوره بالنقص فيجب أن يستعويض عما نقص بالمدح والإكرام، ودافع النقص هذا قد يوجد حتى فى ذوى الكفايات والنبوغ الذين يجدون نقصاً فى أنفسهم .

٩ - إن السخاء والأريحية أنواع ولكن أصدقها وأحسنها موقعاً وقبولاً السخاء الذى هو عطف التفاهم والتقدير والقدر المنصف .

١٠ - إننا لا نستطيع أن نظل على خلاف مع من يتفق معنا فى الطباع والميول . ومهما طال الخلاف فمآله إلى الاتفاق . أما الذين يخالفوننا فى الطباع والميول فمآل الاتفاق معهم إلى الخلاف ، وهذا يشبه قول مارسل بروسى إن التدانى إنما يكون باتفاق الأمزجة والأذواق والميول ، لا باتفاق الآراء والنظريات .

١١ - أكبر خطر على قومنا الألمان مجارة جيرانهم ومحاكاة الأمم التى سبقتهم إلى الظهور والحضارة من غير اتعاض بعبر التاريخ وعظاته . وأعظم ما يفيد الألمان أنهم لفتوا العالم إلى أنفسهم فى زمن متأخر بعد أمم كثيرة أى أن الفائدة فى اتعاضهم بما فى حياة من سبقتهم - وما فات جوتما ما لفت النظر إليه فى مكان آخر من أن التجارب لا تكتسب بالتلقين ، فكما أن الحياة تبدأ تجاربها من جديد إذا كانت حياة الآحاد من الناس أو الأجيال والقرون ، فكذلك حياة الأمم . وهو يعلم ذلك ، ولكن صنعه فى إرشاد قومه وعظمتهم صنع المعلم الذى يحاول أن يجعل المتعلم يكتسب خبرة بالتعليم سواء أفادته أم لم تفده كل الفائدة.

(٢١)

تنمية نظرات جوتا^(١)

١٢ - أشد الصعوبات توجد حيث لا يبحث عنها الإنسان سواء أكان ذلك فى الحياة أو فى الأدب أو فى العلم . فإذا لم يجد الإنسان صعوبات فليس معنى ذلك أنها غير موجودة .

١٣ - لو كان من المستطاع ادخار الوقت ، وخن الزمن كما يدخر المال ، وكما يخزن الذهب ، لحين الحاجة إلى صرفه وبذله فى عمل ما ، لكان للذوي الكسل بعض العذر فى عدم صرف وقتهم فى العمل المنتج . ولكن حتى لو كان خزن الزمن وادخاره مستطاعاً لبصرفه صاحبه عند الحاجة ، لكان هذا أيضاً من ضعف رأى صاحبه ، إذ يكون كمن يصرف من رأس ماله المدخر بدل الصرف ، مما يربح بالعمل . والذي يصرف من رأس ماله لا من ربحه ، يشك أن يفلس .

١٤ - قيمة كل أمر فى الحياة تكون على قدر معونة المرء على تكميل نفسه وتهذيبها وتثقيفها . ولعل فى هذا بعض ما فى قول هازليت : إن الإنسان إذا تمنى أن يكون إنساناً آخر فهو فى الحقيقة لا يتمنى إلا أموراً تكمل شخصيته الخاصة ، كأن يتمنى ذكاء هذا ، أو ثروة ذلك ، أو سعادة آخر . إذ لو تخلى عن نفسه وعقله وعن ذكرياته وإحساساته وأفكاره لصار إنساناً آخر ، فلا يفيدته تحقق ما يتمناه بل يفيد هذا الشخص الآخر . وإذا لو خُيّر أفقر صعلوك وطلب منه أن يتخلى عن نفسه ، وأن يكون ملكاً أو ثرياً أو عالماً ما تصور إلا أن ينال ملك الأول ، أو ثروة الثانى ، أو علم الآخر ، على شرط أن تبقى له نفسه . وهذا مصداق قول الإسكندر المقدونى : لو لم أكن الاسكندر لتمنيت أن أكون ديوجنيز (أى الفيلسوف المعروف) .

١٥ - مهما حاول الإنسان أن يفسر أسباب جودة الأمور الجيدة الممتازة ، فإن فى جودتها صفات لا تفسر : إذ تجلُّ عن التفسير وهذا يذكرنى أحد أصحاب الفن الذى كان مولعاً بالنظر إلى صورة موتاليزا التى عنوانها المسرورة « لاجيو كوندا » . فلما كتب والترياتر وأطال فى وصف أسباب جودتها وابتعائها للسرور ، قال صاحب الفن : إن أقوال والترياتر عن هذه الصورة إنما هى من أدب الخيال وقصصه ، أى ليست أسباباً حقيقية .

١٦ - إنه أمر محرج حقًا أن يمدح الرجال الممتاز ، وأن يعجب به الحمقى والأغبياء ، وكان جوتا ينظر إلى عكس قول المتنبي أو إلى ما يكمل معنى بيته :

وَإِذَا أَتَيْتُكَ مَذْمُوتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ
وَإِذَا أَتَى الْمَدْحَ مِنْ أَهْلِ النَّقْصِ كَانَ مَدْحًا مَرِيئًا ، وربما يخيل للسامع أن الممدوح ناقص مثلهم . وهذا يتفق أن يكون ، وقد لا يكون ، دليلا ولكنه محرج كما قال جوتا .

١٧ - كلما كبر الإنسان ازداد تسامحًا إذا لم ينس أخطاءه وأغلاطه في ماضى حياته ، وإذا عامل الناس بمثل ما عامل نفسه به في تلك الأخطاء والأغلاط . وهذا شرط قلما يستقيم إذ أن نفس المرء كثيراً ما تدعوه إلى نسيان أغلاطها وأخطائها ، وإلى نسيان تسامحه مع نفسه ، بل إنه كثيراً ما يحسب أنه يكفر عن تسامحه مع نفسه في ذنوبها ، بل أنه كثيراً ما يحسب أنه يكفر عن تسامحه مع نفسه في ذنوبها بالتشدد والعنف مع الناس إذا وقعوا في مثلها ، إلا إذا أراد أن يعذر نفسه بأن يعذر الناس ، ولكن يمنعه من ذلك خوفه أن تظن به محاولة عذر نفسه إذا عذر الناس فيحجم عن عذرهم .

١٨ - إن صاحب الفن أو الصنع قد يجيد الصنع في فنه ، ولكنه قد يعجز عن أن يفسر سبب جودة صنعه ، كما قد يعجز عن تفسير سبب جودة صنع غيره . والواقع أن صاحب الفن قد يكون غافلا عن جودة صنعه حتى أنه قد يفضل من صُنِعَ أَقْلُهُمَا جودة فيحكم له بأنه يمتاز عما هو أحق بالترفضيل .

١٩ - في كل المقاصد والأغراض الإنسانية إذا فصل المرء بين الأمر الواقع وبين التفكير النظرى أخل بالفن والحياة ، إذ أن كلا منهما متمم ومصحح لأخيه .

٢٠ - عندما علم بعض الفرنسيين أن ميرابو الخطيب كان مدينا إلى حد كبير في خطبه للمادة التي جمعها له دو مونت ، ظنوا أن هذا أمر ينقص من قدر ميرابو . وقد قال جوتا : كأن أمثال هؤلاء القوم يحسبون أن هيراقليز رب القوة عند الإغريق كان يستطيع أن يستغنى عن الغذاء ، وما كان يستغنى في تلك الحرافات عنه ليظهر قوته ، وكذلك العبقري إنما كان عبقرية لقدرته على الامساك بالأمور يمينًا ويساراً ، ولقدرته على الاستفادة منها مادة لعبقرته وعلى إعطائها حياة خاصة من لبه واحساسه . وقال جوته أيضاً : أن ابتكار العبقري إنما يكون بذكرىات مؤلفة تأليفًا فنيا ومنسقة تنسيقًا مبدعًا .

وقد ألم أبو العلاء المعري بهذه المعانى وأبدع في باب التشبيه كل الإبداع في قوله :

والنحل يجنى المر من نور الربى فيصير شهداً في طريق رضابه

أى أنه يجنى من الزهر ويعطى بدل ما جنى رضاب النحل ، وكذلك العبقري .

٢١ - من الصعب أن يظل المرء منفرداً عن المذاهب والجماعات لأنه إذا التحق بطائفة منها فهو حتى في اخفاقه وخيبته يجد الاطمئنان والسكينة والأمان . ويزداد المرء رغبة في الخير إذا اتصل بجماعة ترغب في الخير ، كما يشجع على عمل الشر إذا كان في طائفة ترغب في الشر . وقول جوتا يذكرني كلمة لهازليت في صعوبة بقاء الإنسان مستقلاً عن الجماعات والأحزاب . قال : إنه تتضاءل لديه نفسه حتى يتهمها بالباطل ، وحتى يتهم رأيه إذا ألح عليه كل الناس بالخلاف ، ويظل كأن الأرض زالت من تحت قدميه ، وظل معلقاً في الفضاء - والواقع أن من يدعى الاستقلال عن الاحزاب والجماعات يتصل بها في أمور كثيرة ، فليس هناك انفصال تام .

٢٢ - كثيراً ما تكون النظريات العامة محاولة من الرجل المتسرع القليل الصبر الذي يحاول التخلص من الظواهرات ومن الجهد المرهق الذي يقتضيه تفسيرها ، فيضع مكانها صورة أو فكرة أو كلمة جوفاء ينخدع بها من لا يجرب بنفسه ، بل يعتمد على الروح الحزبية بين الجماعات .

٢٣ - عندما نفقد الشغف بشئ والرغبة فيه ، نفقد ذكراه كما أن المرء لا يسمع ما لا يود سماعه . وهذه نظرات سيكلوجية من جوتا هي أشبه بأقوال سيجموند فرويد .

٢٤ - لا يستطيع المرء أن يكتسب ثقافة من غيره إلا إذا استطاع تثقيف نفسه .

٢٥ - إذا أخطأنا في المحسوسات ، فليس الخطأ خطأ الحواس ، بل خطأ ملكة الحكم على المحسوسات ، فإنها تخطئ إذا لم تعرف حدود الحواس ، وطرق استخدامها استخداماً صحيحاً .

٢٦ - كثيراً ما يتقدم من يدافع عن الباطل بلطف وأدب ، بينما يغتر من يرى نفسه على حق بما يراه من الحق في نفسه فيستغنى عن اللطف والأدب . لأن الأول يريد أن يكون باطله مقبولاً ، فيدلف إلى الناس بما تهوى قلوبهم ، والثاني قد يخذل الحق الذي يدافع عنه بالاعتزاز الذي ينأى به عن اللطف والأدب .

وفي الختام نقول إن في مؤلفات جوتا فكراً كثيراً يدعو إلى الفكر ، وإن الحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده ، حتى وإن كان في أقوالهم بعض الحق .

(٢٢)

نظرات جوتا بين الفرد والعالم

الخاتمة (١)

قال مازينى الزعيم الإيطالى المعروف : « يصح أن نُسَمَّى مؤلفات جوتا دائرة معارف فى أمور بددَ لا نظام لها ، وذلك لأنه فقد الشعور بالوحدة التى تؤلف بين الحقائق والأمور ، وكيف يكون هذا الائتلاف فى مؤلفاته ، وهو لا مكان للإنسانية فيها ، ولا شعور بها فى قلبه. لقد حمل « فيخت » الفيلسوف بندقيته بعد محاضرة من محاضراته كى يشجع الدفاع عن الحرية ، وجوتا ساكن لا يتحرك ، بينما كانت الشعوب حوله تناضل عن حقوقها ... وبدل أن يصف مثال الكمال فى آحاد قصصه اعتنق مادية شعرية أدته إلى عدم المبالاة وإلى انتحار جهوده الأدبية ... وفى مقال آخر يقول « إن فكر جوتا فكر عقيم لأنه لا صلة له بالعمل ». وقال هنرى هينى : - « إن قصص جوتا ألفاظ ميتة ، لا تؤدي إلى عمل نبيل ، كما تؤدي قصص شيلر » .

وقال هنرى هينى فى مكان آخر « إن الفن الذى يقتضيه وصف آحاد قصص جوتا الذين يتعثرون فى أخطائهم ، أشق وأعظم من الفن الذى يتطلبه وصف آحاد قصص شيلر » .

وقال شتاويل : - « لقد أخطأ الناس فهم جوتا ، وفهم قلبه الكبير ، ونفسه العظيمة ، فإذا أهملنا مؤلفاته أهملنا ما فيه دواء وشفاء لكل حُمى تنتاب حياتنا الحديثة . ولقد صرح جوتا فى آخر « فوست » أن لا نجاه للعالم والأمم ، إلا إذا تعلم الآحاد والشعوب ضبط النفس والتغلب على شهوة التملك والتحكم » .

وقال الدوس هكسلى : « لقد فطن جوتا إلى الأسباب التى تقتل الميزات الفردية فى الحضارة الحديثة فرجع هو وشيلر إلى الحياة الإغريقية القديمة ، إذ كان الإغريق ينشدون حياة فيها الحرية اللازمة لظهور الطباع والميزات الفردية » .

وإشارة الدوس هكسلى تُذكر بمقالة (الحضارة واختلاف الطبائع) التى نشرناها فى المقتطف فى عدد مارس سنة ١٩٤٧ وقد اقتبسنا ما وعاه ثيو كيديدس من خطبة بركليز الشهيرة التى يفخر فيها بالحضارة الأثينية ، وأنها تعطى كل إنسان الحرية اللازمة لطباعه ومميزاته الشخصية . وذكرنا فى تلك المقالة رأى جيزو المؤرخ السياسى الفرنسى ورأى جون ستوارت ميل الفيلسوف الإنجليزى ، وأنها كانا يريان أن الحضارة تكون أتم ثمرة وأزهر زهرة ، وأعظم فضلاً وأثراً إذا صيغت الطباع الفردية .

ومن أجل ذلك يرى الدوس هكسلى أن لجوتا فضلاً كبيراً على الحضارة الحديثة .

أما خصوم جوتا الذين أشار مازينى إلى مبالغتهم فى خصومته ، فقالوا أن مؤلفات جوتا فى الأدب الألمانى مثل داء السرطان فى جسم الإنسان ، فيصدق فيهم قول ستاويل إنهم لم يفهموا مقاصده . وأما اتهام مازينى جوتا أنه كان لا يشعر بالإنسانية فهل أدل على تواضعه فى الشعور بها من قوله فى نظرة سابقة : أنظر فى نفوس الناس ، ثم انظر فى نفسى فلا أرى شيئاً من آثامهم أو عيوبهم أو أخطائهم كأن من المحال أن أرتكبه وأتصف به « فالرجل الذى يرتضى لنفسه الهوان كى يظهر صلته بالإنسانية فى جميع مظاهرها ، لا يقال إنه لا يشعر بالإنسانية إلا على سبيل المبالغة . أما قول مازينى إن جوتا كان يفصل بين الفكر والعمل . ففى آخر قصة « فوست » فى محاورة فوست لنفسه يحتم فى الحياة التهدى من الفكر إلى العمل دائماً . وقال جوتا : إن نابليون أخطأ فى احتقاره المفكرين النظريين ، إذ أن الفكر يؤدى إلى العمل ، ولكن مازينى يعنى نوعاً خاصاً من العمل ، وهو العمل الثورى السياسى الذى كان جوتا لا يميل إليه . وكان هم مازينى طول حياته القيام به ، كما أن جوتا يعترف أنه لا يثق بفكر العامة ولا بعلمهم إذا ألقى لهم الحبل على الغارب . فإذا كان كل هذا عيباً فهو من عيوب جوتا . وأما حمل « فيخت » بندقيته فلو أن نابليون تجنب الشرّ لاستطاع النيل من ألمانيا بإرضاء أطماع دول ألمانيا المتنافرة . أما قبول جوتا وسام الشرف من نابليون فربما كان متورطاً فى ذلك . والواقع أن نابليون كان يعتمد إلى إظهار كبار المفكرين الألمان كأنهم مماثلون له توريطاً لهم . وأما خطأ جوتا فى تقدير أماكن الضعف فى دولة نابليون فيكفى فى عذره ما رأى من تخاذل ملوك ألمانيا وقبولهم ألقاب الملك منه ، وعلى أى حال فهو خطأ منه . وقد حذر جوتا الألمان من أن تكون لهم أطماع كأطماع نابليون ، كما حذرهم من إرتكاب الفظائع فى الحروب حتى ولو كان ارتكابها تشبهاً بالأعداء . وقال : إن النصر الذى لا ينال إلا

بارتكاب الفظائع غر جدير بأن ينال . وكان مازينى يعيب على جوتا اهتمامه بالفردية فى أدبه . ويرى أنه من المستحيل التوفيق بين الفردية والجماعة بينما كانت طريقة جوتا أن يعطى آحاد قصصه الحرية لمحاولة التوفيق بين طباع الفرد وحقوق الجماعة ، فمن استطاع التوفيق تشقف وتعلم ، ومن لم يستطع خاب أو هلك . وإذا قرأنا كتاب « واجبات الإنسان » لمازينى نراه يبحث على الواجبات وضبط النفس كما حث جوتا ، وتراه يرى الجماعة الوطنية حلقة من حلقات الإنسانية العالمية ، كما رأى جوتا الذى حذر العالم من حب السيطرة والتملك . ونحن نرى كتاب غرب أوروبا يعيبون على روسيا أن اتساق النظام الشيعى يقتل الميزات الفردية . وعلى أى حال فإن محاولة جوتا التوفيق بين الغرضين محاولة جلية . ووسائل اليونسكو التى يقوم بها أخو الدوس هكسلى ووسائل مجلس الأمن فى بث التفاهم بين العالم ونشر السلام هى وسائل جوتا سواء أنجحت أم لم تنجح . وكان الدوس هكسلى يرى أن أسباب ضياع الميزات الفردية بسوق الناس على غلط واحد « ستندر يزيشون » موجودة فى الدول الغربية ، فالمصانع تخرج له ملابسه وآلاته وأزياءه على غلط واحد ، والتخصص فى العمل يقصر فكره على أمر واحد ، والجرائد والمجلات والملاهى تهين له أخباره وأفكاره وملاهيه على غلط واحد ، والتعبئات العامة فى الجيوش الحديثة تسوق الناس إلى غلط واحد أيضاً . وربما كان الدوس هكسلى مبالغاً « كما يبالغ فى بعض الأحيان » فى بيان خطر هذا الاتساق ، ولكن رأيه معقول . والاعتزاز بالميزات الفردية كما أوضح هى خطة جوتا مع التوفيق بينها وبين الجماعة والعالمية .

وفيما يلى بعض آراء جوتا مع التعقيب عليها :

١ - ينبغى أن يتذكر المرء أن فى نفس كل إنسان خواطر لو عبّر عنها صراحة سببت استياءً واستهجاناً ، والتعبير عنها يكون إما من العجز عن ضبط النفس وإما من قلة التمييز بين ما يليق وما لا يليق ، وإما من التعود على الانسياق فى شرح خطرات النفوس ، كما يفعل الشعراء والكتاب ، وإما بالعدوى فى البيئات غير المثقفة التى يدعو فيها استرسال إنسان فى هذا الأمر إلى استرسال أصدقائه ومعاشره . وهذه النظرة تذكرنى قصة تمثيلية من تأليف يوجين أونيل الأمريكى فيها يتحدث كل أناسى القصة بحديثين وينطقون بقولين ، أولاً القول الذى لا يضير سماعه والذى هُوَ للقول ، وثانياً القول الذى يعبر عما فى النفس فتسمع إنساناً يظهر لآخر المودة فى حديثه الأول ، ثم يعقبه بصوت منخفض حديث نفسه الذى يدل على كذب

الحديث الأول يَعْبُرُ عن الحقد والذم ، ولو كانت هذه سنة جارية فى الحياة لما استطاع أن يتعاشر الناس . ومن قبيل هذا ما ذكره جوتا نفسه عن حديث نفسه عندما قال إنه من حماقة حبّ العظمة الباطلة كان يجول بخاطره أن أمه حملت به سفاحاً من أمير جليل الشأن ، ولم يكن جوتا عاجزاً عن ضبط لسانه ، وإنما أثر هوان نفسه ووخزها كى يعظ الناس ويعطيهم درساً كما فعل جان جاك روسو فى بعض اعترافاته ، ولم يكن روسو فاقداً للشعور ، بل كان شديد الإحساس بما يؤلم . وقد اتخذ بورن اعتراف جوتا دليلاً على العقوق الفاضح وفقدان الإحساس بالكرامة والتعلق للأمرء ، وجعل اعتراف جوتا هذا إظهاراً للطبع الغالب عليه . ولعله قد غلبه طبع صراحة صاحب الفن ، أو غلبه دافع خفى نفسى إلى التفكير عن الخاطرة باعلاتنها للناس .

٢ - إنما تراد التقوى لتثقيف النفوس أرفع ثقافة ، وللبلوغ إلى الطمأنينة والسكينة . أما الذين يقولون إن التقوى غاية فى نفسها ، فإنهم ينتهون إما إلى مغالطة أنفسهم ، وإما إلى مغالطة الناس - وهذه النظرة هامة لأنها توضح طريقة جوتا فى نظره إلى الأمور ، إذ كان يرى أن قيمة كل أمر حتى التقوى وهى أظهر الأمور إنما هى فيما يُكسب النفس من ثقافة . وقيل إن هذا نوع من الأثرة وحب الذات ، ولكن يستطيع جوتا أن يقول إن الأثرة المكروهة تنافى الثقافة النفسية . وإذا قيل إن التقوى إنما تراد لطاعة الله ، قال جوتا إن طاعة الله فى تثقيف النفس وتهذيبها . وهذه النظرة هامة أيضاً إذ توضح قوله إن من يتخذ الوسيلة غاية فى نفسها قد يضل عن الغاية الأصلية ، وقد يتخذ للغاية الثانية « أى للوسيلة التى صارت غاية » وسائل تنافى الغاية الأصلية . فكم من أناس مع التقوى والتدين يتخذون وسائل تخالف مقاصد التقوى والتدين السامية النبيلة ويُحسُّون إحساسات تناقض غاياتها السامية .

٣ - إنما يكون الواجب حيث يحب المرء الذى أمرته به نفسه وفرضته عليه وإنما يريد جوتا أن لا يفصل بين الواجب والسرور بعمل الواجب . وما كان يَغْرُبُ عن باله أن ضبط النفس الذى يحث عليه يقتضى حملها على مالاتود من الخير ، وفطامها عما تحب من الشر ، ولم يخف عليه معنى قول عمرو بن كلثوم :

ولكن فطام النفس أعسر محملاً من الصخرة الصماء حين ترومها

« أعسر أى أصعب وأشد » ولم يغب عنه معنى قول البوصيرى :

والنفس كالطفل أن تهمله شب على حب الرضاع وإن تَفَطَّمَهُ ينْفِطِمَ
ولم يَفْتَهُ أن النفوس إذا لم تعالج بالضبط يوشك أن يصدق فى كثير منها قول الحصين بن
المنذر :

أَمَرْتُهُ بِالذَّنْبِ وَالْخِنَاءِ وَنَهَيْتُهُ عَنِ طَلَبِ الْعُلَا فَأَطَاعَهَا

ولكن جوتا رأى أن من عمل على تكبره ويغض لما يعمل غير جدير بأن يدعى مؤدياً
لواجب، فإن نفسه قد تكون منطقية بسبب هذه التأدية على خبث وحقد وغيظ ومكر وقسوة
ونفاق وتضليل وغلظة وكذب وتهيئة السوء وحب الانتقام ، فيضر ويؤذى نفسه كما يضر
ويؤذى غيره . وهذه النظرة توضح اهتمام جوتا بالصواب والصدق ، والحق فى جوانب القول
المختلفة ، فهو يرى ضبط النفس ويرى مع ذلك ما قد يكون قهرها وإرغامها من شر . ويرى أن
صفات الشر المنبعثة من الرغم والتكبر فى العمل من غير سرور به قد يزيد شرها على فائدة
العمل الذى أداه المرء مكرها ، فهو إذا غير جدير بأن يدعى مؤدياً الواجب .

٤ - ينبغي أن نتذكر أنه كما أن عظماء الرجال يكسبون نسيج الإنسانية متانة فى النسيج،
ويعينون إلى حد ما طراز ذلك النسيج ، فإن عامة الناس هم الذين يكسبون نسيج الإنسانية
سعة وعرضاً وطولاً وعظمة بتلك السعة ، فهما مثل السدى واللحمة . ولا يستغنى صنف عن
صنف من الناس . وهذه كلمة من الكلمات العديدة التى يظهر جوتا بها شعوره بالإنسانية .
ومثلها قوله فى نظرة سابقة ، « كل إنسان مهما كان مستقلاً عن الناس ، فى عيشه ، إما
مدين وإما دائن للناس فى الأقوال والأعمال والآراء والإحساسات » .

٥ - كما أن التفكير النظرى يؤدى المرء عن طريق المشاهدة والتطبيق إلى فهم الحقائق
وإدراكها ، كذلك ينتهى المرء بالمشاهدة والتطبيق إلى الفكر النظرى ، ولا غنى للإنسان عن
اتباع الطريقتين . وفى هذه النظرة استدراك على من يريد أن يقصر الطريقة الحديثة فى الفكر
والاستنتاج على الوصول عن طريق المشاهدة والتطبيق إلى الفكر النظرى العام ، وهى الطريقة
التي عممت واتبعت وقرّضت بسبب سوء الأخذ بالطريقة الأخرى وقهر الشواهد على أن تؤيد ما
بدئ به من التفكير النظرى . ولكن الواقع أن الإنسان من عهد أن كان ساكنًا فى الكهوف إلى
عهدنا هذا يستخدم الطريقتين كلاهما فى مكانها ووقتها ومناسبتها .

٦ - إن المقاصد الأكثر سموا ورفعة أعظم أثراً فى النفس وإن لم تتحقق وتنجح من المقاصد
التي هى أقل سمواً ورفعة ، لأن المرء عندما يطلب الأولى ويفكر فيها ويعمل لها تنمو جوانب

نفسه وعقله بالتهيوء لطلبها والسعى فى سبيلها ، ويكون أثرها فى نفسه أعظم وأتم نفعاً من المقاصد الثانية - وهذه النظرة تدل أولاً على حث جوتا أناس على المقصد الأسمى ، وثانياً على تمييزه بين المقاصد والوسائل ؛ فإنه عندما قان « إن الإنسان لا يستطيع أن يبنى مثال الكمال غير المحدود إلا عن طريق الأمر المحدود ، ولا يستطيع أن يبنى مثال الكمال إلا على الأمور الواقعة » كان يعنى الوسائل التى يتخذها المرء فى سبيله .

٧ - ينبغى للمرء مهما أجاد فى عمله أو فكره ألا يحسب أن الناس كانوا يرقبون مجيئه إلى هذا العالم ، وأنهم ما كانوا يستطيعون أن يعيشوا من غير عمله أو فكره ، فكثيراً ما يخادع المرء نفسه حتى نفس من ليس فيه عناء . إنما هذا مصداق قول أناطول فرانس إن كل حى من الأحياء حتى ولو كان كلباً صغيراً يرى أنه مركز الكون ، ومحور العالم . ولعل فى قوله بعض المبالغة . أما جوتا فإنه لا يريد أن يصرف المجد عن العمل والفكر ، وإنما يريد منه أن يعرف الأمور على حقيقتها ، وأن عمل المرء مهما كان عظيماً إنما يكون عظيماً بالإضافة إلى عمل غيره من الناس ، وهذا من شعوره بتماسك الإنسانية وتضافرها ووحدتها . وعلى ذلك فإن قول كارليل : لو خيرنا بين أن نفقد إمبراطورية الهند وبين أن نفقد مؤلفات سكشبير لاخترنا أن نفقد إمبراطورية الهند ، ليس معناه أن الناس ما كانوا يستطيعون أن يعيشوا من غير شعره ، وما فيه من ثقافة وفكر ووصف للنفس .

٨ - كان الإنسان دائماً يعيش تحت ظلال الحروب المتوقعة ، لأنه فى جميع تاريخه كان يحاول أن يسيطر على غيره وهو غير مسيطر على نفسه حتى فى بحثه عن الجمال - ويعنى جوتا بالجمال المعنى الأعم الأشمل ، وفيه معنى الإصلاح والتنظيم والتنسيق . وفى هذا القول إشارة إلى خطة الساسة الذين يفضلون اتساع دولتهم طولا وعرضاً بدل اتساعها عمقاً بالإصلاح الذى فى كل دولة مجال كبير له . وفضلاً عن حب السيطرة على غيرهم فقد كان يغريهم بذلك خشية إغضاب الطوائف والآحاد إذا مس الإصلاح مرافقهم الخاصة ، أو الاعتزاز بكرامة قومية مؤسسة على التغافل عن أوجه النقص . ولكن الإصلاح الداخلى يؤدى إلى زيادة عدد السكان ، وهذه الزيادة تبعث على طلب السيطرة على غيرهم ، إلا إذا كان ضبط النفس المنشود يشمل أيضاً ضبط النسل وتحسينه ، هو مايقول به كثيرون الآن .

٩ - إن ملكة التمييز التاريخى هى فى ذلك التمييز العقلى الذى يستطيع به المرء عند قدر المعاصرين وأحوالهم أن يقدر أثر الماضى فى الحاضر ومقدار تغلغله فيه . وهذه الملكة قد

يكتسبها بعض الناس بالقليل من دراسة الماضي ، ولا يكتسبها غيرهم بالكثير من تلك الدراسة ، شأنها شأن التجارب التي قد يهتدى بالقليل منها إنسان ، ولا يهتدى بالكثير منها آخر . إما لأنه خيالي النزعة ، وإما لشروء لبه ، أو استغلاق عقله ، وإما للزهو والثقة بالنفس البالغة فوق حد الاعتدال وإما لأن المرء رهن إحساساته فهو لا يملك أمره .

١٠ - إن فطنة الإنسان إلى رجاحة فكرة وإلى فائدتها لا تدلُّ على أنه قادر لا محالة على الاستفادة منها بتطبيقها . وكثيراً ما ابتكر الناس أموراً نافعة وظلت مدة طويلة لا أثر لها في حياتهم ، أما من نقص في التطبيق ، وإما من إحجام الناس عن كل جديد . بل إن في العقل ما هو أغرب من ذلك ، فقد يفتن المرء إلى رجاحة الفكرة ، ومع ذلك تظل هي ونقيضها في عقله ، كل يحتل مكاناً خاصاً .

١١ - إن كتابة التاريخ قد تكون طريقة من طرق التخلص من الماضي . ولعل هذا مثل أن يكون الشاعر أو الكاتب في قيد حادث ماضٍ أو شعور قديم فلا يتخلص منه إلا بأن يعبر عنه فتطمئن نفسه وتستأنف في الحياة أعمالاً وإحساسات جديدة .

(٢٣)

نظرات ثاكري^(١)

وليام مكبيس ثاكري القصصى الإنجليزى الشهير ، قد اتهمه بعض النقاد بسوء الظن بالنفس الإنسانية . والنفوس إذا وصف كاتب سيئاتها اتهمته بسوء الظن والعداء لأن هذا الاتهام أسهل من التخلص من سيئاتها التى سببها الغرائز والشهوات المتمكنة من النفوس .

وقد رأى بعض المفكرين أن هذه الغرائز والشهوات لن تتغير ولن تتبدل وأن النفس إذا استطاعت أن تتخلص منها أو تلتطف من حدتها أصابها الضرر والعجز . ومع ذلك فإن المفكرين من قديم الزمن يصفون عيوب النفس البشرية أملا أن تتخلص منها أو تلتطف من حدتها ، ولا أذكر أكان مينكين الأمريكى هو الذى وصف الإنسان فسماء القرد الأبدى لعجزه عن التخلص من الحماقة والشهوات وحب التدمير والأذى ، ولقصوره عن الأخذ بأسباب تعميم نتائج العلم وتعميم الاستفادة منه . ولولا أن الكاتب يؤمن فى صميم نفسه أن الإنسان وهب القدرة على تلطيف عيوبه وتهذيبها والتخلص منها كلها أو بعضها ما كلف نفسه مؤونة وصفها . وبالرغم من أن ثاكري قد يؤلم مبضعه فى شرح صفات النفوس كما يؤلم مبضع الطبيب إذا فصد دمل فإنه كثير الحنان والعطف على النفوس ، فهو يجمع بين السخر والحنان وهو بين الإنجليز من هذه الناحية مثل أناتول فرانس بين القصصين الفرنسيين . وكما اشتد ثاكري فى نقد سخر سويفت فى كتابه المسمى « كتاب الفكاهة » اشتد بعض الكتاب فى مؤاخذه ثاكري . ولكن شتان بين سويفت وثاكري ، فليس فى سويفت حنان ورقة وعطف كما فى ثاكري فإن سخر ثاكري مقرون إلى رقة وسماح وصفح جليل ، ولو أنه قد يشتد فى بعض قصصه ورسائله ويهنف . وبعض قصصه لا ترى فيها ما يسمى فى اصطلاح المؤلفين أبطالا . ولا يغيب عنا أن ثاكري وزميله دكينر من كتاب العصر الفيكتورى ، أى عصر الملكة فكتوريا ، وهو عصر مشبع بمظاهر التزمت والكبر فى التزمت . ولكن ثاكري لا يعفى ذلك العصر من سخره ، ولا يعفى المحتالين والمغامرين والأفاقين الذين خرجوا على سنة العصر الفكتورى . وبعض النقاد يرون أن قصة « سوق الغرور » هى أعظم قصصه . وقد تكون كذلك من الناحية القصصية الفنية . لكن عندى أعظم قصصه هى قصة « هنرى إزموند »

التاريخية . وقد فضلها الناقد الكبير الأستاذ سينتسبرى فإن لها سحرًا عجيبًا . والفن الذى يقتضيه وصف بياتركس وأمها من غير زلل فن من أعجب الفنون . ثم إن عظم موضوع القصة إذا أضيف إلى عظم الفن يزيد فى قدر القصة ، ولو أن إجادة صاحب الفن لا تقتضى موضوعًا كبيرًا كى يجيد . ومن قصصه الأخرى قصة « بارى لندن » و « الفرجينيين » ... الخ ومن كتبه كتاب « الرسائل الدائرة » وهى أشبه بما يتخلل قصصه من رسائل قصيرة وكلمات فى وصف الناس وكتاب « الأدعاء » .. إلخ إلخ .

وفيما يلى بعض نظراته مع الشرح والتعقيب :

١ - كثيراً ما ينتقص النساء من عقل المرأة ذكائها « أو من أخلاقها » إذا كانت أعظم منهن جمالا وأتم حسناً ولم يستطعن انتقاص حسننها كأنما يردن بانتقاص عقلها أن لا ترجحن بمجموع ما وهبت من ذكاء وجمال . وهذا عكس ما يفعله الرجال فإن ذات الوجه الجميل والعينين الفاتنتين تفتخر لها حماقة كثيرة ، وقلة عقلها تكتسب فيها رشاقة وحلاوة تغطيان على قلة عقلها - والواقع أن الإنسان كثيراً ما يخدعه انتظام التقاطيع فيحسب أنه مقرون دائماً إلى انتظام العقل والعكس بالعكس .

٢ - فى سوق الغرور التى هى الحياة قلما يتألم الإنسان من وخز ضميره إذا عمل شراً ، وإنما هو يتألم لا من الندم على عمل الشر بل من الندم لافتضاح أمره وانكشاف سره وشره فيخلط ضميره عمداً بين نوعى الندم : كى يظهر بمظهر الأبرار ، أو كى يقال أنه كفر بالندم ووخر الضمير عما ارتكب من الشر . وقد يكون الرجل نفسه مهذوعاً بما يخدع به غيره ، فإن الشعور يلبس على صاحبه حقيقته فيخال من تأنيب الضمير وهو من ألم الأثرة وحب الذات .

٣ - لو فطننا إلى ما قد يخالط أنبل الأخلاق وأسمائها من نقص أو دناءة لتركنا التفاخر والتباهى بالفضائل ووصلنا النفوس بالعطف والرحمة .

٤ - إن الكذب الذى يقوله المرء فى اغتيال الناس أكثر ذبوعاً من الصدق الذى يمدحهم به ، فهل ذلك من أجل أن قلوب الناس تربة حجرية لاتنمو فيها بذور أقوال الخير الرقيقة ؟ . وما لاشك فيه أن اغتيال الناس وذمهم يصادفان من الانشراح والإقبال والانتناس والاشتواء أكثر مما يصادفه مدحهم بالخير ، كأنك فى الحالة الأولى تطهيمهم بتوايل تدعو النفس إلى أكل لحومهم .

٥ - أى الصفات نالت أعظم مدح منذ عهد حرب تروادة إلى اليوم ؟ أليست هى الشجاعة والجرأة والإقدام ؟ فقد طالما أشاد بها الشعراء والكتاب وأغفلوا الصفات الفاضلة الأخرى ، ولم يعبروها اهتماماً كاهتمامهم بهذه الصفات ، ألا يجوز أن يكون السبب أن الإنسان جبان بطبعه يجنح إلى الخوف والفرع أكثر من جنوحه إلى قلة المبالاة والإقدام صيانة للحياة وإعتزازاً بها ، فيغطى على ذلك بمدح الشجاعة كى يقال إنها صفته الغالبة ويطرى الشجعان كى يقال عنه : إنه منهم . ولعل من أسباب مدحه الشجاعة أيضاً أنه يريد أن يحمل نفسه عليها ، ويغطى عنها مخاوفها ، كما غطاها عن الناس .

٦ - بعض النساء لهن ولع بأن يضعن من يحبن فى مكانة العبادة وهى مكانة تشبه مكانة آلهة الوثنيين فى المعبد فتقدم له البخور والمدح والثناء سواء أكان ذلك عن عقيدة فيه أو حيلة ، وهذا يضايق الرجل لأنه يلزمه صفات الكمال دائماً وهو لا يستطيعها . فيمل كما يمل « الدابلى لاما » فى التبت ويتشاءب من عبادة عباده .

٧ - قلما يهتم الناس كبير عقل الرجل أو عظم فضائله قدر ما يهتمهم آدابه المريحة فى معاشرتهم إياه وسلوكه فى إرضائهم لأن كل إنسان يأنس إلى ما يريجه . وأما راحة تفكير المعاصر وعظم فضائله فكثيراً ما تضايق عشيره . ولذلك كثيراً ما يحكم الناس على عقل الرجل وفقضائه بما يريحهم أو بما لا يريحهم فى سلوكه معهم - أو حتى بما يتخيلون أنه يريحهم أو لا يريحهم .

٨ - إن بعض الناس لا ينالون الاطمئنان فى الحياة حتى يغالطوا أنفسهم ويخادعوها ويحملوها على أن تعتقد أن العدل يظراً فى الحياة ويعم - فهل يطرد العدل فى حياة الناس؟؟ هل كل راكب فاضل وكل ماش مفضول ؟ وهل الأول عادل والثانى ظالم . وهل الفضل دائماً مفضل والنقص دائماً مؤخر ؟ وهل المرائى المنافق دائماً مخذول ؟ وهل ينصرف الناس عن التهاقت على ما لافيمة له من الكتب والأشياء والأمور ؟ وهل هم لا يقبلون على الخطيب المهرج الماهر؟؟ وهل لا يرقى الرجل ولا يُقدّم ولا ينجح إلا بما له من عقل وفضل وهمة وكفاية؟ وقس على ذلك أسئلة أخرى كثيرة . وخليق بالمرء أن يكون أشجع وأقوى من أن يعجز عن تحمل الحياة إلا بالأكاذيب .

٩ - قلما ينال الإنسان خيراً إلا وهو يرى أنه يستحقه ويستحق أكثر منه . ومن أجل ذلك نشأت قلة الشكر وظهر غمط المعروف وجدد الجميل المصنوع ؛ إذا قلما تعد نعمة المتفضل

تفضلاً منه ، بل حقاً واجباً لمن نالها - وفي بعض البيئات المنحطة لا يكتفى نائل المعروف بغمطه وجده . بل يتعاطم على من صنع المعروف أو يحقد عليه في سريره كي يظهر له إنه إما أخذ بعض حقه وإنه أكبر وأعظم من أن يقر لأحد بفضل عليه .

١٠ - لو اختار بعض العلماء المؤرخين أن يتتبع جرائم الفضلاء ، وأن يكتب كتاباً في تاريخ الشر والضرر اللذين صنعهما أهل الفضيلة أو من يرون أنفسهم من أهل الفضيلة لكان كتاباً عجيباً ممتعاً واعظاً للناس ... فمن الذين أحرقوا البروتستانت ؟ إنهم فضلاء الكاثوليك . ومن هم الذين أحرقوا الكاثوليك ؟ إنهم فضلاء البروتستانت . ومن الذين يضطهدون الناس في الحياة الاجتماعية وينشرون عنهم أخبار السوء ويصفونهم بصفات السوء ويدعون الناس إلى اضطهادهم وإبذائهم ويجدون لذة في ذلك ؟ هم الذين يرون أنفسهم أو يريدون أن يقنعوا الناس أنهم أفضل من غيرهم . ومن هي التي تتبع جيرانها لاستخراج ما تعتقد من سيئاتهم ، أو مالا تعتقد ، ولتستخرج سيئات أجدادهم إلى الجد الرابع أو أكثر وأبعد من الجد الرابع لكي تؤذيهم بنشر السوء عنهم ؟ إنها السيدة الفاضلة - أو التي تعتقد أو تريد أن يعتقد الناس أنها سيدة فاضلة . وهي إذا عثر الحظ السيئ بإنسان وجندله أمامها في الوحل رفعت أنفها إلى السماء تعاطماً وتعالياً وجمعت ثيابها كي لا يلوثها العائر المسكين - وإن كان من المحال أن يلوثها وهولت صارخة باشمئزاز من حظه العائر السيئ مبتعدة عنه ... حقاً إننا في حاجة إلى كتاب في تاريخ جرائم الفضلاء .

١١ - إن الإحسان طعام عسر في الهضم . ومن أجل ذلك قد يخلق من ناله مذمة للمفضل إذا لم يجد فيه مذمة كي تكون عذراً له إذا فك عن نفسه ما يعده أغلالاً وأصفاداً للمعروف ... ترى هل كان المسافر الذي نجاه السامري من اللصوص - في قصة الكتاب المقدس - شاكرًا لمن نجاه من اللصوص ؟ أم أنه كان يجد غضاضة في أن يكون مدينًا لإنسان بفضل عليه ؟ وهل هذه الغضاضة جعلته يتذكر أن كل سامري عقيدته فيها انحراف في نظره ؟ وهل اتخذ من انحراف عقيدة من نجاه عذراً له كي يجحد كما أداه إليه من معاونته وكي يتقحم عليه بالذم كي يفك عن نفسه أصفاد المعروف وأغلاله ؟ .

(٢٤)

نظرات تاكرى^(١)

١٢ - إن ألفاظ السباب إذا صارت سنة جارية فى البيئة وتعودها الإنسان كانت أمراً مألوفاً ، فكل إنسان يشتم غيره ويقبل الشتم من غيره ، فيصير تبادل المزاح بأشد أنواع السباب والشتم فى مثل هذه البيئة نوعاً من السماحة والكرم الحائى ودليلاً على الألفة والمودة - ولكن من الغريب أن العشيرين فى هذه البيئة قد يتبادلان السباب وأشد أنواع الشتم بالبشاشة والسماحة فى مجلس ، وفى مجلس آخر قد تؤدى الكلمة الهينة أو الكبيرة من السباب إلى إراقة الدماء والقتل .

١٣ - ليس من السهل أن نعرف الحد الذى عنده ينتهى باعث احترام المرء نفسه بإخفاء حقيقة حاله وتجمله صوتاً للناس عن الاطلاع على حاجته وسوء حاله ، وهو الحد الذى يبتدىء عنده النفاق المزدول ، فكم من أناس ينفقون فى المظاهر ويبذلون للكماليات ما هو أحق بالاتفاق على الضروريات - ويرون سعادتهم فى هذه الخطة كى يستطيعوا الزهو والكبرياء ، وتعبير من لا يستطيع الإتفاق فى سبيل الكماليات ، وليحسب الناس أنهم إما ينفقون فى الكماليات عن سعة فى الرزق ، وكى يستطيعوا احتقار غيرهم ممن ضاقت به الحال أو ممن كان أعقل من أن يلتزم هذه الخطة فى الإتفاق على الكماليات ، وهو محتاج إلى الضروريات والناس أولى بأن يعطف كل على أخيه بدل الزهو والمباهاة المؤسسة على الباطل .

١٤ - أن نصف آلام المحب إذا زهد فيه من يحبه وجفاه ناشئ من الغرور والعجب بالنفس ، لا من الرقة والحنان وطيب القلب . ولكنه يخلط بين أثرته وطيب قلبه وحنانه . وقد يفعل ذلك مخدوعاً بإحساسه وهو لا يدري ؛ كما يخدع به القصصيون الذين يصفون أمثال هذا العاشق المهجور فيكون فى انخداعهم خداعهم للقارئ شئ من السماحة إذا فطن القارئ .

١٥ - بعض الناس قد تغيظهم سعادة أصدقائهم إذا طالع هؤلاء طالع يمن . ولكنهم بالرغم من ذلك إذا أصاب صديق سوءاً وحلت به كارثة يعطفون عليه ويظهرون الاشفاق عليه من شقائه الذى حل به بعد أن كانوا يحسدونه على سعادته ونجاحه . فالنفس الإنسانية قد تجمع

١ - المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٧ ، الجزء الثالث ، أغسطس سنة ١٩٥٠ م ، ص ١٦٩ - ١٧٢ .

بين مرارة الحسد وحلاوة العطف ، وبين أحقاد المنافسة والمشاركة فى الحزن والمصاب . فإن أحقاد المنافسة قد تختفى فى نفس المرء عندما يعثر الحظ بمنافسيه ، فيظهر له كرم المشاركة فى الحزن « إما خالصاً وإما ممزوجاً بشئ خفى من التشفى والارتياح » فرأفة الشهامة وخسة الدناءة قد تجتمع فى النفس الواحدة وقد تمتزج فيها .

١٦ - قد تعارف أكثر الناس على أن لكل منهم الحق فى أن يغتاب صديقه ، ثم يتصافحان ويتعاشران ويتزاملان بطلاقة وابتسام وإظهار للود إذا اجتمعا - « وقد يسع كل منهما بأذنه حتى ساعة اللقاء أو قبيله شتم الآخر له ، فيدعى أنه لم يسمع - ومن يحاول من الناس حملهم على تغيير هذا الطبع يلقى مقتاً وعداء كأنه يريد أن يحرمهم من حق لهم مقرر مفروض معروف ، ألا وهو حقهم فى اغتياب معاشرهم وزميلهم ، وكأنهم يخشون إذا تنازلوا عن حقهم طوعاً أن لا يتنازل غيرهم فتلحقهم الحساسة ، ويحل بهم الغبن ، وينقلبون بالغیظ على من يريد حملهم وحضهم على التنازل عن حقهم المقرر المفروض فى اغتياب معاشريهم وزملائهم ويعدونه ظالماً لهم أو قليل الانصاف .

١٧ - إن المرء قد يزول حبه أو تفنى مودته لإنسان ، فلا يرى فى زوال حبه ، وفناء مودته ، خيانة منه لذلك الإنسان ولا غدرًا به ، ولا نقصاً فى نفسه . أما إذا زالت مودة إنسان له فإنه يدهشه زوالها ويعد ذلك الزوال غدرًا وتقيصة وخيانة ، حتى أنه قد يبأس من صلاح الناس والحياة ، وقد يبخع نفسه بالحزن والضيق مع أنه كان لا يرى فى تغييره للناس مضايقة لهم ويتألم . وكان لا يرى فى تبدله للناس أبدالاً ألماً لهم ، ولا يفتن إلى أن ذلك الخلق منه من الأثرة وحب الذات الذى يبيع لنفسه ما لا يبيع للناس ، وينعى ويعيب على الناس مالا ينهى ولا يعيب على نفسه .

١٨ - كثيراً ما نخطئ فنظن أن عهدى الطفولة ، والصبا هما عهدا البراءة والطهارة والخلو من الكذب والخداع . وعندى أن كثيراً من الكبار لا يتقنون خداع الناس وتكلف غير الحقيقة لهم كما يتقنه الصغار . وهؤلاء الصغار يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس بأمور ينبغي أن لا تجوز عند أحد أو تنطلى أو تختفى أو تلبس . وكلما كبر الإنسان تعلم كيف يقدر الحق ، وكيف يميل إلى البساطة إلا إذا ظل المرء أشبه بالطفل فى كبره ، وكم من كذبة من صغير السن أججت نار عداً بين الكبار ، والكبار ينسون ما كانوا عليه فى صغرهم من استساغة الكذب وسهولته لديهم ، ولا يصدقون أن صغيرهم الطاهر البرئ كاذب ، فيقبلون قوله على علاته ، ويمعنون فى العداً بسببه . ولعل عجز الصغار أمام إلحاح رغباتهم أو خيالهم أو

أهوائهم وقلة خبرتهم بأمور الحياة أمور تدعوهم إلى عدم المبالاة إذا اعتزموا الكذب وتهيب لهم وسائل استثمار ثقة الكبار بهم . وأمثال هذه الأمور هي التي تحملهم على سلوك ما يناقى سذاجة الصغر وما يجافى طهارته - ثم هم إذا فوجئوا في هذا المسلك أنكروا سلوكه بدهشة وحدة . وهذه الدهشة وهذه الحدة يشتهيه فيها البرئ وغير البرئ .

١٩ - مما يزيد المرء اعتقاداً في عظمته ويسهله لديه ويمكنه منه خضوع من حوله وتلقهم إياه فيلبس لباس العظمة التي يلبسه إياه من حوله ، وهم إذا أقنعوه بعظمته لنيل مأرب من جاهه أو مرتبته أو ماله أقنع نفسه وأقنعوا هم أنفسهم بعظمتهم على الأقل إلى أن ينالوا ما يريدون ، والرجل المتواضع الذي لا يرى في نفسه عظمة إذا عرض لهذا التأثير فإنه قد ينتهي بأن يظن في نفسه العظمة . والمشاهدون أمثال هذه الحالات ينتهي بهم الحال إلى الاقتناع بعظمة هذا الإنسان من طريق العدوى أو الطمع الأشعبي في خير يصلهم عن طريق هذه العظمة التي يؤسسونها لغيرهم . ولولا هذا الانخداع الأشعبي ما اشترك أكثر الناس في الاعتراف بعظمة إنسان أو تأسيس بنيانها .

٢٠ - من الغريب أن اثنين من الناس قد يشعران بميل كل إلى الآخر أو بنفور كل من الآخر من غير سبب ظاهر وجيه معروف ، وكما أن بعض الناس قد ينفر من رائحة يحبها غيره أو يتأذى ويمرض من طعام يصح به غيره . فكذلك قد ينفر إنسان من مودة إنسان آخر ويصيبه مرض إذا ذاق مودة هذا الإنسان ، بينما يذوق غيره تلك المودة ويستطيبها فيلتهمها التهاماً ويصح على ذلك . ولا تدرى سبباً ظاهراً معروفاً لهذا الأمر .

٢١ - كما أن عباد الشيطان يعبدونه ، ولكنهم يحرمون ذكر اسمه . كذلك بعض الناس يتصفون بصفات السوء ، فيطلون بها بطلاء يخفيها ، ويرون أنه ليس من الكياسة واللباقة ، والآداب وصف أخلاقهم ، حتى ولو كان وصفاً عاماً ، ولكنه كالحز في المفصل . ويعدون ذلك من كره الواصف للإنسانية المعذبة ومن قلة الرحمة بالناس ، وهم يأبون هذا الوصف إذا خشوا أن يلحظ الناس فيه تعريضاً بسيئاتهم ... أما إذا كانوا يريدون الأذى لإنسان زال تحريم ما كانوا يحرمونه من وصف السيئات ولا يفطنون إلى أن هذا أيضاً تعريض بسيئات نفوسهم .

٢٢ - إن حكمة الله الخفية قد تقضى أن يقهر أهل الخير والفهم ، وأن يذلهم وأن يرفع أهل الأثرة والحماقة والشر ، ومن أجل ذلك ينبغي أن يتواضع صاحب النجاح والسعادة . وأن يخشع أمام إرادة الله وقسمة الحظوظ التي تقضى بذلك وأن لا يغتر بنصيبه من الحياة فإنه أشبه بما يسمى « البانصيب » ، فالحياة كثيراً ما تكون كالاقتراع هذا بنال الدمقس والحريز

والقصور المشيدة ، وذاك نصيبه الخرق البالية ، ومعاشرة الكلاب الضالة . ولكن الإنسان قلما يؤمن بذلك ، بل يرى أن كل إنسان نال ما يستحقه من الطيبات ، فمن حرم منها كان حرمانه دليلاً على نقص وعيب ، ومن لم يحرم منها بل كان نصيبه من طيبات الدنيا جزئياً دلت جزالة نصيبه على خلوه من النقص والعيب . ولقد رأيت من مظاهر النجاح وعرفت من أسبابه ما زهدنى فى الهتاف للناجحين ومن السير فى ركابهم . وسواء أ رأيت محافظ المدينة ذاهباً إلى وليمة فى قصر المحافظة أم رأيت سجيناً يقاد إلى المشنقة فإنى لا أغتر بظواهر الأمور ، بل أنظر فى نفسى ، وأنظر فى نفوس الناس ، فأرى أن محافظ المدينة ليس أعظم منى نفساً ، ولست أعظم نفساً من الآثم الذى يسار به إلى الهلاك ، وأن الأول لو رى كما رى الثانى لكان مثله .

٢٣ - يقول بعض المتكالبين على النجاح : « النزاهة أحسن وسيلة للنجاح » ولو اطمأن الرجل غير النزيه إلى أن قلة النزاهة أحسن وسيلة للنجاح لما تردد فى أن يكون غير نزيه ، وبعضهم يرددها وهو غير آخذ بسنة للنزاهة كى يظن من يعامله أنه آخذ بها ، ولعله يرددها كى يأخذ الناس بها ، فيريح من نزاهتهم ثم يحرمهم الريح من نزاهته .

٢٤ - ما أعجب رشاقة المرأة إذ تنافق وترائى ، وما أحب وألطف خفتها ولباقتها إذ تداهن وتداجى من غير تعثر أو ارتباك - ذلك لأن الضعيف المغلوب على أمره يحاول أن يتقن هذه الصفات ، وأن يكسبها جمالاً ومحبة . وقد مرت المرأة فى عصور طويلة كانت فيها فى حاجة إلى أن تتعلم رشاقة الرياء وجمال المداينة .

٢٥ - قد يستسيغ المرء الناس وعشرتهم على مضض وألم ، وهو يحاول إخفاء ذلك كمن يشرب الدواء المر للضرورة فى هدوء واستسلام . ولكن تقلص وجهه يدل على ما يعانى من مضض وإن أنكر ذلك ، وقد يستعين بقطعة من السكر ليزيل بها مرارة الدواء كما يستعين الأول بما هو شبيه بقطعة من السكر كى يزيل مضاضة عشرة الناس من نفسه .

(٢٥)

نظرات بلزاك (١)

قال ستيفان زفايج إن الصفة الغالبة على أبطال قصص أونوريه دى بلزاك القصصى الفرنسى الشهير هى صفة الطمع والوصول إلى الغاية حتى ولو أدت إلى الخيبة . وهذه الصفة ربما نمت فى نفس بلزاك لأنه عاش فى شبابه فى عهد إمبراطورية نابليون بونابرت الذى حاول أعظم محاولة وكانت له أطماع تحدوه إلى أقصى غاية ، ثم خسر كل شئ فى سبيل الوصول إليها . ومن الجائز أن يكون الأمر كما ذكر زفايج ، كما يجوز أن يكون بلزاك بطبعه يميل إلى ذلك . وقد حاول أن يصل إلى أقصى غاية فى تأليف القصص واستيعاب العالم والنفوس فى قصصه ، فضحى حتى بالحب فى هذا السبيل . وكان يشتغل فى كثير من الأحيان أكثر ساعات يومه فى تأليفها ، فهو راهب من أجل الفن : وكان يلبس لباس الراهب وقد أحب مدام هنسكا سنين طويلة ثم تزوجها . ولكنه مات بعد زواجه منها بأشهر قليلة .

وبالرغم من ميل بلزاك إلى الإطالة فى الوصف أو فى البحوث القانونية أو العملية فإن له قدرة عجيبة فى قصص المأساة . وقد أجاد فى القصص القصيرة كما أجاد فى القصص الطويلة . ويصح أن يسمى أبا الفن القصصى الحديث ، فمنه أخذ فلوير ، وعن فلوير أخذ جى دى موباسان وغيره .

ويصح أن يسمى أبا الفن الواقعى ، وذلك لأن آحاد قصصه كما قال بودليير كانوا مثل المدافع المحشوة بذخيرة المتفجرات ، فهم أيضاً كان حشوهم الحيوية والعزيمة .

وقد يدهش القارئ من كثرة قصصه ومن كثرة إجادته فى الكثير منها ولا نظن أن أحداً صنع مثل ذلك غير شكسبير فى شعر القصص التمثيلية .

ومن قصصه الشهيرة قصة « الأب جوريو » و « قطعة من جلد الحمار الوحشى » و « الأحلام الضائعة » و « البحث عن الحق المطلق » و « سيزار بيروتو » ... الخ .

وكان بلزاك يعيش مع آحاد قصصه كأنهم وكأنهن أحياء ويقاسمهم مسراتهم وأحزانهم ، ومسراتهن وأحزانهن . فقد زاره صديق فوجده مهموماً وابتدره بلزاك قائلاً : لقد قتلت المسكينة نفسها ، فذعر الزائر حتى عرف أنها إحدى بنات الخيال فى قصصه .

وهذا يذكرنا فلوبيير فإنه عندما وصف هلاك « مدام بوفارى » بالسّم ظهرت عليه أعراض التسمم . وقد خسر بلزّاك مالا كثيراً بالرغم من دقة وصفه لطرق التمويل والاغتناء فى قصصه .

عاش بلزّاك للفن ، ولا نظن أن أحداً فعل فعله ، إن السير والترسكوت كان يقضى أكثر وقته فى كتابة القصص حتى أوقات المرض والألم ، ولكنه تزوج وخلف خلفاً واتصل بالأمراء وأولم الولايم فلم يعيش مترهباً كما عاش بلزّاك . ومع ذلك فإن بلزّاك الراهب فى الحب والحياة ، والذي قال لجوتيه إن المرأة تلهى صاحب الفن عن فنه ، هو الذى وصف النساء أدق وصف ، كما وصف الرجال من طبقات مختلفة ، ووصف أعمالهم وخواطرهم وأفكارهم .

وفيما يلى بعض نظراته عن قليل من التعقيب :

١ - قد يفقد الإنسان كل إيمان بنجاح أملة ومع ذلك يظل متعلقاً بالأمل متشبثاً به بالرغم من فقدان الإيمان بنجاحه ، وإنما تعلقه بالأمل بعد أن يفقد الثقة به توقع منه لفرصة غير منظورة تجلبها له الحياة وهذا التشبث يعينه على تحمل كثير من مكاره الحياة .

٢ - ليس لكل حادثة أثر واحد وعاقبة لا تتغير مهما تغير الذين تقع بهم الحادثة ، فإن المصيبة التى قد تستبعت قوى العبقري وملكاته وإن ارهقته قد تقضى على رجل آخر وتردى ذوى العزيمة الضعيفة فى الحضيض ، كما أنها قد تكون فرصة كسب وريح للرجل المستيقظ الذهن لو سائل الكسب وحيل الريح .

٣ - إذا كان نسيان العاجز ضعفاً ونقصاً ، فإن من النسيان ما هو قوة فى النفوس العظيمة المبتكرة فإن نسيانها مثل نسيان الطبيعة التى تنسى كى تستجد الأمور وكى تبتكرها .

٤ - إن من أخطاء الشبان أنهم يشعرون أن كل إنسان مهما كان عمره ينبغي أن يكون عند حيورتهم ونشاطهم وآمالهم وثقتهم بالأمور وهم لا يستطيعون إلا أن يشعروا بهذا الشعور ، لأنهم يرون الحياة ووهج الشباب منعكس عليها .

٥ - إن النساء اللواتى يكتسبن بصيرة بالمستقبل إنما يكتسبنها من وعيهن للحاضر من الأمور وتنبهن ناشئ من دقة جهازهن العصبى التى تمكنهن من بحث وتفسير مظاهر الفكر والإحساس وهن باستدلالهن على المستقبل من الحاضر ، إنما مثلن مثل الملاح الذى يستطيع برؤية السماء أن يرى ما هو مخبوء عن غيره من مطر أو إعصار أو صحر .

٦ - كل عصر له ميول وكل بيئة نزعات ، ويستطيع الرجال الماهرون الذين عندهم ملكة الريح والتيقظ لوسائل الكسب والاستعداد النفسى له ، أن يتاجروا بميول عصرهم ونزعات بيئتهم مهما كانت نبيلة تستدعى التضحية .

٧ - إذا انحرف حظ الرجل وساعات حالته فإنه قد يصير لعبة لأحقاد الناس وأهوائهم ومن الخطأ أن يتعرض لتلك الأعاصير الإنسانية ، وأن يجعلها تدفعه كل مدفع . كما تكون الريشة فى مهب الريح . وإذا أراد السلامة فليقبع كما يقبع المنكب على الأرض كى يتجنب شدة الريح وعصفها حتى تمر الإعصار ، وإذا وقف فإنما ينبغى أن يقف كى يعرف من أية جهة تهب الإعصار ليستطيع تجنبها .

٨ - إننا دائماً نخيب ونخفق من الجانب الذى أضعفناه من أنفسنا ، أو استرسلنا فى ضعفه ، إن كان خلق معنا الضعف .

٩ - يخطئ من يظن أن الحيوانات لا تشعر بالذعر والألم شعوراً شديداً كالإنسان ، فإن الحيوانات المنزلية قد تصرخ من الفزع صراخاً شديداً إذا أصابها إنسان بألم حين عقوبة لها بينما هى إذا أصابها جرح من حركاتها فقد لا تصرخ ولا تصيح .

١٠ - إن القوة التى تستنفد نفسها بمجهود عنيف مبالغت ، تحدث أثراً مؤقتاً أقوى فى نفوس الناس وخيالهم من قوة فى مثل مقدارها تؤثر أثراً بطيئاً طويلاً . وهذا يصدق سواء أكانت القوة من قوى الإنسان أم كانت من قوى الطبيعة . ومن أجل ذلك صار الإنسان الذى يبذل مجهوداً عنيفاً يستهلك قوته بسرعة ومباغطة يؤثر فى نفوس الناس تأثيراً مؤقتاً أكثر من تأثير الرجل الذى يبذل مجهوداً مثله بطيئاً طويلاً ، أو مجهوداً أطول وأكبر .

١١ - فى بعض الناس نوع من الكبر ، وهو كبر النفوس التى تفضل أن تخوض معارك الحياة وخصوماتها وحدها ، ولا تظهر إلا بعد الظفر والانتصار - وهناك نوع آخر من الكبر وهو كبر النفوس التى توهم الناس أنها تخوض معارك الحياة وحدها ، وتعمل فى خفية عن أكثر الناس فى اكتساب من يعينها على الانتصار . وهذا الكبر أكثر شيوعاً ؛ لأن أكثر الناس يجبنون بطبعهم عن خوض معارك الحياة وحدهم ويهمهم الانتصار أكثر مما يهمهم أن يقال إنهم خاضوا معارك الحياة وحدهم .

١٢ - لا يدرك أثر الأمور التافهة فى إحداث الحوادث الهامة الكبيرة إلا الذين تعدوا السن التى قبلها يسرفون فى بذل قوتهم الحيوية كيفما اتفق وفى أية غاية ، سواء أكانت كبيرة أم

صغيرة ، ولعلمهم يدركون ذلك أكثر من إدراك غيرهم ليعد ما بين هذه الأمور التافهة الصغيرة وبين عظم المجهود الذى بذلوه كى يحدثوا حوادث أقل من تلك الحوادث التى أحدثتها الأمور التافهة الحقيرة .

١٣ - إن المجادلة والمحااجة التى يراد بها توضيح الأمور إذا لجت بها اللجاجة ، فإنها قد تكسب الأمور العظيمة شيئاً من الحقارة .

١٤ - قد يعمر الحزن النفس الإنسانية فيجعلها أشبه بيهو يرن فيه صوت مقدس يستدعى الخشوع .

١٥ - إن الإنسان فى عدله قلما يستطيع التخلص من مخاوفه على نفسه وعلى المجتمع . وقلما يستطيع أن يقدر الإحساسات الخفية والعوامل المستترة . فلا يكون عدله مثل الله الذى يعرف خافية الأنفس وهو مبرأ من المخاوف ف، أحسن ما يكون عدل الإنسان كظل لعدل الله قد حور وغير كى يكون مناسباً لنفوس الناس ومخاوفها وجهلها .

١٦ - يعتقد الرؤساء دائماً أنهم يستطيعون أن يخلقوا الكفاية لمن ينحازون إليهم ويرشحونهم للمناصب لإشرافهم على عملهم - وهذا كما قال لويس الرابع عشر لابن لوفوا الصغير عندما جعله وزيراً فى وزارة لا يدرك أمورها وطلب الشاب الإعفاء فقال لويس سأخلق لك الدراية والكفاية .

١٧ - كل نفس فى حاجة إلى أن تحرث فى بعض الأحيان كما تحرث الأرض ، والحوادث التى تحرث النفس تفيدها ، وإن قلبتها كما ، تفيد التربة الخصبة الزراعية من حرث الحارث لها .

١٨ - بعض الناس يريدون أن يصنع لهم الفن ما لا تستطيع أن تصنع الطبيعة ، فهم يريدون أزهاراً من غير بزر ، وفواكه من غير ثمر ، وهذا شأن كثير من الناس فإنهم يريدون أن يصلوا إلى الغاية من غير وسائلها .

١٩ - إننا نخطئ إذ نظن أن الندم على الخطيئة أو الذنب دائماً معناه التوبة ، وهو كثيراً ما لا يكون مصحوباً بالتوبة ، بل قد يكون ندماً عقيماً يودى إلى معاودة الذنب . وهذا الندم قد يكون مصحوباً بلذة فى ذكرى واقعة الذنب الماضى ، ولذة فى الأسباب التى دعت إلى مواقعه بالرغم مما بالندم من آلام ، وهذا يذكرنا قول الشاعر :

هل الله عاف عن ذنوب قديمة أم الله إن لم يعف عنها يعيدها

٢٠ - إن السعادة والشقاء والملل والإشراح ، أمور نسبية ؛ فقد يمل الإنسان الحياة الرتيبة الهادئة ، ويمل تردد الحوادث اليومية الصغيرة يوماً بعد يوم ، حتى يصير شعوره بالملل شقاء ، بينما أولئك الذين أزهقتهم أعاصير الحياة ، وكافحوا عواصفها ، قد يرون كل السعادة والهناء في تلك الحياة اليومية والحوادث الصغيرة الرتيبة .

٢١ - كثيراً ما يتسامح الناس في الحكم على فضل ذوى النقص ، بينما يشتدون في الحكم على نقائص ذوى الفضل . ولعل ذلك لأن فضل ذوى النقص أمر غير معتاد ، فيفاجئ بالإشراح ، ويتوقعون من ذوى الفضل التمام في الفضل ، إن لم تكن شدتهم في الحكم على نقصهم حسداً لهم . وهذا يذكرنا قول المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس نقصاً كنقص القادرين على التمام

٢٢ - إن احترام الناس نفوسهم باحترام غيرهم ، سواء أكانوا من الأكابر ، أم الأصاغر ، إنما هو مانع وحاجز من الحواجز الاجتماعية التي تحمى العظيم ، كما تحمى الصغير ، فيستطيع كل منهم أن يواجه الآخر باطمئنان .

٢٣ - قلما يستطيع الإنسان أن يحكم على معاشر إلا بإحساس واحد ، إما الاحترام ، وإما الاحتقار ، وإن وجد في نفسه ما يستدعى كليهما ، فإنه من الصعب أن يحترم الإنسان معاشراً لصفة وأن يحتقره لأخرى . والاحترام هو الضمان الذي به يستطيع الناس أن يتعاشروا ، إذا فقدت حتى مظاهره ما استطاع الناس التعاشر .

٢٤ - بعض النفوس كالماء الضحل القريب الغور ، وهذه النفوس لا تستطيع أن تعرض علينا مآسى الحياة ، وإن كانت آلامها شديدة في تلك المآسى :

وقد ذكر مثل هذا المعنى ستيفان زفايج في ترجمة حياة ماري انطوانيت إذ قال : إن الرجل العبقري قد يتعذب بالمآسى ، فيزداد قدره على التعبير عن الحياة ، ولكن من سخر القدر أن يترج في المآسى بالرجل الذي ليس عنده قدرة على استنباط ما فيها من عبر ، أو فن ، أو حكمة فيتعذب من غير أن يفيد عذابه ومن غير أن يجد سلوى في عبقريته أو معيناً منها .

(٢٦)

تكملة نظرات بلزاك^(١)

١ - إن المقياس الذى به يقاس ما يستطيع أن يتحملة المرء من الآلام هو مقياس من نفسه، ومن أجل ذلك لا يستطيع المرء تحمل آلام غيره مهما شاركه وعطف عليه وادعى حمل آلامه وعاونته .

٢ - إن نظرة واحدة من نظرات الغضب أو كلمة واحدة من كلمات العداة والنفور قد تمحو سعادة سنين طويلة من سنى الألفة والمحبة ، ولكن يريقاً زائلاً مثلها من السرور ووميضاً قصيراً مثل وميض البرق منه ، لا يستطيع أن يحو تعاسة السنين الطويلة من سنى الشقاء ، وذلك لأننا نتأثر فى سعادتنا بالألم ، أكثر من تأثرنا فى تعاستنا بالسرور الوامض القصير .

٣ - إن السبب فى أن احساساتنا لها حياة مستقلة بما لا نستطيع أن نغيرها أن تلك الإحساسات تتشكل وتنمو بما يناسبها من الظروف والأحوال التى أوجدتها ، والأماكن التى قويت فيها واشتدت ، كما أنها تنمو من نفسها بالأفكار المتصلة بها والتى كانت تشغل فكرنا عندما خلقت ، وتعظم بالخواطر والهواجس التى تناسبها فى النفس .

٤ - ربما نزداد قوة وقدرة برعاية من هو أضعف منا ويحمل أثقاله ومعاونته على متاعب الحياة ، ولعل بعض من يفعل ذلك يدرى هذه الحقيقة ويلتمس الزيادة فى القدرة بهذه الوسيلة .

٥ - قد يحسب بعض الأقوياء أو من يدعى القوة ويطمح إلى مراتبها أن فضيلة القوى وفضله فى حب السيطرة ، ولكن الذين يرون القوة أمراً طبيعياً فيهم ولا يباهون بها يعرفون أن فضل الأقوياء فى ألا يشغف القوى بالسيطرة التى هى دليل على فقدان الحنان والعظمة .

٦ - إنك لا تستطيع أن تحكم على إنسان بدراسة حوادث حياته فحسب ، كما لا تستطيع أن تدرس التاريخ بمعرفة قوائم الحوادث . بل لابد من دراسة أشجان ذلك الإنسان وأحزانه وعواطفه وأفكاره الخفية ونزعات نفسه وعواملها . أما دراسة الحوادث فهى وسيلة الحمقى .

١ - المقتطف سنة ١٩٥٠ م ، المجلد ١١٧ ، الجزء الخامس ، ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٥٠ م ، ص ٣٣٦-٣٣٩ .

٧ - إذا تحركت الحياة فى المرء واشتعلت نارها بقوة لم يستطع الاقتصاد من ذلك الاشتعال، بل يدعه يشتعل بإسراف فلا يستطيع أن يقيس الغاية التى يسعى إليها ، ولا الوسائل التى يتخذها لها .

٨ - إذا كان الحب لا يغتفر كل شئ فهو لا يغتفر شيئاً ، واغتفار الحب قد يحسب جهلاً وغفلة ، وهو ليس بجهل ولا غفلة .

٩ - إن صفات المكر والاحتتيال والالتزام صفات كثيرة الفرص والوسائل والموارد ، وقد تعرف النفس الصافية المهذبة ذلك ، ولكنها لا تستطيع أن تتخلق بها حتى ولو حاولت ولا تستطيع أن تنتفع بها وإنما جل اعتمادها على ما قد يسعفها عفواً من السوائل ، وما يكون باتفاق المصادفة ، وليس اعتمادها على ابتكار الوسائل وصنع الحيل الناشئة من الاحتيال .

١٠ - إن أهل الخير قد يساء بهم الظن ، ويحسبون من أهل الشر والكيد إذا كان ينقصهم الذوق السليم ، فيعملون ما هو حسن طيب فى نظرهم من غير اهتمام بمعرفة أثره فى غيرهم .

١١ - إن الشباب يقيس المستقبل بفرجار من عنده ، فإذا كانت قوة إرادة الشباب وعزمته توافق الزاوية الكبيرة ، التى انفرج عنها الفرجار فى قياسهم المستقبل كانت الدنيا لهم .

١٢ - كما أن فضائل الإنسان تظهر بمظهر أعظم فى البيئة الصالحة لها التى تناسبها ويكون مظهرها منطفتاً أو شبه منطفئ فى البيئة غير الصالحة لها ، كذلك المصائب قد ترمى على فضائل الإنسان حجاباً وستاراً فتخفيها .

١٣ - إن أعظم العظمة وأفخم الفخامة ليست فى المراتب والظواهر الفخمة العظيمة من أمور الدنيا ، بل أعظم العظمة والفخامة فى أمور النفس .

١٤ - أكثر الناس فى الحياة إذا سقطوا كان سقوطهم إلى مستقر قريب ، وهم فى سقطاتهم كالأطفال الذين يتألمون ويصرخون ثم ينسون .

١٥ - إنما تحيا النفوس بأن تعطى غيرها من نفائسها ، وأن تأخذ من نفائس النفوس الأخرى وهى قد أعطى غيرها ثم تستعيد بعض ما أعطته بعد أن تحوكة النفوس الأخرى إلى ذخائر ونفائس من عندها . وهذا التبادل ضرورى للنفس كما أن التنفس ضرورى للجسم .

١٦ - إن المرأة تشعر أنها تكون على أتم جمالها عندما تكون على أعظم سلطة وقدرة ، وقد تنال السلطة بفتنة جمالها - ومن أجل حب المرأة لما يجلو جمالها من السلطة والنفوذ تحب الرجل القوى القادر حتى ولو أدت قدرته إلى ضررها .

١٧ - الحب كالبحر فذوو السذاجة لا يرون فى الحب كمن لا يرى فى البحر غير شكل ومنظر واحد لا يتعداه ، أما صاحب الميزة فى الحب فإنه كالذى يرى أن البحر لا يكاد يستقر على شكل واحد من أشكال الجمال . بل يراه أشكالا وألوانًا متعددة من الجمال .

١٨ - إن الحب يخلق للمحب ربحاً وبوهمه كسباً من كل شئ حتى من الألم والخسارة وما هو أشد منهما ، وينسيه مصائب المستقبل .

١٩ - الإيمان زهرة اليقين والأمل زهرة الرغبة . والأمل خير من الذكرى فإننا نعوم فى بحر من الذكريات ، ولكن حيناً لا بد أن يغرق فيه ، أما الأمل فإنه يجدد الحب كما يجدد كل نعم الحياة.

٢٠ - دوام رؤية الوجه ألفة قد تمحو صفات النقص فيه لأنه يطلع الرائي على صفات نفس صاحبه .

٢١ - كل اختراع فيه شئ من عفو المصادفة حتى ولو كان متوقعاً .

٢٢ - ليس الحب إحساساً فحسب ، بل هو أيضاً فن به يؤثر المحب فى قلب من يحب من غير أن يذويه ، وهو يحدث أثره بكلمة أو بسكوت أو بتردد بين الكلام والسكوت أو ماشابه ذلك ، ويلهم المحب متى يحسن أن يفعل أى شئ من ذلك .

٢٣ - كلما عظم نبل النفس ازدادت نفوراً من الخيانة والغدر حتى ولو كان فيها ربح لها .

٢٤ - إن المحبة الممزوجة بالأنانية والأثرة لا تنال عطفاً من الناقد البصير بها ، إذ أن القلب يكره الحب الأنانى الذى يعد وبحسب ما ربح ، وهذا بالرغم من أن الحب الذى لا يحسب ما ربحه قد يكون ناشئاً فى قلب لا يعرف الحياة ولا يقدر الأمور .

٢٥ - إن معرفة الأوقات التى يحسن فيها الصمت تحتاج إلى خبرة ولباقة كالخبرة واللباقة التى تعرف الأوقات التى يحسن فيها الكلام .

٢٦ - إن العاطفة النبيلة تنمو بما يغذيها من تشجيع وعطف وحنان ومودة ، كما أن العاطفة الذميمة تنمو أيضاً بما يغذيها من حقد وعداوة وشر .

٢٧ - الزمن يعطى الصبر والعزيمة قدرة على عمل أى شئ .

٢٨ - لم تبتكر طريقة ولا وسيلة لرأى جرح اللفظ على صلاح وصفاء تام ، وجرح اللفظ قد يكون أشد من جرح السلاح .

٢٩ - لا يستطيع أن يعرف الأعاصير التى تشور عند قمم الجبال إلا من عاش بينها ، وكذلك لا يستطيع أن يعرف النفوس العظيمة إلا من كان من النفوس العظيمة .

٣٠ - بالرغم من أنشواء العديدة التى قد تبعث الحمقى والجهلة والأغنياء إلى التغير والتقلب فإنهم قد يظهرون استمساكاً بمذهب أو حزب أو رأى واحد ، وسبب ذلك أن هذا التغير من حزب أو رأى أو مذهب إلى حزب آخر أو رأى أو مذهب قد يقتضى منهم تفكيراً والتفكير فى عقولهم عملية مؤلمة صعبة مرهقة معقدة مكروهة .

٣١ - إن الرجل الذى فى نفسه جانب نقص لا يستطيع التخلّى عنه ، إنما يعطى اعداءه سلاحاً يستعملونه ضده إذا استطاعوا .

٣٢ - إن الصفة أو الفكرة الفنية توقظ النفوس سواء أكانت فى صنع فنى جليل أم فى جسم إنسان حى .

٣٣ - إن الشجاعة لباس يلبسه المرء كى يخفى به نقص نفسه وعوراتها .

(٢٦)

نظرات هازلت^(١)

وليام هازلت هو الكاتب الناقد الإنجليزي صاحب الرسائل ، وله مؤلفات أهمها رسائله فى موضوعات مختلفة ، ويمتاز بالنظر فى النفوس وخصائصها وفى بعض الأحيان يذكرنا مونتاني الفرنسى صاحب الرسائل ، وله كتاب فى سيرة نابليون بونابرت كتبه من جانب الأحرار كما كتب السير والتر سكوت سيرة نابليون من جانب المحافظين ، وقد بلغ إعجاب هازلت بنابليون حداً لم يبلغ إعجاب جوتا الألمانى فإن جوتا كان يعرف عيوبه وقد كان هازلت مناصراً لنابليون حتى بعد أن تخلى عنه الأحرار الفرنسيون . وبالرغم من أنه أرهق مجلته بحروبه . وكان هازلت من الأحرار الإنجليز ولكنه كان ينتقد تطرف الأحرار أمثال شيلى الشاعر الإنجليزى فاعتناقه مذهب الأحرار كان مقروناً بالطبيعة العملية وحب الإصلاح العملى وفى حدود مستلزماته ، فهو من هذه الناحية إنجليزى بطبعه . والظاهر أنه كان يناصر نابليون لأنه كان يعلم أن سقوطه يؤدى إلى روح رجعية فى فرنسا وغيرها كما حدث فعلاً بعد سقوطه . وكان هازلت معجباً بأدموند بيرك وعبقريته بالرغم من أنه انتقد أعمال أحرار الثورة ومبادئها وكان يقدر وردزورث الشاعر بالرغم من إنكاره انقلابه على مبادئ الأحرار ولم تكن له منفعة شخصية فى مناصرة نابليون والإعجاب به . والذى يهمنا من مؤلفات هازلت نظراته فى النفس والحياة فى رسائله العديدة . ولعل هذا سبب إعجاب سمرست موام القصصى به ، ولو أنه مدحه لطلاوة أسلوبه وله كتاب « رسائل حديث المائدة » و « رسائل المائدة المستديرة » و « رسائل ونتر سلو » وغيرها . وله كتاب فلسفى لاداعى للكلام عنه إلا أن نقول إن شغفه بالفلسفة ربما كان من أسباب عمق بصيرته فى رسائله التى عنى فيها بالنظر إلى خصائص النفوس وكان مولعاً فى صغره بالرسم . ولكن غلب عليه الأدب . وكذلك كان مولعاً بالشعر ، وله رسائل فى نقد الرسامين والشعراء ، وله بحوث فى قصص شكسبير وأشخاصها ، وفى قصص شعراء عصر الملكة اليزابيث التمثيلية . ولعل دراسة هؤلاء كانت أيضاً من أسباب بحث خصائص النفس والحياة . وكان صديقاً لكولريج الشاعر ولشارلز لامب صاحب الرسائل المعروفة . ولم يكن موفقاً فى حياته الزوجية كما لم يكن موفقاً فى اجتذاب الأصدقاء .

١ - المقتطف سنة ١٩٥١ م ، المجلد ١١٨ ، الجزء الأول ، ٢٤ يناير سنة ١٩٥١ م ، ص ٧٤ - ٨٢ .

واستبقائهم ولا فى تجنب الخصوم وتآلفهم . وقد أثر أقوال الخصوم فى رأى بعض الكتاب إلى عصرنا هذا . وقد اتهم بمناقضة نفسه إذ يمدح الإنسان ثم ينقده ، ولكن ذمه أو نقده لمن نقد كان من جانب آخر غير الجانب الذى مدحه به كما رأينا فى نقده لأدموند بيرل الخطيب العبقري وللشاعر وردزورث ... الخ . ومن قرأ رسائله وجد أنه فى أكثرها أعظم اتزاناً مما يظن خصومه . ولعل كثيراً من الإنجليز لم يغتفروا له ، كما لم يغتفر بعض الألمان لجوتا إعجابه بعبقرية نابليون واصلاحه وتنظيمه ، وذلك لاعتداء نابليون وارهاقه الدول وتعطيله للتجارة فسئمت تكاليف الحياة ،

وفيما يلى بعض نظراته مع تعقيب قليل على بعضها :

١ - إن الذين لم يتعودوا أن يجادلهم مجادل وأن يعارضهم معارض لا يعرفون كيف يقابلون المعارضة والمحااجة فإذا فاجأتهم معارضة تلمسوا طريق الفرار قانعين بالانتخاال . ومفاجأة الأمر الذى لم يتعودوه تفت فى عضدهم فتصيبهم الدهشة والخوف من الأمر الغريب ، وربما بعث الأمر الغريب الذعر والقلق والحيرة والارتباك ، فالمعارضة والمجادلة والمحااجة أمور تعود المرء الاعتماد على نفسه وعقله .

٢ - إن حب الإنسان للحياة وتعلقه بها وتشبثه لا يكون على قدر هناءتها ودعتها ، وما يلاقى فيها من دواعى السرور ، فإنك قد تجد الرجل المكدود الذى لا ينال رزقه إلا بشق النفس أكثر تعلقاً بالحياة من الوارث المنعم الملول الذى يجد كل شئ مستطاعاً . ومع ذلك قد لا يلد له شئ ، وربما يخع نفسه من الملل . وإنما يكون تعلق الإنسان بالحياة على قدر رغائبه ومطالبه منها التى لم ينلها بعد ولم يحصل عليها . وكثيراً ما تكون العقبات والمطالب حافزاً على التشبث بالحياة والاستمسك بها ، فالذى يريد أن يتخذ من تشبث الإنسان بالحياة دليلاً على أن السعادة فيها أغلب وأعم من الشقاء ، وأنها أمر قيم فى ذاته ، إنما يتخذ منطقاً غير صحيح كى يثبت به أمراً ربما كان صحيحاً .

٣ - قد تكون شدة عاطفة الإنسان ورغبته سببها العوائق التى تعوق عن الأمر المرغوب فيه ، وليست قيمته ولا عظم فائدته هى السبب . فكم من أمر كنا لا نقيم له وزناً ولا قيمة ، ولا نأبه له كثيراً وهو فى يدنا ، حتى إذا خرج منها ولم يعد فى حيازتنا ، اشتد طلبنا له وأسفنا على فقدانه إذا كان ليس فى استطاعتنا أن نحوزه .

٤ - كل ما هو خير فى نفس المرء قد يدفعه إلى الشر والإجرام كانتصاره لما يرى أنه حق وفضيلة ، أو كمناصرته لعقيدته ، أو كأخلاصه لوطنه ، وذلك لأنه أصعب على المرء أن يبذ

مخالفة أو خصمه بالفضل ، وأسهل أن يقهره وأن يؤذيه بالاعتداء والبطش وفي كل نفس مع ما فيها من خير ، ميل إلى الشر مكبوت كالكلب المفترس المكتم ، فإذا استطاع المرء أن يخلق عذراً لنفسه بأية وسيلة رفع الكرامة وأطلق ذلك الكلب المفترس والوحش الضارى وأجراه على الناس كي يؤذيهم ، فكل ما ينقص الإنسان كي يصنع الشر هو اختلاف العذر . ومن أجل ذلك ينبغي أن يحذر المرء جانب الخير من نفسه ، وحيز الفضيلة منها بقدر حذره جانب الشر والرديلة .

٥ - يقول بعض الناس : إن الرذائل إذا زُيِّت وحُسِّنت فقدت نصف شرها . وعندى أنها تزداد شراً بتلك الزينة التي تكتسب من زينة أصحابها . ومن رشاقة ظاهريهم ، أو من تغييرهم أسماءها ، أو من تحليتها بشئ من الفنون الجميلة يُجَمِّلُهَا ويُخْفِي قبحها وشناعتها ، أو من مظاهر الغنى والترف التي تغطي عليها ، فيقبل الناس عليها ، بدل النفور منها ، ويرتادونها بدل الفرار عنها .

٦ - كثيراً ما يلجأ الناس إلى الاضطهاد في معاملة ذوي الاضطهاد ، وإلى قلة التسامح مع أعداء التسامح ، فلا يزول الاضطهاد ولا تمتنع قلة التسامح . وقد يكون الاضطهاد لغير صد عادية ذوي الاضطهاد بل للذة تجدها النفوس فيه .

٧ - إن تنبّه عقل الإنسان للأمور لا يكون على قدر الفائدة والعائد من تلك الأمور ، وإنما يكون على قدر وقعها من نفسه وأهوائها وهواجسها ، وقد لا تتناسب وقعها من نفسه وأثرها فيها مع الفائدة المرجوة منها . بل قد يكون أثر شدة وقعها من نفسه مثل أثر الإشراف من مكان مرتفع على هوة سحيقة فيحس المرء إحساساً بالاندفاع إلى تلك الهوة ، وذلك الحضيض، ويكاد يرمى بنفسه فيه . وقد يفعل وهو يعرف أنه هالك لا محالة إذا فعل ، وأنه لا فائدة له إذا رمى بنفسه فيه .

٨ - إن بعض الناس لهم قدرة غريبة على ربط أنفسهم بكل موضوع للحديث حتى يصير حديثاً عن أنفسهم بعد أن كان حديثاً عن الموضوعات العامة مثل الكتب أو الحضارة أو الريف أو الشعر أو الفلسفة أو السياسة أو المجالس النيابية أو المباني أو أى موضوع آخر لا صلة لهم به ، ولكنهم بمهارة سحرية يحولونه إلى حديث عن أنفسهم ، وإلى محاولة لتمجيد خصالهم وصفاتهم وأعمالهم ، حتى أن جلسهم يكاد لا يعرف كيف تحول الموضوع .

٩ - ومن الناس من لهم موضوع حديث واحد غالب عليهم ولازم لهم لزوم الظل لصاحبه « فإذا كان الحديث الغالب عليهم هو الحديث عن الخلاقة حولوا كل حديث مهما كان موضوعه

إلى حديث عن الحلاقة « ومثل هؤلاء مثل الآلة الموسيقية التى لاتخرج غير نغمة واحدة ، ويدور بها الشحاظون يستجدون فيطلقون النغمة الواحدة منها فى كل مكان مرة بعد الأخرى . وكذلك أصحاب الفكرة الواحدة أو القصة الواحدة التى لاتفرقهم ولا يفارقونها أبداً ويحكونها ويرددونها فى كل مجلس حتى المجالس التى سبق ترديدهم لها فيها ويجدون لذة فى ذلك ولا يشعرون بما يعانیه جلساؤهم من ألم وملل وامتعاض .

١٠ - ومن الناس من يأبون إلا أن تقتنع بآرائهم فإذا سكت وشعروا أن سكوتك من عدم الاقتناع ، لجوا فى ذكر آرائهم وترديدها وإعادة ذكر حججهم ويأبون تغيير موضوع الحديث إذا حاولت أن تغيره بلطف ، وإذا اعترفت لهم بما يريدون كى تتقى إلحاحهم وشعروا أن اعترافك لهذا السبب وحده دون الاقتناع ، فإنهم ربما أعادوا الكرة عليك بآرائهم وحججهم ولا تقتنعهم مجاملتك لهم حتى يروا مظاهر الاقتناع منك بادية عليك سواء أكان وراء تلك المظاهر اقتناع حقيقى أم كنت ماهراً فى تزيف مظاهر الاقتناع حتى يخدعوا بها .

١١ - قال الاسكندر المقدونى لو لم أكن الأسكندر لوددت أن أكون ديوجينيز الفيلسوف . وهذا الاستثناء صفة عامة فى النفوس ، فإذا سمعت إنساناً يود أن يكون إنساناً آخر فهو إنما يود أن يظل على شخصيته وأن يزداد عليها ثروة المغيبوط أو علمه أو ذكاؤه أو جاهه أو قوته ... إلخ . أما أن يتمنى المرء مع حيازته لهذه الأمور المغيبوبة أن يفقد شخصه ونفسه فأمر لا يقبله أحقر صعلوك ، لأنه لو فقد ما يميزه عن غيره من ذكريات وخواطر وصفات وآمال وإحساسات وصار إنساناً آخر لم ينتفع بالأمور المغيبوبة التى حازها ، بل المنتفع يكون إنساناً آخر غير نفسه ، وقد خسر نفسه بدل أن يزداد عليها .

١٢ - بالرغم من صغر شأن كل إنسان فى العالم ومعرفته صغر شأنه فإنه قلما يطمئن إلى أن العالم لا يباليه ولا يهتم له كما يبالى نفسه وكما يهتم لشؤونها فيدهش ويرى أن ذلك من قلة الإنصاف كأنه يرى أن من الواجب أن يبالى العالم نفسه وشؤونها كما يبالىها هو ، مع أن الأمر عكس ذلك إذ من الأمور الطبيعية أن لا يقيم الناس وزناً لأمره كما يقيم هو وزناً لها . وقد يظن إلى ذلك بعد الغفلة ، ولكن هذه الفطنة لا تلبث أن تزول ، فإذا فوجئ مرة أخرى بالشعور بقلة مبالاة الناس إياه دهش مرة ثانية ، ثم مرة ثالثة وهكذا لا تفاجئه تلك الدهشة كما فوجئ بقلة اهتمام العالم له كما يهتم لنفسه ، وعدم إقامته وزناً لأمره السابقة وقلقه وقلة اطمئنانه مثلهما فى كل مرة يشعر أن العالم لا يباليه كما يبالى أمره ولا يفيد من المرات السابقة عظة .

١٣ - إن الذين يبالغون فى قدر فضائلهم أو مزايابهم أو آرائهم كأنهم ينظرون بعين من أصابه اليرقان . إذا نظروا إلى آراء غيرهم أو فضائلهم أو مذاهبهم أو مبادئهم ، فتظهر لهم كما تظهر الأشياء مصفرة كريهة فى عين من أصيب بداء اليرقان ، والذين عانوا الاضطهاد من غيرهم كثيراً ما يتعلمون منه كيف يضطهدون غيرهم بدل أن يتعلموا ضرورة التسامح . ومن أجل ذلك يصل الناس إلى قصر صدق النظر والمبدأ والأخلاق والرأى على طائفتهم وحدها مهما تكن تلك الطائفة صغيرة ، وهذا ضيق فى الذهن لا يمكن صاحبه من أن يفهم أن عقول الناس تختلف كاختلاف وجوههم ، وأن اختلاف الآراء والمبادئ والمذاهب أمر ضرورى ، وأن أنواع الفضل متعددة ، وينبغى أن نقبلها على اختلافها ، فإن اختلافها دعامة الحياة .

١٤ - إن الناس يقيسون الدنيا وأمورها بأنفسهم لا بقدر تلك الأمور ، فما بعد عنهم مكانه فى الأرض أو منزلته من نفوسهم صغر حتى ولو كان كبيراً عظيماً ، وشأنهم فى ذلك شأنهم فى قدر الحوادث والأمور التى يبعد بها الزمان فتقل قيمتها إذا ابتعدت بعد قريبها ، فسيان أكان البعد بالمكان والمنزلة أم بالزمان فإنه يصغر قيمة الأمور .

١٥ - من الناس من يلطخون إنساناً بالوجل ، ثم ينادون أنه ينبغى تجنبه لأنه ملطخ بالوجل ، وهى عادة فاشية فى الناس قينسبون إلى خصومهم صفات سيئة ، ثم يتخذونها حجة لاضطهادهم وحث الناس على اضطهادهم ، وهذا أمر قلب مقاييس العدل فى الأمور ، إذ يصير الجانى المجرم حكماً ينال الثناء ويصير المجنى عليه آثماً نصيبه العقاب .

١٦ - إن الشباب يشعر بالقوى الحيوية أكثر من الشيوخ . ومن أجل ذلك قلما يدرك الشباب معنى الفناء والموت مهما رأى من مظاهرها فى غيره فإن ذلك لا يكون إلا بعد أن يفقد الروح الحيوية التى فى الشباب . وبعد أن يشعر بالفناء يدب فى جسمه ، وبعد أن يرى آماله ومسراته تذوى كما تذوى الأزهار . أما قبل ذلك فإنه يشعر فى الشباب أن الحياة كثر لا يفتنى ، وكأس من الرحيق لا يفرغ مهما احتسى منها وأراق ، وذخر لا ينقذ مهما بذل منه لأن روح الخلد فى الشباب . ومن أجل ذلك يسرف الشباب فى بذل ما يفيض به من قوى الشباب وحيويته إسرافاً قلما تنفع معه موعظة ، ويقدم على المهالك بشئ من الاطمئنان ، ولا يفتر أحد بكثرة شكوى الشبان ، فإنها لاتنافى ذلك ، بل هى ناشئة من أنهم قد لا يجدون إسعافاً من الدهر بقدر ما فيهم من حيوية وآمال ورغبات .

١٧ - إن الناس مثل آلات تدار أو حيوانات يعلق عليها نير مناصب الحكومة أو الأعمال الحرة أو المهن والحرف فيسيرون فى الطريق التى اختطها من سبقهم ، وينجحون فى تأدية

مايراد منهم ويسعدون بنجاحهم ، فكأنما ذلك النير هو نير السعادة وسرجها ورباطها وكل ما يطلب منهم ألا يدعوا أنهم أحكم وأعرف من غيرهم ممن أدركهم أو سبق عصرهم . فإذا هيا لهم حب الظهور أن يظهروا ذكائاً وغروراً أو اغتراراً بالحكمة أو أنهم يعرفون من الأمور المنوطة بهم ما لا يعرفه غيرهم ، فإن ذلك يكون سبب خيبتهم ، فإنه إذا صرفنا النظر عما يجلبه عليهم هذا المظهر من عداوة وحسد ، فقد يتخبطون فى التجارب والنظريات ولو فرضنا أن إنساناً منهم مصيب فى بعض آرائه وخططه فإنه قد يغالى بقيمتها شأن أكثر المبتدعين فتفقد المبالاة الاتزان والاعتدال . وعلى العموم أو فى الغالب يكون حذق الجماعة أعظم من حذق الفرد ، ورأيهم أصوب من رأيه ، وخبرتهم أعظم من خبرته إلا من شذ ونذر . ولا يصح أن يتخذ كل إنسان الشاذ النادر من الملكات قاعدة ، وأن يعد كل إنسان نفسه من ذوى الملكات النادرة ، وإلا ما كانت كذلك ، وأمور الحياة تقتضى المشاركة والتعاون ، وإذا زوى الإنسان وجهه عن الأمر المألوف المعتاد ، وحاول بتجنبه أن يخطط لنفسه خطة جديدة لم يجد مشاركة ولا معاونه من الناس ، وانصرفوا عنه أو اضطهدوه ، وهى سنة وطبع فيهم ، تسبب اعتدال أمور العالم وثباتها ، بدل تقلقلها وتدرجها وترجحها .

١٨ - قد تختلط فى نظر بعض الناس طيبة القلب وعدم المبالاة فإن ذوى الأثرة وحب الذات لا يبالون أخربت الدنيا أم عمرت ، وهل عم الفساد أم لم يعم ، وهل انتشر الشر أو لم ينتشر ، وهل خذل الحق ، أم لم يخذل ، وهل اشتدت القسوة ، أم لم تشتد ، مادام كل ذلك لا يمس مصالحهم ، فتحسب قلة مبالاتهم وأخذهم الأمور بالخلق الهين اللين من طيبة قلبهم ، مع أنهم لو مُسُّ أمر من أمورهم ، زالت قلة مبالاتهم وأظهروا عنفاً وشدة .

١٩ - إننا لا نبلغ الحق ولا ننصف الناس إلا إذا عرفنا وقدرنا جانب الصواب والحق الذى كثيراً ما يكون ممزوجاً بأخطاء الناس وأغلاطهم ، فإذا جافينا أو أخطأنا ذلك الجانب من الصواب والحق ، أو حدنا عن الحق الممزوج بالباطل المنقود ، فإننا قد نخطئ بقدر خطأ من ننقدهم أو نلومهم .

٢٠ - يحسب المرء أن استسلامه للخيال اللذيذ ، وأحلام اليقظة السارة ، أمر برئ لا ضرر منه . والحقيقة هى أن من يتعود ذلك الاستسلام كثيراً ما يضعف عزمه ويفقده الأهبة والاستعداد والنشاط للعمل ، ويدعوه استسلامه للخيال إلى الاستنامة إلى ما قد يأتى عفواً من غير تدبير منه ، أو سعى أو كد وكدح . وكذلك من ينصرف إلى التفكير النظرى كل

الإنصراف ، ولا يتعود التفكير فى الأعمال ، فإن ذهنه يشغل بحقائق بعيدة يكون المرء أمامها كالناظر المتنزه بالنظر والتأمل ليس له موارد من همة يجهزها للملاقاة حقائق الحياة القريبة ولا من عزم وعمل وإقدام ينال به خيرها ، ويصد عنه شرها ويحتال لها ، بل قد تدركه الحيرة .

٢١ - ينعى بعض الكتاب على الفقراء دناءة حسدهم للأغنياء ، ولا ينعون على الأغنياء دناءة الإسراف فى اللهو ، وهم يرون الفقراء يعصرون فى معصرة الشقاء ، ويداسون كما يدوس صناع النبيذ العنب بأقدامهم .

٢٢ - لو كان اعتياد المرء الآراء بسبب قهر المنطق الصحيح لعقله ولنفسه على أن يعمل لرأى أو فكرة ما ، لكان كل الناس شهداء المنطق والفكر ، ولا يستطيعون أن يخففوا عن أنفسهم وعن الناس مما يقتضيه العمل حسب ما يوحى به ، ولكن الواقع أن الناس تستطيع أن تعتقد ما يوافق إحساساتهم ، وهذا يمكنهم إذا كان فيه راحة لهم أو منفعة ، وأن يخففوا عن أنفسهم أو عن الناس كما يمكنهم من مناقضة أنفسهم إذا كان فيها تخفيف عن أنفسهم أو عن الناس .

٢٣ - من أسباب قبول الناس للآراء والأخبار والشائعات أن كل إنسان يخشى أن يشذ عن الناس ويخاف أن لا يكون مثلهم . ومن أجل ذلك يلتفتون الآراء والشائعات والأخبار بعضهم من بعض ، فهذا الإنسان يصدق أمراً ويقبله لا لأنه أمر يصدق ، بل لأن ذلك الإنسان يصدقه ويقبله . وأغرب من ذلك أن هذا الإنسان يصدق ويقبل الأمر الذى يخيل له أن ذلك الإنسان سيصدقه وسيقبله أو سوف يقبله ، فيسبقه إلى تصديق ذلك الأمر ، وربما كان هذا السبق سبباً فى أخذ المعاصر المسبوق به . وتصديقه إياه ، ولولا ما أخذ به كما زعم السابق أنه سيأخذ به .

٢٤ - فى بعض الأحيان نرى أن شدة الشغف بغاية ما ، وشدة اللهفة للوصول إلى الغاية والمقصد تعوق عن إيجاد الوسيلة التى تؤدى إلى الغاية ؛ لأن الوسيلة تحتاج إلى تأن وصبر وجلد وزمن ومران ، فيراها الملهوف طويلة عملة ، وتسبقها لهفته فى الوصول إلى الغاية المنشودة ، فيحاول الوصول إلى غايته من أقرب الطرق ، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يخطئ طريقها ، ولا يجيد فى وسيلته إليها .

٢٥ - إذا رغبتنا فى أمر زاد اعتقادنا إياه وتصديقنا به ، وصرنا أكثر عناداً فى الدفاع عنه ، ولكننا إذا خالفنا الناس جميعاً ربما اعترانا الخجل من إظهار رأى يخالفه الناس جميعاً ، حتى ولو كان عين الصواب ، فإن قدوة الناس تضغط علينا سواء أشعرنا أم لم نشعر بها ،

كما تضغط قوة الجاذبية على جميع الكائنات . والإنسان الذى يستمر فى الدفاع عن رأيه من غير أن يتأثر بمخالفة الناس وسخرهم وكرههم إياه وحرمانه من عطفهم ، وبالرغم من أذائهم إياه ، يكون ذا عزيمة كعزيمة الهندي الذى ينذر آلهته أن يظل رافعاً يده إلى السماء حتى تتبدل وتحمّد وتفقد الإحساس . ولاشك أن عداء الناس المرء محنة قد تبعثه إلى الشك فى بواعث نفسه ونياتها ومقاصدها ، وكأنما قد زحزح جنى مارد الكرة الأرضية من تحت قدميه وظل معلقاً وحده فى الفضاء .

٢٦ - زعم هوبز الفيلسوف أن الناس لا يختلفون فى أن مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين ، وأن مجموع الأثنين والأثنين أربعة ، لأنهم لا مصلحة لهم فى هذا الخلاف . ولو كانت للناس شهوة ملحة ، أو منفعة فى إنكار ذلك لأنكروا هذه الحقائق الرياضية . والواقع أنهم عند تطبيقها فى أمور الناس التى تستدعى الشهوات والرغائب والخلاف يختلفون فعلاً فى هذا التطبيق .

٢٧ - كثير من يدينون بالديمقراطية يدينون بها نظرياً . أما فى الأمور العملية فإن كل إنسان لا يدين بالديمقراطية ولا يأخذ بمبادئها الذى هو مبدأ المساواة . ويود لو يضحى بالناس لاشباع أطماعه ، وأن يخفضهم كى يعلى نفسه .

٢٨ - قلما يوجد بين الناس من عنده شجاعة كافية للدفاع عن إنسان صديقاً كان أو غير صديق إذا ترددت حوله أقوال الناس بالتهمة والشتائم فإنه يخشى أن يتهم مثله . وأن يلاقى عداء من الناس . هذا علاوة على أن كل إنسان يميل إلى إعلاء نفسه بشتى غيره وانتقاصه ، فإذا وجد الناس ينتقصون إنساناً وجد السبيل موطأ إلى هذا الإعلاء نفسه « ولو وكل الخصم كما قال هلبس كمحام بأجر مقنع للدفاع عن خصمه لوجد من أبواب المدح ما يبطل به ذمه لخصمه » .

٢٩ - ينسى الناس فى معاملتهم أنهم لا يتعاملون بالعقل النظرى المحض ، وإنما يغطى على أعينهم فيحسبون هذا الحسبان ، وإنما هم يتعاملون بما هم محكومون به من الشهوات الجامحة والنزعات الشاردة ، وقد يتخاصمون ويسعى كل فى أذى الآخر بسبب الاختلاف فى آتفه الأمور ، فهم كالأطفال المدللين . فحياة الناس كثيراً ما تكون لعبة من لعب التمرير والغش ، فهم يريدون أمراً وسعادتهم فى غيره ، أو أنهم يجدون السعادة فى ذلك اللعب نفسه ولكنهم فى النهاية ربما يجدون سؤر كأس تلك السعادة مرّاً كريهاً .

(٢٨)

نظرية السير (أرثر هلبس)^(١)

إن بعض نظرات السير هلبس تذكرنا قول جوتا :

« إن الصواب المجهول إذا عرفه الإنسان كانت له فجأة الأمر المتوقع وبغته الأمر المعروف المنسى » كما أن بعضها يذكرنا قول جوتا أيضاً :

« إن الناس يزهدون فى الحق لأنه معروف مملول مألوف ، والألفة تبعث الملل وهم لا يستطيعون تطبيقه وإنجاحه وتحقيقه فهو يشق عليهم فى العمل ، وإن كان لا يشق عليهم فى الفكر » .

ولقد كان منذ عهد الصغر كثير القراءة والإطلاع وكان يجمع بينهما وبين التفكير فيما يقرأ ، فنشأ عن ذلك أنه نشر نظراته فى عهد الشباب فدلّت على حكمة الكهول وعلى أصالة الفكر ، وكان من أصدقائه أرثر هالام وتينيسون وغيرهما من الكتاب والشعراء . وكان مثقفاً ثقافة عامة ، فكان قصصياً وكان مؤرخاً وكان كاتباً أدبياً وكان سياسياً من الأحرار المعتدلين ، وكان ملماً باللغات وآدابها ، وقد ذكره رسكين فى بعض كتبه وقرنه إلى أفلاطون وكارليل وقال عنه أنه كان ذا بصيرة بالأمور وأصالة فى رأى .

وقد نسى الناس قصصه وكتبه التاريخية ولم يبق غير نظراته وأفكاره ورسائله . وهذه نظراته ندع القارئ يحكم عليها أو لها . وهو سيجد فيها فكراً عميقاً وبصيرة بالنفس الإنسانية ، كما سيجد فيها طلاوة الخيال الذى يوضح الحقائق ويفسرها ، وقد تولى منصباً فى المجلس الخاص فى عهد الملكة فكتوريا ، وكان من المقربين لديها .

وفيما يلى بعض نظراته مع قليل من التعقيب :

١ - إذا أساء اليينا مسئ وكانت لنا سلطة وقدرة عليه وتحكم فيه فإننا قد نشعر بالغضب ونظهره أكثر من شعورنا به وإظهاره إذا لم تكن لنا تلك القدرة على المسئ ، وهذا من طغيان الطبيعة البشرية التى قد تسهل على المرء تحمل الاساءة من لا سلطة له عليه ، ثم يقتصر لنفسه من له سلطة عليه ، بإظهار الغضب والاستسلام والتمادى فيه .

١ - المقتطف سنة ١٩٥١ م ، المجلد ١١٨ ، الجزء الثانى ، ١٥ فبراير سنة ١٩٥١ م ، ص ١٩٢ - ١٩٥ .

٢ - كثيراً ما ننسى أن من الناس ناساً يلبسون نفوسهم كمن يلبس ثيابه مقلوبة ، فيظهر الوجه الأقل حسناً ويخفى الوجه الزاهى الكثير الحسن .

٣ - من الخطأ أن يقال إن المرء إذا تعود معرفة عيوب معاشريه ونقائصهم لا يأبه لها ولا يحس بها ، فالواقع هو أننا لنزداد شعوراً بها حتى أننا كثيراً ما نحسب أننا نجد لها فى حالات لا توجد فيها ولا ترى وذلك من سوء الظن الذى يلزمنا فى عشرتهم .

٤ - ليكن اغتفارك ما تغتفره وما تصفع عنه أشبه بالنسيان منه بالاغتفار ، لأنه إذا لم يكن كذلك كان الاغتفار أشبه بالمن عليهم والاعتداء الذى يكرهونه ، وقد يمقتونك من أجله .

٥ - لا تتوقع أن تسمع من كل إنسان شرحاً مقنعاً لأسباب سلوكه ، لأنه كثيراً ما يغفل عن أهمها أو يسهو عنها أو ينساها ولو أن أثرها موجود فى نفسه . وكثيراً ما يتقدم المرء للسامع بالأسباب التى يظن أنها راجحة محبوبة عند سامعه وإن لم تكن أسباب سلوكه الحقيقية أو أهمها ، وإنما يفعل ذلك تقريباً إليه ورغبة فى نيل التزكية منه فتتم تلك الأسباب التى يفسر بها سلوكه عن رأيه فى خصال سامعه الذى يزكى نفسه لديه وتفى رأى المستتر فيه .

٦ - من الصعب الحكم على أسباب الخصومة ، لأن ظروفها القريبة قد لا تكون ذات صلة بالأسباب الحقيقية ، كما أن مكان المعركة قد لا يكون سبب حدوثها ، وكثيراً ما تختفى الخصومة كاختفاء الماء الذى يجرى فى بطن الأرض ويخرج فى مكان سحيق بعد أن تعتوره أحوال عديدة ، ولا يدل مكان ظهوره على نشأته .

٧ - إذا تعودت الاستسلام لمحبي أنفسهم من ذوى الأثرة طلباً للراحة من عناء إلحاحهم ، فإن ذلك كثيراً ما يؤدى إلى تضييع ما هو أمانة فى عنقك من مصالح الناس عامة ، وليس بعد تضييع الأمانة إلا إنكارها وانكار تضييعها والإمعان فى الظلم وما يجره من الفساد والشرور وسخط الناس .

٨ - لا تجعل غضبك وامتعاضك مقياساً لخطأ أحد الناس ، فإن الغضب والامتعاض قد لا يعادلان إساءته أو خطئه ، وإذا تعودت ذلك تعودت الظلم وقلة الانصاف ، لأن للنفس حالات تغضب فيها من الخطأ القليل ، غضباً أشد من غضبها من الخطأ الكثير فى حالات أخرى أو مع إناس آخرين .

٩ - كثيراً ما يهوى الناس مناقضة الصفات المعروفة فى نفوسهم ومخالفتها ، فترى الرجل الكثير التفاضب والشراسة يجنح فى بعض الأحيان إلى اللطف والدعة والتسمع لكى يضل الناس إذا أحس أنهم فطنوا إلى شراسة طبعه .

١٠ - لو أعطى الإنسان القدرة على أن يتحول بالتمنى وأن يكتسب به جمالا لما تمنى إلا ما يجعله نسخة جميلة لشخصه قبل التمنى ، وكذلك لو استطاع أن يحول نفسه بالتمنى فإنه لا يتمنى لها إلا أن تكون نسخة جميلة من صورتها الأولى قبل التمنى .

١١ - لو بحثنا ما يسميه الناس الثبات فإننا نجد فى كثير من الأحوال الإلحاح الناشئ من حب الذات والإصرار الناتج منه فيتزياً ، فى رأى الناس بزي الثبات على المبدأ ويسمى باسمه .

١٢ - لو استطاع الساخط على إنسان أن يحس كأنه محام يدافع عن المغضوب عليه بأجر يرضيه ، لدesh لكثرة الحجج التى يستطيع أن يدلى بها لصالحه ، كى يثبت براءته أو عذره وكى يثبت إساءة نفسه فى سخطه .

١٣ - إن سرورنا بمن نستطيع أن نغير رأيه أعظم من سرورنا بمن يوافقنا قبل الحاجة ، وقد يعرف الماكر هذا الأمر فيختلف معنا اختلافاً قليلاً ثم يعود فيظهر الاقتناع برأينا كى يسرنا سروراً يدفعنا إلى قضاء حوائجه .

١٤ - إذا استسلمت إلى سوء الظن وجدت غذاء كافياً لسوء ظنك يزكيه ، كما أن أذن المؤرق اليقظان يسترعى انتباهها فى سكون الليل كل صوت خافت .

١٥ - إن الناس يلجأون إلى الغش ويعدون أسهل الوسائل وأقربها ، مع أن صاحب الغش لا بد أن يكون ذا نفس يقظ وعينين متنبهتين وأذنين سامعتين لكل أمر ، كى لا ينكشف غشه فهو فى أشق الأمور ، وأسهل منه الصدق فى المعاملة فلا يحتاج الصادق إلى تنبه جوارحه لتغطية كذبه .

١٦ - إن الناس يعتدون النصيحة التى ينصحهم بها غيرهم كالضرائب المباشرة المفروضة عليهم كلما ازدادت مقت الناس لها . وقلما يلتجئ المرء إلى طلب النصيحة من غيره إلا إذا أراد تزكية ومدحاً منه لعمله أو قوله أو فكره . وإذا فطن أن فى النصيحة من غيره فائدة لغيره شك فيها وتجنبها حتى ولو كانت فيها فائدة لنفسه ، وأضيع النصيح أن تنصح إنساناً يعمل ما لا يستطيعه .

١٧ - إن ذا الحاجة إذا طلب منك طلباً وكانت فى قولك له كلمة يصح أن تحمل على محمل الوعد وأن تؤوّل إليه وأن تفسر به فإنها تكبر فى ذهنه بالأمل حتى تصير كالجنى المارد الذى خرج من القمقم فى قصة ألف ليلة ، ويقاضيك إياها ويعدك حائثاً كاذباً قليل الوفاء كثير الغدر .

١٨ - من الأمور المضحكة المعتادة أن نرى إنساناً يلح على آخر كى يقبل منه عطاء أو هدية أو معروفاً ، وصاحب العطاء أو المعروف فى سريرة نفسه لا يريد من الآخر أن يقبل معروفه أو هديته أو عطاء ، بينما نرى الآخر يقبل العطاء متضايقاً من إلحاح الأول ويخشى أن يجرح إحساس ذلك الملح إذا رفض عطاءه أو معروفه ، وهو بقبوله المعروف يزداد مقتاً فى سريرة الأول .

١٩ - قد يكون غضب إنسان منك ناشئاً من غضبه على نفسه بسبب استسلامه إلى هذا الغضب وعدم قدرته على كبحه وقلة تقديره لهذه الحالات النفسية منه .

٢٠ - إن الأمور النبيلة الجليلة إذا تأملها المرء طويلاً بإنعام ولم يتأمل غيرها فإنها قد تجعله غير قادر على تبين الأمور والحكم عليها حكماً صحيحاً ، ومثله مثل من ينظر إلى الشمس المتوهجة مدة طويلة حتى لا يستطيع أن يميز الأشياء .

٢١ - كما أنه من الصحيح فى العلوم الرياضية أن يقال إن النقطة الواحدة لا تعين اتجاه خط مستقيم وهى أخرى أن لا تعين اتجاه الخط المعوج . كذلك لا يستطيع أن تحكم بعمل واحد يعمل المرء على خلقه بوجه عام ، فإن خلق الإنسان حتى من كان ساذجاً كثير الاعوجاج . ومع ذلك يسرع الناس إلى الحكم على أخلاق إنسان بعمل واحد من أعماله .

٢٢ - إن من اتقان النفاق والخداع أن يكون صاحبهما عادلاً مستقيماً صريحاً شريفاً فى الأمور التى لاتعنيه ولا تعوقه عن مطالبه ، ومن أجل ذلك صار المخادع الماهر لا يستخدم خداعه ونفاقه فى كل أمر .

٢٣ - يقال فى علم الطبيعة أن اعتراض نوعين خاصين من الأشعة ، قد يحدث ظلاماً فى نظرك وكذلك اجتماع الحجج المتخالفة فى الحاجة للأمر ، وضده ، قد يحدث ارتباكاً وظلاماً فلا تستبين الأمور إلا إذا بحثت كلا منها على حدة .

٢٤ - كثيراً ما ينسب إلى الرجل الجاهل أكثر الرذائل أو الفضائل ، لأن الجاهل يبعثه إلى سوء الظن وإلى القسوة وحب الأذى وكره الفكر والمفكرين ، كما أنه قد يتبع قدوة الناس من غير فكر فيفضل إذا ضلوا ويصيب إذا أصابوا فى عمل الخير ، وهو فى هذه الحالة الثانية يكون محسوباً من ذوى الفضل والفضائل .

(٢٩)

تابع نظرات السيز ارثر هلبس^(١)

٢٥ - إنك قلما ترضى رجلِك إذا مدحت كلا منهما مدحاً مساوياً لمدحك الآخر بلا فرق ولا تميز لأن طالب المدح إنما يريد كى تكون له ميزة على غيره .

٢٦ - كما أن بعض الناس يرغب فى الرذائل لأن سبيلها سهل موطأ فكذلك يرغب آخرون فيها بسبب العوائق التى تعرض سبيلهم فتشبههم مكافحة العوائق وتجعلها محبوبة لديهم .

٢٧ - قد يحترم الناس الرجل الذى يدوس عواطفهم ويؤلم إحاساتهم إذا وجدوا أنه لا يتحرج من أن يدوس عواطف نفسه وأن يؤلم إحاساتها . أما الرجل الذى يؤلم إحاسات غيره كى يرضى إحاسات نفسه وعجيبها ، فإنه لا ينال إلا المقت والاحتقار فى صميم نفوس الناس ، ولو أن بعض المعجبين يستهون الناس بعجبهم وغرورهم ، فيخضع لهم الناس فترة طالت أم قصرت .

٢٨ - كثيراً ما يكون احترام المحب للمحبوب من رماد الحب بعد فثائه ، وكثيراً ما يلتجئ إليه المحب الذى فنى حبه كى يخفى به فناء الحب ، فيحسب الناس دليلاً عليه لما قد يجدون منه فى الحب ، ولكنه قد يكون من ندم المحب إذا فنى حبه .

٢٩ - من الخطأ أن يقال إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نقائص نفسه فإنه كثيراً ما يعرفها ولكنه يسميها أسماء أخرى خداعاً للناس وتضليلاً لهم ولنفسه ، وهو يعرضهم عن ذلك الخداع المضلل بأن يبادر بتسميتها بأسمائها الحقيقية إذا لاحت له فى غيره ، أو إذا حسب أنها لاحت له . أو إذا اتهم بها غيره بحق أو بغير حق .

٣٠ - لا تحسب أن المصيبة تمحق كبر الرجل المتكبر إذا حلت به بل إن كبره لا يزال به موجوداً وقد يخذ أشكالا وألواناً أخرى وينتهاز فرصة لاستعادة شكله الأول .

٣١ - لقد صدق باسكال العالم الرياضى الفرنسى إذ قال إننا نعطف على من كان به اعوجاج فى قدمه بسبب عاهة ولكننا لا نعطف على من كان به اعوجاج من فكره ، لأن الأول

١ - المقتطف سنة ١٩٥١ م ، المجلد ١١٨ ، الجزء الثالث ، مارس سنة ١٩٥١ م ، ص ٢٥٣ - ٢٥٥ .

لا بد أن يعترف إذا مشى باعوجاج قدمه أما الثانى فإنه ينكر اعوجاج فكره ويحاول أن يثبت أننا على اعوجاج فى الفكر - ومع صحة رأى باسكال ينبغى أن لا نعنف مع صاحب رأى المعوج وأن نعطف عليه وأن نعتقد أن ذلك من آفة فى عقله كأفة القدم المعوجة أو كأفة الصمم أو البكم وأن نتذكر أننا أيضاً كثيراً ما يدفعنا التحيز والتشيع إلى الحكم بالباطل فيظهر اعوجاج فكرنا بالتحيز أو العاطفة وإن كنا نأبه له .

٣٢ - إن للفكر أخذة ومن أجل ذلك صار العلماء حتى الأفاضل منهم لا يتخرجون من تضليل قرائهم وتضليل نفوسهم ؛ كى يثبتوا صواب فكرهم فى أثناء بحثهم إما من شغفهم بإثباته وإما لنيل المدح من الناس ولكن سوء استعمال القوة الفكرية مكروه مثل سوء استعمال القوة البدنية وهم إذا وصلوا بعد ذلك إلى الصواب فهذا الصواب يكون مثل الممالك التى نزورها فى الأحلام . وقد نعرف أننا فى أحلام إذا فكرنا فى طريق الرحلة إليها (وهذا كما فى قصة الباحثين عن المكروب) وإذا كان هذا شأن العلماء الأفاضل فى البحث العلمى فهو أحرى أن يكون شأن الناس عامة فى حياتهم اليومية .

٣٣ - إن أهل الاستكانة تعوزهم الجرأة على طلب حقهم فإذا لم تقم أنت لهم بكل حقهم ركبت الشطط فى معاملتهم وسهل عليك الظلم واغتصاب حقوق الناس والرغبة فى استثمار جهودهم بأقل مما يقتضيه العدل إذ قد تعد استكانتهم دليلاً على نيل أهل الاستكانة ، ولا أمر يتلف صحة رأى المرء فى العدل مثل العيش بين أهل الاستكانة فإذا عاش بين غيرهم بعد ذلك ظهر ظلمه ودهش لظهور ظلم لم يكن يعتده ظملاً .

٣٤ - يقولون إن الكذب لا يصدق ولا يقبل لأنه لا أساس له ولا قوة فيه ، ولكن لكل كذبة وقت وميعاد وهوى فى النفوس ، ولا يمنع من تصديقها أنها لا أساس لها . وقد تكون لها قوة كبيرة مستمدة من قوة من يؤمن بها . (وهذا يذكرنا قول ثاكوى إن الكذب قد يكون أصغر من النقطة ولكنها مع ذلك كالنقطة السائرة التى تحتل مكاناً كبيراً وترسم خطأ طويلاً) .

٣٥ - قد يكون اليأس كالنوم يجدد قوى النفس والفكر ولكنه إذا صار عادة ونيراً أصبح شللاً لهما .

٣٦ - كثيراً ما يؤدى الندم إلى اليأس من أداء الخير مع أن المفروض أنه ينبغى أن يؤدى إلى معاودته والتزامه ، وإنما يؤدى إلى اليأس من أداء الخير ، لأنه يحسب أن ما جناه من الشر دليل على حياته كلها ، فيكون مثله مثل من يدع النقطة من السائل الأسود تغطى على

جميع ثوبه بدلا من تلافيتها من أول سقوطها ، أو كمن يجد صخرة فى النهر أو عكارة فى نقطة فى جزء من الماء فيحسب أنها تدل على الماء كله .

٣٧ - إذا أردت أن تفهم عصرك فاقرأ ما يكتب فيه من القصص فإن المرء كثيراً ما يريد أن يخفى نفسه فى نفس القاص كى يتمادى فى وصف الرذائل وصفاً مغرباً يحببها إلى الناس وهو يزعم أنه ينهاهم عنها .

٣٨ - قد توضح حياة المرء ما التبس فى قوله ، فهوريز الفيلسوف الإنجليزى الذى زعم أن الدولة هى كل شئ وأن الناس إذا أنشأوا الحكومات أسلموا لها كل حق قد اعترف للورد كلارندون أنه إنما فعل ذلك كى يتجنب إلى الحكومة فتسمح له بالعودة من منفاه ويريدونى قد نشر رسائل ميكافيللى يستعطف فيها بعض الأمراء ويشكو إليهم سوء حاله ويقول فيها إن مبادئ الطغيان التى ذكرها فى كتابه (الأمير) إنما ذكرها تزكية لأعمالهم فى الحكم وأنه من أجل ذلك يستحق أن يعان على أمره بالمال كصدقة ، وقد زعم كتاب آخرون أن هؤلاء الكتاب إنما هالهم انقسام الآراء فرأوا أن للأمراء الحق فى توحيدها صيانة للأمن وجلباً للوحدة بأية وسيلة حتى الوسائل العنيفة الشديدة (وذلك هو ما زعم ماكولى فى رسالته عن ميكافيللى) وربما كان الدافعان موجودين فى نفس القائل عند قوله ما ذكر .

٣٩ - إن من قلة العقل أن يرفض المرء كل لطف أو عطف وأن يسئ به الظن لأنه لايعرف سببه والباعث له فإنه يكون كمن يرفض ماء النهر لأنه لايعرف منابعه .

٤٠ - بعض القواعد الأساسية فى الشرائع لايعمل بها الناس فى حياتهم ومعاشرتهم بعضهم لبعض ، فالمبدأ الذى ينص على أن كل متهم برئ حتى تثبت ادانته لا يعمل به الناس كذلك المبدأ الذى يشرع أن الشك ينبغى أن يجعل فى مصلحة المتهم لا يأخذ به الناس فى حياتهم الخاصة ، فينشأ عن ذلك قلة التسامح ولو عملوا بهما كانوا أقرب إلى التقوى والعدل والتدين .

٤١ - لقد صدق جوتا إذ قال فى قصة فوست (إن الذى يصمم على أن يعد غير مخطئ إذا كان ذا لسان ذرب محق وذلك لأن الطلاقة والمهارة فى الكلام قد تهزم أقوى ملكات العقل) .

٤٢ - إن عمل الشر لا يتوقف على كبر شأن صاحبه ومع ذلك فإن الناس كثيراً ما يظنون أن الرجل الحقيق لا يستطيع عمل شر كثير حتى وهم متأثرون بما يقول أو ما يصنع من الشر .

(٣٠)

تتمة نظرات السير آرثر هلبس^(١)

٤٣ - كثيراً ما يكون المرء حتى من كانت عنده شجاعة خلقية كبيرة أداة يحركها غيره أو قربانا وضحية على مذبح الخداع كما يحدث فى عالم السياسة أو فى الحياة اليومية المعتادة . وينبغى للمرء أن يمضى فى عمله وفكره لا ييغى تمجيده ولا حسن ذكرى ، غير آبه لمدح الناس أو ذمهم فإن طاعة الناس ابتغاء مدحهم قد تكون هزيمة لشجاعته الخلقية .

٤٤ - إن الرجل العملى على كثرة مدحه فى هذا العصر الحديث كثيراً ما يتقدم بفكرة واحدة غالبية عليه ليهدم مبدأ عظيمًا فيكون مثله مثل من يقطع بغيظ وجراة رباط عقد غير كريم فينقطع العقد وتنتثر حياته وقد تضيع بعض أحجارها الغالية الثمينة .

٤٥ - أن الأسباب التى يتقدم بها إليك إنسان لتفسير سلوكه كثيراً ما تغشى رأيه المستتر فيك ؛ فإنه يتقدم بالأسباب التى يظن أنها توافق أخلاقك وترضيك .

٤٦ - مما يزيد فى تواضعنا تتبعنا سلسلة الحوادث الماضية فى حياتنا حتى نصل إلى السبب الأول فنجد سبب سعادتنا أو تعاستنا سوء تفاهم تافه أو تأخر طرفة صغيرة أو أشباه ذلك من الحوادث التى تدل على سخر الحياة إذ أن السعادة أو التعاسة ليست مؤسسة دائماً على أسباب هامة كبيرة .

٤٧ - يشعر الناس بنوع من الغرور والإعجاب بالنفس يدعوهم إلى الغرور بشراستهم والاعجاب بقلة أدبهم ؛ إذ يحسبون ذلك فضيلة فيهم تجعل الناس تهابهم فيجمعون فى الشراسة وقلة الأدب ويعتبرونهما ميزة لهم وحقاً .

٤٨ - إن القرد يحاكي لمهارته فى المحاكاة ، والأغنام تحاكي لأنها ليس عندها عزيمة وعقل الإنسان هو المخلوق الذى قد يحاكي الأمر الذى يكرهه وما يعرف أنه خطأ خشية لوم الناس .

٤٩ - مما يدل على جلال الصدق وضرورته ، أن الإنسان إذا كذب مرة تحايل بالكذب مرة أخرى كى يثبت أنه كان صادقاً فى المرة الأولى فيمعن فى الباطل كى يخفى كذبه ويكون

كالحيوان الذى يحفر حجراً عميقاً كى يخفى فيه عن الناس ، وعمل الإنسان هذا قد يكون سببه الرغبة فى الظهور بالكمال ، أو قد يكون مؤسساً على اعتيابه أن الكذب مكروه متساو فى شناعته فإذا كذب كذبة صغيرة شفعها بأخرى كى يخفيها ، والعاقل من يعرف أن كل إنسان به شئ من الباطل فلا يجد داعياً لأن يتورط فى الباطل ، فيكون شبيهاً بمن يريق الخبر على ثيابه كى يخفى بقعة منه عليها .

٥٠ - إنك إذا أكرمت إنساناً وكان اكرامك إياه يجلب لك منفعة ومسرة ، فإنك لا تستطيع أن تنال دائماً اعترافه بجميل ما صنعت ، لأنه قد يحمله على محمل إرادتك المنفعة والمسرة لك ، لا نفعه واکرامه بالجميل الذى صنعت معه .

٥١ - إن الناس كثيراً ما ينفرون ممن لا يخطئ أبداً ويسبئون به الظن ، كما ينفرون من عنده ذلاقة يستطيع أن يثبت بها أنه دائماً على حق .

٥٢ - إذا خدعك من حولك كثيراً فاعلم أنك خليق بأن تخدع ، إما لضعفك وتصديقك كل ما يقال لك ، وأما لطغيانك وعدم السماح لهم أن يسمعوك ما تكره سماعه .

٥٣ - إن من الضعف أن تخفى عنم تستشيريه فيه خشية أن تطلعه على أسرارك التى تود أن تبقى خافية ، وأضعف من ذلك أن تأخذ برأيه ونصيحته عند ذلك ، لأن رأيه يكون مؤسساً على ما أبديت له دون ما أخفيت عنه .

٥٤ - لا تطلع أحداً على سر قد يضره كتمانك إذا عرف أنه كان يعرفه ، فإن الحذر كثيراً ما يدعو إلى افشائه تجنباً للضرر ، ولا تحسب أن طلب العطف والمعاونة يسوغ اطلاعك إياه عليه ، ولا تطلع أحداً على سر يزداد عظمة وربحاً بإفشائه ، فإن حب العظمة أو الريح كثيراً ما يغلبان الأمانة .

٥٥ - كثيراً ما يأخذ المرء بالفكرة الشائعة من غير تمحيص أو بحث ، ثم يجادل ويدافع عنها بكبر وازدراء كأنه أفنى عمره فى تمحيصها وبحثها .

٥٦ - قد يصر الرجل بعد غضبه على صدق كلمات قالها فى حالة فورة غضبه ولم يكن يريد الأخذ بها لولا ذلك الغضب ، فيكون مثله مثل من انتقل من حالة هذيان مؤقت إلى حالة جنون دائم .

٥٧ - من الغريب أن الناس لا يتقاتلون ولا يتعادلون كما يفعلون ذلك فى الأمور العويصة الغامضة التى لاتدركها عقولهم ، مثل أمور ما وراء الطبيعة ، مع أن عدم فهمهم إياها كان ينبغى أن يعلمهم التسامح .

٥٨ - ليس فى الناس مخدوع مثل من يخدع نفسه بمعرفة نصف خداع المخادع وهو يظن أنه يعرف كل نواياه ومقاصده .

٥٩ - إن كلمة « الناس » كثيراً ما يقصرها المرء على طائفة قليلة حوله أو على إنسان أكثر منه دراية ومنطقاً ، وهذا ما يصنعه إذا فعل شيئاً أو قال قياً لا يريد تأييده ، فيقول إن الناس يريدون ذلك أو، يفعلونه - وهذا مثل كلمة « الشعب » التى كان المتطرفون فى عهد الثورة الفرنسية الأولى يطلقونها على حثالة الرعاع من الباريسيين .

٦٠ - إن عبد العادة القديمة قد يسخر من عبد الأمور المستطرفة الحديثة السارية وكلا الأمرين رق مادام عقل المرء مغلولاً بما يتبع .

٦١ - كثيراً ما يمقت الناس من يدعى الفضل ويخافون ممن يحاول الظهور به ويحسبون أن ذلك اساءة إليهم وتحقير لهم ، مع أنه قد يحاول بما يظهر به التقريب إليهم وإيناسهم وطلب العطف ونيل الرضا . وقد ننسى أن كثيراً من الناس مختلفون عنا فليس عندنا وسيلة للحكم عليهم .

٦٢ - لكى يمنع الإنسان كبح نفسه عن الرذائل من أن يبعث فيه الغرور وما يجره الغرور من الآثام ينبغى أن يتأمل الهاوية التى كان على وشك أن يقع فيها لو أنه لم يكبح نفسه عن الرذائل بدل الشعور بالكبر والغرور واضطهاد الناس .

٦٣ - الصدق هو أعم مظهر من مظاهر إنكار الذات وأكثرها تنوعاً ؛ لأنه كثيراً ما يتعرض بين المرء وبين ما يحب ، ولو أن المرء كثيراً ما يخفى بعض الحق حتى ولو كان صريحاً ببعضه ، إذ يرى أن إخفاء القليل الذى يعده تافهاً قد يؤدى إلى كسب محقق أو يتفادى بإخفائه خسارة يرى أنها محققة فيخفيه استهانة بتفاهته ، حتى ولو أدى ذلك إلى سوء فهم للأمور ، وقول الحق لا يكون إلا بعقل متزن ؛ لأن التضليل قد يكون سببه المبالغة التى تكون طبعاً فى النفس . أما الاتدفاع فى القول فهو تضليل غير مقصود ، ولكن ذلك لا ينقص من ضرره . وقول الحق ينبغى أن يؤدى إلى أن يزداد المرء معرفة بنفسه كما ينبغى أن يؤدى إلى قدره غيره قدرأ صحيحاً . ولو عرف الناس نفوسهم لتسامح بعضهم مع بعض وبطل الاضطهاد .

٦٤ - إن الطبع الذى يجمع بين الصراحة فى القول والحذر والاحتياط من أن يفهم السامع أكثر مما يعنى بقوله لا يتهياً إلا لمن كان سليم المقاصد والأعمال ، وكان يقدر قدرأ لطيفاً دقيقاً إحساسات غيره ، وهذه صفات تدله على ما يجوز أو يحكى عن أمور نفسه وما يجوز أن يتحدث به عن أمور غيره بصراحة مقرونة إلى الحذر والاحتياط .

(٣١)

نظرات ابن المقفع^(١)

قال الأمير شكيب أرسلان فى مقدمة « كتاب الدرة البتيمة » لابن المقفع - وهو الكتاب الذى طبع فى مصر وسمى « الأدب الكبير » - " فاخترت طبعها لأنها مع صغر حجمها قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الحكمة وتضمنت من الحكم البوالغ والحجج الدوامغ ما لم يتضمنه كتاب قبلها ولا بعدها " - والأمير شكيب أرسلان أديب مطلع على كتب الآداب العربية فهو لا يرسل القول من غير تمحيص ، بعد أن قرأ كتب الجاحظ والماوردي وابن مسكويه وابن حزم وابن عبد ربه وغيرهم ، ومن المستطاع العثور على حكمة وبلاغة فى كتبهم ولكنها إما مقتبسة من الخطب والأقوال ، وإما أنها ، مع بلاغتها ، لا تصل إلى ما تصل إليه حكمة ابن المقفع من الإلمام بعادات الناس وطباعهم وأخلاقهم ونزعات نفوسهم وسلوكهم فى الحياة مع بلاغة الإيجاز . ولعل الأمير أرسلان لا ينحو فى قوله منحى المقرطين الذين اعتادوا المبالغة والتعميم فى كل مدحه ، ولعله قارئ ووازن وخلص إلى هذا الرأى . وقد فطن الكتاب إلى تلك الحكمة التى يطربها الأمير شكيب فكان الكتاب فى عهد الجاحظ يحاكونها وينسبون مؤلفاتهم إلى ابن المقفع كى تروج ، كما اعترف الجاحظ نفسه وإلا كان نصيبها الكساد والبوار . أما ترجمة ابن المقفع لكتاب كليله ودمنة من الفارسية فهى تذكرنا قول جوته : " إن المترجم كالمخاطبة فى البلاد الشرقية تنقل محاسن العروس المحجوبة إلى الفتى الذى يريد أن يتزوجها فتشوقه تلك المحاسن " - فالمترجم شريك المؤلف يعرض بضاعته أحسن عرض بما يناسبها فى اللغة التى يترجم إليها وإلا ما أجاز ابن المقفع لنفسه أن يضم إلى كتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير أقوالا ذكرها فى كتاب كليله ودمنة ومعانى كأنها من معانيه ، ومن أجل ذلك يقول فى كتاب الأدب الصغير : " إذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبدع ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص ، وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلائد وسموطةً وأكاليل ووضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك ، وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة وسلكت سبلا جعلها الله ذللاً فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً

منسوبة إليها مذكوراً به أمرها وصنعتها - ويبقى بعد ذلك ما بين الصانع الصنّاع والألمعي التجيب وبين الساطى الذى يسرق الكلام كما هو أو يذهب بحاسته فهمه " .

وإبن المقفع على ما فى قوله من حكمة وإدراك للأمور لم يعصم فى معاملة السلطان الأكبر وهو الخليفة المنصور ، ولا فى معاملة عامله على البصرة وهو سيفان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة من هنات تخالف ما رسم لمعاشر السلطان ومخالط والى وجليسه من حكمة وأدب فلم يتتفع بحكمته ، ونسى قوله إن على من يريد أن يكون إماماً أن يعظ نفسه ويتعظ قبل محاولته وعظ الناس . وقوله أن العالم يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه ولا تكون غايته اقتناء العلم لمعاونة غيره فحسب ، فكان مثله مثل فرنسيس باكون الإنجليزى (اللورد باكون) فإنه يقول : " إن على القاضى أن لا يتخذ القضاء شباكاً وحبائل يقتنص بها الناس " ثم يكون من أواخر القضاة الإنجليز إن لم يكن آخرهم - الذين استخدموا التعذيب وسيلة لانتزاع الاعتراف من نفوس المتهمين ويعظ الناس بالنزاهة ثم يأخذ الرشوة من المتقاضين وينصح المفكرين بالاستنتاج المؤسس على المشاهدة الصحيحة ، دون التعلق بالأمور النظرية من غير بحث ، ثم يرفض كثيراً من الحقائق العلمية الحديثة التى وصل إليها الباحثون بالطريقة التى حث عليها فكانت حكمة باكون فى كل هذه الأمور لغيره لا لنفسه كما كانت حكمة ابن المقفع ، وعلى من يعيبه أن يبحث أولاً فى قوله وعمله ، فإن حكمة أكثر الناس لغيرهم لا لنفوسهم فى كثير من الأمور ، ويذكرنا ابن المقفع باكون فيما يولع به كلاهما من التشبيهات والأمثال والقصص التى يجلو بها حكمته ، وكانت هذه الطريقة محبوبة شائعة فى الأدب الإنجليزى فى عهد الملكة اليصابات وجيمس الأول ، ومن أوجه الشبه بينهما أن كليهما مولع بالأساطير التى فيها حكمة ومغزى .

فألف باكون كتابه فى أساطير الأغريق وسماه « حكمة القدماء » وأوضح فيه ما خلف أساطيرهم من حكمة بارعة ، كما ترجم عبد الله بن المقفع عن الفارسية أساطير الهند وحكمتهم فى كتاب « كليله ودمنة » وكل من ابن المقفع وباكون ماهر فى بلاغة الإيجاز . وقد يذكرنا ابن المقفع فى وصف آداب السلوك أديباً إنجليزياً آخر وهو لورد تشستر فيلد ، فإن هذا كان همه وصف آداب السلوك كى يهذب ابنه ويصقله . أما أدباء اللغة العربية فقلعه لا يقاربه ويقرن به إلا الجاحظ على ما فى الجاحظ من مدح للشئ ومدح لضده ، وكتب الجاحظ عالم فى الموضوعات المتنوعة ، فلا غرابة إذا اختلف أسلوبه فى كتاب عما هو فى كتاب آخر . فنرى أسلوب الجاحظ فى كتاب « مناظرة الربيع والخريف » أكثره سجع ومزاوجة وموازنة

ومقابلة ومرادفة ، بينما هو فى كتاب « الدلائل والاعتبار » يكاد يخلو من هذه الأمور ويصدق فيه قول بديع الزمان الهمذانى أنه منقاد لعربان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله » أما عبد الله بن المقفع فأسلوبه على وتيرة واحدة حتى قيل إنه السهل المتنع وفى بعض الأحيان يستعمل المزوجة والموازنة ، ولكن لا كاستعمال الجاحظ لها فإن الجاحظ يطيل فيها ويكثر ، وهى فى أسلوب الجاحظ لها وقع السجع فى الأذهان حتى أن من لا يلتفت قد يظنها سجعاً . والذى يمتاز به ابن المقفع بلاغة الإيجاز ولا نعى أن الجاحظ ليس له من الحكم الجوامع ولكن أكثر أقوال ابن المقفع ولاسيما فى كتابى « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » من جوامع الكلم التى تجمع الحكمة فى بلاغة وإيجاز مع استيفاء المعنى ، أو ما يكاد يكون استيفاء . وينبغى أن نتذكر أن ابن المقفع كان منكوباً ، والمنكوب مخذول فى دعاوى الناس مغبون فى أقوالهم ومصاب بأكاذيبهم وأباطيلهم ، فلا تستطيع الأجيال التى بعد عهده أن تميز الحق من الباطل فى كثير مما ينحل من القول وما ينسب إليه من الفعل ، إذ هو مهتضم بعد النكبة لا يجد من ينافح عنه بتميز الصواب فيما ينسب إليه حتى ولو كان مشهوراً محسوداً يحتذى الناس قوله . ولا مناص لنا على هذا الأساس من القول إن حكمته لم تعصمه من الزلل والهلاك ، ولا نحسب أن كاتباً قديراً مثله كان يستعصى عليه أن يجمع بين شدة الموثيق ولين اللفظ والتحايل ، لذلك فى كتابه الذى طلب فيه الأمان لهم المنصور الذى ثار عليه وهزم ، ولا نظن أنه كان يجهل ما فى بعض أقواله من عبارات يتأذى بها الخليفة ولا يتسامح فيها ، حتى ولو كتبها على لسان أعمامه مثل قوله إذا غدر بعمه « فنساؤه طوالق والمسلمون فى حل من بيعته » ولكن المرء قد يجمع إلى الحكمة والمعرفة رعونة الطبع ، وهذا كان داءه إذا صح كل ما ينسب إليه مثل تطوعه بالسخر والسفه على حاكم البصرة . فكان إذا دخل عليه وسلم قال السلام عليكما يعنى هو وأنفه ، فأنزل أنفه منزلة الإنسان لأنه كان كبيراً ، وإذا قال حاكم البصرة : ما ندمت على سكوت قط : قال ابن المقفع : « الخرس زين لك فكيف تندم عليه » يعنى أنه كان عيباً . وإنه لأمر يدعو إلى الحيرة أن يكون الحاكم مهزلة لرجل مثل ابن المقفع مهما يكن أثيراً عند أعمام الخليفة . وعندما أمر المنصور بقتله قتله هذا الحاكم شر قتلة . ومن الدليل على رعونة طبعه فيما يحكى عنه أنه لما اعتزم الاسلام ، وكان مجوسى الأصل وحضر طعام الأمير جعل يزمزم على الطعام على عادة المجوس فليم فى ذلك ، فقال : أحبيت أن لا أبيت على غير دين وهو إما أنه اقتنع بالإسلام حتى أراد أن يشهر إسلامه فى غده فهو

مسلم بعقله وقلبه قلا معنى لقوله . وإما أنه كان غير مقتنع وكان اسلامه نفاقاً ، وقد اتهم بذلك واتهم بالزندقة . ومن رأى أن من حماقة الطبع أيضاً الجملة المشهورة التى يرويها عنه الكتاب أى قوله « شربت الخطب رياء ولم أضبط لها رويًا ففاضت ثم فاضت فلا هى نظام وليس غيرها كلاماً » . وهذا سجع شبيه بسجع الكهان . ثم لماذا قصر شربه على الخطب دون غيرها من سائر أنواع النثر . نعم إن للبلاغة نشوة ولكنه فى بعض قوله ينهى القارئ عن جميع أنواع السكر ، سكر الشباب وسكر العلم وسكر الذكاء وسكر الجاه وسكر القدرة وسكر المال وهو فى بعض قوله يوضح ما فى مدح النفس من سماعة . وما يروى بصدد ذلك أن الخليل بن أحمد الفراهيدى واضح العروض سئل عن ابن المقفع فقال : علمه أكثر من عقله ، وسئل ابن المقفع عن الخليل فقال عقله أكثر من علمه . ومن الغريب أن المرء عندما يقرأ كتبه ينسى رعونته طبعه أو يكاد يشك فيما ينسب إليه من القصص التى تدل على ذلك ، ويعترف أنه أكبر كتاب العربية فى جوامع وبلاغة الإيجاز والحكمة المؤسسة على ما يشاهد من عادات الناس وطباعهم وأخلاقهم التى تخبر عنها أعمالهم فى إيجاز واستيفاء للمعنى أو شبه استيفاء ، وهذا هو معنى تقرّظ الأمير شكيب أرسلان الذى ذكرناه .

وفيما يلى بعض نظراته مع شئ من التعليق على بعضها :-

١ - لا يمنعك صغر شأن امرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صواباً والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريماً فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها .

٢ - إذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيته ولا تترك من الشر إلا ما كرهته فقد أطلعت الشيطان على عورتك وأمكنته من أزمته . فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من عمل الخير فيكرهه إليك وفيما تكره من عمل الشر فيحبيه إليك ، ولكن ينبغى لك فى حب ما تحب من الخير التحامل والصبر على ما يستثقل منه ، وينبغى لك فى كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يحب منه .

٣ - إنه تكاد تكون لكل رجل غالية حديث إما عن بلد من البلدان أو ضرب من ضروب العلم أو صنف من صنوف الناس أو وجه من وجوه الرأى أو ما هو شبيه بذلك ، وعندما يعزم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويعرف منه الهوى فاجتنب ذلك فى كل موطن .

(٣٢)

تتمة نظرات ابن المقفع^(١)

٤ - لا يوقعنك بلاء خلصت منه فى آخر لعلك لا تخلص منه - وقد يخلص الناس من بلاء بوسائل توقعهم فى بلاء آخر ويوهمون أنفسهم أنهم ربما وجدوا خلاصاً سهلاً من هذا البلاء الآخر متى شاعوا بعد اتخاذه وسيلة للخلاص من البلاء الأول ، وأقرب مثل لذلك الكاذب الذى يخلص من بلاء بكذبه موبقة وادعاء يوقعانه فى مؤاخذة لو عرف بطلان كذبه وادعائه ، أو مثل الذى يتجنى على آخر ثم يحاول أن يخلص من عاقبة تجنبه بجناية أخرى .

٥ - لو أن رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سعى جاهلاً ، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك الطريق المخوف ، ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جريه هو أو أعلمه به غيره . فكان كالمريض العالم بردئ الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته ، وأقل الناس عذراً فى اجتناب محمود أفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعضه ، كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقها فيها ، كانا إذا صارا فى قاعها بمنزلة واحدة ، غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الشرير إذ كانت للأول عينان يبصر بهما وهذا بما صار إليه جاهل - « وللفيلسوف سقراط رأى فى موضوع الخير والشر فهو يقول كما روى أفلاطون عنه أن المرء لا يرتكب الشر ويختاره وهو يعلم أنه شر ، ولا يتجنب الخير وهو يعلم أنه خير ، ولعله يعنى أن الأهواء تغطى على بصيرته ، فيصير علمه جهلاً ، فتوهمه أن فى عمل الشر خيراً أكبر ، وفى تجنب بعض الخير خيراً أعظم ، وهذا كما وصف المأمون به العلم ، كما رواه الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين : العلم بصر فى خلافه العمى ، والاستبانة للشر ناهية عنه والاستبانة للخير أمرة به » .

٦ - إن فى الناس ناماً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب - إذا غضب - أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب فى وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته ، وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك . ثم يبلغ به الرضا -

إذا رضى - أن يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطى من لم يكن أعطاء ويكرم من لاحق له ولا مودة . فاحذر هذا الباب كله فإنه ليس أسوأ حالا من أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم فى غضبهم وسرعة رضاهم ، فإنه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله ويتخبطه ألس من يعاقب فى غير من أغضبه ، ويحبو عند رضاه غير من أرضاه ، لكان جائزاً فى صفته - « وهذا يذكرنا الأمراء الذين كانوا يعاقبون بالقتل رسلهم الذين يبلغونهم خبراً سيئاً كفرعون فى قصة ثيوفيل جوتييه ، كما يذكرنا أيضاً دانترىو الشاعر الإيطالى الذى كان يمنح من خدمه ومن لم يخدمه من خدم المنزل والمطعم مالا كثيراً لا تسمو إليه همتهم خشية احتقارهم إياه ؛ لأنه كان به الشعور بالنقص » .

٧ - أعلم أن بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر ، وأن شدة الالتقاء قد تدعو إليك ما تنقى « وتولع بك ما تخالف من تخاف ، لأن الإقراط فى الحذر قد يؤدى إلى الحيرة والارتباك والقلق والتخلق بمظاهر الريبة ، والمريب متهم ، والريبة تجذب عداوة الناس إلى صاحبها كما يجذب المغناطيس الحديد » .

٨ - قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك ، وتذل نفسك ، ويرغب عنك ناصرك ، ومثل ذلك مثل العود المنسوب فى الشمس إن أملت قليلاً زاد ظله وإن جاوزت الحد فى إيمالته نقص الظل - « وفى التذلل للعدو ويقول إبراهيم بن العباس صاحب المقطعات الجامعة :

يصبح أعداؤه على ثقة منه وخـلالته على وجل
تذلل للعدو عن ضعة وصوله بالصدى عن دخل

٩ - إياك أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فيكون ثلثة من الثلم يتقحمون عليك منها ، وبأبى يفتتحونك منه ، وعيبه يغتابونك بها ويضحكون منها . وأعلم أن قابل المدح كمادح نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده ، فإن الراد له محمود ، والقابل له معيب - « أين هذا الأدب من هراء سجع الكهان فى القول المنسوب إليه : شربت الخطب رياً ، ولم أضبط لها رويًا ، ففاضت ثم فاضت ، فلا هى نظاماً وليس غيرها من الكلام » .

١٠ - أمور لاتصلح إلا بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عقل ولا شدة البطش بغير شدة القلب ، ولا الجمال بغير حلاوة ، ولا الحسب بغير أدب ولا السرور بغير أمن ولا الغنى بغير جود ولا المروءة بغير تواضع ولا الخفض « أى اليسر » بغير كفاية ، ولا

الاجتهاد بغير توفيق - « وإلا أدى العقل إلى الفساد ، والحفظ إلى الخطأ والبطش إلى الانكشاف والاتخاذ ، وكان الجمال سمجاً ، وكان ما تحت الحسب دناءة وشراسة ، ووراء السرور هما قلقاً ، وكان الغنى بطراً ولؤماً ، والمروءة منا والخفض عسراً لا يغنى والاجتهاد عناء وخيبة . »

١١ - إن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء الظن بالأخيار وحملته تجربته في صحبتهم على الخطأ - وأقل ما يكون من ذلك أن الأخيار إذا عاملوه بالكرم والخير واللين حسب كل ذلك منهم فخاً وشركاً يريدون أن يوقعوه فيه - وقد يغالى فيحسب كل برئ متهماً حتى تظهر براءته ، بدل أن يحسب كل متهم بريئاً حتى تظهر إدانته ، وبطبيعة عملهم ومقابلتهم للأشرار ، يميل رجال الشرطة ومن شابههم إلى سوء الظن بالناس .

١٢ - إذا أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة للأمور من غير أن تظهر منك الهيبة فيظن الناس لهيبتك ، ويجرئهم عليك ظهورها ، يدعو إليك منهم كل ما تهاب . فأشحذ طائفة من رأيك لمدارة ذلك من كتمان المهابة وإظهار الجرأة والتهاون ، وعليك بالحنذر في أمرك والجرأة في قلبك ، حتى تملأ قلبك جرأة ، ويستفرغ الحذر عملك - « وإنا يريد بالهيبة ذلك الحذر الذى يصون عمله من الخطأ » .

١٣ - ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم ، فيكون افتقارك إليهم في لين كلمتك ، وحسن بشرك ، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك ، وبقاء عزك : « وليس لين الكلمة وحسن البشر نقصاً ومذلة كما يعدهما ذو النقص . قال المأمون كما روى الثعالبي : ما تكبر أحد إلا لنقص وجده في نفسه ، ولا تطاول إلا لوهن أحسه منها » .

١٤ - إذا نابت أخاك نائبة من النوائب ، من زوال نعمة ، أو نزول بلية ، فاعلم أنك قد ابتليت معه أما بالمؤاساة فتشاركه في البلية ، وإما بالخذلان فتحتمل العار ، فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك ، وأثر مروءتك على ما سواها ، فإن نزلت الجائحة التى تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها فأجمل « أى فى معاملته وعند ذكره ولقياءه » فلعل الإجمال يسعك لقلته فى الناس « إذ أن أكثرهم ينقلب فيصير عدواً كى لا يقال أنه خذل صديقاً » .

١٥ - أعرف عورتك وإياك أن تُعرَّضُ بأحد فيما شاركها ، وأعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال فى التماس مثالبهم ومساوئهم ونقيصتهم ، وكل ذلك أبين عند سماعه من وضع الصبح ، فلا تكونن من ذلك فى غرور ولا تجعل نفسك من أهله .

١٦ - من الدليل على سخافة المتكلم أن يكون ما يرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول ، أو الرجل يكلم صاحبه فيجاذبه الكلام ليكون هو المتكلم ، أو يتمنى أن يكون صاحبه قد فرغ وأنصت ، فإذا أنصت لم يحسن الكلام .

١٧ - وقر من فوقك ومن دونك ، وأحسن مؤاتاتك الأكفاء ، وليكن أثر ذلك عندك مؤاتاة الإخوان ، فإن ذلك هو الذى يشهد لك بأن إجلالك من فوقك ليس بخنوع لهم ، وإن لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم .

١٨ - إن أمور الدنيا ليس شئ منها بشقة ، وليس شئ من أمرها يدركه الحازم إلا قد يدركه العاجز ، بل ربما أعيا الحزمة ما أمكن العجزة ، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل ، فلا تجعل ذلك عليه لوما وعدلا ، تقول أنت فعلت هذا بى وأنت أمرتنى ، ولولا أنت ولا جرم لا أطيعك ، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة ، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو ترك فبدأ صوابك فلا تمتن ولا تكثرن ذكره ، ولا تلم عليه إن كان استبان في ترك نصحك ضرراً ، تقول ألم أقل لك ؟ ألم أفعل فإن هذا بجانب لأدب الحكماء .

١٩ - العجب آفة العقل ، واللجاج عقيد الهوى ، والبخل لقاح الحرص ، والمراء فساد اللسان ، والحمية سبب الجهل ، والأنف توأم السفه ، والمنافسة أخت العداوة . « فالمعجب بنفسه يزين له عجبه الخطأ فلا يراه خطأ ، والكثير اللجاج كثير العناد فى الدفاع عن هواه ، والبخل يربيه الحرص وينميه حتى يستفحل ويحرم نفسه وغيره مما وهبه الله ، والمراء يستدرج إلى بذاة اللسان ، والحمية إذا استشرت كانت من دلالات الحمق ، والأنف من التسهل فى معاشره الناس يؤدى إلى السفه ، والمنافسة فى حطام الدنيا كثيراً ما تؤدى إلى العداوة بين الآحاد والأمم » .

محتويات المجلد الأول

صفحة

المقدمة :	٣
١ - الاعتراف :	
رسالة المعترف	٢٩
مقدمة المؤلف	٣١
ذكرى الطفولة	٣٣
ظل الطهر	٣٤
ازهار الشباب	٣٥
شعر الألوان والروائح	٣٦
سماء الأمل	٣٧
أحلام الأدباء	٣٩
اطوار العقيدة	٤١
لذات الحياة	٤٤
عشق اصحاب الفنون	٤٦
الاحساس والحياة	٤٧
الغرور	٤٩
الخوف والعي	٥٠
وسائل النجاح	٥١
الحياء والوحشة	٥٣
الحياة والرحمة	٥٥
ضعف العزيمة	٥٦
سلطان القضاء	٥٨

٦٠	خواطر الانتحار
٦٢	العجب والبأس
٦٣	الكذب
٦٥	الخوف والوهم
٦٧	سوء الظن
٦٩	الفرع من التهم
٧٠	الحذر
٧١	الخوف والرحمة
٧٣	داء الضمير
٧٤	المجرمون والأبرياء
٧٥	أمواج النفس
٧٦	الأبد فى دقيقة
٧٧	جنون الأمنانى
٧٨	الضاحك الباكى
٧٩	عبث الفكر
٨٠	طعم الذل
٨٢	سخر القضاء
٨٣	الإنسان والكون
٨٤	بقاء النوع وسعادة الفرد
٨٦	ظل الموت
٨٧	خاتمة المؤلف
		٢ - حديث إبليس :
٩٣	مقدمة وإيضاح
٩٥	حجة إبليس

٩٧	نصيحة ابليس
٩٩	فلسفة للبيع
١٠١	رقص الضمائر
١٠٣	الإنسان والبهائم
١٠٦	الفلسفة والبطن
١٠٨	مناظر الشقاء
١١٠	طرق الانتحار
١١٢	الجحيم
١١٥	اختراع التقبيل
١١٧	أيام الهدنة
١١٩	ثياب الكائنات
١٢٠	دولة البغال
١٢١	مؤتمر الحيوانات
١٢٥	آية المسخ
١٢٧	الفضيلة والرذيلة
١٢٨	السعادة
١٣٠	الخير والشر
١٣١	طبيعة الإنسان
١٣٢	عظم الوجود
١٣٤	حكم وأمثال من شعر المؤلف

٣ - كتاب الثمرات :

١٥٩	أحلام الشباب
١٦٢	الذكر والأمانى
١٦٥	وقع الأقدام

١٦٨	الضحك والبكاء
١٧٠	نظر الشاعر إلى الطبيعة
١٧٤	رسول الأمل
١٧٦	الإيمان بالحياة
١٨٠	الذوق
١٨٣	رداء ولا رداء
١٨٦	تقديس النجاح
١٨٩	الحياة واليأس
١٩٣	أغلاط الحقائق
١٩٩	المثل الأعلى
٢٠٢	الصفيف
٢٠٥	جنة الأدباء
٢٠٩	قتلى المظاهر
٢١٢	عصور الانتقال
٢١٥	على ظهر البحر
	٤ - كتاب الصحائف :
٢٢١	الحياة الجلية
٢٢٥	الغفلة واليقظة
٢٢٧	الحياة وسيلة
٢٢٩	أساس الفرائض
٢٣٢	هبة الحياة وهبة الموت
٢٣٥	عبادة القوة
٢٤٠	حكم القوة
٢٤٢	وسائل القضاء

٢٤٦ أكاذيب الحياة

٢٥٢ ضحايا الحياة

٢٥٥ أكاذيب العشرة

٥ - نظرات فى النفس والحياة :

٢٦٣ لاروشفوكولد - ليوباردى - شوينهور (١)

٢٦٤ من نظرات لاروشفوكولد

٢٦٧ من نظرات ليوباردى

٢٦٩ من نرات شوينهور

٢٧٢ من نظرات لاروشفوكولد (٢)

٢٧٤ من نظرات ليوباردى

٢٧٦ من نظرات شوينهور

٢٨٠ خاتمة آراء لاروشفوكولد مع الشرح (٣)

٢٨٧ من نظرات تشسترفيلد (٤)

٢٩٤ من نظرات أناتول فرانس (٥)

٣٠٢ تكملة نظرات أناتول فرانس (٦)

٣٠٩ خاتمة نظرات أناتول فرانس (٧)

٣١٦ نظرات مارسيل بروست (٨)

٣٢٤ تكملة نظرات مارسيل بروست (٩)

٣٣٢ نظرات ميشيل مونتاني (١٠)

٣٤٢ نظرات لابرير (١١)

٣٤٩ نظرات لورد بيكون (١٢)

٣٥٨ نظرات جوناثان سويفت (١٣)

٣٦٧ نظرات جورج أليوت سويفت (١٤)

٣٨٣ تكملة نظرات جورج أليوت سويفت (١٥)

٣٨٣.....	نظرات جوتا ، أو (جيتا) (١٦)
٣٩٤	تكملة نظرات جوتا (١٧)
٤٠٢	تتمة نظرات جوتا (١٨)
٤٠٧	تتمة نظرات جوتا (١٩)
٤١١	تتمة نظرات جوتا (٢٠)
٤١٤	تتمة نظرات جوتا (٢١)
٤١٧	جوتا بين الفرد والعالم - الخاتمة (٢٢)
٤٢٤	نظرات ثاكري (٢٣)
٤٢٨	نظرات ثاكري (٢٤)
٤٣٢	نظرات بلزاك (٢٥)
٤٣٧	تكملة نظرات بلزاك (٢٦)
٤٤١	نظرات هازلت (٢٧)
٤٤٩	نظرات السير أرثر هلبس (٢٨)
٤٥٣	تابع نظرات السير أرثر هلبس (٢٩)
٤٥٦	تتمة نظرات السير أرثر هلبس (٣٠)
٤٥٩	نظرات ابن المقفع (٣١)
٤٦٣	تتمة نظرات ابن المقفع (٣٢)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠٤٥٤ / ١٩٩٨

الترقيم الدولي (0 - 044 - 305 - 977 I. S. B. N)